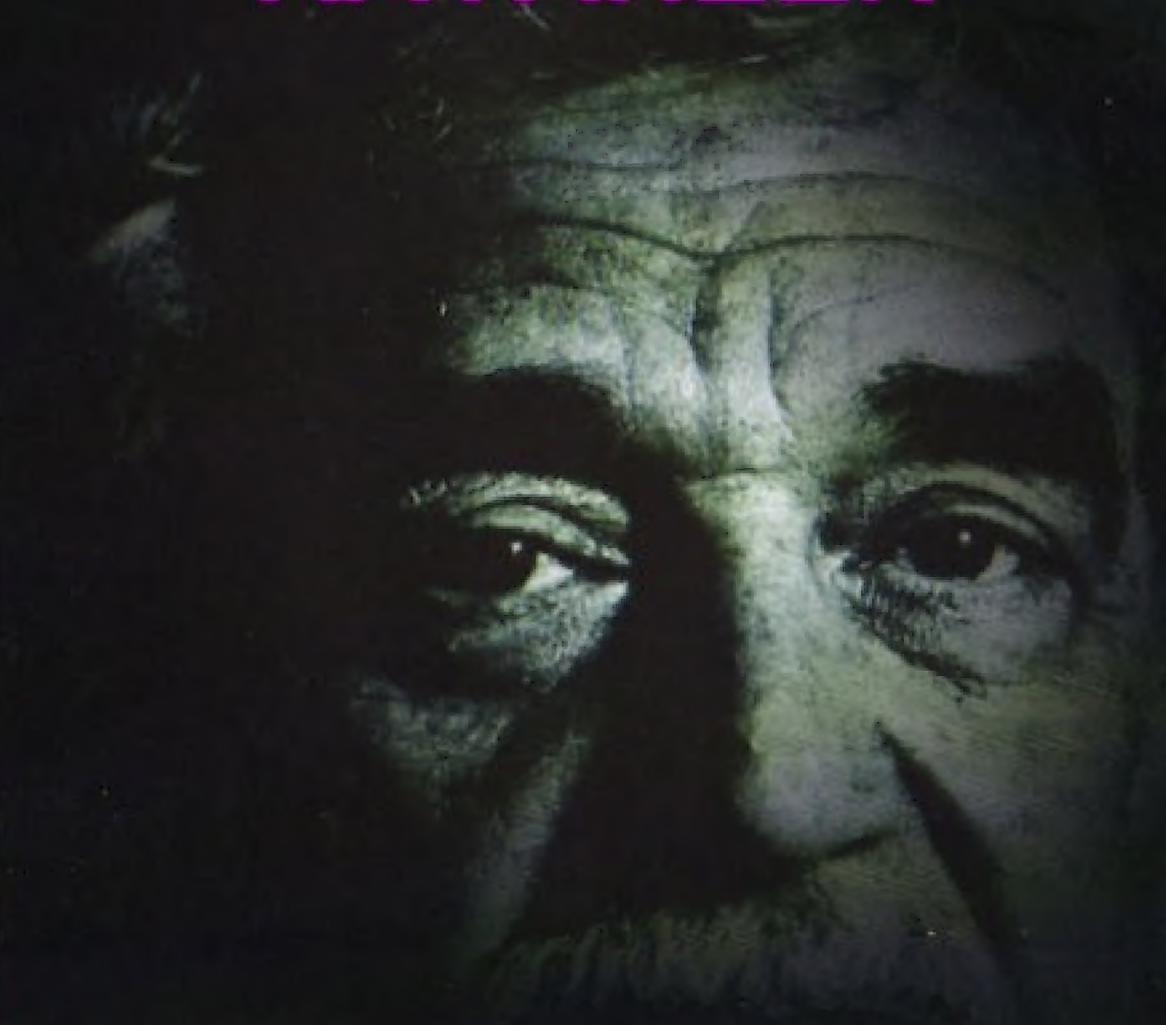


غابريل غارسيا ماركيز

عشت لأروي

www.liilas.com/vb3

^RAYAHEEN^



ترجمة: صالح علماني

إلى ماريّا

الحياة ليست ما يعيشه أحدنا ،
وإنما هي ما يتذكره ، وكيف يتذكره ليرويه .

طلبت مني أمي أن أرافقها من أجل بيع البيت. كانت قد وصلت في ذلك الصباح إلى بارانكيًا قادمة من القرية الثانية حيث تعيش الأسرة، دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن كيفية العثور عليّ. فراحت تسأل هنا وهناك بين المعارف، فأشاروا عليها بأن تبحث عني في مكتبة "موندو" أو في المقاهي المجاورة، حيث أذهب مرتين في اليوم لتبادل الحديث مع أصدقائي الكتاب. ومن أخبرها بذلك حذرًا قائلاً: "كوني متيقظة، لأنهم مجانين تمامًا". وصلت في الثانية عشرة تمامًا. شقت طريقها بمشيتها الخفيفة بين مناضد الكتب المعروضة، ووقفت أمامي، تنظر إلى عيني مباشرة بابتسامة مأكرة من ابتسامات أفضل أيامها، وقالت لي قبل أن أتمكن من الإتيان بأي رد فعل: أنا أمك.

ثمة شيء قد تغيرَ فيها منعتني من التعرف عليها للوهلة الأولى. كانت في الخامسة والأربعين. وإذا ما أضفنا إلى سنوات عمرها ولاداتها الإحدى عشرة، تكون قد أمضت عشر سنوات تقريباً وهي حبلى، ومثلها على الأقل وهي تُرضع أبناءها. كانت قد شابت تمامًا قبل الأوان، وبدت عيناها كبيرتين جداً وذاهلتين وراء نظارتها الأولى ثنائية البؤرة، وهي

تلتزم جداداً كاملاً وجدياً على موت أمها، ولكنها ما زالت تحتفظ بالجمال الروماني الذي تبدو عليه في صورة من حفل زفافها، وقد اكتسبت الآن جلال نسمة خريفية. قالت لي قبل أي شيء آخر، وحتى قبل أن تعانقتي، بأسلوبها الاحتفالي المعهود:

- جئتُ أطلب منك معروفاً بمرافقتي لبيع البيت.

ولم تكن مضطرة لأن تقول أي بيت هو، ولا أين، لأنه لم يكن لنا سوى بيت واحد في هذا العالم: بيت الجدين القديم في أراكاتاكا، الذي حالقني الحظ بالولادة فيه، ولم أعد للعيش هناك منذ بلوغي السنة الثامنة من عمري. كنتُ آنذاك قد هجرت كلية الحقوق بعد ستة فصول دراسية، أمضيتها، قبل أي شيء آخر، في قراءة كل ما يقع تحت يدي، وفي ترديد أشعار العصر الذهبي الإسباني الفريدة من الذاكرة. كنت قد قرأت، مترجمة وفي طبعات مستعارة، كل الكتب التي تكلفني لتعلم تقنية قص الروايات؛ وكنت قد نشرت ست قصص قصيرة في ملاحق صحفية، استحقت حماس أصدقائي واهتمام بعض النقاد. وكنت سأكمل الثالثة والعشرين من عمري في الشهر التالي؛ وكنت متخلفاً عن الخدمة العسكرية، ومُجرماً في حالتي سيلان زهري، وأدخن كل يوم، دون هواجس، ستين سيجارة من صنف تيغ رهيب، وأقضي بطالتي بالتناوب بين بارانكيّا وكارتخيّا دي إندياس، على ساحل الكاريبي الكولومبي، بالبقاء حياً على أحسن وجه بما يدفعونه لي مقابل ملاحظاتي الصحفية اليومية في جريدة "الهيرالدو"، وهو أقل من لا شيء تقريباً، وأنا مع أفضل رفقة ممكنة حيثما يفاجتني الليل. وكما لو أن عدم اليقين بأمر طموحاتي وفوضى حياتي لم يكونا كافيين، فقد كنا نعدّ العدة، أنا

وجماعة من الأصدقاء الحميمين، لإصدار مجلة جريئة، ودون موارد، خطط ألفونسو فوينتاوير لها منذ ثلاث سنوات، ما الذي يمكنني أن أرغب فيه أكثر من ذلك؟

وسلب القلة، أكثر مما هو بدافع الإعجاب، سبقتُ الموضة بعشرين سنة: شارب كشيف خشن، وشعر مشعث، بنظال رعاة بقر، وقمصان مزركشة بأزهار غير مناسبة، وصندل حاج. وفي ظلمة إحدى دور السينما، كان أحد أصدقاء ذلك الزمن يقول لأحدهم، دون أن يدري أنني قريب منه: "يا لغاييتو المسكين، إنه حالة ميشوس منها". وهكذا، حين طلبت مني أمي أن أذهب معها لبيع البيت لم أجد أي عائق يمنعني من أن أقول لها نعم. أخبرتني أنها لا تقلق ما يكفي من النقود، فقلتُ لها، بدافع الكرامة، إنني سأتولى دفع نفقاتي.

لم يكن ممكناً حلّ الأمر في الصحيفة التي أعمل فيها. فقد كانوا يدفعون لي ثلاثة بيزوات مقابل زاويتي اليومية وأربعة بيزوات عن كل افتتاحية أكتبها، حين يتغيب أحد المحررين الشاهنين. ولكن ذلك كان يكاد لا يكفيني. حاولت الحصول على سلفة، غير أن المدير ذكرني بأن ديوني الأصلية تزيد على خمسين بيزو. وفي ذلك المساء اقترفت تجاوزاً لا يمكن لأي واحد من أصدقائي أن يُقدم عليه؛ فعند مخرج مقهى كولومبيا، الملاصق للمكتبة، التقيت بدون رامون فينيّس، المعلم والمكتبي الكتلائي العجوز، وطلبت منه عشرة بيزوات ديناً. فكان لديه ستة فقط. لم يكن بإمكان أمي ولا بإمكانني طبعاً، أن نتصور، مجرد تصور، أن تلك الرحلة البريئة التي استمرت يومين فقط، ستكون حاسمة إلى ذلك الحد بالنسبة لي، حتى إنه لا يمكن لأطول حياة وأكثرها اجتهداً، أن

تكون كافية لروايتها. والآن، وقد تجاوزت الخامسة والسبعين، أعرف أن ذلك القرار كان الأهم بين كل القرارات التي توجب عليّ اتخاذها في حياتي ككاتب. هذا يعني: في حياتي كلها.

حتى سن المراهقة، يكون اهتمام الذاكرة منصباً على المستقبل، أكثر من الماضي. ولهذا لم يكن الحنين قد حول ذكرياتي عن القرية إلى المثالية. كنت أتذكرها مثلما كانت عليه: مكان جيد للعيش، حيث يعرف الجميع بعضهم بعضاً، على ضفة نهر ذي مياه صافية تنساب فوق فرشة من حصى مصقولة، بيضاء، وكبيرة مثل بيوض خرافية. وعند الغروب، وخاصة في شهر كانون الأول، بعد أن تنقضي الأمطار ويصير الهواء ألماًساً، تبدو سلسلة جبال سييرا نيغادا في سائنا مارتا كأنها تدنو بقمعها البيضاء، حتى مزارع الموز على الضفة المقابلة. ومن هناك يظهر الهنود الأروهاكون مهولون في أرتال غل على دروب سلسلة الجبال الضيقة، وهم يحملون أكياس الزنجبيل على كواهلهم، ويمضون كرات من أوراق الكوكا، ليحملوا الحياة. وكنا نحن الأطفال نعلم آنذاك بأن نصنع كرات من تلك الثلوج الدائمة، وبأن نلعب لعبة الحرب في الشوارع الملتهبة. لقد كان الحر غير معقول، ولا سيما خلال القيلولة، إلى حد أن الكبار يشكون منه كما لو أنه مفاجأة جديدة في كل يوم. كنت أسمع منذ مولدي، باستمرار ودون هوادة، أن خط سكة الحديد ومعسكرات اليونايته فروت كومباني بُنيت في الليل، لأنه من المستحيل إمساك المعدات المعدنية المسخنة تحت الشمس.

الطريقة الوحيدة للوصول إلى أراكاتاكا، للقادم من بارانكيا، هي في مركب مخلع ذي محرك، عبر ممر مائي حفرته أذرع العبيد في العهد

الاستعماري، ثم بعد ذلك عبر مستنقع فسيح، مياهه عكرة وكثيرة، حتى بلوغ بلدة ثيناجا الغامضة. ومن هناك يركب القطار العادي الذي كان، في أيام عزه، الأفضل في البلاد، وفيه تُقطع المسافة الأخيرة عبر مزارع الموز الشاسعة، مع مواقف كثيرة عابرة في ضياع معمرة وملتهبة، ومحطات متوحدة. كان هذا هو الطريق الذي انطلقنا فيه أنا وأمي في الساعة السابعة ليلاً من يوم السبت، الثامن عشر من شباط سنة ١٩٥٠ - عشية الكرنفال - تحت وابل طوفاني في غير أوانه، ودون أن يكون معنا سوى اثنين وثلاثين بيزو نقداً تكفيننا بمشقة للعودة إذا لم يُبع البيت في الظروف المتوقعة.

كانت رياح الصايبات الشمالية قوية جداً في تلك الليلة، فتكلفتُ جهداً كبيراً في المرسى النهرى لإقناع أُمّي بالصعود إلى المركب. وقد كانت على حق. فتلك المراكب هي تقليد مُصَغَّر لسفن نيو أورليانز البخارية، ولكن بمحركات تعمل بالبنزين، تبعث رجفة حمى خبيثة في كل من هو على متنها. وكانت في المركب قاعة صغيرة فيها حلقات من الحبال على مستويات متعددة، لتعليق أراجيح النوم، ومقاعد خشبية يمكن لكل واحد أن يرتاح عليها، مزاحماً بالناكب، كيفما يستطيع مع أمتعته المفرطة، وحزم البضائع، وأقفاص الدجاج، وحتى الخنازير الحية. وكان هناك عدد ضئيل من القمرات الخائفة، في كل واحدة منها سريران عسكريان، وتشغل تلك القمرات، على الدوام تقريباً، عاهرات بائسات يرثنى لهن، يقدمن خدمات مستعجلة خلال الرحلة. وبما أننا لم نجد في نهاية الأمر أي قسرة فارغة، ولم نكن نحمل كذلك أراجيح نوم، فقد هجمنا، أنا وأمي، على كرسيين معدنيين في الممر الأوسط، ونهيننا لقضاء الليل هناك.

ومثلما حدثت أمي، فقد ضربت العاصفة المركب المنهور بينما نحن نعبّر نهر مجدلينا، الذي يتحول إلى مزاج مخيف عند مصبه. كنت قد اشترت في المرفأ مؤونة جيدة من أرخص أصناف السجائر، مصنوعة من تبغ أسود، وبورق ينقصه القليل ليصبح أسمر. وبدأت أدخن على طريقي آنذاك، بإشعال سيجارة من عقب أخرى، بينما أنا أعيد قراءة رواية ويليم فوكنر "تور في آب". وكان فوكنر آنذاك أوفى شباطيني الأوصياء. تشبثت أمي بمسبختها، وكأنها تتمسك بملفاف راقعة رحوية يمكنها أن تسحب جراراً أو أن تحمل طائرة في الجو. وكما هي عاداتها، لم تطلب شيئاً لنفسها، وإنما الازدهار والحياة المديدة لأيتامها الأحد عشر. ولا بد أن صلاتها قد وصلت إلى حيث يجب أن تصل. لأن المطر تحول إلى الوداعة، عندما دخلنا القنال. وتحرك الهواء بخفة تكفي فقط لإبعاد اليعوض. خبأت أمي عندئذ المسبحة وراحت تراقب، مطولاً ويصمت، جلبه الحياة التي تدور في ما حولنا.

كانت قد ولدت في بيت متواضع، ولكنها ترعرعت في الازدهار العابر الذي وفرته شركة الموز. وقد بقي لها من كل ذلك، على الأقل، الثرية الجيدة التي تلققتها كطفلة غنية في مدرسة تقدمية العذراء المقدسة، في سانثا مارتا. وكانت، خلال عطلات عيد الميلاد، تبرز على الطارة مع صديقاتها، وتعزف على الكلافيكورد في الأسواق الخيرية، ويحضر مع عممة مراهقة، أشد حفلات الرقص انتقائية من تلك التي تقيمها الأرستقراطية المحلية الورعة. ولكن أحداً لم يكن يعرف لها أي خطيب عندما تزوجت، رغم إرادة أبويها، من عامل التلفراف في القرية. وكانت أبرز مزاياها منذ ذلك الحين هي حس السخرية والصحة الحديدية

التي لم تستطع مكابد الرزايا والشدائد أن تهزمها خلال حياتها المديدة. أما أكثر مزاياها مفاجأة، وأقلها منذ ذلك الحين إثارة للشبهة أيضاً، فهي موهبة رقتها التي أتاحت لها إخفاء قوة طبيعتها الرهيب: إنها برج أسد مكتمل. وقد وفر لها ذلك فرض سلطة أمومية تصل سيطرتها إلى أبعد الأقارب المقيمين في أماكن لا تخطر على بال، مثل نظام كوكبي تتحكم به من مطبخها، بصوت خافت، ودون أن يرف لها جفن تقريباً. بينما هي تسلق قدر فاصوليا.

لدى رؤيتها تتحمل تلك الرحلة القاسية، دون أن يطرأ عليها أي تبدل، تسألت كيف استطاعت الإذعان لمظالم الفقر بكل تلك السرعة، وكل ذلك التحكم بالنفس. ولم يكن هناك مثل تلك الليلة للتأكد من ذلك. فاليعوض الضاري، والحر الكثيف المقزز، بسبب وحل القنوات الذي كان المركب يحركه في سروره، وجلبه المسافرين المؤرقين الذين لا يجدون راحة ضمن جلودهم. كان كل شيء يبدو وكأنه معدّ عمداً لزعزعة أشد الطباع فولذة. كانت أمي تتحمل كل ذلك، وهي ثابتة في كرسيها. بينما فتيات الاستئجار يجنين حصاد كرنفال في القمرات القريبة، متنكرات كرجال أو "مانولات"^(١). كانت إحداهن قد دخلت وخرجت من قمرتها عدة مرات، وفي كل مرة مع زبون مختلف، بجوار مقعد أمي بالضبط. وقد ظننت أنها لم تلاحظ ذلك. ولكنها بعد المرة الرابعة أو الخامسة لدخول الفتاة وخروجها، لاحقتها بنظرة رثاء حتى نهاية المساء، وتنهدت قائلة:

(١) مانولا manola: مينة تلاعب باسم مانويلا الشائع، وهي تسمية كانت تُطلق في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، على نساء بعض الأحياء الشعبية اللواتي يرتدين ملابس تتميز بالتأنق. وتحول استخدام الكلمة فيما بعد لتصبح تسمية مهذبة، مع لمسة سخرية، للمعاهرات.

- يا للفتيات البائسات! ما عليهن عمله لكي يعشن أسوأ من الشغل، بقيت أمي على تلك الحال حتى منتصف الليل، عندما تعبت من القراءة مع الاهتزاز الذي لا يطاق وشع أنوار الممر، فجلست أدخن بجانبها، محاولاً الخروج من ورطة زمال كونتية بوكناياتافا^(١). كنت قد هجرت الجامعة في السنة السابقة، معللاً النفس بالوهم الجري. في العيش من الصحافة والأدب دون حاجة إلى تعلمهما، متحمساً لعبارة أظن أنني قرأتها لبرنارد شو: "منذ طفولتي المبكرة اضطررت إلى قطع تعليمي لكي أذهب إلى المدرسة". ولم أجرؤ على مناقشة الأمر مع أحد، لأنني كنت أشعر، دون أن أتمكن من تفسير ذلك، بأن مسوغاتي لن تكون نافعة إلا لي أنا بالذات.

محاولة إقناع أبوي بمثل ذلك التصرف الجنوني، بعد أن عقدا عليّ آمالاً كبيرة وأنفقا نقوداً كثيرة لم يكونا يملكانها، هو إضاعة للوقت. ولا سيما أبي الذي يمكن له أن يغفر لي أي شيء، باستثناء عدم تعليق شهادة جامعية، لم يستطع هو الحصول عليها، على الجدار. انقطع الاتصال بيننا. وبعد مرور سنة تقريباً، كنت ما أزال أفكر في زيارته لأقدم له مبرراتي، عندما ظهرت أمي لتطلب مني مراقبتها لبيع البيت. ومع ذلك، لم تأت هي على أي ذكر للمسألة إلى ما بعد منتصف الليل، في المركب، عندما أحست، كوحى خارق، بأنها وجدت أخيراً الفرصة المناسبة لتقول لي ما كان، دون ريب، السبب الحقيقي لرحلتها. وبدأت بالطريقة والثيرة والكلمات الموزونة بدقة، والتي لا بد أنها قد أنضجتها في وحدة أرقها، قبل وقت طويل من بدنها الرحلة.

(١) المكان الذي تدور فيه أحداث رواية فوكتر "نور في أب".

- أبوك حزين جداً - قالت.

ها هو ذا إذاً الجحيم المرهوب، بدأت كمعادتها، في وقت لا يخطر على بال، وبصوت هادئ لا يمكن لأي شيء أن يبدله، لمجرد أن تستكمل الطقوس، لأنها كانت تعرف جوابي جيداً، فسألتها:

- ولماذا هو حزين؟

- لأنك تركت الدراسة.

- لم أتركها - قلت لها - وإنما غيرت الدراسة فقط.

- أبوك يقول إنه الشيء نفسه.

- فقلت لها، وأنا أعرف أن ما أقوله زائف:

- وهو نفسه ترك الدراسة أيضاً ليعزف الكمان.

- الأمر ليس بمثللاً - ردت بحدة كبيرة - لقد كان يعزف الكمان

في الحفلات والسيرنادات فقط، وإذا كان قد ترك دراسته، فلأنه لم يكن يملك ما يأكله. ولكنه في أقل من شهر، تعلم مهنة التلغراف، وهي مهنة جيدة آنذاك، ولا سيما في أراكاتاكا.

- وأنا أيضاً أعيش من الكتابة للصحف - قلت لها.

- أنت تقول هذا كي لا تعذبنني. ولكن سوء حالك يظهر عليك من بعيد.

- وأنا أيضاً لم أتعرف عليك عندما رأيتك في المكتبة.

- وأنا أيضاً لم أتعرف عليك.

- ولكن ليس للسبب نفسه. لقد ظننت أنك متسول صدقات.

- ونظرت إلى صندلي، وأضافت: - ودون جورب.

- فقلت لها:

- هذا مريح أكثر. قميصان وسروالان داخليان؛ وأخذ أرتديه وآخر

يجف. ما الذي أحتاجه أكثر من هذا؟

- قليل من الكرامة - قالت هي. ولكنها لطفت ذلك على الفور
ببيرة أخرى: - أقول لك هذا لأننا نحبك كثيراً.

- أعرف ذلك. ولكن أخبريني، لو أنك مكاني، أما كنت ستفعلين
الشيء نفسه؟

- ما كنت لأفعله - قالت - إذا كنت سأخالف أبوي بذلك.
تذكرتُ عنادها الذي تمكنت به من كسر معارضة أسرتها للزواج،
فقلت لها ضاحكاً:

- تجرّني على النظر في عيني.
ولكنها تحاشتني بجدية، لأنها كانت تعرف تماماً ما الذي أفكر
فيه. وقالت:

- لم أتزوج إلا بعد أن حصلتُ على مباركة أبوي. بالقوة، أجل،
ولكنني حصلت عليها.

قطعتُ النقاش، ليس لأن حججي أقنعته، وإنما لأنها أرادت
الذهاب إلى المراض وهي لا تثق بظروفه الصحية. فتحدثتُ إلى معاون
الربان، لأسأله إذا ما كان هناك مكان أكثر نظافة، لكنه أوضح لي أنه
هو نفسه يستخدم المراض العمومي. ثم قال، كما لو أنه قد انتهى توأ
من قراءة كوتراد: "جميعنا متساوون في البحر". وهكذا خضعتُ أمي
إلى قانون الجميع. وعندما خرجت، وعلى عكس ما كنتُ أخشاه، لم
تستطع منع نفسها من الضحك إلا بصعوبة وهي تقول لي:

- تصور، ما الذي سيظنه أبوك بي إذا ما رجعت إليه مصابة بأحد
أمراض الحياة الحبيثة؟

بعد انقضاء منتصف الليل، تعرضنا لتأخير دام ثلاث ساعات، ذلك

أن تشابك الزنبيقيات والأعشاب المائية في القنال عطل مراوح الدفع،
فحاد المركب إلى منبت أشجار مانغي وكان على مسافرين كثيرين أن
يسحبوه من الضفاف، بحبال أراجيح النوم. صار الحر والبعوض لا
بظاقان. ولكن أمي تخلصت منهما، بوميض إغفاءات آنية ومشقطة.
وهي حالة مشهورة في الأسرة، أتاحت لها الاستراحة دون أن تفقد خيط
المحادثة. وعندما استؤنفت الرحلة وهبت النسمة الباردة، استعادت
صحتها كاملاً. وتنهدت:

- لا بد لي، على كل حال، من أن أحمل جواباً إلى أبيك.
فقلتُ لها بالبراءة نفسها:

- من الأفضل ألا تقلقي. في شهر كانون الأول سأذهب بنفسي،
وعندئذ سأوضح له كل شيء.

- ما زالت هناك عشرة شهور.
- لا يمكن في نهاية المطاف إصلاح أي شيء بشأن الجامعة هذه

السنة - قلتُ لها.
- هل تعني حقاً أنك ستذهب؟

- أعذك - قلتُ لها، ولحنتُ لأول مرة، شيئاً من الجزع في صوتها:
- هل يمكنني أن أقول لأبيك إنك ستقول له نعم؟

فأجبتها بحزم:
- لا، هذا لا.

بدا جلياً أنها تبحث عن مخرج آخر. ولكنني لم أمنحها إياه.
- من الأفضل إذاً أن أقول له الحقيقة كلها منذ الآن. وهكذا لن

يبدو أن هناك خدعة.

فقلت لها براحة: ^(١) - حسناً، أخبريه. ولكنني كنت أعرف أنها مجرد هدنة لاستعادة الأنفاس. بعد قليل نامت بعمق. هبت نسمة خفيفة أبعدت البعوض وأفعمت الهواء الجديد برائحة أزهار. وعندئذ اكتسب المركب رشاقة سفينة سراعية.

كنا في ثيناغا غراندي ^(٢) (المستنقع الكبير)، وهو أسطورة أخرى من أساطير طفولتي. فقد أبهرت فيه عدة مرات، عندما كان جدي الكولونيل نيكولاس ريكاردو ماركيز ميخيا - الذي كنا، نحن أحفاده، نسعيه باباليلو - يأخذني من أراكاتاكا إلى بارانكيا لزيارة أبيي. "يجب عدم الخوف من الثيناغا (المستنقع)، وإنما احترامه"، كان قد قال لي، متحدثاً عن نزوات ميابه غير المتوقعة، فهي قد تتصرف مثل مستنقع راكد أو مثل محيط هائج. في فصل الأمطار يكون تحت رحمة عواصف سلسلة الجبال. ومنذ كانون الأول حتى نيسان، عندما يفترض أن يكون الطقس هادئاً، تفسده الروائح الكريهة وريح الشمال بهبات قوية، تجعل كل ليلة فيه مغامرة. لم تكن جدتي لامي، ترانكيلينا إغواران - مينا - تتجراً على اجتيازها، إلا في الحالات المستعجلة والطائرة الكبرى، بعد ما حدث، إثر رحلة مرعبة اضطروا خلالها إلى البحث عن ملجأ حتى الفجر في مصب نهر ريوفريو.

(١) Ciénaga Grande نوع من البحيرات أو المستنقعات الشاطئية، تتشكل في المنطقة المعروفة باسم ثيناغاس، تفصلها عن البحر كتيان رملية ضيقة.

لحسن الحظ أن المستنقع كان هادئاً في تلك الليلة. فمن نوافذ مقدمة المركب، حيث خرجت للتنفس، قبل الفجر بقليل، كنت أرى أنوار مراكب الصيد التي لا يحصى عددها، تطفو مثل نجوم على سطح الماء. وكان الصيادون غير المرتين يتبادلون الحديث كما في الزيارات، إذ كان للأصوات وقع خاص في جو الثيناغا. وبينما أنا متكئ على الحاجز، أحاول أن أتبين شبح سلسلة الجبال، فجأتنني، على حين غرة، ضربة مغلب الحنين الأولى.

في فجر يوم آخر مثل هذا، بينما كنت أجتاز ثيناغا غراندي، تركني باباليلو نائماً في القمرة، وذهب إلى حانة المركب. لست أدري كم كانت الساعة، عندما أبقتني جلبة أناس كثير من خلال أزيز المروحة الصدئة واهتزاز صفائح القمرة. لم أكن، على ما أظن، قد تجاوزت الخامسة من عمري. وأحسست برعب شديد، ولكن الهدوء ما لبث أن ساد من جديد، وفكرت في أنه قد يكون حلماً. وفي الصباح، وكنا قد وصلنا مرسى ثيناغا، كان جدي يحلق ذقنه بموسى حلقة، والباب مفتوح والمرأة معلقة في إطاره. الذكرى دقيقة: لم يكن قد ارتدى قميصه بعد، ولكنه كان يضع فوق قميصه الداخلي حمالتى بنطاله المطاطيتين الأهدبتين، العريضتين الموشطتين بخطوط خضراء. وبينما هو يحلق، كان يواصل الحديث مع رجل، ما زال بإمكانني، حتى اليوم، التعرف عليه من النظرة الأولى. كان له بروفيل غراب، لا يمكن الخطأ فيه؛ ووشم بحار على اليد اليمنى، ويعلق حول عنقه عدة سلاسل ذهبية ثقيلة، وأساور وسلاسل أخرى، من الذهب أيضاً، في معصيه كليهما. كنت قد انتهيت من ارتداء ملابسني، وجلست على السرير لأنتعل حذائي، عندما قال الرجل لجدي:

- لا تشك في ذلك أيها الكولونيل. ما كانوا يريدون فعله بك، هو إلقاءك إلى الماء.

فايتم جدي دون أن يتوقف عن الحلاقة، ورد بترفع هو من خصاله الخاصة جداً:

- لحسن حظهم أنهم لم يتجرؤوا،
عندئذ فهتفت فضيحة الليلة السابقة، وأحسنت بالتأثير لفكرة أن هناك من كان يمكن له أن يلقي بجدي إلى البحيرة.

ذكرى هذه الحادثة التي لم تتضح أبداً، فاجأتني في ذلك الصباح الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت، بينما أنا أتأمل تلوج سلسلة الجبال التي تبدو، في الفجر، زرقاء مع أول خيوط الشمس. التأخير في القنوات، أتاح لنا أن نرى في وضع النهار، حاجز الرمال المشعة التي تفصل البحر عن البحيرة، حيث توجد قرى صيادين، الشباك فيها معلقة لتجف على الشاطئ، والأطفال المتسخون والضايمون يلعبون كرة القدم، بكرة من الخرق. كان من المؤثر رؤية صيادين كشيرين في الشوارع، ميسوري الأذرع، لأنهم لم يلقوا قطع الديناميت في الوقت المناسب. ولدى مرور المركب، راح الأطلاق يغوصون في الماء، بحثاً عن القطع النقدية التي يلقي بها المسافرون.

كانت الساعة توشك على بلوغ الساعة، عندما بدأنا الرسو في مستنقع ممتلئ على مقربة من بلدة ثيناغا. تلقفتنا جماعات من الحمالين الغائضين في الوحل حتى ركبهم، وحملونا حتى رصيف المرسى، وسط زحام تسور وخمة تتنازع قفارات المستنقع الموحد. كنا نجلس إلى إحدى مراند المرفأ، نتناول بتمهل، فطوراً من أسماك البحيرة اللذيذة وشرائح

منوز أخضر مقليّة، عندما جددت أمي هجوم حربيها الشخصية. فقالت دون أن ترفع بصرها:

- قل إذن مرة واحدة، ما الذي سأقوله لأبيك؟
حاولت كسب وقت للتفكير.

- حول أي شيء؟

فقالت بشيء من الترقق:

- حول الشيء الوحيد الذي يهمه، دراستك.

وقد حالقني الحظ بوجود زبون قضاولي، مشدود إلى حدة الحوار، أراد أن يعرف مبرراتي. وجواب أمي الفوري لم يخفني قليلاً فقط، وإنما فاجأني إقدامها عليه، وهي الغيرة جداً على حياتها الخاصة. قالت:

- المسألة أنه يريد أن يصير كاتباً.

فردّ الرجل بعجدة:

- يمكن للكاتب الجيد أن يكسب مالاً وقيماً، ولا سيما إذا كان يعمل مع الحكومة.

ولا أدري إذا ما كانت أمي قد محاشت الموضوع بدافع الحذر والتحفظ، أم خوفاً من حجاج محاورها الطوائ، ولكنهما انتهيا إلى التماسي لحالة التردد التي يعيشها أبناء جيلي، وتبادل الحنين إلى الماضي. وأخيراً، جرجرا أسماء معارف مشتركين، وانتهى بهما الأمر إلى اكتشاف أننا أقرباء من ناحيتين، من ناحية آل كوتيس، وناحية آل إغواران. وكان ذلك يحدث لنا في تلك الحقبة، مع كل شخصين من كل ثلاثة أشخاص نلتقي بهم في منطقة ساحل الكاريبي. وكانت أمي تحتفل بذلك في كل مرة، كحدث فريد.

ذهبتا إلى محطة القطار، في عربة من طراز فيكتوريا، يجرها حصان واحد، ربما هو الأخير من سلالة منقرضة في بقية العالم. كانت أمي غضي ساهمة، تنظر إلى السهب القاحل والمشكل بلح البارود الذي يبدأ من محطة المرفأ ويضيع في المدى. لقد كان المكان تاريخياً بالنسبة إليّ: ففي الثالثة أو الرابعة من عمري، في أثناء رحلتي الأولى إلى بارانكيّا، أخذني الجد من يدي، عبر ذلك القفر الملهب، سائراً بسرعة ودون أن يقول لي لماذا. وفجأة وجدنا نفسيّا قبالة امتداد شاسع من الماء الأخضر فيه تجشّرات زبد، ويطفو فيه عالم كامل من الدجاج الغارق. وقال لي:

- هذا هو البحر.

فسألته، وقد خاب أملي، عما يوجد في الضفة الأخرى، فأجابني دون أن يتردد في الأمر:

- في الجانب الآخر، لا توجد ضفة.

اليوم، بعد رؤيتي لبحار كثيرة من الوجه والقفا، ما زلت أفكر بأن ذلك الجواب هو إحدى إجاباته العظيمة. وعلى أي حال، لم يكن أي من تخيلاتي المسبقة، يتفق مع ذلك البحر الوسخ، الذي يستحيل المشي على شاطئه التياراتي، ما بين أغصان أشجار المانغلي المتعقبة وشظايا فئات الأصداف: لقد كان رهيباً.

لا بد أن أمي كانت تحمل الفكرة نفسها عن بحر ثياغا، لأنها، ما إن رأتها يظهر إلى يسار العربة، حتى تنهدت:

- ليس هناك بحر مثل بحر ريوهاتشا!

رويتُ لها، في تلك المناسبة، ذكري عن الدجاجات الغارقة، فيدا

لها ذلك، مثل جميع الكبار، أنه من تهيؤات الطفولة. ثم واصلتُ بعد ذلك تأمل كل مكان نصادفه في طريقنا، وكنتُ أعرف، من تبدلات صمتها، ما الذي تفكر فيه، وهي ترى كل مكان. مررنا قبالة "حي التسامح" على الجهة الأخرى من خط القطار، ببيوته الصغيرة الملونة ذات السقوف الصدفية، وبيغواته الهرمة من باراماريبو التي تدعو الزبائن بالترتالية، من الحلقات المعلقة بأناريز الأسطح. مررنا بمتهل القاطرات، ذي القبة الحديدية الهائلة التي تأوي إلى النوم فيها الطيور المهاجرة والنوارسُ السائبة. مررنا بمحاذاة المدينة، دون أن ندخل إليها، ولكننا رأينا الشوارع الفسيحة والكثيرة، وبيوت الازدهار الغابر، المؤلفة من طابق واحد وذات النوافذ الكبيرة، حيث كانت التمارين على البيانو، تتوالى دون توقف منذ الفجر. وفجأة أشارت أمي بإصبعها، وقالت لي:

- انظر. هناك انتهى العالم.

تابعت الاتجاه الذي أشارت إليه، ورأيت المحطة: بناء من أخشاب متهاككة، بسقف من التوتياء الموج، وشرفات ناتئة، وأمامها مساحة صغيرة مقفلة لا يمكن لها أن تتسع لأكثر من مئتي شخص. لقد قتل الجيش هناك في سنة ١٩٢٨، كما أكدت لي أمي في ذلك اليوم، عدداً لم يتم تحديده قط من عمال مزارع الموز المياميين. وكنتُ أعرف ذلك الحدث، كما لو أنني قد عشت، بعد أن سمعت جدي يحكيه ويكرره ألف مرة، منذ أن صار لي ذاكرة: الضابط يقرأ القرار الذي اعتُبر فيه العمال المضربون عضبة من الأشرار؛ والثلاثة آلاف رجل وامرأة وطفل ظلوا ثابتين في أماكنهم، تحت الشمس الرهيبة، بعد أن منحهم الضابط مهلة خمس دقائق لإخلاء الساحة: أمر إطلاق النار، أزيز زخات الرصاص

المتأججة، أصيب الحشد المحاصر بالهلع، بينما هم يخلصونه شيئاً فشيئاً بمقص الرشاشات المنهجية والنهم.

يصل القطار، عادة إلى نيناغا في التاسعة صباحاً، فيحمل ركاب المركب ومن ينزلون من سلسلة الجبال، ويواصل طريقه، متوغلاً داخل منطقة سزارع الموز، بعد ربع ساعة من ذلك، وصلنا أنا وأمي إلى المحطة، بعد الساعة الثامنة، لكن القطار تأخر. ومع ذلك، فقد كنا الراكبين الوحيدين. وقد انتهت هي إلى ذلك، مذ دخلنا العربة الخاوية، فهتفت بمزاج احتفالي:

- يا للثرف! القطار بكامله لنا وحدنا!

لقد فكرت على الدوام في أنه كان ابتهاجاً مشككاً تواري به خيبة أملها. فصرّوف الزمن كانت بادية للعبان بكل وضوح في حالة العربات. إنها عربات الدرجة الثانية القديمة، ولكن دون مقاعد الخيزران، ودون الزجاج الذي يمكن رفعه وإنزاله في النوافذ، وإنما بمقاعد خشبية دبغتها مؤخرات الفقراء. اللساء والدافئة. وقد بدا القطار بكامله، وليس تلك العربة وحدها، شعباً لنفسه بالمقارنة مع ما كان عليه في الماضي. لقد كانت فيه من قبل ثلاث درجات، الدرجة الثالثة التي يسافر فيها أفقر الناس، وعرباتها هي الأقفاص نفسها، المصنوعة من ألواح خشبية، لنقل الموز أو مواشي الذبح، وقد كُيّفت للمسافرين بمقاعد طولانية من الخشب الخام. والدرجة الثانية، فيها مقاعد من الخيزران وإطارات بروتية. أما الدرجة الأولى التي يسافر فيها أناس الحكومة وكبار موظفي شركة الموز، فهناك سجاد في عمرها ومقاعد فاخرة مغلقة بغطاية حمراء، يمكن تبديل أماكنها. وعندما يسافر مراقب الشركة الأعلى أو أسرته، أو

ضيوفه البارزون، تُشيك في آخر القطار، عربة فاخرة ذات نوافذ من البلور الشمسي وأفاريز مذهبة، وشرفة مكشوفة فيها مناوئد صغيرة من أجل تناول الشاي. أثناء السفر، ولم أتعرف على كائن فاني رأى عربة الأحلام تلك من الداخل. لقد كان جدي عمدة مرتين، ولديه فوق ذلك مفهوم سعيد عن النقود. ولكنه لم يكن يسافر في الدرجة الثانية، إلا إذا كانت يرفقته إحدى نساء الأسرة. وعندما يسألونه لماذا يسافر في الدرجة الثالثة، يجيب: "لأنه لا وجود لرابعة". ومع ذلك، فإن أهم ما يُذكر من القطار، في أزمنة أخرى، هو دقة مواعيده. لساعات القرى كانت تُضبط على صفيره.

في ذلك اليوم، لسبب أو لآخر، انطلق القطار متأخراً ساعة ونصف الساعة. وعندما بدأ انطلاقه، ببطء شديد وصرير كثيب، رسمت أُمي إشارة الصليب. ولكنها عادت على الفور إلى الواقع، وقالت:

- هذا القطار بحاجة إلى زيت في نوابذه.

كنا المسافرين الوحيدين، ربما في القطار كله، ولم يكن هناك حتى تلك اللحظة، أي شيء يشير في اهتماماً حقيقياً. غرقت في سبات "نور في آب"، مدخناً دون توقف، مع نظرات سريعة ألقبها بين حين وآخر للتعرف على الأماكن التي نخلفها وراءنا. اجتاز القطار، بصغير طويل، مستنقعات نيناغا، ودخل بسرعة قصوى في عمر مترجرج من صخور مائلة إلى الحصرة. فصارت قرقعة العربات لا تطاق. ولكن السرعة خفت بعد نحو خمس عشرة دقيقة، ودخل في لهات مكثوم، إلى ظلال برودة المزروع، وصار الطقس أشد كشافاً، وتلاشى الإحساس بنسيم البحر. لم أكن مضطراً إلى قطع القراءة، لأعرف أننا قد دخلنا مملكة مناطق الموز الكثيفة والغامضة.

تبدل العالم. فعلى جانبي سكة الحديد، راحت تمتد دروب المزارع المتناسقة وغير المتناهية، حيث كانت تضي عربات تجرها الجواميس، محملة بقطوف الموز الخضراء. وفجأة، وفي فراغات مياغنة خالية من الزرع، تظهر هناك معسكرات من الأجر الأحمر، ومكاتب لتوافذها زوائد ملحقة، فيها مراوح ذات أذرع معلقة في السقف، ومستشفى متوحد في حقل شقائق نعمان. كل نهر وله قريته وجسره الحديدي، حيث يمر القطار مطلقاً ولولاته، فتقفز الفتيات اللواتي يستحمن في المياه الجليدية، مثل أسماك شابل، لدى مروره، لبشوش المسافرين بنهودهن العابرة.

في قرية ريفريو، صعدت عدة أسر من هنود أروهاكو، محملين بحقائب ظهر مشرعة بشمار الأغواكاتي الجبلية، وهي الأشهى مذاقاً في البلاد. ذرعوا العربة متقافزين في كلا الاتجاهين، باحثين عن مكان يجلسون فيه. ولكن لم يبق في العربة، عندما استأنف القطار سيره، سوى امرأتين بيضاوين، معهما طفل حديث الولادة، وخوري شاب. لم يتوقف الطفل عن البكاء طوال بقية الرحلة. أما الخوري فكان يتعمل حزمة ويعتمر قبعة كشاف. مثل شراع، وكان يتكلم، في الوقت الذي كان فيه الطفل يبكي. ودائماً، كما لو أنه على منبر الكنيسة، وموضوع موعظته هو احتمال عودة شركة الموز. منذ غادرت هذه الشركة لم يكن هناك حديث آخر في المنطقة، وكانت وجهات النظر منقسمة بين من يريدون أن تعود، ومن لا يريدون، ولكن الجميع يعتبرون عودتها أمراً مؤكداً. الخوري كان ضد عودتها، وقد فسر ذلك بسبب شخصي جداً، إلى حد بدا معه جنونياً للمراتين:

- الشركة تخلف الخراب أينما مرت.

كان هذا هو الشيء الأصيل الوحيد الذي قاله. ولكنه لم يتمكن من شرحه. وقد انتهى الأمر بالمرأة التي تحمل الطفل إلى تخلفته، بحجة أنه لا يمكن للرب أن يكون متفقاً معه.

لقد معاً الحنين، كالعادة، الذكريات السيئة، وضخم الطبية. ليس هناك من ينجو من آثاره المخرية. كان الرجال الجالسون عند أبواب بيوتهم، يظهرون من نافذة العربة، وكانت رؤية وجوههم كافية لمعرفة ما ينتظرونه. والغسالات على الشواطئ النثرانية ينظرون إلى مرور القطار بالأمل نفسه. فهم جميعهم يرون في كل غريب يأتي حاملاً حقيبة رجل أعمال، رجل اليونانية فروت كومباني العائد لإعادة إقرار الماضي. في كل لقاء، وفي كل زيارة، وفي كل رسالة، تظل عاجلاً أو آجلاً، الجملة القدسية: "يقولون إن الشركة راجعة". ليس هناك من يعرف من قال ذلك، ولا متى، ولا لماذا قاله! إنما لم يكن هناك من يشك فيه.

كانت أمي تظن أنها قد شفيت من كل دُعر مفاجئ، فبعد موت أبيها قطعت كل علاقة لها بأراكاتاكا. ومع ذلك، كانت أحلامها تخونها. فعلى الأقل، عندما يكون لديها حلم، يهبط كثيراً أن ترويه أثناء الفطور، يكون مرتبطاً دوماً بعينها إلى منطقة الموز، كانت قد تجاوزت بمسقة أقصى قترات حياتها، دون أن تباع البيت، بوهم الحصول، مقابلته، على مبلغ يزيد أربعة أضعاف، عندما ترجع الشركة. وأخيراً هزمها ضغط الواقع الذي لا يطاق. ولكنها حين سمعت الخوري يقول في القطار إن الشركة على وشك الرجوع، أومأت بحركة مكروية، وقالت لي في أذني:

- من المؤسف أننا لا نستطيع الانتظار لوقت آخر قصير، كي تباع البيت بسعر أعلى.

بينما الخوري يتكلم، مررنا، غرضاً، بقرية يجتمع في ساحتها حشد من الناس، وفرقة موسيقية تعزف لحناً مرحاً، تحت الشمس الملتهية. جميع تلك القرى كانت تبدو لي متشابهة على الدوام. وعندما كان باباليلو يأخذني إلى سينما أولمبيا التي يملكها دون أنطونيو داكوتيني، كنتُ ألاحظ أن محطات القطارات، في أفلام رعاة البقر، تشبه محطات قطارنا. وفيما بعد، عندما بدأت بقراءة فوكنر، وجدت أيضاً أن قرى رواياته تبدو ماثلة لقرانا. ولم يكن ذلك مفاجئاً، لأن هذه الأخيرة بُنيت تحت الإشراف المخلص لليونايتد فروت كومباني. وبأسلوبها المؤقت نفسه، في بناء معسكرات عابرة. إنني أتذكر تلك القرى جميعها، يكتسبها التي في الساحة، ويوتها الصغيرة، كما في قصص الخوريات، المطلوبة بألوان أولية. أتذكر فرق المياومين السود، وهم يغنون عند الغروب، وغالبونات^(١) المزارع، حيث يجلس العمال لرقية مرور قطارات الشحن، والحدود بين المزارع، حيث كان يطلع الصباح على عمال القطاف ينجال التشيشي مقطوعي الرؤوس في عريقات السكر. أيام السبت، أتذكر المدن الخاصة بالغرينغين في آراكاتاكا، وفي سيبيا، على الجانب الآخر من سكة الحديد، مسيجة بشباك معدنية كأنها أفقاص دجاج هائلة مكهربة، يطلع عليها الصباح في أيام الصيف الباردة وقد اسودت بعصائير السنونو المحروقة. أتذكر مروجها البطينة المزروعة بالطواويس وطيور السماني، ومساكنها ذات البتوف الحمراء والتوافل المشبكة، والمناضد المستديرة، مع كراسي قابلة للطي من أجل تناول

(١) غالون (Gallon) : غير كبير حيث العبد في المزارع، وقد يكون مقولاً فقط. ودون جدران في أغلب الأحيان.

الطعام على الشرفة، بين أشجار نخيل وشجيرات ورد معطرة. وأحياناً، تظهر من خلال سياج الأسلاك، نساء جميلات وضامرات، بفساتين من المولدين وقبعات كبيرة من الشف، يقطفن أزهار حدائقهن بمقصات ذهبية.

هذه طفولتي، لم يكن سهلاً تمييز بعض القرى عن غيرها. وبعد مرور عشرين سنة، كان الأمر أصعب؛ فقد سقطت، عن يوابات المحطات، الملوحات الخشبية التي تحمل الأسماء الشاعرية - توكوريشكا، غاماتشيو، نيرلانديا، غواكامايال - وجميعها كانت أكثر وحشة وخبأياً مما هي عليه في الذاكرة. توقف القطار في سيبيا في حوالي الحادية عشرة والنصف صباحاً، لاستبدال القاطرة والتزود بالماء، خلال خمس عشرة دقيقة بدت لانهائية. وهناك بدأ الحر. وعندما تجدد المسير، كانت القاطرة الجديدة تقذفنا عند كل متعطف بدفقة من هباب الفحم، تدخل من النافذة التي لا زجاج لها، وتغطيها بثلج أسود. كان الخوري والمرأتان قد نزلوا في إحدى القرى، دون أن ننسبه إلى نزولهم، فزاد ذلك من إحساسي بأنني أنا وأمي نساقر وحيدين في قطار لا أحد. وبينما هي جالسة قبالي، تنظر من النافذة، أزاحت عنها إغفاًتين أو ثلاثاً، ولكنها تنشطت فجأة، وأفلتت مرة أخرى السؤال المربوب:

- والآن، ما الذي سأقوله لأبيك؟

كنت أفكر في أنها لن تستسلم أبداً، وستواصل البحث عن خاصرة ضعيفة تكسر من خلالها قرارها. كانت قبل قليل من ذلك قد اقترحت بعض صيغ الالتزام التي استبعدتها دون تقديم حجج. ولكنني كنت أعرف أن تراجعها لن يكون طويلاً. ومع ذلك، فقد أخذتني على حين غرة

في هذه المحاولة الجديدة. فأجبتها يهدو - أكبر من المرات السابقة، وأنا أعد نفسي لمعركة عقيدة أخرى؛

- تولي له إن الشيء الوحيد الذي أريده في الحياة، هو أن أكون كاتباً. وسوف أصير كذلك.

فقلت:

- هو لا يعترض على أن تكون ما تشاء، على أن تنال شهادة في أي شيء.

كانت تتكلم دون أن تنظر إليّ، متظاهرة بأنها مهتمة بمحادثتنا، أقل من اهتمامها بالحياة التي تمر من خلال النافذة.

- لا أدري لماذا تلحين إلى هذا الحد، مع أنك تعرفين جيداً أنني لن أستسلم - قلت لها.

فنظرت إلى عيني على الفور وسألتنني سبهرة:

- ولماذا تظن أنني أعرف؟

- لأننا أنا وأنت مشابهان.

توقفت القطار في محطة دون قرية. وبعد قليل من ذلك، صرّ قبالة مزرعة الموز الوحيدة على الطريق التي يظهر اسمها مكتوباً على البوابة:

ماكوندو. لقد استرعت هذه الكلمة اهتمامي منذ الرحلات الأولى مع جدي، ولكنني لم أنشبه، إلا بعد أن كبرت، إلى أن إبقاعها الشعري

يروقتي. لم أكن قد سمعت أحداً ينطق الكلمة، حتى إنني لم أسأل عن معناها. وكنت قد استخدمتها في ثلاثة كتب كاسم قرية متخيلة، عندما

عرفت من موسوعة مصادفة أن الكلمة هي اسم شجرة استوائية تشبه شجرة السيبا، وأنها لا تنتج أزهاراً ولا ثماراً، وخشبها الإسفنجي ينفع

في صنع زوارق الكائوا^(١) وفي نحت أدوات مطبخية. وقد اكتشفتُ فيما بعد، في الموسوعة البريطانية، أنه توجد في تنجانيقا قبيلة

الماكوندو (makondos) الرحالة، وفكرت في أن ذلك قد يكون أصل الكلمة. ولكنني لم أتقص الأمر قط، ولم أتعرف على الشجرة، فقد

سألت عنها كثيراً في منطقة الموز. ولم يستطع أحد إخباري بشيء عنها. ربما ليس لها وجود على الإطلاق.

القطار يمر في الساعة الحادية عشرة بمزرعة ماكوندو، وبعد عشر دقائق من ذلك، يتوقف في أراكاتاكا. أما في اليوم الذي ذهبت فيه

مع أمي لبيع البيت، فبسر متأخراً ساعة ونصف الساعة. كنت في المرحاض عندما بدأ يسرع، ودخلت من النافذة المكسورة ربح لافحة

وجافة، مختلطة بضجيج الغريبات العتيقة، وصغير القاطرة المفزع. كان قلبي يدوي في صدري، وجسد غشيان جليدي أخشائي، خرجت بأقصى

سرعة، مدفوعاً برغب مشابه لما يشعر به المرء لدى حدوث هزة أرضية، فوجدت أمي مستقرة بثبات في مكانها، تعدد بصوت عالٍ الأماكن

التي ترى مرورها من خلال النافذة، مثل ومضات أنية وسريعة من الحياة التي كانت، ولن تعود مطلقاً وإلى الأبد. وقالت:

- هذه هي الأراضي التي ياعوها لأبي، يخدعها أن فيها ذهباً.

مر، مثل نيزك، بيت المعلمين المجيشين^(٢)، بحديقته المزهرة واللوحة التي على البوابة: The sun shines for all. فقلت أمي:

- كان هذا هو أول ما تعلمته بالإنكليزية.

(١) الكائوا kaaia - نوع من الزوارق كان يستخدمه السكان الأصليون قبل مجيء الإسبان - وهو يصنع من قطعة واحدة بنحت جذع شجرة .
(٢) المجيشية adventismo - مذهب يقول إن مجيء المسيح صار قريباً .

نقلت لها:

- ليس الأول، بل الوحيد.

مرّ الجسر الإسمنتي والساقية بياضها الفكرة، منذ أن حوّل
الغرينغتون النهر، لإبصاله إلى المزارع. وقالت هي:

- هذا هو حي نساء الحياة، حيث كان الصباح يطلع على الرجال،
وهم يرقصون رقصة الكومبياسا حاملين زماماً من الأوراق النقدية
المشتعلة بدل الشموع.

مصاطب مورد الأبقار، أشجار اللوز الصدئة بفعل الشمس، حديقة
مدرسة مونتيوريانا الصغيرة حيث تعلّمت القراءة، وليرة، ومضت من
النافذة صورة شاملة للقرية، في ذلك الأحد المشع من شباط.

- المحطة - هتفت أمي، ثم قالت: - لقد تغير العالم إلى حد لم
يعد فيه من ينتظر النطار.

عندئذ انتهت القاطرة من الصفير، وخففت سرعتها، وتوقفت بآهة
طويلة.

أوّل ما أثر فيّ هو الصمت. صمت مهادي كان بمقدوري التعرف
عليه، وأنا معصوب العينين، بين أصناف صمت العالم الأخرى. كان وهج
الحرقشة إلى حد يُرى معه كل شيء وكأنه وراء زجاج متعوج. لم تكن
هناك أي ذاكرة لحياة بشرية، على المدى الذي يصل إليه النظر، ولا لأي
شيء غير مغطى بندي خفيف من غبار ملتهب. بقيت أمي محتفظة
بالصمت لبضع دقائق، تنظر إلى القرية الميتة والمسددة في الشوارع
المقفلة، وأخيراً هتفت مرعوبة:

- رياء!

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي قالته قبل أن تنزل.

في أثناء وقوف القطار هناك، راودني إحساس بأننا لم نكن
وحيدين تماماً. ولكنه عندما تحرك، مبتعداً، وهو يطلق صفيراً خاطئاً
ومؤثراً، بقيت أنا وأمي مهجورين تحت الشمس المجهنية، وقد انهالت
علينا كل كآبة القرية. ولكن أياً منا لم يقل شيئاً للآخر. المحطة القديمة
المتينة من الخشب، وسقف من التوتيا، وشرقة باوزة، كانت نسخة
مدارية للمحطات التي عرفناها في أنلام رعاة البقر، اجتزنا المحطة
المهجورة التي بدأ بلاطها يتشقق، بفعل ضغط الأعشاب، وغرقنا في
ركود القبلولة، باحثين طوال الوقت عن حناية أشجار اللوز.

كنتُ أعتقد، منذ طفولتي، تلك القبلولات الحاملة: لأننا لم نكن
نعرف ما يمكننا عمله. "اضمتوا، فنحن نائمون"، كان الناسون يهيمون
لنا. وكانت المتاجر، والمكاتب العاصة، والمدارس، تُغلق منذ الساعة
الثانية عشرة ظهراً ولا تفتح أبوابها إلى ما قبل الثالثة بقليل. ويبقى
البيت من الداخل طافياً في ليمبوس^(١) السبات، وكان الحر في بعض
البيوت لا يطاق، إلى حد أنهم يعلقون أراجيح النوم في الفناء، أو
يضعون كراسي بلا صند في ظل أشجار اللوز، وينامون جالسين في
وسط الشارع. ولا يبقى مفتوحاً سوى الفندق المقابل للمحطة، وحائته
وصالة الملياردو فيه، ومكتب التلغراف وراء الكنيسة. كل شيء كان
مطابقاً للذكريات، ولكنه أكثر اقتضاباً وقسراً، عاثت به زوبعة ربح
قدريّة: البيوت المتأكلة نفسها، سقف التوتيا التي نخرها الصدأ، مورد

(١) الليمبوس Limbo، منطقة بين الفردوس والجحيم. تستقر فيها أرواح الموتى من الأطفال
الذين لم يُعقدوا، ومن كانوا أبرياء وأتقياء قبل مجيئ المسيح.

الماشية مع أنقاض مقاعد الغرائب وأشجار اللوز الكثيرة، وكل شيء متغير بذلك الغبار غير المرئي والمتهب الذي يخدع البصر ويكلس الجلد. أما فردوس شركة الفواكه الخاص، في الجانب الآخر من سكة القطار، وقد صار بلا سباج الأسلاك المكهرب، فكان دغلاً فسيحاً بلا أشجار نخيل، بيوته متداعية بين شقائق النعمان وأنقاض المستشفيات المحترق، لم يكن هناك باب، أو صدع في جدار، أو أثر إنساني إلا له في أعماقي صدى خارق للطبيعة.

كانت أمي تمشي منتصبية جداً، بخطراتها الخفيفة، متفرقة بصورة تكاد لا تلاحظ في فستانها الحدادي، وبصمت مطلق. ولكن شحوبها القاتل وبروقيل وجهها الحاد كانا يشيان بما يحدث لها من الداخل. في نهاية الطريق، رأينا أول كائن بشري: امرأة ضئيلة، ذات مظهر مترد، ظهرت من ناصية جاكوبو بيراكانا، وصرت بجانبنا خاملة قدراً من التقصير، غطاؤها، غير المحكم جيداً، يهتز مسجلاً إيقاع خطراتها. فهست لي أمي دون النظر إليها:

- إنها قيتا.

كنت قد تعرفت عليها. لقد عملت منذ طفولتها في مطبخ جدي، ومهما تكن التغيرات التي طرأت علينا، فإنها كانت ستعرف علينا لو أنها تنازلت ونظرت إلينا، ولكن لا: لقد مرت في عالم آخر. وما زلت حتى هذا اليوم أتساءل إذا ما كانت قيتا قد ماتت قبل وقت طويل من ذلك اليوم.

حين انعطفنا عند الزاوية، كان الغبار يلهب في قدمي، بين نسج الصندل، وصار إحساسي بالخذلان لا يطاق. عندئذ رأيت نفسي ورأيت

أمي، قماصاً مثلما رأيت في طفولتي أم وأخت اللص الذي كانت ماريا كونسويغا قد قتلته برصاصة قبل أسبوع، وهو يحاول خلع باب بيته. كانت، قد أيقظتها في الساعة الثالثة فجراً، خشخشة أحدهم وهو يحاول، من الخارج، خلع الباب المزدني إلى الشارع. تهضت دون أن تشعل الضوء، وبحث، بالتلمس، في الخزانة عن مسدس عتيق لم يطلق النار منه أحد منذ حرب الألف يوم. وجدت في الظلام، ليس موقع الباب وحسب، وإنما كذلك مستوى ارتفاع القفل بالضغط. وعندئذ سددت السلاح بكلتا يديها، وأغمضت عينيها وضغطت على الزناد. لم تكن قد أطلقت النار من قبل قط، ولكن الرصاصة أصابت الهدف، عبر الباب.

كان ذلك هو أول ميت أراد، فعندما مررت في طريقي إلى المدرسة، في الساعة السابعة صباحاً، كان الجسد لا يزال ممدداً على الرصيف، فوق بقعة من الدم الناشف، بوجه مهشم من رصاص الطلقة التي حطمت الأنف وخرجت من الأذن. كان يرتدي قميص بخار من الغانيلة، مقلماً بخطوط ملونة، ونظالاً عادياً بتكة بدل الحزام، وكان حافياً. وإلى جانبه، على الأرض، وجدوا الخطاف الذي حاول أن يفتح به قفل الباب.

هرع أعيان القرية إلى بيت ماريا كونسويغا ليقدّموا لها التعازي، لأنها قتلت اللص. ذهبت في تلك الليلة مع باباليلو، ووجدناها جالسة على متكا من قماش الماتيل، تبدو مثل طاووس هائل من الخيزران، وسط حشام الأصدقاء، الذين يستمعون إلى القصة المعادة ألف مرة، الجميع كانوا متفقين معها بأنها أطلقت النار بدافع الخوف المحض. وكان أن سألها جدي عندئذ، عما إذا كانت قد سمعت شيئاً بعد أن أطلقت النار. فروت عليه بأنها سمعت في أول الأمر صمتاً كبيراً، ثم رثة

الخطاف المعدنية، وهو يستقط على الأرضية الاستمسية، وبعد ذلك صوتاً خافتاً ومثلاً: "آي، يا أماءا". ويبدو أن ماريلا كونسويفرا لم تع تلك الألة المؤثرة، إلى أن وجّه إليها جدي السؤال، لأنها عندئذ فقط انفجرت في اليكاء.

حدث ذلك في يوم اثنين، وفي يوم الثلاثاء، من الأسبوع التالي، في ساعة القيلولة، كنتُ ألعب بالحدردول، مع لويس كارميلو كورتيا، أقدم أصدقائي في الحياة، عندما فوجئنا بأن النائمين يستيقظون قبل الموعد، ويطلون من النوافذ، وحينئذ رأينا في الشارع المقفر، امرأة بملابس الحداد الكامل، ومعها طفلة في حوالي الثانية عشرة من عمرها، تحمل باقة أزهار ذابلة ملفوفة بورقة صحيفة، وكانتا محتميان من الشمس الحارقة مظلة سوداء، غير عابثتين مطلقاً برفاحة الناس الذين يراقبون مرورهما، لقد كانتا أم اللص وأخته الصغرى، تحملان زهوراً إلى قبره.

لقد لاحظتني تلك الرؤيا لسنوات طويلة، مثل حلم جماعي شهدت القرية كلها ضروره من خلال النوافذ، إلى أن استطعت التطهر منها في قصة قصيرة، ولكنني لم أع، في الحقيقة، مأساة المرأة والطفلة، ولا عزة نفسيهما الراسخة حتى اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت وفاجأت نفسي أمشي في الشارع المقفر نفسه وفي الساعة القاتلة نفسها، فقلت:

- أشعر كما لو أنني أنا اللص.

لم تفهم أمي ما أعنيه، بل أكثر من ذلك، فعندما مررنا قبالة بيت مازيا كونسويفرا، لم تلقِ مجرد نظرة على الباب الذي تظهر عليه رقعة

الخشب، في موضع ثقب الرصاصة. وبعد مرور سنوات، بينما أنا أتذكر معها تلك الرحلة، تأكدتُ من أنها تتذكر المأساة. ولكنها كانت مستعدة لأن تقدم روحها مقابل نسيانها. وقد بدا ذلك أكثر جلاءً، عندما مررنا قبالة البيت الذي عاش فيه دون إميليو، المشهور بلقب البلجيكي، وهو محارب قديم شارك في الحرب العالمية الأولى، وفقد القدرة على استخدام ساقيه الاثنتين، في حقل ألغام في النورماندي، وفي يوم أحد العنصرة من إحدى السنوات لحا بنفسه من عذابات الذاكرة، باستئناق أبخرة سيانور الذهب. لم أكن قد تجاوزت آنذاك السادسة من عمري، وكانت واقعة لا تُنسى إلى حد أن أمي، عندما عدنا إلى القرية، لبيع البيت، قطعت أخيراً صحتها الذي استمر عشرين دقيقة، وتنهدت قائلة:

- يا لبلجيكي المسكين! قهر، مثلما قلت أنت، لم يعد مطلقاً إلى لعب الشطرنج.

كنا ننوي الذهاب مباشرة إلى البيت، ومع ذلك، عندما صرنا على بعد كنوادرا^(١) واحدة عنه، توقفت أمي فجأة وانعطفت من الزاوية السابقة.

- من الأفضل أن نذهب من هنا - قالت لي. وعندما أردت أن أعرف السبب، ردت علي: - لأنني خائفة.

وهكذا عرفتُ سبب جزعي: لقد كان خوفاً، ليس من مواجهة أشباحي وحسب، وإنما خوف من كل شيء. وهكذا واصلنا تقدمنا عبر شارع مواز لنقوم بالتفافه، كان الهدف الوحيد منها هو عدم المرور ببيتنا، وقد قالت لي أمي فيما بعد: "ما كنتُ لأعجباً على رأيتك دون التحدث،

(١) الكوادرا Cuadra: وحدة لقياس الأبعاد، تساوي ١٢٥ متراً.

قبل ذلك مع أحد. وكان هذا هو ما حدث. فقد اقتادتنني بما يشبه
الهرجزة، ودخلت دون أي تنبيه إلى صيدلية الدكتور ألفريدو باربوثا،
وهو بيت على الناصية على بُعد أقل من مئة خطوة من بيتنا.
كانت أدريانا بيردوغو، زوجة الدكتور، مستغرقة تماماً في الخياطة
على آلتها اليدوية البدائية، فلم تشعر بنا إلا عندما وصلت أمي إليها،
وقالت لها بصوت هامس تقريباً:

- صديقتي.

رفعت أدريانا بصرها المنشوش عبر زجاجتي نظارة قصور البصر
السحبكتين، ثم خلعت النظارة، وترددت هنيهة، ثم نهضت قافزة وهي
تفتح ذراعها وتثن:

- آي، صديقتي!

كانت أمي قد صارت وراء منضدة الكونتوار، ودون أن تقول شيئاً
آخر تعانقتا لتكبها. بقيت أراقبهما من خارج حاجز الكونتوار، دون أن
أدري ما أفعل، يهزني اليقين بأن ذلك العناق الطويل ذا الدموع
الصامتة، هو أمر لا مفر منه كان يحدث على الدوام في حياتي نفسها.

لقد كانت الصيدلية هي الأفضل في أزمدة شركة الموز، غير أنه لم
يبق من قرارات العقاقير القديمة، في الخزائن المستقلصة، سوى بعض
القوارير الخزفية المعلقة بحروف مذهبة. أما ماكينة الخياطة، وصورجان
هيرمنس^(١)، وساعة البندول التي ما زالت حية، ورقعة القسم الأبوقراطي،
والكرسيان الهزازان المخلعان، وكل الأشياء التي رأيتها وأنا طفل، ما

(١) صورجان هيرمنس caduccei قضيب يشبه بجناحين في أعلاه، وتلفف عليه حيتان -
وهو شعار الطب -

زالت هي نفسها، وكانت لا تزال في الأماكن نفسها، ولكن صدأ الزمن
بذلك هيناتها.

أدريانا نفسها كانت ضحية. قمع أنها ترتدي، كما في السابق،
فستاناً مزيناً بأزهار تروبيكالية كبيرة، إلا أنه يكاد لا يظهر عليها شيء
من الاندفاع والشيطنة اللذين اشتهرت بهما، حتى وقت متقدم من
نضجها، الشيء الوحيد الذي بقي دون تغيير في ما حولها هو رائحة
التاردين التي تبعث الجنون في القطط، والتي سأبقى أذكرها بإحساس
بالغرق، طوال ما تبقى من حياتي.

عندما استنفدت أدريانا وأمي الدموع، سمعت سعدة قوية وقصيرة
من وراء الحائط الخشبي الذي يفصلنا عن الحجرة الخلفية. استعادت
أدريانا بعض ظرفها الذي كانت عليه، في زمن آخر، وتكلمت ليُسمع
صوتها، عبر الحائط الخشبي، قائلة:

- خمن من لدينا هنا يا دكتور؟

وجاء صوت جيني لرجل صلب يسأل من الجانب الآخر دون اكتراث:
- من؟

لم ترد عليه أدريانا، وإنما أومأت لنا للانتقال إلى الحجرة الخلفية.
شئني وعب طفولي مفاجئ وغمر نفسي لعباب داكن. ولكنني دخلت مع
أمي إلى الحيز المشعث الذي كان فيما مضى، مخبراً للصيدلية، وجرى
تكييفه كغرفة نوم للطوارئ، وهناك كان الدكتور ألفريدو باربوثا، أكثر
هرماً من كل الرجال وكل الحيوانات الهرمة في البر والماء، مستلقياً على
ظهره في أرجوحة نومه الأبدية المهترئة، دون حذاء، وبسجامة العتيقة
التي من القطن الخام، والتي تبدل أقرب إلى عباءة تكفير. كان نظره

موجهاً إلى السقف، ولكنه أدار رأسه عندما أحس بدخولنا، وحدّق فينا بعينه الصفراوين الشفافتين، إلى أن تعرّف على أمي، قهتف:

- لويسا سانتياغا!

جلس في أرجوحة النوم بانهك قطعة أثاث قديمة، وتأنس بالكامل، وحيانا بمصافحة سريعة بيده المتوقدة، انبسه هو إلى انبهاري، وقال لي: "منذ سنة وأنا أعاني من حمى أساسية^(١)، عندئذ غادر أرجوحة النوم، وجلس على السرير، وقال لنا بنفس واحد:

- لا يمكن لكما أن تتصوروا ما عانته هذه القرية.

تلك الجملة وحدها، التي لخصت حياة بكاملها، ربما كانت كافية لأن أراء مثلما كان على الدوام: رجلاً متوحداً وحزناً، كان طويل القامة، نحيلاً، له شعر معدني بديع مقصوص كيفما اتفق، وعينان صفراوان وكشيفتان هما أرباب رعب في طفولتي، فعند عودتنا من المدرسة في المساء، كنا نضعد إلى نافذة حجرة نومه، يجتذبا الاقبتان بالخوف. وهناك نراه يتأرجح في أرجوحة النوم بهزات قوية ليخفف الحر عن نفسه. وكانت اللعبة تمثل في النظر إليه بثبات، إلى أن ينسحب ويتلفت لينظر إلينا فجأة، بعينه المتوقدتين.

لقد رأيت أول مرة، وأنا في الخامسة أو السادسة من عمري، في صباح يوم تسللت فيه إلى الفناء الخلفي لبيته، مع رفاق آخرين، لسرق ثمار المانجا الضخمة من أشجاره، وفجأة انفتح باب المرحاض المشيد من ألواح خشبية في أحد أركان الفناء، وخرج وهو يربط سرواله الداخلي الذي من الكتان. رأيت مثل رؤيا من العالم الآخر، بقميص داخلي أبيض

(١) الحمى الأساسية: نوع نادر من الحمى لا يعرف له سبب.

بياض مستشفي، شاحباً وعظيماً، ونظرت إلى عيناها الصفراوان مثل عيني كلب من جهنم، نظرة استمرت إلى الأبد. هرب الآخرون من الفتحات الصغيرة في السياج. أما أنا فبقيت متحجراً بنظرته الشابة. صوب بصره إلى ثمار المانجا التي كنت قد قطفتها من الأشجار، ومدّ يده باتجاهي.

- هاتها! - قال لي أمراً، ثم أضاف وهو ينظر إلى كامل قامتي بازدياء: - لص فناء صغير.

ألقيت بالثمار عند قدميه، وهربت مذعوراً.

لقد كان شبحي الخاص، فإذا ما مشيت وحيداً، أقوم بالالتفاف في جولة طويلة، كيلا أمر ببيته. وإذا ما كنت أمضي مع أشخاص بالغين، فإنني أكاد لا أنجزاً على أكثر من إلقاء نظرة مختلطة باتجاه الصيدلية. كنت أرى أديانا محكومة بالمؤبد إلى ماكينة الخياطة، وراة الكرنشوار. وأراء هو من نافذة غرفة النوم، يتأرجح في اهتزازات كبيرة في أرجوحة النوم. وتكون تلك النظرة كافية لبعث القشعريرة في بدني.

لقد أتى إلى القرية في أوائل القرن، بين ما لا يُحصى من الفنزويليين الذين تمكّنوا من الفرار عبر حدود إقليم غواخيرا، هرباً من استبدادية خزان فيشتته غرويث الشرسة. وكان الدكتور أحد أول من جرحهم قوتان متناقضتان: شراسة المستبد في بلاده، ووهم رخاء الموز في بلادنا. وقد اشتهر منذ مجيئه بعينه الطيبة - مثلما كان يقال آنذاك - وبأساليب زوجه الطيبة. كان أحد أكثر الأصدقاء المراهقين في بيت جدي، حيث كانت المائدة مجهزة على الدوام دون معرفة من سيصل في القطار. لقد كانت أمي عراكبة ابنه الأكبر. وجدي هو الذي علمه كيف

يُحلّق بأجنحته الأولى. وقد كبرت بين أولئك الغنزوليين، مثلما واصلت النمر بعد ذلك، بين منفيي الحرب الأهلية الإسبانية.

آخر آثار الخوف الذي كان يسببه لي ذلك المنبوذ المنسي، وأنا طفل، ثلاثت فجأة، بينما كنت جالساً، مع أمي، بجوار سرير، نستمتع إلى تفاصيل المأساة التي ضربت البلدة. كان يتمتع بقدرة تذكّر واستحضار شديدة الزخم، يبدو معها أن كل شيء يرويه، يصبح مرثياً في الحجرة المخلخلة بفعل الحر. أصل كل النكبات، بالطبع، هي مذبحه العمال على يد قوى الأمن العام. ولكن الشكوك ما زالت قائمة حول الحقيقة التاريخية: ثلاثة قتلى أم ثلاثة آلاف؟ ربما لم يكونوا بهذه الكثرة، قال هو، ولكن كل واحد يزيد الرقم وفق ألمه الخاص. والشركة قد رحلت الآن، وإلى الأبد. وانتهى إلى القول:

- الغرينغيون لن يرجعوا مطلقاً.

الشيء الوحيد المؤكد هو أنهم أخذوا كل شيء: المال، نسعات كانون الأول، سكّين تقطيع الخبز، وعد الساعة الثالثة مساءً، أريج الياسمين، الحب. ولم يبق سوى أشجار اللوز المعقرة، والشوارع المتوهجة، والبيوت الخشبية ذات سقف التوتياء الصلبة، بأثاثها المكفهرين الذين فشكت بهم الذكريات.

المرّة الأولى التي التفت فيها الدكتور إليّ، في ذلك المساء، كانت عندما رأيته متفاجئاً بقرقعة كأنها فطرات مطر متفرقة على سطح التوتياء. فقال لي: "إنها نسور الرخمة. فهي تقضي النهار في المشي على الأسطح" ثم أشار بإصبع إبهام تحيلة، نحو الباب المغلق، وأضاف: - في الليل تكون الحال أسوأ، لأننا نشعر بالأموات يمضون طليقين في هذه الشوارع.

دعانا لتناول الغداء، ولم يكن هناك أي مانع، فضفقة البيت لا تحتاج إلا إلى تشيبتها رسمياً. فالمتأجرون أنفسهم هم الذي يشترونه، وقد تم الاتفاق على التفاصيل عبر الهاتف. هل سيكون لدينا متسع من الوقت؟

- بل قاتض منه - قالت أوريانا، وأضافت: - فالآن لم يعد معروفاً متى يعود الفطار.

وهكذا تقاسنا معهما وجية كيرولية، لا علاقة لبساطتها بالفقر، وإنما بنظام غذائي قنوع يمارسه الدكتور ويعطى بممارسته، ليس على المائدة وحسب، وإنما في كل شؤون الحياة. منذ أن تذوقت الحساء راودني إحساس بأن عالماً يكامله كان نائماً، راح يستيقظ في ذاكرتي. طعوم كانت لي في الطقولة وضاعت منذ أن غادرت القرية، عادت إليّ كاملة مع كل ملحقة، وأخذت تضغط على قلبي.

منذ بدء الحادثة، أحسست في مواجهة الدكتور بأنني في السن نفسها التي كنت عليها، وأنا أسخر منه عبر النافذة، ولهذا أخافني عندما توجه إليّ بالجدية والتأثر نفسيهما اللذين كان يتحدث بهما إليّ أمي. لقد كنت في طفولتي، عندما أتعرض لمواقف صعبة، أحاول أن أخفي انهيارني برنش سريع ومتواصل من عيني. وقد عاد إليّ ذلك الفعل الانعكاسي فجأة، عندما نظر الدكتور إليّ. صار الحر لا يطاق. بقيت على هامش المحادثة لبعض الوقت، متسائلاً كيف أمكن لذلك العجز البشوش والغارق في الحنين، أن يكون رعب طفولتي. وفجأة، بعد توقف طويل، وبإحالة تافهة لا تعني له شيئاً، نظر إليّ بابتسامة جد، وقال:

- أنت غاييتو إذن. ماذا تدرس الآن؟

واریت اضطرابي بسرده قائم لدراساتي: إنها الثانوية بتقدير جيد في مدرسة داخلية رسمية. قضاء سنتين وبضعة شهور في دراسة الحقوق دون انتظام. صحافة تجريبية. استمعت أُمي إلى ما أقوله، وبحثت على الفور عن دعم الدكتور، قائلة:

- تصور أيها الجار، إنه يريد أن يصير كاتباً.

أشرقت عينا الدكتور في وجهه، وقال:

- يا للروعة يا جارتنا! إنها هدية من السماء - ثم التفت إلي:-

شعرا؟

- رواية وقصة - قلت له وروحي معلقة بطرف خيط.

فتحمس هو:

- هل قرأت "دونيا باربارا"؟

- طبعاً - أجبته - وقرأت أعمال رومولو غيغوس^(١) كلها تقريباً.

وكما لو أنه ينبعث في حساسة مفاجئة، روى لنا أنه قد تعرف عليه

في محاضرة ألقاها في ماركابيو. وبدا له أنه كاتب جدير بكتبه.

والحقيقة أنني في تلك اللحظة، وبحمي الأربعين درجة ملاحم الميسيسيبي

الفركترية، كنت قد بدأت ألحظ مواطن ضعف الرواية المحلية، ولكن

التواصل السهل والودود مع الرجل الذي شكّل رغب طفولتي، بدا لي

معجزة. وفضلت الترافق مع حماسه. فحدثته عن "الزرافة" - عمودي

(١) رومولو غيغوس، كاتب وسياسي فنزولي (١٨٨٩-١٩٦٩)، انتخب رئيساً لجمهورية عام ١٩٤٧. ولكن حركة عسكرية أطاحت به في العام التالي. يعتبر أحمد أبو زروقي أميركا اللاتينية في النصف الأول من القرن العشرين. وأهم أعماله رواية "دونيا باربارا" التي ترجمها إلى العربية الدكتور محمود علي مكي.

اليومي في صحيفة الهيرالدو - وأطلعته على خبر أننا نتوي، عما قريب، إصدار مجلة تبني عليها آمالاً كبيرة. وأخبرته كذلك، وقد ازدادت ثقة بنفسي، بتفاصيل المشروع، وحتى اسم المجلة: كرونیکا.

أمعن النظر إليّ من أعلى إلى أسفل، وقال:

- لا أدري كيف نكتب، ولكنك تتكلم ككاتب منذ الآن.

وسارعت أُمي إلى توضيح الحقيقة: فلا أحد يعارض أن أصبح

كاتباً، ولكن يجب عليّ أن أنهي أولاً دراسة جامعية تمنحني أرضاً صلبة

أقف عليها. قلل الدكتور من شأن كل شيء، وتكلم عن مهنة الكاتب.

فقد كان هو أيضاً راغباً في أن يصير كاتباً، ولكن أبويه، وبحجج أُمي

نفسها، أجبراه على دراسة الطب عندما عجزا عن إدخاله سلك الجيش

ليكون ضابطاً. وانتهى إلى القول:

- وانظري يا جرتي. إنني طبيب، وها أنذا هنا، دون أن أدري كم

من مرضاي ماتوا بمشيئة الرب. وكم منهم ماتوا بسبب أدويتي.

أحسنت أُمي بالضياع، وقالت:

- وأمنوا ما في الأمر هو أنه ترك دراسة الحقوق، بعد توضيحات

كثيرة قدمناها لمساعدته.

ولكن ذلك بدا للدكتور، على العكس منها، دليلاً دامعاً على ميل

جارت: القوة الوحيدة القادرة على منازعة الحب امتيازاته. وبخاصة الميل

الفني، أكثر الميل سرية وغموضاً، لأن المرء يكرس له حياته كاملة دون

أن يأمل منه شيئاً.

- إنه شيء يُحمل في الداخل، منذ الولادة، ومعاكسته هي أسوأ

ضرر للصحة - قال ذلك، واختتم بابتهامة ماسوني لا خلاص له:- إنه

مثل ميل الكاهن.

أصابني الانبهار من الطريقة التي أوضح بها، ما لم أستطع توضيحه قط. ولا بد أن أمي شاركتني ذلك الانبهار، لأنها تأملتني بصمت بطييء، واستسلمت لقدرها.

- ما أفضل طريقة لقول كل هذا لأبيك؟ - سألتني.

فقلت لها:

- بالطريقة التي سمعنا بها للشر، بالضبط.

- لا، فهذا لن يعطي نتيجة - قالت ذلك، ثم أضافت بعد تأمل آخر: - ولكن لا تقلق، سأجد طريقة مناسبة لأخبره.

لست أدري إذا ما أخبرته بهذه الطريقة أم بطريقة أخرى. ولكن الجدال توقف عند ذلك الحد. أعلنت الساعة الوقت برنين كائهما قطرتا بلور. فانتفضت أمي قائلة: "رباه، لقد نسيت سبب مجيئنا." ونهضت واقفة:

- يجب علينا أن نذهب.

الرؤية الأولى للبيت، على الرصيف المقابل، كانت مرتبطة إلى حد ما بذكراتي، دون أي علاقة بحنيني. فقد قُطعت، من الجذور، شجرتا اللوز الحاصيتان اللتان شكلتا، طوال سنوات، هوية مميزة. وصار البيت مكشوفاً في العراء، ما بقي منه تحت الشمس النارية لا يزيد على ثلاثين متراً من الواجهة: نصفه من مواد بناء وسقف قرميد تدفع إلى التكسير في أنه بيت دمي. والنصف الآخر من أخشاب غير مسحوقة. طرقت أمي الباب المغلق برفق شديد، ثم بقوة أكبر، وسألت من خلال النافذة:

- ألا يوجد أحد؟

فُتح الباب صراخاً وبسطة شديدة. وسألت امرأة من شبه الظلمة الداخلية:

- ماذا يمكنني أن أقدم لك؟

فردت أمي بتسلط ريفي غير واع:

- أنا لويسا ماركيز.

كان الباب المؤدي إلى الشارع قد فُتح عندئذ تماماً، وظهرت امرأة ترتدي ملابس الجداد، معروقة وشاحية. نظرت إلينا من حياة أخرى. وفي عناق الصالة، كان هناك رجل متقدم في السن، يهتز على كرسي مقعد. إنهما المستأجران، وقد اقترحا بعد سنوات طويلة شراء البيت. ولكن لم يكن يبدو عليهما مظهر المشترين، ولم يكن البيت في حالة تشير اهتمام أحد ليشترده. وفقاً للبرقية التي تلقتها أمي، فإن المستأجرين يوافقان على أن يدفعوا، نقداً، نصف الثمن مقابل إيصال موقع منها، ثم يدفعان الباقي عندما تُبرم عقود البيع خلال السنة. ولكن أحداً لم يكن يتذكر أن هناك زيارة منتظرة. وبعد محادثة طريشان طويلة، كان الشيء الوحيد الذي ظهر بوضوح، هو أنه لا وجود لأي اتفاق. وعندئذ التفتت أمي المتضايقة من تلك البلاهة، ومن الحر الملل، وألقت نظرة على ما حولها، وأقلت منها مع الزفرة:

- هذا البيت البائس، في آخر نفس.

فقال الرجل:

- بل هو أسوأ. وإذا كان لم يسقط على رؤوسنا، فبفضل ما أنفقناه، للحفاظ عليه.

كانت لديهم قائمة بالإصلاحات التي يجب النظر فيها، إضافة إلى

أخرى انتطعروها من الإيجار، إلى حد أننا كنا نحن المديثين لهم بالمال. ولكن أمي المعروفة بدمعتها السهلة، كانت قادرة كذلك على إظهار حزم مخيف لمواجهة مكاييد الحياة. ناقشت الأمر بصورة جيدة. أما أنا فلم أتدخل لأنني أدركت، منذ العقبة الأولى، أن الشترين على حق. فليس هناك شيء واضح في البرقية حول، تاريخ وطريقة البيع، ويُفهم منها بالمقابل أنه لا بد من أن يجري الاتفاق على ذلك. لقد كان موقفاً تقليدياً من ميول الأسرة المدسية. ويمكن لي أن أتصور كيف جرى اتخاذ القرار، حول مائدة الغداء، في اللحظة نفسها التي وصلت بها البرقية. فقد كانوا عشرة أخوة، دون أن أحسب نفسي، لهم الحقوق نفسها. وأخيراً جمعت أمي بعض اليزوات من هنا، ويزوات أخرى من هناك، وأعدت حقيبتها التي كخائب التلاميذ، وسافرت دون أي موارد أخرى سوى تذكرة العودة.

راجعت أمي مع المستأجرة، مرة أخرى، كل شيء من البداية، وخلال أقل من نصف ساعة توصلنا إلى أنه ليست هناك أي صفقة. فنحن لم نتذكر، إضافة إلى أسباب أخرى لا يمكن تجاوزها، رهناً عقارياً يُشقل على البيت، ولم يجر فكه إلا بعد سنوات طويلة من ذلك، عندما تم بيع البيت قطعياً. ولهذا، حين حاولت المستأجرة أن تكرر مرة أخرى حجج الحلقة المفرغة نفسها، أوقفتها أمي بالحسنى، وبحزم لا يقبل الاستئناف: - البيت لن يباع، ولنضع في حسابنا أننا جميعاً ولدنا هنا،

وسنموت هنا.

أمضينا بقية فترة المساء، ونحن ننظر مجيء قطار العودة، في جميع فئات الحدين، في البيت الشبهي. لقد كان البيت بكامله لنا، ولكن

لم يكن صالحاً منه سوى القسم المؤجر الذي يطل على الشارع، حيث كانت مكاتب الجند، وما تبقى، مجرد هيكل من الجدران الخشبية المنخورة، وسقوف الترتيب، الصدئة تحت رحمة الحراذين. أطلقت أمي الواقفة عند العتبة، صرخة قاطعة:

- ليس هذا هو البيت!

ولكنها لم تقل أي بيت تعني، فخلال طفولتها كلها، كانوا يصفونه بطرق متعددة، بحيث كان ثلاثة بيوت على الأقل، تتبدل شكلاً ومعنى، حسب من يروي. البيت الأصلي، مثلما سمعت من جدي بطريقته المزدرية، كان كوخ هنود. وأما الثاني الذي بناه الجدان، فكان جدراناً من القصب والطين وسقوفاً من جريد النخيل، مؤلفاً من صالة فسيحة وجيدة الإنارة، وغرفة طعام على شكل شرفة مع أزهار ذات ألوان بهيجة، وحجرتي نوم، وفناء فيه شجرة كستناء عملاقة، وبستان مزروع جيداً ووربية يعيش فيها الماعز، في مجتمع سلمى، مع الخنازير والدجاج. وحسب الرواية الأكثر تواتراً، فإن هذا البيت قد تحول إلى رماد، بفعل مفرقة ألعاب نارية سقطت على السقف الذي من سعف النخيل، خلال الاحتفالات بيوم ٢٠ تموز، عيد الاستقلال، في سنة لا يذكرها أحد من سنوات حرونا الكثيرة. الشيء الوحيد الذي تبقى منه هو الأرضيات الإسمنتية وكتلة شرفتين مع باب يطل على الشارع، حيث كانت المكاتب التي عمل فيها بابايلو، عدة مرات، موظفاً عمومياً.

وفوق الانقراض التي كانت لا تزال ساخنة، شيدت الأسرة ملجأها النهائي. بيتاً من ثماني حجرات متتالية في صف واحد، على امتداد بحر له حاجز من أزهار اليجونيا، حيث يجلس نساء الأسرة، للتطريز على

الطارة، وتبادل الحديث في برودة المساء. الغرف بسيطة ولا يمكن التمييز بينها. غير أن نظرة واحدة كانت كافية لأن أنتبه إلى أنه في كل تفصيل من تفاصيلها الكثيرة، هناك لحظة حاسمة من حياتي.

الحجرة الأولى كانت تستخدم كقاعة لاستقبال الزيارات، ومكتب رسمي للجد، وكانت فيها منضدة مكتب مستارة، ومقعد كبير دوار بنوايض، ومروحة كهربائية، وخزانة كتب فارغة ليس فيها سوى كتاب واحد ضخّم ومفكك: معجم اللغة، ويلبها مباشرة مشغل الصياغة، حيث كان الجد يمضي أفضل ساعات وقته في صنع أسماك ذهبية صغيرة ذات أجساد متفصلة، وعيون دقيقة من الزمرد. كانت توفر له المتعة أكثر مما تؤمن من الطعام. وهناك جرى استقبال بعض الشخصيات البارزة، ولا سيما السياسيين، وكبار الموظفين المتقاعدين، ومشاركين قداماء في الحروب. وكان بين تلك الزيارات، في مناسبتين مختلفتين، زيارتان تاريخيتان: الجنرال أوربي أوربي، والجنرال بينخامين هيريرا. اللذان تناولا الغداء مع الأسرة. ومع ذلك، فإن ما سيتدكره جدي طوال حياته، من أوربي أوربي، هو قناعته على المائدة: "إنه يأكل مثل عصفور".

حيز المكتب ومشغل الصياغة المشترك كان محظوراً على النساء، بتأثير ثقافتنا الكاريبية، مثلما كانت حانات القرية محظورة عليهن بأمر القسانون. ومع ذلك، فقد تحول المكان مع مرور الزمن إلى خـجـرة مستشفى، توفيت فيها العمة بيترا، وتحملت فيها وينفريدا ماركيز، شقيقة باباليلو، آخر شهور مرضها الطويل. وبدلاً من هناك، يبدأ الفردوس المعزول للنساء الكثيرات، المقيمات والعابرات، اللواتي مررن بالبيت خلال طفولتي. وقد كنت أنا الذكر الوحيد الذي تقع بامتيازات العالمين كليهما.

غرفة الطعام لم تكن أكثر من توسع في الممر مع الشرفة التي تجلس عليها نساء البيت للخياطة. وكانت فيها مائدة تصنع لستة عشر مدعواً طارئاً أو غير متوقع من يأتون يومياً في قطار الظهيرة. تأملت أُمي من هناك أحصى البيجونيا، وأصول النباتات المتعفنة، وجذع الياسمين التي نخرها النمل، واستعادت أنفاسها:

- لم تكن نستطيع التنفس أحياناً من عبث الياسمين الحار - قالت وهي تنظر إلى السماء المبهرة، وتنهدت من أعماق روحها وهي تضيف:- لكن ما أفقدته، منذ ذلك الحين، هو رعد الساعة الثالثة مساءً. لقد أذهلتني، لأنني كنت أتذكر كذلك الدوي الوحيد الذي كان يوقظنا من القيلولة، وكأنه تدحرج أحجار. ولكنني لم أنتبه قط إلى أنه لا يحدث إلا في الساعة الثالثة.

بعد الممر، هناك قاعة استقبال مخجوزة للمناسبات الخاصة. ذلك أنه كان يُقدّم للزيارات اليومية العادية، بيرة مثلجة في حجرة المكتب، إذا كان الزائر رجلاً. وفي ممر البيجونيا، إذا كان الزائر امرأة، وهناك يبدأ عالم حجرات النوم الأسطوري. أولاً مخدع الجدين، مع بوابة كبيرة تؤدي إلى الحديقة، ولوحة حفر أزهار خشبية تحمل تاريخ البناء: ١٩٢٥. وهناك، دون أي إشعار مسبق، قدمت لي أُمي، بتفخيم انتصاري، مفاجأة لم تخطر لي على بال:

- وهنا ولدت أنت!

لم أكن أعرف ذلك من قبل، أو أنني نسيته. ولكننا وجدنا، في الغرفة التالية، المهد الذي كنت أنام فيه حتى الرابعة من عصري، وقد احتفظت به جدتي إلى الأبد. كنت قد نسيته، ولكنني ما إن رأيته حتى

تذكرت نفسي، بأفروهل نوم مزين بأزهار ورقاء، كنت قد دشنته للنوم، وأنا أبكي صارخاً لكي يأتي إلي أحدهم ويتزع عني الأفعطة الملوثة بالبراز. كنت أقف على قدمي بصعوبة، وأنا أتشبث بقضبان المهد الصغير والهش، كأنه سلة مرسى. وكانت تلك الحادثة سبب مجادلات وسخریات بين الأقارب والأصدقاء، من بدا لهم غمي في ذلك اليوم، عقلياً جداً بالمقارنة مع سني المبكرة، وخاصة عندما أضرت على أن سبب جزعي لم يكن القرف من بؤسي نفسي، وإنما خوفاً من تلويث الأفرهول الجديد. هذا يعني أنه لم تكن للأمر علاقة بأحكام النظافة، وإنما هي مشكلة جمالية. وأظن، من الطريقة التي حُفظت بها الحادثة في ذاكرتي، أنها كانت معاشني الأولى ككاتب.

كان هناك في تلك الغرفة كذلك، مذهب عليه قاثيل قديسين بالحجم البشري. وهم أكثر واقعية وعموضاً من قديسي الكنيسة. وهناك كانت تنام على الدوام، العمة فرانشيسكا سيمودوسيا ميخيا، وهي ابنة عمة لجدي، كنا ندعوها العمة ماما، وكانت تعيش في البيت كمالكة وسيدة، منذ وفاة أبويها. أما أنا فكنت أنام في أرجوحة النوم المجاورة، مرغوباً من ارتعاش القديسين الذي يسببه المصباح القدسي الذي لم يتطفئ إلا بعد موت الجميع. وهناك أيضاً كانت تنام أمي وهي غائبة، معذبة من رهبة القديسين.

وكانت في أقصى الممر، غرقشان محرمتان عليّ. في الأولى تعيش ابنة خالي سارا إميليو ماركيز، وهي ابنة الخال خوان دي ديبوس قبل زواجه، وقد تولّى الجدان تربيتهما. وكانت، فضلاً عن مناهبتها الطبيعية منذ طفولتها، تشتمع بشخصية قوية فتحت شهيتي الأدبية الأولى،

بمجموعتها البديعة من حكايات كايخا، الميزة برسوم ملونة. ولم تكن تسمح لي بالاقتراب منها، مخافة أن أقصد ترتيبها، وقد كان ذلك هو إحباطي الأول والمرير ككاتب.

الحجرة الأخيرة هي مستودع أمتعة قديمة وصناديق متفاعدة، أهدت فضولي متيقظاً طوال سنوات، ولكنهم لم يسمحوا لي باستكشافها قط. وقد علمت فيما بعد، أنه كانت هناك أيضاً السبعون مبرة التي اشتراها جدائي، عندما دعت أمي زميلاتها في صفها المدرسي، لقضاء إجازة في البيت.

قبالة حاتين الحجرتين، وفي الممر نفسه، كان المطبخ الكبير، بمواقده البدائية التي من أحجار كلسية، والفرن الكبير الذي ينته الجدة، وهي صانعة خبز وحلوى محترقة. كانت حيوانات السكاكر الصغيرة التي تصنعها، تقعم الفجر برائحتها الشذية. وقد كان المطبخ مملكة النساء اللواتي يعشن أو يخدمن في البيت، وكن يغنين في كورال مع الجدة، وهن يساعدن في أعمالها المتنوعة. وكان الصوت المختلف هناك هو صوت لوريتشو العظيم، البيغاف، ذي المئة سنة الموروثة عن جديّ أمي، الذي يصرخ بشعارات مناهضة لإسبانيا ويغني أغنيات حرب الاستقلال. وكان ضعيف البصر إلى حد أنه سقط يوماً في قدر السانكوتشو^(١) ولجأ بأعجوبة، لأن الماء في القدر لم يكن قد سخن كثيراً بعد. وفي العشرين من تموز من إحدى السنوات، في الساعة الثالثة بعد الظهر، ملأ البيت صخباً بصرخات وعب:

(١) سانكوتشو sancocho صنف طعام شائع في معظم بلدان أميركا الجنوبية. يتألف من جذور اليكة واللحم والموز الأخضر وخضار متنوعة أخرى. تسلق معاً على نار هادئة لوقت طويل.

- الثور، الثور، لقد جاء الثور

لم يكن في البيت سوى النساء، إذ كان الرجال قد ذهبوا إلى موقع الاحتفال بالعيد الوطني، فظن أن صرخات البغاء ليست سوى هذيانات خرف شيخوخته، ولكن نساء البيت، اللواتي يعرفن التكلم معه، لم يفهمن صرخاته إلا عندما اندفع ثور هائج، هارب من زرائب الساحة، إلى المظلي بجوار سفينة، وراح ينطح عشوائياً أثاث المخيم، والقصور على المواقد. كنت أمضي بالاتجاه المعاكس للزينة النساء المذعورات اللواتي حملنني في طريقهن وحسنني معهن في حجرة المؤونة. كان خوار الثور الثاني في المظلي، ووقع خوافره على إسمنت المر، بهزان البيت هزاً، وفجأة أطل من كوة تهوية، فجمد خيبر أنفاسه الناري واحتقان عينيه الكبيرتين، الدم في عروقي. وعندما تمكن الراحون من اقتياده إلى الزريبة، كانت قد بدأت في البيت جوقة رواية الدراما التي امتدت أكثر من أسبوع، تتخلله قدور لا نهائية من القهوة وحلوى الزفاف، لمرافقة قصة الناجيات الصاخبات المعادة ألف مرة، وفي كل مرة، بطولية أكثر.

لم يكن الفناء كبيراً جداً، ولكنه يضم تشكيلة متنوعة من الأشجار، وحماماً مشتركاً دون سقف، وبركة من الإسمنت لتجميع ماء المطر، ومصطبة مرتفعة يُصعد إليها بسلم هش، ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار. وهناك كان اليرميلان الكبيران اللذان يملؤنا الجد عند الفجر، بمضخة يدوية. وإلى الراء إسطليل الخيول المشيد من أخشاب دون سحج، وغرف الخدم. وأخيراً الفناء الخلفي الفسيح المزروع بأشجار مشرة، وفيه المرحاض الوحيد الذي تُفرغ فيه الحامضات الهنديات، طوال النهار

والليل، صبولات البيت. وكانت أضخم الأشجار وأكثرها كثافة، هي شجرة كستناء على هامش العالم والزمن. ولا بد أنه مات متبولاً على نفسه، تحت أغصانها المتشابكة، أكثر من كولونيلين اثنين من كولونيلات الحروب الأهلية الكثيرة، في القرن السابق.

كانت الأسرة قد جاءت إلى أراكاتاكا، قبل سبع عشرة سنة من مولدي، عندما بدأت جلبة احتكار اليرناتيد فروت كومباني للموز. وأحضرت الأسرة معها ابنها خوان دي ديوس، وهو في الحادية والعشرين، وابنتها، مارغريتا ماريا ميتياتا دي ألاكوكي، في التاسعة عشرة، ولويسا سانتياغا، أمي، في الخامسة. وكانت الأسرة قد فقدت قبلها تومي إناث في حادث إجهاض، بعد أربعة شهور من الحمل. وعندما ولدت أمي، أعلنت الجدة أنه سيكون حملها الأخير. وكانت قد أكملت الثانية والأربعين من عمرها. وبعد نصف قرن تقريباً، وفي السن نفسها، وفي ظروف مطابقة، قالت أمي الشيء نفسه، عندما ولد إليخو غابرييل، ابنها رقم أحد عشر.

الانتقال إلى أراكاتاكا كان مقرراً من قبل الجددين، على أنه رحلة نسيان. وقد أخذوا خدمتهما، هنديين غواخيريين - أليرو وأبولينار - وهندية - ميسي - اشتروهم في موطنهم، جنة بيزو لكل واحد، بعد إلغاء الرق. وكان الكولونيل يحمل معه كل ما هو ضروري ليخلف الماضي، أبعد ما يمكن عن ذكرياته السيئة، يلاحقه عذاب الضمير المشؤوم، لقتله رجلاً في مبارزة شرف. كان يعرف المنطقة سابقاً منذ وقت طويل، عندما كان يمضي باتجاه ثيناغوا في حملة حربية، وحضر بوصفه رئيس إدارة التموين العام، توقيع معاهدة تيرلانديا.

لم يُعد البيت الجديد الطمأنينة وراحة البال إلى الأسرة، لأن تأنيب الضمير كان وبيلاً، حتى إن آثاره ستصل إلى خفيد ضال من الجيل الثالث. كانت أكثر الذكريات تواتراً وزخماً، والتي شكلنا منها رواية مرتبة لما حدث، هي تلك التي قدمتها الجدة مينا، وكانت قد صارت غمياً ونصف مخبولة، على الرغم من أنها، وسط الشائعات المتواصلة عن المأساة الوشيكة، كانت هي الوحيدة التي لم تعلم بخير الميازة، إلا بعد وقوعها.

حدثت المأساة في بارانكيّا، وهي قرية مسالمة ومزدهرة بمحاذاة جبال سييرا نيغادا، حيث تعلم الكولونيل من أبيه وجده، مهنة صياغة الذهب، وحيث رجع ليستقر، بعد توقيع اتفاقيات السلام. أما الخصم فكان مارداً يصغره بست عشرة سنة، ليبرالياً ذا عظم أحمر، مثله، وكاثوليكيّاً ممارساً، ومزارعاً فقيراً، تزوج حديثاً وله ابنان، ويحمل اسم رجل طيب: فيداردو باتشيكو. ولا بد أن أكثر ما أزعج الكولونيل هو أن خصمه لم يكن أي واحد من الأعداء الذين لا يعرف وجوههم من واجهوه في ميادين المعارك. وإنما هو صديق قديم، ومحارب له، وجندي عنده في حرب الألف يوم. وعليه أن يواجهه حتى الموت، في الوقت الذي كان الاثنان يظنان أنهما قد كسبا السلام.

كانت تلك هي الحالة الأولى من الحياة الحقيقية التي استشارت غرائز الكاتب لذي، ولم أستطع أن أظهر منها حتى الآن. لقد أدركت، منذ أن بدأت الوعي، ضخامة حجم ونقل تلك المأساة في بيتنا. ولكن تفاصيلها بقيت غائمة، فأمي التي لم تكن قد بلغت الثالثة من عمرها، تذكرتها على الدوام، كحلم غير محتمل. وكان الكبار يشوشونها أمامي،

لتختلط الأمور عليّ، ولم أستطع قط، أن أعيد تركيب اللغز كاملاً، لأن كل واحد من كلا الفريقين، يركب كل قطعة على طريقته. والزوايا الأكثر ثقة هي أن أم فيداردو باتشيكو حنقه على الثأر لفسادها، لأنها أهينت بتعليق شائن نسبته إلى جدي. فند هذا الأخير الأمر باعتباره إشاعة كاذبة، واعتذر علناً من لحقت بهم الإهانة، ولكن فيداردو باتشيكو أصر على العداء، وانتهى به المطاف إلى التحول من مُساء إليه إلى مُسيء، بتوجيه شتائم خطيرة إلى الجد حول سلوكه كليبالي. ولم أعرف بصورة مؤكدة قط، فحوى تلك الشتائم. فتجداه الجد الذي جُرحت كبريائه بدعوته إلى مبارزة حتى الموت ودون تحديد موعد ثابت.

المثال النموذجي لطبيعة الكولونيل، هو الوقت الذي تركه يمر، منذ التحدي، حتى المبارزة. رتب أموره بتكتم مطلق، ليضمن أمان أسرته في الخيار الوحيد الذي يوفره له القدر: الموت أو السجن. بدأ، دون أدنى تسرع، ببيع القليل المتبقي له للمعيشة بعد الحرب الأخيرة: ورشة الصياغة ومزرعة صغيرة ورثها عن أبيه، كان يربي فيها ثيوس أضاح، ويزرع قطعة من أرضها بقصب السكر. وبعد ستة شهور من ذلك، خبأ في قاع إحدى الخزائن، ما تجمع لديه من المال، وانتظر بصمت، اليوم الذي حدده هو نفسه: الثاني عشر من تشرين الأول ١٩٠٨. ذكرى اكتشاف أميركا.

كان فيداردو باتشيكو يعيش خارج القرية. ولكن الجد كان يعرف أنه لا يمكن له أن يتخلف في ذلك المساء، عن مركب غدراء البيلاز. وقيل أن يخرج بحثاً عنه، كتب رسالة موجزة وزقينة إلى امرأته، يقول لها فيها أين خبأ نقوده. وقدم لها بعض التعليمات الأخيرة حول مستقبل الأبناء. تركها

تحت الرقادة المشتركة، حيث ستجدها امرأته دون شك، عندما تستلقي لتنام. وخرج دون أي نوع من الوداع، لمواجهة ساعة نحصه.

وتتفق حتى أقل الروايات صلاحية، على أنه كان يوم اثنين، تقليدياً، من تشرين خريفي، بمطر كثيب من غيوم منخفضة وريح مائقة. وكان مبيداردو باتشيكو يرتدي بدلة يوم الأحد. وقد انتهى لشوه من دخول زقاق مسدود، عندما اعترض الكولونيل ماركيز طريقه، كلاهما كان مسلحاً. بعد سنوات من ذلك، وفي هذيانات جنونها، كان من عادة جذتي القول: "لقد منح الرب نيكولاسيتو فرصة العفو عن حياة ذلك الرجل البائس، ولكنه لم يعرف كيف يستغلها". ربما كانت تفكر في ذلك لأن الكولونيل قال لها إنه رأى وميض أسف في عيني الخصم الذي أخذ على حين غرة، وقال لها كذلك إنه عندما هوى الجسد الضخم كجذع شجرة سيبيا، على النباتات القصيرة، أصدر أنة دون كلمات، مثل أنة "هر مبلل". ونسيت الثقالبند الشعبية إلى باباليلو، عبارة بليغة في اللحظة التي سلم فيها نفسه إلى العمدة: "طلقة الشرف سبقت طلقة السلطة". وهي عبارة وفيّة للأسلوب الليبرالي في ذلك العهد، ولكنني لم أستطع مراعاتها مع أسلوب الجد. الحقيقة أنه لم يكن هناك شهود. وكان يمكن للرواية القضائية التي قدمها الجد ومعاصروه، من كلا الجانبين، أن تكون الرواية المرجعية. ولكن لم يبق من ملف القضية، إذا كان قد وجد أصلاً، أي ملمح نور. ومن الروايات العديدة التي سمعتها حتى اليوم، لم أجد اثنين متطابقتين.

شقت الواقعة أسر القرية، بمن في ذلك أسرة الميت، فقد دعا قسم منها إلى الشار للميت، بينما آوى آخرون في بيوتهم الجدة ترانكيلينا

إغواران وأبنائها، إلى أن هدأت مخاطر الشار. لقد أثرت في هذا التفاصيل في طفولتي، إلى حد لم أحمل وزر خطيئة سلفي كما لو أنها خطيئتي وحسب، وإغا شعرت، مثلما أشعر الآن، وأنا أكتب عن ذلك، بالعاطف مع أسرة الميت، أكثر من تعاطفي مع أسرتي.

نقلوا باباليلو إلى ريوهاشا من أجل مزيد من الأمن، ثم إلى سانتا مارتا بعد ذلك، حيث حكموا عليه سنة: يقضي نصفها في السجن ونصفها الآخر في نظام مفتوح. وفور إطلاق سراحه، سافر مع الأسرة لبعض الوقت، إلى بلدة ثيناغا، ثم إلى ينما، حيث ألحج أبنا آخر من علاقة غرامية عابرة. ثم انتقل أخيراً إلى بلدية آراكاتاكا الوبيلة والمتجهمة، بوظيفة محصل مالية في الإقليم. ولم يعد يخرج منذ ذلك الحين مسلحاً إلى الشارع، حتى في أسوأ أزمئة العنف التي رافقت ثورة الموز، بل كان يُمِتي المسدس تحت وسادته، من أجل الدفاع عن البيت فقط.

كانت آراكاتاكا آنذاك أبعد ما تكون عن الملاذ الهادئ والراكد الذي حلم به، بعد كابوس مبيداردو باتشيكو. فقد ولدت كندسكرة لهنود تشيمبلا، ودخلت التاريخ بقدمها اليسرى. كبلدية نائية، دون رب ودون قانون، في ناحية ثيناغا، أذلها حمى الموز أكثر مما أثرتها. واسمها ليس اسم قرية، وإغا اسم نهر. إذ يقال للنهر "آرا" في لغة هنود تشيمبلا. أما كاناكّا فهي الكلمة التي تطلقها القبيلة الهندية على من يأمر. ولهذا لم تكن تسمى القرية آراكاتاكّا، عند التحدث مع السكان الأصليين، وإغا يجب أن يكون الاسم: كاناكّا.

وعندما حاول الجد تشجيع الأسرة، بأوهام أن النقود تشفق هناك

في الشوارع، قالت له مينا: "المال هو روث الشيطان". أما بالنسبة إلى أمي، فكانت تلك هي مملكة كل الأراضي. وأقدم ما تذكره فيها هي جانحة الجراد التي عاثت خراباً في الزروع، عندما كانت لا تزال صغيرة جداً. "لقد كان يسمع مرور أسراب الجراد، وكأنه ربح أحجار"، هكذا قالت لي عندما ذهبتا لبيع البيت، وكان على السكان المرعوبين، أن يتحصنوا في غرفهم، ولم يتم إلحاق الهزيمة بتلك الآفة إلا بفنون الشعوذة.

في كل وقت، كانت تباغتنا أعاصير جافة تقتلع سقوف الأكواخ، وتنقض على الموز الجديد، وتخلف القرية مغطاة بغبار كوكبي. وفي الصيف، تنكل بالمواشي فترات جفاف رهيبية، أو تهطل في الشتاء أمطار كونية عاتية تحول الشوارع إلى أنهار مائعة. فكان المهندسون الغربيون يبحرون في قوارب من المطاط، بين حزم فراش غارقة وأبقار ميتة، واليونانيون فروت كومباتي، التي كانت أنظمة رها الاصطناعية مسئولة عن فوضى المياه، حوكت مسار النهر، عندما نبش أخطر تلك الفيضانات جثامين الموتى في المقبرة.

ولكن أسوأ المجاثمات وأشدّها شرمًا، مع ذلك، هي المجانحة البشرية. فقد قذف قطارٌ، يبدو مثل دمية، على رمال القرية المشوقدة، حشاة مغامرٍ من كل أنحاء العالم، استولوا بقوة السلاح على السلطة في الشارع. فازدهار القرية الطائش جعل معه نمواً سكانياً، وفوضى اجتماعية، تجاوزت كل الحدود. كانت أراكاتاكا تبعد مئة فرسخ فقط، عن مستوطنة-سجين بوينس آيرس، على نهر فورتاليسون، التي اعتاد سجنائها على الهرب في نهاية الأسبوع، ليلعبوا لعبة الرعب في

القرية. لم تكن تشبه شيئاً إلى حد كبير مثلما نشبه القرى الناشئة في أفلام الغرب، منذ أن بدأت تجلّ، في أراكاتاكا، محل أكواخ هنود التشيمبيل التي من السعف والقصب، بيوت اليونانيون فروت كومباتي الخشبية، ذات السقوف الصفيحية المروجة، والنوافذ البارزة والشرفات المسقوفة المزينة بشبانات معرشة ذات أزهار منعقة. وسط تلك العاصفة الهوجاء من الوجوه غير المعروفة، ومن الخيام المرتجلة على قارعة الطريق العام، ومن رجال يبدلون ملابسهم في الشارع، ونساء جالسات على صناديق الأمعنة، ومظلاتهن مفتوحة، وبغال وبغال وبغال تحتضرن من الجوع، في زرائب الفندق، كان من وصلوا أولاً هم الأخيرون. فقد صرنا الغريباء الدائمين، الدخلاء.

لم تكن المذابح تقتصر على مشاجرات أيام السبت وحسب، ففي مساء أحد الأيام، سمعنا صراخاً في الشارع، ورأينا مرور رجل دون رأس، ممطياً حماراً. لقد جرى قطع رأسه بضرية متشيتي في تصفية حسابات، في مزارع الموز. وقد جرف تيار الساقية المتجمد الرأس. وفي تلك الليلة سمعت من جدي التفسير الدائم: "أمر يمثل هذه الفظاعة، لا يمكن أن يقدم عليه سوى كاتشاكو".

والكاتشاكو هم أهالي الهضبة، الذين لم تكن غيظهم عن بقية البشرية، يأساليهم الفاترة الواهية، ونطقهم الفاسد وحسب، وإنما كذلك بغرورهم بأنهم مبعوثو العناية الإلهية. وقد كانت تلك الصورة مكروهة إلى حد أنه على إثر أعمال القمع الشرسة لإضرابات عمال الموز، على يد عسكري الداخل، لم تكن تسمي رجال القوة العسكرية جنوداً، وإنما كاتشاكو. كنا ننظر إليهم باعتبارهم المتفيعين الوحيديين من السلطة

السياسية. وكثيرون منهم كانوا يتصرفون على أنهم كذلك. هكذا فقط، يمكن تفسير "ليلة أراكاتاكا السوداء"، وهي مذبحة أسطورية لها أثر غائم في الذاكرة الشعبية، ولا وجود لدليل واضح على أنها قد حدثت فعلاً.

بدأ ذلك في يوم سبت أسوأ من سواه، عندما دخل شخص محترم من أبناء المنطقة، لم يحفظ التاريخ هويته، إلى حانة ليطلب كأس ماء لطفل يمسك يده. فأراد غريب كان يشرب وحيداً، على الكونستور، أن يجبر الطفل على شرب خمرة "الرؤم" بدلاً من الماء. حاول الأب منعه، ولكن الغريب أصر على طلبه، إلى أن هذر الطفل المذعور، دون أن يريد ذلك، كأس الشراب، بحركة من يده. عندئذ أقدم الغريب، دون مزيد من الجدل، على قتل الصغير، بطلق ناري.

لقد كان شبحاً آخر من أشباح طفولتي. وكان بابايللو يذكّرني به، كلما دخلنا معاً لتناول مرطب في إحدى الحانات، ولكن بطريقة خيالية يبدو معها هو نفسه، غير مصدق لما يرويه. لا بد أن ذلك حدث بعد وقت قصير من وصوله إلى أراكاتاكا، لأن أمي تتذكره، من خلال الرعب الذي كانت تشبه الواقعة في كبار أسرتها. لم يُعرف عن المعندي إلا أنه يتكلم بلهجة أهل مرتفعات الأنديز المتكلفة، ولهذا لم ينفلت انتقام القرية ضده وحسب، وإنما ضد أي واحد من الغرباء، الكثيرين والمكروهين الذين يتكلمون لهجته. اندفعت، في الليل إلى الشوارع، زمر من الأهالي المسلحين يناجل منشيتي قطع قصب، وكانوا يسكون الكتلة غير واضحة المعالم التي يقاؤونها في الظلام، ويأمرونها:

- تكلم!

وبسبب اللهجة وحدها، كانوا يمزقونه بضربات المنشيتي، دون أن تهمهم عدالة تصرفهم، وسط أساليب التكلم المختلفة. وقد قُدِّر لدون رافائيل كينثيرو أورتيغا، زوج خالتي وينفريدا ماركييز، الكاتشاكو الفح والمحبوب، أن يعيش ويوشك أن يحتفل بعيد ميلاده المشوي في الحياة، لأن جدي حيسه يومذاك في حجرة مؤونة، إلى أن هدأت الحواطر.

بلغ شقاء الأسرة ذروته، بعد سنتين من العيش في أراكاتاكا، بموت مرغريتا ماريلا مينيانا التي كانت نور البيت، وقد بقيت صورتها الملتقطة بألة دغريتيب، معروضة في الصالة لسنوات طويلة. وبقي اسمها يتردد من جيل إلى آخر، كعلامة أخرى من العلامات المميزة للهوية الأسرية. الأجيال الحديثة لا تبدي تأثراً بتلك الفتاة ذات التنورة المجددة، والجزمة البيضاء، والجديلة الطويلة حتى الخصر، والتي لا يستطيعون مطابقتها أبداً مع الصورة البلاغية لجدة جدتهم. ولكن لدي انطباعاً بأنه تحت وطأة تأنيب الضمير، والأحلام المحيطة بعالم أفضل، كانت حالة الاستنفار الدائمة تلك، في نظر جدي، هي أقرب ما تكون إلى السلام. فحتى موتهما، بقيا يشعران بأنهما غريبان في أي مكان يحلان فيه.

لقد كانا كذلك، في الواقع. ولكن التمييز الفوري كان صعباً، وسط حشود القطار التي جاءتنا من العالم أجمع. وبالاندفاع الذي جاء به جدّاي وذريتهما، وصل كذلك آل فيرغوسا، وآل دوران، وآل بيرراكاتا، وداكوتي، وكوريّا، بحثاً عن حياة أفضل. ومع اضطرابات الشغب، جاء الإيطاليون، والكتاريون، والسوريون - وكنا نسميهم توركو - متسللين من حدود بروبينشيا، بحثاً عن الحرية، وطرق أخرى في العيش افتقدوها في بلادهم. كان هناك أناس من كل الألوان والمستويات. بعضهم من

الهاربين من جزيرة الشيطان - مستوطنة السجن الفرنسية في غوايانا - وكانت أفكارهم، أكثر من جرائمهم العادية، هي السبب في ملاحقتهم. أحدهم هو ريشيه بلفينو، وكان صحفياً فرنسياً محكوماً لأسباب سياسية، انتقل هارباً إلى منطقة الموز، وكشف في كتاب يارع الأحوال التي عرقها في سجنه. ويفضلهم جميعاً - الطبيين منهم والسيثيين - كانت أراكانا منذ نشوئها، بلاداً بلا حدود.

ولكن الجالية التي لا تُسمى بالنسبة إلينا هي الفنزويلية، وفي أحد بيوتها كان يستحم بدلاء ماء من البرك المتجمدة، عند الفجر، طالبان مرافقان في إجازة، رومولو بئانكور، وراؤول ليوني، اللذان سيصيران بعد نصف قرن من ذلك رئيسين لبلادهما على التوالي. أما أقرب الفنزويليين إلينا فكانت السيدة خوانا دي فريثيس، وهي امرأة مهيبة وباهرة، تمتلك موهبة توراتية في قصص الحكايات. فأول قصة رسمية عرفتُها هي جيوفينا دي بربانتي، وقد سمعتها منها، مع قصص أخرى من أبرز أعمال الأدب العالمي التي كانت توجزها إلى حكايات أطفال؛ الأوديسة، أورلاند الغاضب، دون كихوته، الكونت دي مونتكريسو، وقصص كثيرة من الكتاب المقدس.

لقد كانت ذرية الجد إحدى أكثر الأسر احتراماً، ولكن أقلها نفوذاً في الوقت نفسه. وتميزت مع ذلك بجدارتها بالاحترام المعترف به حتى من المسؤولين المحليين في شركة الموز. فهي من أسر المحاربين الليبراليين السابقين في الحروب الأهلية، ممن استقروا هناك، بعد الاتفاقيتين الأخيرتين، ونموذجهم الجيد هو الجنرال بيخامين هيريرا، الذي كانت تُسمع في الأمسيات، من مزرعته في نيرلانديا، موسيقى فالسات كشبة، من يرقه السلمي.

صارت أمي امرأة في ذلك المكان البائس، واحتلت حيز كل الغراميات، منذ أن قضى التيفوس على مرغرتا مازيا مينياتا، وكانت هي نفسها أيضاً عيلة كثيرة المرض. فقد عاشت طفولة قلقة عانت فيها من نوبات الحمى الثلاثية. ولكنها عندما شفيت من آخرها، كان الشفاء نهائياً، وإلى الأبد، وتمتعت بصحة أتاحت لها الاحتفال بعيد ميلادها السابع والتسعين، مع أبنائها الأحد عشر، وأبناء زوجها الأربعة، وخمسة وستين حفيداً، وثمانية وثمانين ابن حفيد، وأربعة عشر من أحفاد أحفادها. دون عذ من لم يُعرفوا قط. وقد ماتت ميتة طبيعية، يوم التاسع من حزيران ٢٠٠٢ في الساعة الثامنة والنصف ليلاً، عندما كنا نعيد العدة للاحتفال بقرنها الأول في الحياة. وكانت وفاتها في اليوم نفسه، وفي الساعة نفسها تقريباً التي وضعتُ فيها نقطة النهاية لهذه المذكرات.

كانت قد ولدت في بارانكاس، في الخامس والعشرين من تموز ١٩٠٥، حين بدأت الأسرة تشهيد عاقبتها من كاوكة الحروب الأهلية. أطلقوا عليها اسمها الأول، تكريماً لذكرى لويسا ميخيا بيدال، أم الكولونيل، التي انقضت في ذلك اليوم، شهر على وفاتها. أما الاسم الثاني، فوقع عليها مصادفة، لتوافق يوم ميلادها مع عيد الرسول سانتياغو الأكبر^(١)، الذي قُطع رأسه في أورشليم. وقد أخفت هي هذا الاسم الثاني طوال نصف حياتها، لأنه بدا لها اسماً ذكورياً وصاحباً، إلى أن جاء ابن عاق وكشفه في رواية^(٢).

(١) سانتياغو الأكبر Santiago el Mayor، هو يعقوب بن زبدي، أحد حواري المسيح، قتلته هيرودس الملك.

(٢) الإشارة هنا إلى رواية المؤلف نفسه "قصة موت معلن"، حيث يذكر اسمها في نهاية الفصل الأول.

كانت تلميذة مجتهدة، باستثناء درس البيانو، الذي فرضته عليها أمها التي لم تكن قادرة على تصور آنسة محترمة لا تكون عازفة بيانو بارعة. وقد درست لويسا سانتياغا العزف، بدافع الطاعة والانصياع، طوال ثلاث سنوات، ثم هجرته يوماً بسبب الضجر من التمارين اليومية، في قبض القيلولة. ومع ذلك، فإن الميزة الوحيدة التي أفادتها، في زهرة العشرين من عمرها، هي قوة شخصيتها، حين اكتشفت الأسرة أنها مفتونة بحب عامل التلغراف الشاب والمتكبر في أراكاتاكا.

لقد كانت قصة تلك الغراميات المقموعة، واحدة أخرى من دهشات شبابي. فلكثرة ما سمعت روايتها من أبيي، كل منهما على حدة، صارت القصة مكتملة لدي تقريباً عندما كتبت روايتي الأولى، "الأوراق الذابلة"، وأنا في الثالثة والعشرين، ولكنني كنت واعيّاً أنه ما زال عليّ أن أتعلم الكثير حول فن القص الروائي. كلاهما كان راوياً ممتازاً، ولديه ذاكرة الحب السعيدة، ولكنهما بلغا في روايتهما حدوداً من الشغف العاطفي، لم أستطع معها تبيين الحدود بين الحياة والشعر، عندما قررت، أخيراً، بعد أن تجاوزت الخمسين، استخدام قصة جيهما في رواية "الحب في زمن الكوليرا".

لقد التقيا أول مرة، حسب رواية أمي، في مأتم طفل، لم يتمكن أي منهما تحديد لي، وكانت يومذاك تغني في الفناء، مع صديقاتها، وفق العادة الشعبية في قضا. لبالي الأبرياء التسع، في إنشاد أغنيات الحب، وفجأة انضم صوت رجولي إلى الكورال، فالتفتن جميعهن لرؤيته وأصابهن الارتباك حيال حسن مظهره. "ستزوج منه"، غنن هذه العبارة في قفلة المقطع، على إيقاع أكفهن، ولكن رؤيته لم تؤثر في أمي، وهذا

ما قالته: "لقد بدا لي أنه غريب آخر". وكان كذلك بالفعل، فقد وصل لسوء من كارتاخينا دي إندياس، بعد أن قطع دراسة الطب والصيدلة، بسبب شح الموارد، وانطلق في حياة أقرب إلى الابتذال والسوقية، في عدد من قرى المنطقة، ممارسة مهنة عامل التلغراف الحديثة. إحدى صوره في تلك الأيام، تبديه بالمظهر الخاطئ لمثائق فقير. فهو يرتدي قميصاً قاتماً من حرير التفنن، مع سترة ذات أربعة أزوار، ضيقة جداً، على موضة تلك الأيام، وياقة قاسية، وربطة عنق عريضة، وقبعة من القش، وكان يضع كذلك نظارة من النوع الدارج، عدستها مستديرتان من زجاج طبيعي وإطارها رفيع. من عرفوه في تلك الفترة، كانوا يرون فيه يوهيمياً محباً للسهر، وزيراً نساء، ولكنه لم يشرب مع ذلك قطرة خمر واحدة، ولم يدخن سيجارة واحدة طوال حياته المديدة.

كانت تلك هي أول مرة تراءى فيها أمي. أما هو بالمقابل، فكان قد رآها في قداس الساعة الثامنة، يوم الأحد السابق، وهي بحراسة العمدة فرانشيسكا سيمودوسيا التي كانت وصيغتها المرافقة، منذ أن عادت من المدرسة. ثم رآها مرة أخرى يوم الثلاثاء التالي، تخيطان تحت أشجار اللوز، عند بوابة البيت، وهكذا كان يعرف في ليلة المأتم أنها ابنة الكولونيل نيكولاس ماركيز الذي جاء حاملاً له عدة رسائل توصية. وعرفت هي أيضاً، منذ ذلك الحين، أنه عازب ومتقلب الغراميات، وأنه بصيب نجاحاً قوياً لطلاوة لسانه، وتدفق شاعريته، ورقصه الطريف على وقع الموسيقى الدارجة، وعاطفيته المدروسة ممسحاً التي يعزف بها الكمان. وقد روت لي أمي أن من كان يسمعه يعزف فجراً، لا يتمكن من كبح رغبته في البكاء. وكانت بطاقة تقديمه لنفسه في المجتمع هي

معزوفة "عندما انتهت الرقصة"، وهي مقطوعة فالس ذات رومنتيقية مستترفة، ضمها إلى قائمة معزوفاته وصارت لحناً لا بد منه في جولات العزف الليلية (السيرنادات)، جوازات المرور المحببة هذه، وجاذبيته الشخصية، فتحت له أبواب البيت، وأتاحت له التردد بكثرة على مائدة الغداء العائلية. وقد تبنته العمة فرانشيسكا، المتحدرة من قرية كارمن دي بوليفار، دون تحفظ، عندما علمت أنه مولود في سينثي، وهي قرية قريبة من قريتها. وكانت لويسا سانتياغا تستمتع في الحفلات الاجتماعية، بحيلة في الإغواء، ولكن لم يدرك في خلدها قط أنه يسعى إلى ما هو أكثر من ذلك. بل على العكس؛ فقد كانت علاقتهما الطيبة تستند، قبل كل شيء، إلى أنها كانت تشكل واجهة لغرامياتها الخفية مع إحدى زميلاتهما في المدرسة، وقد وافقت على أن تكون أسيبته في زفافه. وصار منذ ذلك الحين يدعوها أسيبته، بينما تدعوها هي فليوني^(١). ومن السهل، في مثل هذا الوضع، تصور مدى دهشة لويسا سانتياغا في إحدى ليالي حفلات الرقص، عندما أقدم عامل التلفزيون الجزائري، على انتزاع الورد المعلقة في عروة ياقته، وقال لها:

- أسلمك حياتي في هذه الورد.

لم تكن حركة مريحة، هذا ما قاله مرات كثيرة، وإنما جاءت بعد أن تعرف عليهن جميعاً، وتوصل إلى أن لويسا سانتياغا قد خلقت له. أما هي فنهضت حركة تقديم الورد، على أنها دعابة أخرى من مزاحه التوددي الذي اعتاد ممارسته مع صديقاتها. وكانت مقتنعة بذلك، إلى

(١) الفليون: هي التسمية التي يطلقها العرب على ابنة بالعماد، أو الأسيب على العريس الذي يكفله.

حد أنها تركت الورد منسية هناك، أينما اتفق، وائتبه هو إلى ذلك. لم تكن قد عرفت قبل ذلك سوى متودد سري واحد، وهو شاعر غير محظوظ، وصديق طيب لم يتمكن من الوصول قط إلى قلبها بأشعاره الملتهية. ومع ذلك، فقد عكرت وردة غابرييل إليخو أحلامها، بغضب لا تفسير له. في محادثتنا الرسمية الأولى عن غرامياتها، وكانت مثقلة بالأهنا، اعترفت لي: "لم أستطع النوم لغضبي من كونني أفكر فيه، ولكن ما كان بغضبي أكثر، هو أنني كلما ازدادت غضباً، كان تفكيري فيه يزداد". وتحملت خلال بقية الأسبوع بشقة رعب رؤيته وعذاب عدم التمكن من رؤيته، وتحولاً من أسيبة وفليون، كما كانا، إلى التعامل كمن لا يعرف أحدهما الآخر. وفي إحدى تلك الأسابيع، بينما كنا نخططان تحت أشجار اللوز، وخزت العمة فرانشيسكا ابنة أخيها بخيبتها الهندي:

- قيل لي إن هناك من قدم لك وردة.

ومثلما يحدث عادة، كانت لويسا سانتياغا هي آخر من يعلم بأن عواصف قلبها قد صارت موضوعاً متداولاً بين الجميع. وفي المحادثات الكثيرة التي أجريتها معها ومع أبي، كانا متفقين على أن الحب الصاعق مر بثلاث مناسبات حاسمة. الأولى كانت في القديس الكبير، في يوم أحد الشعانين. وكانت هي تجلس مع العمة فرانشيسكا على مقعد من جهة المنشد، عندما تعرفت على وقع خطوات كعبيه الفلامنكيين على آجر الأرضية، ثم رأت أنه يمر قريباً جداً إلى حد أنها شمت رائحة عطره الفاتر كعريس. لم يدرك على العمة فرانشيسكا أنها رأتها، وبدا أنه هو أيضاً لم يرها، ولكنه في الحقيقة كان قد دبر كل شيء مسبقاً، فقد لحق بهما عندما مرتا على مكتب التلفزيون. وبقي واقفاً إلى جوار أقرب الأعمدة

من النبوة، بحيث يستطيع رؤيتها مديرة ظهرها، بينما لا يستطيع هي رؤيته. وبعد عدة دقائق متوترة، لم تستطع لورسا سانتياغا كبح لهفتها. ونظرت نحو الباب من فوق كتفها، وأحست عندها بأنها تموت من الغضب، فقد كان ينظر إليها، وتقاطعت نظراتهما. "كان هذا هو ما خططت له بالضبط"، اعتاد أبي أن يقول ذلك، بسماعة، كلما أعاد قص الحكاية لي في شبخوخته. أما أبي بالمقابل، فلم قل من تردد القول بأنها لم تستطع، طوال ثلاثة أيام، السيطرة على غضبها، لوقوعها في الفخ الذي نصبه لها.

المناسبة الثانية كانت رسالة كتبها إليها. لم تكن الرسالة التي انتظرتها، من شاعر وعازف كمان في ساعات الفجر المستترة، وإنما رسالة أمرة، تطالبها بالرد، قبل أن يسافر إلى سانتا مارتا، في الأسبوع التالي. لم ترد عليه، وحبست نفسها في حجرتها، مصممة على قتل تلك الدودة التي لا تبقي لها أنفاساً للعيش، إلى أن حاولت العمدة فرانشيسكا أن تقنعها بأن تستسلم دفعة واحدة، قبل أن يفوت الأوان، وفي محاولة منها للتغلب على مقاومتها، روت لها القصة النموذجية لخوفينتينو تريسيو، ذلك العاشق الذي كان يربط تحت شجرة محبته المستحيلة كل ليلة، منذ الساعة السادسة حتى العاشرة. فكافأته بكل أشكال الصد التي خطرت لها، وانتهى بها الأمر إلى أن تُفرغ عليه، من الشرفة، ليلة بعد ليلة، مبرلة صغيرة مملئة بالبول. ولكنها لم تستطع إبعاده. وبعد كل أشكال تلك الاعتداءات التعميدية - ومتأثرة بتفاني ذلك الحب الذي لا يُهزم - تزوجت منه. ولكن قصة حب أبوي لم تصل إلى تلك الحدود.

مناسبة الحصار الثالثة، كانت حفلة زفاف شديدة الأبهة، دعي إليها كلاهما كإشيبي شرف. لم تجد لورسا سانتياغا ذريعة للتملص من التزام شديد القرب من الأسرة. ولكن غابرييل إليخير كان قد فكر بذلك أيضاً، وذهب إلى الحفلة، وهو مستعد لكل شيء. لم تستطع هي كبح جماح قلبها عندما رأتها يجتاز القاعة بتصميم بالغ الوضوح، ويدعوها إلى الرقصة الأولى. وقد قالت لي: "كان الدم يغور بقوة في جسدي، ولم أعد أعرف إذا ما كان السبب هو الغضب أم الخوف". واتبه هو إلى ذلك، ووجه ضربة قاسية: "لم تعودني مضطرة إلى أن تقولي لي نعم، لأن قلبك يقولها لي".

تركته هي دون مزيد من اللف والدوران، وخلفته مسرراً في القاعة، في منتصف الرقصة. ولكن أبي فهم الأمر على طريقته.

- بقيت سعيداً - هذا ما قال لي.

لم تستطع لورسا سانتياغا كبح الضغينة التي أحست بها، ضد نفسها، عندما أيقظتها في الفجر مغازلات الفالس المسوم: "عندما انتهى الرقص قبيل الفجر". وفي أولى ساعات صباح اليوم التالي، أعادت إلى غابرييل إليخير كل هداياه. هذا الصبد المجحف، والأقاويل عن تركها له في حلبة الرقص، أثناء حفلة الزفاف، كانت أشبه برياش أُلقيت في الهواء. ولم تعد هناك ريح قادرة على إرجاعها. اعتبر الجميع أن تلك هي النهاية غير المجيدة لعاصفة صيفية. وقد تعزز الانطباع لدى إصابة لورسا سانتياغا بنكسة الحصى الثلاثية التي كانت تعاني منها في طفولتها، فأخذتها أنها لتخفف عنها إلى قرية مانوزي، وهي ركن فردوسي متاخم لسلسلة جبال سييرا نيغادا. وقد أنكر كلاهما على الدوام

وجود أي اتصال بينهما، خلال تلك الشهور، ولكن لا يمكن تصديق ذلك بسهولة. فعندما رجعت، وقد تعافت من علتها، صاراً بيدوان وكأنهما قد تعافيا كذلك من شكوكهما. ويقول أبي إنه ذهب لانتظارها في المحطة، لأنه قرأ البرقية التي أرسلتها ميثا معلنة عودتها إلى البيت. وقد أحس، من الطريقة التي شددت بها لويسا سانتياغا على يده لدى المصافحة، بما يشبه إشارة مشفرة ماسونية، فسرّها هو على أنها رسالة حب. وقد أنكرت هي ذلك دوماً، بالخفر والحياء اللذين تستحضر بهما ذكريات تلك السنوات. ولكن الحقيقة أنهما صاراً منذ ذلك الحين، يظهران معاً بقدر أقل من التكميم. ولم يكن ينقص إلا النهاية التي وفرتها العمة فرانسيسكا، في الأسبوع التالي، بينما هما تخبطان في بحر أزهار البيجونيا:

- لقد علمت ميثا بالأمر.

وقد قالت لويسا سانتياغا، على الدوام، إن معارضة الأسرة كانت السبب في تجاوز حواجز السيل الذي كانت تكبحه في قلبها، منذ الليلة التي تركت فيها المتروك إليها، مسرراً في منتصف حلبة الرقص. كانت حزيناً ضاربة. وقد حاول الكولونيل البقاء على هامشها، ولكنه لم يستطع تجنب الشعور بالذنب الذي واجهته به ميثا، عندما انتهت إلى أنه لم يكن هو نفسه بريئاً كذلك، بالقدر الذي يظهره. كان واضحاً للجميع أن عدم التسامح لم يكن منه، وإنما منها، مع أن عدم التسامح كان مدرجاً، في الحقيقة، في قانون القبيلة التي ترى أن أي عريس هو شخص دخيل. هذا التحامل المسبق المشوارث الذي ما زالت جذواته موجودة تحت الرماد، جعلت منا جمعية نساء عازيات ورجالاً بسراريل دون فتحات مع أعداد كبيرة من أبناء الأزقة غير الشرعيين.

انقسم الأصدقاء حسب السن، مع الغاشقين أو ضدهما، ومن لم يكن لهم موقف جذري، جاءت الأحداث لتفرضه عليهم. الشباب اتخذوا موقف المزيدين المتواطئين بالتهاج، وخاصة معه، إذ قنع متلذذاً بشرطه كضحية تكفير عن تحامل الأثكار الاجتماعية المسبقة. أما غالبية الكبار بالمقابل، فكانت ترى في لويسا سانتياغا، أثمن جوهرة في أسرة ثرية ومتنفذة، لا يمكن لعامل تلغراف وصولي وغريب أن يتروّد إليها بدافع الحب، وإنما بدافع المصلحة. وقد تصدّت هي نفسها لمعارضيتها، رغم ما عُرِف عنها من انصياع وخضوع، بضراوة لبوة تُفسّأ. وفي أحد أشد نزاعاتها البيتية الكثيرة جفاً، فقدت ميثا السيطرة على نفسها، ووقعت في وجه ابنها سكين تقطيع الخبز. قواجهتها لويسا سانتياغا برنابطة جأش. ولكن ميثا انتهت فوراً إلى فورة غضبها الإجرامي، فأفلتت السكين وصرخت مدعورة: "ريادا"، ووضعت يدها على جسر الموقد، في حركة تكفير فظة.

إحدى الحجج القوية ضد غابرييل إليخو، هي وضعه كابن طبيعي لأُم عازية أنجبتته وهي في سن الرابعة عشرة المتواضعة، من عشرة عابرة مع معلم مدرسة. كان اسمها أرخيمينا غارثيا باتيمينا، وهي بيضاء، محشوقة القوام، ذات روح حرة، أنجبت ستة أبناء آخرين وابنتين من ثلاثة آباء مختلفين، لم تتزوج أبداً منهم أو تسكن معه تحت سقف مشترك. وكانت تعيش في قرية سينشي، حيث ولدت، وترعى ذريتها بالأطفال ومزاج مستقل وسعيد كذا ثمناء، نحن أحفادها، ليوم أحد شعائين.

كان غابرييل إليخو نموذجاً متميزاً لتلك السلالة الرثة. فقد عاش، منذ بلوغه السابعة عشرة، خمس عشيقات عذراوات، حسب ما كشف

عنه لأمي، كسيفعل ثوية، في ليلة زفافهما على متن سفينة ريوهانشا الشراعية التي في حالة يرثى لها والمصفوعة بالعاصفة. اعترف لها بأنه في علاقته بإحداهن، وهو عامل تلغراف في قرية آتشي، في الثامنة عشرة من عمره، أحب منها ابناً، يدعى ايلاردو، يوشك أن يتم الثالثة من عمره. وفي علاقته بواحدة أخرى، وهو عامل تلغراف في آبايل، وكان في العشرين من عمره، أحب ابنة عمرها شهر، وهو لا يعرفها، وتدعى كارمن روسا. وقد وعد أم الطفلة بالعودة إليها للزواج منها، وكان لا يزال يحافظ على وعده حيناً عندما انحرف مسار حياته بحب لويسا سانتياغا. كان قد اعترف بابنه الأكبر، أمام كاتب العدل، وسيفعل ذلك في ما بعد مع ابنته. ولكن ذلك الاعتراف لم يكن سوى شكلية بيزنطية لا قيمة لها أمام القانون. ومن المفاجئ أن يسبب ذلك السلوك الشاذ مخاوف أخلاقية للكولونيل ماركيز الذي أعجب، فضلاً عن أبنائه الثلاثة الرسميين، تسعة أبناء آخرين من أمهات مختلفات، قبل زواجه وبغده، وكانت زوجته تستقبلهم جميعهم، كما لو أنهم أبناءها.

ليس بإمكانني أن أحدد متى علمت بأول أخبار تلك الوقائع. ولكن تهتكات أسلافي لم تكن تهمني على أي حال. أما أسماء الأسرة بالمقابل، فكانت تشد انتباهي، لأنها تبدو لي فريدة. أولاً أسماء أسرتي من جهة أُمي: ترانكيلينا، وينفرايدا، فرانثيسكا سيغودوسيا. وفيما بعد، اسم جدتي لأبي أرخيميرا، واسم أبويها، لوثانا واميناداب. وربما من هنا يأتي اليقين الراسخ بأن شخصيات رواياتي لن يسببوا على أقدامهم بالذات، ما داموا لا يملكون اسماً يتطابق مع طريقتهم في العيش.

وقد تفاقمت الحجج ضد غابرييل إليخيرو لكونه عضواً نشيطاً في الحزب المحافظ الذي خاض الكولونيل ماركيز حروبه ضده. كان السلام قد استتب جزئياً فقط، منذ توقيع اتفاقيتي نيرلانديا وويسكرتسين، ذلك أن المركزية المشقوقة كانت لا تزال في السلطة، وكان لا بد من مرور زمن طويل قبل أن يتخلى النبلاء والليبراليون عن التكشير عن أنيابهم. ربما كانت ميول العاشق المحافظة، ناشئة عن عدوى أسرية أكثر مما هي قناعة فكرية. ولكنهم كانوا يأخذون الأمر بالحسبان أكثر من اهتمامهم بمسائل أخرى في طبيعته الطيبة، مثل ذكائه المتيقظ على الدوام، ونزاهته المجربة. كان أبي رجلاً يصعب استشفافه وإرضائه. وكان دائماً أفقر مما يبدو عليه. وقد اعتبر الفقر عدواً بغيضاً لم يستسلم له قط ولم يتسكن كذلك من هزيمته. وبعبارة النقص والشجاعة نفسها، تحمل عواقب قراميات مع لويسا سانتياغا، في الهجرة الخلفية من مكتب التلغراف في أراكاتاكا، حيث كانت لديه أرجوحة نوم معلقة على الدوام، ينام عليها وحيداً، ومع ذلك، كان هناك، إلى جواره، سرير عازب ضيق أيضاً، توابضه مزينة جيداً، محسباً لما يمكن أن يوفره له الليل. في إحدى الفترات، شعرت بميل إلى عاداته كصيد متخف. ولكن الحياة عليتي بأنها أشد حالات العزلة قهلاً، وأخسست بشفقة كبيرة عليه.

وإلى ما قبل موته بقليل، كنت أسمعته يروي كيف أنه اضطر في أحد تلك الأيام العصبية إلى الذهاب مع بعض الأصدقاء إلى بيت الكولونيل. فدعوا الجميع للجلوس باستثنائه هو. ولكن أسرته أنكرت ذلك دوماً، وعزته إلى جذوة الاستياء الكامنة في نفس أبي. أو إلى ذكرى زائفة على الأقل، ولكن في إحدى المرات، عندما كانت جدتي في

حوالي المئة من عمرها. أفلت منها في هذياناتها الدراماتيكية التي لم تكن تبدو استذكّاراً لأحداث، وإنما عودة لعيشها من جديد.

- ها هو هناك، ذلك الرجل المسكين، واقفاً عند باب الصالة، ونيكولاسيتو لم يدعه للمجلوس - قالت ذلك متألة حقاً.

وكنْتُ متيقظاً على الدوام لئلا هذه الإحياءات المبهرة، فسألناها من هو الرجل. وردت علي بجفاء:

- إنه غارسيا، ذو الكمان، وسط كل تلك الحماقات الكثيرة، كان أقل ما يشبه طريقة والذي

في الحياة، هو شراؤه مسدساً محسباً لما يمكن أن يحدث مع محارب في استراحة، مثل الكولونيل ماركيز. كان مسدساً معتبراً من نوع سميت

أند وسن ٢٨ طريل، لا أحد يدري كم عدد الذين امتلكوه سابقاً، وكم هناك من القتل على كاهله، الشيء المؤكد الوحيد هو أنه لم يطلق النار

منه قط ولو على سبيل الاحتياط أو الفضول. وقد وجدنا نحن أبناء الكبار، المسدس، بعد سنوات من ذلك، وفيه رصاصاته الخمس الأصلية،

في خزانة أمتعة غير مجدية، إلى جانب كمان السيرنادات.

لم تشب صرامة الأسرة من عزيمة غابرييل إليخير ولويسا سانتياغا. وكان بإمكانهما اللقاء، خفية، في أول الأمر، في بيوت الأصدقاء،

ولكن عندما أطبق الحصار عليهما تماماً، صارت وسيلة التواصل الوحيدة هي الرسائل التي يجري تلقيها وإرسالها بأساليب مبتكرة، وكان كل

منهما يرى الآخر من بعيد، عندما متعها ذوقها من حضور الحفلات التي يدعى إليها. ولكن التمتع بلغ حدوداً ضارمة، بحيث لم يعد هناك من يتجرأ على تحدي نوبات غضب ترانكيلينا إغواران. ولم يعد العاشقان

للظهور أمام الناس. وعندما لم يتبق هناك أي ثغرة لتبادل الرسائل الخفية، ابتدع الخطيبان أساليب تشبه أساليب الناجين من الغرق. فقد

تقننت هي من إخفاء رسالة تهنئة في قالب حلوى (بودين) أوصى عليه أحدهم من أجل عيد ميلاد غابرييل إليخير. ولم يكن هو بدوره يفوت

فرصة ليرسل إليها بريقات مزيفة وبرشة مع الرسالة الحقيقية المشفرة أو المكتوبة بحبر سري. صار تواطؤ العمة فرانثيسكا عندئذ جلياً جداً، على

الرغم من إنكارها الحاسم، مما أثر لأول مرة على سلطتها في البيت، ولم يعد يسمح لها بمرافقة ابنة أخيها، إلا وهي تخطط في ظل أشجار اللوز.

وعندئذ صار غابرييل إليخير يبعث رسائل خب من نافذة الدكتور ألفريدو بارنوئا، على الرصيف المقابل، بإشارات الضم واليكم اليدوية.

وقد أتقنت هي تلك الإشارات، على أحسن وجه، إلى حد أنها كانت تتمكن، في لحظات فهو العمة، من تبادل أحاديث خفية مع خطيبها.

وقد كانت تلك واحدة من الحيل العديدة التي ابتدعتها أدريانا بيردوغو، صديقة لويسا سانتياغا الروحية، وأشد المتواطئات معها عوناً وجرأة.

مناورات المواساة تلك، كانت تكفيهما للبقاء، حين على نار هادئة، إلى أن تلقى غابرييل إليخير رسالة من لويسا سانتياغا تنقوه بالخطر،

مما اضطره إلى إعادة نظر حاسمة. كانت قد كتبها بسرعة، على ورق تواليت، وأودعتها الخبير المشزوم بأن أهربها قرواً أخذها إلى بارانكاس،

بالتنقل من قرية إلى قرية، كعلاج قاس من داء غرامياتها. ولن تكون رحلة نظامية في ليلة نحس تقضيها في سفينة ريواتشا، وإنما عبر

طريق الجبال الرهيب، في سلسلة سيرا نيفادا، على متن البغال، وفي العربات، لاجتياز مقاطعة بادينا الفسيحة.

كنتُ أفضل الموت على تلك الرحلة". هذا ما قالت له لي أمي يوم ذهبتا لبيع البيت. وقد حاولت الموت فعلاً، بحبس نفسها وراء باب غرفتها المغفل، والعيش على الخبز والماء، طوال ثلاثة أيام، إلى أن تغلب عليها الخوف التوقيري الذي كانت تشعر به تجاه أبيها. أدرك غابرييل إليخيرو أن التوتر قد بلغ أقصى حدوده، واتخذ قراراً متطرفاً أيضاً، ولكنه مرن. فاجتاز الشارع بخطوات واسعة، من بيت الدكتور باربوت، إلى ظل شجرات اللوز، ووقف أمام المراتين اللتين انتظرتاه مرصوبتين، وشغل الحياطة في حضنيهما.

- اعطلي معروفاً بتركي وجيداً للحظة مع الأتيسة - قال للعممة فرانثيسكا - لدي شيء مهم أريد قوله لها على انفراد.

قردت عليه العممة:

- وقع! ليس هناك ما يعينها ولا يمكنني سماعه.

فقال:

- لن أقوله إذاً. ولكنني أحذرك من أنك ستكونين مسؤولة عما سيحدث.

توسلت لوريسا سانتياغا إلى عمتها لتتركهما وحيدتين، وجازفت بتحمل المسؤولية. عندئذ أعرب لها غابرييل إليخيرو عن موافقته على قيامها بالرحلة مع أبويها، مهما كانت الطريقة والمدة. ولكن شريطة أن تعاهد، تحت القسم بأنها ستزوج منه. وفعلت هي ذلك راضية، وأضافت على حسابها ومسؤوليتها أنه لا يمكن إلا للموت وحده، أن يحول دون ذلك. وقد كانت تلك السنة فرصة لكليهما، كي يشيئا جدية عهدهما، ولكن أياً منهما لم يكن يتصور كم سيكلفهما ذلك. استمر الجزء الأول

من الرحلة في قافلة بغالين، مدة أسبوعين، على متن البغال، عبر الدروب الجبلية الضيقة في سلسلة سييرا نيغادا، وكانت ترافقهم تشون - تصغير تحبب لاسم إنكارناثيون - خادمة وينفريدا، والتي انضمت إلى الأسرة منذ مغادرتها بارانكاس. كان الكولونيل يعرف جيداً ذلك الطريق الوعر، حيث خلف سلسلة من الأبناء، في ليالي حروبه المبددة، ولكن زوجته فضلت سلوك ذلك الطريق، دون أن تعرفه، بسبب ذكرياتها السيئة عن الرحلة في السفينة الشراعية. أما أمي التي كانت تمثلي بغلة لأول مرة، فكانت الرحلة بالنسبة لها كابوس شمرس عارية وأمطاراً حارية، وكانت تمضي وروحها مغلقة بخيط، بسبب بخار الوديان السحيقة المنوم. وكان تفكيرها بخطيب غير مؤكد، بهدلات منتصف الليل التي يرتديها، وكمان الفجر، يبدو إحدى سخريات المخيلة، في اليوم الرابع من الرحلة، عندما أحسّت بأنها عاجزة عن البقاء على قيد الحياة، هددت أمها بالبقاء نفسها إلى الهاوية بما لم يعودوا إلى البيت. وقررت ميناء الحانفة أكثر منها، العودة. ولكن رئيس القافلة بين لها على الخريطة بأنه لم يعد هناك فرق بين العودة ومواصلة الرحلة. وقد جاءتهم الراحة في اليوم الحادي عشر، عندما ألحوا من آخر منعطف جبلي سهل بايدوبار المشرق. قبل أن تنتهي المرحلة الأولى، كان غابرييل إليخيرو قد أمّن اتصالاً دائماً مع الخطيبة الجوالّة، بفضل تواطؤ عاملتي التلغراف في القرى السبع التي ستتوقف فيها هي وأمها، قبل الوصول إلى بارانكاس، وساعدت لوريسا سانتياغا أيضاً بما هو مترتب عليها. فقد كانت أنحاه بروينثيا كلها تغص بأناس من آل إغسواران وكوتيس، يشترك وعيهم لأصول سلالتهم قوة شبكة معقدة وكتيصة، وقد نجحت هي في استمالتهم إلى

جانبيها. فأتاح لها ذلك الحفاظ على مراسلات محسومة مع غابريل إليخيو، ابتداء من بايندويار، حيث قضت مدة ثلاثة أشهر، وحتى نهاية الرحلة، بعد سنة من ذلك تقريباً. كان يكفئها أن تقرأ على مكتب التلغراف في كل قرية، بالتواظف مع قرية شابة ومنحصة، لكي تلتقي رسائله وترد عليها. وقد لعبت تشون، كاتبة الأسرار الصموت، دوراً لا يضمن، لأنها كانت تخفي الرسائل بين ثيابها، دون أن تشير قلق لويسا سانتياغا أو تخدش حياتها، لأنها لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، ويمكنها أن تتحمل الموت حفاظاً على السر.

بعد ستين سنة من ذلك تقريباً، عندما كنتُ أحاول إنقاذ تلك الذكريات، من أجل "الحب في زمن الكوليرا"، روايتي الخامسة، سألت أبي إذا ما كانت هناك ضمن مصطلحات موظفي التلغراف، كلمة محددة لعملية وصل مكتب بآخر، ولم يكن عليه أن يفكر بالجواب، بل قال على الفور: "تعشيق". هذه الكلمة موجودة في المعاجم، ليس للاستخدام المحدد الذي أحتاجه، ولكنها بدت لي دقيقة وتفي تماماً بما أريد. فالاتصال يختلف المكاتب يتحقق من خلال ربط توصيلة في لوحة خطوط الأطراف التلغرافية. لم أناقش الأمر مع أبي قط. ومع ذلك، وقبل موته بقليل سألوته، في مقابلة صحفية، إذا ما كان قد رغب يوماً في كتابة رواية. فأجاب بنعم، وأضاف أنه تخلى عن الفكرة، عندما سأله يوماً عن كلمة "تعشيق المخطوط"، لأنه اكتشف عندئذ أنني كنتُ أكتب ما كان يفكر هو في كتابته.

وقد تذكر في تلك المناسبة أيضاً، معلومة خفية كان يمكن لها أن تبذل مساز حياتنا. فبعد ستة شهور من الترحال، عندما كانت أمني في

سان خوان دل ثيسر، وصلت إلى غابريل إليخيو، وشاية سرية بأن ميثا قد كُلفت بالإعداد لعودة الأسرة نهائياً إلى بارانكاس. بعد أن التأمت جراح الضغينة التي خلفها موت مياردو باتشيكو، بدا له ذلك التصرف غير معقول، لا سيما بعد انقضاء الأزمنة السيئة، وبعد أن بدأت سيطرة شركة الموز المطلقة في تحقيق ما بدا أنه حلم الأرض الموعودة. ولكن كان معقولاً كذلك أن يعود العناد آل ساركيز إغواران إلى التضحية بسعادتهم، مقابل تخليص ابنهم من مخالف ذلك الباشق. وكان قرار غابريل إليخيو الفوري هو بذل المساعي لنقله إلى مكتب تلغراف ريوهاتشا، على بعد عشرين قرصاً من بارانكاس. لم تكن هناك وظيفة شاغرة، ولكنهم وعدوه بأخذ طلبه في الاعتبار.

لم تستطع لويسا سانتياغا أن تكتشف نوايا أمها السرية، ولكنها لم تتجرأ كذلك على نقيها. وقد لفت انتباهها أنهم كلما اقتربوا أكثر من بارانكاس، كانت أمها تبتدأ أكثر تنهداً ووداعة، ولم تقدم لها تشون، حافظة أسرار الجميع، أي إشارة موحية كذلك. ومن أجل استخلاص الحقائق، قالت لويسا سانتياغا لأمها إنه يسعدها البقاء للعيش في بارانكاس. ترددت الأم لحظة، ولكنها لم تحسم أمرها بقول أي شيء. وأحسنت الابنة بأنها قد اقتربت كثيراً جداً من السر. ودفعها القلق إلى عقد آمالها على التنجيم مع عجيبة متجولة، لم تقدم لها أي إشارة حول مستقبلها في بارانكاس. ولكنها بشرتها بالمقابل، بأنها لن تواجه أية عقبات في عيش حياة طويلة وسعيدة، مع رجل بعيد لا تكاد تعرفه، ولكنه سيحبها إلى أن يموت. وقد أعاد الوصف الذي قدمته العجيبة الروح إلى جسدها، لأنها وجدت فيه ملامح مشتركة مع خطيبها، ولا

سبباً لطريقته في الحياة. وأخيراً، تنبأت لها العجيرة، دون قطرة واحدة من الشك، بأنها ستنجب ستة أبناء منه. "لقد متُ هلعاً"، هذا ما قالت لي أمي عندما روت لي ذلك أول مرة. دون أن تتصور أن العدد الحقيقي لأبناتها سيزيد خمسة على ذلك العدد. تلقف كلاهما تلك النبوءة بحماس شديد. إلى حد أن المراسلات التلغرافية لم تعد عندئذ كونهن تروى نوايا حاملة، وتحولت إلى مراسلات منهجية وعملية، وأكثر كثافة من أي وقت آخر. فجدداً التوازيخ، وأقرا الوسائل، وروىنا حياتهما بقرارهما المشترك بالزواج. دون استشارة أحد، أينما كان وكيفما كان، عندما يعودان للقاء.

وكانت لويسا سانتياغا شديدة الرفاء للوعد الذي قطعتته على نفسها، إلى حد أنها رأت، حين كانت في قرية فرنسيكا، أنه ليس من الصواب الذهاب لحضور حفلة راقصة، دون الحصول على مرافقة خطيبها. كان غابرييل إليخيو في أرجوحة النوم، يتعرق حمى أربعين درجة مئوية عندما رنت إشارة نداء تلغرافي مستعجل. وكان المتصل هو زميله عامل تلغراف فرنسيكا. ومن أجل الأمان التام، سألت هي عمن يدير جهاز البرق في نهاية السلسلة. فأرسل الخطيب المشوش أكثر مما هو مغالزلاً، جملة تعرفت بهرته: "قل لها إنني فليوتها". تعرفت أمي على كلمة السر، وذهبت إلى حفلة الرقص، وظلت هناك حتى الساعة صباحاً. عندما كان عليها أن تعود لتستبدل ثيابها على جناح السرعة، كيلا تصل متأخرة إلى القديس.

لم يجدوا في بارانكاس أدنى أثر للحقد على الأسرة. بل على العكس، فقد كان يسود بين ذوي ميداردو باتشيكو مزاج مسيحي من

الصفح والنسيان، بعد مرور سبعة عشر عاماً على الحدث المشؤم. وكان استقبال الأقرباء حميماً جداً، حتى أن لويسا سانتياغا هي من فكرت في إمكانية عودة الأسرة إلى ذلك الملاذ الجليلي الهادئ والمختلف تماماً عن الحر والغبار، والسيوت الدامية، والأشباح مقطوعة الرؤوس في آراكاتاكا. وقد تمكنت من الإيحاء بتلك الرغبة إلى غابرييل إليخيو، شريطة أن يتمكن من الانتقال إلى ريوهاتشا. وأبدى هو موافقته. ومع ذلك، فقد عُرف في تلك الأيام، أخيراً، أن رواية الانتقال ليست بلا أساس وحسب، وإنما ليس هناك كذلك من يرغب فيها سوى مينا. وهذا ما اتضح من رسالة جوابية أرسلتها إلى ابنها خوان دي ديوس، عندما كتب إليها هذا الأخير، خائفاً من العودة إلى بارانكاس، دون أن تكون قد انقضت عشرون سنة على موت ميداردو باتشيكو. فقد كان مقتنعاً على الدوام بقدرية قانون غواخيرا، حتى إنه عارض أدا ابنه إدواردو للخدمة الطبية الاجتماعية في بارانكاس، بعد مرور نصف قرن على ذلك.

وخلافاً لكل المخاوف، حدث أن حُلَّت هناك عُقد الوضع كلها. ففي يوم الأربعاء نفسه الذي أكدت فيه لويسا سانتياغا لغابرييل إليخيو، أن مينا لا تفكر في الانتقال إلى بارانكاس، أعلموه في العمل بأن مكتب تلغراف ريوهاتشا صار تحت تصرفه، بعد موت موظف المركز بصورة مفاجئة. وفي اليوم التالي أفرغت مينا أدراج حجرة الموزنة، بحثاً عن مقص تقطيع اللحم وفتحت، دون أي ميرر، غطاء علبة البسكوت الإنكليزي التي تخفى فيها ابنتها برقيات غرامها. وقد بلغ غيظها خدأ لم تستطع معه أن تقول سوى أحد الأسماء المشهورة التي اعتادت

اربعها في لحظات نحبها: "الله يغفر كل شيء إلا العقوق". في نهاية ذلك الأسبوع، سافرتا إلى ريوهاتشا لكي تدركا السفينة الشراعية المتوجهة إلى سانتا مارتا يوم الأحد. ولم تنتبه أي منهما إلى الليلة الرهيبة المستفوعة بعاصفة شباط: فقد كانت الأم خامدة بسبب هزيمتها، وكانت الابنة مذعورة، إنما سعيدة.

أعاد النزول إلى اليايسة، إلى الأم توازنهما الذي طاح به العثور على الرسائل. وفي اليوم التالي واصلت السفر، وحدها، إلى أراكاتاكا، وتركت لويسا سانتياغا في سانتا مارتا، تحت رعاية ابنها خوان دي ديوس، واثقة بذلك من أنها تضعها بمنجى من شياطين الحب. ولكن ما جرى هو العكس: كان غابرييل إليخيو يسافر في أثناء ذلك من أراكاتاكا إلى سانتا مارتا، لكي يراها، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. في حين أن الخال خوانيتو الذي عانى سابقاً من تشدد أبويه نفسه في غرامياته مع ديليا كاهاييرو، كان قد صمم على عدم التدخل إلى جانب أي طرف في غراميات أخوته، ولكنه عندما حانت ساعة الحقيقة، وجد نفسه موزعاً بين حبه لأخته لويسا سانتياغا، واحترامه لمشيئة أبيه. فليجأ إلى صيغة تعبر عن طبيته التي يضرب بها المثل: وافق على أن يلتقي الخطيبان خارج البيت، إما دون أن يكونا وحيدين، ودون أن يعلم هو بذلك. وذهبت زوجته ديليا كاهاييرو، التي تغفر ولكنها لا تنسى، لشقيقة زوجها، المصادفات المؤكدة والحيل البارة نفسها التي كانت تنخلص بها من رقابة حمويها. بدأ غابرييل ولويسا اللقاء في بيوت الأصدقاء، ولكنهما راحا يجازفان، شيئاً فشيئاً في الذهاب إلى أماكن عامة قليلة الارتداد. ثم تحجراً أخيراً على تبادل الحديث، عبر النافذة،

عندما يكون الخال خوانيتو غير موجود. الخطيبة في الصالة، والخطيب في الشارع، وفيين لالتزامهما بعدم اللقاء داخل البيت. كانت النافذة تبدو كأنها صنعت عمداً للغراميات المتنوعة، غير حازم قضيان معدنية من الطراز الأندلسي، يحجم قامة كاملة، ويأطاز عريشة نباتات متسلقة، لا تغيب عنها أحياناً رائحة النياسمين في هدأة الليل. وكانت ديليا تحتاط لكل شيء، بما في ذلك تواطؤ بعض الجيران الذين يطلقون صغيراً مشفراً لتنبه الخطيبين إلى خطر وشيك، ومع ذلك، فقد أخففت، في إحدى الليالي، كل احتياطات الأمن، ولم يجد خوان دي ديوس بداً من الاستسلام أمام الحقيقة. فانتبهت ديليا الفرصة لتدعو الخطيبين ليجلسا في الصالة، مع إبقاء كل التوافذ مفتوحة، ليشاركا العالم بحبهما. ولم تنس أُمي قط زفرة أخيهما، "يا للراحة".

في تلك الأيام تلقى غابرييل إليخيو التعيين الرسمي في مكتب تلغراف ريوهاتشا، فليجأت عندئذ أُمي، الخاتمة من فراق جديد، إلى المونسنيور بيدرو إسبيخو، أسقف الأبرشية الحالي، وهي تأمل أن يزوجه دون إذن أبويها. كان وقار المونسنيور قد حقق قوة كبيرة. حتى إن كثيرين من رعيته كانوا يخلطون بين ذلك الوقار والقداسة. وكان بعضهم يذهب إلى القديس الذي يترأسه للتأكد فقط، من حقيقة أنه يرتفع عدة سنتيمترات عن مستوى الأرض، في لحظة صلاة الصعود. وعندما ظلت لويسا سانتياغا مساعده، قدم هو دليلاً آخر على أن الذكاء هو إحدى ميزات القداسة. فقد رفض التدخل في الشؤون الداخلية، لأسرة شديدة الحرص على خصوصياتها الحميمة. ولكنه اختار المبادرة إلى الحصول سراً، على معلومات عن حال أسرة أبي من خلال الكنيسة. وقد غص

خوري سينثي النظر عن تساهل أرخيميرا غارسيا، وردا على الأسقف بصيغة مشرفة: "إنها أسرة محترمة، وإن كانت قليلة التقوى". عندئذ تحدث مونتسبور إلى الحظيين معاً، ومع كل منهما على انفراد، وكتب رسالة إلى نيكولاس وترانكيلينا أعرب لهما فيها عن تأثره وبقيته بأنه لا وجود لسلطة بشرية قادرة على هزم ذلك الحب العنيد. فوافق جدي، المهزومان بسلطة الرب، على قلب تلك الصفحة المؤلمة، ومنحاً خوان دي ديبوس كل الصلاحيات لإقامة العرس في سانتا مارتا. ولكنهما لم يحضرا، وإغا أرسل فرانثيسكا سيمودوسيا كاشيئة.

تزوجا في الحادي عشر من حزيران ١٩٢٦ في كاتدرائية سانتا مارتا، وبأخير دام أربعين دقيقة، لأن العروس نسيت تاريخ اليوم، واضطروا إلى إيقافها بعد الساعة الثامنة صباحاً. وفي تلك الليلة بالذات، استقلا السفينة الشراعية المرجية، لكي يتسلم غابرييل إليخيو وظيفته في مكتب تلغراف ريوهانشا، وأمضيا ليلتهما الأولى بعد الزفاف، منهارين من دوار الإبحار.

كانت أمي تحن كثيراً إلى البيت الذي أمضت فيه شهر العسل، حتى إنه كان يقودونا، نحن أبناءها الكبار، أن نصفه حجرة حجرة، كما لو أننا قد عشنا فيه، وهو لا يزال حتى اليوم إحدى ذكرياتي الزائفة. ومع ذلك، عندما ذهبت أول مرة إلى شيد جزيرة غواخيرا، قبل قليل من بلوغى الستين من عمري، فوجدت بأن البيت الملحق بمكتب التلغراف، لا علاقة له بذكرياتي، وريوهانشا الحاملة التي كنت أحملها، منذ طفولتي في قلبي، بشوارعها النثرانية التي تنحدر باتجاه بحر موحل، لم تكن سوى أضغاث أحلام مستعارة من جدي. بل أكثر من ذلك: فالآن وقد

صرت أعرف ريوهانشا، لا أتوصل إلى رؤيتها مثلما هي عليه، وإغا مثلما شُدت حجراً حجراً في مخيلتي.

بعد شهرين من الزفاف، تلقى خوان دي ديبوس برقية من أبي يخبره فيها بأن لويسا سانتياغا حبلى. هو الحبر البيت في أراكاتاكا من أساساته، حيث لم تكن مينا قد شفيت بعد من المراحة، ولكنها هي والكولونيل على السواء، ألقيا سلاحهما لكي يعود العريسان للعيش معهما. لم يكن ذلك بالأمر السهل، وبعد معارضة عزة نفس وعقلانية استمرت عدة شهور، وافق غابرييل إليخيو على أن تضع زوجته مولودها في بيت أبيها.

بعد قليل من ذلك، استقبله جدي في محطة القطار، بجملته بقيت في إطار من الذهب، في السجل التاريخي للأسرة: "إنني مستعد لأن أقدم إليك كل الرضى الضروري". جددت الجدة غرفة النوم التي كانت لها حتى ذلك الحين، واستقر أبوي فيها. وخلال تلك السنة، استقال أبي من مهنته الجيدة كعامل تلغراف، وكرس موهبته في التعلم الذاتي، لعلم أخذ في الانحياز: الطب التجانسى، وبذل الجهد المساعي لدى السلطات، بدافع الاعتراف بالمعيل أو تأنيب الضمير، لكي يُطلق على الشارع الذي كنا نعيش فيه في أراكاتاكا، الاسم الذي ما زال يحمله حتى اليوم: جادة مونتسبور إسبيخو.

هكذا وهناك ولد الابن الأول من سبعة ذكور وأربع إناث، يوم الأحد، السادس من آذار ١٩٢٧، في الساعة التاسعة صباحاً، خلال هطل وابل مطر طوفاني في غير موسمه. وكان الوليد على وشك أن يموت اختناقاً بحبل السرة، لأن قابلة الأسرة، سانتوس بيبرو، فقدت

السيطرة على فنها في أسوأ لحظة. ولكن من فقدته أكثر هي العمة فرانثيسكا التي ركضت حتى الباب الخارجي، وهي تطلق صرخات من بعلن عن حريق:

- ذكرا إنه ذكرا - وتضيف على الفور، كمن يدق ناقوس الخطر:-
هاتوا الروم، فهو يخنق!

وافترضت الأسرة أن الروم لم يكن للاحتفال، وإنما لإنعاش الوليد بتدليكهم به. وزوت لي السيدة خوانا دي فريستيس عدة مرات، وكانت العناية الإلهية قد أدخلتها الحجر في تلك اللحظة، أن الخطر الأكبر لم يكن الحبل السري، وإنما وضعية أمي غير الصحيحة في السرير. وقد أصلحت هي وضعها في الوقت المناسب، ولكن لم يكن من السهل إنعاشي، وهكذا رشتني العمة فرانثيسكا بما العمامة، بتعجل. كان عليهم أن يسعروني أوليفاريو، وهو اسم القديس الذي يصادف عيده يوم مولدي، إلا أن أحداً لم يكن يملك سجل القديسين في مشاغل يده، ولهذا أطلقوا علي، بصورة عاجلة، الاسم الأول لأبي (غابرييل) يليه اسم خوسيه، نسبة إلى يوسف النجار، لأنه شفيع أراكاتانكا، ولأن الولادة جرت في شهر آذار الذي هو شهره. واقترحت السيدة خوانا فريستيس إضافة اسم ثالث هو كونكورديا (الوفاق) احتفاء بالمصالحة العامة التي تمت بين الأسرة والأصدقاء، منجنيقي إلى الدنيا، ولكنهم نسوا إضافته في وثيقة التعميد الرسمية التي صدرت بعد ثلاث سنوات: غابرييل خوسيه دي لا كونكورديا.

في اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت، كنت أتذكر كل ما أثر في طفولتي، ولكنني لم أكن متأكداً مما هو سابق وما هو لاحق، أو ما الذي يعنيه كل ذلك في حياتي. وكنت أكاد لا أعني أنه وسط ازدهار شركة الموز الزائف، كان زواج أبوي مقدرًا، ضمن التحولات التي تشكل القضية الفاضية لانتجار أراكاتانكا، فنص أن بدأت التذكر، كنت أسمع - أولاً بهمس شديد، وبعد ذلك بصوت عالٍ وبذعر - تردد العبارة القدرية: "يقولون إن الشركة سترحل"، ومع ذلك، إما أن أحداً لم يكن يصدق الأمر، وإما أن أحداً لم يكن يجرؤ على التفكير في آثاره المدمرة.

رواية أمي كانت تتضمن أرقاماً زهيدة ومشهداً فقيراً جداً، بالنسبة للمأساة الضخمة التي صورتها أنا: مما سبب لي إحساساً بالإحباط. وقد تحدثت قيصراً بعد، إلى أحياء وشهود عيان، وتبشت في مجموعات صحف ووثائق رسمية، وتبين لي أن الحقيقة لم تكن في أي جانب، فسالموايون يقولون إنه لم يكن هناك، في الواقع، قتل، ومن هم في الجانب الآخر يؤكدون، دون أي ارتعاش في الصوت، أنه سقط أكثر من مئة قتيل، وأنهم رأوه ينزفون في الساحة، وأنهم حملوا في قطار شحن

لرميهم في البحر، مثل الموز المفروض، وهكذا ظلت حقيقتي ضائعة إلى الأبد في نقطة غير محتملة بين الطرفين. ولكنها كانت تلج عليّ، حتى إنني أشرت في إحدى رواياتي، إلى المذبحة بالدقة والهول اللذين احتضنتها بهما، طوال سنوات في مخيلتي. وهكذا أقيمت الرقم عند ثلاثة آلاف، لكي أحافظ على الأبعاد الملحمية للمأساة. وقد انتهت الحياة الواقعية إلى منحي العدالة؛ فحظت وقت قريب، وفي أحد أيام الذكرى السنوية للمأساة، طالب أحد المتكلمين في مجلس الشيوخ، بالوقوف دقيقة صمت، إحياء لذكرى الشهداء الثلاثة آلاف المجهولين الذين قتلهم قوى الأمن العام.

لقد كانت مذبحة مزارع الموز، ذروة مذابح أخرى سابقة. ولكن مع ذريعة إضافية تشير إلى أن زعماء الإضراب هم من الشيوعيين، وربما كانوا كذلك. وقد تعرفت، مصادفة، على إدواردو ماهيتشا، أكثرهم بروزاً وشهرة، في سجن بارانكيّا النموذجي، خلال تلك الفترة التي ذهبت فيها مع أمي لبيع البيت؛ وعقدت معه صداقة جيدة، منذ أن قدمت نفسي على أنني حفيد نيكولاس ماركيز. وكان هو من كشف لي أن جدي لم يكن محايداً، وإنما وسيطاً في إضراب عام ١٩٢٨. وكان يعتبره رجلاً منصفاً. وهكذا استكمل لي الفكرة التي كانت لدي دوماً عن المجزرة، وكوّنت تصوراً أكثر موضوعية عن النزاع الاجتماعي. لقد كان الاختلاف الوحيد بين ذكريات الجميع، هو حول عدد القتلى. ولن يكون هذا هو اللغز الوحيد في تاريخنا.

كانت الروايات الكثيرة هي السبب في ذكرياتي الزائفة. وأكثر واحدة من تلك الذكريات إلحاحاً وثباتاً، هي عني أنا بالذات: أنذكر

نفسي واقفاً عند باب البيت، بقبعة تمساوية وبندقية لعبة، أشاهد استعراض كتيبة من الجنود الكاتشاكو المتعرقين تحت أشجار اللوز. وقد حياني أحد الضباط الذين يقودونهم في زي المراسم، لدى مروره: - وداعاً يا نقيباً غامياً.

الذكرى واضحة، ولكن لا وجود لأي احتمال بأن تكون صحيحة. البدلة العسكرية، والقبعة، والبندقية وجدت جميعها معاً، ولكن بعد حوالي سنتين من الإضراب، عندما لم تكن هناك قوات عسكرية في كاتاكما. أشياء كثيرة مثل هذه ولدت لي في البيت، السعة بأن لدي ذكريات من داخل الرحم، وأحلاماً تستبق الأحداث.

كانت تلك هي حال الدنيا عندما بدأت أعني جوي الأسري. ولا يمكنني استحضاره بطريقة أخرى: كروب، حين، ارتياح، في عزلة بيت فسيح، لقد بدأ لي، طوال سنوات، أن تلك الفترة قد تحولت بالنسبة لي، إلى كابوس يتواتر كل ليلة تقريباً، لأنني كنت أستيقظ بالرعب نفسه الذي كان يسيطر عليّ في حجرة القديسين. فخلال المراهقة، حين كنت تلميذاً داخلياً في مدرسة جليدية، في جبال الأنديز، كنت أستيقظ باكياً في منتصف الليل. وقد احتجت إلى هذه الشيخوخة الخالية من تأنيب الضمير، لكي أفهم أن تعاسة الجدين، في بيت كاتاكما، تخلص في أنهما كانا طوال الوقت مشرطين في حينهم، وبصورة أكثر حدة، كلما سعوا للتطهر منه.

بل إن الأمر أكثر بساطة: لقد كانا يقسمان في كاتاكما، وليكنهما بواصلان العيش في مقاطعة باديا، التي ما زلنا نسميها المقاطعة (برويشتيا)، دون أية إضافات أخرى، كما لو أنه لا وجود لمقاطعة سواها

في العالم. وقد بنينا البيت في كاتاكيا، ربما دون أن يفكر في ذلك، كنسخة احتفالية من بيت بارانكيّا الذي تظهر من نوافذه، في الجهة الأخرى من الشارع، المقبرة الكاثوليكية، حيث يرقد ميداردو باتشيكو، كنانا منحويين وراضين في كاتاكيا. ولكن حياتهما كانت خاضعة لعبودية مستط وأسيهما. لقد تخندقا في أوقاتهما، ومعتقداتهما، وأحكامهما المسبقة، وأغلقا الأبواب أمام كل ما هو مختلف.

أقرب صداقاتهما كانت قبل أي شيء، هي التي تأتي من المقاطعة. واللغة البيتية السائدة هي تلك التي جاء بها أباهما من إسبانيا، عبر فنزويلا، في القرن السابق، وأضفوا عليها الحيوية بكلمات وعبارات محلية كاريبية، وأفريقية من العبيد، وشت من لغة غواخيرا التي كانت تتسرب قطرة فقطرة إلى لغتنا. وكانت الجدة تستخدم تلك العبارات لكي تضلّني، دون أن تدري أنني أفهمها بصورة أفضل، بسبب تعاملتي المباشر مع الخدم. وما زلت أتذكر الكثير من تلك العبارات: أتونكشي، أنا نعس، خامونساي تشي تايا، أنا جنانع، إيسوتوس، المرأة الحبلى، آريخوانو، الغريب. وهذه الكلمة الأخيرة اعتادت جدتي أن تستخدمها للإشارة بطريقة ما، إلى الإسباني، والرجل الأبيض، وإلى العدو في نهاية المطاف. وكان الغواخيريون من جانبهم، يتكلمون دائماً ترعاً من القشتالية الحالية من العظام، مع ومضات مشعة، مثل لهجة الخادمة تشون، التي تتميز بدقة في التحديد إلى حد معيب، بما دفع جدتي إلى منعها، لأنها تعجل السامع، دون مفر، إلى تخيل مغالط، كقولها: "شفتنا الفم"، مثلاً.

لم يكن اليوم يكتمل ما لم تصل الأخبار عن ولد في بارانكاس،

وكم من الأشخاص قتل الثور في حظائر فوتسيكا، ومن تزوج في سانابوري أو توقي في ريوهاتشا، وكيف طلع الصباح على الجرنال سوكاراس الذي كان بحالة خطرة في سان خوان دي ثيسر. لقد كان يباع في مخزن شركة الموز، بأسعار الأوكازيون، تفاح كاليفورنيا ملفوفاً، بوق حرير، وأسماك متحجرة في الثلج، وجاميون غاليسيا، وزيتون اليونان. ومع ذلك، لم يكن هناك ما يوزل في البيت، ما لم يكن متبلاً برق الحنين؛ فقلقاس الحساء يجب أن يكون من ريوهاتشا، وذرة خبز القطور يجب أن تكون من فرنسيكا، والجديان يجب أن تكون قد ربيت على ملح غواخيرا، والسلاحف وجراد البحر تأتي حية من ديويما.

وهكذا فإن معظم الزائرين الذين يأتون يومياً، في القطار، يكونون قادمين من بروينشيا (المقاطعة) أو مبعوثين من أحد هناك. وتكون لهم على الدوام الكتي نفسها: آل رياسكو، آل نوغيرا، آل أوفانده، مع تقاضع زيجات مع آل كوتيس أو آل إغواران. يأتون عابرين، وليس معهم سوى حقيبة معلقة بالكثف. وبالرغم من أنهم لا يعلنون مسبقاً عن زيارتهم، إلا أنه كان معروفاً أنهم سيقولون لتناول الغداء. ولم أنس قط، العبارة شبه الطقوسية التي كانت ترددها الجدة لدى الدخول إلى المطبخ: "يجب تحضير كل شيء، لأننا لا نعرف ما الذي يروق لمن سيأتون".

كانت روح الهروب الدائم تلك، تستد إلى واقع جغرافي. فقد كانت بروينشيا تتمتع باستقلالية عالم خاص، وبوحدة ثقافية متماسكة وتديعة، في وادي خصيب بين جبلي سييرا نيفادا دي سانتا مارتا وسييرا دل بيزرخا، في منطقة الكاريبي الكولومبية. وكان اتصالها بالعالم أسهل من اتصالها ببقية أنحاء البلاد، ذلك أن حياتها اليومية تتحدد،

بصورة أفضل، من خلال حركة التجارة السهلة مع جامايكا وكوراساو. وتكاد تختلط بغنزويلا عبر حدود بوابات مفتوحة، لا تميز فيها بين المقاصد الاجتماعية أو الألوان. أما من داخل البلاد التي كانت تُظهر على نار هادئة في مرقها بالذات، فلا يكاد يصل سوى صدى السلطة: القوانين، الضرائب، الجنود، الأخبار السيئة التي تفرّخ على ارتفاع ألفين وخمسمئة متر، وعلى بعد ثمانية أيام من الإبحار، عبر نهر مجدينا، في سفينة بخارية تنفذ على الخطب.

تلك الطبيعة الجزيرية المعزولة، أغجبت ثقافة راكدة ذات طبيعة خاصة، فرضها الجدان في كاناكا، فالبيت كان قرية أكثر مما هو منزل. إذ هناك على الدوام عدة وديات على المائدة. ولكن دور أول شخصين كان مقدساً، مدة بلغت الثالثة من عمري: الكولونيل على رأس المائدة وأنا على الزاوية التي إلى يمينه. وبقية الأماكن يشغلها الرجال أولاً، ثم النساء بعد ذلك، ولكن متفصلين بعضهم عن بعض. وكانت هذه القواعد تُكسر خلال احتفالات العيد الوطني في العشرين من تموز. وتستمر وديات تناول الغذاء إلى أن يأكل الجميع. أما في الليل فلا يجري إعداد المائدة، وإنما توزع فناجين قهوة بالحليب في المطبخ، مع حلويات الجدة الشهية. وعندما تُغلق الأبواب، يعلق كل واحد أزوجة نومته أينما استطاع، على مستويات متعددة، وحتى بين أشجار الفناء.

إحدى أكثر فانتازيات تلك السنوات جموحاً، عشتها يوم حضرت إلى البيت جماعة رجال، بملابس وطماقات ومهاميز لمرسان متشابهة، وقد رُسم على جباههم جميعاً صليب بالرماد. إنهم الأبناء الذين أنجبهم الكولونيل على امتداد أراضي بروينشيا، خلال حرب الألف يوم. وقد

جاؤوا من قراهم لتهنئته بعيد ميلاده، متأخرين أكثر من شهر على الموعد، وقيل أن يحضروا إلى البيت كانوا قد استمعوا إلى قداس أربعاء الرماد، وبدا لي الصليب الذي رسمه الأب أنغاريتا على جباههم شعاراً خارقاً سباحتي غمره طوال سنوات، حتى بعد أن تألفت مع طقوس أسبوع الآلام المقدس.

لقد ولد معظمهم بعد زواج جدي، فكانت الجدة مينا تسجل أسماءهم وكنياتهم في دفتر ملاحظات، منذ أن تعلم ميلادهم، وتنتهي بتسامح سهل إلى ضسهم، من كل قلبها، إلى عداد الأسرة. ولكن لم يكن بإمكانها أو بإمكان أي شخص آخر، أن يميز بينهم قبل تلك الزيارة الصاخبة التي كشف فيها كل واحد منهم عن طريقته في التمييز. كانوا جديين ومجتهدين، أرباب بيوت، وأناساً مسالمين، ولكنهم لا يخشون مع ذلك فقدان رؤوسهم في دوار حفلات اللهو والسكر. كسروا الأطباق، وتغفروا البرود وهم يطاردون عجلاً للعب معه بوشاح المضارعة، وقتلوا الدجاجات بالرصاصة من أجل طهر السانكوتشو، وأطلقوا خنزيراً مكتنزاً بالشحم اصطدم بالنساء اللواتي يطرزن في الممر. ولكن أحداً لم يأسف لتلك الأضرار، بسبب عاصفة السعادة التي حملوها معهم.

واصلت اللقاء بكثرة مع استيبان كاريو، توم العمة إلغيرا البارع في فنون الحرف اليدوية، الذي كان يسافر ومعه صندوق عدّة ليصنع المعروف بإصلاح أي عطل في البيوت التي يزورها. وقد ملأ بمزاجه المرح وذاكرته الجيدة، فراغات كثيرة من تاريخ الأسرة بدا لي الحصول عليها غصياً. وترددت بكثرة في مرافقتي كذلك، على خالي نيكولاس غرميث، ذي الشقرة الكثيفة والنمش الأحمر، وقد حافظ على أحسن

وجه على مهنته الجيدة، كصاحب خانوت في مستوطنة سجن فونداتيون القديمة، ولتأثره بسمعتي كخالة ضائعة ومبتوس منها، كان يحملني عند الوداع، كبس سوق يتضمن مؤونة جيدة من أجل مواصلة الرحلة، وكان رافائيل آرياس يأتي دوماً بصورة عابرة، ومستعجلة، على متن بغلة ويملايس ركوب الخيل. ويكاد لا يبقى لوقت أطول من تناول القهوة، وهو واقف في المطبخ. أما الآخرون فالتقيت بهم متفرقين، في رحلات الحنين التي قمت بها في ما بعد في قرى بروينشيا، لكي أكتب رواياتي الأولى. وكنت أحن دوماً إلى صليب الرماد على جباههم، كعلامة فارقة مؤكدة لهويتهم الأسرية.

بعد سنوات من موت المبدعين وهجر البيت الفخم، ذهبتُ إلى فونداتيون في قطار الليل، وجلست في محل بيع المأكولات الوحيد المفتوح في تلك الساعة في المحطة. لم يكن قد تبقى لديهم إلا القليل لتقديمه، ولكن صاحبة المحل أعدت على عجل طبقاً جيداً على شرفي. كانت امرأة مرجة وخدوماً، وفي مركز تلك الفضائل الأليفة، لمحتُ طبع نساء قبيلتنا القوي. وقد تأكدتُ من ذلك بعد سنوات: فصاحبة المطعم الجميلة هي سارا نوريغا، خالة أخرى من خالاتي المجهولات.

أبولينار، العبد الصغير القديم، ومتين البنية الذي تذكرته على الدوام كخال لي، اختفى من البيت طوال سنوات عديدة، وفي مساء أحد الأيام، عاد للظهور دون سبب، مرتدياً ملابس جدد: بدلة من الجوخ الأسود وقبعة ضخمة، سوداء اللون أيضاً، وشاطسة في رأسه حتى عينييه الصموتين. وقد قال لدى سروره في المطبخ إنه آت من أجل الجنائز. لكن أحداً لم يفهمه حتى اليوم التالي، عندما وصل الخبر بأن

الجند قد مات للتو، في سانتا مارتا، وكان قد نُقل إليها بصورة مستعجلة ومكثمة.

الشخص الوحيد منهم الذي حقق شهرة عامة، هو أكبرهم جميعاً والمحافظ الوحيد بينهم، خوسيه ماري بالديبلاتكيث، الذي صار عضواً في مجلس شيوخ الجمهورية، خلال حرب الألف يوم، وحضر بصفته هذه توقيع استسلام الليبراليين في مزرعة نيريلانديا القريبة. ومقابله، في جانب المهزومين، كان يجلس أبوه.

أظن أنني مدين بجوهر طريقتي في الحياة والتفكير، لنساء الأميرة ونساء الخدمة الكثيرات اللواتي رعين طفولتي. لقد كن يتمتعن بقوة الشخصية وطيبة القلب. وكن يعاملنني بتلقائية الفردوس الأرضي. وبين الكثيرات اللواتي أتذكرهن، كانت لوثيا هي الوحيدة التي فاجأتني بغيبها الصياني، عندما أخذتني إلى زقاق الضفادع، ورقعت ثوبها حتى الحضر لتكشف لي عن شعر عانتها النحاسي المنفوش، غير أن ما شد انتباهي هو لطفة القوياء ذات البقع الحمراء المستدة على بطنها مثل خريطة العالم، بكثبان بنفسجية ومحيطات صفراء. أما الأخريات فكان يدورن ملائكة طهارة: فقد كن يبدلن ملابسهن أمامي، ويحجمنني بينما هن يستحممن، ويُجلسنني على مبولتي ويجلسن على مباولهن قبالي، لكي ينفضين بأسرارهن، وأحزانهن، وأحقادهن، كما لو أنني لا أفهم، ودون أن ينتسبن إلي أنني أعرف كل شيء.، لأنني كنت أربط أطراف الحياوط التي يتركها لي هن أنفسهن مقلقة.

كانت تشون واحدة من الخدم ومن الشارع، جاءت من بارانكاس مع المجددين، وهي لا تزال طفلة، وقد ترعرعت في المطبخ، ولكن مندمجة في

الأسرة، وكانت المعاملة التي تلقاها، هي معاملة خالة ووصيفة مرافقة، منذ أن قامت بالرحلة إلى بروينشيا مع أمي العاشقة. وقد انتقلت في سنواتها الأخيرة إلى حجرة خاصة بها، في أفقر أحياء القرية، برغبة حقيقية منها. وكانت تعيش هناك على بيع كرات من الذرة المطحونة لصنع الحيز. وتعمل ذلك في الشارع، منذ الفجر، وبناء صار مألوقاً في صمت الصباح الباكر: "كرات عجيب العجوز تشون الثلجة..."

كان لها لون هندية جميل. وقد بدت على الدوام كما لو أنها مجرد عظام. وكانت تغطي حافية القدمين، معتمرة عمامة بيضاء، وملتحفة بعلامات منسأة، تمشي ببطء شديد في وسط الشارع، يرافقها موكب كلاب ودبابة وصامتة، تدور من حولها في تقدمها. وقد انتهى الأمر بضمها إلى فولكلور القرية. وظهر في أحد الكرنفالات من تنكر في هيئة مطابقة لها، بملابسها وندائها. ولكنه لم يتمكن من ترويض كوكبة كلاب مثل كلابها. وقد صار نداؤها على العجيب المثلج شعبياً، إلى حد التحول إلى موضوع أغنية لعازفي الأكورديونات الجوالين. وفي صباح يوم مشؤوم، هاجم كلبان مسعوران كلابها، فدافعت تلك الكلاب عن نفسها بضراوة، وقعت معها تشون أرضاً، وكُسِرَ عمودها الفقري. ولم تستطع تجاوز إصابتها تلك، على الرغم من الإمكانيات الطبية الكثيرة التي وفرها لها جدي.

ذكرى كاشفة أخرى من تلك الأزمنة، هي ولادة ماتيلدي أرمينتا، الغسالة التي اشتغلت في البيت عندما كنتُ في حوالي السادسة من عمري. فقد دخلتُ خطأً إلى غرفتها ووجدتها عارية ومنفرة الساقين، على سرير من الكتان، تولول من الألم وسط عُصبة من القابلات، توزعن

حول جسدها دون نظام أو دراية لمساعدتها على الولادة بإطلاق الصرخات. كانت إحداهن تمسح العرق عن وجهها بمنشفة مبللة، وأخريات يثبتن ذراعها وساقها. وبذلك يطنها لتعجيل المخاض. وكانت سانتوس يبيرو تغغم، وسط تلك الفوضى. بصلوات تمنى بحراً هادئاً، بينما هي تبش، بعينين مضطنتين، بين فخذي الولادة. كان الحر لا يطاق في الحجرة المفعمة بالبخار المتصاعد من قدور الماء المغلي التي يثرى بها من المطبخ. بقيتُ متزوّياً في أحد الأركان، موزعاً بين الذعر والفضول، إلى أن أخرجت القابلة كتلة لحم حبة ممسوحة من كاحليها، مثل عجل وليد، ومعها مصران دامر يتدلى من السرة. عندئذ اكتشفت إحدى النساء وجودي في الركن، وسحبني خارج الحجرة.

- إنك في خطيئة محبّة - قالت لي ذلك، وأمرتني وهي تهز إصبعاً مشرعداً: - لا تعد إلى تذكر ما رأيته.

أما المرأة التي انتزعت براءتي حقاً، بالمقابل، فلم تتعمّد ذلك، ولم تعرف به قط. كانت تدعى ترينيداد، وهي ابنة أحد العاملين في البيت، وقد بدأت تتفتح في ربيع قاتل. لقد كانت في الثالثة عشرة من عمرها، ولكنها لا تزال ترتدي ملابسها التي كانت لها وهي في التاسعة، فكانت ضيقة على جسدها إلى حد تبدو معه عارية أكثر مما لو كانت دون ملابس. وفي إحدى الليالي التي كنا فيها وجيدين في الفناء، انطلقت فجأة موسيقى جنوة في البيت المجاور، فسحبني ترينيداد للرقص بغناق قوي افتقدتُ معه النفس. لست أدري ما الذي حلّ بها. ولكنني ما زلت حتى اليوم، أشتيق في منتصف الليل مضطرباً من الانفعال، وأنا أعرف أنه يمكنني التعرف عليها في الظلام.

من تلمس كل بوصة في بشرتها، ومن رانحتها الحيوانية. وفي لحظة واحدة، وعيت جسدي، ببصيرة الغرائز التي لم أعد إلى الشعور بثقلها قط، وإلى الأبد، وأحجراً على تذكرها كحالة موت لذيذ. منذ ذلك الحين، علمت بصورة غائمة وغير واقعية، بأن هناك سرّاً بعيد الغور لا أعرفه أنا، ولكنه يقلقني كما لو أنني أعرفه. أما نساء الأسرة، وعلى العكس من ذلك، فكُنَّ يقتدنني على الدوام إلى وجهة العفة القاحلة.

وقد علمني فقدان البراءة، في الوقت نفسه، أن من يأتي لنا بالهدايا في عيد الميلاد، ليس الطفل يسوع، ولكنني كنتُ حذراً من قول ذلك. وعندما صار عمري عشر سنوات، كشف لي أبي الأمر، كسر من أسرار الكبار، ولكنه كان يعتبر معرفتي له أمراً واقعاً. وقد أخذني إلى متاجر ليلة الميلاد، لأختار ألعاباً ودمى لأخوتي. وحدث لي الشيء نفسه مع سرّ الولادة، قبل أن أحضر ولادة ماتيلدي أرميتا؛ كنت أشتق بالضحك عندما يقولون إن طائر اللقلق هو الذي يأتي بالأطفال من باريس. إلا أنه لا بد لي من الاعتراف بأنني لم أتوصل، سواء الآن أو في الماضي، إلى ربط الولادة بالجنس. وعلى أي حال، أعتقد أنه يمكن لعلاقتي الخفية بالخدم، أن تكون الأصل في خبط تواصل سري، أظن أنني أمتلكه مع النساء، أتاح لي على امتداد حياتي الشعور بالراحة والأمان بينهن أكثر مما أشعر بهما بين الرجال، ويمكن أن تكون قد أتت من هناك أيضاً فتاعتني بأنهن هن عماد حماية العالم، بينما نشيع، نحن الرجال، فيه الفوضى بهيجتنا التاريخية.

لقد كان لسارا إميليو ماركيز، دون أن تدري ذلك، بعض العلاقة بقديري. فسمتُ صباها، كان المتوددون يلاحقونها دون أن تتنازل بالنظر

إليهم. ثم حسمت أمرها مع أول شخص بدا لها مناسباً، وإلى الأبد. كان هناك شيء مشترك بين الرجل المختار وأبي؛ فهو غريب لا يعرف أحد من أبين جاء ولا كيف جاء، يسجل حياة نظيف، ولكن بلا موارد معروفة. كان اسمه خوسيه دل كارمن أوربي بيرخيل، ولكنه يقصر توقيعه أحياناً على "خ. دل ك." وقد مرّ بعض الوقت، قبل أن نعرف من هو في الحقيقة، ومن أين أتى. إلى أن عُرف ذلك من خلال الخطابات التي يُكلف بكتابتها للموظفين الحكوميين، ومن خلال أشعار الحب التي ينشرها في مجلته الثقافية الخاصة، التي كان صدورها يعتمد على مشيئة الرب، منذ أن ظهر في البيت، أحسنت بتقدير كبير لشهرته ككاتب. وهو أول كاتب تعرّفت عليه في حياتي. وقد رغبت على الغور في أن أكون مثله. ولم أشعر بالرضى إلا بعد أن تعلّمت الحالة ميمي تسريح شعري، على طريقته.

كنت أول شخص في الأسرة يعرف بأمر غرامياته السرية، عندما دخل في إحدى الليالي إلى البيت المقابل، حيث كنتُ أَلعب مع بعض الأصدقاء. فاستدعاني جانباً، وهو في حالة من التوتر الواضح، وأعطاني رسالة موجهة إلى سارا إميليا. كنتُ أعرف أنها جالسة عند باب بيتنا، تتبادل الحديث مع صديقة زائرة اجتزت الشارع، واختبأت وراء أشجار اللوز، وقذفت الرسالة بدقة سقطت معها في حضنها. رفعت يديها مذعورة، ولكن الصرخة بقيت مكتومة في حنجرتها، عندما تعرّفت على الخط المكتوب على المغلف، وقد صارت سارا إميليا و"خ. دل ك." صديقي، منذ ذلك اليوم.

كانت إلغيزا كاريو، الشقيقة التوأم للمخال إستيبان، تلوي وتعصر

عده قصب سكر يديها، وتستخرج عصارتها بقوة معصرة زيت. وكانت مشهورة بصراحتها الفظة، أكثر من شهرة وقتها في تسليّة الأطفال، وبخاصة أخي لويس إنريكي، الذي يصغرتي بسنة. فكانت المتواطئة معه وسيدته في الوقت نفسه، وقد عمدها باسم الحالة "يا" الذي لا يمكن سير أغواره. كانت متخصصة على الدوام، بالمشكلات المستحيلة. وكانت هي وإستيبيان، أول من جاء إلى البيت في كاتاكيا. ولكن بينما وجد هر طريقته في كل أنواع المهن والصفقات المشمرة، ظلت هي الحالة التي لا غنى عنها في الأسرة، دون أن تدرك قط أنها كذلك. كانت تختفي عندما لا تكون ثمة حاجة إليها. أما عند الحاجة إليها، فلا يعرف أحد أبداً كيف، ولا من أين تخرج. في لحظات نحسها، تتكلم وحدها، بينما هي تحرك القدر. وتكشف بصوت عال. أين هي الأشياء، التي اعتُبرت ضائعة، بقيت في البيت، بعد أن انتهت من دفن الكيار، بينما الأجمة تلتهم المكان شبراً شبراً، والحيوانات تطوف في حجرات النوم، مشوشة منذ منتصف الليل بسعال مما وراء القبر في الحجرة المجاورة.

فرائيسكا سيمودوسيا - العمة ماما -، جنرالة القبيلة التي ماتت عذراء، وهي في التاسعة والسبعين، كانت مختلفة عن الجميع بعاداتها وبلغتها. فثقافتها لم تكن ثقافة بروينشيا، وإنما ثقافة الفردوس الإقطاعي في سهول مقاطعة بوليفار، حيث كان أبوها خوسيه ماريّا ميخيا بيدال، قد هاجر منذ شبابه المبكر آتياً من ربواتشا بفرونه في الصياغة. تركت شعرها السميك الداكن، الذي قاوم الشيب بعد تقدمها في الشيخوخة، ينمو حتى عرقوبها. وكانت تغسله مرة كل أسبوع بما خلاصات الأعشاب، ثم تجلس لتسرحه عند باب حجرتها، في طقس

مقدس يستمر عدة ساعات، مستهلكة دون توقف، لفائف تبغ خشن، تدخنها معكوسة، بوضع الطرف المشتعل داخل قمها، مثلما كان يفعل رجال جيوش التحرير، كيلا يكتشف العدو وجودهم في ظلام الليل. كما أن طريقتهما في اللبس كانت مختلفة أيضاً، فهي ترتدي تنورات، وصدارات دون أكمام من الكتان الخالص، وتنتعل أخفافاً من المخمل.

وعلى خلاف تعفف الجدة الاصطفائي في الكلام، كان لسان العمة ماما هو الأكثر طلاقة في رطانة اللهجة الشعبية. ولم تكن تخفي ذلك أمام أي كان أو في أية ظروف، فهي تعلن الحقائق لكل واحد في وجهه. بمن في ذلك إحدى الراهبات، وهي معلمة أمني في مدرسة سانتا مارتا الداخلية. فقد أرقفتها عند حدها بوقاحة سارقة: "أنت ممن يخلطون بين طيرهم ومواسم الصيام". ومع ذلك، كانت تتدبر الأمور على الدوام، بحيث لا تبدو فظة ولا مهينة.

كانت خلال نصف حياتها، أمينة مفاتيح المقبرة. تقيّد وتصدر شهادات الوفاة، وتصنع في البيت خبز القربان من أجل القديس. وكانت الشخص الوحيد، من أي جنس، في الأسرة، التي لم يخترق قلبها، كما يبدو، أسى غرام مرفوض. وقد وعينا ذلك في إحدى الليالي، عندما كان الطبيب بعد العدة ليفحصها بالتسمع إلى نبضها، فبنته يبرر لم أنفسه آنذاك: "أريد أن أتبهك يا دكتور إلى أنني لم أعرف رجلاً قط".

وقد بقيت أسمعها، منذ ذلك الحين، تقول ذلك بكثرة، ولكنني لم ألحظ قط أنها تشعر بالفخر أو الندم، وإنما تقوله كأمر واقع لم يخلف أي أثر في حياتها. وكانت بالمقابل، خطابة وساعية زواج داهية، لا بد أنها عانت من لعبتها المزدوجة بإعداد مخدع والدي، دون أن تنحلي عن وفائها للجدة مينا.

لدي انطباع بأنها كانت تفاهم مع الأطفال، أكثر من تفاهمها مع الكبار. وكانت هي من تولت أمر سارا إميليا، إلى أن انتقلت هذه إلى غرفة كتيبات قصص كاتينغا المصورة. عندئذ احتضنتني أنا ومرتريتا بدلاً منها. مع أن الجدة واصلت الاهتمام بأمر نظائفي الشخصية، وتولى الجد أمر تكويني كرجل.

أكثر ذكرياتي إثارة للقلق، في ذلك الزمن، هي ذكرى العمة بيترا، أخت الجد الكبرى، التي جاءت من ريوغاتشا لتعيش مع الجددين عندما فقدت بصرها. كانت تقيم في الحجرة الملاصقة لغرفة المكتب، حيث أقبمت ورشة الصياغة فيما بعد. وقد طوّرت مهارة سحرية لكي تتحرك في ظلماتها دون مساعدة من أحد. مازلت أتذكرها كما لو أن ذلك حدث بالأمس، تشي دون عكاز وكأنها تشي بعينيها، ببطئ ولكن دون تردد، وتقود نفسها عن طريق مختلف الروائح وحسب، فهي تعرف حجرتها من رائحة حمض الهيدروكلوريك في ورشة الصياغة المجاورة، والمغر من عطر ياسمين الحديقة، ومخدع الجددين من رائحة كمحور الخشب الذي يستخدمه كلاهما لتدليك جسديهما قبل النوم، وحجرة العمة صاما من رائحة الزيت في مصابيح المذبح، وفي نهاية المساء، هناك رائحة المطبخ اللذيذة. كانت ممشوقة القوام وقليلة الكلام، لها بشرة أزهار سوسن داوية، وشعر مشع بلون الصدف تتحركه منسدلاً حتى خصرها، وتتولى هي نفسها العناية به. حذقتها الخضراوان والصافيتان كمعيني مرافقة، يتبدل ضوءهما مع تبدل حالتها المعنوية. ولكن خروجها كان عابراً وعرضياً على أي حال، ذلك أنها كانت تفي طوال اليوم، في حجرتها ببابها الموارب، ووحيدة على الدوام تقريباً. كانت تغني لنفسها

هساً في بعض الأحيان. ويمكن الخلط عندئذ بين صوتها وصوت الجدة ميتا، ولكن أغانيها كانت مختلفة وأشد حزناً. وقد سمعتها تقول لأحدهم إنها أغنيات حب من ريوغاتشا، ولكنني عندما كبرت فقط، عرفت أنها كانت ترجلها، هي نفسها في الواقع هناك بالذات، بينما هي تغنيها. لم أستطع كبح نفسي في مناسبتين أو ثلاث من الانقياد لإغراء الدخول إلى حجرتها دون أن ينتبه إلي أحد، ولكنني لم أجدها. بعد سنوات من ذلك، خلال إحدى إجازاتي، في مرحلة الدراسة الثانوية، رويت تلك الذكريات لأمي، فسارعت إلى إقناعي بخطئي. وقد كانت حجتها مطلقة الصحة، واستطعت التأكد منها، دون أي ريب أو شك: فالعمة بيترا ماتت قبل أن أكمل السنة الثانية من عمري.

كنا نطلق على العمة وينفريدا اسم نانا، وكانت أكثر نساء القبيلة مرحاً ولطفاً، ولكنني لا أستطيع تذكرها، إلا وهي على فراش مرضها. كانت متزوجة من رافائيل كينتيرو أورتيجا - العم كينتي - محامي قراء مولود في تشيا، على بعد حوالي خمسة عشر فرسخاً عن بوغوتا، وعلى الارتفاع نفسه عن سطح البحر. ولكنه تكيف على أحسن وجه مع منطقة الكاريبي، حتى إنه كان يحتاج في جحيم كاتاكا، إلى زجاجات ماء ساخن عند قدميه، لكي ينام في برودة كانون الأول. كانت الأسرة قد استعادت توازنها من محنة ميثاردو باتشيكو، عندما اضطر العم كينتي إلى تحمل معاناة محتته، بعد إقدامه على قتل محامي الخصم في نزاع قضائي. كانت له هيئة رجل طيب ومسالم، ولكن الخصم ضايقه دون هوادة، ولم يعد أمامه من مفر سوى التسليح. لقد كان ضئيلاً جداً وعظيماً نحلاً، يتعل أذية طفل، وأصدقاءه يسخرون منه بمودة، لأن

المسدس كان يبرز منه كما لو أنه يحمل مدفعاً تحت قميصه. وقد حذره الجندُ جدياً بعبارة الشهيرة: "أنت لا تعرف ثقل القم الذي يخلقه قتل". ولكن القم كينتي لم يجد الوقت الكافي للتفكير في ذلك عندما اعترض العدو طريقه بصرخات هستيرية، في قاعة الانتظار في المحكمة، ثم انقض عليه بجسده الضخم. "لم أدرك كيف أخرجت المسدس وأطلقت النار في الهواء، بكلتا يدي، وبعينين مغمضتين"، هذا ما قاله لي القم كينتي، قبل قليل من موته عن مئة سنة. وروى لي: "عندما فتحت عيني، رأيت لا يزال منتصباً على ساقيه، ضخماً وشاحباً، ورأيت كيف راح يهوي ببطء شديد، إلى أن خرَّ جالساً على الأرض". لم يكن القم كينتي قد أدرك، حتى تلك اللحظة، أنه قد أصابه في منتصف جبهته، سألته عما أحس به عندما رآه يهوي، وقد فاجأتني صراحته:

- أحسست براحة عظيمة!

ذكرائي الأخيرة عن زوجته وينفريدا، هي في ليلة أمطار عظيمة، عزمت عليها فيها امرأة مشعوذة. لم تكن ساحرة عادية، وإنما امرأة لطيفة، حسنة المظهر وترتدي ملابس دارجة، تطرد بعرق من نبات القراص الغلل من الجسد، بينما هي تغني رقية تشبه أغنيات المهد. وفجأة، تلوت نانا بنشيج اختلاجة عميقة، وأفلت من بين ملامات سريرها عصفورٌ بحجم فرخ دجاج له ريش لامع. التقطته المرأة من الهواء بضربة بارعة من يدها، ولفته بخرقه سوداء جاهزة معها، ثم أمرت بإشعال مخرقة في الفناء الخلفي، وألقت بالعصفور بين أسنة اللهب، دون أي طقوس أخرى. ولكن نانا لم تشف من عملها.

بعد قليل من ذلك، أعيد إشعال مخرقة الفناء، عندما وضعت

دجاجة بيضة عجيبة تشبه كرة بونغ بونغ، لها زائدة مثل التي في أعلى قبة الثور الفرنسية. وقد تعرفت عليها جدتي فوراً: "إنها بيضة أفعى صناعية"^(١). وألقت بها بنفسها إلى النار وهي تغغم بتراتيل رقية.

لا أستطيع أن أتخيل جدي في سن غير تلك التي هما عليها، في ذكرياتي عن تلك المرحلة، وهي الحقبة نفسها التي التقطت لهما فيها صور في مستهل شبغروختهما. وقد جرى تناقل نسخها التي تزداد شحواً عبر أربعة أجيال من ذريتهما، كطقس قبلي، وبخاصة صور المدة ترانكيلينا، أسرع النساء اللواتي عرفتهن تصديقاً وقابلية للتأثر، بسبب الذعر الذي كانت تسببه لها أسرار الحياة اليومية الغامضة. لقد كانت تحاول بعث البهجة في أعمالها، بالغناء بأعلى صرتها الهرم، أغنيات عاشقين، ولكنها تقطعها فجأة بصرخة الحرب التي تطلقها ضد القدر:

- يا قديسة مريم الطاهرة!

فقد كانت ترى أن الكراسي الهزازة تهتز وحدها، وأن شبح حمى النفاس، قد تسلل إلى حجرات الولادات، وأن رائحة شجيرات ياسمين الحديقة هي شبح غير مرئي. وأن حبلاً ملقى على الأرض كيفما اتفق، له شكل أرقام يمكن أن تربح الجائزة الكبرى في اليانصيب، وأن طائراً بلا عيون، قد ضل داخل غرفة الطعام ولن يستطيعوا إخراجه إلا بترتيل التعظيمة^(٢) مغناة. وتعتقد بأنها تحمل برمز سرية هوية أبطال وأماكن الأغنيات التي تصل من بروينشيا. كانت تتصور كوارث ستقع عاجلاً أو

(١) أفعى صناعية basillisco. أفعى خرافية يُعتقد بأنها تميت بنظرتها.

(٢) التعظيمة Magnificat. نشيد توجّهت به مريم المذمومة إلى الرب عندما زارت نسيبتها إيزابيل، ويغنى هذا النشيد عادة في صلاة المساء عشية عيد الميلاد، وهو وارد في الإنساح الأول من إنجيل لوقا (الأيات ١٦ حتى ٥٥).

أجلاً، ومُحْدَس من الذي سيأتي من زبوهاتنا بقبعة بيضاء، أو من ماناوري، مصاباً بمغص لن يشفي منه إلا بمراة تسر رجمة، إذ إنها كانت مداوية سرية، فضلاً عن كونها متنبئة في المهنة.

كان لديها نظام خاص جداً لتفسير أحلامها وأحلام الآخرين التي تحكم السلوك اليومي، لكل واحد منا، وتقرر مسار حياة البيت، ومع ذلك، فقد أوشكت أن تموت دون تبرعات أو نذر، عندما أزاحت جانباً في أحد الأيام ملاءات سريرها دفعة واحدة، وأطلقت رصاصة من المسدس الذي كان الكولونيل يخبئه تحت الوسادة، ليكون في متناول يده، وهو نائم. ومن خلال مسار الطلقة التي انغرست في السقف، تبين أنها قد مرت قريباً جداً من وجه الجدة.

لقد عانيت، منذ صارت لي ذاكرة، من التعذيب الصباحي الذي كانت تُقرضُ به ميتا أسناني، بينما هي تتمتع بالامتياز السحري بنزع أسنانها، لتغسلها وتضعها في كأس ماء في أثناء نومها، ولتقاعصي بأنها أسنانها الطبيعية التي تنزعها وتضعها، متى شئت، بفتون سحر غواخيرية، طلبت منها أن تربي جوف فمها، لكي أرى كيف هو من الداخل قفا العينين، والدماغ، والأنف، والأذنين. وعانيت خيبة أمل عدم رؤية أي شيء سوى سقف الخلق. ولكن أحداً لم يفسر لي أعجوبة الأسنان. وقد ألححت لوقت طويل على أن يفعل لي طبيب الأسنان مثل الجدة، لكي تُقرض لي أسناني بينما أنا ألعب في الشارع.

كان لدينا نوع من الشيفرة السرية، نتواصل خلالها بوساطتها مع كون غير مرئي، في النهار، يبدو لي عملها السحري أخاذاً، ولكنه في الليل يسبب لي رعباً خالصاً وبسيطاً: الحروف من الظلمة، السابق

لوجودنا، الذي طاردني طوال الحياة، في الدروب المقفلة، وحتى في أوكار الرقص في العالم بأسره. لقد كان لكل قديس في بيت المجدين حجرته، وكل خجرة لها ميتها. ولكن البيت الوحيد المعروف باسم بيت الميت هو المجاور لبيتنا. وميته هو الوحيد الذي عرف نفسه، في إحدى جلسات استحضار الأرواح، باسمه الآدمي: ألفونسو موراً. وقد كلف أحد القرابين منه نفسه مشقة التقصي عنه في سجلات التعصّب والوفيات، فوجد عديدين بهذا الاسم نفسه، ولكن أياً منهم لم يكشف عما يشير إلى أنه رجلنا. لقد كان ذلك البيت خلال سنوات منزلاً للخوري، وقد ازدهرت الإشاعة القائلة إن الشيخ هو الأب أنغاريتا نفسه، يظهر لكي يُبعد الفضوليين الذين يتجسسون عليه في جولاته الليلية.

لم أتوصل إلى التعرف على ميمي، الجارية الغواخيرية التي جاءت بها الأسرة من بارانكاس، وهرت في ليلة عاصفة مع أليرو، أخيها المراهق. ولكنني كنت أسمع على الدوام أنهما من لطخا كلام البيت بفردات من لغة السكان المحليين. لقد كانت قشاليتها العريضة مشار دهشة الشعراء. منذ ذلك اليوم التاريخي الذي وجدت فيه عليه الكبريت التي أضاعها الخال خوان دي ديوس، فأعادتها إليه برطانة انتصارية: - هاأنذا، كبريتك.

من الصعب تصديق أن الجدة ميتا، مع نساها الساحيات، كن عمادة اقتصاد البيت عندما بدأت الموارد تنضب. كان الكولونيل يملك أراضي متفرقة احتلها مستوطنون من الكاتشاكو، ورفض هو طردهم منها. واضطر في لحظة ضيق، من أجل إنقاذ شرف أحد أبنائه، إلى رهن البيت في كاتاكّا. وكلفه عدم فقدانه ثروة كبيرة. وعندما لم يعد هناك أي

شيء، واصلت مينا إعماله الأسرة بقوة عملها في المخبر، وبحيرات السكاكر التي كانت تباع في القرية كلها، والدجاجات متعددة الألوان، وبيض البط، وخضار الفناء الخلفي. قامت بتقليص جندي في عدة الحدم واستجبت أكثرهم فائدة. وانتهى الأمر بالمال نقداً إلى فقدان معناه، في تقاليد البيت الشفوية. حتى إنهم عندما أرادوا شراء جهاز بيانو لأمي، بعد عودتها من المدرسة، أجرت العمة "با" الحساب الدقيق بالنقد المنزلي: "ثمان البيانو خمسة بيضة".

وسط تلك الكتيبة من النساء الانجيليات، كان الجد هو الأمان الكامل لي. فسمعه فقط يتلاشى القلق، وأشعر بأن قدمي على الأرض، وأنتي مستقر تماماً في الحياة الواقعية. والغريب، وأنا أفكر في الأمر الآن، هو أنني كنت أرغب في أن أصبح مثله، واقعياً، شجاعاً، واثقاً بنفسى. ولكنني لم أستطع قط أن أقاوم الإغراء الدائم في الإطلال على عالم الجدة. إنني أتذكره بديناً وصورداً، مع قليل من الشيب في رأسه اللامع، بشارب كأنه فرشاة، حسن التشذيب، ونظارة مدورة ذات إطار ذهبي. كان متمهلاً في كلامه، متفهماً، ومصلحاً في أوقات السلم. ولكن أصدقاء المحافظين يتذكرونه كعدو مرهوب في النزاعات الحربية.

لم يستخدم زياً عسكرياً قط، لأن رتبته كانت ثورية، وليست أكاديمية. ولكنه إلى ما بعد الحرب بكثير، ظل يرتدي السترة متعددة الجيوب، التي شاع استخدامها بين محاربي الكاريبي القدماء. ومنذ صدور قانون مشقاعي الحرب، ملأ الاستثمارات اللازمة ليحصل على تقاعده، وبقي هو وزوجته وورثته المقربين ينتظرون ذلك التقاعد حتى الموت. جدتي ترانكيلينا التي ماتت بعيداً عن ذلك البيت، عمياً،

وهرة ونصف مجنونة، قالت لي في آخر لحظات صحتها: "سأمرت مطمئنة، لأنني أعرف أنكم ستلقون راتب نيكولاستر التقاعدي".

وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها الكلمة الأسطورية التي زوعت، في الأسرة، بذرة الأوهام الأبدية: التقاعد. لقد دخلت الكلمة إلى البيت قبل مولدي، عندما أقرت الحكومة تقاعد قدماء مقاتلي حرب الألف يوم، والجد شخصياً هو الذي أعاد الملك، مع إفراط في الشهادات المحلفة ووثائق الإثبات، وحملها بنفسه إلى سائنا مارتا لتوقيع بروتوكول الاستسلام. ووفق أقل الحسابات تفاؤلاً، كان المبلغ كافياً له ولذريته حتى الجيل الثاني. وكان الجد يقول لنا: "لا تقلقوا، فأموال التقاعد ستكفي الجميع". والبريد الذي لم يكن مستعجلاً قط في الأسرة، تحول منذ ذلك الحين إلى مبعوث العناية الإلهية.

أنا نفسي لم أتمكن من تجنب الأمر، على الرغم من شحنة الارتياح التي أحملها بداخلي. ومع ذلك، كانت ترانكيلينا تبدي، في بعض المناسبات، مزاجاً لا يتناسب مع اسمها أبداً^(١). ففي حرب الألف يوم، سجن جدي في ريوهاشيا، على يد ابن عم لها كان ضابطاً في جيش المحافظين. وقد فهم الأقرباء الليبراليون، وهي نفسها، الأمر على أنه عمل حربي لا نفع حياله لأي سلطة أسرية. ولكن عندما علمت الجدة بأن زوجها يعامل في السجن كمجرم عادي، واجهت ابن عمها بغضب، وأجيزته على تسليمها إياه، سليماً معافى.

عالم الجد كان مختلفاً إلى حد كبير. فحتى في سنواته الأخيرة، كان يبدو وافر النشاط، وهو يتنقل من مكان إلى آخر، حاملاً صندوق

(١) اسمها ترانكيلينا يعني هادئة.

عندته لإصلاح الأعطال في البيت؛ أو عندما يرقع ماء الحمام، طوال ساعات، إلى البراميل، بواسطة المضخة اليدوية في الفناء الخلفي؛ أو عندما يتسلى السلم الشاهق ليتأكد من كمية الماء في البراميل. ولكنه كان يطلب مني، بالمقابل، أن أعقد له رباط، خذائه لأنه يفقد أنفاسه عندما يحاول عمل ذلك بنفسه. وقد لحا من الموت بأعجوبة، في صباح اليوم الذي حاول فيه أن يمسك البيضا العمياء التي سعدت حتى البراميل. كان قد تمكن من الإمساك بخناقها، عندما زلت قدمه فجأة، فانزلق عن الجسر الصغير، وهوى على الأرض، عن ارتفاع أربعة أمتار. لم يستطع أحد أن يفسر كيف استطاع التجاة، بالتسعين كيلوغراماً التي يزنها، وسنوات عمره التي تزيد على الخمسين. وكان ذلك اليوم هو يومي التاريخي الذي فحطه فيه الطبيب، شبراً شبراً، وهو عار في السرير، وسأله عن ندبة قديمة بطول نصف بوصة تقريباً، اكتشفها في أصل الفخذ، فقال الجدة:

- إنه أثر رضاصة في الحرب.

حتى الآن لم أشف من التأثير، مثلما لم أشف، بعد، من اليوم الذي أطل فيه إلى الشارع، من نافذة مكتبه، ليرى مرور حصان مشهور يريدون بيعه، وفجأة أحس بامتلاء عينه ماءً. حاول حمايتها بيده فبقيت في راحته بضع قطرات من سائل شفاف، لم يفقد عنه العين وحسب، وإنما لم تسمح له جدتي كذلك بشراء الحصان المسكون بالشیطان. استخدم لوقت قصير عصاية قرصان فوق محجر عينه الغائبة، إلى أن استبدلها له طبيب العيون بنظارة حسنة المقاس، ووصف له عكازاً انتهى لأن يكون علامة مميزة له، مثل ساعة الجيب ذات السلسلة الذهبية، التي

كان غطاؤها يُفتح بطفرة موسيقية. وقد كان معروفاً للملأ، على الدوام، أن غدر السنوات الذي بدأ يقلقه، لم يخلف أي تأثير على نزواته، كمغفر سري وعاشق جيد.

في طقوس حزام الساعة السادسة صباحاً، الذي صار يستحبه معي على الدوام في سنواته الأخيرة، كنا نسكب الماء من الحوض على جسدنا بفرجة مفرغة، وننتهي إلى تضميم أنفسنا بماء عطر "فلوريدا دي لانان وكيميس" الذي كان يبيعه مهربو كوراساو، ويوصلونه في صناديق إلى البيوت، مثل البراندي وقمصان الحرير الصينية. وقد سُمع، في إحدى المرات، يقول إنه العطر الوحيد الذي يستخدمه، لأن لا أحد يشبه سوى من استخدمه. ولكنه لم يعد يصدق ذلك، عندما تعرّف أحدهم راحته على وسادة غريبة، وقصة أخرى سمعته يكررها، خلال سنوات، هي قصة اللبلة التي انقطع فيها النور، فسكب الجدة على رأسه زجاجة حبر معتقداً أنه ماء عطر فلوريدا.

من أجل الأعمال اليومية في البيت، كان يرتدي بظلالاً من القطن الحام، مع حمالي المطاط الدائمتين، وحناء خفيفاً وقبعة من المخمل ذات واقية. ومن أجل قداس يوم الأحد، الذي لم يتغيب عنه سوى مرات قليلة، ولأسباب قاهرة؛ أو في أيام المناسبات المهمة والتاريخية، كان يرتدي بدلة كاملة من الكتان الأبيض، مع باقة من السيلوليد وربطة عنق سوداء. وهذه المناسبات القليلة هي السبب في شهرته بأنه مبدع ومزهو، الانطباع الذي أحفظ به اليوم هو أن البيت، بكل ما فيه، كان موجوداً من أجله فقط؛ فقد كانت علاقة زواجه من النوع الذكوري النموذجي، في مجتمع أمومي، حيث الرجل هو الملك المطلق في بيته، ولكن من

تجسسه هي المرأة. ويمكن القول دون مزيد من اللف والدوران، إنه كان الذكر. هذا يعني: أنه رجل عذب الحنان في جلساته الحميمة، ولكنه يخجل من ذلك الحنان أمام الملاء، بينما تحرق هي نفسها، لتجعله سعيداً. قام الجدان برحلة أخرى إلى بارانكيّا، في الأيام التي جرى فيها الاحتفال بالثورة الأولى لموت سيمون بوليفار، في شهر كانون الأول ١٩٣٠، من أجل حضور ميلاد أختي عايدة روسا، الرابعة في الأسرة. ولدى عودتهما إلى كاناكا، أحضرا معهما مارغوت، وكان عمرها أكثر من ستة بقليل. وبقي مع أبوي لويس إنريكي، والوليدة الجديدة. وقد تكلفتُ مشقة كبيرة للاعتياد على التغيير، لأن مارغوت جاءت إلى البيت ككائن من حياة أخرى، رخرة وبرية، وذات عالم داخلي مغلق. عندما رأتها أبيغيل - والدة لويس كارميلو كورتيا - لم تفهم لماذا تحمل جدائي مثل ذلك الالتزام، وقالت: "هذه الطفلة محتضرة". ولكنهم كانوا يقولون الشيء نفسه عني، لأنني كنت قليل الأكل، ولأنني كنت أرمش، ولأن الأشياء التي كنت أروها، تبدو هائلة، فيظنونها كتباً، دون أن يفكروا في أن معظمها كان صحيحاً بطريقة أخرى. ولم أعلم إلا بعد سنوات طويلة أن الدكتور باربوشا هو الوحيد الذي دافع عني بحجة حكيمة: "أكاذيب الأطفال هي علامة موهبة كبيرة".

مرّ وقت طويل، قبل أن تستسلم مارغوت لأسلوب الحياة الأسرية. كانت تجلس في الكرسي الهزاز لتمض أصابعها، في ركن لا يخطر على بال. لم يكن هناك ما يشد انتباهها. باستثناء دقائق الساعة التي تبحث عنها كل ساعة، بعينيهما الكبيرتين، كمهوسة، لم يتمكنوا من جعلها تأكل، طوال عدة أيام. فهي ترفض الطعام دون دراماتيكية، أو ترمي به

أحياناً في الأركان، ولم يفهم أحد كيف تبقى حية دون أكل، إلى أن انتبهوا إلى أنها لا تحب سوى تراب الحديقة الرطب، ورقائق الكلس التي تنتزعها عن الجدران بأظفارها. وعندما اكتشفت الجدة ذلك وضعت مرارة بقر في أنفهي أركان الحديقة، وخبات فلفلاً حاراً في أصص الأزهار. لقد عمدها الأب أنفارتا في الطقوس نفسها التي صادق فيها على التعميد المتعجل الذي أجروه لي عند مولدي. وقد تلقيتُ مراسم العماد وأنا أفب على كرسي، وتحملتُ، بشجاعة مهذبة، ملح الطعام الذي وضعه على لساني، وإبريق الماء الذي سكبهُ فوق رأسي. أما مارغوت، بالمقابل، فقد تردت على الاثنين بصرخة وحش جريح، وبعضيان اجتاح جسدها بكامله، حتى إن العرايين والعرايتين لم يتمكنوا من إبقائها عند حوض التعميد، إلا بشق الأنفس.

إنني أفكر اليوم في أنها كانت، في علاقتها معي، أعقل من الكبار، فيما بينهم. وقد كان تواطننا غريباً، خني إن كل واحد منا كان يحس، في مناسبات عديدة، أفكار الآخر. ففي أحد الأيام، كنت ألعب وإياها في الحديقة، عندما دوى صفير القطار، كما في كل يوم، في الساعة الحادية عشرة. ولكنني في ذلك اليوم أحسست، لدى سماعه، بهاجس لا تفسير له، بأن طبيب شركة الموز الذي كان قد أعطاني، قبل شهور، شراباً سمكياً سبب لي نوبة تقيؤ، أت في القطار. وكضتُ في كل أنحاء البيت، وأنا أصرخ منبهاً. ولكن أحداً لم يصدق ذلك. باستثناء شقيقتي مارغوت التي ظلت مختبئة معي إلى أن انتهى الطبيب من تناول الغداء، وغادر في قطار العودة، وقد هتفتُ جدتي، عندما وجدونا مختبئين تحت سريرها: "يا قديسة مريم الطاهرة! بوجود هذين الطفلين، لا حاجة إلى التلغراف".

لم أستطع، قط، تجاوز الخوف من البقاء وحيداً، ولا سيما في الظلام. وأظن أن هناك منشأً محدداً لذلك، ففي الليل، تتجسد أشباح وتُذر الجدة. حتى الآن، وأنا في السبعين، أرى في أحلامي حدة الياسمين في المر. وأشباح غرف النوم المعتمة؛ ودائماً بالإحساس الذي أفسد طفولتي: الرعب من الليل. لقد توجست مرات كثيرة، في ليالي أرتقي التي تساوي أرق العالم بأسره، أنني أنا أيضاً أخرج رنة ذلك البيت الخرافي، في عالم سعيد، حيث كنا نغوث في كل ليلة.

أغرب ما في الأمر، أن الجدة كانت تقيم أود البيت بحسبها غير الواقعي. كيف كان بالإمكان إعالة قطار الحياة ذاك، بموارد على ذلك القدر من الشح؟ الحسابات لا تضبط. كان الكولونيل قد تعلم مهنة أبيه الذي تعلمها بدوره من أبيه، وعلى الرغم من شهرة أسماكه الذهبية الصغيرة التي يراها المرء في كل مكان، إلا أنها لم تكن بالتجارة الراضية. بل أكثر من ذلك؛ فعندما كنت طفلاً، كان يراودني إحساس بأنه لا يصنعها إلا في فترات قصيرة أو عندما يهيئ هدية زفاف. وكانت الجدة تقول إنه لا يشتغل إلا ليقيم الهدايا. ومع ذلك، فإن شهرته كموظف، توطدت قاهماً عندما كسب الحزب الليبرالي السلطة، وكان خازناً لعدة سنوات ومدير مالية، عدة مرات.

لا يمكنني تخيل وسط أسري أكثر صلاحة ليلى، من ذلك البيت الجتوني، ولا سيما بفعل طبع النساء الكثيرات اللواتي تولين تنشئتي. الذكريان الوحيدان كنا جدي وأنا، وكان هو من بدأ بإدخالني في واقع الكبار الحزين، بحكايات عن معارك دامية وشروحات مدرسية عن طيران الطيور، ورمود الغروب، وشجعني في هواية الرسم. في البدء، كنت

أرسم على الجدران، إلى أن أطلقت نساء البيت الصوت حتى السماء، قائلات: الجدار والسور هما ورقة الوغد. فغضب جدي، وأمر بطلاء أحد جدران مشغل الصياغة بالأبيض، واشترى لي أقلام ألوان، ثم اشترى لي فينما بعد، علبة ألوان مائية، لكي أرسم على هواي، بينما هو يصنع أسماكه الذهبية الصغيرة المشهورة. وقد سمعته في أحد الأيام يقول إن حفيده سيصير رساماً، ولم يشد ذلك اهتمامي، لأنني كنت أظن أن الرسامين هم من يدهنون الأبواب فقط^(١).

من عرفوني، وأنا في الرابعة من عمري، يقولون إنني كنت شاحياً ومستغرقاً في التأمل، وإنني لم أكن أتكلم إلا لأروي هذياناً. ولكن حكاياتي، في معظمها، كانت أحداثاً بسيطة من الحياة اليومية، أجعلها أنا أكثر جاذبية بتفاصيل متخيلة، لكي يصغي إليّ الكبار. وكانت أفضل مصادر إلهامي، هي الأحاديث التي يتبادلها الكبار أمامي، لأنهم يظنون أنني لا أفهمها، أو التي يشقرونها عمداً، كيلا أفهمها. لكن الأمر كان خلاف ذلك؛ فقد كنت أمتصها مثل إسفنجية، وأفككها إلى أجزاء، وأقربها لكي أخفي الأصل؛ وعندما أرويها للأشخاص أنفسهم الذين رووها، تمتلكهم الحيرة للتوافق الغريب بين ما أقوله، وما يفكرون فيه.

في بعض الأحيان، لم أكن أعرف ما أفعله بضميري؛ وأحاول موازاة بطرف عيني طرماً سريعاً. وكان ذلك يتكرر إلى حد أن شخصاً عقلاً في الأسرة، قرر أن يعرضني على طبيب عيون، فعزاً هذا الأخير

(١) الانتباه هو في إطلاق التسمية نفسها على الرسام الفنان والنقاش الدعان، فكلامهما يدعي pintor.

طُرفَ عيني إلى علة في اللوزتين، ووصف لي شراياً من لفت مَيُودَن، كان مفعونه جيداً لطعانة المجدين، وترصلت الجدة من جهتها إلى النتيجة القدوة، بأن حفيدها متنبئ، فجعل ذلك منها ضحيتي المقضلة، حتى اليوم الذي أغشى عليها فيه لأثني خلعت، فعلاً، بأن عصفوراً حياً قد خرج من قم الجد. وكان الرعب من أن أكون السبب في موت الجد، هو العنصر المهدئ الوحيد لاندفاعي المبكر. وأنا أفكر الآن في أن كل ذلك لم يكن حيث طفل، كما يمكن أن يُظن. وإنما التقنيات البدائية لراو في بداياته، من أجل جعل الواقع أكثر متعة وقابلية للفهم.

خطوتي الأولى في الحياة الواقعية، كانت اكتشافي كرة القدم، في وسط الشارع أو في بعض البساتين المجاورة. كان معلمي هو لويس كارميلو كورزيا الذي ولد مزوداً بغريزة خاصة بألعاب الرياضة، وبموهبة خلقية في الرياضيات. كنت أكبره بخمسة شهور، ولكنه كان يسخر مني، لأنه ينمو أكثر وأسرع. بدأنا اللعب بكرة من الخرق. وترصلت إلى أن أكون حارس مرمى جيداً، ولكننا عندما انتقلنا إلى اللعب بالكرة النظامية، عانيت من ضربة على المعدة، بتسديدة قوية منه؛ ولم أمضِ إلى ما هو أبعد من ذلك. وخلال المرات التي التقينا فيها ونحن كبار، تبين لي بسعادة كبيرة أننا ما زلنا نتعامل، مثلما كنا ونحن طفلان. ومع ذلك، فإن الذكرى الأكثر تأثيراً من تلك الحقة، هي المرور السريع العابر لثائب مدير تموين شركة الموز، في سيارته الفخمة المكشوفة، وإلى جانبه امرأة ذات شعر ذهبي طويل، مقلت للريح، وكلب حراسة ألماني جالس كذلك في مقعد الشرف. لقد كانوا رؤيا سريعة عابرة من عالم ناء، وبعيد الاحتمال، محظور علينا، نحن البشر الفانيين.

بدأت المساعدة في القداس دون إيمان كبير، ولكن بصرامة، ربما كانوا يحسبونها لي كعنصر جوهري من الإيمان، ولا بد أن تلك المزايا الحميدة هي السبب في أنهم أخذوني، وأنا في السادسة من عمري، إلى الأب أنغاريستا لتلقيني أسرار المناولة الأولى. لقد تبدلت حياتي. فقد بدأوا يعاملونني كراشد، وعلمني القندلفت كيف أساعد القس في القداس. وكانت مشكلتي الوحيدة هي أنني لم أكن أعرف، في أي لحظة عليّ قرع الناقوس؛ فكنت أقرعه عندما يخطر لي ذلك، بإلهام محض وبسيط. وفي المرة الثالثة، التفت الأب نحوي وأمرني، بنبرة جافة، بالأقرب الجرس مجدداً. الجزء الجيد من الخدمة الدينية، كان يأتي عند بقائي مع خادم الكاهن الآخر والقندلفت وحيدتين لترتيب حجرة المقدسات؛ فكاننا نأكل ما يفيض من خبز القربان، مع كأس من النبيذ.

عشية مناولتي الأولى، أخذ الأب اعترافاتي دون مقدمات، وهو جالس مثل بابا حقيقي على المتكأ الذي كعش، بينما أنا جاثٍ قبالة، على وسادة من المخمل. كان وعبي للخير والشر بسيطاً جداً. ولكن الأب ساعدني بمعجم من الخطايا، لكي أقول له أنها اعترفت، وأنها لم أقرعه. أظن أنني أجيت جيداً، إلى أن سألتني إذا ما كنت قد مارست أفعالاً متكررة مع حيوانات. كانت لدي فكرة عامة غامضة عن أن بعض الكبار يقتربون مع الحمير خطيئة، لم أكن أفهم حقيقتها، ولكنني في تلك الليلة فقط، تعلمت أن فعل ذلك ممكن أيضاً مع الدجاجات. وهكذا كانت خطوتي الأولى، إلى المناولة الأولى، فغزة كبيرة أخرى على طريق فقدان البراءة. ولم أعد أجد دافعاً مشجعاً لمواصلة المساعدة في القداس. اختباري بالنار، كان يوم انتقل أبواي إلى كاتاكما، مع لويس

إنريكي وعابدا، أخوي الآخرين. أما مارغوت التي تكاد لا تعرف أباهما، فقد كانت ترتعب منه. وأنا أيضاً، ولكنه كان أشد حذراً معي. في مناسبة واحدة فقط، نزع الحزام ليجلديني، فوقفت متأهياً، وعضضت على شفتي كيلا أبكي. فأبزل ذراعه. وبدأ يعيد وضع الحزام حول خصره، بينما هو يؤثني من بين أسنانه، على ما فعلته. وقد اعترف لي، في حواراتنا الطويلة كراشدين، بأنه كان يتألم كثيراً لجلدنا؛ ولكنه ربما كان يفعل ذلك، لحقوه من أن تخرج منحرفين. لقد كان مسلياً في لحظات صفاته. وكان يسعدني أن يروي دعايات على المائدة، بعضها جيدة. ولكنه يكررها كثيراً حتى أن لويس إنريكي نهض يوماً وهو يقول:

- أخبروني عندما تنتهون من الضحك.

ومع ذلك، فإن المجلدة التاريخية هي تلك التي نالها لويس إنريكي، في الليلة التي لم يظهر فيها في بيت أبيه، ولا في بيت جدي، فبحسوا عنه في نصف القرية، إلى أن عثروا عليه في السينما. كان ثلثس دانا، يانع المربطات، قد قدم إليه كأس شراب مزطب في الساعة الثامنة ليلاً. وقد اختفى، دون أن يدفع، وأخذ الكأس معه، وباعته ضائعة المعينات المقلبة فطيرة، ورأته يتحدث بعد ذلك بقليل، مع يوكاب السينما الذي سمح له بالدخول مجاناً، لأنه قال له إن أباه ينتظره في الداخل. كان الفيلم هو دراكولا، من تمثيل كارلوس فيلارياس ولويس توفارا، وإخراج جورج ميلفورد. ولقد حدثني لويس إنريكي، بعد ستوات، عن رعيه في اللحظة التي أضيت فيها أنوار الصالة، حين كان الكونت دراكولا على وشك أن يغرس أنيابه كخصاص دفا، في رقبة الحسناء. كان يجلس في أكثر مكان مشوار وجده شاعراً في الصالة. ومن هناك

رأى أبي وجدي يبحثان عنه، صفاً فصفاً، في المقاعد؛ ومعتهما صاحب السينما وشرطيان. كان على وشك الاستسلام. عندما اكتشفه باباليلو في الصف الأخير من القاعة، وأشار إليه بعكازه:

- إنه هناك!

سحبني أبي من شعره، وجلده في البيت بالحزام جلداً ظل عيرة أسطورية في تاريخ الأسرة. الرعب والتقدير اللذان شعرت بهما تجاه سلوك أخي الاستقلالي ذاك، ظلا حيين إلى الأبد في ذاكرتي. أما هو فكان يبدو كأنه يتجاوز كل شيء، ليصبح أكثر بطولية، في كل مرة. ومع ذلك، فإنني أصاب بالذهول اليوم، من أن أقدره لم يكن يتبدى في الفترات النادرة التي يكون فيها أبي غائباً عن البيت.

التجأت، أكثر من أي وقت آخر، إلى ظل الجد. لقد كنا معاً على الدوام، في فترات الصباح في مشغل الصياغة أو في مكتبه كموظف مالية، حيث خصني بموظيفة سعيدة؛ رسم علامات رسم الأبقار التي ستذبح. وكان يأخذ الأمر بجدي، إلى حد يتخلى لي معه عن مرقعه على منضدة المكتب. وفي موعد الغداء، بوجود كل المدعوين، يجلس معاً على رأس المائدة، هو مع إريقه الألمنيوم الكبير المملوء بالماء الثلج، وأنا مع ملعقة فضية أستخدمها في كل شيء. ربما كان يلفت النظر. أنني إذا أردت قطعة من الثلج، أمد يدي في الإبريق لأخذها، فتتشكل على سطح الماء، طبقة من الدهن. وكان جدي يدافع عني: "إنه يتمتع بكل الحقوق".

في الساعة الحادية عشرة، نذهب إلى المعطة، عند وصول القطار؛ فابته خوان دي ديوس الذي ظل يعيش في سائنا مارتا، كان يبعث إليه

رسالة في كل يوم، مع سائق القطار المناوب الذي يتقاضى، مقابل ذلك، خمسة سنتات. وكان الجد يرد عليه بخمسة سنتات أخرى، في قطار العودة. وفي المساء، عندما قيل الشمس، يأخذني من يدي، ليقيم بمساعبه وشروحه الشخصية. كنا نذهب إلى محل الحلالة - وهي أطول ربع ساعة في الطفولة -؛ ولوذية الألعاب النارية - كانت تخيفني - في الأعياد الوطنية؛ وإلى مواكب أسبوع الآلام - حيث قتال المسيح الميت الذي كان يبدو لي أنه من لحم وعظم -. وكنت أستخدم آنذاك بريطة ذات مربعات اسكتلندية، مثل واحدة للجد، اشتريتها لي مينا لكي أصير أكثر شبهاً به. وقد توصلت إلى ذلك على أحسن وجه، حتى إن العم كينتي كان يرانا كشخص واحد، بعمرين مختلفين.

في أي ساعة من ساعات النهار، كان الجد يأخذني للشراب من متجر شركة الموز المتربع بالطينيات. وهناك عرفت أسماك البارغو، ووضعت للمرة الأولى، يدي على الجليد؛ وهزني اكتشاف أنه بارد. كنت سعيداً بأكل ما يخطر لي. ولكنني كنت أمل أدوار الشطرنج التي يلعبها جدي مع البلجيكي، والأحاديث السياسية. ومع ذلك، فإنني لاحظ الآن أننا، في تلك الجولات الطويلة، كنا نرى عاملين مختلفين: جدي يرى عالمه على مستوى أفقه، وأنا أرى عالمي على مستوى عيني. كان يحبي أصدقاءه على الشرفقات، وأنا أتشوق إلى ألعاب بائعي الشوارع المعروضة على الأرصفة.

وفي بداية الليل، كنا نتأخر في صخب "الأركان الأربعة" الكونتي، حيث كان يتبادل الحديث مع دون أنطونيو داكوتني، الذي يستقبله واقفاً عند باب متجره المزركش، وبينما أقف أنا مذهولاً بالمستجدات الآتية من

العالم بأسره. كنت مفتوناً بسحرة المهرجان الشعبي الذين يخرجون أرائي من قبعاتهم، وأكلي النار، والمتكلمين من بطونهم الذين يجعلون الحيوانات تتكلم، وعازقي الأكورديونات الذين يغنون بأعلى أصواتهم، ناقلين الأحداث التي تقع في برويشيا. وقد انتبهت اليوم إلى أن أحدهم، وكان عجوزاً جداً وله لعبة بيضاء، يمكن له أن يكون فرانكسكو الإنسان الأسطوري.

كلما بدا لدون أنطونيو داكوتني أن الفيلم ملاتم، كان يدعونا إلى العرض المبكر في صالته أولمبيا، مشيراً بذلك ذعر الجدة التي ترى في السينما، خلاعة لا تليق بحفيد بري. ولكن بابايلز كان يصبر على أخذني معه. وفي اليوم التالي يطلب مني رواية الفيلم على المائدة، ويصحح نسياني وأخطائي، ويساعدني على إعادة بناء المقاطع الصعبة. كانت تلك ومضات فن درامي أفادتني دون أدنى شك؛ ولا سيما عندما بدأت رسم قصص سلسلة، قبل أن أتعلم الكتابة. في البدء كانوا يحتفون بها كظرافات صيبانية. ولكن استحسان الكبار السهل كان يروقني، حتى انتهى بهم الأمر إلى الهرب عندما يشعرون بقدمي. وقد حدث لي الشيء نفسه، فيما بعد، مع الأغنيات التي كانوا يجبرونني على غنائها، في حفلات الزفاف وأعياد الميلاد.

قبل الذهاب للنوم، كنا نمر لبعض الوقت على مشغل البلجيكي؛ وهو عجوز مرعوب ظهر في آراكاتاكا، بعد الحرب العالمية الأولى. ولا أشك في كونه بلجيكيًا، بسبب الذكرى التي احتفظ بها عن لكته الطائشة وخنيته كبحار. وكان الكائن الحي الآخر في بيته كلباً دلمركياً ضخماً، أضْمَ لوطيًّا، اسمه مثل اسم رئيس الولايات المتحدة؛ وودرو

ويلسون. لقد تعرفت على البلجيكي وأنا في الرابعة من عمري، عندما كان جدي يذهب ليلعب معه بضعة أذوار شطرنج بكما، ولانتهائية، منذ الليلة الأولى، أثار دهشتي أنه لم يكن هناك في بيته شيء، أستطيع أن أعرف فائدته واستخدامه، فقد كان فناناً في كل شيء، يعيش وسط فرضي أعماله: مناظر بحرية بالياستيل، صور فوتوغرافية للأطفال يحتفلون بأعياد ميلادهم أو يناولتهم الأولى، مستنسخات لمجوهرات أسبورية، وجوه منحوتة على قرون أبقار، أثاث من عصور وطرق متنوعة مكومة، بعضها فوق بعض.

شد انتباهي جلده الملتصق بعظامه، وهو يلون شعره الأصفر الشمسي نفسه الذي تتهدل خصلة منه على وجهه، وتضايقه عند التكلم. كان يدخل بغليون ذئب بحر، لا يشعله إلا من أجل الشطرنج، وكان جدي يقول إنها حيلة لإرباك الخصم. وكانت له عين زجاجية زائغة تبدو أكثر انتباهاً إلى محدثه من العين السليمة، وكان مشلولاً من خاصرته إلى أسفل، منحنيًا إلى أمام وملتبسًا إلى اليسار. ولكنه يبحر مثل سمكة بين عوائق مشغلة، متعلقاً على عكازيه الخشبيين، أكثر مما هو مستند إليهما. لم أسمعهُ يتكلم قط، عن مغامرات إبحاره. وكانت على ما يبدو كثيرة وجريئة. أما الولد الوحيد المعروف عنه خارج بيته، فهو السيتما، لم يكن يتخلف عن أي فيلم، من أي نوع، في نهاية كل أسبوع.

لم أحبه قط. وأقل من ذلك، خلال جولات الشطرنج التي يتأخر فيها ساعات، لكي يحرك قطعة، بينما أنا أتهالك من النعاس. في إحدى الليالي رأيته شاحياً جداً. ودهمشتي النبرة المنذرة بأنه سيموت عما قريب؛ فأحسست بالشفقة عليه، ولكنه مع مرور الزمن، صار

يستغرق وقتاً طويلاً، في التفكير في كل نقلة، إلى حد انتهيتُ معه إلى قنني موته، من كل قلبي.

في تلك الفترة، علّق الجد في غرفة الطعام، لوحة تمثل بطل التحرير سيمون بوليفار، وهو مسجى بعد موته. ولم أفهم لماذا هو بلا الكفن الذي كنت قد رأيته في طقوس السهر على موتى آخرين، وإنا ممدداً على منضدة مكتب، بالزي العسكري الذي كان يرتديه في أيام مجده. وقد أخرجني جدي من تلك الشكوك، بجملة حاسمة:

- لقد كان مختلفاً.

ثم قرأ لي، بصوت مرتعش لا يشبه صوته، قصيدة طويلة معلقة إلى جانب اللوحة، أتذكر منها إلى الأبد، الأبيات الأخيرة فقط: "أنت يا سائناً مارتا، كنت كريمة مضيفة. فأنت، في أحضانك، منحته قطعة الأرض الصغيرة تلك على الشاطئ، لكي يموت فيها". منذ ذلك الحين، ولستوات طويلة، ظلت راسخة، في ذهني، فكرة أنهم عسروا على بوليفار ميتاً على الشاطئ. وكان جدي هو من علمني وطلب مني ألا أنسى أن ذلك الرجل هو أعظم من ولد في تاريخ العالم. وقد اختلط عليّ الأمر، لتناقض عبارته تلك مع عبارة أخرى كانت الجدة قد قالتها لي بتفخيم مائل. فسألت الجد عما إذا كان بوليفار أعظم من يسوع المسيح. فرد عليّ وهو يهز رأسه، دون قناعته الراسخة السابقة:

- لا علاقة لهذا بذلك.

لقد صرت أعرف الآن، أن الجدة هي التي فرضت على زوجها أن يأخذني معه في جولاته المسائية، لأنها كانت واثقة بأن جولاته تلك، ليست سوى ذريعة لزيارة عشيقاته الحقيقيات أو المفترضات. من

المحتمل أنه كان يستغلها كستارة. ولكن الحقيقة أنه لم يذهب معي قط، إلى أي مكان غير مقرر في جولته، مسبقاً. ومع ذلك، لدي في ذاكرتي صورة واضحة لليلة، مررت فيها مصادفة وأنا أمسك بيد أحدهم، قبالة بيت مجهول، ورأيت الجند جالساً كالسيد والمالكة في الصالة. ولم أستطع قط، أن أفهم لماذا حزني الإحساس بأنه يجب عليّ عدم إخبار أحد بذلك، حتى شمس هذا اليوم.

وكان الجند أيضاً هو من حقق اتصالي الأول بالحرف المكتوب، وأنا في الخامسة من عمري، في مساء يوم أخذني فيه للتعرف على حيوانات سيرك مرّ من كاتاكيا، تحت خيمة كبيرة، مثل كنيسة. وكان أكثر حيوان شداً اتباهي هو منجتر مكتتب، وفي حالة مزروعة، له ملامح أم مرعية، وقال لي الجند:

- إنه جميل.

فاعترض شخص يقف قريباً منا بالقول:

- المعذرة يا كركلونيل، ولكن هذا وحيد ستام^(١).

ويمكنني أن أتخيل الآن، كيف كان إحساس الجند، لأن أحدهم صحح له ما قاله، بحضور حفيده. ودون أن يحاول التفكير في الأمر، تجاوزوه بسؤال وجه:

- وما الفرق؟

فقال له الآخر:

- لا أدري، ولكن هذا وحيد السنام.

(١) تطلق تسمية camello على جمال آسيا الوسطى ذات السنامين، أما جمال الصحراء العربية وحيد السنام فيسمى dromedario.

لم يكن الجند بالرجل المثقف، ولم يكن يحاول أن يكونه؛ فقد هرب من المدرسة العامة، في ربواتها، كي يذهب ليطلق النار في واحدة من حروب منطقة الكاريبي الأهلية التي لا حصر لها. لم يعد إلى الدراسة، ولكنه بقي واعياً طوال الحياة لحوادثه. وكان به نهم إلى المعارف المباشرة التي تعرض نقصة. وفي مساء يوم السيرك ذاك، رجع إلى مكتبه، مشبط العزيمة، ويبحث في المعجم باهتمام طفولي. وعندئذ عرف هو، وعرفت أنا إلى الأبد، الفرق بين وحيد السنام والجمال. ثم وضع، بعد ذلك، المجلد الضخم في حضني وقال لي:

- هذا الكتاب لا يعرف كل شيء، وحسب، وإنا هو الكتاب الوحيد الذي لا يخطئ أبداً.

كان مجلداً ضخماً مصوراً، وعلي كعبه رسم تمثال تستقر على كتفيه قبة الكون، لم أكن أعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنني كنت قادراً على تصور مدى صحة ما قاله الكركلونيل، ما دمت أرى ما يقارب ألفي صفحة كبيرة، موشومة ومزينة برسوم بدیعة. كان حجم كتاب الصلوات في الكنيسة قد أذهلني، ولكن المعجم كان أسماك منه. وبدا لي ذلك، كما لو أنني أطل على العالم بأسره، لأول مرة. فسألت:

- كم كلمة فيه؟

- كل الكلمات - قال الجند.

الحقيقة، أنني لم أكن بحاجة آنذاك إلى الكلمة المكتوبة؛ لأنني كنت قادراً على التعبير بالرسوم عن كل ما يؤثر فيّ. ففي الرابعة من عمري، رسمت ساحراً يقطع رأس امرأته، ويعيد إلصاقه في مكانه، مثلما فعل الساحر ريشاردين، لدى مزوره في صلالة سيثما أولمبيا.

المشهد المرسوم يبدأ بقطع الرأس بمشار، يتلوه عرض انتصاري للرأس الدامي، وينتهي بالمرأة، وهي ترد على تصفيق الجمهور بحية برأسها الذي أعيد إلى مكانه. كانت القصص المصورة قد اخترعت آنذاك. ولكنني لم أتعرف عليها، إلا فيما بعد. في الملاحق الملونة لصحف يوم الأحد. وقد بدأت عندها باختراع حكايات مرسومة دون حوارات. ومع ذلك، عندما أهدى إليّ الجدة المعجم، أيقظ في نفسي فضولاً نحو الكلمات، إلى أن صرت أقرؤه كرواية، وفق التسلسل الأبجدي، ودون أن أفهم تقريباً. هكذا كان اتصالي الأول مع ما سيكون الكتاب الأساسي في قدرتي ككاتبة.

في الواقع، أنه عندما تُروى للأطفال أول قصة تشد اهتمامهم، يصعب بعد ذلك، أن يرغبوا في سماع قصة أخرى. أظن أن هذه ليست حالة الأطفال القصاصين، ولم تكن حالتي. فقد كنت أزيد المزيد، فالتهم الذي كنت أستمع به إلى القصص، يدفعني على الدوام، إلى انتظار قصة أفضل في اليوم التالي، وبخاصة تلك التي لها علاقة بأسرار وخرائب التاريخ المقدس.

كل ما يحدث لي في الشارع، كان له وقع هائل في البيت. ترويه نساء المطبخ للغرباء الذين يأتون في القطار - ويأتي هؤلاء بدورهم ولديهم ما يروونه - ويندمج كل ذلك في سبل التقاليد الشفوية. بعض الأحداث تعرف أولاً، من خلال عازفي الأكورديونات الذين يغنونها في المهرجانات، فبعيد المسافرون روايتها ويغنونها. ومع ذلك، فإن الحدث الأعظم تأثيراً في طفولتي، خرج لي في يوم أحد، باكراً، عندما كنا منذهب إلى القديس، وبدأ بعبارة غابرة قالتها جدتي:

- سيتخلف نيكولاستر المسكين عن قداس العنصرة اليوم، أسعدني ذلك، لأن قداس يوم الأحد طويل جداً بالنسبة إلى سني، ومواعظ الأب أنغاريستا الذي طالما أحببته في طفولتي، تبدو لي منومة. ولكنه كان وهماً دون طائل؛ فقد اقتادني الجد بما يشبه المجرعة، وأخذني إلى مشغل البلجيكي، ببدلة المخمل الخضراء التي أرديتها للذهاب إلى القديس، وكانت تضغط ما بين ساقَي. تعرفت شرطير الحراسة على الجد من بعيد، ففتحوا له الباب، مع العبارة التقليدية:

- تفضل أيها الكولونيل.

عندها فقط عرفت أن البلجيكي قد استنشق أبخرة سيانور الذهب - تقاسمها مع كليله - بعد أن شاهد فيلم "لا جديد على الجبهة" من إخراج لويس مايلستون، عن زوايا إريك ماريا ومارك، الحديس الشعبي الذي يجد الحقيقة دائماً، حتى حيث لا يكون ذلك ممكناً، تفهم الأمر، وأعلن أن البلجيكي لم يعد يتحمل هزة الانفعال لرؤيته نفسه يتمرغ مع كتيبته الممزقة أشلاء في أحد مستنقعات النورماندي.

كانت صلاة الاستقبال الضيقة في شبه ظلمة، بسبب النافذة المغلقة. ولكن نور الصباح الباكر في الفناء، كان يضيء غرفة النوم، حيث كان العمدة وشرطيان آخران ينتظرون الجد. وهناك كانت الجثة مغطاة ببطانية، على سرير عسكري ضيق؛ والعكازان في متناول اليد، حيث تركهما صاحبهما قبل أن يستلقي ليموت. وإلى جانبيهما، على مقعد خشبي صغير، الطست الذي يختر فيه السيانون، وورقة عليها حروف كبيرة مرسومة بريشة رسام: "لا تنهوا أحداً، لقد قتلت نفسي لأنني أحق". لم تدم الإجراءات القانونية وتفاصيل الدفن التي أجراها الجد أكثر من

عشر دقائق. ولكنها كانت بالنسبة لي عشر الدقائق الأشد تأثيراً التي سأذكرها في حياتي.

أول ما هزني، منذ الدخول، هي رائحة غرفة النوم. ولم أعرف إلا بعد وقت طويل من ذلك، أنها كانت رائحة اللوز المر المنطلقة من السيانور الذي استنشقه البلجيكي ليموت. ولكن لن يكون هذا الانطباع، ولا أي انطباع آخر سواه، أشد أثراً وديمومة من رؤية الجثة، عندما أزاح العنبد البطانية عنها ليربها للمجد، كان عارياً، متيبساً، معوجاً. بشرته الحشنة مغطاة بشعر أصفر، والعينان راكدتا الماء تنظران إلينا وكأنهما حيتان. هذا الرعب من الإحساس بأنني مراقب من الموت، هزني طوال سنوات كلما كنتُ أمر إلى جوار القبور التي بلا صليان، المخصصة للمنتحرين المدفونين خارج المقبرة، بترتيب من الكنيسة. ومع ذلك، فإن ما عاد إلى ذاكرتي مع شحنة قوية من الرعب، لدى رؤية الجثة، هو الملل الذي كنتُ أشعر به في الليالي التي تذهب فيها إلى بيته. وربما لهذا السبب، قلتُ لجدي عندما غادونا البيت:

- لن يعود البلجيكي إلى لعب الشطرنج، بعد اليوم.

كانت فكرة بسيطة، ولكن جدي رواها في الأسرة كخاطرة عبقرية، ونشرتها النساء بحماس كبير، حتى إنني كنتُ أهرب في إحدى الفترات من الزائرين، خوفاً من أن يرووا لهم ذلك أمامي، أو أن يجبروني على إعادته. وقد كشف لي ذلك أيضاً أحد شروط الكبار الذي سيكون ذا فائدة كبيرة لي ككاتب: فكل واحد منهم يروي القصة مع تفاصيل جديدة، يضيفها من عنده، إلى حد تصبح معه الروايات المتعددة في النهاية، مختلفة عن الأصلية. لا يمكن لأحد أن يتصور الشفقة التي

أشعر بها، منذ ذلك الحين، على الأطفال المساكين الذين يعتبرهم آياهم عباقر، فيجعلونهم يغنون أمام ضيوفهم، ويقلدون أصوات الطيور أو يدفعونهم حتى إلى أن يكلبوا للتسلية. وقد أدركت اليوم، مع ذلك، أن تلك الجملة البسيطة كانت لحاجي الأدبي الأول.

كانت هذه هي حياتي في العام ١٩٣٢، عندما أعلن أن البيرو، تحت النظام العسكري للجنرال لويس ميغيل سانتشيث ثيرو، قد اختلت بلدة لينثيبيا، التي بلا حامية، على ضفاف نهر الأمازون، في أقصى جنوبي كولومبيا. دوى الخبر في أجواء البلاد، وأعلنت الحكومة التعبئة الوطنية، وحملة تبرعات عامة لجميع المجوهرات الأسرية ذات القيمة من بيت إلى بيت. حدة الوطنية المتزايدة بسبب هجوم قوات البيرو الغادر استشارت استجابة شعبية لا سابق لها. ولم يكن جامعو التبرعات يتوانون عن تحصيل تلك الضرائب الطوعية، من بيت إلى بيت، وبخاصة خواتم الزفاف، المرغوبة لقيمتها الحقيقية، وقبعتها الرمزية على السواء.

أما بالنسبة لي بالمقابل، فكانت واحدة من أسعد الفترات، لما تخللها من فوضى. فقد كُسر نظام الصرامة العقيم في المدارس، وحل محله الإبداع الشعبي في الشوارع والبيوت. تشكل فوج مدني من صفوة الشبيبة، دون تمييز في الطبقة الاجتماعية أو اللون، وأنشئت كتابات الصليب الأحمر النسائية، وألفت على عجل أناشيد تدعو إلى الحرب حتى الموت، ضد المعتدي الزنيم، ودوت في أجواء الوطن الصرخة الجماعية: "قلعش كولومبيا، وتسقط البيرو".

لم أعرف قط إلى ما انتهت تلك المأثرة، لأن الخواطر هدأت بعد وقت قصير، دون تفسيرات كافية. وترسخ السلام على إثر اغتيال

الجنرال سانتشيث ثيرو، على يد أحد المعارضين لحكمة الدموي، وتحولت صرخة الحرب إلى روتين للاحتفال بانتصارات كرة القدم المدرسية. ولكن أوري اللذين ساهما بخاتي زفافهما من أجل الحرب، لم يشقيا أبداً من سناجتهما.

ووفق ما تصل إليه ذاكرتي، فإن ميلي إلى الموسيقى، تكشف في تلك السنوات، من الانهيار الذي أثاره في نفسي، عازفو الأكورديونات بأغنيات الجوالين. كنت أعرف بعض تلك الأغاني عن ظهر قلب، مثل تلك التي تغنيها النساء في المطبخ خفية، لأن جدتي تعطيها أغنيات وضعية. ومع ذلك، فإن حاجتي الملحة إلى الغناء، لكي أشعر بأنني حي، يشتتها في نفسي أغنيات التانغو التي يغنيها كارلوس غارديل، وأصابت بعدواها نصف العالم، كنت أطلب أن يلبسوني مثله، مع قبعة من اللبد ولفاح من الحرير. ولم أكن بحاجة إلى من يتوسل إلي كثيراً لكي أطلق أغنية تانغو بل، صدري، حتى صباح النحس الذي أيقظتني فيه العبة ماما لتخبرني بأن غارديل قد مات في تصادم طائرتين في ميدلين. قبل شهر من ذلك، كنت قد غنيت "الانحدار إلى الهاوية" في سهرة خيرية، ترافقتي على البيانو الأختان إتشيفيري، اليوغوتيتان الصافيتان، اللتان كانتا معلمتي متعلمين، وروح كل سهرة خيرية وحفلة ذكرى وطنية تقام في كاتاكما، وقد غنيت يومذاك بفرد شديد حتى إن أمي لم تتجرأ على معارضتي، عندما قلت لها إنني أريد تعلم العزف على البيانو، بدل الأكورديون الذي تفقته الجدة.

في تلك الليلة بالذات، أخذتني إلى الأنتين إتشيفيري لكي تعلماني. وبينما هن يتكلمن، كنت أنظر إلى البيانو من طرف الصالة

الأخر يورع قلب بلا سيد، وأقدر إذا ما كانتا سابقي سبيلان إلى الدوامات، وأتشكك إذا ما كان إصبعاي، الإبهام والخنصر، يصلان إلى الفواصل المتباعدة جداً، أو إذا ما كنت سأتمكن من فك هيروغليفيات المدرج الموسيقي. كانت زيارة آمال زاهية استمرت ساعتين، ولكن دون طائل؛ فقد قالت لنا المعلمتان في النهاية، إن البيانو معطل، ولا تعرفان إلى متى سيبقى كذلك. فتأجلت الفكرة إلى أن يعود المدرّس في جولته السنوية القادمة. ولم يعد أحد إلى الحديث عن تلك الفكرة إلا بعد مرور نصف حياة، عندما ذكرتُ أمي في حديث عابر، بالألم الذي أحسست به لأنني لم أتعلم العزف على البيانو. فتنهدت هي قائلة:

- وأسوأ ما في الأمر، أنه لم يكن معطلاً.

وعندئذ، علمتُ أنها اتفقت مع المعلمتين على التعلل بحجة البيانو المعطل، لكي تحبيني العذاب الذي عانت منه هي نفسها، طوال خمس سنوات من التضامن البلهاء، في مدرسة التقدمية، وكان العزاء في أنه قد افترضت، في كاتاكما تلك السنوات، مدرسة مونتيسوري. وكانت معلماتها يحفرن الحواس الخمس من خلال قارئ عملية، ويعلمن الغناء، ويفضل مزهبة وجمال المديرية روسا إيلينا فيرغوسون، كانت الدراسة شيئاً رائعاً، أشبه بمن يلعب لعبة أنه حي. تعلمت تقدير حاسة الشم التي تتمتع بقدرة استحضار نوستالجي ساحقة. وشحذت حاسة التذوق إلى حد تذوق مشروبات لها طعم نافذة، وخبز قديم له طعم صندوق خشبي، وأشرطة مغنية لها طعم قدامس. من الصعب نظرياً فهم هذه المنع الذاتية، ولكن من عاشوها سيفهمونها فوراً.

لا أظن أن هناك منهجاً أفضل من أسلوب مدرسة مونتيسوري،

لشحن حساسية الأطفال، فجاء جاليات العالم وإيقاظ فضولهم نحو أسرار الحياة. لقد أخذ عليها أنها تشجع حسن الاستقلالية والقرودية - وربما كان ذلك صحيحاً في حالتي -، ولكنني لم أتعلم قط، بالمقابل، القسمة أو استخراج الجذر التكعيبي، ولا التعامل مع أفكار مجردة، كنا صغاراً إلى حد لا أتذكر معه سوى تلميذين: أولهما هي خوانيتا ميندوثا التي توفيت بالتيفوس، وهي في السابعة من عمرها، بعد وقت قصير من افتتاح المدرسة. وقد أثرت فيّ كثيراً، حتى إنني لم أستطع نسيانها قط، وهي بأكليل وطرحه العروس في الثابت، والآخر هو غيسبرمو باليتشا أبدا، صديقي منذ الفسحة الأولى، وطبيبي الذي لا يخطئ في تشخيص ومن صباحات أيام الاثنين.

لا بد أن أختي مارغوت كانت تعسة جداً في تلك المدرسة، مع أنني لا أذكر أنها قالت ذلك يوماً. كانت تجلس على كرسيها في صفها التحضيري، وتظل هناك صامتة - حتى في أوقات الاستراحة - دون أن تحرك بصرها عن نقطة غير محددة، إلى أن يُقرع الجرس الأخير. لم أعرف في الوقت المناسب قط أنها، حين تبقى وحيدة في القاعة الخاوية، تمضغ تراباً من حديقة البيت، تحمله معها في جيب مريلتها.

لقد تكلفتُ مشقة كبيرة في تعلم القراءة، إذ لم يكن يبدو لي منطقياً أن حرف "م" يسمى "ميم"، ومع ذلك فبأنه، بإضافة حرف "ت" الصوتي إليه، لا يلفظ "ميما" وإنما "ما". كان من المستحيل عليّ القراءة على هذا النحو. وأخيراً، عندما وصلت إلى مدرسة مونثيسوري، لم تعلمني المعلمة أسماء الحروف، وإنما منطوقها. وهكذا استطعت أن أقرأ أول كتاب وجدته في خزانة معبرة في مستودع البيت. كان مذكراً

وغير مكتمل، ولكنه اجتذبتني بشدة حتى إن خطيب سارا أطلق لدى مروره إنذاراً رهيباً: "يا للجنة! هذا الطفل سيصير كاتباً".

ولأنه هو، الذي يعيش من الكتابة، من قال ذلك، فقد سبب لي انفعالاً عظيماً. وقد مرت عدة سنوات قبل أن أعرف أن ذلك الكتاب هو "ألف ليلة وليلة". وأكثر قصة أعجبتني فيه - إحدى أقصر القصص التي قرأتها وأبسطها - تبقى تبدو لي الأنضل طوال ما تبقى من حياتي، مع أنني غير متأكد الآن بما إذا كنت قد قرأتها هناك. ولم يستطع أحد أن يوضح لي ذلك، والقصة هي التالية: صباد بعد جارتته بأن يهدي إليها أول سمكة يصطادها، إذا ما قدمت له قطعة رصاص، من أجل شبكته. وعندما تشق المرأة السمكة لكي تقلبها، تجد في داخلها ماسة بحجم حبة لوز.

لقد ارتبطت حرب البيرو، في ذاكرتي، بالتحذار كاتاكازا، لأنه ما إن أعلن السلام حتى تاه والدي في متاهة من عدم اليقين، انتهت أخيراً بانتقال الأسرة إلى مسقط رأسه، في قرية سينشي. وكان ذلك الانتقال في الواقع، بالنسبة لي وللويس إنريكي، وقد رافقناه في رحلة الاستطلاع، مدرسة جديدة في الحياة، وثقافة شديدة الاختلاف عن ثقافتنا بحيث تبدوان وكأنهما كوكبان مختلفان. منذ اليوم التالي لوصولنا، أخذونا إلى البساتين المجاورة، وهناك تعلمنا امتطاء الحمار، وحلب الأبقار، وخصي العجول، ونصب أفخاخ للتدرج، والصيد بالشص، وفهم سبب بقاء الكلاب ملتصقة بأنانها. كان لويس إنريكي يمضي دوماً، متقدماً عليّ كثيراً، في اكتشاف العالم الذي كانت الجدة مينا تحظره علينا؛ بينما كانت الجدة أرخيميرا تحدثنا عنه في سينشي دون أدنى

تستمر الكثير من الأعمام والعمات، والكثير من أبناء العمومة مختلفي الألوان، والكثير من الأقارب ذوي الكنى الغريبة، يتكلمون رطانة لهجات شديدة التفرع، كانت تشير قينا أول الأمر من البليطة، أكثر مما تشير من التعرف على الجديد. إلى أن فهمنا ذلك على أنه طريقة أخرى في المحبة. والد أبي، دون غابرييل مارتينيث، وهو معلم مدرسة أسطوري، استقبلني أنا ولويس إنريكي، في قنا، بيتنا المزروع بأصنخم أشجار تحمل أشهر ثمار المانجا، بطعمها وحجمها، في البلدة. كان يحصي الثمار واحدة واحدة، كل يوم منذ بدء المحصول السنوي، ويقطفها واحدة فواحدة بيده، في لحظة بيعها بشمن مغر، هو خمسة سنتات لكل واحدة. وعندما ودعنا، بعد محادثة ودية عن ذكرياته كمعلم جيد، قطف ثمرة مانجا، من أكثر الأشجار ضخامة، وقدمها إلينا، نحن الاثنين.

كان أبي قد ساق لنا تلك الرحلة باعتبارها خطوة مهمة على طريق لم شمل الأسرة. ولكننا أدركنا منذ وصولنا، أن هدفه السري هو فتح صيدلية في الساحة الرئيسية الكبرى. وقد جرى تسجيلي، أنا وأخي، في مدرسة المعلم لويس غابرييل ميسا، حيث شعرنا بأننا أكثر حرية وأفضل اندماجاً بالمجتمع الجديد. استأجرنا بيتاً فسيحاً جداً، عند أفضل ناصية في القرية، مؤلفاً من طابقين وشرقة بارزة فوق الساحة. يتردد طوال الليل، في غرف نومه الكنيبة، تغريد شبح كروان غير مرئي.

كان كل شيء جاهزاً من أجل قدوم أمي وأخواتي السعيد، عندما وصلتنا برقية تحمل خبر موت الجد نيكولاس ماركيز. لقد أصيب باعتلال مفاجئ في حنجرته، جرى تشخيصه على أنه سرطان في آخر مراحل. ولم يكد يتسع الوقت لأكثر من أخذه إلى سانتا مارتا، ليموت

هناك، والوحيد منا الذي رآه الجد، في احتضاره، هو أخي غوستافو، وكان قد ولد قبل ستة شهور، فوضعه أحدهم في سرير الجد لكي يودعه. فداعبه الجد المحتضر مداعبة وداع، وقد احتجت لسنوات طويلة، كي أعني ما تعنيه بالنسبة لي، تلك الميتة غير المتوقعة.

جرى الانتقال إلى سينثي على كل حال، ليس مع الأبناء وحدهم، وإنما كذلك مع الجدة مينا، والعمة ماما، وكانت مريضة، وكلتاها تحت الرعاية الطبية للعمة يا. ولكن سعادة التجديد وفشل المشروع، حدثا في الوقت نفسه تقريباً. فقدنا جميعنا، خلال أقل من سنة، إلى البيت القديم في كاتاكيا "نحن نهر القبعة"، مثلما كانت تقول أمي، في المواقف التي لا علاج لها. ظل أبي في بارانكيا، يدرس طريقة لفتح صيدليته الرابعة.

آخر ذكرياتي عن بيت كاتاكيا، في تلك الأيام المربعة، هي ذكرى محرقة القنا، التي أحرقوا فيها ملابس الجد. كانت سترته ذات الجيوب الحربية، وبدلته الكتانية البيضاء ككولونيل مدني، تشبهه كما لو أنه لا يزال حياً فيها، بينما هي محترق. وبخاصة قبعاته المخملية الكثيرة متعددة الألوان التي كانت أفضل سمة فارقة تميزه من بعيد. وقد تعرفت، بينما، على قبعتي ذات المربعات الاسكتلندية التي أحترقت بسبب السهر. وقد حزني إحساس بأن طقوس الإبادة تلك، قنحتني دور بطولة مؤكدة في موت الجد. اليوم أرى ذلك بوضوح: هناك شيء خاص بي قد مات معه. ولكنني أعتقد أيضاً، دون أي شك، أنني كنت منذ تلك اللحظة، كاتباً لا يزال في المدرسة الابتدائية، لا ينقصه إلا تعلم الكتابة. وكانت هذه الحالة المعنوية نفسها هي التي شجعتني على مواصلة

عيش الحياة، حين خرجت مع أمي من البيت الذي لم نستطع بيعه، وما أنه يمكن لقطار العودة أن يأتي في أي وقت، فقد ذهبتا إلى المحطة دون أن نفكر حتى في أن نحبي أي شخص آخر. "سنعود مرة أخرى لوقت أطول"، قالت هي ذلك، بالعبارة الملطفة الوحيدة التي خطرت لها، لتشير إلى أنها لن تعود مطلقاً. أما أنا من جهتي، فكنت أعرف حينئذ أنني لن أتوقف أبداً طوال حياتي، عن الحنين إلى رعد الساعة الثالثة.

كنا الشبيين الوحيديين في المحطة، عدا الموظف ذي الأبرهول الذي يبيع التذاكر، ويقوم بالأعمال التي كانت تتطلب في أزمنتنا عشرين أو ثلاثين رجلاً متعجلين. كان الحر رهيباً. وعلى الجانب الآخر من سكة القطار، لم تكن هناك سوى بقايا المدينة المحرمة التي أقامتها شركة الموز، بيوتها القديمة دون القرميد الأحمر، وأشجار النخيل الزاوية بين الآجام، وأنقاض المستشفى. وفي أقصى التل الترابي، بيت المونتسوري، مهجوراً بين أشجار لوز حرمة، وساحة ملح البارود الصغيرة، قبالة المحطة، دون أدنى أثر من عظمتها التاريخية.

كان كل شيء، بمجرد النظر إليه، يستثير في نفسي لهفة جامحة إلى الكتابة، كيلا أموت. لقد عانيت ذلك الشعور من قبل، ولكنني في ذلك الصباح فقط، تعرفت عليه، على أنه اللحظة الصافية للإلهام. هذه الكلمة البغيضة، إنما الواقعية إلى حدٍ جرب كل ما تصادفه في طريقها، لكي تصل في الموعد، إلى رماها.

لا أتذكر أننا تحدثنا شيئاً، حتى في قطار العودة. وعندما صرنا في المركب، في فجر يوم الاثنين، مع النسجمة الباردة في ثيابنا الهاجعة، انتهيت أمي إلى أنني، أنا أيضاً لم أتم، فسألتني:

- هم تفكر؟

- إنني أكتب - أجبته، ثم أسرعت في محاولة الظهور بظهر أكثر لطفاً: - أعني أنني أفكر في ما سوف أكتبه، عندما أصل إلى المكتب. - ألا تخاف أن يموت أبوك من الأسى؟

فتملصت بالتغافط طويلة.

- كانت لديه أسباب كثيرة للموت، وهذا أقلها إماتة.

لم يكن الوقت المناسب لأغامر في كتابة رواية ثانية، بعد أن غصت في وحل الأولى، وبعد أن حاولت، بحسن الحظ أو من دونه، أشكالاً أخرى من القصة المتخيل. ولكنني أنا نفسي، فرضت الأمر على نفسي في تلك الليلة، كالإلزام حريري: إما أن أكتب هذه الرواية وإما أموت. أو مثلما قال ريلكه: "إذا كنت تظن أنك قادر على العيش دون كتابة، فلا تكتب".

من سيارة التاكسي التي نقلتنا حتى مرفأ المراكب، بدت لي مدينتي القديمة بارانكيًا، غريبة وكتيبة، على أول أنوار ذلك اليوم القدري من شباط. دعائي قبطان السطحة "إيلينا ميرينديس" لمرافقة أمي حتى بلدة سوكري، حيث كانت تقيم الأسرة، منذ نحو عشر سنوات. ولكنني لم أفكر في الأمر مجرد تفكير، ودعيتها بقبلة، ونظرت هي إلى عيني، وابتسمت لي لأول مرة، منذ المساء السابق، وسألتني بمكرها الدائم:

- إذا ماذا سأقول لأبيك؟

فأجبته، وقلبي في يدي:

- قل لي له إنني أحبه كثيراً، وإنني بفضله سأصير كاتباً. - ثم سارعت إلى قطع الطريق على أية خباياث أخرى، دون شفقة: - كاتب ولا شيء آخر.

كنت أحب قول ذلك، في بعض المرات مازحاً، وفي مرات أخرى بجد. ولكنني لم أقله بكل تلك القناعة، كما في ذلك اليوم. بقيت في المرقأ، أرد على تلويحات الوداع البطيئة التي تقدم بها أمني من شرفة المركب. ثم مضيت بعد ذلك مسرعاً إلى مكتب جريدة الهيرالدو، متفعلاً باللهفة التي تنهشني من الداخل، وبدأت، دون أن ألتقط أنفاسي، كتابة الرواية الجديدة بالجملة التي قالتها أمني: "جئت أطلب منك معروفاً بأن ترافقني لبيع البيت".

كان منهجي آنذاك مختلفاً عن الذي تبنيته فيما بعد، كمكاتب محترف. كنت أكتب بالسبائين فقط - مثلما ظلت أفعل حتى الآن - ولكنني لم أكن أمزق كل فقرة، إلى أن تصير وفق ذوقي - مثلما أفعل الآن -، وإنما كنت أطلق العنان لإفراغ كل المادة الخام التي أحملها في أعماقي. أظن أن ذلك النظام فرض نفسه عليّ، بسبب مقاسات الورق الذي كان على شكل أشرطة عمودية مقصوفة من لفافة المطبعة، يمكن لكل شريط منها أن يكون بطول خمسة أمتار. وكانت المحصلة أصولاً طويلة وضيقة مثل أوراق بردي تخرج كشلال من الآلة الكاتبة، وتند على الأرض، كلما تقدم أحدنا في الكتابة. لم يكن رئيس التحرير يقدر المقالات التي يكلفنا بكتابتها، بعدد الصفحات أو الكلمات أو الحروف، وإنما بالسنتيمترات الورقية. فكان يقول: "أريد ريبورتاجاً بطول متر ونصف". لقد عارذني الحنين إلى ذلك القطع، وأنا في أوج النضوج، عندما انتهت إلى أنه يشبه، عملياً، شاشة الكمبيوتر.

الاتدفاع الذي بدأت به الرواية، كان بلا كناع، إلى حد فقدت معه الإحساس بالوقت. وفي الساعة العاشرة صباحاً، كنت قد كتبت أكثر من

متر، عندما فتح ألفونسو فونيسايوز الباب الرئيسي فجأة، وبقي متجمداً، والمفتاح في القفل، كما لو أنه أخطأ وفتح الحسام. إلى أن تعرف عليّ.

- وأنت، أي لعنة تفعلها هنا، في هذه الساعة؟ - قال لي متفاجئاً، فقلت له:

- إنني أكتب رواية حياتي.

- واحدة أخرى؟ - قال ألفونسو بسخرية الجاحدة، وأضاف: - يبدو أن لك، من الحيات، أكثر مما لقط.

- إنها الرواية نفسها، ولكن بطريقة أخرى - قلت ذلك، كيلا أقدم له تفسيرات غير مجدية.

لم تكن تتخاطب برفع الكلفة، كما هي العادة الكولومبية الغربية، منذ التحية الأولى، ثم الانتقال بعد ذلك إلى التخاطب بتوقير، عندما يتم التوصل إلى قدر كبير من الثقة المتبادلة - مثلما يحدث بين الأزواج.

أخرج كثيراً وأوراقاً من الحقيبة المهترئة، ووضعها على المنضدة. وفي أثناء ذلك، استمع بفضوله الذي لا يرتوي إلى الانقلاب الانفجالي الذي حاولت نقله إليه، بالقصة الجامحة عن رحلتي. وأخيراً، وعلى سبيل الإيجاز، لم أستطع تفادي نكبتني في أن أخلص، في جملة واحدة، ما لم أستطع تفسيره. فقلت له:

- هذا أعظم ما حدث لي، في الحياة.

فقال ألفونسو:

- لحسن الحظ، أنه لن يكون الأخير.

بدا كأنه لم يفكر، وهو يقول ذلك، لأنه هو نفسه لم يكن قادراً على تقبل فكرة دون اختزالها، قبل ذلك، إلى حجمها المضبوط. ولكنني كنت أعرفه بما يكفي، لألاحظ أن انفعالي بالرحلة، ربما لم يؤثر فيه كثيراً، مثلما كنت أنتظر. ولكنه أدهشه دون ريب. وهكذا كان: فمئذ اليوم التالي، بدأ يوجه إلي كل أنواع الأسئلة العارضة، إنما الباردة، حول سير الكتابة. وكانت أي إجابة بسيطة منه، كافية لدفعني إلى التفكير في أن هناك شيئاً لا بد من تصحيحه.

وبينما نحن نتكلم، كنت قد جمعت أوراقني، لكي أخلّي المتضدة، إذ كان يتوجب على ألفونسو أن يكتب في ذلك الصباح. الافتتاحية الأولى لمجلة كرونيكا. ولكن الخبر الذي حمّله إليّ أسعد نهارني: فالعدد الأول، المقرر صدوره في الأسبوع التالي، سيتأجل، للمرة الخامسة، بسبب عدم التقيد في موعد تسليم الورق. وقال ألفونسو: إذا حالفنا الحظ، سنصدر المجلد، خلال ثلاثة أسابيع.

فكرت في أن تلك المهلة التي وفرها لي القدر، ستكون كافية لكي أحدد بداية الكتاب؛ فقد كنت ما أزال مبتدئاً جداً لكي ألاحظ أن الروايات لا تبدأ مثلما يريد أجدنا، وإنما مثلما تريد هي. إلى حد أنني، بعد ستة شهور من ذلك، عندما كنت أظن أنني أمضي نحو النهاية السرية، اضطررت إلى إعادة كتابة معيقة للصفحات العشر الأولى، كي يصدقها القارئ. وهي ما زالت تبدو لي حتى اليوم، غير نافعة، ولا بد أن التأجيل كان مراتباً لألفونسو كذلك. لأنه بدل أن يتحسر، خلع سترته وجلس إلى المتضدة، ليواصل تصحيح الطبعة الجديدة، من معجم الأكاديمية الملكية الذي وصلنا في تلك الأيام. لقد كانت تلك، هي

تسليته المفضلة، منذ أن وجد خطأ عارضاً في معجم إنكليزي، وأرسل التصحيح موثقاً إلى ناشري ذلك المعجم في لندن. وربما دون السعي إلى مكافأة أخرى أكثر من إرفاق رسالة التصحيح تلك، بواحدة من دعاياتنا: "أخيراً صارت إنكلترا مدينة للكولومبيين بجميل". وقد ردّ عليه الناشرون برسالة لطيفة جداً، يعترفون فيها بالخطأ، ويطلبون منه مواصلة التعاون معهم. وقد فعل ذلك، لعدة سنوات، ولم يجد عشرات أخرى في المعجم نفسه وحسب، بل في معاجم أخرى بلغات مختلفة. وعندما شاخت العلاقة، كان قد أدمن عاداته الفريدة، في تصحيح معاجم بالإنسية، والإنكليزية، والفرنسية، فإذا كان عليه الجلوس في قاعة انتظار، أو الانتظار في الحافلات، أو في أية صفوف انتظار أخرى في الحياة، كان يشغل نفسه في المهمة الميليمترية الدقيقة: تصيّد الأخطاء المطبعية، في أدغال اللغات.

كان الحر لا يطاق في الساعة الثانية عشرة. وكان دخان سجائرتنا، تحن الاثنين، قد غيّم الضوء الشحيح الذي يدخل من النافذتين الوحيدتين. ولكن أياً منا لم يكلف نفسه مشقة تهوية الغرفة، ربما بسبب الإدمان الشائني، بمواصلة تدخين الدخان نفسه حتى الموت. أما الحر، فكانت حالتي معه مختلفة، فقد كنت أحظى، خفياً، بالقدرة على تجاهله حتى الثلاثين درجة مئوية في الظل. أما ألفونسو، بالمقابل، فراح يخلع ملابسه، قطعة بعد أخرى، مع اشتداد الحر، دون أن يقطع عنه: بدأ بربطة العنق، ثم القميص، ثم القميص الداخلي. وكان في سلوكه ذاك، قائدة أخرى هي أن ثيابه تظل جافة، بينما هو يلدوب في العرق، ويستطيع ارتداؤها من جديد، عندما تيل الشمس، مكوّنة جيداً.

وطازجة، مثلما كانت عند الفطور. ولا بد أن هذا هو السرفي ظهوره
المثائق دائماً، وفي أي مكان، ببدايته الكثافية البيضاء، وربطات عنقه
ذات العقدة الملوية، وشعره الهندي القاسي والفروق في منتصف رأسه
بخط رياضي مثقن. وهكذا كان مرة أخرى، في الساعة الواحدة بعد
الظهر، عندما خرج من الحمام، كما لو أنه قد استيقظ من إغفاءة
مريحة. وسألني عندما مرّ بجانبني:

- ألا تصعدى؟

فقلت له:

- ليس هناك جوع يا معلم.

كان الرد مباشراً في قانون القبيلة: فلو قلت نعم، فإن ذلك يعني
أنني في ضيق شديد، ربما منذ يومين على الحيز والماء. وفي هذه الحالة،
أذهب معه دون مزيد من التعليقات. ويكون واضحاً أن عليه تدبير الأمر
ليدعوني. أما الرد - ليس هناك جوع - فيمكن أن يعني أي شيء.
ولكنها كانت طريقي في القول له إنني لا أجد مشكلة في تدبير الغذاء.
اتفقنا على اللقاء في المساء، كما هي العادة، في مكتبة مونلو.

بعد الظهر بقليل، جاء رجل شاب يبدو كأنه يمثل سينمائي. كان
شديد الشقرة، وبشرة مديونة بقسوة المناخ. له عبتان ورقاوان
غامضتان، وصوت موسيقي دافئ. وبينما نحن نتحدث عن المجلة
وشبكة الصدور، رسم على غطاء المنضدة بروفييل ثور هانج بستة خطوط
سريعة متتعة، ووقع على الرسم. مع ملاحظة موجهة إلى فوينمايور، ثم
ألقى قلم الرصاص على الطاولة، وودّع بصفق الباب بقوة. كنتُ
مستغرقاً في الكتابة، حتى إنني لم أنظر إلى الاسم الذي وقع به على

الرسم. وهكذا واصلت الكتابة، طوال ما تبقى من النهار، دون أن أكل
أو أشرب. وعندما نفذ ضوء المساء، اضطررت إلى الخروج متلمساً
طريقي، ومعني المخططات الأولى للرواية الجديدة، سعيداً باليقين بأنني
وجدت أخيراً، طريقاً مختلفاً لشيء كنتُ أكتبه، دون أمل منذ أكثر من
سنة.

في تلك الليلة فقط، عرفت أن زائر بعد الظهر، هو الرسام
أليخاندرو أوبريغون، وكان قد رجع حديثاً من واحدة أخرى من رحلاته
الكثيرة إلى أوروبا. لم يكن، منذ ذلك الحين، واحداً من أعظم رسامي
كولومبيا وحسب، وإنما أحد أكثر الرجال المحبوبين من أصدقائه كذلك.
وكان قد استيق عودته بالإخبار بأنه سيشارك في إطلاق مجلة كرونيكا.
وجدته مع أصدقائه المقربين في حانة بلا اسم في زقاق التور، في وسط
الحى السفلي. وكان ألفونسو فوينمايور قد عمّد تلك الحانة بعنوان كتاب
حديث لغراهام غرين: "الرجل الثالث". كانت عودات أليخاندرو
أوبريغون، تاريخية على الدوام، وبلغت عودته ذروتها في تلك الليلة،
في استعراض جدد مروّض يطيع، مثل كائن بشري، أوامر سيده. يقف
على قائمتين، يمد جناحيه، يغني بصغير إيقاعي موزون، ويحيي
المصفيقين بانحناءات ترقير مسرحية. وفي النهاية، وأمام المروّض النشوان
بعاصفة التصفيق، أمسك أوبريغون المجدد من جناحيه، بأطراف
أصابعه، ودسه في فمه أمام دهول الجميع، ومضغه حياً يتلذذ حسي. لم
يكن من السهل إرضاء المروّض اليائس بأي نوع من المديح والعطايات.
وقد علمتُ فيما بعد، أنه لم يكن المجدد الأول الذي يأكله أوبريغون
حياً، في استعراضات عامة، ولن يكون الأخير.

لم أشعر قط، مثلما شعرت في تلك الأيام، بالندماجي في أجواء تلك المدينة، وتصف دزينة الأصدقاء الذين بدأت سمعتهم بالانتشار في الأوساط الصحفية، باسم جماعة بارانكيًا. كانوا كتاباً وفتانين شباباً يمارسون نوعاً من الزعامة على حياة المدينة الثقافية، تقودهم يد المعلم الكتلاني دون رامون فينيس، المسرحي والمكتبي الأسطوري، والمكرس في موسوعة إسبانيا منذ العام ١٩٢٤.

كنت قد تعرفت عليهم في شهر أيلول من السنة السابقة، عندما جئت من كارتاخينا - حيث كنت أعيش في ذلك الحين - بشوصية مستعجلة من كليمنتي مانويل ثيبالا، رئيس تحرير صحيفة الأونيفرسال، التي كتبت فيها أولى مقالاتي الصحفية: أمضينا ليلة في الحديث عن كل شيء، وبقينا على اتصال متحمس وذاتم، نبادل الكتب والعشرات الأدبية، وانتهى بي الأمر إلى العمل معهم. كان هناك ثلاثة من الجماعة الأصلية، يتميزون باستقلالياتهم وميولهم الطبيعية: خيرمان بارغاس، وألفونسو فوينمايور، وألفارو سيبدا ساموديو، وكانت تجمع بيننا أشياء كثيرة مشتركة حتى كان يقال، بسوء نية، إننا أبناء الأب نفسه. ولكننا كنا معروفين، وكانوا يحبوننا قبلنا في بعض الأوساط بسبب استقلاليتنا، وميلنا الجامح، والتصميم الخلاق الذي يشق طريقه بالمناكب، وحياء يحل أمره كل واحد منا على طريقته، دون أن يوفق في ذلك دائماً.

كان ألفونسو فوينمايور كاتباً وصحفيًا بارعاً، في الثامنة والعشرين من عمره، واطب لوقت طويل، على كتابة عمود يومي عن الوقائع الراهنة في جريدة الهيرالدو بعنوان "جو اليوم"، وبالاسم

الشكسبييري المستعار "يوك"، وكلما ازداد تعرفنا على استهتاره وحسه الساخر، كان فهنا يتضائل حول أنه قرأ الكثير من الكتب، بأربع لغات، وفي كل الموضوعات التي يمكن تخيلها. وقد كانت تجرته الحيوية الأخيرة، حين صار في الخمسين من عمره تقريباً، هي سيارة هائلة في حالة يرثى لها، كان يقودها بكل مجازفة بسرعة عشرين كيلومتراً في الساعة، وكان سائق سيارات التاكسي، أصدقاءه الخمسون وأكثر تُركه حكمة، يتعرفون عليه من بعيد، فيقفون جانباً، ليفسحوا له الطريق.

أما خيرمان بارغاس كاتبٌ، فكان كاتب عمود في مسائية "النايسونال". ناقد أدبي دقيق ولاذع، وصاحب نشر خدوم يمكن له أن يقطع القارئ بأن الوقائع تحدث، لأنه هو الذي يرويها فقط. كان أحد أفضل مذيعي الإذاعة، وأوسعهم ثقافة، دون شك، في أزمنة المهنة الجديدة الطبية تلك، وفردجاً جيداً لكاتب التحقيقات الطبيعي الذي كنت أرغب في أن أكونه. أشقر وذو عظم قاس، وعينين زرقاوين زرقه خطرة. ولم يكن بالإمكان، فهم متى أمكن له الاطلاع لحظة بلحظة، على كل ما هو جدير بأن يُقرأ. لم يتوان لحظة واحدة عن هوسه المبكر في اكتشاف قيم أدبية خفية في أنحاء برويشيا القصة المنسية، ليعرضها أمام الملأ. ومن حسن الحظ، أنه لم يتعلم قيادة السيارات قط، في جمعية الساهين تلك، لأننا كنا نخشى ألا يتمكن من مقاومة إغراء القراءة، وهو يسوق.

أما ألفارو سيبدا ساموديو، بالمقابل، فكان سائقاً مهروماً قبل أي شيء آخر - سائق سيارات وأدب على السواء - فهو قصاص من

الجديدين، عندما كان يمتلك إرادة الجلوس لكتابة قصصه؛ وناقد سينمائي بارع، والأوسع ثقافة دون ريب، ومنشط المناظرات الجريئة. كان يبدو غجرياً من ثباته غراندي، ذا بشرة مدهوغة ورأس يذيع تغطيه خصلات شعر سوداء مشعثة؛ وله عينا مجنون لا تخفيان سهولة الوصول إلى قلبه. نعله المفضل كان صندلاً قماشياً من أرخص الأنواع. وبعض بأسنانه على سيجار ضخيم، ومظفاً في أغلب الأحيان، كتب حروفه الأولى، كصحفي، في جريدة "الناسيونال"، وفيها نشر قصصه الأولى. وفي تلك السنة، كان في نيويورك ينهي دورة متقدمة في الصحافة بجامعة كولومبيا.

عضو مراقب آخر في الجماعة، هو، مع دون رامون، الأكثر ثباتاً ومهارة، إنه خوسيه فيليكس قرينمايور، والد ألفونسو. صحفي تاريخي وقصاص من أكبر الكبار. نشر ديوان شعر بعنوان "ريات شعر المدار" سنة ١٩١٠، وروايتين: "كوسمي" سنة ١٩٢٧، و"مغامرة حزينة لأربعة عشر حكيماً"، في سنة ١٩٢٨. لم يحقق أي من كتبه نجاحاً في المكتبات. ولكن التقدير المتخصص اعتبر خوسيه فيليكس، على الدوام، أحد أفضل القصاصين، والمختلق بسرخس بروينثيا.

لم أكن قد سمعت به قط، عندما تعرفت عليه. ونحن تصادف وجودنا وحدنا في ظهيرة أحد الأيام، في مقهى جابي، بهرني على الفور بحكمته وبساطة محادثته. كان محارباً سابقاً وناجياً من سجن مشنوم في حرب الألف يوم. لم يكن يملك تكوين رامون فينييس. ولكنه كان أقرب إلى نفسي. لطريقته في الحياة، وثقافته الكاريبية. غير أن أكثر ما كان يعجبني فيه، هي فضيلته الغريبة في نقل حكمته، كما لو أنها

مسألة خياطة وغنا. كان محدثاً لا يُهزم، ومعلماً في الحياة. وطريقته في التفكير مختلفة عن كل من عرفتهم، حتى ذلك الحين. كنا أنا وألفارو سيبيدا نقضي ساعات، ونحن نستمع إليه. ولا سيما حول مبدئه الأساسي، بأن الفرق الرئيسي بين الحياة والأدب، هو مجرد خطأ بسيط في الشكل. فيما بعد، لست أدري أين، كتب ألفارو ومضة صائبة: "جميعنا خرجنا من خوسيه فيليكس".

تشكلت الجماعة بطريقة عفوية، بقوة الجاذبية تقريباً، وبمقتضى تألف واسع، إنما يصعب فهمه للوهلة الأولى. لقد سئلنا مرات كثيرة، كيف بقينا متوافقين على الدوام، رغم الاختلاف الكبير فيما بيننا. وكان علينا أن نرتجل أية إجابة، لكي لا نقول الحقيقة: فتحن لم نكن متوافقين دوماً، ولكننا كنا نعرف الأسباب. كنا واعين أنه، خارج إطارنا، تسود عنا صورة المقتدرين، النرجسين، الموضوعيين. ولا سيما بسبب اختلافاتنا السياسية. فكان يُنظر إلى الفونسو على أنه ليبرالي متعصب، وإلى خيرمان على أنه مفكر حر بالإكراه، وإلى ألفارو كفوضوي متعسف، وأنا على أنني شيوعي غير مؤمن وانتحاري كامن. ومع ذلك، فإنني أعتقد دون أدنى تردد، بأن حسن حفظنا الأكبر هو أنه كان يمكن لنا، في أشد المآزق حرجاً، أن نفقد صبرنا. ولكن دون أن نفقد مطلقاً حسن السخريّة.

خلافاتنا القليلة الجدية، كنا تناقشها فيما بيننا. وقد تصل أحياناً إلى درجات حرارة خطيرة ولكنها تُنسى مع ذلك فور نهوضنا عن المائدة، أو إذا ما حضر صديق من خارج الجماعة، الدرس الأقل عرضة للنسيان، تعلمته إلى الأبد، في بار "لوس ألبندروس"، في ليلة قريبة العهد

بجيشي إلى المدينة، دخلت فيها أنا وألفارو في جدال عنيف حول فوكتر. وكان الشاهدان الوحيدان على المنضدة هما خيرمان وألفونسو. وقد بنى على الهامش، صامتين صمت الرخام الذي بلغ حدوداً لا تطاق. لا أذكر في أي لحظة، وأنا متسرع بالغضب والخمر الرخيص، تحدثت ألفارو لحل النقاش باللكمات. بدأنا كلانا بالتهوض عن المائدة للخروج إلى الشارع، عندما أوقفنا فجأة، صرت خيرمان بازغاس الهادئ يدرس سببى إلى الأبد:

- من ينهض أولاً هو الخاسر.

لم يكن أي منا قد بلغ آنذاك الثلاثين من العمر. أنا كنت قد أكملت الثالثة والعشرين. وكنت أصغر الجماعة سناً. وقد تبينوني منذ صبحني إلى المدينة لأبقى فيها، في شهر كانون الأول السابق. ولكننا عندما نكون على طاولة دون وأمون فينيس، نتصرف نحن الأربعة كدعاة الإيمان وطالبيه، معاً على الدوام، متبادلين الحديث في الموضوع نفسه، وسآخرين من كل شيء، ومتفقين تماماً على المعارضة، حتى صار يُنظر إلينا في النهاية، كما لو أننا شخص واحد.

المرأة الوحيدة التي كنا نعتبرها جزءاً من الجماعة، هي ماريا ديلمار. وكانت قد بدأت اندفاعها الشعري، ولكننا لم تكن نتحدث معها إلا في المناسبات القليلة التي نخرج فيها من مدار عاداتنا السيئة. لقد كانت جلسات السر في بيتها، مع الكتاب والفتاتين المشهورين الذين يروون بالمدينة، تاريخية، صديقة أخرى لوقت أقصر وتواتر أقل، هي الرسامة سيسليا هوراس التي كانت تأتي من كارتاخينا، بين حين وآخر، وترافقنا في جولاتنا الليلية، ولم تكن تهتمها

في شيء. نظرة عدم الاحترام التي يُنظر بها إلى النساء، في مقاهي الكاري وبيوت الضياع.

كنا نحن، أفراد الجماعة، نلتقي مرتين في اليوم، في مكتبة موندو، التي تحولت في النهاية إلى مركز اجتماعات أدبية. لقد كانت ملاذ سلام وسط ضجيج شارع سان بلاس، الشريان التجاري المصاحب والمتهب الذي يُفرغ من خلاله مركز المدينة، في الساعة السادسة مساءً. كنا أنا وألفونسو نكتب حتى بداية الليل، في مكتبتنا الملاصق لقاعة التحرير، في جريدة الهيرالدو، مثل تلميذين مجتهدين. هو يكتب افتتاحياته العقلانية الرصينة، وأنا ملاحظاتي الصحفية المشعنة. وكثيراً ما كنا نبادل أفكاراً من آلة كاتبة إلى أخرى، ونقترض نعتاً، ونستفسر عن معلومات غريبة ورائحة، إلى حد لا تعود نعرف معه، في بعض الحالات، لمن منا هي إحدى الفقرات.

كانت حياتنا اليومية دوماً معروفة المسار مسبقاً. اللهم إلا في ليالي الجمعة التي نكون فيها تحت رحمة الإلهام، ونواصلها أحياناً حتى تطور يوم الاثنين. وإذا ما أطبق علينا الاهتمام، نبدأ نحن الأربعة، حجاً أدبياً دون كايح أو مفاص. يبدأ في حانة "الرجل الثالث" مع حرفيي الحمي وميكانيكي ورشة سيارات، إضافة إلى موظفين عموميين ضالين، وآخرين مثلهم، ولكن بدرجة أقل. وكان أقل أولئك الزبائن غريبة، هو لص بيتوت يأتي قبل منتصف الليل بقليل بزي العمل: بنطال راقص باليه، حذاء تنس، قبعة لاقط كرات، وحقيبة أدوات وعدة خفيفة. لقد فاجأه أحدهم، وهو يسرق في بيته، وتمكن من تصويره ونشر الصورة في الصحافة، لعل أحداً يتمكن من التعرف عليه. والشيء الوحيد الذي تم

التوصل إليه هو عدة رسائل من قراء ساخطين، يستذكرون مثل هذه الألعاب القلوة، مع لصوص البيوت اليانسين.

كان اللص صاحب ميول أدبية مسزولة، لا يضع كلمة من المحادثات التي تدور حول الفن والأدب، وكنا نعرف أنه المؤلف الخجول لقصائد حب يلقيها على الزبائن، عندما تكون غير موجودين. وكان ينصرف بعد منتصف الليل، للسطر على بيوت المنطقة الغنية، كما لو أنه ذاهب إلى وظيفة. وبعد ثلاث أو أربع ساعات، يأتينا بهدية ضئيلة القيمة، يخرجها من الغنيمة الكبرى قائلاً: "هذا للأطفال"، دون أن يسأل عما إذا كان لدينا أطفال، وعندما يجذب كتاب اهتمامه يهديه إلينا، فإذا كان الكتاب جديراً بالافتناء، نثيره به إلى مكتبة الحي العامة التي تديرها ميريا ديلاور.

تلك الجامعات الشوارعية، أشاعت عنا سمعة عكرة، بين النساء الثائرات اللواتي تلتقي بهن لدى خروجهن من قدام الساعة الخامسة فجراً، فينتقلن إلى الرصيف الآخر، كيلا يصطدمن بمخمورين طلع عليهم الفجر، ولكن لم يكن هناك في الحقيقة، عريضة أكثر نزاهة وخصباً من عريدتنا، وإذا كان هناك من أدرك ذلك فوراً فهو أنا، الذي كنت أرافقهم في صراخهم، في المواخير حول أعمال جون دوش بانسوس أو حول الأهداف التي بددها فريق جونيور الرياضي، حتى إن إحدى المرمسات في ماخور "القط الأسود"، ضجرت من ليلة كاملة من نقاشاتنا الصاخبة المجانية، فصرخت بنا لدى مرورنا:

- لو أنكم تضاجعون مثلما تصرخون، لكنا نستحم في الذهب!

في أحيان كثيرة كنا نذهب لرؤية شروق شمس اليوم الجديد، في

ماخور بلا اسم، في الحي الصيني، حيث عاش أورلاندو ريفيرا، الملقب "فيفوريتا"، طوال سنوات، بينما هو يرسم جدارية كانت رمزاً لمرحلة. لا أتذكر أحداً خارجاً عن المؤلف أكثر منه، بنظرته الغربية، ولحيته التي كلحية المعزى، وطينة قلب البيتيم التي يتشبع بها. هذا كان في المدرسة الابتدائية لسعه هوى أن يكون كويبا. وانتهى به الأمر لأن يكون كويبا أكثر وأفضل مما لو كانه فعلاً، كان يتكلم، ويأكل، ويرسم، ويلبس، ويحب، ويرقص، ويعيش حياته ككوي، ومات كويباً دون أن يعرف كويبا.

لم يكن ينام، وعندما كنا نزره في الفجر، ينزل قافزاً عن السقالات، وهو أكثر تلميحاً بالألوان من الجدارية التي يرسمها، ويجدف ويشتم بلغة المامبيسين^(١) بتأثير ما تعاطاه من الماريجوانا. كنا أنا والفونسو نأخذ إليه مقالات وقصصاً لكي يرسم لها رسوماً توضيحية، فننظر إلى أن نحكيها له بصوت عال، لأنه لا يطيق صبراً على فهمها مقروعة. وكان ينجز الرسوم المطلوبة في هتية بتقنيات الكاريكاتير، وهي التقنيات الوحيدة التي يؤمن بها. وتأتي رسومه جيدة على الدوام تقريباً، مع أن خيرمان بارغاس كان يقول، دون خبث، إنها تكون أفضل بكثير، عندما تخرج منه سيئة.

هكذا كانت بارانكييا، مدينة لا تشبه سواها، وبخاصة منذ كانتون الأول حتى آذار، عندما تعوض رياح الصايبات الشمالية عن الأيام الجهنمية، ببيات ليلية نزوية في أفناء البيوت، وتحمل الدجاجات في الجور. فلا يبقى حياً سوى ننادق العابرين، وحانات صلاحية السفن

(١) المامبيسون mambises: رجال الجيش الثوري الذي أسسه بطل تحرير كوبا، خوسيه مارتى، خوفاً من الحرب التحرر من النير الإسباني. وكانوا في الغالب من الفلاحين والعبيد.

البخارية، حول المرفأ. بعض العصفورات الليلية ينتظرون، ليأتي بطولها، زبائن غير مؤكدين، يأتون في السفن النهرية، فرقة موسيقى نحاسية تعزف لمن فالس خامد في طريق أشجار المحور، ولكن لا أحد يستمع إليها، بسبب صراخ السائقين الذين يتجادلون حول كرة القدم بين سيارات التاكسي المترقة عند رصيف جادة بوليفار. المكان المحتمل الوحيد هو مقهى روما. وهو مطعم شعبي يؤمه لاجئون إسبان ولا يغلق أبداً لسبب بسيط، هو عدم وجود أبواب له. كما أنه بلا سقف، في مدينة يهطل فيها دابل من الأمطار الطقوسية، ولكن لم يُسمع قط أن هناك من توقف عن تناول عجة بطاطا، أو تخلّى عن عقد صفقة بسبب المطر. لقد كان المقهى مكاناً راكداً في العراء العاصف، فيه موائد مستديرة مطلية بالأبيض، وكراسي حديدية تحت أشجار أكاسيا وارفة ومزهرة. في الساعة الحادية عشرة، عندما تغلق الصحف الصباحية - الهيرالدو ولايرنسا - أبوابها، يجتمع المحررون الليليون لتناول الطعام. ويكون اللاجئون الإسبان موجودين منذ الساعة السابعة، بعد سماعهم في البيت، نشرة الأخبار المحكية من البروفيسور خوان خوسيه بيرث دومينيش الذي ما زال يقدم أخباراً عن الحرب الأهلية الإسبانية بعد اثنتي عشرة سنة من خسارته لها.

في ليلة حظ طيب حظ هناك الكاتب إدواردو ثالاميا وهو في طريق عودته من غواخيرا، وأطلق رصاصة مسدس على صدره، دون أن تؤدي إلى نتائج خطيرة. بقيت المنطدة ككتيبة أثرية تاريخية يعرضها التمدل على السائحين، دون السماح لهم بالجلوس إليها. بعد سنوات من ذلك، نشر ثالاميا شهادة عن مغامرته في "أربع سنوات على متن نفسي"، الرواية التي فتحت أفقاً لا ريب فيها أمام جيلنا.

كنت أنا الأكثر عزواً بين أفراد الرابطة، وكنت ألبأ في أحيان كثيرة إلى مقهى روما، لكي أكتب حتى الفجر في ركن منعزل. ذلك أنه كانت لوظيفتي كليهما مزية التناقض بين كونهما مهمتين وسيئتي الأجر. وهناك كان يفاجتني الفجر، وأنا أقرأ دون رحمة، فإذا ما اشتد عليّ الجوع، أتناول فتجاناً من الشوكولاته الكثيفة مع سندوتش جامبون إسباني جيد، وأقش مع أول أنوار الفجر، تحت الأشجار المزهرة في جادة بوليفار. في الأسابيع الأولى كنت أكتب حتى ساعة متأخرة في قاعة تحرير الجريدة، وأنام بضع ساعات في صالة التحرير المقفرة، أو فوق لقائف ورق المطبوعة. ولكنني وجدت نفسي مضطراً، مع مرور الوقت، إلى البحث عن مكان أقل أصالة.

وكان من قدم لي الحل، كما في مرات تالية كثيرة أخرى، هم سائقو سيارات التاكسي المرحون في جادة بوليفار، إذ اقترحوا عليّ فندق عابرين على بعد كوادرا واحدة عن الكاتدرائية، حيث يمكنني النوم وحيداً، أو مع رفيقة، مقابل بيزو ونصف البيزو. كان البناء قديماً جداً ولكن مُحْتَفَظ به في حالة جيدة، على نفقة العاهرات المدمات اللواتي يتجولن في جادة بوليفار، منذ السادسة مساءً، مترصדות غراميات ضالة. كان البواب يدعى لوثيديس، له عين زجاجية زائفة المحور، ويتلعثم حياءً. وما زلت أتذكره بامتنان كبير. منذ الليلة الأولى التي ذهبت فيها إلى هناك، ألقى البيزو وخمسين سنتافو في درج منطدة الكونتوار، المستلة بالأوراق النقدية المبعثرة والمجعدة، لليلة الأولى. وقدم لي مفتاح الغرفة رقم ستة.

لم أعش أبداً في مكان أكثر هدوءاً. إذ لم يكن يُسمع أكثر من وقع خطوات خامدة، أو دمدمة غير مفهومة. وبين حين وآخر، صرير نوابض

سرير صدئة. ولكن دون سماع همسة أو تنهيدة واحدة؛ لا شيء. الأمر الشاق الوحيد هو حر الفرن السائد بسبب التوافد المسرة بصلب خشبي. ومع ذلك، فقد قرأت منذ الليلة الأولى ويليام إيريش، على خير ما يرام، حتى الفجر تقريباً.

كان الينا، منزلاً لملكي متفنن، فيه أعمدة ملبسة بالمرمر وأفاريز من النحاس اللامع، تحيط بفتا، داخل مسقوف بزجاج ملون يُشع بهريق دقيقة زراعية. في الطابق السفلي، كانت مكاتب توثيق العقود في المدينة. وفي كل واحد من طوابق البيت الأصلي الثلاثة، ست حجرات كبيرة من المرمر، حُوت بالورق المقوى إلى حجرات صغيرة - مثل حجرتي - تجمع فيها فتيات الليل السريات محصورهن. وكان محل دق الأعناق السعيد ذاك، قد حمل ذات يوم اسم فندق نيويورك، وقد أطلق عليه ألفونسو فورسماير، فيما بعد، تسمية ناطحة السحاب، تكريماً للمنتحرين الذين كانوا يلغون بأنفسهم، في تلك السترات، من الإمباير ستيت بيلدنج.

ولكن محور حياتنا على كل حال، كان يتركز في مكتبة "موتدو"، حيث كنا نذهب في الساعة الثانية عشرة نهاراً، ثم في السادسة مساءً. وكان موقع المكتبة في أكثر قطاعات شارع سان بلاس ارتياداً. وقد كان خيرمان بارغاس، الصديق المحميم لصاحب المحل دون خورخي روندون، هو من أقنعه بإنشاء تلك المكتبة التي تحولت، بعد وقت قصير، إلى مركز اجتماع الصحفيين والكتاب والسياسيين الشباب. لم تكن لدى روندون، خبرة في هذا النوع من التجارة، ولكنه تعلم بسرعة، وبحماس وأريحية حوله، إلى نصير للأدب والعلوم لا يُنسى. لقد كان خيرمان

وآلفارو وألفونسو، هم مستشاروه في طليبات الكتب، ولا سيما الإصدارات الجديدة من بونيس آيرس التي بدأ الناشرون فيها، بعد الحرب العالمية الثانية، بترجمة الجديد في الأدب، من كل أنحاء العالم، وطباعته وتوزيعه بالجملة. وفضلهم صار بإمكاننا أن نقرأ في حينه، الكتب التي ما كان يمكن لها أن تصل إلى المدينة بطريقة أخرى. وكانوا هم أنفسهم يشجعون الزبائن، واستطاعوا أن يعيدوا تحويل بارانكيا إلى مركز القراءة الذي انحدر في سنوات سابقة، عندما اختفت من الوجود، مكتبة دون رامون التاريخية.

لم يكن قد انقضى وقت طويل على مجيئي إلى المدينة، عندما انضمت إلى تلك الجماعة الأخيرة التي تنتظر بانغي كتب دور النشر الأرجنتينية الجوالين، كميروثين من السماء، وصرنا بفضلهم، من المعجبين المبكرين بخورخي لويس بورخيس، وخوليو كورتازار، وفيلسبيرتو خيرنانديث، والروائيين الإنكليز والأمريكيين، في ترجمات جيدة تنجزها عصابة فيكتوريا أوكامبو. وكانت "قوله ثائر" لأرتورو بارنا، هي أول رسالة تحمل الأمل من إسبانيا الثانية ومغيبه الصوت، بعد حربين متتاليتين، أحد أولئك الباعة الجوالين، وهو غيرمو دافالو، الدقيق في مواعده، كان يتميز بعاداته الحميدة في المشاركة في حفلاتنا الليلية، ويهدي إلينا نسخ النماذج من الكتب الجديدة بعد أن ينجز صفقاته في المدينة.

من كانوا يعيشون بعيداً عن مركز المدينة، لم يكونوا يذهبون ليلاً إلى مقهى روما، ما لم يكن هناك سبب محدد. أما أنا، فكان المقهى هو البيت الذي لا أملكه. كنتُ أعمل في الصباح في قنطرة تحرير "الهيرالدو" الهادئة، وأتغدى كيفما أستطيع، وعندما أستطيع، وأينما

أستطيع. ولكن، مدعواً على الدوام تقريباً من جماعة الأصدقاء، الطبيعيين والسياسيين ذوي المصالح. وفي المساء أكتب زاويتي الصحفية اليومية "الزرافة"، وأي نص عابر آخر. وفي الساعة الثانية عشرة ظهراً والسادسة مساءً، كنت الأكثر دقة وانتظاماً في الذهاب إلى مكتبة موندو، أما مقبيلات ما قبل الغداء التي ظلت الجماعة تتناولها طوال سنوات، في مقهى كولومبيا، فقد انتقلت فيما بعد، إلى "مقهى جاي"، على الرصيف المقابل، لأنه أكثر الأماكن المظلة على شارع سان بلاس، تهوية ومرحاً، وكنا نستقبل فيه الزيارات، ونستخدمه كمكتب، ومكان لعقد الصفقات، وإجراء المقابلات، ونقطة التقاء سهلة.

كان لمنظمة دون رامون، في مقهى جاي، قوانين فرضتها العادة ولا سبيل إلى خرقها. فهو أول من يصل، لأن دوام عمله كمعلم ينتهي في الرابعة مساءً. ولم تكن الطاولة تتسع لأكثر من ستة منا. وقد اخترنا أماكننا انطلاقاً من العلاقة بمكانه. وكانت إضافة كرسي جديد، لا متسع له، تعبير تصرفاً غير لائق. وبسبب قدم الصداقة ومستواها، جلس خيرمان إلى يمينه، منذ اليوم الأول، وكان المسؤول عن شؤونته المادية، فهو يحلها له حتى لو لم يطلب منه ذلك، لأنه لم يكن بمقدور العلامة، بميل طبيعي خلقي، التفاهم مع الحياة العملية. وقد كانت المسألة الأساسية في تلك الأيام، هي بيع كتبه إلى مكتبة المحي العامة، وتصفية أشياء أخرى قبل سفره إلى برشلونة. وكان خيرمان يبدو أشبه بباين بار أكثر منه سكرتيراً.

أما علاقة دون رامون بالفرنسوا، فكانت تتركز بالمقابل على مسائل أدبية وسياسية أكثر صعوبة. في حين كان ألفارو، يبدو لي دوماً معطل

الإرادة، عندما يجد نفسه وحيداً على الطاولة، مع دون رامون، ويحتاج إلى حضور آخرين لكي يبدأ الإبحار. الكائن البشري الوحيد الذي كان يتمتع بحرية اختيار المكان على المنظمة، هو خوسيه فيليكس. وفي الليل، لم يكن دون رامون يذهب إلى "جاي"، وإنما إلى مقهى روما مع أصدقاء منقاء الإسبان.

آخر من انضم إلى متضدته هو أنا. وهذا اليوم الأول جلست، دون أي حق، على كرسي ألفارو سيبيدا الذي كان في نيويورك. وقد استقبلني دون رامون كتلميذ آخر له، لأنه كان قد قرأ قصصتي القصيرة في جريدة الاسبكتادور. ولكنه لم يكن ليتصور قط، مع ذلك، أنني سأصل في الشقة معه إلى حد الطلب منه أن يقرضني النقود، من أجل رحلتي إلى أراكاتاكيا مع أمي. بعد وقت قصير من ذلك، وبصادفة لا يمكن تصورها، أجريت محادثة الأولى والوحيدة معه على الفراء، عندما ذهبت إلى "جاي" في وقت مبكر، قبل الآخرين، لأدفع له، دون شهود، البيزوات الستة التي أقرضني إياها.

- أهلاً بالعبقري - حيائي كالعادة. ولكن شيئاً في وجهي أثار قلقه، فأضاف: - هل أنت مريض؟

فقلت له باضطراب:

- لا أظن يا سيدي، لماذا؟

- أراك نحيلاً - قال هو، ثم أضاف: - ولكن لا تهتم بما أقوله،

فجميعنا في هذه الأيام نحضي ^(١) totuts del cul.

(١) بالكاتالانية في الأصل، وهي عبارة بذيئة تعني «صورة تقريبية» «جميعنا مشغولون في مزخراتنا».

خياً البيزوات الستة في محفظته بحركة متحفظة، كما لو أنها تقود كسبها بطريقة غير مشروعة، ثم أوضح لي وهو يهجر خجلاً:
- إنني أخذها كذكرى، من شاب فقير جداً، استطاع أن يرد ديناً، دون أن يطالب به.

لم أجد ما أقوله، وظللت غارقاً في صمت تحملته مثل بشر وصاحب، وسط لغط الصالة. لم أكن أحلم قط، بأن يحالفني الحظ بذلك اللقاء، وكان لدي إحساس بأن كل واحد منا، في أحاديث الجماعة، يساهم بحبة رمل في القوضى، وتختلط دعابات كل واحد وتغافاته، بدعابات وتغافات الآخرين. إنما لم يكن يخطر لي أبداً أنه سيكون بإمكانى التحدث عن الفنون والمجد، على انفراد، مع رجل يعيش منذ سنوات في موسوعة^(١). في فجر أيام كثيرة، بينما أنا أقرأ في وحدة حجرى، كنت أتخيل حوارات مشيرة، أقتنى تبادلها معه حول شكوكي الأدبية. ولكنها كانت تذوب دون أن تخلف أثراً مع أول أنوار الشمس. وكان خجلي يتضاعف، عندما يندفع ألفونسو براحدة من أفكاره العظيمة، أو يستنكر خيرمان رايأ متعجلاً يطرجه المعلم، أو يصيح ألفارو بمشروع يخرجنا عن طورنا.

لحسن الحظ، أن دون رامون هو من يادر، في ذلك اليوم، في مقهى جابى، إلى سؤالي عن حال قراءاتى، وكنت قد قرأت حتى ذلك الحين، كل ما انتظمت العشر عليه من أعمال جيل الضياع، بالإسبانية، مع اهتمام خاص بفوكتر الذي كنت أتبعه وأجركه بالحاج شفرة حلاقة

(١) المعنى هنا مجازي، وهو إشارة إلى أن اسم دون رامون فيليس، كما ذكر قبل صفحات قليلة، وارد في موسوعة إسبانيا إي كاليس الإسبانية الشهيرة منذ عام ١٩٦٩.

دموية، بسبب خوفى الغريب من ألا يكون، على المدى البعيد، أكثر من بلاغى مآكر. بعد أن قلت ذلك، هزني الحياء من أن أبدو استغزانياً. وحاولت أن أخف من وقع ما قلته، ولكن دون رامون لم ينح لي الوقت، وردة علي، يهدوء أعصاب:

- لا تقلق يا غابيتو؛ فلو كان فوكتر في بارانكييا، لوجدته على هذه الطاولة.

وقد لاحظت من جهة أخرى أنني أولى اهتماماً كبيراً لرامون غوميث دي لا سيرنا، وأستشهد به في "الزرافة" إلى جانب روائيين لا ينطق الشك إليهم. فأوضحت له بأننى لا أفعل ذلك، إعجاباً برواياته، لأنه، باستثناء "فيللا الورود" التي أعجبتني كثيراً، فإن ما يهمنى فيه، جرأة قريحته وموهبته الشفوية، ولكن كرياضة إيقاعية. من أجل تعلم الكتابة فقط. وفي هذا الاتجاه، لا أذكر جنساً أدبياً أشد ذكاءً من "غريغرياته"^(١) المشهورة، فقاطعتني دون رامون باهتمام لا ذعة:

- الخطر عليك هو في أن تعلم الكتابة بصورة سيئة، دون أن تلحظ ذلك.

ومع ذلك، فقد اعترف قبل إغلاق الموضوع بأن غوميث دي لا سيرنا، كان شاعراً جيداً، وسط فوضاء ذات الوميض الفستوري. هكذا كانت ردوده، مباشرة وحكيمة. وكنت أكاد لا أجد أعصاباً لتمثلها، وأنا مهتق بالخوف من أن يقطع علينا أحدهم تلك الفرصة الوحيدة. ولكنه كان يعرف كيف يتحكم بتلك الردود ويفسرها. أحضر له نادله المعهود

(١) غريغرييا gregeria: صورة تثرية تقدم رؤية شخصية لأحد مظاهر الواقع، وهي تسمية ابتدعها في إحدى نواته، الكاتب رامون غوميث دي لا سيرنا، وأطلقها على أحد مؤلفاته سنة ١٩١٢.

كوكا كولا الساعة الحادية عشرة والنصف، وبدأ هو كما لو أنه لم يتعب، ولكنه تناولها ورشف منها رشفة بمصاصة ورقية، دون أن يقطع شروحاته. كان معظم الزبائن يحيونه، بصوت عال من الباب: كيف حالك يا دون رامون؟ فيرد عليهم، دون النظر إليهم، بحركة من يده التي كيد فنان، وبينما دون رامون يتكلم، كان يوجه نظرات خفية إلى حافظة الأوراق الجلدية التي كنت أتمسك بها، بكلتا يدي، بينما أنا أستمع. وعندما انتهت من تناول الكوكا كولا الأولى، لوى المصاصة الورقية كلولب وطلب الثانية. فطلبت واحدة لي، وأنا أعرف جيداً أن كل شخص يدفع حسابه، على تلك المنضدة، وأخيراً سألتني عن حافظة الأوراق الغامضة التي أتمسك بها، مثلما يتشبث الغريق بخشبة.

أخبرته بالحقيقة: إنها مسودة الفصل الأول من الرواية التي بدأت بكتابتها، إثر العودة من كاتاكما مع أمي. وبجراحة لن أستطيع العودة إلى مثلها أبداً، في لحظات الحياة أو الموت، وضعت الحافظة، مفتوحة على المنضدة أمامه، كاستغزاز بري. صوب إليّ حديثه الصافيتين بزرقة خضرة، وسألني وهو مندهش قليلاً:

- هل تسمح لي؟

كانت المسودات مكتوبة على الآلة الكاتبة، مع ما لا حصر له من الشطب والتصحيح، على شرائط ورق مطبوعة مطوية مثل منفاخ أكوردبون، وضع، دون تسرع، نظارة القراءة، وفتح الشرائط الورقية ببراعة احترافية، وفردها على المنضدة، قرأ دون أن يأتي بأي حركة، ودون أي تلون في بشرته، ودون أي تبدل في أنفاسه، بينما خصلة شعر على رأسه، كأنها ناصية بغاء، تتحرك مع إيقاع أفكاره، حركة تكاد لا

تُلاحظ. وعندما أنهى قراءة شريطتين ورقيتين كاملتين، أعاد طيهما بصمت وبفن قروسطي، وأطبق الحافظة. ثم خبأ عندئذ نظارته في جرابها، ووضعها في الجيب، على صدره.

- يبدو واضحاً أنها لا تزال مادة خام، مثلما هو منطقي - قال لي ذلك ببساطة عظيمة، ثم أضاف: - ولكنها جيدة.

أبدى بعض التعليقات الهامشية، حول استخدام الزمن الذي كان مشكلة حياة أو موت بالنسبة لي، وهو الأسهل دون ريب، ثم أضاف:

- يجب أن تكون واعياً بأن الدراما قد حدثت، وأن الشخصيات ليست موجودة، إلا لاستذكارها، وهكذا عليك خوض الصراع مع زمين.

وبعد سلسلة من التفاصيل التقنية الدقيقة التي لم أستطع تقدير قيمتها، لضجالة تجرثي، نصحتني ألا يكون اسم مدينة الرواية بارانكيًا، مثلما هو مقرر لدي في المسودة، لأنه اسم معروف جداً في الواقع، مما لا يترك للقارئ سوى هامش ضيق للحلم. ثم انتهت إلى القول، بنبرته الساخرة:

- أو تصرف كفلاح، وانظر أن يسقط عليك الاسم من السماء.

أضف إلى ذلك أن أثينا سوفوكلس، لم تكن قط، في نهاية المطاف، هي نفسها أثينا أنتيغون.

ولكن ما التزمت به حرفياً إلى الأبد، هو الكلمات التي ودعني بها في ذلك المساء:

- أشكر احترامك لي، وسأكافئك عليه بتصنيعة: لا تعرض على أحد أبداً مسودة، ما زلت تكتبها.

كانت تلك هي محادثتي الوحيدة معه على انفراد، ولكنها تغني

عن كل المحادثات، لأنه سافر إلى برشلونة في الخامس عشر من نيسان سنة ١٩٥٠، مثلما كان مقرراً منذ أكثر من سنة. متضائلاً في بدلة الجوخ السوداء، وقبعة الموظفين. كان ذلك أشبه بتسفير تلميذ مدرسة. وكان بصحة جيدة وبكامل وضوحه الذهني، وهو في الثامنة والستين. ولكننا نحن الذين رافقناه إلى المطار، ودعناه كشخص عائد إلى مسقط رأسه، لنحضر جنازته بالذات.

في اليوم التالي فقط، عندما وصلنا إلى موانئنا في مقهى جاني، لاحظنا الفراغ الذي تبقى في كرسية. ولم يتجرأ أحد على شغل ذلك الكرسي، قبل أن نتوصل إلى الاتفاق بأن يكون خيرمان هو من يشغله. وقد احتجنا إلى بضعة أيام، لكي نعتاد على الإيقاع الجديد لأحاديثنا اليومية، حتى وصلت الرسالة الأولى من دون رايون، فبدت كما لو أنها مكتوبة بصوته الحي، وكانت بخطه الدقيق ذي الحبر البنفسجي. وهكذا بدأت مراسلاته معنا جميعاً من خلال خيرمان، مراسلات متواترة ووضحة، يروي فيها القليل عن حياته، والكثير عن إسبانيا التي كان يعتبرها أرضاً معادية مادام فرانكو حياً، وقيمت السيطرة الإسبانية على كاتالونيا.

كانت فكرة إصدار المجلة الأسبوعية من بنات أفكار ألفونسو فونسيمايور، وسابقة لتلك الأيام بوقت طويل. ولكنني أظن أن سفر العلامة الكتلائي سرع المشروع. ففي أثناء اجتماعنا في مقهى روما، بعد ثلاث ليال من سفره، أخبرنا ألفونسو بأن كل شيء صار جاهزاً لإصدار المجلة. ستكون أسبوعية متنوعة من عشرين صفحة، صحافية وأدبية، اسمها - كرونیکا - لن يعني الكثير لأحد. وقد بدا لنا من

قبيل الهذيان أننا لم نستطع الحصول على الموارد حيث يتوفر فائض منها، بينما تمكن ألفونسو فونسيمايور من الحصول عليها من الحرفيين، وميكانيكي السيارات، والموظفين المتقاعدين، وحتى من أصحاب المحانات المتواطين الذين وافقوا على أن يدفعوا مشروب روم القصب، مقابل الإعلانات، إنما كانت هناك أسباب للتفكير في أنها ستقابل بالترحيب، في مدينة تحافظ، وسط فوضائها الصناعية وكبرياتها المدني، على توقير عي الشعراء.

وسيكون المشاركون المنتظمون، فضلاً عنا، قليلين. المحترف الوحيد الذي لديه خبرة جيدة هو كارلوس أوسيس نوغيرا - الشاعر أوسيو -، وكان شاعراً وصحفيّاً يتمتع بخطة ظل خاصة جداً وجسد هائل. موظف حكومي ورفيق في جريدة الناسيونال، حيث عمل مع ألفارو سيبيدا وخيرمان بارغاس. ومشارك آخر هو زوييرتو (بوب) بريتو، علامة من الوسط الاجتماعي الراقى، يمكنه أن يفكر بالإنكليزية أو الفرنسية على أحسن وجه، مثلما يفكر بالإسبانية، وأن يعزف على البيانو، من الذاكرة، أعمالاً عديدة لكبار الموسيقيين. أما من لم يكن مفهوماً تضمينه في القائمة التي خطرت لألفونسو فونسيمايور، فهو خوليو ماريّا سانترودمينغو. لقد فرضه دون تحفظ لنرايا، في أن يكون رجلاً مختلفاً، ولكن ما لم نفهمه هو إيراد اسمه في لائحة هيئة التحرير، في الوقت الذي كان واضحاً أنه مرصود ليكون روكفلر لاتيني، ذكي، مثقف، وودود، ولكن محكوم عليه دون خلاص بالعيش في ضيائ السلطة. وقلة هم الذين يعرفون، مثلما كنا نعرف، نحن الأربعة أصحاب فكرة المجلة، أن حلم سنوات عمره الخمس والعشرين النري، هو أن يصير كاتباً.

المدير، بالحق التلقائي، سيكون الفونسو. أما خيرمان بارغاس
فسيكون، قبل أي شيء، كاتب التحقيقات الرئيسي الذي أمل أن
أشاركه الحرفة، ليس عندما يتوفر لي الوقت - الذي لم يكن يتوفر لنا
مطلقاً - وإنما عندما يكتمل حلمي بتعلمها. وسيرتل إلينا ألفارو
سبيدا مساهماته التي ينجزها في ساعات فراغه بجامعة كولومبيا في
نيويورك. وفي نهاية القائمة، لم يكن هناك من هو أكثر مني حرية
ولهفة ليعين رئيس تحرير في أسبوعية مستقلة، وغير مؤكدة، وهكذا
كان.

كان لدى ألفونسو أرشيف احتياطي منذ سنوات، وأعمال كثيرة
أعدت مسبقاً، في الشهر الستة الأخيرة، مع زوايا وأي، ومواد أدبية،
وريبورتاجات مثقفة، ووعود بإعلانات تجارية من أصدقائه الأغنياء،
رئيس التحرير، غير المرتبط بساعات دوام محددة، والذي خصص له
راتب أعلى من راتب أي صحفي في مثل مستواي، غير أنه مشروط
بالأرباح المستقبلية، كان جاهزاً أيضاً لتخرج المجلة في حالة جيدة، وفي
موعددها. وأخيراً، في يوم السبت من الأسبوع التالي، عندما دخلت إلى
غرفتنا في جريدة الهيرالدو، في الساعة الخامسة، قال لي ألفونسو
فوشمايور، دون أن يرفع نظره عن إنها، مقالة الافتتاحية للجريدة:

- عجل بعملك يا معلم، "كرونيكا" ستصدر في الأسبوع القادم.

لم أرتعب، لأنني كنت قد سمعت الجملة نفسها، في مرتين
سابقتين. ومع ذلك، فقد كانت المرة الثالثة ثابتة. كان أعظم حدث
صحفي في ذلك الأسبوع - وبأسبقية مطلقة - هو مجي، لاعب كرة
القدم البرازيلي هيليتو دي فريثاس للانضمام إلى فريق جونيور

الرياضي. ولكننا لن نتناول الحدث في منافسة مع الصحافة الرياضية
المتخصصة، وإنما كخير ذي أهمية ثقافية واجتماعية كبيرة. لمجلة
كرونيكا لن تسمح لنفسها بالنقيد بهذا النوع من التمييز. وأقل من ذلك
إذا كان الحدث يتعلق بأمر واسع الشعبية، مثلما هي كرة القدم. وكان
القرار إجماعياً، والعمل فعلاً.

كما قد أعدنا مادة واسعة من الصحافة، والشيء الوحيد الذي
تبقي للحظة الأخيرة، هو الريبورتاج عن هيليتو. وقد كتبته خيرمان
بارغاس، المعلم في كتابة الريبورتاجات والكروي المتعصب. ظهر العدد
الأول في مواعده الدقيق، في أكشاك البيع، صباح يوم ٢٩ نيسان
١٩٥٠، يوم القديسة سانتا كاتالينا دي سيينا، كاتبة الرسائل الزرقاء،
في أجمل ساحة في العالم. وقد طبعت كرونيكا تحت شعار خطر لي في
اللحظة الأخيرة: "نهاية أسبوعك المفضلة". كنا نعرف أننا نتحدى اللغة
الاصطفائية عسيرة الهضم التي كانت تتأصل في الصحافة
الكولومبية، في تلك السنوات. ولكن ما كنا نريد قوله بذلك الشعار، لم
يكن له معادل بالثلون نفسه في اللغة الإسبانية. كان الغلاف رسماً
بالخبر للاعب الكرة هيليتو دي فريثاس، من رسم ألفونسو ميلو، رسام
الوجه الوحيد بين رساميننا الثلاثة.

نفدت الطبعة، رغم تعجل الساعة الأخيرة، وغياب الإعلان، قبل
وقت طويل من وصول هيئة التحرير، بكامل أعضائها، إلى استاد الملعب
البلدي في اليوم التالي - الأحد ٣٠ نيسان -، حيث ستجري مباراة
الدروة بين فريقَي جونيور الرياضي وسيورتينغ، وكلاهما من بارانكييا.
وكانت المجلة نفسها منقصة، لأن خيرمان وألفارو يشجعان سيورتينغ،

بينما أنا وألفونسو تؤيد جونيور. ومع ذلك، فإن مجرد ورود اسم هيلينو ورييورتاج خيرمان بارغاس الرائع، أكدا الخطأ بأن "كرونيكا" هي المجلة الرياضية الكبرى التي طالما انتظرناها كولومبيا.

كان الاستاد قد امتلأ حتى الرايات، وبعد ست دقائق من الشروط الأول، سجل هيلينو هدفه الأول في كولومبيا، بضربة من قدمه اليسرى، سددها من وسط الملعب، ومع أن فريق سيورتيغ هو الذي فاز في النهاية ٢/٣، إلا أن ذلك المساء كان مساء هيلينو أولاً، ومساءنا نحن تالياً، بسبب الاختيار الموفق للعلاقات. إنما لم تكن هناك سلطة بشرية، ولا إلهية، قادرة على إقناع أحد من الجمهور بأن كرونيكا ليست مجلة رياضية، بل أسبوعية ثقافية تكرم هيلينو دي فريetas، باعتباره مجتبه إلى كولومبيا. أحد أهم أخبار السنة.

لم تكن مجرد مصادفة موفقة لمستجدين. ذلك أن ثلاثة منا كانوا يتناولون موضوع كرة القدم في أعمدتهم ذات الاهتمام العام، بمن فيهم خيرمان بارغاس طبعاً. وكان ألفونسو فوينمايور متابعاً حريصاً لكرة القدم، بينما عمل ألفارو سيبيدا، طوال عدة سنوات، مراسلاً في كولومبيا للـ "سيورتيغ نيوز" التي تصدر في سانت لويز، ولاية ميسوري الأمريكية. ومع ذلك، فإن القراء الذين كنا نهدف إليهم، لم يستقبلوا بذراعين مفتوحتين أعدادنا التالية. وتخلّى عنا متعصبو الملاعب دون إحساس بالآلم.

وفي محاولة لترقيع ما تمزق، قررنا في هيئة التحرير، أن أتولى كتابة ريبورتاج رئيسي عن سياستيان بيراسكوتشيا، وهو نجم برازيلي آخر في فريق جونيور الرياضي، على أمل أن أتمكن من المصالحة بين كرة

القدم والأدب، مثلما حاولت، في مرات كثيرة، أن أفعل بعلوم أخرى خفية في عمودي اليومي. كانت حتى لعب الكرة التي نقل إليّ عداها لويس كارميلو كورتا في مرابع كانتاكا، قد انخفضت إلى درجة الصفر تقريباً. أضف إلى ذلك، أنني كنت من المتعصبين الميكرين للبيسبول الكاريبي - أو لعبة الطابة، كما يسمونها باللغة المحلية -، ومع ذلك، فقد أخذت الأمر على عاتقي.

كان غودجي الذي سأقتندي به، طبعاً، هو ريبورتاج خيرمان بارغاس، وعزّزت نفسي بريبورتاجات أخرى، وأحسست بالطمأنينة، بعد محادثة طويلة أجريتها مع بيراسكوتشيا. وهو رجل ذكي ولطيف، ولديه إدراك جيد للصورة التي يود أن يقدم بها نفسه لجمهوره. الشيء في الأمر هو أنني عرّفت به، ووصفته كيامسكي غودجي، بسبب كنيسته وحسب. دون أن يستوقفني تفصيل صغير يتصل في كونه زنجياً غامقاً من أفضل سلالة أفريقية، كانت تلك أكبر غلطة في حياتي، وفي أسوأ لحظة تمر فيها المجلة. وبلغ ذلك حداً وجدت فيه نفسي متطابقاً حتى الروح، مع رسالة قارئ اعتبرني صحفياً رياضياً عاجزاً عن التمييز بين كرة وترام. وحتى خيرمان بارغاس نفسه، شديد التدقيق في أحكامه، أكد في كتاب تذكاري أصدره بعد سنوات، بأن الريبورتاج حول بيراسكوتشيا هو أسوأ ما كتبته. أظن أنه يبالغ، ولكن ليس كثيراً، لأنه ليس هناك من يعرف الحرفة مثله، هو الذي كان يكتب التحقيقات والريبورتاجات، بشرة شديدة التدفق، تبدو كأنها قد أُمليت، بصوته على مُنْطَد الليتوثيب.

لم تتخلّ عن كرة القدم أو البيسبول، لأن اللعبتين كانتا واسعتي

الشعبية في ساحل الكاريبي. ولكننا ضاعفنا موضوعات الأوضاع الأدبية الراهنة والمستجدة. إلا أن ذلك كله لم يجد نفعاً؛ إذ لم تتمكن مطلقاً، من تجاوز الخطأ السائد بأن كرونيكا هي مجلة رياضية. ولكن متعصبي الملاعب بالمقابل، تجاوزوا خطأهم، وتخلوا عنا لمصيرنا. وهكذا واصلنا إصدارها، مثلما قررنا مسبقاً، مع أنها ظلت، منذ العدد الثالث، تنظر في ليمبوس غموضها.

لم تخز عزمي. فالرحلة إلى كاتاكما مع أمي، والمحادثة التاريخية مع دون رامون، وعلاقتي الحميمة بجماعة بارانكيّا، بثت في نفسي حبساً جديداً سوف يكفيني إلى الأبد، ومنذ ذلك الحين، لم أكسب شيئاً واحداً، إلا من الآلة الكاتبة. وهذا أمر يبدو لي أكثر جدارة مما يمكن أن يخطر على البال. ذلك أن أول حقوق مؤلف أناحت لي العيش من قصصي ورواياتي، دُفعت لي، وأنا في الأربعين وبضع سنوات، وبعد أن نشرت أربعة كتب بعوائد زهيدة. وإلى ما قبل ذلك، كانت حياتي مضطربة، على الدوام، بشبكة معقدة من المصايد والذرائع والأوهام، لكي أخلص من الأحلام الكثيرة التي سعت إلى تحويلي إلى أي شيء آخر، على ألا أكون كاتباً.

بعدوث كارثة أراكاتاكما، وصوت الجد، وتلاشي ما يمكن أن يكون قد تبقى من سلطاته الغائصة، وقعنا، نحن الذين كنا نعيش عليها، تحت رحمة الحنين. صار البيت بلا روح حينما لم يعد هناك من يعود في القطار. مينا وفرانثيسكا سيمودوسيا، بقيتا في كنف إلغيرا كارير التي تولت مسؤوليتهما بولاء جارية. وعندما فقدت الجدة بصرها وعقلها، أخذها أبوي معهما لكي تعيش حياة أفضل، وهي توت على الأقل. وظلت العمة فرانثيسكا، العذراء والشهيدة، هي نفسها صاحبة الكلام الغريب غير المألوف والأمثال الفظة. ورفضت تسليم مفاتيح المقبرة ومشغل خبز الفريان الذي يعدّ لتقديسه، متذرة بأن الرب كان يبدعها، لو كانت تلك هي مشيئته. وفي أحد الأيام، جلست عند باب حجرتها، ومعها بعض ملائحتها البيضاء الناصعة، لتخيط كفناً مفصلاً على مقاسها. وقد فعلت ذلك بتأن بالغ، جاعلة الموت ينتظر أكثر من أسبوعين إلى أن انتهت منه. واستلقت في تلك الليلة دون أن تودع أحداً، ودون أن تعاني من أي مرض أو ألم، متأهبة لأن تموت، وهي في أفضل حالاتها الصحية. ولم يتبهرأ إلا فيما بعد، إلى أنها كانت قد ملأت استمارات الوفاة وألحزت بنفسها إجراءات دفنها. بقيت إلغيرا

كارثو، التي لم تعرف رجلاً، بإرادتها أبطأ، وحيدة في عزلة البيت الفسيح. وكان يوقظها في منتصف الليل، رعب السعال الأبدى في حجرات النوم المجاورة، ولكنها لم تهتم بذلك قط، لأنها معتادة كذلك. على تقاسم هموم الحياة الحارقة للطبيعة.

وخلافاً لها، بقي أخوها التوم، إستيبان كارثو، صائلي الذهن ونشيطاً، حتى بلوغه شيخوخة متقدمة، وفي ذات مرة، بينما كنت أتناول الفطور معه، تذكرت كل التفاصيل البصرية، عندما حاول بعضهم الإلقاء بأبيه من المركب في بحيرة فيناغا، مرفوعاً على أكتاف الحشد، وملفوفاً بقطعة خيش، مثلما فعل البغالون بسانتشو بانثا. كان باهليلر قد مات في ذلك الحين، ورويت الذكرى للخال إستيبان، لأنها بدت لي مسلية. ولكنه نهض قافزاً، واستشاط غضباً، لأنني لم أخبر أحداً بذلك، فور حدوثه. وأبدى تلهفه لكي أتمكن من أن أحدد في الذاكرة، من هو الرجل الذي كان يتحدث إلى الجد في ذلك اليوم، لكي يخبره من هم الذين حاولوا إغراقه، ولم يستطع أن يفهم كذلك، كيف لم يدافع الجد عن نفسه، مع أنه رام ماهر، كان في خطوط النار، فترات طويلة، خلال حريقين أهليتين؛ وكان بنام والمسدس تحت وسادته. كما أنه قتل في أزمنة السلم، خصماً في مبارزة. وقال لي إستيبان إن الوقت، لم يفت، مع ذلك لكي يقوم هو واخوته بالشار للإهانة. إنه قانون غواخيرا؛ إهانة أحد أفراد الأسرة يدفع ثمنها كل ذكور أسرة المعتدي. وكان خالي إستيبان مصماً، حتى إنه أخرج المسدس من جزامه ووضعه على المائدة كيلا يضيع الوقت، بينما هو يستجوبني. منذ ذلك الحين، وفي كل مرة تلقني بها، في الجوالثا، تعاوده الأمل بأن أكون قد تذكرت. وفي إحدى

الليالي، جاء إلى حجرتي في الجريدة، في الفترة التي كنت أستقصي فيها عن ماضي الأسرة من أجل رواية أولى لم أنهيها، واقترح علي أن نقوم معاً بتجريات عن ذلك الاعتداء. لم يستسلم قط. وآخر مرة التقيت به في كارتاخينا دي إندياس، سافر وقلبه مشروخ، وقد ودعني بابتسامة حزينة:

- لا أدري كيف توصلت إلى أن تكون كاتباً، يمثل هذه الذاكرة السيئة.

عندما لم يعد هناك ما يمكن عمله في آراكاتاكا، أخذنا أبي مرة أخرى للعيش في بارانكيّا، ولكي يقيم هناك صيدلية أخرى، دون أن يكون معه ستافور واحد من رأس المال، ولكن بقروض ائتمان جيدة من تجار الجملة الذين كانوا شركاء له في صفقات سابقة، لم تكن تلك هي الصيدلية الخامسة، مثلما اعتدنا القول في الأسرة، وإنما الصيدلية الوحيدة التي كنا نحملها على الدوام من مدينة إلى أخرى، حسب استشارات أبي التجارية: مرتين في بارانكيّا، ومرتين في آراكاتاكا، ومرة في سينثي. وفي كل مرة، كانت هناك فواتر غير مؤكدة، وديون يمكن سددها، وتقلصت الأسرة التي صارت دون جدين ولا أعمام أو أخوال، ودون خدم، إلى الأبوين والأبناء. وكنا ستة أبناء آنذاك - ثلاثة ذكور وثلاث إناث - خلال تسع سنوات من الزواج.

انتابني قلق لهذا الجديد في حياتي، لقد جئت إلى بارانكيّا، عدة مرات من قبل، لزيارة أبوي، عندما كنت طفلاً، وبصورة عابرة على الدوام، وذكرياتي عن ذلك مفتحة جداً. الزيارة الأولى كانت وأنا في الثالثة من عمري، عندما أخذوني إلى هناك بمناسبة ولادة أخي

مارغوت. أتذكر رائحة الوحل الكريهة في المرفأ عند الفجر، وعربة الحصان التي يُعبد حوافها، بسوطه، اللصوص الذين يحاولون الصعود إلى مقعده في الشوارع الترابية المقفرة. أتذكر جدران دار التوليد، حيث ولدت الطفلة، بلونها الترابي الأمغر، وخشب أبوابها ونوافذها، وهواء الأدوية النفاذ الذي يعيق في الحجرة. كانت الوليدة في سرير حديدي بسيط جداً، في أقصى حجرة كنيية، مع امرأة هي أمي دون ربيب، غير أنني لا أتوصل إلى أن أتذكر منها سوى حضور، دون وجه، مد لي يداً نحيلة، وتنهد.

- أنت لم تعد تتذكرني.

لا شيء. سوى ذلك. فالصورة الأولى البيئة التي أحتفظ بها عنها، تعود إلى عدة سنوات تالية، وهي صورة واضحة ومؤكدة، ولكنني لا أفكر من تحديد زمنها. لا بد أنها من إحدى زياراتها إلى أراكاتا، بعد ولادة عايدا روسا، أختي الثانية. كنت يومذاك ألعب في الفناء، مع حمل حديث الولادة، أحضره لي سانتوس فيسبرو بين ذراعيه من فونسيكا، عندما جاءت العمه ماما، راكضة، ونبهتني بصوت بدا لي مرعباً.

- لقد جاءت أمك!

اقتادتني، بما يشبه الجرجرة إلى الصالة، حيث كانت كل نساء البيت، وبعض الجارات جالسات، كما في سهر على فييت، على كراسي مصفوفة بمحاذاة الجدران. انقطع الحديث لدى دخولي المفاجئ، وبقيت متحجراً عند الباب، دون أن أدري أياً منهن هي أمي، إلى أن فتحت لي ذراعيها وقالت، بأكثر الأصوات التي أتذكرها، خائفاً:

- ها قد صرت رجلاً!

كان لها أنف روماني جميل. وابتدت وجهها وشاحبة، وأكثر تميزاً من أي وقت آخر، بموجة تلك السنة: ثوب من الحرير بلون العاج، خصره عند الوركين؛ وعقد لؤلؤ من عدة لفات؛ وحذاء مفضض ذو رباط جلدي وكعب عال؛ وقبعة أنيقة من القش على شكل ناقوس، كما في أفلام السيما الصامتة. أحاطني غناقتها برائحة خاصة شمنتها فيها على الدوام، وهزنتي، جسداً وروحاً، هبة شعور بالذنب، لأن واجبي هو محبتها، غير أنني أحسست أن ذلك ليس صحيحاً.

أما أقدم ذكرى لدي عن أبي بالمقابل، فهي مؤكدة وواضحة، في الأول من شهر كانون الأول ١٩٣٤، اليوم الذي أكمل فيه الثالثة والثلاثين من عمره. رأيته يدخل سعيداً، وبخطوات سريعة، إلى بيت الجدين في كاتاكما، ببذلة كاملة من الكتان الأبيض، وقبعة قش ذات حافة ملساء، هناك أحدهم معانقاً، وسأله كم سنة أكمل. ولم أنس جوابه قط، لأنني لم أفهمه في حينه:

- سن المسيح نفسها.

لقد تساءلت على الدوام، لماذا تبدو لي تلك الذكرى قديمة جداً، مع أنني كنت قد التقيت بأبي دون ربيب، مرات كثيرة قبلها، لم أكن قد أقمت مع أبوي في البيت نفسه قط. ولكن بعد مولد مارغوت، تبني جدائي عادة أخذي إلى بارانكيما، بحيث لم أعد غريباً إلى ذلك الحد في بيت والدي، عندما ولدت عايدا روسا، أفطن أنه كان بيتاً سعيداً. وكانت لهم هناك ضيادية، ثم فتحوها فيما بعد واحدة أخرى في مركز المدينة التجاري. وعدنا للقاء الجدة أرخيميرا - ماما خيمي -

واثنين من أبنائها، خوليو وإينا. وكانت إينا جميلة جداً، ولكنها مشهورة في الأسرة، بسوء طالعها. ماتت في الخامسة والعشرين، دون أن يعرف أحد الداء. وما زال يقال حتى الآن إن السبب هو شؤم خطيب مرفوض. وكلما كنا نكبر أكثر، كانت ماما خيمي تبدو لي أكثر لطفاً وبذاءة لسان.

في تلك الفترة بالذات، سبب لي أبوي نكسة عاطفية خلقت في نفسي ندبة، من الصعب محوها. حدث ذلك في يوم عانت فيه أمي هبة حين، وجلست تداعب ملابس البياتو بلعن "عندما انتهى الرقص"، فالس غرامياتهما السرية التاريخي، وخطرت لأبي الشقاوة الرومانسية بنفض الغبار عن الكمان لمرافقتها، مع أن أحد أوتاره كان مقطوعاً. اندمجت هي بسهولة على طريقتها، كرومانسية مبكرة، وعزفت أفضل من أي وقت آخر، إلى أن نظرت إليه راضية من فوق كتفها، وانشبت إلى أن عينيه مخضلتان بالدموع. "من تتذكر الآن؟"، سأله أمي، ببراعة قاسية. فرد هو، مستلهماً لحن الفالس: "أتذكر المرة الأولى التي عزفناه فيها معاً". عندئذ وجهت أمي ضربة غضب، يكلنا قبضتها، إلى ملابس البياتو. وصرخت بأعلى صوتهما:

- لم تعرفه معي يا منافق! أنت تعرف جيداً من هي التي عزفتها معها، وأنت تبكي من أجلها.

لم تذكر الاسم، لا في ذلك اليوم، ولا في أي يوم آخر قط. ولكن الصرخة جمدتنا جميعاً من الرعب، في أماكن مختلفة من البيت. لويس إنريكي وأنا. وكانت لدينا على الدوام أسباب خفية للخوف. اختبأنا تحت الأسرة. وهرت عابداً إلى بيت الجيران، وأصبحت مارغوت يحمي

مفاجئة أبقستها تهذي طوال ثلاثة أيام. وحتى الأخوة الصغار كانوا معتادين على انفجارات غيرة أمي تلك. بعينها المتهبتين وأنفها الروماني المرفف، مثل سكين. كنا قد رأيناها تنتزع، يهدوء غريب، لوحات من الصالة وتحطمها واحدة بعد أخرى، على الأرض، في وابل برّد زجاجي صاخب. وفاجأتها، وهي تشم ملابس أبي قطعة قطعة، قبل أن تلقى بها إلى سلة الغسيل. لم يحدث أي شيء آخر بعد ذلك، في ليلة العزف الثنائي التراجيدية تلك. ولكن موزون البياتوهات الفلورنسي أخذ البياتو لبيعه. وانتهى الأمر بالكمان - مع المسدس - إلى التعفن في خزانة الملابس.

كانت بارانكيّا، آنذاك، حالة متقدمة في التقدم التمدني، والليبرالية الوادعة، والتعاضد السياسي. وهي عوامل حاسمة في نموها وازدهارها، بعد انقضاء أكثر من قرن من الحروب الأهلية التي عصفت بالبلاد منذ الاستقلال عن إسبانيا، ثم ما تلا ذلك من انهيار منطقة زراعة الموز، الجريحة جراحاً مشخنة من القمع الشرس الذي نكل بها، بعد الإضراب الكبير.

ومع ذلك، لم يكن هناك ما يقف في وجه روح أهلها الخلاقة، ففي عام ١٩١٩، كسب الصاعى الشاب ماريو سانتودومينغو - والد خوليو ماريو - أمجاد التمدن، باقتناحه البريد الجوي الوطني بسبع وخمسين رسالة في كيس من قماش الخيم ألقى به على شاطئ بويرتو كولومبيا، على بعد خمسة فراسخ من بارانكيّا، من طائرة يدائية يقودها الأمريكي الشمالي ويليم نوكنس مارتين. ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى، جاء فريق من الطيارين الألمان - بينهم هيلموت فون كروجن - ودشنوا

المخطوط الجوية بطائرات جنركز ف-١٣، وهي أول طائرات ذرعت نهر
مجدلينا، مثل جنادب لحركتها العناية الإلهية، حاملة ستة ركاب
جسورين وأكياس البريد. كان ذلك هو جنين الشركة الكولومبية الألمانية
للنقل الجوي - SCADTA، إحدى أقدم شركات النقل الجوي في العالم.
انتقلنا الأخير إلى بارانكيّا، لم يكن بالنسبة لي مجرد تغيير
مدينة وبيت، وإنما تغيير أب، وأنا في الحادية عشرة من عمري. الأب
الجديد كان رجلاً عظيماً، ولكنّ لديه إحساساً بالسلطة الأبوية، مختلفاً
تماماً عن ذلك الذي جعلنا، أنا ومرضيتا، سعيدين في بيت الجدين.
فبعد أن اعتدنا على أن نكون سيدي نفسيّنا، تكلفنا مشقة كبيرة في
التكيف مع نظام غريب عنا. كان أبي، في جانبهِ الأكثر مدعاة
للإعجاب والتأثير، متعلماً ذاتياً بالطلق، وأشد من عرفتي من القراء
نهماً. وإن يكن أقلهم منهجية. فمثلاً أن هجر مدرسة الطب، انكبّ وحيداً
على دراسة الطب الشجائسي، الذي لم يكن يتطلب في ذلك الحين
تكويناً أكاديمياً. وحصل على تصريح بمزاولة مع التكريم. ولكنه لم يكن
يتمتع بالمقابل، بصلابة أمي في تجاوز الأزمات. وقد أمضى أسوأها في
أرجوحة النوم في غرفته، وهو يقرأ كل ما يقع بين يديه من الورق
المطبوع، ويحل الكلمات المتقاطعة. غير أن مشكلته مع الواقع كانت
عصيّة على الحل. فقد كان ينظر إلى الأغنياء، بروع شبه أسطوري.
ولكن ليس الأغنياء الذين لا تفسير لغناهم. وإنما أولئك الذين شكلوا
ثرواتهم بقوة الموهبة وسعة الأفق. وكان يبقى مؤرقاً في أرجوحة نومه،
حتى في وضع النهار، يراكم ثروات هائلة في مخيلته، بمشاريع سهلة لا
يفهم كيف لم تخطر له من قبل. وكان يحب أن يستشهد ويضرب الأمثلة

بأسرع ثروة وجد عنها خيراً في صحيفة دياريو؛ مثلاً فرسخ من الجزيرات
الولود. ومع ذلك، فإن تلك الصفقات الكبرى الفريدة لم تكن تجري في
الأماكن التي نعيش فيها؛ وإنما في جنان منعزلة سمع عنها خلال تشرده،
كعامل تلغراف. عدم واقعيته المشؤوم أبقانا معلقين بين الخيبات والعودة
إلى البدء من البداية. ولكن مع وجود فترات طويلة كذلك، لم يسقط علينا
خلالها من السماء، حتى فتات خبزنا كفاف يومنا. وقد علمنا أبوانا، على
أي حال، سواء في السراء أو الضراء، أن نحتفي بالأولى ونتحمل الثانية
بإذعان ووقار كاثوليكي، على الطريقة القديمة.

التجربة الوحيدة التي كانت تنقضي هي السفر وحيداً مع أبي. وقد
حصلت عليها كاملة، عندما أخذني إلى بارانكيّا لأساعده في إقامة
الصيدلية، وفي الإعداد لمجيء بقية الأسرة. ما فاجأني أنه كان
يعاملني، ونحن وحدنا، كما لو أنني شخص راشد، بحجة واحترام. حتى
إنه كان يكلفني بمهمات لا تبدو سهلة على سنوات عمري، ولكنني
أنجزتها على خير ما يرام وبسعادة، مع أنه لم يكن راضياً على الدوام.
كان من عاداته أن يروي لنا قصصاً من طفولته في قرية مولده. ولكنه
يكورها ستة بعد أخرى للمولودين الجدد، بحيث راحت تفقد بهجتها في
نظر من يعرفونها. حتى إننا نحن الكبار، كنا ننهض حين يبدأ بروايتها
بعد تناول الطعام. وقد أغضبه لويس إنريكي، عندما قال، وهو ينسحب
في واحدة من نوبات صراجه:

- أخبروني، عندما يموت الجد مرة أخرى.

تلك الاندفاعات شديدة العفوية، كانت تشير غضب أبي، وتضاف
إلى الأسباب التي كانت تتراكم من أجل إرسال لويس إنريكي إلى

إصلاحية ميدلين. ولكنه تحول معي في بارانكيًا إلى شخص آخر. أرشفت قائمة النواذر الشعبية، وزاح يقص علي مقاطع مشوقة من حياته الشاقة مع أمه، ويخل أبيه الأسطوري، والمصاعب التي أعاقته دراسته. تلك الذكريات أتاحت لي تحملاً أفضل لبعض نزواته، وتفهم بعض عدم تفهمه لنا.

تحدثنا، في تلك الفترة، عن كتب قرأناها أو في سبيلنا إلى قراءتها، وجمعنا من المواقع المربوة في السوق العام، محصولاً وحرماً من قصص طرزان والتحريرين وحروب الفضاء. ولكنني كنت أيضاً على وشك أن أكون ضحية حسه العنفي، ولا سيما عندما قرر أنه علينا الاكتفاء بوجبة واحدة في اليوم. وجاءت الأزمة الأولى، حين فاجأني، وأنا أملاً بالمياه الغازية والخبز المحلى فجوات العشاء عند الغروب، بعد مرور سبع ساعات على تناول الغذاء. ولم أستطع أن أخبره من أين جئت بالنقود لشرائها. لم أجزؤ على الاعتراف له بأن أمي قد أعطيني، خفية، بعض البيزوات، محسباً من حمية الناسك الغذائية التي يفرضها في رحلاته، وقد استمر تواطؤ أمي ذلك، طالما هي تلك الوسائل. فحين صرت تلميذاً داخلية في المدرسة الثانوية، كانت تضع لي عشرة بيزوات في علبة صابون "ريوتير" وهي تأمل أن أعثر عليها في لحظة حرجة. وهكذا كان؛ فعندما كنا ندرس بعيداً عن البيت، كانت أي لحظة تعتبر مثالية، للعثور على عشرة بيزوات.

كان أبي يتدير الأمر لكي لا يتركني في الليل، في صيدلية بارانكيًا. ولكن حلولة لم تكن هي الأكثر إمتاعاً لسنوات عمري الاثنتي عشرة. فالزيارات الليلية لأسر الأصدقاء، كانت تنهكتني. لأن الأسر التي

لها أبناء في مثل سني، تجبرهم على النوم في الساعة الثامنة، ويتركونني معذباً بالضجر والتعاس، في قفر الثروات الاجتماعية القاحلة. ولا بد أنني غفوت في إحدى الليالي، ونحن في بيت طبيب صديق. ولم أدر كيف ولا في أي ساعة استيقظت سائراً في شارع لا أعرفه. لم تكن لدي أدنى فكرة عن المكان الذي أنا فيه، ولا كيف وصلت إلى هناك. ولم يكن بالإمكان فهم ذلك إلا على أنه حالة من المشي نائماً. ليس ثمة سوابق عائلية، ولم تتكرر كذلك حتى اليوم. ولكنه ما زال التفسير الوحيد الممكن. أول ما فاجأني، عندما استيقظت، هو واجهة صالون حلاقة ذات زجاج مشع، حيث كانوا يخدمون ثلاثة أو أربعة زبائن، تحت ساعة جدار تشير إلى الثامنة وعشر دقائق. وهو وقت لا يمكن فيه لطفل في مثل سني، أن يكون وحيداً في الشارع. ولا تباكي من الرعب، أخطأت في أسماء الأسرة التي كنا نزورها، وتذكرت بصورة غير واضحة، عنوان البيت. ولكن بعض العائرين تمكنوا من ربط بعض الخيوط، وأوصلوني إلى العنوان الصحيح. وجدت الجيران في حالة هلع، يطرحون كل أنواع التكهنات حول اختفائي، الشيء الوحيد الذي كانوا يعرفونه عني هو أنني نهضت عن الكرسي أثناء تبادلهم الحديث. وظنوا أنني ذهبت إلى الحمام. لم يقنع تفسير السرقة (السير نائماً) أحداً، وبخاصة أبي الذي فهم الأمر دون مزيد من اللف والدوران، على أنه شيطنة غير موفقة من جاني.

وقد استعدت اعتياري، لحسن الحظ، بعد بضعة أيام في بيت آخر، حيث تركني في إحدى الليالي بينما هو يحضر عشاء عمل. كانت الأسرة بكاملها، تتابع برنامج مسابقة أحاج شعبية في إذاعة أتلاتيكون.

وبدت الأحجية في تلك الليلة، غير قابلة للحل: "ما هو الحيوان الذي يتبدل اسمه عندما ينقلب؟". وبمعجزة غريبة، كنت قد قرأت الجواب في مساء ذلك اليوم بالذات، في الطبعة الأخيرة من تقويم بريستول، وبدا لي دعابة رديئة: الحيوان الوحيد الذي يتبدل اسمه هو الجمل (escarabajo) لأنه عندما ينقلب يصير جعلاً مقلوباً (escarabajo) (1). قلت ذلك سراً لإحدى طفلات البيت، فسارعت الكبرى إلى الهاتف وقدمت الجواب لإذاعة أتلانتيكو. وكسبت الجائزة الأولى التي تكفي لدفع إيجار البيت عن ثلاثة شهور؛ ستة ييزو. امتلأ الصالون بالجيران الصاخين الذين استمعوا إلى البرنامج وهرعوا لتهنئة الرابحين. ولكن ما كان بهم الأسرة، أكثر من المال، هو الفوز بعد ذاته في مسابقة إذاعة كانت عنوان مرحلة برمتها على ساحل الكاريبي. لم يتذكر أحد أنني موجود هناك. وعندما رجع أبي ليأخذني، انضم إلى البهجة الأسرية، وشرب نخب الفوز. ولكن أحداً لم يخبره من هو الرابع الحقيقي.

نتج آخر من فتوحات تلك الحقبة هو الإذن الذي منحني أبي إياه للذهاب وحيداً، إلى عرض يوم الأحد الصباحي في سينما مسرح كولومبيا. وكانوا يقدمون، لأول مرة، أفلاماً متسلسلة، حلقة منها كل يوم أحد، تسبب توتراً لا يتيح لي لحظة واحدة من الراحة خلال الأسبوع. كان فيلم "غزو مونغر" هو الملحمة الفضائية الأولى التي تدور بين الكواكب، ولم أستطع أن أحل محلها، إلا بعد سنوات طويلة، فيلم "أوديسة الفضاء". لستائلي كوبريك. ومع ذلك، فقد استطاعت السينما الأرجنتينية، بأفلام كارلوس غارديل وليبرتاد لماركي، هزيمة الجميع في نهاية المطاف.

(١) لعبة لفظة محض تعتمد على اللاحقة «bajo» (أسفل)، أولاً واللاحقة «arriba» (أعلى) في الكلمة التالية.

خلال أقل من شهرين، انتهينا من إقامة الصيدلية، وحصلنا على منزل للأسرة وأثناء: الصيدلية كانت في ركن يرتاده الناس بكثرة، في قلب المركز التجاري، وعلى بعد أربع كوادرات فقط عن جادة بوليفار. أما المنزل، بالمقابل، فكان في شارع هامشي من الحي السفلي الرضيع والمرح. ولكن قسيمة الإيجار لم تكن تتفق مع ما هو عليه؛ وإنما مع ما يدعيه: منزل من الطراز القوطي مطلي بدوائر صفراء وحمراء، وفيه برجان حربيان.

في اليوم نفسه سلموا إلينا فيه محل الصيدلية، علقنا أرجوحتي نومتا، بحلقات من الخيال، وإنما هناك على نار هادئة، وفي حياء من العرق. وعندما استلمنا المنزل اكتشفنا، أنه لا وجود فيه لحلقات من أجل تعليق أراجيح النوم. ولكننا قرشنا فرائباً على الأرض، وإنما على أحسن وجه ممكن. منذ أن حصلنا على قط مستعار لإخافة الفئران. وعندما حضرت أُمي مع بقية الفرقة، كان تجهيز المنزل لا يزال غير مكتمل. ولم تكن فيه بعد أدوات مطبخ ولا أشياء كثيرة أخرى من لوازم المعيشة.

كان البيت عادياً على الرغم من مزاعمه الفنية. ويكاد يكون غير كافٍ لنا؛ فهو مؤلف من صالة، وغرفة طعام، وحجرتي نوم، وقنا، صغير مبسط. وإذا ما دققنا في الأمر، فإنه لم يكن يستحق ثلث المبلغ الذي كنا ندفعه لاستجاره. ارتعبت أُمي عندما رأتها. ولكن زوجها طمأنها بالحلم بمستقبل مذهب. هكذا كانا على الدوام، كان من المستحيل تصور كائنين شديدي الاختلاف، يتفاهنان بثلث الصورة الجديدة، ويتحاجبان إلى ذلك الخد.

لقد أثر في مظهر أمي، كانت حيلى للمرة السابعة، وبدأ لي أن كاحليها وجفونها منتفخة مثل خصرها، كان عمرها آنذاك ثلاثاً وثلاثين سنة. وكان ذاك هو البيت الخامس الذي توثته. وقد أذهلني سوء حالتها المعنوية التي تفاقمت منذ الليلة الأولى: إذ كانت مرعوبة من فكرة اختراعها هي نفسها، دون أي أساس تستند إليه، بأن المرأة المجهولة قد عاشت هناك، قبل أن تقتل طعناً. كانت الجريمة قد اقترفت قبل سبع سنوات، خلال وجود أبي في المدينة، في المرة السابقة. وكانت الجريمة مروعة إلى حد أن أمي قررت عدم العودة للعيش في بارانكيّا، وربما كانت قد نسيت ذلك، عندما رجعت في تلك المرة. ولكن الرعب عاد إليها فجأة منذ الليلة الأولى في البيت المكفهر الذي لمست فيه على الفور، شيئاً من أجواء قلعة دراكولا.

كان الخبر الأول عن المرأة المجهولة، هو العثور على جسد عارٍ، يصعب التعرف عليه، بسبب حالة التفسخ التي صار إليها. وأمكن بصعوبة، تحديد أنها امرأة في الثلاثين، ذات شعر أسود وملامح جذابة، وساد الاعتقاد بأنها قد دُفنت حية لأن يدها اليسرى كانت فوق عينيها، في حركة رعب. والذراع اليمنى مرفوعة فوق الرأس. والإشارة الوحيدة إلى هويتها، هي شريطتان زرقاوان ومشط زينة صغير مذهب، وبين الفرضيات الكثيرة التي شاعت، بدت أكثرها احتمالاً، فرضية كونها راقصة فرنسية ذات حياة مرحة اختفت، منذ تاريخ الجريمة المحتمل.

كانت بارانكيّا تتمتع بالشهرة العادلة، بأنها أكثر مدن البلاد أمناً وأمن ضيافة، إنما مع تكة وقوع جريمة مروعة، في كل سنة، ومع ذلك، لم تكن هناك جريمة سابقة هزت الرأي العام إلى ذلك الحد، ولكل ذلك

الوقت، مثل جريمة المرأة المطعونة التي بلا اسم. كانت جريدة "لايرنسا"، إحدى أهم صحف البلاد في ذلك الحين، تعتبر الرائدة في نشر القصص المصورة أيام الأعياد - يوك روجرز، وطرزان ربيب القرد -، ولكنها فرضت نفسها، منذ سنواتها الأولى، كإحدى الصحف الرائدة الكبرى في التحقيقات الحصرية. وقد استبقت المدينة في حالة من الترقب القلق، طوال عدة شهور بعناوينها الكبيرة واكتشافاتها المفاجئة التي أشاعت، بحق أو دون وجه حق، شهرة كاتب تحقيقات منسي.

كانت السلطات تحاول قمع معلومات الجريدة، بذريعة أنها تبليط التحريات. ولكن الأمر انتهى بالقراء، إلى تصديق السلطات، أقل من تصديقهم اكتشافات لايرنسا. وقد أبقتهم المواجهة، وروحهم معلقة بخيط، طوال عدة أيام، وأجبرت الحقيقين في مناسبة واحدة على الأقل، على تفسير مسار التحقيق. كانت صورة المرأة المجهولة قد ترسخت آنذاك، في الخيلة الشعبية، حتى إنهم كانوا يحكمون إغلاق الأبواب بالسلام في معظم البيوت، ويحتفظون بحراسات ليلية خاصة، تحسباً من محاولة القاتل الطليق، مواصلة برنامج جرائمه المريعة، واتخذت تدابير منع الفتيات المراهقات من الخروج وحدهن، من بيوتهن، بعد الساعة السادسة مساءً.

ومع ذلك، فإن الحقيقة لم يكتشفها أحد، وإنما كشف عنها بعد بعض الوقت، مرتكب الجريمة نفسه، إفران دوتكان، الذي اعترف بأنه قتل زوجته، أنتخيلا هويو، في الوقت نفسه الذي قدره الطب الشرعي لوفاة المرأة المجهولة. وأنه دفنها في المكان الذي عُثر فيه على الجثة المطعونة. وتعرف الأقارب على الشريطتين الزرقاوين، وعلى مشط الزينة

الذي كانت تضعه أنخيلا، عندما خرجت من البيت مع زوجها، يوم الخامس من نيسان، في رحلة مزعومة إلى كالامار، وأغلقت القضية، دون مزيد من الشكوك بمصادفة أخيرة يصعب تصورها، وتبدو كما لو أنها أخرجت من كم مؤلف روايات خيالي: فقد كان لأنخيلا هوبر شقيقة توعم تشبهها تماماً، مما أتاح التعرف عليها دون أدنى شك.

انهارت أسطورة المرأة المجهولة بتحولها إلى جريمة عاطفية عادية، ولكن سرّ الشقيقة الشبيهة، ظل طافياً في البيوت، لأن التفكير بلغ حدّ اعتبارها المرأة المجهولة نفسها، معادة إلى الحياة، بفنون السحر. كانت الأبواب تغلق بزماليج ومستاريس من الأثاث، للحيلولة دون أن يدخل منها، ليلاً، القاتل الهارب من السجن بأساليب السحر، وانتشرت في بيوت الأغنياء، موضة اقتناء كلاب الصيد المدربة، ضد القتل القادرين على اختراق الجدران. والواقع أن أمي لم تستطع تجاوز الخوف، إلى أن أقنعها الجيران بأن بيتنا في الحي السفلي، لم يكن قد شيد في أزمنة المرأة المجهولة.

في العاشر من شهر تموز ١٩٣٩، أنجبت أمي طفلة لها بروجيل هندية جميل. وقد عمّدها باسم ريتا، بسبب الورع غير المحدود الذي يشعرون به في البيت، تجاه القديسة ريتا دي كاسيا. وهو ورع يستند، إضافة إلى أمور أخرى، إلى صبرها في تحمل سوء طبع زوجها المتهاك الضال. وكانت أمي تروي لنا أنه رجع في إحدى الليالي إلى بيته، وقد ذهبت الخمرة يعقله، بعد برهة من تبرز دجاجة على مائدة غرفة الطعام. وقد تمكنت الزوجة، حين لم تجد متسعاً من الوقت، لتنظيف الشرفف الملوث، من تغطيته بطبق كيلا يراه زوجها، وسارعت إلى إلهائه بالسؤال المعهود:

- ماذا تريد أن تأكل؟

فأطلق الرجل زمجرة:

- خرا،

فرفعت الزوجة، عندئذ، الطبق وقالت بعدويتها القدسية:

- ها هو ذا أمامك.

وتقول القصة إن الزوج افتتح عندئذ بقداسة زوجته، وتحول إلى

الإيمان يدين يسوع.

كانت صيدلية بارانكيّا الجديدة إخفاقاً مدوياً، خففت منه بعض الشيء، سرعة إدراك أبي لذلك، فبعد عدة شهور من تدبير الأمر ببيع عقاقير متفرقة، وفتح ثغرتين من أجل سدّ واحدة، انكشف أكثر تخطيطاً مما كان يبدو عليه، حتى ذلك الحين. وفي أحد الأيام، حزم أمتعته ومضى للبحث عن الثروات في قرى لا تخطر على البال، في وادي نهر مجدلبنا. وقيل أن يغادر، أخذني إلى شركائه وأصدقائه وأعلمهم بشي، من التفلخيم بأنني سأكون بديلاً منه في غيابه. لم أدر قط، إذا ما كان يقول ذلك هزلاً، مثلما كان يروقه أن يقوله حتى في أشد المناسبات حرجاً، أم أنه قاله، بجد مثلما كان يعتد أن يقوله في المناسبات المتذلة. وأعتقد أن كل واحد كان يفهمه على طريقته. ذلك أنني كنت، وأنا في الثانية عشرة، رخواً وشاحباً لا أكاد أنفع إلا قليلاً، في الرسم والغناء. وقد قالت المرأة التي نستدين منها الحليب لأمي، ذات مرة أمام الجميع، وأمامي أنا، دون أي ذرة من سوء النية:

- اعذرني لما أقوله يا سيدة، ولكنني أظن أن هذا الطفل لن يكبر.

الرعب الذي أحسست به جعلني أنتظر الموت المفاجئ، لوقت طويل.

وكثيراً ما كنت أحلم، وأنا أنظر إلى المرأة، بأنني لا أرى نفسي وإنما عجلاً وليداً. وقد شخص طبيب المدرسة إصابتي باليرقان، والتهاب اللوزتين واسوداد المرأة بسبب القراءات التحصيلية غير الموجهة. لم أشأ أن أخلف من دعر أحد. بل على العكس، كنت أبالغ في شرطي كمعوق لأتخلص من الراجيات. ومع ذلك، فقد قفز أبي عن العلم إلى الخيال، ونادى بي قبل أن يذهب، مسؤولاً عن البيت والأسرة، في أثناء غيابه:

- كما لو كنت أنا نفسي، موجوداً.

جمعنا يوم سقره في الصلاة، ووجه إلينا تعليمات وتوبيخات وقائية عما يمكن أن نسيء عمله في غيابه. ولكننا لم ندرك أنه إذا يتحایل، كيلا ييكي. وقدم لكل واحد منا، قطعة نقد من فئة الخمسة سناسو، وهي ثروة صغيرة بالنسبة لأي طفل آنذاك. ووعدنا بأن يستبدلها لنا يقطعتين مائتين. إذا ما حافظنا عليها سليمة حتى عودته. وأخيراً توجه إلي بصوت إيجلي:

- بين يديك أتركهم، وبين يديك سأجدهم.

مزقت قلبي رؤيته يخرج من البيت بظماق ركوب الخيل، وخُرج الأمتعة على كتفه. وكنت أول من استسلم للهكاء، عندما نظر إلينا آخر مرة، قبل أن يتعطف عند الناصية، ويودع ملوحاً بيده. وعندئذ فقط، أدركت، وإلى الأبد، كم أحيه.

لم يكن صعباً، تنفيذ توصياته. كانت أمي قد بدأت الاعتناء على تلك العزلات المفاجئة والغامضة، وتصريفها على مضض، ولكن بسهولة كبيرة. وقد فرحت أعمال المطبخ وترتيب البيت، حتى على أصغرنا، المساعدة في المهمات المنزلية، وفعل الجميع ذلك على أحسن وجه.

وراودني في تلك الفترة، أول إحساس بأنني راشد، عندما لاحظت أن أخوتي بدؤوا يعاملونني، كما لو كنتُ عمّاً لهم.

لم أستطع قط، التخلص من الخجل. فكلما اضطررت إلى أن أتصدى، بلحسي الحي، للهمة التي أوصاني بها أبي الهائم على وجهه، كنت أدرك أن الخجل هو شبح لا يمكن هزيمته. فني كل مرة أضطر فيها إلى طلب قرض، حتى من تلك المتفق عليها مسبقاً، في متاجر الأصدقاء، كنت أتاخر متجولاً لساعات حول البيت، كاهناً رغبتي في الهكاء، وتقلبات بطني، إلى أن أخرج أخيراً، وأنا أضغط فكي بقوة لا يخرج منها صوتي. ولم يخل الأمر من صاحب دكان دون قلب، ينتهي به الحال إلى إرباكي: "أيها الطفل الرعيد، لا يمكنك التكلم وفعلك مطبق". وأكثر من مرة، رجعت إلى البيت بيندين خاويتين، وباعتذار كنتُ اخترعه أنا نفسي. ولكنني لم أعرف تعاسة قط، أكبر من تلك التي أحسست بها، عندما أردتُ التكلم بالهاتف أول مرة، من الدكان الذي على الناصية. ساعدني صاحب الدكان في التعامل مع عاملة المقسم، إذ لم تكن قد وجدت الخدمة الآلية بعد. وأحسست بهبة أنفاس الموت، عندما قدم لي السماعة. كنت أنتظر سماع صوت خدوم، لكن ما سمعته هو نباح شخص يتكلم في العما، في الوقت نفسه الذي أتكلم فيه. فكرت في أن محدثي لا يفهمني كذلك، فرفعت صوتي إلى حيث أستطيع. وعندئذ رفع الآخر أيضاً صوته غاضباً:

- ومن أجل أي لعنة، تصرخ بي أنت!

أغلقت الهاتف مرعوباً، ولا بد لي من الاعتراف بأنه، على الرغم من حمى اتصالاتي، إلا أنني ما زلت أضطر إلى كبح خولي من الهاتف

والطائرة. ولست أدري إذا ما كان هذا الحرف يأتي من تلك الأيام. كيف يمكنني التوصل إلى عمل شي.؟ ولحسن الحظ، كثيراً ما كانت أمي تردد الجواب: "لا بد من المعاناة من أجل تقديم الخدمات".

أول خبر من أبي وصلنا بعد أسبوعين، في رسالة مكرسة لإلهانا أكثر منها لإخبارنا أي شي. هكذا فهِمَتُها أمي. وفي ذلك اليوم، غلبت الأطباق، وهي تغني لترفع من معنوياتنا. لقد كانت مختلفة في غياب أبي: كانت تتطابق مع بناتها، وكأنها أخت كبرى لهن. وتدمج معهن على أحسن حال، حتى تكون أفضلهن في الألعاب الطفولية، بما في ذلك اللعب بالدمى. ويصل بها الأمر إلى فقدان أعصابها والتشاجر معهن، وكأنها تذلل لهن، وبمثل مضمون الرسالة الأولى نفسه، وصلت رسالتان أخريان من أبي، تعرضان مشاريع وأعدة، أناحت لنا النوم بصورة أفضل.

كانت هناك مشكلة خطيرة تتمثل في السرعة التي تضيق بها ثيابنا علينا. لم يكن هناك من يرت ملابس لويس إنريكي، لأنه كان يرجع من الشارع متهاكاً، وثيابه ممزقة. ولم تفهم السبب قط. كانت أمي تقول إنه كمن يمشي بين أسلاك شائكة. أما الأخوات - وهن بين السادسة والتاسعة من أعمارهن - فكن يتدبرن أمر ملابس إحداهن بملابس أخرى، كيفما استطعن وبمعجزات البراعة. وقد اعتقدت على الدوام، بأن حاجات تلك الأيام الماسية، حركات واشادات، منذ وقت مبكر. كانت عابداً مديرة، وتجاوزت مارغوت قدراً كبيراً من حياتها، وبدت حانية وخدمية تجاه الوليدة الجديدة. وكنت أنا في وضع أصعب من الجميع، ليس لأنه علي القيام بمساع متميزة وحسب، وإنما لأن أمي،

محاطة بجماس الجميع، جازت في تقليص النفقات المنزلية، لتسجل في مدرسة كارتاخينا دي إنديانس، على بعد نحو عشر كوادرات، مشياً من بيتنا.

وبناء على الاستدعاء، توجهنا، نحن العشر من متقدماً، في الساعة الثامنة، من أجل مسابقة القبول. لم يكن فحصاً كتابياً لحسن الخط، وإنما كان هناك ثلاثة معلمين يستدعوننا، وفق تسلسل تسجيلنا في الأسبوع السابق، ويجرون لنا اختباراً موجزاً بالاستناد إلى وثائق دراسنا السابقة. وكنت الوحيد الذي لا يملك تلك الوثائق، لأن ضيق الوقت لم يُنحَ طلبها من مدرسة مونتسوري، ومن المدرسة الابتدائية في أراكاتاكا. وكانت أمي تفكر في أنني لن أقبل من دون الوثائق. ولكنني قررت التظاهر بالبلاهة. أخرجني أحد المعلمين من الصف، عندما اعترفت له بأنني لا أملك الوثائق. ولكن معلماً آخر تولى مسؤولية تقرير مصيري، وأخذني إلى مكتبه، ليجري لي الفحص، دون مطلب مسبق. سألتني ما هي كمية الغرويسا^(١)، وما هو عدد سنوات اللوسترو^(٢) والألفية. وطلب مني أن أذكر عواصم المحافظات الإدارية، وأنهار البلاد الرئيسية والبلدان التي تحدها. بدا لي كل ذلك روتينياً. إلى أن سألتني ما هي الكتب التي قرأتها. ولفت انتباهه أنني ذكرت كتباً كثيرة وشديدة التنوع بالنسبة لسني، وبأنني قرأت ألف ليلة وليلة، في طبعة للكبار لم تحذف منها بعض الفقرات المخرجة التي تستثير حفيظة الأب أنغاريستا. وقد فوجئت حين علمت أنه كتاب مهم، لأنني كنت أفكر على الدوام بأن

(١) الغرويسا - gruesa «ثياب خفيفة».

(٢) لوسترو - lustro «خمس سنوات».

الكبار الجديدين لا يمكنهم أن يصدقوا بأن هناك جنأ يخرجون من القوارير، أو أن الأبواب تُفتح بتعويدة من الكلمات. المتقدمون الذين سبقوني لم يتأخر كل واحد منهم أكثر من ربع ساعة. المقبولون منهم والمرفوضون على السواء، بينما بقيت أنا أكثر من نصف ساعة، أتحدث مع المعلم، حول كل أنواع الموضوعات. تفحصنا معاً خزانة كتب متراصة، وراء متضدة المكتب. وبينها كان يتميز، بعدد نسخه وألفه، كتابٌ كنز الشباب الذي كنتُ قد سمعت عنه. ولكن المعلم أقتعني بأن الكتاب الأكثر فائدة لسني هو "الكبخوتة"، لم يجده في المكتبة، ولكنه وعدني بأن يعبرني إياه فيما بعد. وبعد نصف ساعة من التعليقات السريعة، حول الاستبداد البحري أو دوينسون كروزو. رافقتني حتى المخرج، دون أن يقول لي إذا ما كنتُ قد قبلت. فكرتُ أن لا، طبعاً، ولكنه ودعني عند الشرفة بالشد على يدي والقول لي، إلى اللقاء في الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين، من أجل تسجيلي في الصف الأعلى من المدرسة الابتدائية: الصف الرابع.

لقد كان المدير العام، واسمه خزان فيتشورا كاسالينس، وأنا أتذكره كصديق طفولة، دون أي أثر من الصورة المرعبة التي كانت شائعة عن معلمي تلك الحقبة. فضيلته التي لا تنسى، كانت في معاملتنا جميعاً كراشدين متساوين، بالرغم من أنني ما زلت أشعر بأنه كان يوليني اهتماماً خاصاً. فقد اعتاد أن يوجه لي، خلال الدروس، أسئلة أكثر من الآخرين، ويساعدني لتكون إجاباتي صائبة وبسيطة، وكان يسمح لي بأخذ الكتب من المكتبة المدرسية، لأقرأها في البيت. وقد كان اثنان من تلك الكتب، "جزيرة الكنز" و"الكونت دي مونتكريستو"، هما المخدر

السعيد في سنوات الأعاجيب تلك. كنت ألتهمهما حرفاً حرفاً، متلهفاً لمعرفة ما الذي سيحدث في السطر التالي. ومتلهفاً في الوقت نفسه إلى عدم معرفة ذلك، حتى لا أكسر السحر. وقد تعلمت منهما، مثلما تعلمت من ألف ليلة وليلة، ما لن أنساه أبداً، بأنه يجب أن نقرأ فقط الكتب التي نجبرنا على أن نعيد قراءتها.

أما قراءتي لرواية "دون كيكخوته" بالمقابل، فكنيت أراها على الدوام جديرة بفصل منفرد، لأنها لم تسبب لي التأثير الذي توقعه المعلم كاسالينس. فقد كانت تُصجرني خطب الفارس الجوال المسهية. ولا أشعر بأي ظرافة في حسابات تابعه. حتى إنني صرت أفكر في أنه ليس الكتاب نفسه الذي يجري الحديث بكثرة عنه. ومع ذلك، فقد قلت لنفسني إن معلماً حكيماً مثل معلما، لا يمكنه أن يخطئ. وبذلت جهداً لا يتلاءم ملققة بعد أخرى، كما لو كان شرباً مسهلاً. ثم بذلت محاولات أخرى في المرحلة الثانوية، حين كان علي أن أدرسه كواجب إجباري، ومللته دون خلاص، إلى أن نصحتني صديق بأن أضعه على رف المرحاض، وأحاول قراءته بينما أنا ألحز وأجباتي الجسدية اليومية. وبهذه الطريقة فقط اكتشفت، كتفجر، واستمتعت به سويًا ومقلوباً، إلى أن صرت أردد من الذاكرة، مقاطع مطولة كاملة منه.

لقد خلقت لي تلك المدرسة التي قررها لي القدر، ذكريات تاريخية كذلك، عن مدينة وحقة لا سبيل إلى استعادة تهما. كانت المدرسة هي البناء الوحيد على قمة رابية خضراء، يظهر من شرفتها أقصى طرفي العالم. فإلى يسارها حي البرادو، الأكثر تميزاً وغلاء، والذي بدا، لي منذ الهولة الأولى، نسخة مطابقة لقن الدجاج ذي السور المكهرب الذي كان

يقطنه موظفو اليونتايد فروت كومياني، لم يكن ذلك مصادفة؛ فقد بنيت شركة مصممي مدن أمريكيين، وفق ذوقهم وأنظمتهم وأسعارهم المستوردة، وكان الحي نقطة جذب سياحي محسنة لبقية أرجاء البلاد. وهناك إلى يمينه بالمقابل، الضاحية المعفرة لحينا السفلي بشوارع الترابية المشهية، وييسوته التي من قصب وطين، وسقوف من سعف النخيل، تذكرنا طوال الوقت، أننا لسنا أكثر من بشر فانيين من لحم وعظم. ولحسن الحظ أنه كان يظهر لنا من شرفة المدرسة، مشهد بانورامي للمستقبل: دلتا نهر مجدلين التاريخي، وهي من أكبر دلتات العالم، والبحر الرمادي عند بوكاس دي ثينيثا.

في ٢٨ أيار ١٩٣٥ رأينا ناقلة النفط تاراليت، التي ترفع العلم الكندي، تدخل وهي تطلق جوار بهجة بين سدي الصخور، لترسو في مرفأ المدينة، وسط صخب الموسيقى والألعاب النارية، يقودها القبطان د.ف.ماكروالد. وهكذا تحققت مائة قذنية أعد لها خلال سنوات طويلة، لتحويل مدينة بارانكييا إلى الميناء البحري والنهري الوحيد في البلاد.

وبعد وقت قصير من ذلك، حرت طائرة يقودها النقيب نيكولاس ريبس مانوتاس، وهي تكاد تلامس أسطح البيوت، بحثاً عن أرض خلاء من أجل هبوط اضطراري، ليس لينجو بجده وحسب وإنما لينقذ كذلك، جلود المسيحيين الذين سيضطدم بهم في سقوفة. لقد كان أحد رواد الطيران الكولومبي، وقد أهديت إليه تلك الطائرة الهدائية في المكسيك، وقادها، وحيداً، من أحد طرفي أميركا الوسطى إلى طرفها الآخر، وكان قد أعد له حشد متجمع في مطار بارانكيياس، حفل ترحيب انتصاري، مع مناديل ورايات وفرقة موسيقية. ولكن ريبس مانوتاس أراد القيام

بجولتي بحية آخرين فوق المدينة، فأصيب محرك طائرته بعطل. وتمكن من السيطرة على الطائرة، بمهارة إعجازية، لكي يهبط على شرفة بناء في المركز التجاري. ولكن الطائرة تشابكت مع أسلاك الكهرباء، وبقيت معلقة بأحد الأعمدة. لحقنا بها أنا وأخي لويس إنريكي، بين الحشود الصاخبة، إلى حيث سمعت به أنفاسنا. ولكننا تمكنا من رؤية الطيار فقط، بعد أن أخرجوه بمشقة، إنما سليماً معافى، وهو يحيي الناس بحماس بطل.

وقد شهدت المدينة كذلك، أول مخططة بث إذاعية، وقناة مائية حديثة تحولت إلى مكان جذب سياحي وتربوي للتعريف بعملية تنقية المياه المستجدة، وفريق إطفاء كانت صفارته وأجراسه عيداً للصغار والكبار، مذ بُدئ بساعاتها. كما دخلت هناك أولى السيارات المكشوفة التي كانت تنطلق في الشوارع بسرعة جنونية، وتحول الطرق المرسوفة حديثاً، إلى عجة. وقد استلهمت وكالة "الإنصاف" لدفن الموتى، سخرية الموت، وعلقت إعلاناً هائلاً عند مخرج المدينة، تقول فيه: "لا تسرع، فنحن في انتظارك".

وفي الليل، عندما لا يعود هناك ملاذ سوى البيت، تجتمعنا أمي لتقرأ لنا رسائل الوالد. وكان معظمها أعمالاً بارعة في الإلهاء، والتخلص. ولكن إحداها بدت واضحة في حديثها عن الحماس الذي يوقظه الطب التجانسي بين كبار السن، في أسفل نهر مجدلين. إذ يقول أمي: "توجد هنا حالات تبدو إعجازية". لقد كان يركد أحياناً لدينا الانطباع بأنه سيكشف لنا عما قريب عن أمر عظيم. ولكن ما يتلو ذلك هو شهر آخر من الصمت. في أسبوع الآلام المقدس، عندما أصيب اثنان

من أخوتي الصغار بعدوى حصبة وبيلة، لم نجد طريقة للاتصال به لأن أمهر الأدلاء ما كانوا يعرفون شيئاً عن أثره.

في تلك الشهور، نهضت في الحياة الواقعية، معني واحدة من الكلمات التي كان يكثر جدائي من استخدامها: الفقر. لقد كنت أفسرها على أنها الوضع الذي كنا نعيشه في بيتنا، منذ أن بدأت شركة الموز بالتفكك. كانا يشكوران منه طوال الوقت، ولم تعد هناك وردستان أو ثلاث ورديات على المائدة، مثلما كانت الحال في السابق، وإنما وردية وحيدة، من أجل عدم التخلي عن طبق الغداء المقدس. وقد انتهى بهما الأمر، عندما لم تعد لديهما موارد للاتفاق عليهما، إلى شراء الطعام جاهزاً من مطاعم السوق، وكان جيداً وأرخص بكثير، مع المفاجأة بأننا نحن الأطفال، أحببناه أكثر. ولكن ذلك كله انتهى إلى الأبد، عندما علمت الجدة مينا بأن بعض المدعوين المشاييرين قرروا عدم المجيء إلى البيت، لأن الأكل لم يعد لائقاً، كما في السابق.

فقر والدي في بارانكيًا بالمقابل، كان منهكاً، لكنه أتاح لي لحسن الحظ، إقامة علاقة استثنائية مع أمي. كنت أشعر نحوها، إضافة إلى الحب البتوي المفهوم، بإعجاب مذهل بطبيعتها، كلبوة صامتة، وإنما ضاربة في مواجهة المصاعب. وعلاقتها بالرب، التي لا تشبه الخضوع وإنما العراك. وهما ميزتان رسختا لديها، في الحياة، ثقة بالنفس لم تخفها مطلقاً. ففي أسوأ اللحظات، كانت تضحك من أساليبها القدرية. كما في المرة التي اشترت فيها ركبة جاموس، وراحت تغليها يوماً بعد آخر، من أجل المرق اليومي الذي راح دسمه يتناقض يوماً بعد يوم، إلى أن تحول إلى مجرد ماء لا يمكنه أن يمنح المزيد. وفي ليلة عاصفة مرعبة،

أنفتحت كل شحم الخنزير المخصص للشهر، لتصنع منه سراجات قماشية، لأن الضوء انقطع حتى الصباح. وكانت هي نفسها، من أدخلت في صغارها الخوف من الظلام، كيلا يتحركوا من فراشهم.

كان أبوي يزوران، في أول الأمر، الأسر الصديقة التي هاجرت من أراكاتاكا، بعد أزمة الموز وتردي نظام الأمن العام. وكانت زيارات دوائر، يدورون فيها على الدوام، حول موضوعات التكية التي حلت بالقرية. ولكن عندما اشتد علينا الفقر في بارانكيًا، لم تعد نشكو في البيوت الغريبة. وأوجزت أمي تكتمها في جملة واحدة: الفقر يظهر في العيون.

حتى الخامسة من عمري، كان الموت يبدو لي نهاية طبيعية تحدث للآخرين. ولم أكن أرى في بهجة الفردوس السماوي وعذابات الجحيم، إلا مجرد دروس نحفظها عن ظهر قلب، من كتاب الأب آستيتي في الترسية الدينية. ولم تكن لي أي علاقة بها؛ إلى أن لاحظت بطرف عيني، في أثناء السهر على ميت، أن القمل كان يهرب من شعر الجثة، ويمشي دون وجهة محددة، على الوسائد. وما أفلقني منذ ذلك الحين، ليس الخوف من الموت، وإنما الخجل من أن يهرب مني القمل أيضاً، على مرأى من الأقارب الذين سيسهرون على جثتي. ومع ذلك، لم أنتبه، وأنا في المدرسة الابتدائية، في بارانكيًا، إلى أنني كنت مصابة، بالقمل إلى أن نقلت العدوى إلى الأسرة كلها. وأظهرت أمي آنذاك دليلاً آخر على صلابة طبيعتها. فقد عقلت أبناءها واحداً واحداً، بمبيد صراصير، في عملية تنظيف معسقة عنتتها باسم ذي وقع مهيب: الشرطة. ولكن السيئ في الأمر، هو أننا ما إن تطهرنا حتى بدأنا نصاب من جديد، لأن

العبدوى انتقلت إليّ مجدداً في المدرسة. عندئذ قررت أُمّي قطع الداء من جذوره، فأجبرتني على قص شعري من أصوله، كان ظهوري في المدرسة يوم الاثنين، وأنا أضع قبعة قماشية، عملاً بطولياً، ولكنني تجاوزت، بشرف، سخريات زملائي، وتوجت السنة النهائية بأعلى التقديرات والدرجات، لم أعد للقاء المعلم كاساليناس قط، ولكن بقيتُ مديناً له بالامتنان الأبدي.

وجد لي صديق لوالدي، لم نتعرف عليه قط، عملاً في مطبعة قريبة من البيت. وكان الأجر أقل بكثير من لا شيء، وكانت فكرة تعلم المهنة هي داخلي الوحيد. ومع ذلك، لم تكن تتوفر لي لحظة واحدة لرؤية المطبعة، لأن عملي كان يتلخص في ترتيب الملازم المطبوعة، لكي يجلدوها في تسم آخر. وكان عزائي هو أن أُمّي سمحت لي بأن أشتري من أجري، ملحق صحيفة لابرنسا ليوم الأحد. وكان يتضمن قصص رسوم متسلسلة عن طرزان، وبوك ووجرز - واسمه عندنا روكيليو الغازي - وعن "مت أند جف" - وكانا يسميان بيثيو وإنياس -، وقد تعلمتُ، في استراحة أيام الأحاد، ومنهم من الذاكرة؛ وكنت أستكمل جلفة الأسبوع، وأضع لها نهاية على هواي. فتوصلت بذلك، إلى إثارة حماس بعض الكبار في الحي، بل واستطعت أن أبيعها مقابل سنتين اثنتين.

كان العمل منهكاً ومجدياً. وكانت تقارير رؤسائي، مهما بذلتُ من جهد، تهمني بالتقصير وضعف الرغبة في العمل. وقد نقلوني، تقديراً لأسرتي دون شك، من روتين الورشة، إلى موزع نشرات دعائية في الشوارع، لشراب سعال يوصي به أشهر فنائي السينما. بدا لي ذلك

جيداً، لأن النشرات جميلة، وعليها صور المثلين بالألوان، مطبوعة على ورق مصقول. ومع ذلك، فقد أدركت منذ البداية، أن توزيعها ليس بالأمر السهل، مثلما ظننت، فالتاس يتظرون إليها بارتياح، لأنها توزع مجاناً؛ ويجفل معظمهم. كما لو أنها مكهرة، كيلا يتلقوها. في الأيام الأولى رجعت إلى المشغل ومعني النشرات المتبقية ليستكملوها لي. إلى أن التقيت بعض زملاء الدراسة في أراكاتاكّا، وقد استشاطت أمهم غضباً، حين رأوني في تلك المهنة التي بدت لها عمل متسولين. عثقتني بما يشبه الصراخ، لأني أخرج إلى الشارع بصندل قماشي اشتريته لي أُمّي كيلا، أستهلك هذا المناسبات الرسمي. وقالت لي:

- قل للربسا سانتياغا، أن تفكر في ما يمكن أن يقوله أبواها إذا ما رأيا حفيدهما المفضل، يوزع دعايات مسلولين في السوق.

لم أنقل الرسالة، لأوفر على أُمّي الغم. ولكنني بكيت على وسادتي من الغضب ومن الحجل ليالي عديدة. وكانت نهاية تلك الدراهما أنني لم أعد أوزع النشرات، وإنما صرت أُلقي بها في مجاريب السوق دون أن ألحظ أن مباحها راكدة، والورق المصقول ينفى طافياً على السطح، إلى أن يشكل فرشاة بديعة الألوان، تتحول إلى مشهد فريد، من فوق الجسر. لا بد أن أُمّي تلقت رسالة من موتاها في حلم ملهم، لأنها أخرجتني، قبل انقضاء شهرين من المطبعة دون تفسيرات. فعارضتُ ذلك كيلا أفقد عدد يوم الأحد من جريدة لابرنسا التي كنا نلقاها في الأسرة مثل مباركة من النساء. ولكن أُمّي واصلت شراؤها لنا، ولو اضطرها ذلك إلى أن تقطع حبة بطاطا من الحساء.

وسيلة إنقضاء أخرى هي مبلغ الفرج الذي كان يرسله إلينا الحال خوانيتو، في أئند الشهر قسوة. كان الحال آنذاك لا يزال يعيش في

سائنا عارتا، على دخله الضئيل كعداد محلف، وقد فرض على نفسه واجب إرسال رسالة لنا كل أسبوع، ومعها ورقتان نقديتان من فئة البيزو الواحد. وكان قبطان المركب النهري أورورا، وهو صديق قديم للأسرة، يسلمني الرسالة في الساعة السابعة صباحاً، فأصوده إلى البيت بشتربات أساسية تكفي عدة أيام.

وفي أحد أيام الأربعاء، لم أستطع القيام بالمهمة، فأوكلتها أُمي إلى لريس إترىكي الذي لم يقاوم إغراء محاولة مضاعفة البيزوين في آلة العملات في خانة صينيين. لم يستطع اتخاذ قرار التوقف عندما خسر الفيشتين الأوليين، وواصل محاولة استردادهما، إلى أن خسر حتى قطعة النقد ما قبل الأخيرة. وقد روى لي بعد أن كبر: "لقد بلغ خوفي حداً قررت معه عدم العودة إلى البيت أبداً". فقد كان يعرف جيداً أن البيزوين يكفيان للمشتريات الأساسية لأسبوع. ولحسن الحظ أن شيئاً في الآلة مع الفيشة الأخيرة جعل أحشائها تهتز هزة حديدية، وتنبأت على أثرها، في دقائق متواصلة، الفيشات الكاملة للبيزوين الضائعين. وقد أخبرني لريس إترىكي: "عندئذ ألهمني الشيطان، ونجرت على المجازفة بفيشة أخرى". كسب، وجازف بأخرى وكسب أيضاً، وأخرى وأخرى وأخرى، وكسب. وقد روى لي: "كان الرعب عندئذ أكبر مما أحسست به حين خسرت. فتراخت أجشائي، ولكنني واصلت اللعب". وأخيراً كسب ضعف البيزوين الأصليين في قطع نقدية من فئة الخمسة سنتافو، ولم يتجرأ على استبدالها بنقود ورقية من الصندوق، خوفاً من أن يورطه الصيني في قصة صينية^(١). انتفخت بها جيوبه كثيراً، حتى إنه سارع، قبل أن يعيد إلى أُمي بيزوي الخال خواتم، في قطع نقدية

(١) القصة الصينية cuento chino هي كل حديث غير مقبول وله كبير من اللب والدوران.

من فئة الخمسة سنتافو، إلى دفن البيزوات الأربعة التي كسبها، في أقصى الفناء، حيث اعتاد أن يخفي كل سنتافو يجده في غير مكانه. وقد أنفقها شيئاً فشيئاً، دون أن يعترف لأحد بالسرق. إلا بعد سنوات طويلة. وكان ما يزال يتعذب، لأنه انقاد للمجازفة بقطعة الخمسة سنتافو الأخيرة في دكان الصيني.

علاقته بالنقود كانت شخصية جداً. في إحدى المرات، فاجأته أُمي بنيش في محفظتها التي تضع فيها نقود الشراء. وكان دفاعه عن نفسه فطرياً، ولكنه ذكي، النقود التي يأخذها أحداً دون إذن من محفظة الأبوين، لا يمكن أن تعد سرقة، فهي نقود الجميع، التي ينكرونها علينا حسداً، لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا بها ما يفعله الآباء. وقد بلغ بي الأمر، في الدفاع عن حجه، إلى حد الاعتراف بأنني، أنا نفسي، كنت قد سطوت على المخابئ المنزلية من أجل ضرورات ملحة. فقدت أُمي عندئذ أعصابها، وقالت لي صارخة تقريباً: "لا تكونا على هذا القدر من الحماقة: أنت وأخوك لم تسرقا مني شيئاً. فأنا نفسي أترك النقود، لأنني أعرف أنكما ستأخذان منها، عندما تضطوران إلى ذلك". وفي إحدى نوبات غضبها، سمعتها تغسم بيأس، بأنه لا يد للرب من أن يبيع السرقة أحياناً، من أجل إطعام الأطفال.

لقد كان سحر لريس إترىكي في شيطاناته، مفيداً جداً في حل مشاكل مشتركة. ولكنه لم يحاول قط، أن يورطني في مقالبه. بل على العكس من ذلك، كان يتدبرها دوماً. بحيث لا يلحق بي أدنى قدر من الشبهة. وقد أدهف سلوكه ذاك، عاطفة حقيقية استمرت بيننا إلى الأبد. ولكنني لم أتج له بالمقابل، أن يعرف كم كنت أحسد جرأته، وكم كنت

أتألم من الضرب المبرح الذي يتلقاه من أبي. لقد كان سلوكي مختلفاً جداً عن سلوكه. ولكنني كنتُ أتكلف جهداً كبيراً في إخفاء حسدي له. وكان بيت الأبوين في كاتاكيا بالمقابل، يخيفني، حيث كانوا يأخذونني للنوم فيه، عندما يريدون إعطائي شربة طاردة للديدان أو زيت خروج فقط. حتى إنني كنت أكره قطع النقود من فئة العشرين سنتافو التي يدفعونها لي مقابل الشجاعة في تناولها.

أظن أن أمي بلغت ذروة اليأس، عندما أرسلتني محملاً برسالة إلى رجل مشهور بثراته، وبأنه في الوقت نفسه، أوسع المحسنين إلى الناس سخاءً في المدينة. كانت الأخبار عن طيبة قلبه، تُنشر بتوسع لا يقل عن التوسع في نشر انتصاراته المالية. كتبت إليه أمي رسالة غم بلا مواربة، تطلب منه مساعدة مادية مستعجلة، ليس باسمها، لأنها قادرة على تحمل أي شيء، وإنما حباً بأبنائها. لا بد من أن يكون المرء قد تعرّف عليها لكي يدرك ما الذي تعنيه تلك الإهانة في حياتها. ولكن المناسبة كانت تتطلب ذلك، نبهتني إلى أن السر يجب أن يبقى بيننا نحن الاثنين، وهذا ما حدث، حتى هذه اللحظة التي أكتبه فيها.

طُرقتُ بوابة البيت الذي فيه شبه بالكنيسة، وعلى الفور تقريباً قُتحت كوة في الباب، أطلت منها امرأة لا أتذكر منها سوى جليد عينيها. تلقت الرسالة دون أن تفوه بكلمة واحدة، وأغلقت الكوة من جديد. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحاً، وانتظرتُ جالساً عند دعامة البوابة، حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، عندما قررت طرق الباب ثانية، طلباً للرد. فتحت المرأة نفسها من جديد، وفوجئت بالتعرف عليّ، وطلبت مني الانتظار لحظة، ثم جاءتني بالجواب بأن أعود يوم الأربعاء،

من الأسبوع التالي، في الساعة نفسها. وكان هذا ما فعلته ولكن الجواب الوحيد الذي تلقيته، هو أنه لا مجال لأي جواب قبل أسبوع. وكان عليّ أن أعود ثلاث مرات أخرى، وأن أتلقي دوماً، الجواب نفسه، إلى أن ردت عليّ امرأة أكثر جفاء من السابقة، بتكليف من السيد، بأن ذلك البيت ليس بيت صدقات.

قصت بالتجوال في الشوارع الملتهية، محاولاً استجماع الشجاعة، لأنتقل إلى أمي إجابة تخلصها من أوهامها. واجهتها في أوج الليل، لأخبرها بقلب مजوجع بأن المحسن الطيب قد توفي، منذ بضعة شهور. وكان أكثر ما آلتني هو صلاة السبحة التي رددتها أمي من أجل الراحة الأبدية لروحه.

بعد أربع أو خمس سنوات من ذلك، عندما سمعنا من المذيع، الخير الحقيقي، بأن المحسن قد توفي في اليوم السابق، بقيت متشيساً بانتظار رد فعل أمي. ومع ذلك، لا يمكنني أن أفهم مطلقاً كيف سمعت الخير باهتمام متأثر، وتنهدت من أعماق روحها:

- فليحفظه الرب في ملكوته المقدس!

على بعد كوادرا من البيت، أقمتنا صداقة مع آل موسكيرا، وهم أسرة تنفق ثروة على شراء مجلات القصص المصورة، ويكسبونها حتى السقف في عتير في الغناء. وكنا نحن المحظوظين الوحيدين الذين أمضوا هناك أياماً يكاملها في قراءة "دوك تراكي" و"هوك روجيرز"، ولقبة سعيدة أخرى، هي متدرب يرسم إعلانات لأفلام سينما كيتاس القريبة. وكنت أساعده لجرد المتعة في تلوين الحروف، فيدخلنا مجاناً مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، إلى أفلام إطلاق الرصاص وتبادل

اللكمات، الصنف الوحيد الذي افتقدناه، هو جهاز مذياع لسماع الموسيقى في أي وقت، بمجرد لمسة زر. من الصعب اليوم، تصور كم كانت تلك الأجهزة نادرة في بيوت الفقراء. كنت أجلس أنا ولويس إيريكي أمام الدكان القائم على الناصية، على مقعد موضوع من أجل مسامرات الزبائن البطالين. وكنا نلغي أسيات بطولها، ونحن نستمع إلى برامج الموسيقى الشعبية. وهي كل شيء في ذلك الحين تقريباً. وتوصلنا إلى أن نحفظ في ذاكرتنا قائمة كاملة من أغنيات ميغيليتو بالدريس مع أوركسترا كازينو دي لا بلايا، ودانييل سانتوس مع فرقة سونورا ماتانيرا، وأغنيات بوليفو أغوسطين لارا بصوت توتيا الزنجية. تسليتنا الليلية، وبخاصة في المناسبتين اللتين قطعوا فيهما عنا نور الكهرباء، لعدم الدفع، كانت تعليم تلك الأغنيات لأمتنا وأخوتنا. ولا سيما ليخيا وغوستافو، اللذان كانا يحفظانها كاليغاوات، دون أن يفهما معناها، فيضحكاننا حتى الانفجار بأخطائهما الغنائية. لم تكن هناك استثناءات. فجميعنا ورثنا عن الأب والأم ذاكرة خاصة للموسيقى، وسعياً جيداً لحفظ أغنية من المرة الثانية. وبخاصة لويس إيريكي الذي ولد موسيقياً وتخصص بإمكانياته الذاتية في العزف المنفرد على الجيثار في سرنادات الحب المعاكس. وسرعان ما اكتشفنا أن جميع الأطفال الذين ليس لديهم مذياع في البيوت المجاورة، يتعلمون أيضاً من أخوتي، وبخاصة من أمي، التي انتهت لأن تكون أختاً أخرى في بيت الأطفال ذلك.

كان برنامجي المفضل هو "ساعة لشيء من كل شيء" للمؤلف المزيقي والمغني والمعلم آنخل ماريا كاماتشو أي كانوا، الذي كان

يختصر المستمعين، منذ الساعة الواحدة بعد الظهر، بكل أصناف المتوعات الذاكرة، ولا سيما ساعته المخصصة للهِرَاة دون الخامسة عشرة. كان يكفي أن يسجل المتقدم اسمه في مكاتب "صوت الوطن" وأن يأتي إلى البرنامج، قبل نصف ساعة من الموعد. وكان المعلم كاماتشو أي كانوا نفسه يرافق الهاوي على البيانو، بينما يصدر مساعد له الحكم غير القابل للاستئناف بقطع الأغنية، برن جرس كنيسة عندما يقترب الهاوي أدنى خطأ. وكانت الجائزة التي تقدم لأفضل مغنٍ أكثر مما يمكن لنا أن نحلم به - خمسة بيزوات -، ولكن أمي كانت واضحة بأن المهم هو الفخر بالغناء جيداً في برنامج بهذه الشهرة.

كنت حتى ذلك الحين، أعرف بنفسى، بكنية أبي وحدها - غاروسيا - واسمي الأول المركب من اسمين - غابرييل خوسيه -، ولكن أمي ظلمت مني، في تلك المناسبة التاريخية، أن أسجل اسمي مضافاً إليه كنيستها كذلك - ماركيز - حتى لا يشك أحد في هويتي. لقد كان حدثاً في البيت. أليسوني ثياباً بيضاء، كنا في المناولة الأولى، وقبل الخروج، قدموا لي شرباً من فوكر الصودا. وصلت إلى "صوت الوطن" قبل ساعتين من الموعد. وقد انقضى معدل المسكن، بينما أنا أنتظر في حديقة قريبة لأنهم لا يسمحون بالدخول إلى الاستديو، إلا قبل ربع ساعة من البرنامج. في كل دقيقة كنت أشعر بعناكب الرعب تنمرنى داخلني، وأخيراً دخلت وقلبي يكاد يطفئ من صدري. كان عليّ أن أبذل جهداً خارقاً لأمنع نفسي من العودة إلى البيت والقول إنهم لم يسمحوا لي بالاشتراك في المسابقة متعللاً بأي حجة. أجرى لي المعلم اختباراً سريعاً بمرافقة البيانو، لكي يحدد طبقة صوتي. وقد استدعوا قبلي سبعة

متسابقين، وفق تسلسل التسجيل، وقرعوا الجرس لثلاثة منهم لأخطاء مختلفة، ثم أعلنوا عني باسم غابرييل ماركيز وحسب. غنيت "البجعة"، وهي أغنية عاطفية عن بجمة أشد بياضاً من ندفة ثلج قُتلت مع حبيبها، على يد صياد عديم الشفقة. منذ الألمان الأولى لاحظت أن الإيقاع عال جداً بالنسبة لي في بعض النغمات التي لم تمر في الاختبار، وعانيت لحظة رعب عندما قام المساعد بإيماة متكررة، وتأهب لتناول الجرس. لمست أدري كيف وانتهت الشجاعة لأشعر، له بإيماة، نشطة ألا يقرعه، ولكن ذلك جاء متأخراً؛ فقد دوى الجرس دون رحمة. وذُهِت بيزوات الجائزة الخمسة، ومعها عدة هدايا دعائية، إلى شقراء جميلة جداً مضغت مقطعاً من مدام بشرفلاي. رجعتُ إلى البيت مشقلاً بالهزيمة. ولم أستطع قط هواة أُمي من خيبة أملها، وقد انقضت سنوات طويلة، قبل أن تعترف لي بأن سبب خجلها هو أنها كانت قد أخبرت أقرانها وأصدقاءها، لكي يسمعونني وأنا أغني. ولم تكن تعرف كيف تنهرب منهم.

وسط ذلك النظام من الضحك والبكاء، لم أتغيب عن المدرسة قط. حتى وأنا خاوي المعدة، ولكن وقت قراءتي المنزلية، صار ينقضي في المساعي المنزلية. ولم تكن لدينا ميزانية للنور، فمكنتني من القراءة حتى منتصف الليل. ولكنني كنت أتدير الأمور على أي حال. ففني الطريق إلى المدرسة كانت هناك ورشات لحافلات الركاب. وكنت أتوقف في إحداها لساعات، أراقب كيف يخطون، على جانبيها، لافتات تبين الطريق الذي تقطعه، والوجهة التي تصل إليه. وفي أحد الأيام، طلبت من الرسام أن يسمح لي يرسم بعض الحروف، لأرى إذا ما كنت قادراً

على ذلك. فوجئ بكفائي الطبيعية، وسمح لي بأن أساعده أحياناً، مقابل بعض البيزوات المتفرقة التي تساعد قليلاً، في الميزانية الأسرية. وقد عشت في تلك الفترة وهماً آخر، عندما تعرّكت مصادفة، على ثلاثة أخوة كنيستهم غارسيا، أبناء بخار يبحر نهر مجدلينا. وكانوا قد نظموا ثلاثي موسيقى شعبية، لتنشيط حفلات الأصدقاء، حياً بالقن وحسب. فأكملت معهم الرباعي غارسيا، لشارك في مسابقة ساعة الهواة، في إذاعة أتلاتيكو. ربحتنا الجائزة، منذ اليوم الأول، وسط عاصفة من التصفيق. ولكنهم لم يدفعوا لنا بيزوات الجائزة الخمسة، بسبب خطأ لا يمكن إصلاحه. في تسجيل الأسماء. واصلنا التدريب معاً خلال بقية السنة، والغناء مجاناً في الحفلات الأسرية، إلى أن فرقنا بيننا الحياة.

لم أتفق أبداً مع الرواية الحبشية الفائلة إن الصبر الذي كان أبي يواجه به الفقر، له علاقة بانعدام حس الشعور بالمسؤولية. بل على العكس: أظن أنها كانت أدلة هوميروسية على تواضع لم يخب أبداً بينه وبين زوجته. ويسمح لهما بكنم أنفاسهما، إلى أن يبلغا شفير الهاوية. كان يعرف أنها قادرة على التحكم بالرعب، خيراً من تحكمها باليأس، وأن هذا هو السر في بقائنا على قيد الحياة. وربما أن الأمر الذي لم يفكر فيه هو أن آلامه كانت تهدأ، وهو يراها تخلف في الطريق، أفضل ما في حياتها، لم تكن تفهم أبداً سبب أسفاره. ففي أحد أيام السبت، أيقظونا فجأة في منتصف الليل، مثلما كان يحدث عادة، ليأخذونا إلى وكالة محلية لحقل بشرول في كاتاتوميو، حيث تنتظرنا مكاملة لاسلكية من أبي. لن أنسى قط أُمي المستحمة بالدموع، في تلك المحادثة التي تشوشها التقنية.

- آي يا غابرييل، انظر كيف تركتني مع هذه الكتبية من الأبناء، وقد وصلنا إلى حد عدم العثور على ما نأكله، مرات عديدة.
فرد هو بالخبر المشؤوم، بأن كيد مشؤوم. وكان ذلك يحدث له بكثرة. ولم تكن أمي تأخذه على محمل الجد، لأنه استخدمه مرة للتستر على مجونه، فقالت له مازحة:

- هذا ما نصيبك، كلما أسأت التصرف.

كانت تتكلم وهي تنظر إلى الميكروفون، كما لو أن أبي هناك. ثم ارتبكت أخيراً، وهي تحاول أن ترسل إليه قبلة، ففبكت الميكروفون. ولم تستطع، هي نفسها، كبح قهقهاتها. ولم تتمكن قط من رواية الحكاية كاملة، لأنها كانت تنتهي إلى الاستحمام بدموع الضحك. ومع ذلك، بقيت ساهية في ذلك اليوم. وأخيراً قالت على المائدة وكأنها تتكلم إلى لا أحد:

- لقد لمست شيئاً غريباً في صوت غابرييل.

أوضحنا لها أن جهاز اللاسلكي لا يشوش الأصوات فقط، وإنما يحجب حقيقة الشخصية كذلك. وفي الليلة التالية، قالت وهي نائمة: "صوته على كل حال، يُسمع كما لو كان أكثر نحولاً". كان أنفها مرهطاً كما في أيامها السيئة. وكانت تتسائل بين التنهدات، كيف هي تلك القرى التي بلا رب ولا قانون، حيث يمضي زوجها طليقاً من دون أمراته. وقد تبدت أسبابها الخفية بجلاء أكبر في محادثة لاسلكية أخرى، عندما أجبرت أبي على أن يعدها بأنه سيرجع فوراً إلى البيت، إذا هو لم يتوصل إلى أي شيء، خلال أسبوعين. ومع ذلك، تلقينا قبل انتهائها المهلة، من لوس ألثوس دل روساريو، برقية دراماتيكية من كلمة واحدة:

"متردد"، رأت أمي في الرسالة، تأكيداً لأشد شكوكها وضوحاً، وأصدرت حكمها غير القابل للاستئناف:

- إما أن تأتي قبل يوم الاثنين، وإلا فإنني سأتي إليك هناك، الآن، بالذات ومعني الذرّة كلها.

وسيلة مباركة. فقد كان أبي يعرف قوة تهديداتها. وقبل انقضاء أسبوع كان قد عاد إلى بارانكيّا. لقد أذهلنا دخوله، مرتدياً ملابسه كيفما اتفق، ببشرة مائلة إلى الخضرة، وذقن غير حلقة. حتى إن أمي ظنت أنه مريض. ولكنه مجرد انطباع آني، لأنه ما لبث أن خرج لنا، بعد يومين بمشروع شبابه، في إقامة صيدلية متعددة الأغراض، في بلدة سوكري. وهي ركن حالم ومزدهر، على بُعد ليلة ونهار من الإبحار من بارانكيّا. لقد كان هناك في بداية عهده، كعامل تلغراف، وقلبه يتقيض، حين يتذكر الرحلة في قنوات غسقية ومستنقعات مذيبة، وحفلات الرقص الأبدية. لقد ألح في تلك الفترة، على نقل عمله إلى ذلك المكان. ولكن دون أن يحالف الحظ، كما في مرات أخرى مشتهية، مثل أراكاتاكا. عاد للتفكير فيها، بعد خمس سنوات من ذلك، عندما وقعت أزمة الموز الثالثة، ولكنه وجدها، وقد احتلتها تجار الجملة القادمون من مغناغي. مع ذلك، وقبل شهر من العودة إلى بارانكيّا، التقى مصادفة، مع واحد منهم، لم يصور له واقعاً مخالفاً وحسب، وإنما عرض عليه كذلك قرصاً انتعانياً جيداً للعمل في سوكري. لم يوافق على العرض، لأنه كان على وشك الحصول على الخلم الذهبي في لوس ألثوس دل روساريو. ولكن عندما فاجأه قرار زوجته الحاسم، عثر على تاجر الجملة في مغناغي، الذي كان لا يزال تائهاً في قرى النهر. وأبرما الاتفاق.

بعد نحو أسبوعين من الدراسات والترتيبات، مع تجمار جملة،
أصدقاء، ذهب وقد استرد مظهره وموهبته. وكان تأثيره بسوكري قوياً
حتى إنه خلف انطباعه، مكتوباً في رسالته الأولى: "لقد وجدت الواقع
أفضل من الخيال". استأجر بيتاً له شرفة في الساحة الرئيسية، ومن
هناك استعاد علاقته بأصدقائه القدامى الذين استقبلوه بآبواب مفتوحة.
طلب من الأسرة أن تبيع ما يمكن بيعه، وأن تحزم ما تبقى من متاع. ولم
يكن كثيراً، وتحمله معها في إحدى السفن البخارية التي تقوم برحلات
منتظمة عبر نهر مجدلين، وأرسل في البريد نفسه، حوالة مالية
محسوبة بدقة، من أجل النفقات المباشرة. وأعلن أنه سيرسل حوالة أخرى
من أجل تكاليف السفر. لا يمكنني أن أتصور أخباراً أكثر شهية لطبع
أمي الحالم، وهكذا لم يكن ردّها، على الرسالة، نابعاً من التفكير في
دعم خصائص زوجها وحسب، وإنما تخليته بخير أنها حيلة للمرة الثامنة.

قمت بالحجاز إجراءات الحجز في سفينة "القيطان دي كارو"، وهي
سفينة أسطوانية تقطع الطريق من بارانكيا إلى ساغانغي في ليلة
ونصف نهار. ثم تواصل الرحلة، بعد ذلك، في مركب ذي محرك غير
نهر سان خورخي والقناة المائية الحاملة، من مورخانا حتى وجهتنا.

- يكفي أن نذهب من هنا، حتى ولو إلى الجحيم - هتفت بذلك
أمي التي كانت ترتاب دوماً بسعة سوكري البابية، وأضافت: - يجب
عدم ترك الزوج، وحيداً في قرية مثل تلك.

فرضت علينا الإسراع. حتى إننا كنا ننام على الأرض، قبل ثلاثة
أيام من السفر، لأننا بعنا الأسرة وكل الأثاث الذي استطعنا بيعه، وكل
ما عدا ذلك، كان مبعياً في الصناديق. ونقود تذاكر السفر، مخبأة في

أحد مخابئ أمي، ومحسوبة جيداً، ومعاد حسابها ألف مرة.

الموظف الذي استقبلني في مكاتب الشركة مالكة السفينة، كان
مهذباً، بحيث لم أجد نفسي مضطراً إلى الضغط على فكي، لكي أفهم
معه. إنني واثق ثقة مطلقة من أنني دونت الأسعار بحذائيرها، مثلما
أملأها عليّ بأسلوب الكاريبيين الخدميين، في الكلام الواضح والمشكك.
وكان أكثر ما أسعدني، وأقل ما تسببه، هو أن من هم دون الثانية
عشرة، يدفعون نصف التسعيرة العادية فقط. وهذا ما ينطبق على جميع
أخوتي، باستثنائي أنا. وعلى هذا الأساس، وضعت أمي نقود السفر
جانباً، وأنفقت، حتى آخر سنتافو، مما تبقى في تفكيك موجودات
البيت.

ذهبت يوم الجمعة لشراء تذاكر السفر، فاستقبلني الموظف بمفاجأة أن
من هم دون الثانية عشرة، لا يتمتعون بحسم نصف السعر، وإنما بثلاثين
بالئة منه فقط. مما يعني فرقاً لا يمكن لنا تجاوزه. وتلذذ بأنني قد دونت ما
أملأه عليّ بصورة سيئة، لأن المعلومات مطبوعة في لوحة إعلانات رسمية
وضعتها أمام عيني. رجعت إلى البيت مغموماً، فلم تعلق أمي بشيء، وإنما
ارتدت اللستان الذي أمضت فيه فترة الحداد على أبيها. وذهبت معاً إلى
وكالة الملاحة النهرية، أرادت أن تكون منصفة: أحد ما قد أخطأ، ويمكن له
أن يكون ابني. ولكن هذا ليس مهتماً، فالواقع أننا لا نملك مزيداً من
النقود. أوضح لها الموظف بأنه ليس هناك ما يمكن عمله. وقال:

"لاحظي يا سيدتي. المسألة ليست الرغبة أو عدم الرغبة في
خدمتك. وإنما هي أنظمة شركة محترمة. ولا يمكن التلاعب بها مثل
دائرة ربح."

"ولكنهم مجرد أطفال"، قالت أمي ذلك، وأشارت إلي كمثال:
"تصور، هذا هو أكبرهم. ويكاد لا يبلغ الثانية عشرة." ثم أشارت
بيدها:

- إنهم بهذا الطول.

فتعلل الوكيل بأن المسألة ليست مسألة طول القامة، وإنما السن،
ولا أحد يدفع أقل من التسعيرة، باستثناء حديثي الولادة الذين يساقرون
مجاناً. فبحثت أمي عن سماوات أعلى:

- مع من يجب علي أن أتكلم، من أجل تصوية هذا الأمر؟

لم يتوصل الموظف إلى الرد. فقد أطل المدير، وهو رجل متقدم في
السن، وله كرش أمرمي، من باب مكتبه، خلال تلك المرافعة. فنهض
الموظف واقفاً، حين رآه. كان هائلاً؛ له مظهر محترم، وسلطته أكثر من
واضحة، حتى وهو بقميص قصير الكمين، ومبلل بالعرق. استمع إلى
أمي باهتمام، وردها عليها بصوت هادئ، بأن قراراً من ذلك النوع لا يمكن
اتخاذَه إلا بتعديل للأنظمة في جمعية عمومية للمساهمين. واختتم
قائلاً:

- صدقيني، إنني متأسف جداً.

فقلت: "أنت على حق. ولكن المشكلة هي أن موظفك لم يشرح
الأمر جيداً لابني، أو أن ابني قد فهمه بصورة سيئة، وأنا تصرفت بناءً
على هذا الخطأ. وكل امتعني مرضية الآن، وجاهزة للإبحار. إننا ننام
على الأرض دون شيء، ونقوم المشتريات تكفيها حتى هذا اليوم فقط.
وعلى أن نسلم البيت يوم الاثنين للمستأجرين الجدد." لاحظت أن
موظفي القاعة جميعهم، يصغون إليها باهتمام كبير. وعندئذ توجهت

إليهم: "ما الذي يعنيه كل هذا لشركة بهذه الأهمية؟ ودون أن تنتظر
جواباً، سألت المدير، وهي تنظر مباشرة إلى عيني:

- هل أنت مؤمن بالرب؟

انبهر المدير. كان المكتب كله يترقب بصمت طال كثيراً. عندئذ
تھاوت أمي على المقعد. ضمت ركبتيها اللتين بدأتا ترتجفان، وشدت
المحفظة إلى حضنها بكلتا يديها، وقالت بالتصميم الذي تبديه في
قضاياها العظمى:

- لن أتحرك من هنا، ما لم تحلوا لي المشكلة.

ظل المدير متجمداً. وتوقف جميع الموظفين عن عملهم، لينظروا إلى
أمي. لم تُبدِ تأثراً، بأنفاسها المرهقة، وشحوبها وحيات العرق اللؤلؤية.
كانت قد خلعت ثوب الحداد على أبيها، منذ بعض الوقت، ولكنها عادت
لارتدائه في تلك المناسبة، لأنه بدا لها الفستان الأكثر ملاءمة. في ذلك
المسعى، لم يعد المدير إلى النظر إليها. وإنما نظر إلى موظفيه، دون أن
يدري ماذا يفعل. وأخيراً هتف متوجهاً إلى الجميع:

- هذا أمر لا سابقة له!

لم تحرك أمي رمشاً. وقد روت لي فيما بعد: "كانت الدموع حبيسة
في خلقي. إنما كان علي الصمود، لأنني في وضع سيئ جداً". عندئذ
طلب المدير من الموظف، أن يأتيه بالوثائق إلى مكتبه. ففعل الموظف
ذلك، وعاد للخروج بعد خمس دقائق، وهو يزجر ويتأفف. إنما كانت
معه بطاقات السفر جميعها، جاهزة ونظامية.

في الأسبوع التالي، نزلنا في بلدة سوكري، كما لو أننا قد ولدنا
فيها. كان عدد سكانها حوالي ستة عشر ألف نسمة، مثل بلديات كثيرة

في البلاد، في ذلك الزمان، وجميعهم يعرف بعضهم بعضاً، ليس بالأسماء بقدر ما هو في حياتهم السرية. ولم تكن القرية وحدها، وإنما المنطقة بأسرها، أشبه ببحر مياه راكدة تتبدل ألوانها بملاوات الزهور التي تغطيها حسب الموسم، وحسب المكان، وحسب حالتنا المعنوية. بهاؤها يذكر بملاذات جنوبي شرق آسيا الراكدة. فخلال الشوات الطويلة التي عاشتها الأسرة هناك، لم تأت سيارة واحدة. ولن تكون لمجئتها أية فائدة، لأن الشوارع المستقيمة ذات التراب المهد تدور، كما لو أنها قد أعدت للأقدام العارية. وكانت هناك بيوت كثيرة تمك في المطايخ مرناها الخاص، وفيه الزوارق البيشية، من أجل التنفلات المحلية.

أول ما أثر في، هو الحرية التي لا يمكن تصورها. فكل ما كان يتقصنا، نحن الأطفال، وكل ما كنا نتلهف إليه، صار فجأة في متناول أيدينا. كل واحد يأكل عندما يجوع، وينام في أي وقت يشاء. ولم يكن من السهل الاهتمام بأحد، إذ إن الكبار، على الرغم من صرامة قوانينهم، كانوا يعضون غارقين في أوقاتهم الشخصية التي تكاد لا تكفيهم للاهتمام بأنفسهم. كان شرط الأمان الوحيد للأطفال أن يتعلموا السباحة قبل أن يتعلموا المشي؛ لأن القرية مقسومة إلى شطرين، بقناة مياه قاقة تُستخدم في الوقت نفسه، كمجرى مائي ومجرور صرف صحي. فكانوا يلعبون بالأطفال، منذ السنة الأولى من عمرهم، من شرفات المطايخ، في أول الأبر، مع إطارات لحذاء، لكي يتخلصوا من احترامهم للموت. وقد تألق، بعد سنوات من ذلك، أخي خيمي وأختي ليخيا، في بطولات السباحة للصغار، بعد أن تجاوزا، حين، المخاطر الأولية.

ما حول سوكري بالنسبة لي إلى بلدة لا تُنسى، هو حس الحرية الذي كنا نتحرك به، نحن الأطفال، في الشارع. خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، كنا نعرف من الذي يعيش في كل بيت، وكنا نتصرف فيها، كما لو أننا نعرف ساكنيها منذ الأزل. كانت العادات الاجتماعية - المبسطة في الاستخدام - هي عادات الحياة الحديثة، في مجتمع إقطاعي: الأثرياء - مرور الماشية وصانعو السكر - في الساحة الكبرى. والفقراء، حيثما يستطيعون. وكانت المنطقة، بالنسبة للإدارة الكنسية، ميدان بعثات تبشيرية، وسلطة قضائية وقيادية، في ملكة بحيرات شاسعة. وفي منتصف ذلك العالم، كانت الكنيسة الأبرشية، في ساحة سوكري الكبرى، نسخة جيب من الكاتدرائية الكولونيالية، استنسخها من الذاكرة، كاهن إسباني مُدَوِّل مع الهندسة. كان استخدام الكنيسة للسلطة مباشراً ومطلقاً. ففي كل ليلة، بعد صلاة المسبحة، يقرعون في برج الكنيسة، ناقوس التقويم الأخلاقي، لفيلم المعلن عن عرضه في دار السينما المجاورة، وفق القائمة التي يصدرها "المكتب الكاثوليكي للسينما". وكان هناك مبشر مناوب، يجلس على باب مكتبه، ليراقب من يدخلون إلى المسرح، من الرصيف المقابل، من أجل معاقبة المخالفين. كان إحباطي الأكبر، هو السن التي وصلت بها إلى سوكري. كنت أحتاج إلى ثلاثة شهور أخرى لأجتاز خط الثالثة عشرة المنذر بالغموض. ولم يعودوا يحملوني في البيت كطفل. ولكنهم لا يعترفون بي كراشد أيضاً. وانتهى بي الأمر في ليمبوس تلك السن إلى أن أكون الوحيد بين أختي الذي لم يتعلم السباحة. ولم يكونوا يعرفون إذا ما كان علي الجلوس إلى مائدة الصغار أم إلى مائدة الكبار. ولم تعد نساء الخدمة

يغيّرن ملابسهن أعمامي، حتى ولو كان الضوء مظفاً. ولكن إحداهن نامت عدة مرات عسارية في فراشي، دون أن تُقلق نومي. ولم يُتج لي الوقت للارتواء - من حرية الاختيار المخالفة للأعراف تلك، عندما اضطرت إلى الرجوع إلى بارانكيّا، في شهر كانون الثاني من العام التالي، لأبدأ مرحلة الدراسة الثانوية. لأنه لم تكن هناك في سوكري، مدرسة مؤهلة بما يكفي، للدرجات الممتازة التي منحني إياها المعلم كاسالينس.

بعد مناقشات واستشارات مطولة، بمشاركة ضئيلة من جاني، قرر والداي إرسالني إلى مدرسة سان خوسيه اليسوعية في بارانكيّا. ولا أجد تفسيراً للطريقة التي حصلنا بها على كل تلك الموارد خلال أشهر قليلة، ولا سيما وأن الصيدلية وعيادة الطب التجانسي، كانتا لا تزالان موضع اختبار. وقد قدمت أمي على الدوام تفسيراً لا يحتاج إلى براهين: "الله كبير". لا بد أن استقرار الأسرة وإعالتها قد أخذاً في الحسبان، ضمن نفقات الانتقال، ولكن ليس مستلزماتي المدرسية. ولأنني لم أكن أملك سوى هذا، تمزق وغيار ملابس واحد أليس، بينما يغسلون لي الآخر، فقد جهزوني أمي بملابس جديدة، مع صندوق بحجم نعش، دون أن تقدر مسبقاً أنني سأكون، خلال ستة شهور، قد كبرتُ شبراً. وكانت هي أيضاً من قررت بنفسها، أن أبدأ بارتداء البطلونات الطويلة، خلافاً للأحكام الاجتماعية التي يراعيها والدي، بأنه لا يمكن لبسها، ما لم يبدأ الصوت بالتبدل.

الحقيقة أنه في أثناء كل مناقشة حول تعليم كل واحد من الأبناء، كانت تراودني الأحلام على الدوام، بأن يعمد أبي، في إحدى نوبات غضبه الهومبوسية، إلى إصدار أمره بألا يعود أي واحد منا إلى

المدرسة. لم يكن ذلك مستحيلاً، فهو نفسه تعلم ذاتياً، بسبب فقره الشديد، ولأن آباءه كان يمتلكهم أخلاقيات دون فرناندو السابع، الداعية إلى التعليم الفردي في البيت، للحفاظ على تماسك الأسرة. لقد كنتُ أخشى المدرسة كأنها السجن. وترعيتني فكرة العيش، خاضعاً لنظام جرس يُقرع. ولكنها كانت، في الوقت نفسه، الإمكانية الوحيدة المتاحة لي، للاستمتاع بحياتي الحرة منذ سن الثالثة عشرة. إذ يمكنني الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع الأسرة. ولكن بعيداً عن نظامها، وعن حماسها الديموغرافي، وأيامها الثمينة. وحيث أستطيع أن أقرأ، دون التقاط للأفاس، ما دام الضوء يسعني.

حجتي الوحيدة، ضد مدرسة سان خوسيه، إحدى أكثر المدارس طلباً وكلفة، في منطقة الكاريبي، هو انضباطها العسكري. ولكن أمي واجهتني بوقار: "هناك يُصنع الحكام". وعندما لم يعد ثمة مجال للتراجع، نفّض أبي يديه:

- فليكن واضحاً، أنني لم أقل نعم ولم أقل لا.

كان يفضل ذهابي إلى المدرسة الأمريكية، لكني أتعلم الإنكليزية. ولكن أمي استبعدت هذا الاحتمال، مشدعة بأنها وكر لوثريين. وعلى اليوم أن أعترف على شرف أبي، بأن أحد أخطاء حياتي ككاتب، هو عدم تكلم الإنكليزية.

العودة لرؤية بارانكيّا التي غادرتها قبل ثلاثة شهور، من فوق جسر السفينة "القيطان دي كارو"، هيجت قلبي، كما لو أنني قد حدثت مسبقاً، أنني سأعود وحيداً، إلى الحياة الواقعية. ولحسن الحظ أن أبوي كانا قد رتبنا أمر إقامتي وطعامي. عند ابن عمي خوسيه ماريّا

بالديبلاتنيث وزوجته هورتنسيا، وهما شايان لطيفان، أشركاني في حياتهما الوادعة، في صالة بسيطة وغرفة نوم وفناء صغير مرصوف، تكتنفه الظلال على الدوام، بفعل الملابس المنشورة لتجف على الأسلاك. كنا بنامان في حجرة النوم مع طفلتهم ذات الستة شهور. بينما أنا أنا على أريكة الصالة التي تتحول في الليل، إلى سرير.

كانت مدرسة سان خوسيه تبعد ست كوادرات تقريباً. وتقوم وسط حديقة من أشجار اللوز، كانت فيما مضى أقدم مقبرة في المدينة. وما زال يُعثر فيها على بقايا عظام متفرقة، وتنف ثياب ميتة على سطح الأرض المرصوفة. يوم دخلت فناء المدرسة الرئيسي أول مرة، كان هناك احتفال لسلامية السنة الأولى، بيناطيل بيضاء وسترات من الجوخ الأزرق. فلم أستطع كبح رعبي من أنهم يعرفون كل ما أجعله، ولكنني سرعان ما لاحظت أنهم نيشون ومرعويون مثلي، حيال خفايا المستقبل غير المؤكدة.

ظهر لي شبح شخصي خاص قتل في الأخ بيدرو رئيس، موجه قسم التعليم الأساسي، الذي انهمك في إقناع رؤسائه في المدرسة، بأنني غير مؤهل للمرحلة الثانوية. لقد تحول إلى كابوس يعترض طريقي، في أماكن لا تخطر على البال، ويجري لي اختبارات مفاجئة تتضمن كمائن شيطانية: "هل تظن أن الرب قادر على صنع حجر ثقيل إلى حد يعجز عن حمله؟"، كان يسألني دون أن يمنحني الوقت للتفكير، أو هذا الفخ اللعين الآخر: "إذا ما وضعنا لخط الاستواء حزاماً من الذهب، سماكته خمسون سنتيمتراً، فكم سيزداد وزن الكرة الأرضية؟" لم أكن أفصح في الإجابة على أي سؤال، مع أنني كنت أعرف الأجوبة. لأن لساني كان

يتعقد من الرعب، مثلما حدث لي في يومي الأول مع الهاتف. لقد كان خَوْفاً يستند إلى أسباب، فالأخ رئيس على حق. أنا لم أكن مهياً فعلاً للشأنية. غير أنني لا أستطيع التخلي عن حسن الطالع الذي حالني بقبولهم إياي، دون اختبار. كنت أرلجف لمجرد رؤيته، وراح بعض الزملاء يقدم تفسيرات خبيثة لتلك المحاضرة، غير أنه لم يكن لدي مبرر للتفكير فيها. أضف إلى ذلك، أن ضميمي كان يساعدي، لأنني نجحت في اختباري الشفوي الأول دون عقوبات، عندما أقيمت، مثل ماء متدفق، أشعاراً لفراي لويس دي ليون، ورست بالطباشير الملونة على السبورة مسيحاً، بدا وكأنه حي. وقد بلغ رضى لجنة الاختبار حداً، نسيت معه اختباري بالحساب والتاريخ الوطني.

وقد سوّيت المشكلة مع الأخ رئيس، لأنه احتاج في أسبوع الآلام المقدس، إلى بعض الرسوم لدروس علم النبات، فألجأتها له دون أن يرف لي جفن. فلم يتخلّ عن محاضراته لي وحسب، وإنما صار يتسلّى أحياناً، خلال الاستراحات، بتعليمي الإجابات المدعّمة بأفضل الحجج عن الأسئلة التي لم أكن أستطيع الرد عليها، أو عن أسئلة أكثر غرابة، راحت تظهر فيما بعد، كما لو أنها مصادفة، في الاختبارات التالية من سنتي الأولى. ومع ذلك، كلما وجدني ضمن جماعة، يسخر وهو يكاد يموت من الضحك، من أنني الوحيد في الصف الثالث الأساسي الذي يتقدم جيداً في الشأنية. وأنا أرى اليوم أنه كان على صواب. وبخاصة في الإملاء، الذي كان عذابي على امتداد دراستي، وما زال يخيف مصححي أصول أعمالي. وأكثرهم أرحية يعزّون أنفسهم بالاعتقاد بأنها أخطاء مطبعية. جاءت الظمأنية لمخاوفي، بتعيين الرسام والكاتب هكتور روخاس

هيراثلو، أستاذاً للرسم. لا بد أنه كان في حوالي العشرين من عمره. دخل إلى القاعة برفقة الأب الموجه، ودوت تحيته كصفقة باب في قبط الثالثة بعد الظهر. بدا بوسامة وأناقة فنان سينمائي. كان يرتدي سترة من وبر الجمل، ضيقة جداً، وبأزرار مذهبة، وصدرية مبهرجة، وريطة عنق حريرية مطبّعة. ولكن أغرب ما فيه كانت قبعة اللبد التي يعتمرها، بالرغم من الحرارة التي تبلغ ثلاثين درجة في الظل. كان طول قامته يصل حتى ساكف الساب، مما يضطره إلى الانحناء. لكي يرسم على السبورة. وإلى جانبه، كان الأب الموجه يبدو مهجوراً تحت رحمة الرب. تبين منذ دخوله أنه لا يملك منهجاً ولا يطبق صبراً على التعليم. ولكن حين دعايته الحبيث كان يبتئنا متنبهين. مثلما كانت تذهلنا رسوعه الباردة التي يرسمها على السبورة بالطباشير الملونة. لم يستمر في عمله سوى ثلاثة شهور، ولم نعرف السبب قط. إنما يمكن الاستنتاج أن تربيته الدينية لم تكن تتوافق مع النظام الذهني لفرقة يسوع.

لقد اكتسبت الشهرة، منذ بدايتي في المدرسة، بأنني شاعر، أولاً بسبب السهولة التي أحفظ بها عن ظهر قلب، قصائد الكلاسيكيين والرومانسيين الإسبان، في كتب النصوص، وألقيها بصوت جهوري. ثم بعد ذلك بسبب الأهاجي المفضلة التي كنت أكرسها لزملائي في الصف، ونشرت في مجلة المدرسة. وما كنت لأكتبها، أو أنني كنت سأوليها قليلاً من الاهتمام، لو أنني تصورت أنها ستنال مجد الكلمة المطبوعة. الواقع أنها كانت أهاجي لطيفة تتداولها الأيدي على وريقات خفية في قاعات الدرس الموثمة، في الساعة الثانية بعد الظهر. وقد ألقى الأب لويس بوسادا - موجه الصف الثاني - القبض على واحدة منها، فقرأها

وهو متجهج الجبين، ووجه إلى تربيتي قاسياً. ولكنه احتفظ بها في جيبه. عندئذ استدعاني الأب أرتورو ميخيا إلى مكتبه، ليقتصر على نشر الأهاجي المصادرة في مجلة "الشبيبة"، لسان حال تلاميذ المدرسة. وكان ردّ فعلي الفوري فتيلة مجدولة من المفاجأة والحجل والسعادة، جللتها برفض غير مقنع:

- إنها مجرد حقائق مني.

سجل الأب ميخيا ملاحظة من جوابي. ونشر الأشعار بهذا العنوان - "حقائق مني" - وبتوقيع غابيتو، في العدد التالي من المجلة، وبتغريض من ضحايا الأهاجي. وكان عليّ أن أنشر في عشرين متتاليين، مجموعة أخرى، بناء على رغبة زملائي في الفصل. وهكذا، فإن تلك الأشعار الطفولية - شئت ذلك أم لم أشأ - هي عليّ الأدبي الأول.

كان إدمان قراءة كل ما يقع في يدي، يشغل وقت فراغي ووقت الدروس كله تقريباً. وكنت قادراً على إلقاء قصائد كاملة من القائمة الشعبية التي كانت شائعة آنذاك، في كولومبيا، وأجمل أشعار العصر الذهبي والرومانسية الإسبانية. وقد حفظت معظمها من نصوص منهاج المدرسة نفسه. وكانت تلك المعارف غير المتوقعة في مثل سني، تستثير غيظ المعلمين، فكلما وجهوا لي في أحد الدروس سؤالاً صاعقاً، أرد عليهم بشاهد أدبي أو بفكرة مستمدة من الكتب، لم يكونوا في وضع يؤهلهم لتقييمها. وقد قال ذلك الأب ميخيا: "إنه طفل مغرور يكرر أقوالاً" كيلا يقول، لا يطاق. لم أكن مضطراً قط، إلى إجهاد ذاكرتي؛ ذلك أن القصائد وبعض مقاطع النثر الكلاسيكي الجديد، تبقى منطبعة

في ذاكرتي، بعد ثلاث أو أربع قراءات. أول قلم حبر حصلت عليه، تلتته من الأب المؤيد، لأتني ثلوث عليه. دون عشرات، عشرات "الدوائر" السبع والخمسين لغاسبار نونيث دي أرثيم.

كنت أقرأ في أثناء الدروس، وأضع الكتاب مفتوحاً على ركبتي، وبنوفاحة يبدو لي أنني ما كنت لأخبر من عقوبتها، إلا بتواطؤ المعلمين. الأمر الوحيد الذي لم أتمكن من تحقيقه بحيلي محكمة القوافي، هو إعفائي من القداس اليومي، في السابعة صباحاً، وإضافة إلى كتابة حصائتي. كنت أؤدي الغناء المنفرد في الكورال، وأرسم الكاريكاتير الساخر، وألقي القصائد في المناسبات الرسمية، وأشياء كثيرة أخرى خارج الزمان والمكان، بحيث لم يكن هناك من يفهم في أي وقت أدرس دروسي. وقد كان السبب بسيطاً: لم أكن أدرس دروسي.

وسط كل تلك الديناميكية المفرطة، ما زلت لا أفهم حتى الآن، لماذا كان الأساتذة يهتسمون بي إلى ذلك الحد، دون أن يرفعوا أصوات الاستنكار ضد أخطائي الإملائية. على خلاف أمي التي كانت تخفي بعض رسائلها عن أبي لإبقائه حياً، وتعيد لي غيرها مصححة، وترفعها أحياناً بتهينة على بعض التقدم في النحو والاستخدام الجيد للكلمات، ولكن بعد مرور سنتين، لم يكن هناك تحسين يرجى في الأفق، ومازالت اليوم مشكلتي هي نفسها: لا يمكنني أن أفهم أبداً لماذا هناك حروف لا تُنطق، أو لماذا يوجد حرفان مختلفان لهما المنطوق نفسه^(١)، أو غيرها من القواعد غير المجدية.

(١) قدم غارسيا ماركيز ملاحظات هذه حول الالتباس الذي يسببه تشابه منطوق بعض حروف اللغة الإسبانية في مؤتمر لغوي عقد قبل سنوات قليلة في المكسيك. وقد أثارت آنذاك ردود فعل عاصفة ضده.

وكان أن اكتشفتُ ميلاً سيرافقني مدى الحياة: متعة تبادل الحديث مع تلاميذ أكبر مني سناً. وحتى اليوم، في اجتماعات شباب يمكن لهم أن يكونوا أحفاداً لي، أجد نفسي مضطراً إلى بذل الجهد كيلا أشعر بأنني أصغر منهم. وهكذا أقمت صداقة مع اثنين من تلاميذي الذين يكبروني سناً، وصارا فيما بعد، زميلي في مراحل تاريخية من حياتي. أحدهما هو خوان ب. فيرنانديز، ابن أحد مؤسسي ومالك جريدة "الهيرالدو" الثلاثة في بارانكيا، حيث قمت بأول محاولاتي الصحفية، وحيث تكون هو منذ حروفه الأولى، حتى صار المدير العام. والآخر هو إنريكي سكوبيل، ابن مصور كوبي أسطوري في المدينة. وهو نفسه كاتب تحقيقات صحفية، ولكن امتناني تجاهه، لا يرجع كله إلى عملنا المشترك في الصحافة، وإنما لمهنته، كذلك، كديباغ جلود حيوانات متوحشة تُصدّر إلى نصف العالم. وقد أهدى إلي، في واحدة من رحلاتي الأولى، إلى الخارج، جلد قشاح طوله ثلاثة أمتار.

- هذا الجلد يساري ثروة لا بأس بها - قال لي دون دراماتيكية -، ولكنني أنصحك ألا تبنيه ما دمت لا تشعر بأنك مشغول جوعاً.

ومازلت أتساءل حتى الآن، إلى أي حد كان كيكي سكوبيل الحكيم يعرف أنه إنما يقدم لي قيمة أهدية. فقد كان علي في الواقع، أن أبيع مرات كثيرة، في سنوات نحسي المتتالية. ومع ذلك، مازلت أحتفظ به، معفراً وشبه متعيس، لأنني منذ أن حملته في حقيبتي، عبر العالم بأسره، لم ينقصني شتاflu للأكل.

كان الأساتذة الجزويون، الصارمون في الدروس، مختلفين عن ذلك في الاستراحات، حيث كانوا يعلموننا ما لا يقولونه داخل قاعة الدرس.

ويخرجون عن أنفسهم بقول ما كانوا يرغبون في تعليمه حقاً. وأظن أنني أتذكر، إلى الحد الذي تسمح به سني آنذاك، أن ذلك الاختلاف كان ملحوظاً إلى حد كبير، وكان يساعدنا كثيراً. فالأب لويس بوسادا، وهو كاتشاكو شاب ذو عقلية تقدمية، عمل لسنوات طويلة في القطاعات النقابية. كان لديه أرشيف بطاقات يضم كل أنواع المعلومات الموسوعية، ولا سيما حول الكتب والكتاب. وكان الأب إغناثيو سالديار باسكيا جبلياً، واصلت زيارته في كارتاغينا، حتى شيخوخته الطبية في دير سان بيدرو كالفير. وكان الأب إدواردو تورنيت، قد أنجز قدراً لا بأس به من مؤلف ضخم عن تاريخ الأدب الكولومبي. ولم أعد أعرف شيئاً عن المصير الذي آل إليه. أما الأب العجوز مانويل هيدالغو، معلم الغناء، المتقدم في السن، منذ ذلك الحين، فكان يفرض الميول على مزاجه، ويسمح لنفسه بإدخال بعض الموسيقى الرثيئة غير المقررة.

وكانت لي مع الأب هينشاكرون، مدير المدرسة، بعض المحادثات العرضية. وقد احتفظت منها باليقين بأنه ينظر إليّ كشخص راشد. ليس بسبب الموضوعات التي كان يطرحها وحسب، وإنما لتوضيحاته الجريئة. لقد كان له دور حاسم في حياتي، بتحديد مفهوم الفردوس والجحيم، لأنني لم أكن أتوصل إلى المصالحة مع معلومات كتاب الديانة المسيحية، بسبب عوائق جغرافية بسيطة. وخلافاً لتلك المعتقدات الجامدة، أراحتني المدير بأفكاره الجريئة. فالفردوس، بغض النظر عن التعقيدات اللاهوتية، هو حضور الرب. أما الجحيم فهو العكس، طبعاً. ولكنه في مناسبتين اثنتين اعترف لي بمشكلته بأن "هناك في الجحيم نار على كل حال"، ولكنه لم يتوصل إلى توضيح ذلك. ويفضل هذه الدروس في

الاستراخات، أكثر مما هو بفضل الدروس الرسمية، أنهيت السنة، يصدر مدرع بالميداليات.

بدأت إجازتي الأولى إلى سوكري، في الساعة الرابعة من أحد أيام الأحاد، في مرفأ مزين بأكاليل زهور وبالونات ملونة، وساحة متحولة إلى سوق عيد فصيح. ما إن وطأت الياصة، حتى تعلقت بعنقي، بتلقائية ساحقة، فتاة شقراء جميلة جداً، وخففتني بالقبيلات. كانت تلك هي أختي كارمن روسا، ابنة أبي قبل زواجه. وكانت قد جاءت لقضاء بعض الوقت مع عائلتها المجهولة. كما حضر في تلك المناسبة ابن آخر لأبي، هو أبيلاردو، مهنته الخياطة، وقد أقام مشغله في أحد جوانب الساحة الكبرى. وكان معلني في الحياة، في فترة البلوغ.

كانت تسود البيت الجديد المؤثث حديثاً، أجواء عيد، وأخ جديد؛ خافيي، الذي ولد في أيار تحت برج الجوزاء الطيب، وكان خديجاً أيضاً. لم أعلم بمولده حتى وصولي، لأن أبوي كانا مصحمين كما يبدو على تخفيف الولادات السنوية، فسارعت أُمي إلى التوضيح لي بأن ذلك المولود هو ضريبة للقديسة ريتا. واعتزافاً بفضلها في الرخاء الذي دخل البيت، بدت مستعدة شبابها وسعيدة، وأكثر طرباً من أي وقت مضى. وكان أبي يطفو في أجواء طيب المزاج، فالعيادة مزدهنة والصيدلية جيدة التجهيز، ولا سيما في أيام الأحاد التي يأتيه فيها المرضى من الجبال المجاورة. لست أدري إذا ما كان قد عرف يوماً أن ذلك التدفق هو نتيجة شهرته كمداو جيد، وإن كان الريفيون لا يعززون تلك الشهرة إلى فضائل الطب التجانسى وكبرات السكر التي يقدمها إليهم ومائه العجيب، وإنما إلى جودة فنونه كساحر.

كانت سوكرى أفضل مما هي عليه في الذاكرة، بسبب التقليد الشائع في أعياد الميلاد، بانقسام الأهالي إلى حينين كبيرين: موليا في الجنوب، وكونغويو في الشمال. وكانت تقام، فضلاً عن منافسات أخرى، مسابقة عربات رمزية مزينة، تمثل في مباريات فنية، المنافسة التاريخية بين الحيين. وأخيراً، في ليلة الميلاد، يلتقي الجميع في الساحة الرئيسية. ووسط مجادلات كبيرة، يقرر الجمهور، أي الحيين هو الفائز في تلك السنة.

أسهمت كارمن روسا، منذ وصولها، في إضفاء بريق جديد على عيد الفصح. كانت متحضرة ومتأنقة. وصارت سيدة حفلات الرقص، يلحق بها رتل من المتوددين الصاخين، وأمي التي كانت شديدة الغيرة على بناتها، لم تكن كذلك معها. بل على العكس، كانت تسهل لها علاقاتها بالمتوددين الذين أدخلوا إيقاعاً فريداً على جو البيت. لقد قامت بينهما علاقة تواطؤ، لم تقم أمي مثلها قط مع بناتها. أما أبلاردو من جانبه، فقد حلّ شؤون حياته بطريقة أخرى، في مشغل خياطة مؤلف من محل واحد يقسمه حاجز. وكان عمله كخياط، يمضي على ما يرام. ولكن ليس أفضل من اعتداله كفحل، فقد كان يقضي، مع رفيقة جيدة في السرير، وراء الحاجز، وقتاً أطول من الذي يمضيه، وحيداً وضجراً وراء آلة الخياطة.

خطرت لوالدي في تلك الإجازة، أن يبدأ بتجهيزي للأعمال التجارية. "قد تحتاج إليها"، هكذا نبهني. وكان أول ما بدأ بتعليمي إياه، هو تحصيل ديون الصيدلية من بيوت المدينين. وفي أحد تلك الأيام أرسلني لجباية ديون عديدة من "الأورا"، وهو مأخوذ بلا مزاعم أبهة يقوم عند خارج القرية.

أطلت من باب مفتوح قليلاً لغرفة تطل على الشارع، ورأيت إحدى نساء البيت نائمة القيلولة، في فراش هوائي، وبلايس لا تغطي فخذيهما. وقبل أن أتكلم إليها، جلست في السرير، ونظرت إلي نظرة ناعسة، وسألني ماذا أريد. قلت لها إنني أت برسالة من أبي إلى دون إليخيو مولينا، مالك المحل. ولكنها بدلاً من أن تدلني على مكانه، أمرتني بأن أدخل وأغلق مزلاج الباب، وأشارت لي بسباتها إشارة قالت لي بها كل شيء.

- تعال.

ذهبت إليها. وكلما اقتربت كانت أنفاسها المتدفعة قللاً الحجرية مثل فيضان نهر، إلى أن استنطعت إمساكي من ذراعي بيدها اليمنى، وانسلت يدها اليسرى إلى فتحة بنطالي. فأحسست برعب لذيذ.

- أنت إذن ابن دكتور الأقراص المكورة - قالت لي بينما هي تداعبني من داخل البنطال بخمسة أصابع رشيقة، أحسست كما لو أنها عشرة. خلعت عني بنطالي دون أن تتوقف عن الهمس في أذني بكلمات دافئة، ثم خلعت قميص نومها من رأسها واستلقت على ظهرها فوق السرير، وليس عليها سوى سروالها الداخلي المزين بأزهار ملونة. وقالت:- هذا ستخلعه أنت عني، إنه واجبك كرجل. أرخيت تكنته، ولكنني لم أستطع في تعجلي خلعه عنها، فاضطرت إلى مساعدتي بساقيها الممدودتين جيداً وبحركة سيّاح سريعة. ثم رفعتني في الهواء من تحت إبطي، ووضعتني فوقها على طريقة البشر الأكاديمية. وما تبقى قامت به بنفسها، إلى أن مت فوقها وحسب، ملعيطاً في حياء يصل فخذيهما المهرئين.

استراحت بصمت، مائلة قليلاً على جانبيها، وهي تنظر بتمعن إلى عيني، فبادلتها النظرة بوهم أن تبدأ ثانية من جديد، ودون خوف الآن ولوقت أطول. وفجأة قالت لي إنها لن تتقاضى مني البيزوين اللذين تأخذهما مقابل ما تقدمه من خدمة، لأنني لم أكن مستعداً. ثم استلقت على ظهرها وأمضت النظر في وجهي وقالت:
- ولأنك كذلك الأخ العاقل للويس إنريكي، أليس كذلك؟ فأنت لك الصورت نفسه.

وقد راتنتي البراءة لأسألها كيف تعرفه. فضحكت:
- لا تكن أبله. فلدي هنا أحد سراويله الداخلية الذي اضطررت أن أغسله له في المرة الأخيرة.
بدأ لي قولها بمبالغة غير معقولة، بسبب سن أخي. ولكنها حين أرقتني إياه، أدركت أن ما تقوله صحيح. ثم قفزت عارية من السرير برشاقة راقصة باليه، وبينما هي ترتدي ثيابها، أوضحت لي أنني سأجد إليخيو مولينا في الباب التالي من البيت، إلى اليسار، وأخيراً سألتني:

- هذه هي ممارستك الأولى، أليس كذلك؟

طفر قلبي من مكانه، وكذبت عليها:

- لا أبداً. لقد فعلتها سبع مرات من قبل، على الأقل.

فقال لي بإيماء ساخرة:

- عليك أن تطلب من أخيك، على أي حال، أن يعلمك قليلاً.

منحتني ذلك التدشين دفعة حبوية، كانت الإجازة من كانون الثاني حتى شباط. وقد تساءلت كم من المرات علي أن أتدبر بيزوين اثنين لكي

أعزده إليها. أما أخي لويس إنريكي، الخبير المجرب في أمور الجسد، فكان يتفجر ضاحكاً، لأن هناك من هو في سننا، ويضطر إلى الدفع، مقابل شيء. يقوم به اثنان معاً، ويستمتعان معاً.

ضمن روح تقاليد موخانا الإقطاعية، كان سادة الأرض يتمتعون بحق تدشين عذراوات إقطاعياتهم. وبعد وضع ليال من سوء الاستعمال، يتخلون عنهم لمصيرهن. وهكذا كانت تتوفر لنا إمكانية الاختيار بين من يخرج لاصطيادنا في الساحة، بعد الخروج من حفلات الرقص. ومع ذلك، فقد كن في تلك الإجازة يسبين لي الخوف نفسه الذي أشعر به من الهاتف. وأرى مرورهم مثل مرور السحب في الماء. لم أجد لحظة سكون من الغم الذي خلفته في جسدي، مغامرتي الأولى العارضة. ومازلت أعتقد حتى اليوم، بأنه ليس من المبالغة الظن أنها كانت السبب في سوء الحالة المعنوية التي رجعت بها إلى المدرسة، تغلل عيني تماماً غشاوة تلك الحماسة العبقرية التي نظمها الشاعر البوغوتي دون خوسيه مانويل ماروكين، وكانت تصيب المستمعين بس من الجنون منذ المقطع الأول:

الآن، بينما النباح يُكَلِّب، والصباح يُدَيِّك،

الآن بينما تتوقس الدريات عالياً،

وبينما النقيق يُعَمِّر، والزقزقة تُعَصِفِر،

والتردد يصْفُر، والقباع يخْزِر،

والوردي فجراً امتدادات مذهبة يُحَقِّل،

الآن، مثلثة ندى قطرات مثل السكباني تدبج

وأنا أتبرد من الارتجاف مع أن الجمر روحاً،

أجي، لأنهد اطلاقاتي نافذتك تحت.

لم أكن أدخل الفوضى فقط، حيثما حللت، وأنا أرتل مقاطع القصيدة غير المتناهية. وإنما تعلمت كذلك، التكلم بطلاقة أحد السكان المحليين، دون أن أدري أين. وكثيراً ما كان يحدث لي أن أجيب عن أي سؤال، ولكن الجواب يكون في الغالب غريباً ومسلماً. حتى أن المعلمين كانوا يتجنبونني، ولابد أن القلق قد راود أحدهم بشأن سلامتي الذهنية، عندما قدمت إليه في أحد الاختبارات رداً ضائياً، إنما لا يمكن حل رموزه للوهلة الأولى. ولست أتذكر أنه كان ثمة سوء نية في تلك المداعبات السهلة التي تسلي الجميع، وقتعهم.

لفت انتباهي أن المساومة صاروا يتكلمون إلي. كما لو أنهم فقدوا رشدهم. فكنت أجاريهم بالطريقة نفسها. وسبب آخر للذعر هو أنني ابتكرت محرمات ساخرة لتراثيل الكورال الكنسي، باستخدام كلمات وثنية لم يفهمها أحد لحسن الحظ. أخذني المعلم الوصي علي، بالاتفاق مع أبوي، إلى طبيب مختص أجرى لي فحصاً منهكاً، ولكنه مسلّ جداً، لأنه فضلاً عن سرعته الذهنية، كان يتمتع بلطف شخصي ومنهج جارف لا يقاوم. طلب مني أن أقرأ دفاتر تتضمن جملاً منقلوبة بترجيب علي فهمها. فعلت ذلك بحماس شديد، لم يستطع الطبيب معه مقاومة إغراء التدخل، ومشاركتي اللعبة، وقد خطرت لنا اختبارات مستبعدة باللغة الحذق، فدوّن ملاحظات عنها ليضمها إلى منهج فحوصاته القادمة. ولدى الانتهاء من التحقيق الدقيق حول عاداتي، سألتني كم مرة أستمني. فأجبت بأول إجابة خطرت لبالي: لم أتحجراً على عمل ذلك قط. لم يصدقني. ولكنه عَقِبَ، كما لو أنه يفعل ذلك سهواً، بأن الحرف عامل سلبي للصحة الجنسية، وبدا لي عدم تصديقه أقرب إلى التحريض. رأيت

فيه رجلاً رائعاً. وقد رغبت في اللقاء به بعد أن كبرت وصرت صحفياً في جريدة الهيرالدو، لكي يخبرني بالنتائج الخاصة التي استخلصها من فحصه لي. والشيء الوحيد الذي عرفته هو أنه قد انتقل إلى الولايات المتحدة، منذ عدة سنوات. وكان أحد زملائه القدامى أكثر وضوحاً حين قال لي بتأثر شديد، إنه لا يستغرب أبداً أن يكون في إحدى المصحات العقلية في شيكاغو، لأنه كان يراه على الدوام، أسراً حالاً من مرضاء. شخص الحالة على أنها إنهاك عصبي، زادته حرجاً، القراءة بعد الغداء، أوصاني بالراحة المطلقة لمدة ساعتين من أجل عملية الهضم، والقيام بنشاط بدني أكثر عنفاً من دروس الرياضة المفروضة. وما زالت تفاجئني الصرامة التي طبق بها أبوي وأساتذتي أوامره. نظمو قراءاتي، وفي أكثر من مناسبة انتزعوا الكتاب مني عندما وجدوني أقرأ في قاعة الدرس، وأضعا الكتاب تحت المقعد. أعفوني من المواد الصعبة، وأجبروني على ممارسة مزيد من الرياضة البدنية، لعدة ساعات يومياً. وهكذا، بينما يكون الآخرون في الدرس، كنتُ ألعب وحيداً، في باحة كرة السلة، مسجلاً نقاطاً حشواً، ومرتلأ أشعاراً من الذاكرة. انقسم زملائي في الصف، منذ اللحظة الأولى: فكان هناك من فكروا في أنني مجنون، في الواقع، منذ الأزل. ومن ظنوا بأنني أتصنع المجنون لأستمع بحياتي، ومن واصلوا التعامل معي على أساس أن المجانين هم المعلمون. وإلى تلك الفترة، تعود الرواية القائلة إنني طردت من المدرسة، لأنني قذفت معلم الحساب بدواة حجر، بينما هو يكتب قارئاً معادلة من الدرجة الثالثة على السبورة. لحسن الحظ أن أبي تفهم الأمر بصورة بسيطة، وقرر إعادتي إلى البيت، دون أن أنهى العام الدراسي، وعدم هدر مزيد

من الوقت والمال، على عارض صحي، يمكن له ألا يكون أكثر من علة كبدية.

أما بالنسبة إلى أخي ألبيلاردو بالمقابل، فلم تكن هناك مشكلة في الحياة، لا يمكن حلها في الفراش. وبينما كانت أخواتي يوفرن لي علاجاً من الشفقة والحنان، علمني هو الوصفة السحرية، منذ رأني أدخل مشغله:

- ما أنت بحاجة إليه هو ساق جيدة.

وقد أخذ الأمر على محمل الجد، حتى إنه كان يذهب مدة نصف ساعة، إلى صالة البيلاردو على الناصية، ويتركني وراءه المهاجر في مشغل الخياطة، مع صديقات له من كل الأجناس. وفي كل مرة مع واحدة مختلفة. كانت تلك مرحلة تعسف وتجاوزات خلاقة، بدت كأنها تؤكد التشخيص السريري لألبيلاردو، لأنني رجعت في السنة التالية إلى المدرسة، بعقل سليم.

لن أنسى أبداً، السعادة التي استقبلوني بها في مدرسة سان خوسيه، والتقدير الذي أبدته احتفاءً بفعول أقراص دواء أبي المكونة. لم أذهب في هذه المرة للعيش مع الزوجين بالديبلاتكيث، لأن بيتهم لم يعد يتسع لي بعد ميلاد ابنتهما الثاني. وإنما عشت في بيت دون إليسير غارسيا، أحد أشقاء جدتي لأبي، المشهور بطبيعته ونزاهته. لقد عمل في مصرف حتى بلغ سن التقاعد. وكان أكثر ما أثر بي هو شغفه الأبدى باللغة الإنكليزية. لقد درسها طوال حياته، منذ الفجر، وفي الليل حتى ساعة متأخرة، كتمازين مغناة بصوت جميل ولكنة جيدة، إلى حيث سمع له العمر بذلك. وكان يذهب في أيام الأعياد والعطلات إلى المرفأ

لاضطهاد سائحين والتكلم إليهم. وقد توصّل إلى إتقان الإنكليزية بالقدر نفسه الذي كان يتقن به القشتالية على الدوام. ولكن خجله كان يمنعه من التكلم مع أحد من معارفه. ولم يتمكن من ساعده يتكلمها، قط، أبناءه الذكور الثلاثة، وهم جميعهم أكبر مني، ولا ابنته الوحيدة فالينتينيا.

ومن خلال فالينتينيا - التي كانت صديقتي العظيمة والقارئة الملهمة - اكتشفت وجود حركة "زمل وسما"، المؤلفة من جماعة شعراء شباب أخذوا على عاتقهم، تجديد شعر ساحل الكاريبي، مقتدين بمثال باولو نيرودا الحميد. والحقيقة أنهم كانوا نسخة محلية مكرورة لجماعة "حجر وسما"، التي سادت في تلك السنوات، في مقاهي الشعراء في يوغوتيا، وفي الملاحق الأدبية التي يشرف عليها إدواردو كاركاشا، في ظل الشاعر الإسباني خوان رامون خيمينث، بالإصرار الصحي على كنس أوراق شجرة القرن التاسع عشر الميتة. لم يكونوا أكثر من نصف دزينة خارجين لتوهم، من المرافقة، ولكنهم برزوا بقوة في الملاحق الأدبية، على الساحل، إلى حد بدأ يُنظر إليهم على أنهم وعد أدبي كبير.

قائد جماعة "زمل وسما"، ويدعى سيسر أغوسطور دل بايس، كان في حوالي الثانية والعشرين من عمره. ولم يقتصر، في حمل اندفاعه التجديدي إلى الموضوعات والمشاعر، وإنما كذلك إلى الإملاء والقواعد النحوية في قصائده، فكان هرطوقياً في نظر دعاة النقاء اللغوي، وأبلة في نظر الأكاديميين، ومتخبطاً في نظر الكلاسيكيين. والحقيقة مع ذلك، أنه كان، فضلاً عن تضالته المعقدة - مثل نيرودا - رومانسياً لا خلاص له.

أخذتني ابنة عمي فالينتينيا، في يوم أحد، إلى البيت الذي يعيش

فيه سير مع أبيه، في حي سان روكي، أكثر أحياء المدينة قصفاً ولهواً. كان مشين العظام، قائم البشرة ونحيلاً. له أسنان أرنب كبيرة وشعر مشعث على طريقة شعراء زمانه. وهو فوق ذلك، غريب ومفتوح السروال. كان بيته، وهو بيت طبقة متوسطة فقيرة، مترعاً بالكتب دون مجال لكتاب آخر جديد. وكان أبوه رجلاً جدياً وأقرب إلى الكتابة. له مزاج موظف متقاعد، ويبدو معمولاً لميول ابنه القاحلة. وقد احتضنتني أمه بشيء من الأسى، كابن آخر يعاني الداء نفسه الذي طالما جعلها تبكي على ابنها.

كان ذلك البيت، بالنسبة لي، كشفاً عن عالم ربما كنت أحده، وأنا في سن الرابعة عشرة تلك. ولكن دون أن أعرف إلى أي حد. وقد تحولت منذ ذلك اليوم الأول، إلى زائرة الأكثر مواظبة. وكنت أخذ الكثير من وقت الشاعر، حتى إنني مازلت غير قادر إلى الآن، على تفسير كيف أمكن له أن يشجمني. وقد توصلت إلى التفكير في أنه كان يستعملني لممارسة نظرياته الأدبية التي ربما كانت اعتباطية، ولكنها مبهرة، مع محدث مبهور لكنه مسالم. كان يعبرني كتباً لشعراء لم أسمع بأسمائهم من قبل، فأناقشها معه دون أدنى وعي لدى جسارتي. ولا سيما نيرودا الذي حفظت عن ظهر قلب "قصيدته العشرين"^(١) لكي أخرج بعض المعلمين الجيروزيت عن طورهم، وهم الذين لا يتوغلون في مجاهل هذا النوع من الشعر. في تلك الأيام، اصطخيت أجزاء المدينة الثقافية، بسبب قصيدة لميريا ديلمان، عن مدينة كارتاخينا دي إنديانا، شغلت كل أوساط الساحل. وقد بلغت براعة الإلقاء والصوت اللذين قرأ

(١) قصيدة نيرودا قبل الأخيرة في ديوانه المشهور "عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة".

بهما سير دل بايي القصيدة على، جداً جعلني أحفظها عن ظهر قلب، بعد القراءة الثانية.

وفي مرات كثيرة أخرى، لم نستطع النكلم، لأن سير كان يكتب على طريقته، ماشياً عبر الحجرات والممرات، كما لو أنه في عالم آخر. وبعد كل دقيقتين أو ثلاث دقائق، يمر أمامي كالسرنم، ثم يجلس فجأة إلى الآلة الكاتبة، فيكتب بيتاً من الشعر، أو كلمة، أو حتى نقطة أو فاصلة، ثم يعود للمشي من جديد. وكنت أراقبه مبهوراً بانفعال سحاوي، لأنني أكتشف الطريقة الوحيدة والسحرية لكتابة الشعر. هكذا كنت على الدوام، خلال سنواتي في مدرسة سان خوسيه، التي منحتني الركيزة البلاغية لإطلاق شياطين شعري. أما آخر خبر بلغني، عن ذلك الشاعر الذي لا يُنسى، بعد سنتين من ذلك في بوغوتا، فهو برقية من فالينتيننا مؤلفة من كلمتين اثنتين، لم يطاوعها قلبها على التوقيع عليهما: "مات سير".

أول شعور أحسست به في بارانكيا، بغياب أبوي، هو وعيي بحرية الاختيار. كان لي أصدقاؤه أحافظ عليهم خارج المدرسة. منهم أنقارو دل تورو - الذي كان يقني على تصريحاتي في الاستراحات بين الدروس - وقبيلة آل آرثيتا الذين اعتدت الهرب معهم إلى المكتبات والسينما. ذلك أن الشرط الوحيد الذي فرض عليّ في بيت العم إليسير، للحفاظ على مسؤوليتهم عني، هو عدم التأخر في العودة إلى البيت. إلى ما بعد الثامنة ليلاً.

بينما كنت في أحد الأيام، أنتظر سير دل بايي، وأنا أقرأ في ضالة بيته، جاءت للبحث عنه امرأة مفاجئة. اسمها مارتينا فونسيكا.

وهي بيضاء مسكوبة في قالب خلاسية، ذكية ومستقلة. يمكن لها أن تكون عشيقة الشاعر. وقد عشت لساعتين أو ثلاث ساعات، أوج متعة التحدث معها، إلى أن زجج سيسر إلى البيت، وذهبا معاً، دون أن يخبرني إلى أين. ثم أعد أعرف شيئاً عنها حتى يوم أربعاء الرماد، من تلك السنة، عندما خرجت من القديس الأكبر ووجدتها تنتظرتني على أحد مقاعد الحديقة. ظننت أنها وديا، كانت ترتدي ثوباً مطرزاً من الكتان، يبرز جمالها الباهر، وتضع عقداً مبهرجاً، وزهرة نار متوقدة على فتحة ثوبها عند الصدر، ومع ذلك، فإن أكثر ما أقدره الآن في الذاكرة، هو الأسلوب الذي دعيتني به إلى بيتها، دون أدنى ملح من التفكير المسبق، ودون أن تأخذ في الاعتبار علامة الصليب المقدس المرسومة بالرماد، على جبهتي. كان زوجها، وهو قبطان سفينة تمخر نهر مجدلين، يقوم بمهام عمله في رحلة تستمر اثني عشر يوماً. وما الغريب في أن تدعوني زوجته، في يوم سبت ما، لتناول فنجان من الشوكولاته، مع المعجنات؟ لا شيء سوى أن التقليد تكرر طوال بقية تلك السنة، بينما الزوج مسافر في سفينة، ودوماً ما بين الساعة الرابعة والسابعة، وهو وقت العرض السينمائي المخصص للصغار في سينما ريكس، فكان ذلك يشغني، كذريعة في بيت عمي اليسير، حين أكون معها.

كان اختصاصها المهني هو إعداد معلمي المرحلة الابتدائية للترقية، وكانت تستضيف أكثرهم كفاءة في بيتها، في ساعات فراغها. وتقدم لهم الشوكولاته والمعجنات. ولهذا لم يزل أهل الحي الصاحب اهتماماً لتلميذ أيام السبت الجديد، انسيابية ذلك الحب السري الذي تأجج ناراً مجنونة منذ أذار حتى تشرين الثاني، كانت مفاجئة. فبعد أول سبتين،

اعتقدت أنني لن أطيع صبراً على تحمل الرغبة العارمة، في أن أكون معها طوال الوقت.

لقد كنا بمنجى من كل خطر، لأن زوجها كان يعلن عن مجيئه إلى المدينة، بإشارة مشفرة، لكي تعلم هي وحدها، بأن سفينته تدخل الميناء. وهذا ما حدث في السبت الثالث من غرامياتنا، عندما كنا في الفراش، وسُمع جوار السفينة البعيد، فتصلبت هي.

- ابني صامتاً - قالت لي، وانتظرت جوارين آخرين تاليين، ولكنها لم تقفز من السرير، مثلما كنت أنتظر بسبب خوفي، وإنا واصلت دون ميالة وهي تقول: - ما زالت أماناً ثلاث ساعات من الحياة.

كانت هي نفسها قد وصفته لي "زنجي ضخم بطول مترين وشبر، وله قضيب مدفعي". كنتُ على وشك أن أكسر قواعد اللعبة في نوبة غيرة، وبطريقة غير عادية: فقد أردت قتله. ولكن نضجها هو الذي حلّ المسألة. فقد اقتادتنى، منذ ذلك الحين برسن، غير عقوبات الحياة الواقعية، وكأنها تفتاد ذنباً صغيراً بجلد حمل.

رجت أتردي من منين إلى أسوأ في المدرسة. ولم أفسأ أن أعرف شيئاً عن ذلك. ولكن مارتينا تولت بنفسها أمر محنتي المدرسية، فاجأتها صيانية إيمالي لدروسي في سبيل إشباع شيطان ميل لا يقاوم إلى الحياة. وقد قلت لها: "الأمر طبيعي، فلو كان هذا الفراش هو المدرسة، وكنت أنت المعلمة، لكنتُ الأول ليس في صفي وحسب، وإنا في المدرسة كلها". وقد أخذت قولي كمثال صائب. وقالت لي:

- هذا هو بالضبط ما ستفعله.

واندفعت، دون تفضيحات كبيرة، في مهمة إعادة تأهيلي، وفق

توقيت ثابت. كانت محل واجباتي المدرسية وتهيئتي لدروس الأسبوع التالي. بين طفرات السرير وتأنيبات الأم. فإذا لم تكن واجباتي المدرسية على ما يرام، تعاقبني بسبت من الحرمان عن كل ثلاثة أخطاء.. ولكنني لم أنجأ من الخطيئتين قط. وبدأ التبدل يظهر عليّ، في المدرسة.

ومع ذلك، فإن ما علمتني إياه بالممارسة، كان معادلة مؤكدة الصواب لم تفدني، لسوء الحظ، إلا في سنتي الثانية الأخيرة: إذا ما انتبهت إلى دروسي وأنجزت واجباتي بنفسى، دون استسأخها من زملائي، فيأني سأنال تقديراً حسناً. ويمكنني القراءة مثلما أشاء، في ساعات فراغي، ومواصلة حياتي الخاصة دون سهر منك أو مخاوف مفاجئة بلا طائل. بفضل هذه الوصفة السحرية، كنت الأول على دفعتي في سنة ١٩٤٢ تلك، ونلت ميدالية الامتياز وتزيينات شرف من كل نوع. ولكن الامتداح والامتنان وجّها إلى الأطباء الذين أحسنوا صنعاً بعلاجي من الجنون. وقد أدركت فجأة في الحفل، أن هناك جرعة من الصفاقة، في التأثير الذي كنت أرد به، في السنوات السابقة، شاكرًا المذائح التي تكال لي عن استحقاقات لم أكن جديرًا بها. أما في السنة الأخيرة، عندما كنت استحقها عن جدارة، بدا لي عدم تقديم الشكر، عملاً وقوراً. ولكنني رددت من كل قلبي، بقصيدة غييرمو بالينشيا "السيرك" التي ألقيتها كاملة، في الحفل الختامي، وكنت مرغوباً أكثر من مسيحي في مواجهة الأسود.

قررت أن أذهب في إجازة تلك السنة الحسيّدة، لزيارة الجدة ترانكيلينا في أراكاتاكما. ولكنها اضطرت هي إلى المجيء بصورة مستعجلة إلى بارانكيّا لإجراء عملية جراحية بسبب إظلام شبكية

عينها. وقد اكتملت سعادتي برويتها مجدداً، مع سعادتي بمعجم الجد الذي حصلته إليّ، كهدية. لم تلحظ أبداً أنها كانت تفقد بصرها، أو أنها لم تشأ الاعتراف بذلك، إلى أن صارت لا تستطيع التنقل في حجرتها. كانت العملية الجراحية التي أجريت لها في المستشفى الخيري، سريعة، مع تنبؤات طبية. وعندما نزعوا الضمادات، وهي جالسة في السرير، فتحت عيني شبابها الجديد المشعّين، وأشرق وجهها، وهي تلخص سعادتها بكلمة واحدة:

- أرى.

أراد الطبيب الجراح أن يحدد ما الذي تراه أكثر. فمسحت الغرفة بنظرتها الجديدة، وراحت تعدد كل شيء بدقة باهرة. انخسبت أنفاس الطبيب. ولكنني أنا وحدي، من كنت أعرف أن الأشياء التي تعددها الجدة، ليست هي الموجودة أمامها، في غرفة المستشفى؛ وإغا محتويات غرفة نومها في أراكاتاكما، التي تستحضرها من ذاكرتها، بالترتيب الذي هي عليه. ولم تستعد بصرها، بعد ذلك اليوم قط.

أح والدائي على أن أقضي إجازتي معهما، في سوكري. وأن آخذ الجدة معي. كانت قد هرمت أكثر بكثير من سنّها. وكان ذهنها يعضي على غير هدى. وقد شُحذ جمال صوته، وصارت تغني أكثر، وبألحان أكبر من أي وقت آخر. احتضت أمي يافقاتها نظيفة ومرتبّة، كما لو أنها دمية ضخمة. كان واضحاً أنها تعي العالم، ولكنها تنسبه إلى الماضي، وبخاصة برامج المذيع التي توقفت فيها اهتماماً طفولياً. فقد كانت تتعرف على أصوات مختلف المذيعين الذين تحدّ هويتهم، على أنهم أصدقاء، شبابها، في ربواتنا، لأنه لم يدخل مذياع، قط، إلى بيتها

في آراكاتاكا. وكانت تخالف أو تنتقد بعض تعليقات المذيعين، وتناقش معهم البرامج المتنوعة، أو تؤنبهم على أي خطأ نحوي، كما لو أنهم بلحمهم وعظمهم، إلى جوار سريرها، وترفض أن تستبدل ملابسها، طالما لم يلق المذيعون تحية الوداع. وعندما يفعلون، ترد عليهم بحسن تزيينها السليمة:

- طابت ليلتك أيها السيد.

أسرار كثير من الأشياء المفقودة، أو المخبأة، أو المسائل المحظورة، توضحت من خلال منولوجاتها؛ من الذي أخذ، في تابوت، مضخة الماء التي اختفت من البيت في آراكاتاكا، ومن هو في الحقيقة والد ماتيلدي سالونا، الذي أخطأ فيه اخوته وجعلوه يدفع الثمن بالرصاص.

لم تكن سهلة كذلك إجازتي الأولى في سوكري، من دون مارتينا فرنسيسكا، إنما لم يكن هناك أدنى إمكانية لذهابها معي، ومجرد التفكير في أنني لن أراها، طوال شهرين، بدا لي أمراً غير معقول. أما هي فلا. بل على العكس، فعندما طرحت الموضوع، أدركت أنها، كمعادتها، كانت قد سبقتني بثلاث خطوات. فقد قالت لي، دون أسرار أو غموض:

- هذا ما كنت أريد التحدث فيه. الحل الأمثل لكلينا هو أن تذهب للدراسة في مكان آخر، بعد أن صرنا الآن مجترنين، بحاجة إلى تقييد. وهكذا، ستوصل إلى الفتاة، بأن ما بيننا لا يمكن له أن يصير أبداً، أكثر مما كان.

أخذت كلامها بسخرية:

- سأذهب غداً وأعود بعد ثلاثة أشهر، لأبقى معك.

فردت علي بموسيقى نانغو:

- ها، ها، ها، ها، ها.

عندئذ أدركت أنه من السهل، إقناع مارتينا، عندما تقول نعم، ولكن لا يمكن إقناعها مطلقاً، عندما تقول لا. وهكذا تناولت قفازي، مستحسماً بالدموع، وقررت أن أكون شخصاً آخر، في الحياة التي فكرت بها هي لي: مدينة أخرى، مدرسة أخرى، أصدقاء آخرون، وحتى طريقة أخرى في حياتي. لم أكد أفكر في ذلك، حين كان أول ما قلته لأبي بشيء، من الوقار، وسلطة ميدالياتي الكثيرة، هو أنني لن أرجع إلى مدرسة سان خوسيه. ولا إلى مدينة بارانكيا. فقال هو:

- تبارك الرب! فقد كنت أسأل على الدوام، من أين جاءتك رومانسية الدراسة لدى المجزوت.

فتجاوزت أمي هذا التعليق قائلة:

- إذا هو لم يدرس هناك، فلا بد أن يذهب إلى بوغوتا.

ورد أبي على الفور:

- لن يذهب إذن إلى أي مكان، لأنه لا وجود لأسوال تكفي أولئك

الكاتشاكو هناك.

أمر غريب! فسجد فكرة عدم مواصلة الدراسة التي كانت حلم حياتي، بدت لي عندئذ، غير محتملة، حتى إنني لجأت إلى حلم لم يبد لي يوماً أنه يمكن التحقيق. إذ قلت:

- هناك منح دراسية.

فقال أبي:

- أجل، الكثير منها، ولكنها للأغنياء.

كان ذلك صحيحاً جزئياً، ولكن ليس بسبب المعاناة والحسوبة، وإنما لأن الإجراءات صعبة وشروط القبول سيئة التوزيع والانتشار. وبحكم النظام المركزي، فإن كل مستطلع إلى متحة، عليه الذهاب إلى بوغوتا، على بعد ألف كيلومتر، بطلب اجتيازها ثمانية أيام من السفر، ويكلف ما يعادل ثلاثة شهور تقريباً، في مدرسة داخلية جيدة، ويمكن، مع ذلك، أن يكون السفر دون طائل. استشاطت أمني غضباً:

- عندما يفتح أحدنا غطاء آلة المال، يعرف أين يبدأ، ولكنه لا يعرف أين ينتهي.

أضف إلى ذلك، أنه كانت هناك أمور أخرى مزجلة، فلويس إيريكي الذي يصغرني ستة، كان قد سُجِّل في مدرستين محليتين، وهرب من كليتهما، بعد شهور قليلة. ومرغريتا وعائدا تدرسان على ما يرام، في مدرسة ابتدائية للراهبات، ولكنهما بدأتا التفكير في الانتقال إلى مدينة قريبة، وأقل كلفة، من أجل الدراسة الثانوية. أما غوستافو، وليخيا، وريشا، وخيمي فلم يكونوا مستعجلين بعد، ولكنهم يكبرون بإيقاع متوعد. وكان هؤلاء، أو الثلاثة الذين ولدوا فيما بعد، يتعاملون معي، كشخص لا يأتي دائماً، إلا لكي يغادر.

كانت تلك هي سنتي الحاسنة. وكانت أكبر جاذبية، في عربات المتافسة الزينة، من الفتيات المختارات للطفهن وجمالهن، واللواتي كن يرتدين ثياب الملكات، ويلقن أشعاراً تعريضية، تلمح إلى الحرب الرمزية، بين نصفي القرية. وكنت أنا، نصف الغريب، أستمتع بامتياز كوني محايداً. وعلى هذا الأساس كنت أتصرف. ولكنني في تلك السنة، تنازلت أمام توسلات قادة حي كونغوييو، لأكتب لهم أبيات شعر

تلقبها أختي كارمن روسا التي ستكون ملكة إحدى العربات الضخمة. وقد أَرْضِيَهُمْ بكل سعادة، ولكنني بالفت في مهاجمة الخصم، بسبب جهلي قواعد اللعبة. فلم يبق لي مخرج آخر سوى ترقيع تلك الفضيحة بقصيديتي سلام: واحدة ترميمية لجمعية حي كونغوييو، وقصيدة مصالحة لجمعية حي سوليا. شاع خير الحادثة، وهكذا تحول الشاعر شبه المجهول، في البلدة، إلى بطل الاحتفال. وقد قدمني الحدث في المجتمع، وجعلني جديراً بصداقة الفريقين. وامتد ذلك الحين، لم يعد لدي وقت للمساعدة في المسرحيات الطفلية، والأسواق الخيرية، ومهرجانات بانصيب الإحسان، وحتى في كتابة خطاب مرشح للمجلس البلدي.

لويس إيريكي الذي كان يتباهى بعازف الجيتار الملهم الذي صار إليه، علمني عزف التيبلي^(١). وتحولت معه ومع فيلاديلفيو بيلييا إلى ملوك السرينات، براودنا الأمل الكبير بأن ترتدي بعض المحتفى بهن ملابسهن بسرعة، ويفتحن الباب، ويوقظن الجارات، لتواصل الحفلة حتى الفطور. في تلك السنة أثرت الجماعة، حين انضم إليها خوسيه باليشيا، حفيد مالك أراضٍ ثري ومبذر. كان خوسيه موسيقياً فطرياً قادراً أن يعرف على أي آلة موسيقية تنفع بين يديه، له مظهر فتان سينمائي. وكان راقصاً محبوباً، يتمتع بذكاء مبهر ويحفظ مخسود، أكثر مما هو قابل للحسد في الغراميات العابرة.

أما أنا، بالمقابل، فلم أكن أتقن الرقص، ولم أستطع تعلمه، حتى في بيت الأُنْسَات لوسياو، وهن ست أخوات مقعدنات بالولادة، ولكنهن يعطين مع ذلك دروساً في الرقص الجديد، دون أن ينهضن عن كراسيهن

(١) التيبلي (١) triple آلة موسيقية تشبه الجيتار ولكنها أصغر منه حجماً، وأغانيها أكثر حداثة.

الهزاة. أبي الذي لم يكن قط، من النوع غير المبالي بالسمعة، تقرب مني برؤية جديدة. وصرنا، لأول مرة، نكرس ساعات طويلة، لتبادل الحديث. كنا لا يكاد أحدنا يعرف الآخر. الواقع أنني، وأنا أنظر اليوم إلى ذلك، لم أعش مع أبي أكثر مما مجموعته ثلاث سنوات، بما في ذلك ما عشته معهما في أراكاتاكا، وبارانكيّا، وكارتاخينا، وسينيبي، وسوكري. لقد كانت تجربة لطيفة جداً أتاحت لي التعرف عليهما، بصورة أفضل. وقد قالت لي أمي ذلك: "كم هو جيد أنك حسرت صديقاً لأبيك". وبعد أيام من ذلك، بينما هي تعدّ القهوة في المطبخ، قالت لي أيضاً:

– أبوك فخور بك.

وفي اليوم التالي، جاءت ترقظني. على رؤوس أقدامها، وهنت في أذني: "أبوك يخبرني لك مفاجأة". وبالفعل، عندما نزلت لتناول الفطور، قدم هو نفسه لي الخبر. بحضور الجميع وبتفخيم مهيب:

– جهز أشياءك، فسوف تذهب إلى بوغوتا.

الصدمة الأولى كانت إحباطاً كبيراً، فلما كنت أرغب فيه آنذاك، هو البقاء غارقاً في حفلات الصخب الأبدية. ولكن البراءة تغلبت. لم تكن هناك مشكلة بالنسبة لللباس المنطقة الباردة. فلدي والدي، بدلة سوداء من الجوخ، وأخرى من المخمل، ولا تنطبق أي منهما على خصره. وهكذا ذهبنا إلى بيدروليون روساليس، المعروف باسم خياط المعجزات، فأعاد تكييفهما على مقاسي. واشترت لي أمي كذلك، معطفاً من جلد الجمل، كان لسيناتور ميت. وبينما كنت أجريه في البيت، حذرتني أختي ليخيا، سراً – وهي متنبئة بالفطرة – من أن شبح السيناتور يمر ليلاً من بيته، وهو يرتدي المعطف. لم أولها اهتماماً. ولكن كان من الأفضل لي

أن أفعل، لأنني عندما ارتديته في بوغوتا، رأيت نفسي في المرآة، بوجه السيناتور الميت، فرهنته مقابل عشرة بيروا، في محل رهونات مونتري دي بيداد (جبل الرحمة) وتركته يضيع.

كانت الأجواء الأسرية قد تحسنت كثيراً، حتى إنني كنتُ على وشك البكاء عند الوداع. ولكن البرنامج جرى بحذافيره، دون إفراط في العواطف. في الأسبوع الثاني من كانون الثاني، أبحرت من بلدة ماغانغي في "القيطان أرانغو"، وهي السفينة الرئيسية في شركة نافيرا كولومبيانا. بعد أن عشت ليلة كرجل حر. زميلي في القمرة كان ملاكاً بزن متين وعشرين رطلاً، أمرد الجسم بالكامل. له الاسم المفضّل "جاك السفاح". وهو المتبقي الأخير على قيد الحياة، من سلالة رماة السكاكين في السيرك، المتحدرين من آسيا الوسطى. بدا لي للوهلة الأولى، أنه يمكن له أن يختقني بينما أنا نائم. ولكنني انتبهت في الأيام التالية، إلى أنه ليس أكثر مما يبدو عليه وحسب: طفل ضخم يقلب لا يتسع له جسده.

أقيمت حفلة رسمية في الليلة الأولى، بمشاركة فرقة موسيقية، مع وليمة عشاء فخمة. ولكنني هربت إلى السطح، تأملت لأخر مرة. أعضاء العالم الذي أستعد لنسيانه دون ألم، ويكبت على هواي حتى الفجر. وأتجبراً اليوم على القول، إن الشيء الوحيد الذي أرغب في أن أعود طفلاً من أجله، هو الاستمتاع بتلك الرحلة. لقد قمت بها فيما بعد، ذهاباً وإياباً، عدة مرات خلال السنوات الأربع المتبقية لي في الدراسة الثانوية. وستين آخرين في الجامعة. وفي كل مرة، تعلمت من الحياة، أكثر مما تعلمت في المدرسة. وأفضل مما في المدرسة. في الفترات التي

يكون فيها النهر مرتفعاً ومياهه كافية، تستغرق رحلة الصعود خمسة أيام، من بارانكيّا حتى بويرتو سالغار. ومن هناك تُستكمل الرحلة بالفطار إلى بوغوتا، أما في فترات الجفاف، وهي الأكثر متعة في الإبحار، إذا لم يكن المرء مستعجلاً، فيمكن أن تستمر حتى ثلاثة أسابيع.

كان للسفن أسماء سهلة ومباشرة: "أتلانتيكو"، "ميدلين"، "كايتن دي كارو"، "دافيد آرانغو"، وقباطنتها، مثل قباطنة [جوزيف] كونراد، كانوا متسلطين ومن النوع الجيد، يأكلون كاليرابرة، ولا يستطيعون النوم وحيدين، في قمراتهم الملوكية، كانت الرحلات بطيئة ومفاجئة، وكنا نحن المسافرين، نجلس على الشرفات طوال اليوم، لنشاهد القرى المنسية، والتساييح المنبضعة، وأشداقها مفتوحة بانتظار الغراشات غير الحذرة، وأسراب مالك الحزين التي تنطلق محلقة خوفاً، من أثر مخور السفينة، وقطعان بط المستنقعات الداخلية، والأطم التي تغني على الشواطئ، بينما هي تُرَضع صغارها. وخلال الرحلة كلها، يستيقظ المرء مشوشاً من صخب القروء والبيغاوات، وكثيراً ما تقطع القيلولة رائحة مغرزة لبقرة غارقة، ثابتة دون حراك، في خبط الماء النحيل، ومع تسرّ رضة وحيد يجثم على بطنها.

من النادر أن يتعرف أحدنا الآن، على أحد في الطائرات. أما في السفن النهرية، فكان الأمر ينتهي بنا، نحن الطلاب، إلى أن نبدو أسرة واحدة؛ فقد كنا نتفق كل سنة لكي نلتقي معاً، في الرحلة نفسها. وكانت السفينة تعلق أحياناً لمدة تصل إلى خمسة عشر يوماً، في إحدى المصاطب الرملية، ولم يكن أحد منا يشعر بالقلق، لأن الحفلة تتواصل.

وتكفي رسالة من القبطان مهنورة بخاتمه، كعدو، لوصولنا متأخرين إلى المدرسة.

منذ اليوم الأول، لفت انتباهي أصغر أفراد جماعة أسرية كان يعرف الباندونيون^(١) كما لو أنه في الأحلام، وهو يتجول طوال أيام كاملة، على سطح الدرجة الأولى. لم أستطع تحمل الحسد، ذلك أنني منذ أن سمعت أول عازفي الأكورديونات، من جماعة فرانثيسكو الإنسان في أعياد العشرين من تموز في آراكاتكا، سمعتُ جاعداً من أجل أن يشتري لي جدي أكورديوناً. ولكن جدتي اعترضت، كعادتها المرائية الدائسة، بأن الأكورديون هو آلة بلها، وبعد ثلاثين سنة من ذلك، ظننتُ أنني تعرّكت في باريس، على عازف الأكورديون المتألق في السفينة، في مؤتمر عالمي لأطباء الأعصاب. كان الزمن قد فعل فعله: فقد أطلق حبة بوهيمية، وكبرت ملاپسه على مقاسه حوالي عشرين، ولكن ذكرى براعته، كانت لا تزال حية، بحيث لا يمكنني أن أخطئ. ومع ذلك، ما كان يمكن لجوابه أن يكون أكثر فظاظة، حين سألته، دون أن أقدم نفسي:

- كيف حال الباندونيون؟

فأجابني متفاجئاً:

- لا أدري عمّ تتكلم.

أحسست بأنني أسفُ التراب، وقدمت إليه تفسيراتي البائسة بأنني أخطأت، وظننته طالباً كان يعرف الباندونيون في السفينة "دافيد آرانغو"، في أوائل شهر كانون الثاني سنة ٤٤. عندئذٍ أشرق متألقاً بالذكرى. كان ذلك الرجل هو الكولومبي سالون حكيم، أحد أعظم أطباء

(١) الباندونيون bandoneon آلة موسيقية من نوع الأكورديون.

الأعصاب في العالم. وكانت خيبة الأمل في أنه تحول من عزف الكورديون، إلى الهندسة الطبية.

وقد لفت نظري مسافر آخر، بسبب انزوانه. كان شاباً مريضاً، ذا شعر أشقر، ضارب إلى الحمرة، يضع نظارة جسير بصر. وله صلعة مبكرة. بدا لي، الصورة النموذجية للسائح الكاشاكو. احتكر لنفسه، منذ اليوم الأول، أكثر المقاعد راحة، ووضع عدة أكياس من الكتب الجديدة على طاولة صغيرة، وصار يقرأ دون توقف، منذ الصباح إلى أن تشد اهتمامه حفلات الغناء والصحب الليلية. وكان يظهر كل يوم في قاعة الطعام، بقميص شاطئ مختلف ومزين بالأزهار، فيتناول فطوره، وغداً، وعشاءه ويواصل القراءة، وجيداً على المنظمة الأكثر انزواً، لا أظن أنه تبادل التحية مع أحد. وقد عمّدتَه بيني وبين نفسي، بلفظ "القارئ النهم".

لم أستطع مقاومة إغراء التلصص على كتبه. كانت في معظمها مراجع غسيرة الهضم، في القانون العام. يقرأها في الصباح، وهو يؤشر تحت السطور، ويدون ملاحظات في الهوامش. ومع برودة المساء، يقرأ روايات، منها رواية أصابني بالذهول، "القرين" لدوستوفسكي، إذ كنت قد حاولت سرقتها من إحدى مكتبات بارانكينا، ولم أستطع. وكنت أتلهف بجنون لقراءتها، حتى إنني أردت طلبها منه، ولكنني لم أجروا على ذلك. وفي أحد تلك الأيام، ظهر ومعه رواية مولان الكبير، ولم أكن قد سمعت بها، ولكنني ضمنتها بعد وقت قصير من ذلك، إلى قائمة الأعمال البارعة المفضلة لدي. أما أنا بالمقابل، فلم أكن أحمل سوى كتب قراءتها من قبل، ولا يمكن إعادة قراءتها: جيرومين للأب

كولوما، التي لم أنه قراءتها قط؛ والدوامة، لحوسبيه إوستاسير وبغيرا؛ ومن جبال أبنون إلى جبال الأنديز، لإدموندو دي أميس؛ ومعجم الجدل الذي كنت أقرأ فيه مقاطع متفرقة طوال ساعات. بينما لم يكن لدى القارئ النهم، من جهته، ما يكفي من الوقت، لقراءة ما لديه، وما أريد قوله، ولم أقله، هو أنني كنت مستعداً لتقديم أي شيء، مقابل أن أكون هو.

المسافر الثالث هو جاك السفاح، طبعاً، زميلي في القمرة الذي كان يتكلم، وهو نائم، بلغة همجية، طوال ساعات كاملة، وكانت لمداخلته تلك إيقاع مترنم، يضيئ خلفية جديدة على قراءاتي عند الفجر. قال لي إنه لا يعني ذلك، ولا يعرف ما هي اللغة التي يحلم بها، لأنه في طفولته، كان يتفاهم مع البهلوانات في سيركه، بست لغات أسبوية، ولكنه فقدوها كلها بعدما توفيت أمه. ولم تبقى له سوى اللغة البولونية، وهي لغته الأصلية. ولكن يمكن الإفراز بأنها ليست اللغة التي يتكلم بها وهو نائم. لا أتذكر كانتاً أكثر منه مودة، وهو يزيت سكاكينه المشرومة، ويجريها على لسانه الوردي.

كانت مشكلته الوحيدة هي يومه الأول في قاعة الطعام. عندما قال للتدل إنه لن يستطيع العيش حتى نهاية الرحلة، ما لم يقدموا إليه وجبة تعادل حصّة أربعة أشخاص. وقد أوضح له مساعد الريان أنهم سيفعلون ذلك، إذا هو دفع ثمناً إضافياً مع تخفيض خاص. فاحتج بأنه قد سافر في كل بحار العالم، وكان الجميع يعترفون بحقه الإنساني في عدم البقاء، جائعاً، ورُكعت القضية إلى الريان الذي قرر، على الطريقة الكولومبية جداً، أن تقدم له حصتان، وأن يطلق الطهاة يدهم قليلاً

لشوفر له حصتان أخريان سهواً. وساعد هو نفسه أيضاً بتناول لقيمات
بشركته من أطياف زملائه على المائدة، وبعض الجيران ضعيفي الشهية،
من كانوا يستمتعون بدعاباته. لا يد للمرء من أن يكون هناك ليصدق
ذلك.

لم أكن أدري ما أفعله بنفسى، إلى أن صعدت إلى السفينة في
لافلوريا، جماعة من الطلاب الذين راحوا يشكلون فرقاً ثلاثية ورباعية
في الليل، ويغنون سيرنادات شجية وأغنيات برليرو غرامية. وعندما
اكتشفت أنهم بحاجة إلى صوت صاوح، عرضت عليهم أن أؤديه أنا.
وصرت أقرن معهم بعد الظهر، ونغني حتى الفجر. وهكذا وجدت لليل
ساعات فراغي، علاجاً مرتبطاً بالقلب لا يمكن لمن لا يغني أن يتخيل ما
تعنيه متعة الغناء.

في ليلة مكتملة القمر، أيقظنا نواح مؤثر يأتي من الضفة. فأصدر
القبطان كليساكو كوندي ألبينو، أحد أعظم الربابة، أمره بالبحث
بالمصايح الكشافاة، عن مصدر ذلك النواح. فكانت أنشأ أطم عالقة
بأغصان شجرة ساقطة. فألقى بحارة السفينة البخارية بأنفسهم إلى الماء،
وربطوها برافعة رحوية، وتمكنوا من تخليصها. لقد كانت كائناً رائعاً
ومؤثراً، تجمع بين المرأة والبقرة. طولها حوالي أربعة أمتار، لها جلد
داكن ولين، وصدرها ذو الثديين الكبيرين، أشبه بصدر أم ثورانية. وقد
سمعت الكابتن كوندي ألبينو يقول إن العالم سينتهي إذا ما واصلوا قتل
حيوانات النهر. وقد منع إطلاق النار من سفينته. وقال صارخاً:
- من يرد أن يقتل أحداً، فليذهب ويقتله في بيته. وليس في
سفينتي.

إنني أتذكر يوم التاسع عشر من كانون الثاني ١٩٦١، بعد ست
عشرة سنة من ذلك، يوم نحس، لأن صديقاً اتصل بي، وأنا في
مكسيكو، ليخبرني بأن السفينة البخارية "دافيد آرأنغو" قد احترقت
واستحالت رماداً في مرفأ ماناغواي. أغلقت سماعة الهاتف، براودني
شعور رهيب بأن شيابي قد انتهى في ذلك اليوم، وبأن القليل المتبقي لنا
من الحنين إلى نهرنا قد ذهب إلى الجحيم. نهر مجدلين اليوم، هو نهر
ميت، يجاهد العقدة وحيواناته المنقرضة. وأعمال الترميم التي طالما
تحدثت عنها الحكومات المتتالية، لم يتحقق منها شيء، فهي تتطلب
غرس ستين مليون شجرة، في تسعين بالمئة من أراض تعود إلى ملكيات
خاصة، يتوجب على مالكيها، أن يتخلوا عن تسعين بالمئة من دخلهم،
حياً بالوطن وحسب.

كل رحلة كانت تخلف لدينا قدراً كبيراً من التعلم الحياتي، يضعنا
على ارتباط بصورة عابرة، إنما لا تُنسى، بالقرى التي نمر منها، حيث
ارتبط نصير بعضنا بها إلى الأبد. فهناك طالب طب مشهور دخل، دون
دعوة، إلى حفل زفاف راقص، ورقص دون إذن، مع أجمل امرأة في
الحفلة، فقتله الزوج برصاصة. وآخر تزوج وهو ثمل، في سكرة ملحمية،
من أول نشأة أعجيبته في بويرتو بيريو. وما زال سعيداً منعها ومع
أبنائهما التسعة هناك. وخوسيه بالينشيا، صديقنا الذي من سوكري،
كسب بقرة في مسابقة مهرجان شعبي في تينيريفي، وباعها هناك
بالذات، مقابل خمسين بيزو، وهي ثروة في ذلك الزمن، وفي حي
التسامح الهائل في بارانكا بيرميخا، عاصمة البترول، فوجئنا بأنفسنا
نغني مع أوركسترا أحد مواخير أنخل كاسيخ بالينشيا، ابن عم خوسيه،

الذي كان قد اختلى من سوكري، دون أن يخلف أثراً منذ السنة السابقة. أما حساب ما فعلناه، فتكفلت به الأوركسترا حتى الفجر.

الذكرى غير اللطيفة، هي ما جرى لنا في حانة مكهفزة في بويرتو بيريو، حيث أخرجتنا الشرطة بالضرب بالهروى، وكنا أربعة من ركاب السفينة، دون تقديم أي تفسير لنا، أو سماع أي تفسير منا. واعتقلونا بتهمة أننا اغتصبنا إحدى التلميذات، وعندما وصلنا إلى مركز الشرطة، كانوا قد احتجزوا وراء القضبان المذنبين الحقيقيين، دون خش أحد منهم. وهم بعض الزعران المحليين، وليست لهم أي علاقة بسفينتنا.

في محطاتنا الأخيرة، بويرتو سالاجار، كان علينا أن نزل إلى البر، في الساعة الخامسة صباحاً، مرتدين ملابس مناسبة للمناطق المرتفعة. وهكذا تبدت هيئات الرجال بالبدلات السوداء، مع الصدر، والقبعة لها شكل الفطر، والمعاطف معلقة بأذرعهم، ما بين تقاطر الضفادع ونبانة النهر المترع بخيوانات ميتة. وعندما حان موعد النزول من السفينة، وقعت لي مفاجأة غريبة. فقد كان أحد الأصدقاء، قد أقنع أمي في اللحظة الأخيرة، بأن تعد لي بقجة تضم شبكة من ألياف نبات البيت، ودثراً من الصوف، ومبرلة صغيرة للطوارئ، وأن تلف كل ذلك بحصيرة من الحلفاء، وتربطه بصورة متصالية بحبال تعليق أرجوحة النوم. لم يستطع زملائي الموسيقيون كبح ضحكهم وهم يرون معي، مثل تلك الأمتعة في مهد الحضارة. وأقدم أكثرهم جرأة، على ما لم يكن بمقدوري الإقدام عليه: ألقى بالحزمة إلى الماء. وكانت رؤياي الأخيرة من تلك الرحلة التي لا تُنسى، هي البقجة العائدة إلى موطنها، مشهادية مع التيار.

كان قطار بويرتو سالاجار يصعد، كما لو أنه يحبو على أنفاز الصخر، خلال الساعات الأربع الأولى. وفي المقاطع الأكثر انتصاباً، يتزلق متراجعاً ليستجمع قواه ويحاول الصعود من جديد، مطلقاً ليهات تنين، وكان لا يد للمسافرين، في بعض الأحيان، من النزول لتخفيف وزن الحمولة، والسير على الأقدام حتى الحافة الجبلية التالية. كانت قرى الطريق كثيفة ومتجمدة، لا ينتظرنا في محطاتها المقفرة سوى البانعات الأبديات اللواتي يعرضن علينا من نوافذ العربات، دجاجات سمينة وصغراء، مطهية بكاملها، وبظاظا مثلجة لها طعم المجد. هناك أحسستُ أول مرة، بحالة جنسية مجهولة لذي وغير مرتبة: البرد. عند الغروب، انفتحت أمامنا فجأة، لحسن الحظ، السهول الفسيحة الممتدة حتى الأفق، خضراء وجميلة، مثل بحر مساوي. لصار العالم ساكناً ومقتضباً، وتحرك جو القطار إلى آخر.

كنت قد نسيت تماماً القارئ النهم، عندما ظهر فجأة وجلس قبالي، يظهر المتعجل. كان أمراً لا يصدق، فقد أعجبته أغنية بوليرو، غنيهاً في ليالي السفينة، فطلب مني أن أدون له كلماتها. لم أكتف بعمل ذلك، وإنما علّمته كيف يغنيها أيضاً، فاجأني حسن سماعه وبريق صوته، عندما غناها وحيداً، مضبوطة وجيدة، منذ المرة الأولى، وهتف مشرقاً:

- تلك المرأة ستحوت، عندما تسمعها!

وهكذا فهمت لهفتة، فسمت أن سمع البوليرو، ونحن نغنيه في السفينة، أحس بأن ذلك اللحن سيكون إلهاماً للخطبة التي ودعته في بوغوتا، قبل ثلاثة شهور. وهي تنتظر في ذلك المساء، في المحطة. لقد سمع الأغنية مرتين أو ثلاث مرات. وكان قادراً على تركيب أجزائها،

ولكنه حين رأيته أجلس وجيداً على المقعد في القطار، قرر أن يطلب مني ذلك الجعيل. وقد تجرأت أنا عندئذ، على القول له، بنية مبيتة، ودون أي مناسبة أو مقدمات، إنني فوجئت كثيراً حين رأيت على طاولته، كتاباً من الصعب العثور عليه، أما مفاجأته فكانت حقيقية:

- أي كتاب هو؟

- القرين.

ضحك راضياً، وقال:

- لم انتبه من قراءته بعد. ولكنه من أغرب ما وقع بين يدي.

لم يتجاوز ذلك الحد، شكرني بكل التدرجات الصوتية على أغنية البوليرو، وودعني بالشدة، بقوة على يدي.

بدأ الظلام يخيم، عندما أخذ القطار يخفف من سرعته، مرّ من غير مترع بالحردوات الصدنة، ورسا عند رصيف مظلم. أمسكت صندوق أمنعتني من لسان الجر، وسحبته نحو الشارع، قبل أن يصدني حشد الناس. وكنت على وشك الوصول، عندما صرخ أحدهم:

- أيها الشاب، أيها الشاب!

التفتُ لأنظر، مثلما فعل عدة شبان، وآخرون أقل شباناً كانوا يسرعون مثلي، ومرّ عندئذ القارئ النهم إلى جانبي، وأعطاني كتاباً دون أن يتوقف.

- فليكن هنيئاً لك - صرخ بذلك، وضاع في الزحام.

كان الكتاب هو "القرين"، وكنت مذهولاً إلى حد لم أنتبه معه إلى ما جرى لي، وضعت الكتاب في جيب المعطف، وصدفتني ريح الغسق الجليدية عندما خرجت من المحطة، تركت الصندوق على الرصيف وأنا

على وشك السقوط منهوكة، وجلستُ عليه لألتقط الأنفاس التي افتقدتها. لم تكن هناك نفس واحدة في الشوارع، والليل الذي تمكنت من رؤيته، هو ناصية جادة مشؤومة وجليدية تحت رذاذ مطر خفيف مختلط بهباب الفحم، على ارتفاع ألفين وأربعمئة متر عن سطح البحر، وسط هراء قطبي يعوق التنفس.

انتظرتُ، مبتأناً من البرد، ما لا يقل عن نصف ساعة، كان لا بد لشخص من أن يأتي، ذلك أن أبي أرسل برقية مستعجلة إلى دون إليسير توريس آرأنغو، وهو قريب له، ليكون في انتظارني. ولكن ما كان يثلثني عندئذ، ليس مجيء، أو عدم مجيء أحد، وإنما الخوف من وجودي جالساً، على صندوق كأنه القبر، دون أن يكون هناك من أعرفه في الجانب الآخر من العالم. وفجأة نزل من سيارة تكسي، رجل وجيه، يحمل مظلة من الحرير، ويرتدي معطفاً من صوف الجمال، يصل حتى كاحليه. أدركت أنه من يبحث عني، بالرغم من أنه لم ينظر إليّ. ومرّ بي عَرَضاً، فلم أجد المرأة للإشارة له بأي إيماءة. دخل راكضاً إلى المحطة، ثم عاد للخروج، بعد دقائق، دون أي باورة أمل. وأخيراً اكتشف وجودي. وأشار إليّ بإصبعه السبابة:

- أنت غابيتو، أليس كذلك؟

فأجبت من روحي:

- تقريباً.

كانت بوغوتا، آنذاك، مدينة نائية وكتيبة، بهطل فيها رذاذ مطر مؤرق، منذ مطلع القرن السادس عشر. لفت انتباهي وجود كثير من الرجال المستعجلين في الشارع، يلبسون مثلما ألبس، منذ وصولي، بدلات من الجوخ الأسود وقبعات قاسية. ولكن لا تظهر بالمقابل، امرأة واحدة تبعث العزاء في النفس. كان محظوراً عليهن الدخول إلى المقاهي الكالحة في المركز التجاري، مثلما هي حال القساوسة الذين يرتدون ملابس الكهنوت، والعسكريين الذين هم بالزي الرسمي. وكان يُعلق، في عربات الترام والمراحيض العامة، إعلان كتيب: "إذا كنت لا تخشى الله، فاخشِ السفلس".

أذهلتني الأحصنة الضخمة التي تجر عربات البيرة، وشرر الألعاب النارية الذي يطلقه الترام عندما ينعطف في الزوايا، وعرقلة حركة المرور، من أجل فتح الطريق للجنازات التي تتقدم مشياً على الأقدام، تحت رذاذ المطر. لقد كانت المظهر الأكثر كآبة، في عربات فاخرة تجرها خيول مكسوة بالمخمل، مع قنزعة من الريش الأسود، تحمل جثث أناس من أسر راقية، تتصرف مثل مخترعي الموت. أمام مدخل كنيسة لاس نيفيس، رأيت من سيارة التاكسي، أول امرأة في الشارع، كانت

ممشوقة القوام ورشيقة، ذات مهابة كبيرة، كأنها ملكة في حداد. ولكنني بقيت إلى الأبد، بنصف الوهم، لأنها كانت تغطي وجهها بخمار لا يمكن اختراقه.

لقد كان انهياراً معنوياً كاملاً. فالبيت الذي أمضيت فيه تلك الليلة، كان كبيراً ومرحاً. ولكنه بدا لي شبيهاً، بسبب حديقته الكالحة ذات الورود القاتقة، والبرد الذي يطحن العظام. إنه بيت أسرة توريس غامبوا، أقرباء أبي ومعارفي. ولكنني رأيتهم غرباء. أثناء العشاء، وهم متلفعون بأرواب النوم. وكانت مفاجأتي الكبرى، عندما انزلتُ تحت ملائد السرير، وأطلقت صرخة رعب، لأنني أحسست بأنها مبللة بسائل متجمد. فأوضحوا لي أنها تبدو كذلك، في المرة الأولى، وأنتي سأخذ بالاعتناء شيئاً فشيئاً، على غرابية المناخ. وقد بقيت ساعات طويلة بصمت، قبل أن أتوصل إلى إغفاءة غير سعيدة.

تلك هي الحالة المعنوية التي كنتُ عليها، بعد أربعة أيام من وصولي، بينما أنا أمشي بكل سرعة، في مواجهة البرد ورذاذ المطر، نحو وزارة التربية، حيث سيفتح التسجيل للمسابقة الوطنية للمنتخب الدراسي. كان صف المنتظرين يبدأ من الطابق الثالث في الوزارة، أمام باب مكتب التسجيل بالذات، وينزل متلوياً على السلالم، حتى المدخل الرئيسي. لقد كان مشهداً يمزق القلب. وعندما انقطع المطر، في حوالي العاشرة صباحاً، تطاول الصف، أكثر من كمادرتين أخريين، في جادة خيمينث دي كيسادا. وكان لا يزال هناك متقدمون آخرون يلوذون بمداخل العمارات. بدا لي أنه من المستحيل الحصول على شيء، في ذلك التذافع للغز.

بعد منتصف النهار بقليل، أحسست بطرقتين خفيفتين على كتفي. وكان قارئ السفينة النهم الذي تعرف علي، بين آخر الواقفين في الصف. ولكنني تكلفت جهداً في التعرف عليه. بقية الفطر التي يعتمرها، وملابس الكاشاكو المأقبة، وبدا هو مستغرباً أيضاً، عندما سألتني:

- أي لعة تفعلها هنا؟

فأخبرته:

- يا للأمر الغريب - قال وهو يكاد يموت من الضحك، وأضاف:- تعال معي. وأخذني من ذراعي باتجاه الوزارة. عندئذ عرفت أنه الدكتور أدولفو غوميث تامارا، المدير الوطني للمنتخب المدرسية في وزارة التربية.

كانت المصادفة الأقل احتمالاً، وواحدة من أكثر المصادفات توفيقاً في حياتي. وبمداعية، من أكثر دعايات السلالة الطلابية صفاء، قدمني غوميث تامارا إلى مساعديه، على أنني أكثر مغني البوليرو الرومانسي إلهاماً. قدموا لي قهوة وسجلوني دون مزيد من الإجراءات. ولكن ليس دون أن ينبهوني، قبل ذلك، إلى أنهم لا يرمون بعملهم إلى تجاوز اللوائح. وإنما يدفعون أتاوة تلك المصادفة. أخبروني أن الامتحان العام سيكون يوم الاثنين التالي، في مدرسة سان بارتولومي. وكانوا يقدرون أن هناك ألف متقدم من كل أنحاء البلاد، إلى حوالي ثلاثمئة وخمسين منحة. وهذا يعني أن المعركة ستكون طويلة وشاقة؛ وربما ضربة قاضية لأحلامي. المقبولون المحظوظون سيعرفون النتائج بعد أسبوع، ومعها المعلومات عن المدرسة التي سيرسلون إليها. كان ذلك أمراً جديداً وخرجاً بالنسبة لي. إذ يمكن لهم أن يرسلوني إلى ميدلين أو بيتشادا. وأوضحوا

لي أن هذا الفرز الجغرافي، بالفرعة، إنما أقرّ لتنشيط الحركة الثقافية بين مختلف المناطق. وعندما انتهت الإجراءات، شدّ تامارا على يدي بالحنان نفسه الذي شكرني به على أغنية البولير، وقال لي:

- كن مثيلاً، مصيرك الآن بين يديك.

ولدى خروجي من الوزارة، عرض عليّ رجل له مظهر كهنوتي، أن يحصل لي على منحة مؤكدة، دون التقدم إلى امتحان القبول؛ وفي المدرسة التي أرغب فيها، مقابل دفع خمسين بيزو. كان المبلغ ثروة بالنسبة لي. ولكنني أظن أنني كنت سأدفعه، لو أنني أملكه، كي أنجنب رعب الامتحان. وبعد بضعة أيام، تعرّفتُ على ذلك المحتال، في صورة منشورة في الجريدة، باعتباره زعيم عصاية نصايين يشكرون بزي القساوسة، للقيام بصفقات غير مشروعة، في الأجهزة الرسمية.

لم أفرغ صندوق أمتعتي، ليقيني بأنهم سوف يرملونني إلى أي مكان. وكان تشاومي راسخاً إلى حد أنني ذهبت، عشية الامتحان، مع موسيقيي السفينة، إلى حانة بانسة في حي لاس كروثيس الوعر. وكنا نغني مقابل الشراب، بسعر أغنية لكل كأس من التشيتشا، ذلك الشراب الرخيص من الفرة المخمرة، الذي يصفّيه السكبيرون الدواقة بالبارود. وهكذا وصلتُ متأخراً، إلى الامتحان، ورأسي ينضّ من الألم، دون أن أدري أين كنت، ولا حتى من الذي أوصّلني إلى البيت، في الليلة السابقة. ولكنهم استقبلوني بدافع الشفقة، في صالة فسيحة ومزدحمة بالمتقدمين. وكان إلقاء نظرة عصفور سريعة على قائمة الأسئلة، كافياً لأن أدرك أنني مهزوم مسبقاً، لا محالة. ومن أجل إلهاء المراقبين فقط، شغلت نفسي بأسئلة العلوم الاجتماعية. وقد بدا لي أنها

الأقلّ قسوة. وفجأة أحسنت بأن هالة إلهام تتلبسني، وتتيح لي ارتجال إجابات معقولة، ورميات إعجازية موفقة. باستثناء أسئلة الرياضيات، التي لم تنصّع لي كما يشاء الرب. أما امتحان الرسم الذي أنجزته بسرعة، إنما بصورة جيدة، فكان مصدر راحتي. وقد قال لي زملائي الموسيقيون: "لا بد أنها معجزة شراب التشيتشا". أنهيت الامتحان على أي حال، وأنا في حالة استسلام نهائي، مع التصميم على كتابة رسالة إلى أبوي، حول الحقوق والأسباب، كيلا أعود إلى البيت.

كنت بواجب المراجعة، لمعرفة النتائج، بعد انقضاء أسبوع، ولا بد أن الوظيفة قد تعرّفت على إشارة ما في إخبارتي، لأنها اقتادتني، دون مسوغ، إلى حيث مديرها. وجدته رائق المزاج، يرتدي قميصاً قصير الأكمام، ويضع حمالتي سروال حمراوين مبهرجتين. راجع درجات امتحاني باهتمام احترافي، تردد مرة أو مرتين، ثم زفر أخيراً، وقال لنفسه:

- ليس سيئاً. اللهم إلا في الرياضيات. ولكنك نجوت، بشعرة، بفضل الدرجات الخمس في الرسم.

دفع نفسه إلى النراء، في الكرسي ذي النوابط، وسألني عن المدرسة التي فكرتُ فيها.

كانت تلك إحدى لحظات رعيي التاريخية. ولكنني لم أتردد:

- مدرسة سان بارتولومي، هنا في بوغوتا.

فوضع راحته على كدسة أوراق موضوعة على مكتبه.

- كل هذه هي رسائل من الوزن الثقيل، توصي بأناء أو أقرباء أو أصدقاء، لفرزهم إلى مدارس هنا، في العاصمة - قال ذلك، ثم انتبه

إلى أنه ما كان عليه أن يقله، فواصل: - إذا ما سمحت لي فسوف أساعدك. أفضل ما يتأسسك هي المدرسة الوطنية في تيباكيرا، على بُعد ساعة في القطار.

الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه عن تلك المدينة التاريخية، هو أن فيها مناجم ملح. وقد أوضح لي غوميث تامارا أن مدرستها تعود إلى العهد الاستعماري. وقد جرى الاستيلاء عليها، من جمعية دينية، في عملية إصلاح ليبرالي حديثة. وفيها الآن، قائمة بمحاذاة من الأساتذة الشبان ذوي العقلية الحديثة. فكرت في أن الواجب يفرض علي، أن أخرج من شكوكه، فقلت له منبهاً:

- ولكن والذي من المحافظين.

فقال:

- لا تأخذ الأمر بهذه الجدية. فما أعنيه بليبرالي، هو سعة أفق التفكير.

وسرعان ما استعاد أسلوبه الخاص، وقرر أن مصيري سيكون في ذلك الدير القديم الذي يرجع إلى القرن السابع عشر، والمتحول إلى مدرسة زنادقة، في قبلا حاملة، لا وجود فيها لأي وسيلة لهو سوى الدراسة. كان الدير ينتصب، بالفعل، غير عابئ بالأبدية. لقد كانت هناك، في مراحله الأولى، لوحة محفورة في الحجر تقول: رأس الحكمة مخافة الله. ولكن هذا الشعار، استبدل، وحل محله الشعار الوطني الكولومبي، عندما أمت حكومة الرئيس ألفونسو لوبيث بوماريخو التعليم، سنة ١٩٣٦. وهذا كنت في دهليز المدخل، وبينما أنا أستعيد أنفاسي من الاختناق بشقل الصندوق، أحسست بالانقباض، حين رأيت

الفناء الصغير ذا الأعمدة الكولوننيالية المنحوتة من الحجر الصلد، والشرفات الخشبية المطلية بالأخضر، وعلى حوافها أضواء كثيرة. كل شيء كان يبدو خاضعاً لنظام طائفة دينية معينة، ويلاحظ في كل شيء، بصورة واضحة، أنه لم يعرف تصاميم يدي امرأة منذ أكثر من ثلاثمائة سنة. داهمني رعب أنني سأعيش السنوات الأربع الحاسمة من مراهقتي، في ذلك الزمن الراكن، وأنا الذي ترعرعت على سوء تربية فضاءات منطقة الكاريبي التي لا تخضع لقانون.

ما زلت حتى اليوم، لا أصدق أن طابقي، حول فناء ضام، وبناء مرتجلاً آخر، من الحجر في قطعة الأرض القصوى، يمكن لها أن تتسع لمنزل ومكتب المدير، والسكرتيريا الإدارية، والطبخ، وقاعة الطعام، والمكتبة، وقاعات الدرس الست، وصغير الفيزياء والكيمياء، والمستودع، والحمامات ودورات المياه، وقاعة النوم المشتركة ذات الأسرة الحديدية المتراكمة، لخوالي خمسين تلميذاً، جيء بهم جرجرة، من أشد ضواحي البلاد غمًا، وقلة قليلة من أبناء العاصمة. ولحسن الحظ أن شرط المنفى ذاك، كان نعمة أخرى لنجمي الطبيب، فقد عرفت بفضل، جيداً وسريعاً، كيف هي البلاد التي كانت من نصيبي في قرعة العالم. فمع نصف دزينة الكاريبيين الذين تبنوني، كواحد منهم، منذ وصولي، وتبنيتهم أنا أيضاً بالطبع، كنا نقوم بتسيير لا مناص منه، بيننا وبين الآخرين: أبناء العاصمة والغرباء.

مختلف الجماعات الموزعة في أركان الفناء، منذ استراحة الليلة الأولى، كانوا نموذجاً غنياً يمثل الأمة. لم تكن هناك خصومات مادام كل واحد في ميدانه، وكانت علاقاتي المباشرة مع المتحدثين من ساحل

الكاريبي، نحن كنا مشهورين، عن جدارة، بأننا صاخبون، متعصبون لتضامن الجماعة، ومولعون بالرقص، وقد كنت استثناءً من تلك القاعدة، ولكن أنطونيو مارتينس سبيرا، وهو راقص رومبا، من كارتاخينا، علمني الرقصات الرائجة، خلال الاستراحات الليلية. وكذلك فعل ريكاردو غوثالث ريبول، شريكى الكبير فى إبحاراتى السرية، الذى صار مهندساً معمارياً مشهوراً، ولكنه لم يقطع، مع ذلك قط، الأغنية التى يندندن بها من بين أسنانه، بصوت لا يكاد يكون مسموعاً. وظل يرقص وحيداً حتى آخر أيامه.

مينتشو بورغوس، عازف البيانو الفطري، الذى توصل إلى أن يكون مايسترو أوركسترا وطنية للرقص، أسس فريق غناء المدرسة، وروغب فى أن أتعلم معهم العزف على آلة موسيقية ما. وقد علمنى سرّ الصوت الثنائى فى غناء البوليسرو وأغنيات القايثاتو، ومع ذلك، فإن مآثرته الكبرى هى تدريب غييرمو لوبيث غيرا، البوغوتى الصافى، على الفن الكاريبى، فى عزف الرمزوز الموسيقى، وهى مسألة ثلاثة اثنين، ثلاثة اثنين.

أما هومبيرتو خاميس، فكان دارساً مجتهداً لم يهتم بالرقص قط. يضحى بعطلات نهاية الأسبوع، ويظل يدرس فى المدرسة، وأظن أنه لم يرق قط، كرة قدم ولم يقرأ وصفاً لأي نوع من المباريات الرياضية. إلى أن تخرج مهندساً فى بوغوتا، ودخل جريدة التيمببو، كمحرر رياضى متدرب، حيث توصل إلى أن يكون واحداً من أفضل معلقى كرة القدم فى البلاد. ولكن أعرب حالة أتذكرها، هى دون شك، حالة سيلفيو لونا، وهو أسمر داكن من تشوكو، تخرج محامياً، ثم بعد ذلك طبيباً،

وكان يستعد لبدء دراسة ثالثة، عندما توارى عن نظري، ولم أعد أراه. دانييل روثو - باغوثيو - تصبف على الدوام، كعالم فى كل ميادين العلوم الإنسانية واللاهوتية، وكان يصدق منها دون حساب، فى الدروس والاستراحات، وكنا نلجأ إليه على الدوام، ليطلعنا على أحوال العالم، خلال الحرب العالمية التى كنا نتابعها بعض المتابعة، من خلال الإشاعات. إذ لم يكن مسموحاً دخول الصحف أو المجلات بانتظام، إلى المدرسة. أما المذيع، فلم يكن نستخدمه إلا للرقص، كل واحد منا يرقص مع زميل آخر. ولم يُنح لنا قط، أن نعرف من أين يأتى باغوثيو بمعاركه التاريخية التى يخرج منها الحلقات، مختصرين، دوماً.

ربما كان سيرخيو كاسترو - دي كيتامى - أفضل تلميذ فى كل سنوات المدرسة، وقد أحرز، دوماً، أعلى الدرجات منذ دخوله، ويبدو لي أن سره هو نفسه الذى نصحتنى به مارتينا فوتسيكا، فى مدرسة سان خوسيه: لم يكن يضيع كلمة واحدة من المعلم أو من مداخلات زملائه فى الدروس. ويدون ملاحظات حتى عن أنفاس الأساتذة، ويرتبها فى دفتر متقن، وربما هذا هو السبب فى أنه لم يكن يحتاج إلى وقت، لكي يحضر لامتحانات، ويقرأ كتب المغامرات، فى عطلة نهاية الأسبوع، بينما نحن الآخرين، نغنى أنفسنا فى الدراسة.

أكثر أصدقائى مواظبة فى الاستراحات، هو البوغوتى الخالص ألفارو روث توريس الذى كان يتبادل معى الأخبار اليومية عن الخطيبات فى الاستراحة الليلية، بينما نحن فشى بخطوات عسكرية فى الفناء. ومن الأصدقاء الآخرين، خامي براقر، وهومبيرتو غيبن، وألفارو بيدال بارون، الذين كنت على علاقة جيدة بهم فى المدرسة، وواصلنا

اللقاء، معاً، طوال سنوات في الحياة الواقعية. كان ألفارو رويث يذهب إلى بوغوتا، في نهاية كل أسبوع، لزيارة أسرته. ويرجع قوياً بالسجائر وأخبار الخطيئات، وكان هو من شجعني على إدمان هذين الأمرين، خلال الوقت الذي درسنا فيه معاً، ومن أهدى إليّ في هاتين السنتين الأخيرتين، أفضل ذكرياته، لينعش في ذاكرتي هذه المذكرات.

لست أدري ما الذي تعلمته في الواقع، خلال السجن في ذلك المعهد الوطني، ولكن أربع سنوات من المعايضة حسنة الانسجام مع الجميع، ألهمتني رؤية لوحدة الأمة. واكتشفت كم كنا متعددين، وما هي قاعدتنا. وتعلمت منا لن أنساء أبداً، بأنه في جوهر كل واحد منا، توجد البلاد بأسرها. وربما كان هذا هو ما أرادوا قوله لي في الوزارة، حول التنقلات، بين المناطق التي ترعاها الحكومة. وبعد أن بلغت سن النضج، دُعيت إلى كابينه قيادة طائرة عابرة للمحيط. وكانت أول كلمات وجهها إليّ كباينة الطائرة، هي سؤالي من أين أنا. وقد كان سماعي لتلك الكلمات، كافياً لأن أقول له:

- إنني ساحلي، بقدر ما أنت سرغسوسي.

فقد كان له الأسلوب نفسه، والإيماءات نفسها، ومادة الصوت نفسها التي لماركو فيدل بوتا، زميلي في مقعد السنة الرابعة، في تلك المدرسة. ضربة الحدس تلك، علمتني الإبحار في مستنقعات ذلك المجتمع الذي لا يمكن توقع مفاجآته، حتى وأنا بلا برصلة وبمعكس التيار. وربما كانت مفتاحاً يفتح كل الأبواب في مهنتي، ككاتب.

كنت أشعر، كما لو أنني أعيش حلاًماً. ذلك أنني لم أكن أتطلع إلى المنحة، لأنني أريد الدراسة، وإثاء، من أجل الحفاظ على استقلالي عن

أي التزام آخر، دون الإساءة إلى علاقتي بالأسرة. ووجود ثلاث وجبات مضمونة، يكفي لافتراض أننا كنا نعيش في ملاذ الفقراء ذلك، أفضل من الحياة في بيوتنا، تحت رقابة ذاتية أقل صرامة من السلطة المنزلية. كان يسود قاعة الطعام نظام سوق يتيح لكل واحد منا، ترتيب الوجبة على هواه. دون أن تكون للنقود أي قيمة. فقد كانت يبيضنا الفطور المسلوقتان هما العملة التسعيرية، إذ يمكن بهما، شراء أي طبق آخر من الوجبات الثلاث. وكان لكل شيء، قيمته العادلة، ولم يكن هناك ما يعكر تلك التجارة الشرعية. بل أكثر من ذلك؛ فأنا لا أتذكر نزاعاً واحداً بلغ حد تبادل اللكمات، لأي سبب، خلال أربع سنوات من الدراسة الداخلية.

ولم يكن المعلمون الذين يأكلون على مائدة أخرى، في القاعة نفسها، بعيدين عن تلك المقايضات الشخصية، فيما بينهم. لأنهم ما زالوا يجرجرون عادات مدارسهم التي تخرجوا منها حديثاً. وكان معظمهم عازبين، يعيشون هناك بلا زوجات، ورواتبهم ضئيلة، مثل المبالغ الشهيرة التي ترسلها لنا أسرنا، تقريباً. فكانوا يشكون من الطعام، لأسباب كثيرة مثلاً. وفي إحدى الأزمات الخطيرة، اقتربتنا من إمكانية التوافق مع بعضهم، على إضراب عن الطعام. ولكنهم عندما كانوا يتلقون هدايا، أو يستقبلون زائرين من الخارج فقط، تُقدم لهم أطباق ملهمة، مما يُفسد المساواة. وكان هذا ما حدث، ونحن في السنة الرابعة، عندما وعدنا طبيب المدرسة بإحضار قلب جاموس، لدراسته في دورة التشريح التي يشرف عليها. وفي اليوم التالي، أرسل القلب إلى ثلاث الميطخ، وهو لا يزال طازجاً ودامياً، ولكننا لم نجد هناك عندما

ذهبنا لإحضاره للدرس. ثم تبين، في اللحظة الأخيرة، أن الطبيب، عندما لم يجد قلب جاموس، أرسل قلب عامل بنا، بلا أهل، سقط مهتماً من طابق رابع، ونظراً لأن القلب لا يكفي للجميع، قام الطهارة بإعداده مع صلصات، شهية معتقدين أنه قلب الجاموس الذي طلب منهم طهروه لمائدة الأساتذة. أظن أن تلك العلاقات المتدفقة، بين الأساتذة والطلاب، كانت مرتبطة بحركة إصلاح التعليم التي لم يبق منها إلا القليل للتاريخ. ولكنها أنادتنا على الأقل، في تبسيط البروتوكول، فتقلصت القوارق في السن، وأهمل استخدام ربطة العنق، ولم يعد هناك من يصاب بالذعر، لأن المعلمين والطلاب يتناولون بضعة كؤوس معاً، ويذهبون، في أيام السبت، إلى الرقص، مع الخطيبات معاً.

هذا الجو، لم يكن ممكناً، إلا مع نوع من المعلمين يسمحون، عموماً، بعلاقة شخصية سلسلة، فأساتذ الرياضيات، بسعة معارفه وحس سخرته اللاذع، يحول الدرس إلى حفلة مخيفة. كان يدعى خواكين خيرالدو سانتا، وهو أول كولومبي حصل على درجة دكتوراه في الرياضيات. ومن سوء حظي، رغم جهودي وجهود الجبارة، لم أتوصل قط، إلى الاندماج بدرسه. كان من عاداته القول آنذاك، إن الميول الشعرية تتداخل مع الرياضيات، وإن الأمر لا ينتهي بأحدنا، إلى تصديق ذلك وحسب، وإنما الغرق فيه. وربما كانت الهندسة أكثر راحة، بفعل وفضل سمعتها الأدبية. أما الحساب، بالمقابل، فيتصرف بتبسيط عدائي. وأنا ما زلت أجد نفسي حتى اليوم، عندما أريد إجراء عملية جمع ذهنية، مضطراً إلى تفكيك الأعداد، إلى أبسط مكوناتها، وبخاصة السبعة والتسعة، اللذين لم أستطع حفظ جدولهما قط. ولكني

أجمع سبعة وأربعة، أحذف اثنين من السبعة، وأجمع الأربعة إلى الخمسة المتبقية، ثم أعود أخيراً، لجمع الاثنين المتخلفين من السبعة: "أحد عشراً". أما عمليات الضرب، فبقيت تخونني دوماً، لأنني لم أستطع قط، تذكر الأعداد التي في ذاكرتي. وقد كرست للجبر، أفضل ما لدي من حماس، ليس احتراماً لروحه الكلاسيكية وحسب، وإنما حباً بعلمي وخرفاً منه. ولكن دون جدوى. فقد كانوا يوخونني في كل فصل دراسي، وقد تأملت فيه مرتين، وخسرت في محاولات أخرى غير مشروعة، فكانوا يمنحونني النجاح فيه، كصدقة.

ثلاثة معلمين آخرين متفانيين هم معظم اللغات. الأول - معلم الإنكليزية - هو مستر آيالا: كاريبي صاف، ينطق أوكسفوردي متقن، وغيره كنسبة تجاه معجم ويسترز الذي كان يتلوه، وهو مفضل العينين، وكان خليفته هو هيكتور فيغيروا، معلم شاب طيب، لديه هوى محسوم بأغنيات البوليرو التي كنا نغنيها بأصوات متعددة في الاستراحات، لقد بذلت أفضل ما أستطيعه، في سيات الدروس وفي الامتحان النهائي، ولكنني أظن أن درجتي الجيدة لم تكن بفضل شكسبير، بقدر ما هي بفضل (مغني البوليرو) ليو ماريني وهوغو روماني، المسؤولين عن الكثير من فرايس الحب وانتحاراته. أما معلم اللغة الفرنسية، طوال أربع سنوات، المتسنيور أنطونيو بيلا ألبان، فوجدني منسجماً بالروايات البوليسية. وكانت دروسه تضجرتي، كما هي دروس الآخرين جميعهم، ولكن اقتنياساته المناسبة من فرنسية الشوارع، ساعدتني كثيراً، في النجاة من الموت جوعاً في باريس، بعد عشر سنوات من ذلك.

معظم المعلمين كانوا قد تكوّنوا في دار المعلمين العليا، بإدارة

الدكتور خوسيه فرانشيسكو سوكاراس. وهو عالم نفس من سان خوان دي سيسر، عكف على تغيير التربية الكهنوتية التي سادت، طوال قرن من الحكومات المحافظة، ليُحل محلها تربية عقلانية إنسانية. فكان مانويل كويو دل ريو، ماركسياً واديكالياً. وربما لهذا السبب نفسه، كان يقدر لين يونانغ، ويؤمن بظهور الموتى. وكانت مكتبة كارلوس كالدرون، التي تتصدرها أعمال ابن بلدته خوسيه إوستاسيو ريفيرا، مؤلف رواية "الدائمة"، مزرعة بالتساوي، بين الكلاسيكيين الإغريق، والشعراء "الحجر سماويين" المحليين، ورومنسيي كل الأنحاء. وبفضل هؤلاء وأولئك، كنا نحن القراء القليلين المواطنين، نقرأ سان خوان دي لافروث أو خوسيه ماري بارغاس بيللا. ولكننا كنا نقرأ كذلك، مؤلفات رسل الثورة البروليتارية، فاستاذ العلوم الاجتماعية غونثالو أوكامبو، كان يملك في غرفته، مكتبة سياسية جيدة، يجري تداولها دون ثواب خبيثة، في قاعات درس التلاميذ الكبار. ولكنني لم أفهم قط، لماذا كنا ندرس "أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة" لفريدريك إنجلز، في أمسيات الاقتصاد السياسي المجانية، وليس في دروس الأدب، باعتبارها ملحنة مغامرة إنسانية جميلة. لقد قرأ غييرمو لويث غيراً، في الاستراحات، كتاب "أنثي دوهرنغ" للإنجلز أيضاً. وكان قد استعاره من الاستاذ غونثالو أوكامبو. ومع ذلك، عندما طلبتُ استعارته، لكي أتناقش فيه مع لويث غيرا، قال لي أوكامبو إنه لن يقدم لي هذا الجميل البغيض. بإعازتي ذلك المجلد الضخم والأساسي لتقدم الإنسانية، إنما الطويل والممل جداً إلى حد، ربما سيحول دون دخوله التاريخ، وربما أسهمت تلك المبادلات الأيديولوجية بسوء سمعة المعهد، واعتباره مخبر إفساد

سياسي. ومع ذلك، فقد احتجت لنصف حياة لكي أنتبه إلى أنها كانت أقرب إلى تجربة عفوية وتلقائية، لاستبعاد الضعفاء، وتلقيح الأقرباء، ضد أي نوع من الدوغمانية.

علاقتي الأكثر مباشرة كانت دوماً مع الأستاذ كارلوس خوليو كالديرون، معلم اللغة القشتالية في السنوات الأولى، ومعلم الأدب العالمي في السنة الرابعة، والأدب الإسباني في السنة الخامسة، والأدب الكولومبي في السنة السادسة، ومعلم شيء غريب عن تكوينه وعن ذوقه: المحاسبة. لقد ولد في نييغا، عاصمة إقليم خويلا، ولم يكن يتعب من الإعلان عن تقديره الوطني للكاتب خوسيه إوستاسيو ريفيرا، وقد اضطر إلى قطع دراسة الطب والجراحة. وكان يتذكر ذلك على أنه إحباط حياته. ولكن شغفه بالفنون والآداب كان جارفاً. وقد كان أول معلم ينسف مسوداتي بملاحظات وتوجيهاته المناسبة.

وعلى أي حال، كانت العلاقة بين التلاميذ والمعلمين، تجري بطبيعية استثنائية، ليس في الدروس وحسب، وإنما في قناء الاستراحة، بعد العشاء بصورة خاصة. فكان ذلك يتيح تعاملًا مختلفاً عن الذي اعتدنا عليه، ومواتياً بكل تأكيد لأجواء الاحترام والرفاقية التي كنا نعيشها.

إنني مدين بإحدى المغامرات المرحية لأعمال فرويد الكاملة، التي وصلت إلى المكتبة آنذاك. لم أكن أفهم، بكل تأكيد، شيئاً من تحليلاته العنويصة. ولكن عرضه للحالات السريرية كان يحبس أنفاسي حتى النهاية، مثل خيال جول فيرن. طلب منا المعلم كالديرون أن نكتب قصة قصيرة بموضوع حر، في حصة اللغة القشتالية. وخطرت لي قصة مريضة نفسية في حوالى السابعة من عمرها ويعنون مبدع، يمضي في اتجاه

معاكس للشعرة: "عقدة نفسية هاجسية". طلب المعلم قراءة القصة في الدرس. واستنكر جاري في المقعد، أوريليو بيريتو، دون تحفظ، غرور الكتابة دون أدنى تكوين علمي أو أدبي حول تلك المسألة بالغة التعقيد. فأوضحت له، بحقد أكثر من التواضع، بأنني أخذت الموضوع من حالة سريرية بصفتها فرويد في مذكراته، وأن هـي الوحيد هو استخدامها لكتابة الواجب المدرسي. وربما ظن المعلم كالديرون بأنني سأخط من الانتقادات القاسية التي وجهها عدد من زملائي في الصف، فاستدعاني جانباً، في الاستراحة، ليشرحني على الموصلة قدماً، في الطريق نفسه. وأشار إلى أنه يبدو جلياً في قصتي، أنني أجهل تقنيات القصة الحديثة. ولكنني أمتلك مع ذلك، الفطرة والرغبة. ورأى أن القصة مكتوبة جيداً، وبنوايا أصيلة على الأقل. وقد حدثني لأول مرة، عن البلاغة. قدم لي بعض الحيل العملية في الأسلوب والنظم، لتبسيط الأمور، دون مزاعم وادعاءات. وانتهى إلى القول إنه عليّ في كل الأحوال، أن أأثر على الكتابة، ولو من أجل صحتي الذهنية وحسب. وكانت تلك هي أولى المحادثات المطولة التي دارت بيننا، خلال سنواتي في المعهد، في الاستراحات وفي ساعات الفراغ الأخرى. وأدين لها بالكثير في حياتي، ككاتب.

لقد كان ذاك هو جوي المثالي. فمنا مدرسة سان خوسيه، تجذر لديّ إيماناً قوياً كل ما يقع بين يدي، وصرتُ أشغل وقت فراغي وكل وقت الدروس تقريباً، في القراءة. وفي السادسة عشرة من عمري، كنت قادراً، بنطق إصلاحي سليم أو من دونه، على ترديد القصائد التي تعلمتها في مدرسة سان خوسيه، دون أن ألتقط أنفاسي. كنت أقرأها

وأعيد قراءتها، دون مساعدة أو ترتيب، وخفية في معظم الأحيان خلال الدروس. أظن أنني قرأت كامل مكتبة المعهد التي لا يمكن وصفها، والمؤلفة من قطاعات مكتبات أخرى قليلة الجدوى: مجموعات كتب رسمية، وميراث أساتذة فقدوا الشهية إلى القراءة، وكتب لا يرب في أنها وصلت إلى الشاطئ من سفينة غارقة لم يدر بها أحد. لا يمكنني أن أنسى مجموعة "المكتبة الريفية" التي أصدرتها دار نشر مينيرفا، بإشراف دون دانييل سامير أورتيغا، ووزعتها وزارة التربية على المدارس والمعاهد. لقد كانت مجموعة من مئة مجلد، تضم كل ما هو جيد، وأموأ ما كتب في كولومبيا حتى ذلك الحين. فقررت قراءتها، وفق تسلسلها الرقمي، إلى حيث مسحت به روعي. والأمر الذي ما زال يرعبني حتى الآن، هو أنني كنت على وشك الانتهاء منها، خلال السنتين الأخيرتين. ولم أستطع خلال حياتي التالية، أن أحسم إذا ما كانت قد أفادتني في شيء.

الفجر في قاعة النوم، كان له شبه مريب بالسعادة، لولا الجرس القاتل الذي يرن كناقوس خطر - مثلما اعتدنا أن نقول - في الساعة السادسة من منتصف الليل. وكان اثنان أو ثلاثة من المتخلفين ذهياً فقط هم الذين يقفزون من أسرهم، ليكوتوا الأوتار في الدور، على دوشات الماء الجليدي الستة، في حمام قاعة النوم. أما نحن البقية، فكنا نستغل الفرصة، لعصر آخر قطرات التعاس، إلى أن يأتي المعلم المناوب ويحجب القاعة، منتزعا البطانيات عن النائم. لقد كانت ساعة ونصف الساعة من الحميمية المكشوفة، من أجل ترتيب الفراش، وتلميع الأحذية، والاستحمام بدوش الجليد الذائب الذي يسيل من أنبوب دون

مرشدة، بينما كل واحد منا يُفْرَج عن إحباطاته صاخفاً، ويسخر من الآخرين، ففتنهمك أسرار غرامية، وتعقد صفقات ومماحكات، وتبرم المقايضات التي ستتم في قاعة الطعام، وكان موضوع المناقشات الصباحية الدائم، هو الفصل الذي قُري في الليلة السابقة.

كان غيبرمو غراناداس يطلق العنان، منذ الفجر، لمزايده، كمغني تينور، في الشدو بفائضته غير المتناهية من أغنيات التانغو، وكنت أشكل ثنائياً مع جاري في قاعة النوم، ريكاردو غونثالث ريبول، لغنا، أغنيات الغوارانشا الكاريبية، على إيقاع الخرقه، أثناء تلميع أحذيتنا، عند رأس السرير، بينما زميلي ساباس كاريانو يذرع قاعة النوم، من أقصاها إلى أقصاها، مثلما ولدته أمه، وهو يعلق منشقة على عضوه الذي من الإنسمنت المسلح.

لو كان ممكناً، لهرب عدد لا بأس به منا، نحن الداخلين، حتى الفجر، لإحجاز مواعيد متفق عليها في نهاية الأسبوع. لم يكن هناك حراس ليليين، ولا أساتذة في قاعة النوم، باستثناء الأستاذ الأسبوعي المناوب، وبواب المعهد الأيدي، ريفيريتا الذي كان في الواقع، ينام مستيقظاً، طوال الوقت، بينما هو يلجز واجباته اليومية. لقد كان يعيش في الحجرة التي عند المدخل، ويقوم بمهنته على أحسن وجه. ولكنتا كنا نتمكن في الليل، من فتح باب الكنيسة الهائل، وإغلاقه دون ضججة، والاستمتاع طيلة الليل في بيت غريب، والعودة قبيل الفجر، عبر الشوارع الجليدية. ولم نعرف قط، إذا ما كان ريفيريتا ينام حقاً كالبيت، مثلما كان يبدو، أم أن تلك هي طريقته المهدبة في التواطؤ مع قتيانته. لم يكن عدد من يهربون كبيراً، وكانت أسرارهم تتعفن في ذاكرة

زملاتهم المتواطئين معهم بإخلاص. لقد عرفت بعض من كانوا يهربون بصورة روتينية، وآخرين يتجرون على الذهاب، مرة، متسلحين بالشجاعة التي يبشها توتر المغامرة، ويرجعون مستنفذين من الرعب. ولكنتا لم نعلم قط أن هناك من انكشف أمره.

العائق الاجتماعي الوحيد الذي عانيت منه في المدرسة، هو الكوابيس المشؤومة التي ورثتها عن أمي، والتي كانت تبرز فجأة، في أحلام الآخرين، على شكل صرخات من وراء القبر. جيرانني في الأسرة، كانوا يعرفونها جيداً، ولا يخشونها، إلا بسبب رعب الصرخة الأولى في هدأة الفجر. وكان المعلم المناوب الذي ينام في قمرة من الكرتون، يتجول مسرعاً، من أقصى قاعة النوم إلى أقصاها، إلى أن يستتب الهدوء من جديد. لم تكن أحلاماً لا يمكن التحكم بها وحسب، وإنما كانت لها علاقة كذلك بعذاب الضمير، لأنها جرت لي في متاسيتين، في بيوت التهلك والضلal. ولم يكن بالإمكان حل رموزها أيضاً، لأنها لم تكن ترد في أحلام مرعبة، وإنما على العكس من ذلك، في سياق أحداث سعيدة، مع أشخاص معروفين أو في أماكن مألوفة. وسرعان ما تكشف لي نظرة برشة عن تفصيل مشؤوم. ولم يكن بالإمكان، مقارنة كابوسي بأحد كوابيس أمي، حين كانت ترى رأسها موضوعاً في حضنها، وهي تغليه من القمل والصئبان التي لا تتيح لها النوم. ولم تكن صرخاتي صرخات رعب، وإنما نداءات استغاثة، لكي يُحسن أحد إلي ويوقظني. ولم يكن هناك في قاعة النوم متسع لأي تعمق في الكابوس، لأن الوسائد كانت تنهمر عليّ، عند أول أنف، منطلقة من الأسرة المجاورة، فاستيقظ لاهثاً، ويقلب مضطرب، إنما سعيد لكوني ما أزال حياً.

أفضل ما في العهد، هو القراءات بصوت عالٍ، قبل النوم. كنا قد بدأنا تلك القراءات، بمبادرة من الأستاذ كارلوس خوليو كالدرون، وبقصة لمارك توين، يتوجب على تلاميذ السنة الخامسة قراءتها من أجل امتحان مستعجل، في الساعة الأولى من صباح اليوم التالي. قرأ الأستاذ الصفحات الأربع بصوت عالٍ، من حجرته المفصلة بحاجز من الكرتون، لكي يتمكن التلاميذ الذين لم يتوفر لهم الوقت لقراءتها، من تدوين ملاحظات عنها. وكان الاهتمام كبيراً، إلى حدٍ فرضت معه تلك العادة بالقراءة بصوت عالٍ، نفسها كل ليلة، قبل النوم. لم يكن الأمر سهلاً في البداية، لأن أستاذاً منافقاً اقترح الانتفاضة في اختيار الكتب التي ستقرأ، وتهذيبها من الكلام القاهر. ولكن خطر وقوع فرد، دفعهم إلى تفويض التلاميذ الكبار، بمهمة الاختيار.

بدأت القراءات، بنصف ساعة كل يوم. فكان الأستاذ المناوب يقرأ من حجرته جيدة الإضاءة الموجودة عند مدخل قاعة النوم العامة، وكنا في أول الأمر، نُسكنه بشخير ساخر، حقيقي أو متصنع، ولكنه يستحقه دوماً. ثم امتد وقت القراءة فيما بعد، إلى ساعة، حسب أهمية القصة. وبدأ الطلاب يحلون محل الأساتذة، في مناقشات أسبوعية. وقد بدأت الأزملة الطيبة، عند قراءة "نوستراداموس" و"ذو القناع الحديدي"، التي أعجبت الجميع، أما ما لم أستطع تفسيره حتى الآن، فهو النجاح المدوي الذي لقيته رواية "الجيل السحري" لتوماس مان، والتي تطلبت تدخل المدير، لتعنا من قضاء الليل مستيقظين، بانتظار قبلة هانز كاستروب وكلوديا تشاوشات. أو ترقبنا القريد جميعنا، ونحن جالسون في الأسرة، كيلا نضيع كلمة واحدة من المبارزة الفلسفية المهمة، بين نابشا

وصديقها ستيميريني. وقد استمرت القراءة، في تلك الليلة، أكثر من ساعة، واحتُفي بها في قاعة النوم، بعاصفة من التصفيق.

المعلم الوحيد الذي ظل واحدة من أكبر الأحجيات في شبابي، هو المدير الذي وجدته هناك، عند وصولي. كان اسمه أليخاندرو راموس، وكان قظاً ومتوحداً. يضع نظارة ذات زجاج سميك، تبدو كأنها نظارة أعمى. وله سلطة غير استعراضية، تُثقل عليها كل كلمة ينطق بها، مثل لكمة حديدية. كان ينزل من ملجئه في الساعة صباحاً، للتفتيش على نظافتنا الشخصية، قبل دخولنا إلى قاعة الطعام. وكان يرتدي ملابس لا تشوبها شائبة، ذات ألوان زاهية، وياقة منشأة كأنها من السيلولويد مع ربطة عنق يهيجية، وحذاء لامع. وكان يسجل أي خطأ في نظافتنا الشخصية، بزمجرة تعتبر أمراً بالعودة إلى قاعة النوم، لتصحيح الخطأ. أما خلال بقية اليوم، فيعتكف في مكتبه في الطابق الثاني، ولا نغره لرؤيته حتى صباح اليوم التالي، في الساعة نفسها، أو حين يخطر الاثنني عشرة خطوة، بين مكتبه وقاعة السنة السادسة، حيث يعطي درسه الوحيد في الرياضيات، ثلاث مرات في الأسبوع. وكان تلاميذه يقولون إنه عبقري في الأرقام، ومرح في الدروس، وإنه يذهلهم بحكمته. ويبعث فيهم الرجفة، من رعب الامتحان النهائي.

بعد وقت قصير من مجيئي، كان علي أن أكتب الخطاب الافتتاحي، لأحد احتفالات المعهد الرسمية. وقد وافق معظم المعلمين على موضوعي، ولكنهم اتفقوا جميعهم على أن الكلمة الأخيرة في مثل هذه الحالات، تبقى للمدير. كان يقيم في أقصى المدرسة، في الطابق الثاني، ولكنني عانيت من تلك المسافة، كما لو أنها رحلة حول العالم سيراً على الأقدام.

كنت قد فُتُ بصورة سيئة، في تلك الليلة، ووضعت ربطة عني أيام الأحاد، ولم أكد أتكن من تذوق الفطور، طرقتُ طرْقاً خفيفاً جداً على باب الإدارة الذي لم يفتحه لي المدير، إلا بعد الطرق للمرة الثالثة. وأفسح لي الطريق للدخول دون أن يحينني. وكان ذلك من حسن حظي، لأنني ما كنت سأجد صوتاً للرد عليه. ليس بسبب جفائه وحسب، وإنما بسبب مهابة وترتيب وجمال مكتبه ذي الأثاث المصنوع من أخشاب ثمينة ومخمل، وجدران المغطاة بخزائن مذهلة تضم كتباً ذات أغلفة جلدية. انتظر المدير، بتسهل رسمي، إلى أن استعدت أنفاسي. ثم أشار إلى بالجلوس على كرسي، قبالة منضدة مكتبه، وجلس هو على مقعده. كنت قد هيات توضيحاً لسبب زيارتي، بالاهتمام نفسه الذي أعددت به الخطبة. استمع إلي بصمت، ووافق على كل كلمة بحركة من رأسه. ولكن دون أن ينظر إلي، وإنما إلى الورقة التي ترتجف في يدي. وعند نقطة كنت أظنها مضحكة، حاولت أن أفوز منه بابتسامة، ولكن دون جدوى. بل أكثر من ذلك؛ فأنا واثق من أنه كان مطلعاً، مسبقاً، على هدف زيارتي. ولكنه أجبرني على توضيحه له.

وعندما انتهيت، مدّ يده من فوق المنضدة، وتلقى الورقة مني. نزع نظارته، ليقرأها باهتمام عميق. ولم يتوقف إلا لإجراء تصويين اثنين، بريشة الكتابة. ثم أعاد وضع نظارته، وحدثنني دون أن ينظر إلي عيني، بصوت حجري هز قلبي. قال لي:

- توجد هنا غلظتان، فقد كتبت: "كما انسجام نباتات بلادنا الوفيرة، التي عرك بها ودرسها العالم الإسباني خوسيه ثيليسينيو موتيس، في القرن الثامن عشر، تعيش في هذا المعهد، أجواء

فردوسية". ولكن كلمة وفيرة (exuberante) تُكتب من دون الحرف h، وكلمة فردوسية (paradisíaco) لا تحتاج إلى علامة التشديد فوق الحرف i. أحسست بالهذلة. ولم أجد جواباً أرد به على ملاحظته، عن الكلمة الأولى. ولكن لم يكن يخامرني أدنى شك، بالنسبة إلى الكلمة الثانية، فأجبت على الفور بما تبقى لي من صوت:

- عذراً أيها السيد المدير، المعجم يورد كلمة فردوسية (paradisíaco) بالتشديد ومن دونه. ولكن تيرة التشديد بدت لي أقوى ونعاً.

لا بد أنه أحس بأنه قد اعتدي عليه، مثلما أحسست أنا، ذلك أنه واصل عدم النظر إلي، وهو يتناول المعجم من خزانة الكتب، دون أن يقول كلمة واحدة. انقبض قلبي، لأنه كان معجم أطلس الذي أهداني إياه جدي. إنما جديد ولا مع، وربما لم يستخدم من قبل. ومنذ المحاولة الأولى، فتح الكتاب على الصفحة المطلوبة بالضبط. قرأ وأعاد قراءة المادة، ثم سألتني دون أن يرفع بصره عن الصفحة:

- في أي سنة أنت؟

فقلت له:

- في الثالثة.

أطبق المعجم بضربة قوية، كأنها انطباق قبح، ونظر إلي عيني، أول مرة، وقال:

- براقوا. استمر على هذا النحو.

ولم يتقصني، في ذلك اليوم، سوى أن ينادي بي زملائي في الصف، بطلاً. وبدؤوا يسمونني، بكل ما يمكن من سخرية الساحلي الذي تكلم إلى المدير، ومع ذلك، فإن أكثر ما أثر بي في تلك المقابلة،

هو مواجهتي، مرة أخرى، لأساتي الشخصية مع الإملاء. فأننا لم نستطع فهمه. وقد حاول أحد أساتذتي أن يوجه إليّ الضربة القاضية، عندما قال لي إن سيمون بوليفار لا يستحق كل تلك الأمجاد، بسبب أخطائه الإملائية. بينما حاول آخرون مواساتي بالقول إنه داء يصيب كثيرين، وحتى اليوم، بعد أن صار لي سبعة عشر كتاباً منشوراً، ما زال مصححو لغاربي المطبعة، يشرفوني بكياسة تصويب أخطائي الإملائية، على أنها مجرد أخطاء مطبعية.

الحفلات الاجتماعية في ثيباكيرا تناسب عموماً، مع ميل وأسلوب كل فرد. فمناجم الملح التي وجدها الإسبان مكشوفة هناك، كانت عامل جذب سياحي، في عطل نهاية الأسبوع، تستكمل مع اللحم في الفرن والبطاطا المثلجة، في مراحل ملح ضخمة، وكنا، نحن التلاميذ الداخليين الساحليين، بشهرتنا المستحقة كصاخبين ومشاغبين، نتمتع بحسن التربية في الرقص، كفنائين على الموسيقى الدارجة، وبالذوق السليم، في الحب حتى الموت.

توصلت إلى أن أكون متطوعاً في كل شيء، إلى حد أنه في اليوم الذي علمنا فيه بانتصار الحرب العالمية، خرجنا إلى الشوارع، في مظاهرة ابتهاج ترفع الأعلام واللافتات، وتطلق هتافات النصر. وعندما طلب أدهم، متطوعاً لإلقاء الخطاب، خرجت دون تفكير في الأمر، إلى شرفة النادي الاجتماعي، قبالة الساحة الكبرى، وارتجلت الخطاب بصرخات مدوية، هذا للكثيرين أنني أحفظه عن ظهر قلب.

كان ذلك هو الخطاب الوحيد الذي وجدت نفسي مضطراً إلى ارتجاله في السبعين سنة الأولى من حياتي، وأنهيت خطابي بامتداح غنائي لكل

واحد من الأربعة الكبار، ولكن الذي لفت الانتباه في الساحة، هو امتداح رئيس الولايات المتحدة، وكان قد توفي قبل ذلك بقليل: "فرانكلن ديلاو ووزقلت الذي يعرف، مثل السيد المتحول، كيف يكسب المعارك بعد موته". بقيت العبارة تطفو في المدينة لعدة أيام، وجرى استنساخها في لافتات الشوارع، وعلى جدران روزقلت، في واجهات بعض المتاجر. وهكذا، فإن أول نجاح شعبي لي، لم يكن باعتباري شاعراً ولا روائياً، وإنما كخطيب، بل أسوأ من ذلك: كخطيب سياسي، ومنذ ذلك الحين لم يعد يقام احتفال في المعهد إلا ويطلبون مني الصعود إلى شرفة المنصة، غير أنها صارت، عندئذ، خطابات مكتوبة، ومصححة حتى النفس الأخير.

وقد أفادني ذلك الاستهتار، مع مرور الوقت، بإصابعي برعي مسرحي أوصلني إلى حد الصمت المطلق، سواء في حفلات الزفاف الكبرى أو في حانات عامة الهرة ذوي صنادل القنب، حيث كنا ننتهي على الأرض، وفي بيت بيرينسي الجميلة البعيدة عن الأحكام المسبقة، التي حالقها حسن الحظ بعدم الزواج مني، لأنها كانت مجنونة بحب شخص آخر، أو في مكتب التلغراف، حيث كانت ساريتا التي لا تُنسى تبعث، بالدين، برفيات غمي، عندما يتأخر أبواي في إرسال مصروفني الشخصي. وقد دفعت لي أكثر من مرة قيمة الحوالات مقدماً، لتُخرجني من المأزق، ومع ذلك، فإن أقلهن بعداً عن النسيان، لم تكن محبوبة أحد بعينه، وإنما حورية مخبي الشعر جميعهم، اسمها سيسيليا غونزالث بيثانو، وكانت ذات ذكاء لامع، وخفة ظل شخصية، وروح متحررة في أسرة من سلالة محافظة، وذاكرة خارقة لحفظ كل أنواع الشعر، كانت

تعيش قبالة بوابة المعهد، مع عملة أرستقراطية وعازية، في منزل كولونبالي، تحيط به حديقة أزهار تتفتح مع شروق الشمس. كانت العلاقة معها في البدء، مختصرة على المماريات الشعرية. ولكن سيسيليا انتهت إلى أن تكون رفيقة حياة حقيقية، وكانت قوت من الضحك على الدوام. وقد تسلمت أخيراً، إلى دروس الأدب التي يلقيها المعلم كالديرون، بتواظف من الجميع.

خلال أزمستي في أراكاتاكا، كنت أحلم بأن أعيش حياة سعيدة، بالغناء، منتقلاً من مهرجان شعبي إلى آخر، مزوداً بأكورديون وبصوت جيد. وكان يبدو لي أنها أقدم الطرق وأبهجها، لقص حكاية. فإذا كانت أمي قد تخلت عن البيانو، لكي تنجب أبناء، وعلق أبي الكمان ليتسكن من إعالتنا، فإنه من العدل تقريباً، أن يستشعر أكرم أبنائهما تلك السوابق الطيبة، ليحسرت جوعاً مقابل الموسيقى. وقد أنشئت مشاركتي المحتملة، كمن وعازف جيتار صغير (تيلي) في فرقة المعهد، بأن لي أدناً صالحة لتعلم العزف على آلة قليلة الصعوبة، وأنه يمكنني الغناء.

لم تكن هناك سهرة في مناسبة وطنية أو اجتماع احتفالي في المعهد، إلا لي فيه يد بطريقة ما. والفضل في ذلك دوماً، للمايسترو غييرمو كيغيدو ثورونوما، مؤلف الموسيقى، ووجيه المدينة، والمدير الأيدي لفرقة الموسيقى البلدية، وصاحب موسيقى "برقولة" - على الطريق، حمراء مثل القلب -، وهي أغنية شبابية كانت في أيامها، روح السهرات والسيرنادات. وفي أيام الآحاد، بعد القداس، كنت أول من يجتازون الحديقة المحصور عزفه، الذي يبدأ دوماً بمقطوعة "الغراب السارق"، و"كورال المطارق"، ثم "التروبادور" في الختام. لم يعرف

المايسترو قط، ولم أخجراً أنا على إخباره، بأن حلم حياتي، في تلك السنوات، هو أن أكون مثله.

عندما طلب المعهد متطوعين، لدورة دراسية في تذوق الموسيقى، كنت أنا وغييرمو لويث غيراً، أول من رفعنا إصبعنا. الدورة ستكون في أيام السبت صباحاً، بإشراف الأستاذ أندريس بيدرو تويار، مدير أول برنامج موسيقى كلاسيكية في "صوت بوغوتا". لم نشغل سوى أقل من ربع قاعة الطعام التي جرى تأهيلها لتكون قاعة دروس. ولكننا وقعنا على الفور، بطلاوة لسانه الرسولية. لقد كان الكاتشاكو الكامل، يتألق في منتصف الليل، بستر من المخمل، وصوت مثلي، ومتجهل فوق ذلك. أما ما قد يبدو الآن تحفة نادرة، بسبب قدمه، فهو الفونوغراف ذو ذراع التدوير الذي كان يديره ببراعة ومحبة مروض فقعات. كان ينطلق من افتراض - وهو صحيح في حالتنا - أننا مستجدون بالكامل. ولهذا بدأ بـ "كرنفال الحيوانات"، لسان-سين Saint-Saens، واصفاً طريقة كل حيوان في الحياة. ثم عزف بعد ذلك - وكيف لا - "بيتر والذئب"، لبروكوفيف. الشيء في حفلات أيام السبت تلك، أنها رُسخت في ذهني الاحتشام بالنظر إلى موسيقى المعلمين الكبار، على أنها رذيلة شبه سرية، وقد احتجت لسنوات طويلة كي أميز بين الموسيقى الجيدة والموسيقى الرديئة.

لم أعد إلى إجراء أي اتصال مع المدير، حتى السنة التالية، عندما تولى هو نفسه تدريس مادة الهندسة للسنة الرابعة. دخل إلى قاعة الدرس في أول يوم ثلاثاء، الساعة العاشرة صباحاً. حيا تحية الصباح بزمجرة، دون أن ينظر إلى أحد. ونظف السبورة بالمساحة إلى أن لم يبق

أدتني أثر للغباء. ثم التفت عتدث نحونا. ودون أن يقوم بتفقد قائمة الحضور، سأل ألفارو رويث توريس:

- ما هي النقطة؟

لم يكن هناك متسع من الوقت للإجابة. لأن أستاذ العلوم الاجتماعية، فتح الباب، دون أن يطرده، وقال للمدير إن هناك مكالمة مستعجلة من وزارة التربية. خرج المدير مسرعاً ليرد على الهاتف ولم يرجع إلى الدرس، إلى الأبد. فقد كانت المكالمة، لإبلاغه بنقله من منصبه كمدير، وهو المنصب الذي شغله بضمير، طوال خمس سنوات في المعهد، وبعد حياة كاملة من الخدمة الحسنة.

كان خلقه هو الشاعر كارلوس مارتين، الأصغر سنًا بين شعراء جماعة "ججر وسما" الجيدين، الذين ساعدني سيسر دل بايي على اكتشافهم في بارانكيّا. وكان المدير الجديد في الثلاثين من عمره، وله ثلاثة كتب مطبوعة. كنت أعرف بعض قصائده، وقد رأيت في إحدى المرات، في مكتبة في يرغوتا، ولكن لم يكن لدي ما أقوله له قط، ولم أكن أملك أحد كتبه لأطلب منه توقيعه عليه. ظهر في أحد أيام الاثنين، دون سابق إنذار، في استراحة الغداء. لم تكن نتظر رؤيته. بكل تلك السرعة. وقد بدا محامياً أكثر منه شاعراً، ببذلة إنكليزية مخططة، وجبهة مكشوفة، وشارب رفيع بصرامة في الشكل تُلحظ كذلك في شعره. تقدم بخطواته المحسوبة جيداً نحو أقرب جماعة منه، هادئاً، وناتياً بعض الشيء. ومدّ لنا يده:

- مرحباً، أنا كارلوس مارتين.

كنت في تلك المرحلة مولعاً بالنشر الغنائي الذي ينشره إدواردو

كارانثا في الصفحات الأدبية، في جريدة "التيمبير" وفي مجلة "السبت". وكان يبدو لي أنه جنس أدبي مستوحى من "حماري بلاتيرو وأنا" لحوان رامون خيمينيث، الذي كان رائجاً بين الشعراء الشباب المتطلعين إلى أن يحوا، من الخريطة، أسطورة غيرمر بالينشا. وقد رعى الشاعر خورخي ريوخاس، وارث ثروة سريعة الزوال، باسمه ورصيده، نشر كتيبات شعر أصيلة، أيقظت اهتماماً كبيراً، بين أبناء جيله، ووحدت جماعة من الشعراء المعروفين.

كان ذلك تديلاً عميقاً في العلاقات المتزلية، فصورة المدير السابق الطيفية، استبدلت ليحل محلها حضور ملموس يحافظ على المسافة الواجبة، ولكنه في تناول اليد دوماً، تخطى المدير الجديد عن التفتيش الروتيني على المظهر الشخصي وغيره من القواعد المطة. وكان يتبادل الحديث مع التلاميذ، أحياناً، في الاستراحة الليلية.

الأسلوب الجديد، وضعني في اتجاهي الصحيح. ربما كان كالدبيرون قد حدث مديري الجديد عني. ذلك أنه في إحدى الليالي الأولى، أجرى لي سيراً حول علاقاتي بالشعر، فأطلقت العنان لكل ما في داخلي، فسألني إذا ما كنت قد قرأت "الشجرة الشعرية"، وهو كتاب لألفونسو ريبس، آثار الكثير من التعليقات، فاعترفت له بأنني لم أقرأه، فأحضره لي في اليوم التالي. التهمت نصفه تحت المقعد، خلال ثلاثة دروس متتالية. والبقية خلال الاستراحة، في ملعب كرة القدم. وقد أسعدني أن كاتباً يمثل تلك الشهرة الواسعة، يهتم بدراسة أغنيات أغوستين لارا، كما لو أنها أشعار غارثيلاسو، متذرعاً بعبارة ذكية: "أغنيات أغوستين لارا الشعبية ليست أغنيات شعبية". وقد كان ذلك، بالنسبة إليّ، أشبه بالعشور على الشعر، مُذاباً في حساء الحياة اليومية.

تخلي مارتين عن الشقة الرائعة المخصصة للمدير. وأقام مكتبه،
مفتوح الأبواب، في الفناء الرئيسي، فقرّبه ذلك أكثر من مسامراتنا بعد
العشاء. وقد استقر، للإقامة طويلاً مع زوجته وأبنائه في بيت
كولونيالي كبير، في حالة جيدة، في أحد أركان ميدان المدينة الرئيسي.
وكان فيه مكتب تغطي جدرانه كل الكتب التي يمكن أن يعلم بها قارئ
متابع لأذواق التجديد، في تلك السنوات، وهناك كان يزوره، في نهاية
الأسبوع، أصدقاؤه من بوغوتا، ولا سيما زملاؤه في جماعة "حجر
وسماء". وفي أحد أيام الأحاد، كان عليّ أن أذهب إلى بيته، مع
غيبيرمو لوبيث غيبرا، من أجل مراجعة عارضة. وكان هناك إدواردو
كارانثا وخورخي روخاس، النجمان الكبيران. طلب منا المدير الجلوس،
بإيالة سريعة، كيلا نقطع المحادثة، فبقينا هناك حوالي نصف ساعة،
دون أن نقسم كلمة واحدة، لأنهم كانوا يتناقشون حول كتاب لبول
فاليري، لم تكن قد سمعنا به. كنت قد رأيت كارانثا أكثر من مرة في
مكتبات ومقاهي بوغوتا، وكنت قادراً على تمييزه من إيقاع صوته
وتدقيقه، وهو يتوافق مع ملامحه الشوارعية وطريقته في الحياة؛ كشاعر.
أما خورخي روخاس بالمقابل، فلم أستطع التعرف عليه من ملامحه
وأسلوبه الوزاري، إلى أن توجه إليه كارانثا باسمه. كنت أتلهف لأن
أكون شاهداً على نقاش حول الشعر بين أكبر ثلاثة شعراء. ولكن ذلك لم
يحدث. وفي نهاية حديثهم، وضع المدير يده على كتفي، وقال لضيفيه:
- هذا شاعر كبير.

قال ذلك تلمظاً بالطبع، ولكنني أحسست بالزهو. وأصر كارلوس
مارتين عليّ أن يلتقط لنا صورة مع الشعارين الكبيرين، وقد التقطها

بالفعل. ولكنني لم أعرف عنها شيئاً، إلا بعد نصف قرن من ذلك، في
بيته على الساحل الكالاني، حيث تقاعد ليستمتع بشيخوخته الطبية.
هزت المعهد رياح التغيير، فالمدّياح الذي لم تكن نستخدمه إلا
لرقص، رجلاً مع رجل، تحول بفضل كارلوس مارتين إلى وسيلة انتشار
اجتماعي. ولأول مرة صارت تُسمع وتناقش الأخبار الليلية في فناء
الاستراحة. تضاعف النشاط الثقافي مع تأسيس المركز الأدبي، ونشر
جريدة أدبية. وعندما وضعنا قائمة المرشحين المحتملين ذوي الميول الأدبية
الواضحة، وفر لنا عددهم تسمية الجماعة: مركز الثلاثة عشر الأدبي. بنا
لنا ذلك ضربة حظ، لأنه كان فوق ذلك، تحدياً للتطير من العدد ثلاثة
عشر. وكانت المبادرة من التلاميذ أنفسهم، وتلخص فقط في
اجتماعنا، مرة كل أسبوع، للتحدث في الأدب، مع أننا لم تكن في
الحقيقة نفعل شيئاً غير ذلك، في أوقات فراغنا، داخل المعهد وخارجه.
كل واحد منا كان يأتي بما لديه، فيقرؤه ويخضعه لأحكام الجميع.
وكنت، أنا المذهول بذلك النموذج، أساهم في قراءة سونيئات أوقعها
بالاسم المستعار: خايبير غارثيس، ولم أكن أستخدمه في الواقع للتمييز،
ولما لأخفى خلفه. لأن سونيئاتي كانت مجرد قارئ حرفية، دون إلهام
ودون تطلعات. ولا يمكن أن تُعزى إليها أي قيمة شعرية، لأنها لم تكن
تخرج من الروح. كنت قد بدأت بمحاكاة كيفيدو، ولوبي دي بيغا، وحتى
غارسيلا لوركا، ولا سيما ثمانياته العفوية التي يكفي البعد بها،
للمواصلة تلقائياً. وقد وصلت بعيداً في حنى المحاكاة تلك، حتى إنني
فرضت على نفسي مهمة التحوير الساخر، لكل واحدة من سونيئات
غارثيلاسو دي لايبغا الأربعين، وبالترتيب نفسه. وكنت أكتب كذلك، ما

يطلبه بعض تلاميذ القسم الداخلي، ليقدموه إلى صديقاتهم في أيام الأحاد، على أنه من تأليفهم. وقد قرأت لي إحداهن بتأثر، وفي سريّة مطلقة، الأشعار التي أهداها إليها حبيبها، على أنها من كتابته.

قدم لنا كارلوس مارتين مستودعاً صغيراً في الطابق الثاني من المعهد، نوافذه موصدة لدواع أمنية. وكنا حوالى خمسة أعضاء نتولى وضع برنامج الاجتماع التالي. لم يتخذ أي واحد منهم مهنة الكاتب، ولكن المسألة لم تكن في ذلك، وإنما في اختبار إمكانيات كل واحد. كنا نناقش أعمال الآخرين، ونستشيط غضباً، كما لو أننا في مباراة كرة قدم. في أحد الأيام اضطر، ريكاردو غونثالث ريبول إلى الخروج في منتصف المناقشة، وفوجئ بالمدير يضع أذنه على الباب، ليسمع مجادلاتنا. كان فضوله مشروعاً، لأنه لم يستطع أن يصدق أننا نكرس أوقات فراغنا للحديث عن الأدب.

في أواخر شهر آذار، وصلنا خبر أن المدير السابق، دون أليخاندرو راموس، قد أطلق رصاصة على رأسه، في الحديقة الوطنية في بوغوتا. لم يقتنع أحد بنسبة ذلك التصرف إلى طبعه المنعزل، وربما المكتئب. كما لم يكن ممكناً تصور أي سبب معقول للانتحار وراء قتال الجنرال أوربي أوربي، المحارب في أربع حروب أهلية، والسياسي الليبرالي الذي جرى اغتياله بالفرقوس، على يد متعصبين اثنين في ردة الكابيتوليو. ذهب وفد من المعهد، برئاسة المدير الجديد، للمشاركة في جنازة المعلم أليخاندرو راموس الذي بقي في ذاكرة الجميع، كنقطة وداع مرحلة أخرى.

كان الاهتمام بالسياسة الوطنية متديناً جداً في المدرسة الداخلية. لقد سمعت من يقول، في بيت جدي، إن الفرق الوحيد بين الحزبين، بعد

حرب الألف يوم، هو أن الليبراليين يذهبون إلى قداس الساعة الخامسة، كيلا يراهم المحافظون في قداس الشامنة، ويظنّوهم مؤمنين. ومع ذلك، فقد بدأت الاختلافات الحقيقية تصبح ملموسة بعد ثلاثين سنة من ذلك، عندما فقد الحزب المحافظ السلطة، وحاول الرؤساء الليبراليون الأوائل أن يقتسحوا البلاد لرباح العالم الجديدة. وانهمك الحزب المحافظ، المهزوم يصدأ سلطته المطلقة، في إعادة ترتيب وتنظيف بيته، تحت التألق الثاني لموسوليني في إيطاليا، وظلمات الجنرال فرانكو في إسبانيا، بينما كانت الإدارة الجديدة للرئيس ألفونسو لوبيث بوماريوخو، منع جماعة من الشباب المثقفين، لمحاول خلق الظروف لليبرالية محدثة، وربما دون الانتباه إلى أنهم يحققون القدرة التاريخية في تقسيمنا إلى النصفين اللذين كان العالم منقسماً إليهما. وكان ذلك حتمية لا سبيل إلى تجنبها. فقد قرأت في أحد الكتب التي كان الأساتذة يعيروننا إياها، قولاً منسوباً إلى لينين: "إذا لم تتدخل في السياسة، فإن السياسة سوف تتدخل فيك، في نهاية الأمر".

ومع ذلك، وبعد ست وثلاثين سنة من سيطرة الرؤساء المحافظين الكهفية، بدأ السلام يبدو ممكناً. فثلاثة رؤساء شباب، بذهنية حديثة، بدؤوا يفتح منظور ليبرالي يبدو مستعداً لإزاحة ضباب الماضي. والرئيس ألفونسو لوبيث بوماريوخو، أبرز الثلاثة، والإصلاحي المجازف، حقق إعادة انتخابه لولاية ثانية، في عام ١٩٤٢. ولم يكن هناك، كما يبدو، ما يعكر إيقاع تداول الرئاسة. وهكذا كنا، في سنواتي الأولى في المعهد، متشربين بأخبار الحرب الأوروبية التي تبقيتنا متيقظين، بطريقة لم تستطع السياسة المحلية التوصل إليها قط. لم تكن الصحف تدخل

المعهد، إلا في حالات خاصة جداً، لأننا لم نكن معتادين على التفكير فيها، ولم تكن هناك أجهزة مذبذب ثقالة، والمذبذب الوحيد في المعهد، هو مذبذب الرف القديم في قاعة الأساتذة الذي كنا نشغله بأعلى صوت في الساعة السادسة، لكي نرقص وحسب، وكنا يعيدين عن التفكير في أنه كانت تُقرَّخ في ذلك الحين، الحرب الأكثر دموية وعشوائية، بين كل حرونا.

دخلت السياسة فجأة إلى المعهد، انقسمنا إلى فريقين: ليبراليين ومحافظين. وعرفنا لأول مرة، في أي جانب يقف كل واحد منا. برزت تضاللية داخلية، ودية، وأكاديمية، إلى حد ما في البداية، ثم راحت تتردى، بالتوافق مع الحالة المعنوية نفسها التي بدأت تُعَمِّن البلاد. أول التوترات في المعهد، كانت غير ملحوسة تقريباً، ولكن أحداً لم يراوده الشك في التأثير الطيب، لكارلوس مارتين الذي يقف على رأس جهاز أساتذة لم يخفوا أيديولوجياتهم يوماً. ومع أن المدير الجديد لم يكن مناصراً بجلال لأحد الفريقين، إلا أنه أعطى موافقته على سماع الأخبار ليلاً، من مذبذب القاعة. وصارت الأخبار السياسية، منذ ذلك الحين، تغلب على الموسيقى الراقصة. وكان يقال، دون تأكيد مثبت، إنه يعلق في مكتبه، صورة للينين أو ماركس.

لا بد أن التمرد المميز الوحيد الذي حدث في المعهد، كان ثمرة تلك الأجواء المخلخلة، فقد تطايرت في قاعة النوم الوسائد والأحذية، على حساب القراءة والنوم. لم أتمكن أن أحدد السبب، ولكنني أظن أن السبب، على ما أتذكر - ويتفق معي في ذلك عدد من زملائي - هو أحد مقاطع الكتاب الذي كان يُقرأ بصوت عالٍ في تلك الليلة: "الروح

بما يحول في الذهن"، للفنزويلي رومولو غاييغوس. لقد وقعت مشادة قتالية غريبة.

دخل كارلوس مارتين، وقد استدعى على عجل، إلى قاعة النوم، وجابها من أقصاها إلى أقصاها، عدة مرات، وسط صمت عميق سببه ظهوره. وبعد ذلك، في نوبة سلطوية، غريبة عن طبعه، أمرنا بمغادرة قاعة النوم بالسيجانات والأخفاف، والاصطفاف في الفناء المتجمد، وألقى علينا هناك خطبة حماسية بأسلوب كاتيلينا المروغ، ورجعنا بانتظام تام لمواصلة نومنا. كان ذلك هو الحادث الوحيد الذي أتذكره، خلال سنواتنا في المعهد.

كان ماريو كونفيرس، وهو طالب جاء في تلك السنة إلى الصف السادس، يبقينا مشوشين في ذلك الحين، بموضوع إصدار جريدة مختلفة عن المعهد في المدارس. وكان أحد أول اتصالاته معي. وبدأ لي من المناسب، أن أوافق على أن أكون رئيس التحرير، كنتُ مفتوناً بذلك، ولكن دون أن تكون لدي أي فكرة واضحة عن مهماتي. تزامن آخر الإعدادات للجريدة مع اعتقال الرئيس لوبيث بوماريغو على يد جماعة من كبار ضباط القوات المسلحة في الثامن من تموز ١٩٤٤، بينما كان في زيارة رسمية في جنوبي البلاد، والحكاية، مثلما رواها هو نفسه، لم تكن تتضمن أية فضلات، ربما دون أن يتوي ذلك، قدم للمحققين رواية رائعة، لم يعلم، بمقتضاها، بالحادثة إلا عندما جرى تحريره. وقد ظلت حركة باستر الانقلابية، شديدة الالتصاق بحقائق الحياة الواقعية، حدثاً مضحكاً آخر من أحداث تاريخنا الوطني.

أليسيرو بيراس كامارغو، الذي عُيِّن رئيساً، أبقى البلاد منومة

بصوته وإلقائه المثقنين، طوال عدة ساعات، عبر الإذاعة الوطنية، إلى أن جرى تحرير الرئيس لوبيث وأقر النظام. ولكن تم قرض حالة طوارئ صارمة، مع رقابة على الصحافة، بدت التنبؤات غامضة وملتبسة. فقد حكم المحافظون البلاد، منذ الاستقلال عن إسبانيا سنة ١٨٣٠، حتى انتخاب أولابا هيريرا، بعد قرن من ذلك، دون أن تظهر عليهم أي ملامح للتوجه نحو الليبرالية. أما الليبراليون بالمقابل، فكانوا يتحولون أكثر فأكثر، نحو المحافظة، في بلاد تقضي مخلقة، في تاريخها، مزقاً من لحصها. وفي تلك اللحظة كانت هناك نخبة من المثقفين الشباب المفترون برهم السلطة، مثالهم الأكثر جذرية وقابلية للعيش هو خورخي إلسير غايتان. لقد كان واحداً من أبطال طفولتي، بسبب أعماله المناهضة للقمع في منطقة الموز. وهو ما كنت أسمع عنه دون أن أفهمه، منذ بدأت أعي الحياة. كانت جدتي تقدره، ولكنني أظن أنه كان يفلتها ثوابه آنذاك مع الشيوعيين. وكنت أنا نفسي، أقف خلفه، بينما هو يلقي خطاباً مدوياً من شرفة في ساحة ثيباكيرا. وقد بهزني رأسه الذي له شكل شحامة، وشعره السبط والسميك، وبشرة الهندي النقي، وصوته الراعد بنبرة البوغوتيين التي، ربما، كان يبالغ فيها لحسابات سياسية. لم يتحدث في خطابه عن ليبراليين ومحافظين، أو عن مستغلين ومستغلين، مثلما يتحدث الجميع، وإنما عن فقراء وأوليغاركية، وهي كلمة كنت أسمعها عندئذ، أول مرة تدق كمنطوقة، في كل جملة، وقد سارعت للبحث عنها في المعجم.

كان محامياً لامعاً، وتلميذاً نجيباً في روما، للحقوقي الإيطالي إنريكو فيري. وقد درس هناك بالذات فنون موسوليني الخطابية، وكان

له شيء من أسلوبه المسرحي على المنبر. أما محازبه المنافس غابرييل تورباي (طرية)، فكان طبيباً مشقفاً وأنيقاً، يضع نظارة ذهبية فاخرة، تضعني عليه هيئة الفنان السينمائي، وكان قد ألقى خطاباً غير متوقع، في مؤتمر حديث العهد، للحزب الشيوعي، فاجأ الكثيرين وأثار قلق بعض محازبيه البرجوازيين. ولكنه كان مقتنعاً بأنه لا يتناقض في كلامه ولا في أفعاله مع تكوينه الليبرالي أو ميراثه الأرستقراطية، ويرجع تكلفه مع الدبلوماسية الروسية، إلى سنة ١٩٢٦، عندما أقر في روما، العلاقات مع الاتحاد السوفييتي، بوصفه سفيراً لكولومبيا في روما. وقد جعلها رسمية في واشنطن، بوصفه وزير كولومبيا المفوض في الولايات المتحدة.

كانت علاقته بالسفارة السوفيتية في بوغوتا حميمة جداً، وله صداقات مع بعض قادة الحزب الشيوعي الكولومبي، ممن يمكن لهم التوصل إلى تحالف انتخابي مع الليبراليين. وكثيراً ما جرى الحديث عن مثل هذا التحالف في تلك الأيام، ولكنه لم يهرم قط. وقد انتشرت في كولومبيا، آنذاك أيضاً، وهو سفير في واشنطن، إشاعة ملحة بأنه الخطيب السري لواحدة من كبار نجوم هوليوود - ربما هي جين كراوفورد أو بوليت غودار - ولكنه لم يتخل قط، عن سيرته كعازب لا يساوم.

كان يمكن لناخيي غايتان وطرية أن يشكلوا أغلبية ليبرالية، وأن يفتحوا دروباً جديدة، ضمن الحزب نفسه. غير أنه لا يمكن لأي النصفين، منفصلاً، أن يحقق الفوز على المحافظين المتحدين والسليحين.

في تلك الأيام السيئة، ظهرت صحيفتنا "الجريدة الأدبية". وقد فوجئنا، نحن أنفسنا الذين تسلمنا العدد الأول مطبوعاً، من مظهره الاحترافي، في ثماني صفحات من القطع النصفى (تابلويد)، كان جيد

الإخراج والطباعة. وكان كارلوس مارتين وكارلوس خوان كالديرون أشد التحسين. وقد ناقش كلاهما في أثناء الاستراحات، بعض المقالات. وكان أحد أهم تلك المقالات هو الذي كتبه كارلوس مارتين، بناء على طلبنا، وطرح فيه ضرورة التصليح بوعي شجاع في النضال ضد المتاجرين بمصالح الدولة، من السياسيين المتسلقين والسماسرة الذين يعرقلون مسيرة البلاد الحرة، ونشر المقال مع صورة كبيرة له في الصفحة الأولى. وكان هناك مقال لكونفيرس، حول الهيمنة الإسبانية، ونشر غثنائي لي موقع باسم خابيير غارثيس. وقد أخبرنا كونفيرس بأن هناك حماساً كبيراً بين أصدقائه في بوغوتا، ومساعدات محتملة لإطلاق الجريدة بصورة أكبر، بحيث تكون مشتركة لكل المدارس.

لم يكن العدد الأول قد وُزع، عندما وقع انقلاب باستور. وفي اليوم الذي أعلن فيه عن تعكر الأمن العام، حضر عمدة ثيباكيرا إلى المعهد، على رأس فصيلة مسلحة، وصادر الأعداد الجاهزة للتداول. كان هجوماً سيئاً، لا يمكن تفسيره إلا بهوشاية خبيثة، بأن الجريدة تتضمن مراد هدامة. وفي اليوم نفسه، وصل إشعار من المكتب الصحفي لدى رئاسة الجمهورية، بأن الجريدة قد طُبعت دون المرور على رقابة حالة الطوارئ. وجرى عزل كارلوس مارتين من إدارة المعهد، دون إعلان مسبق.

لقد كان قراراً غير معقول بالنسبة لنا، جعلنا نشعر بالهانة وبأهيتنا في الوقت نفسه. لم يكن عدد نسخ الجريدة يتجاوز المئتين، لتوزيعها بين الأصدقاء، ولكنهم أوضحوا لنا أن مطلب الرقابة هو أمر معتمد لا بد منه، في ظل حالة الطوارئ. وألقي التصريح حتى إشعار آخر، لم يأت قط.

لقد مرت أكثر من خمسين سنة، قبل أن يكشف لي كارلوس مارتين، من أجل هذه المذكرات، عن تلك الواقعة العيشية. ففي اليوم الذي صُودرت فيه "الجريدة"، استدعاها وزير التربية بالذات إلى مكتبه في بوغوتا، وهو الوزير نفسه الذي عينه مديراً - أنطونيو روتشا - وطلب منه الاستقالة. وجد كارلوس مارتين أمام الوزير، نسخة من "الجريدة الأدبية"، وقد رُسمت خطوط حمراء تحت جمل كثيرة، اعتبروها هدامة. وفعلوا الشيء نفسه بمقاله الافتتاحي، ومقال ماريو كونفيرس، وكذلك بقصيدة المؤلف معروف. اعتُبرت مريبة ومكشوفة بمرور مشفرة. حتى الكتاب المقدس نفسه، يمثل هذه الخطوط سيئة النية، تحت عبارات منه، يمكن أن يُعرب عن عكس معناه الحقيقي، قال له ذلك كارلوس مارتين، في رد فعل غاضب بصورة ملحوظة، دفع الوزير إلى تهديده باستدعاء الشرطة. جرى تعيينه مديراً لمجلة "البيت"، وهو أمر يجب اعتباره، في نظر مشرق مثل، ترقية كبيرة. ومع ذلك، فقد ظل يشعر إلى الأبد، بأنه كان ضحية مؤامرة قوى يمينية. وقد تعرض إلى اعتداء في أحد مقاهي بوغوتا، أوشك أن يرد عليه بالرصاص. ثم عينه وزير آخر، فيما بعد، رئيساً لقسم الشؤون القانونية، فمارس حياة مهنية متألقة توجت بتقاعد محاط بالكتب والحنين، في مكان إقامة الهادئ في تاراكوتا (إسبانيا).

في الوقت نفسه الذي أبعد فيه كارلوس مارتين - ودون أي علاقة به بالطبع - انتشرت في المعهد، وفي بيوت المدينة وجاراتها، رواية بلا سند تقول إن الحرب مع اليسار، في سنة ١٩٣٢، كانت تلفيقاً من الحكومة الليبرالية، لتدعم نفسها بالقوة في مواجهة المعارضة المحافظة

المتهمكة. وتؤكد الرواية التي وُضعت، حتى في منشورات مطبوعة، أن الدراما قد بدأت، دون أية نوايا سياسية، عندما اجتاز ملازم بحري نهر الأمازون مع دورية عسكرية، واختطف من الضفة الكولومبية، الخطيبة السرية للحاكم المحلي في مدينة ليتسيا، وهي خلاسية فاتنة يدعونها بيلا، كتصغير لاسمها بيلاز. وعندما اكتشف الحاكم المحلي الكولومبي أمر الاختطاف، اجتاز الحدود، مع جماعة العمال المسلحين، واسترد بيلا من أراضي البيرو. ولكن الجنرال لويس سانتشيث ثيرو، دكتاتور البيرو، عرف كيف يستغل تلك المناوشة، ليغزو كولومبيا، ويحاول تبديل الحدود الأمازونية، لمصلحة بلاده.

عندئذ، عمّد الرئيس الكولومبي أولايا هيريرا - تحت ضغط شرس من جانب الحزب المحافظ المهزوم، بعد نصف قرن من الحكم المطلق - إلى إعلان حالة الحرب، فأعلن التعبئة الوطنية، وسلم قياد جيشه لرجال يتمتعون بشقته، وأرسل القوات لتحرير الأراضي التي اغتصبها البيرويون. دوت في البلاد صرخة حرب أجهت طفولتنا: "قلّعتش كولومبيا، وتسقط البيرو". وفي ثورة الحرب انتشرت كذلك، الرواية القائلة إنه قد جرت عسكرة الطائرات المدنية التابعة لشركة "سكادتا" SCADTA وتسلبها كأسراب حربية مقاتلة. وإن واحدة منها، بسبب نقص القنابل، قرّبت موكباً بمناسبة أسبوع الألام في بلدة "غيبية" البيروية، بقصفه بجوز الهند، الكاتب الكبير خوان لوثانو إي لوثانو، الذي عبّاه الرئيس أولايا ليعقيه على اطلاع على الحقيقة، في حمى الأكاذيب المتبادلة تلك، كتب بشره البار، القصة الحقيقية للحادثة. ولكن الرواية الزائفة ظلت هي السائدة لوقت طويل.

وجد الجنرال لويس ميغيل سانتشيث ثيرو في الحرب، بالطبع، قرصة من السماء، لكن يرسخ نظامه الحديدي في البيرو. وفي الوقت نفسه، عين الرئيس أولايا هيريرا قائداً عاماً للقوات الكولومبية، هو الجنرال والرئيس السابق المحافظ ميغيل أباديا مينديث، الذي كان في باريس آنذاك. وقد اجتاز الجنرال المحيط الأطلسي بسفينة مزودة بالمذافع، وتوغل عبر مصبات نهر الأمازون، حتى بلدة ليتسيا، في الوقت الذي كان فيه دبلوماسيو الطرفين، قد بدؤوا بإطفاء تيران الحرب. ودون أي علاقة بانقلاب باستو، ولا بحادثة الجريمة، جرى تعيين مدير جديد، بدلاً من كارلوس مارتين، هو أوسكار إسبيتيا براند، المربي مهنيًا والمشهور فيزيائياً. وقد استشار المدير البديل في المعهد، كل أشكال الشكوك. تحفظاتي ضده هزئتني، منذ التحية الأولى، بسبب ذلك القدر من التعاس الذي نظر به إلى شعري الطويل كشاعر، وشاربي غير المشذب. كان له مظهر قاس، وينظر مباشرة إلى العيون نظرة صارمة. وقد أربعني خير أنه سيكون أيضاً، أستاذنا في الكيمياء العضوية.

في يوم سبت من تلك السنة، كنا في السينما، في منتصف عرض بعد الظهر، عندما أعلن صوت مضطرب من مكبرات الصوت بأن هناك طالباً ميتاً في المعهد. كان ذلك مؤثراً، حتى إنني لم أستطع تذكر أي فيلم كنا نشاهده، ولكنني لن أنسى أبداً تور كلوديت كوليسر، وهي توشك أن تلقي بنفسها في نهر صاخب، من فوق حاجز جسر. كان الميت طالباً في السنة الثانية، عمره سبعة عشر عاماً، جاء حديثاً من مدينته باستو النائية، بالقرب من الحدود مع الإكوادور. وقد أصيب بتوقف عن التنفس، في أثناء هرولة، نظمها أستاذ الرياضة، كعقوبة نهاية أسبوع

لتلاميذه المتكاسلين، وكانت تلك هي الحالة الوحيدة التي مات فيها طالب، خلال وجودي في المعهد، وقد سبب موته تأثراً شديداً، ليس في المعهد وحسب، وإنما في المدينة أيضاً. اختارني زملائي لألقي في الجنائز، بضع كلمات وداع. وفي تلك الليلة بالذات، طلبت لقاء المدير الجديد، لأريه خطبتي التأبينية، وقد هزني الدخول إلى مكتبه، كتكرار خارق للمهزة الوحيدة التي أصابته، لدى اللقاء بالمدير الأسبق الميت. قرأ الأستاذ إسبانياً مسرودة كلمتي بلامح مأساوية، ووافق عليها دون تعليق. ولكنني، عندما تهضت للخروج، أشار لي بأن أعود للجلوس. كان قد قرأ بعض كتاباتي وأشعاري، من تلك الكثيرة التي يجري تداولها من يد إلى يد في الاستراحات، وبدأ له أن بعضها جدير بأن يُنشر في ملحق أدبي. ولم أكد أحاول تجاوز خجلي القاسي، حتى أعرب هو عن هدفه الحقيقي، دون شك، من إيقاني. نصحتني بأن أقص شعر الشاعر المشعث، غير اللاتق برجل جدي، وأن أشذب شاربي الذي كالفرشاة، وأتخلى عن ارتداء القمصان المزينة بعصافير وأزهار، وتبدلوا كأنها ملابس كمرتقال. لم أكن أنتظر شيئاً من هذا القبيل قط، ولحسن الحظ أنني لم أرد عليه بإجابة وقحة. وقد لاحظت ذلك، فأتخذ نبرة طفولية ليوضح لي مخاوفه من أن تنتشر موضتي بين التلاميذ الصغار، بسبب شهرتي كشاعر. خرجت من المكتب متأثراً للاعتراف بعاداتي وموهبتي الشعرية من قبل مرجعية، على تلك الدرجة من الأهمية. وكنت مستعداً لإرضاء المدير بتغيير مظهري، من أجل تلك المناسبة الوقورية. حتى إنني فسرت إلغاء تكريم المثوق، بناءً على رغبة أسرته. باعتباره إخفاقاً شخصياً لي.

كانت النهاية غائمة. فقد اكتشف أحدهم أن زجاج التابوت، يبدو مغشى بالخيار، وهو معروض في مكتبة المعهد. فتحه القارو ورويت توريس، بناءً على طلب الأسرة. وتأكد بالفعل من أنه رطب من الداخل. وفي بحثه بالتمس، عن سبب وجود البخار في ذلك الصندوق الكقيم، ضغط برفق، برؤوس أصابعه، على صدر الميت. فأصدرت الجثة أنف مؤثرة. وبلغت الأسرة حد الهوس بفكرة أنه لا يزال حياً، إلى أن أوضح الطبيب أن الرئتين قد احتبسنا الهواء، عند إصابته بالفشل التنفسي. ثم أطلقته بالضغط على الصدر. وعلى الرغم من بساطة التشخيص، أو ربما لهذا السبب بالذات، بقي الخوف قائماً عند البعض من أنه قد دُفن حياً. وبهذه الروح المعنوية، ذهبت في إجازة السنة الرابعة، متلهفاً إلى إقناع والدي بعدم مواصلة الدراسة.

نزلت من السفينة في سوكري، تحت رذاذ مطر غير مرئي. بدا لي سور المرقأ مختلفاً عما هو عليه في حثيني. وكانت الساحة أصغر حجماً وعُمرها مما هي عليه في ذاكرتي. والكنيسة والرابية المشحرة بشعٍ منهما ضوء الخذلان، تحت أشجار اللوز المقلعة، وتشير الأكاليل الملونة في الشوارع، إلى اقتراب أعياد الميلاد. ولكن هذه الأعياد لم تبعث في الانفعال الذي أثارته في نفسي في مرات أخرى، ولم أتعرف على أي واحد من الرجال، حاملي المظلات الذين ينتظرون في المرقأ، إلى أن قال لي أحدهم لدى مروري، بتهرته وزنة صورته المعروفة:

- كيف هي الأمور

كان أبي. وقد هزل كثيراً بسبب فقدان الوزن، يرتدي بدلة القطن الرقيقة البيضاء التي كانت تميزه من بعيد، منذ سنوات شبابه، وإنما

ببطالاً بيتياً، وقميصاً مذارياً قصير الأكمام، وقبعة مراقب عمال، غريبة الشكل. وكان يرافقه أخي غوستافو الذي لم أتعرف عليه بسبب غو، مع بلوغه السنة التاسعة من العمر.

لحسن الحظ فإن الأسرة ما زالت تحافظ على مظاهر فقرها. وبدا العشاء المبكر، كما لو أنه قد أعدّ عمداً للتأكيد على أن ذلك البيت هو بيتي، وأنه لا بيت لي سواء. وكان الحبر الطيب، على المائدة، هو أن אחי ليخيا قد كسبت اليانصيب، والقصة - مثلما روتها هي نفسها - بدأت عندما حملت أمنا بأن أباهما قد أطلق النار في الهواء، لإخافة لص فاجأ يسرق من بيت أراكاتاكا القديم. روت أمي الحلم أثناء الغطور، حسب العادة العائلية، واقتربت شراء بطاقة يانصيب تنتهي بالعدد سبعة، لأن هذا العدد له شكل مسدس الجذّ نفسه. لم يحالفهم الحظ في البطاقة التي اشترتها أمي بالدين، على أن تدفع ثمنها من قيمة الجائزة نفسها. لكن ليخيا، وكان عمرها آنذاك إحدى عشرة سنة، طلبت من أبي، ثلاثين سنتافو، لتدفع قيمة البطاقة الخاسرة، وثلاثين سنتافو أخرى للإصرار، في الأسبوع التالي، على الرقم الغريب: ٢٠٧.

خبأ أخونا لويس إنريكي البطاقة ليخيف ليخيا. ولكن خوفه كان أكبر بكثير، في يوم الاثنين التالي، عندما سمعها تدخل إلى البيت صاخرة، مثل مجنونة، بأنها كسبت اليانصيب. ذلك أن أخي، في تسرع شقاوته، نسي أين خبأ البطاقة. واضطروا في حمى البحث اليهوى، إلى إفراغ الخزائن والصناديق، وقلب البيت رأساً على عقب، بدءاً من الصالة، حتى المرحاض. ولكن ما كان أكثر إثارة للقلق، مع ذلك، هو قيمة الجائزة: ٧٧٠ بيزو.

والخبر السيئ هو أن أبي قد حقق أخيراً حلمه بإرسال لويس إنريكي إلى إصلاحية فونتيدوشيو - في ميدلين -، مقتنعاً بأنها مدرسة للأبناء العاقين، وليس كما هي في الحقيقة: سجنًا لإعادة تأهيل المنحرفين الأحداث الخطرين جداً.

القرار الأخير اتخذه أبي، عندما أرسل ابنه العاق لتحصيل دين للصيدلية. وبدلاً من أن يسلم إلى أبيه البيزوات الثمانية التي أعطيت له، اشترى بها آلة تنبلي جيدة، تعلم العزف عليها كمعلم. لم يعلق أبي بكلمة واحدة، عندما اكتشف وجود الآلة الموسيقية في البيت. وواصل مطالبة ابنه بتحصيل ذلك الدين. فكان الأخير يرد عليه دوماً، بأن صاحبة الحانوث لا تملك النقود لتدفعها، وكان قد انقضى حوالي شهرين، عندما وجد لويس إنريكي أباه يعزف على التيبلي، لحناً مرعجلاً: "انظر إليّ كيف أعزف هذا التيبلي الذي كلفني ثمانية بيزوات".

لم ندر قط، كيف عرف الحقيقة، ولا لماذا تظاهر بعدم معرفته بحيلة ابنه. ولكن هذا الأخير اختفى من البيت، إلى أن هدأت أمي زوجها، وعندهئذ سمعنا أبي يطلق أول تهديداته بإرسال لويس إنريكي إلى إصلاحية الأحداث في ميدلين. غير أن أحداً لم يوله اهتماماً. ذلك أنه كان قد أعلن من قبل، عن نيته في إرسالني إلى دير أوكانييا، لبعاقيني على لا شيء، سوى نيل شرف أن يكون هناك خوري في البيت. وقد نسي ذلك قبل أن يتمكن من تصوره. ومع ذلك، كان أوكوردون التيبلي هو القطرة التي جعلت الكأس يقطع.

لم يكن الدخول إلى دار الإصلاح ممكناً، إلا بقرار من قاضي الأحداث. ولكن أبي تجاوز انعدام توفر الشروط المطلوبة، من خلال

أصدقاء، مشركين، مع رسالة توصية من مطران ميلدين، المؤسسين
غارسيا بينيتز، وقد أبدى لويس إنريكي من جانبه، طبيب جبلته، حين
سمع بأن يقتادوه، بسعادة وكأنه ذاهب إلى حفلة.

الإجازة من دونه، لم تكن كالإجازات السابقة. كنت أحسن التواصل
في الغناء كمحترف مع عزف فيلاديلفيو بيلينا، الحياض السحري
وعازف التيبلي البارغ، ومع المعلم بالديس أيضاً بالطبع. وكان ذلك في
منتهى السهولة. ولدى الخروج من حفلات رقص الأغنية المربكة تلك،
كانت تنفض علينا من ظلال الحديقة أسراب من التدريات، يومئ خفية،
بكل أنواع الإغواء. وكانت هناك واحدة قريبا، ولكنها لم تكن منهن،
فاخطأت بها وعرضت عليها أن تذهب معي، فردت علي بمنطق مثالي،
أنها لا تستطيع، لأن زوجها نائم في البيت. ولكنها بعد ليلتين من
ذلك، أخبرتني أنها ستترك الباب الخارجي، دون إن توصده بالمزلاج،
ثلاث مرات كل أسبوع، لكي أتمكن من الدخول، دون أن أطرده، عندما
لا يكون زوجها في البيت.

إنني أتذكر اسمها وكنتها. ولكنني أفضل أن أسميها:
نيفرومانا، كانت ستكمل العشرين من عمرها، في عيد الميلاد، ولها
بروقيل خبثية وبشرة كاكازو. وكانت مريحة في الفراش، وذات رعشة
تشوة محزونة ومندفعة، كأنها انهيار سيل حجري، وغريزة في الحب لا
تبدو غريزة كائن بشري، وإنما نهر مائج. وقد تحولنا، منذ المرة الأولى،
إلى مجنونين في الفراش، كان لزوجها - مثل خوان بريغا - جسد مارد
وصوت طفلة. وكان ضابطاً في الأمن العام من جنوبي البلاد، يجرجر
سمعة سيئة بأنه كان يقتل الليبراليين كيلا يفقد دقته في التصويب

وحسب، كانا يعيشان في غرفة مقسومة بحاجز من الكرتون، لها باب
يؤدي إلى الشارع، وآخر يطل على المقبرة. فكان الجيران يتذمرون من
أنها تطلق راحة الموتى، ينباح الكلية السعيدة الذي تطلقه. ولكن الموتى
كانوا يبتسجون منها، دون ريب، أكثر مما يلقون، كلما كان نباحها
أقوى.

في الأسبوع الأول، اضطرت إلى الهرب من الحجرة، في الرابعة
مجرأ، لأننا أخطأنا في تاريخ اليوم. وكان يمكن للضابط أن يعود في
أي وقت. خرجت من الباب المؤدي إلى المقبرة، خلال ضوء الفجر
الكاذب، ونباح الكلاب مزعجة الموتى. وعلى جسر القناة المائية الثاني،
رأيت تقدم هيئة ضخمة لم أتعرف على صاحبها، إلى أن تحاذينا. لقد
كان الرقيب شخصياً، وكان سيجدني في بيته، لو أنني تأخرت، خصص
دقائق أخرى.

- صباح الخير أيها الأبيض - قال لي بشرة ودودة.

وأجبت دون قناعة بما أقول:

- فليحفظك الرب، أيها الرقيب.

توقف عندئذ ليطلب مني تاراً. قدمتها إليه، وقد اقتربت منه كثيراً
لأحسي عود الثياب من ربح الفجر. وعندما ابتعد بالسجارة المشتعلة،
قال لي بمزاج رائق:

- تنبعت منك رائحة عاهرة لا طاقة لك بها.

دام رغبتي أقل مما كنت أتوقع، ففي يوم الأربعاء التالي غلبني التوم
ثانية، وعندما فتحت عيني وجدت نفسي في مواجهة الخصم المتضرر
الذي كان يشأملني بصمت، من طرف السرير. كان رغبتي شديداً إلى حد

وجدتُ معه مشقة في مواصلة التنفس، فحاولت المرأة، وكانت لا تزال عارية أيضاً، أن تتدخل، لكن زوجها أبعداها جانباً، بسيطانة المسدس قائلاً:

- لا تتدخلي. مسائل الفرائش تُحل بالرضا.

وضع المسدس فوق الطاولة، ثم فتح زجاجة روم، ووضعها إلى جانب المسدس، وجلسنا وجهاً لوجه لشرب دون كلام. لم أكن قادراً على تصور ما الذي سيفعله، ولكنني فكرتُ في أنه لو أراد قتلي بالفعل ذلك، دون مراوغة. بعد قليل، ظهرت لينغرومانا مشدرة بملامة، وعلى رأسها قلنسوة احتفالية، ولكنه صوب إليها المسدس قائلاً:

- هذه مشكلة رجال.

فقفزت هي واختبأت وراء الحاجز.

كنا قد أنهينا الزجاجة الأولى، عندما انهمر وابل المطر. وفتح عندئذ الزجاجة الثانية، وأسند فوهة المسدس إلى صدره وحدق في بعينين جامدتين، ثم ضغط عندئذ الزناد حتى أقصاه. ولكن مطرقة رنت في الفراغ. وحين قَدِمَ إليّ المسدس، بدا عاجزاً عن التحكم بارتعاش يده. وقال لي:

- الآن دورك.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أمسك فيها مسدساً بيدي. وقد فاجأني أنه ثقيل وساخن. لم أدري ما عليّ عمله. كنتُ مبتلاً بعمق جليدي، ويطني مشرع يزيد ملتصق. أزدتُ أن أقول شيئاً، ولكن صوتي لم يخرج. لم أفكر في إطلاق النار عليه، وإنما أعدت إليه المسدس، دون أن أدرك أن تلك كانت فرصتي الوحيدة.

- ماذا، هل تبرزت؟ - سألتني بازدياء سعيد، وأضاف: - كان عليك أن تفكر في هذا، قبل أن تأتي هنا.

كان بإمكانني أن أقول له إن الفحول يبرزون أيضاً. ولكنني أدركت أنني لا أجزو على مثل تلك الدعايات القاتلة. عندئذ فتحت طاحونة المسدس، وأخرج الطلقة الوحيدة، وألقى بها على المشددة: كانت فارغة. لم يكن ما شعرت به هو الراحة، وإنما مذلة رهيبة.

خفت قوة وابل المطر، قبل الساعة الرابعة. وكلاهما كان منهوكوناً بسبب التوتر، حتى إنني لا أتذكر في أي لحظة، أصدر لي الأمر بارتداء ملابسني، فانصعتُ بقدر من مهابة اليارزة. وعندما عاد للجلوس فقط، انتبست إلى أنه هو الذي كان يبكي، بغزارة ودون خجل، كما لو أنه يتألم بدموعه. وأخيراً مسحها بظاهر يده، ونف أنفه بأصابعه، ونهض واقفاً.

- هل تعرف لماذا ستخرج من هنا حياً؟ - سألتني. ثم أجاب هو نفسه: - لأن أباك هو الشخص الوحيد الذي عاجلني من إصابة بالسيلان، جعلتني مثل كلب عجوز، ولم يستطع أحد مداواتي منها طوال ثلاث سنوات.

ريت على ظهري تربية رجل، ودفعني إلى الشارع. كان المطر لا يزال متواصلاً، وكانت البلدة غارقة، فمضيت في الطريق، والماء يصل حتى ركبتي، ويخدر أنني بما زلت حياً.

لست أدري كيف علمت أُمي بالأمر. ولكنها بدأت في الأيام التالية، حملة مهووسة، لمنعي من مغادرة البيت ليلاً. وصارت تعاملني في أثناء ذلك، مثلما تعاملت أُمي، بأساليب إلهاء لم تكن تنفع كثيراً.

كانت تبحث عن إشارات تدل على أنني قد خلعت ملابسني خارج البيت، وتكتشف آثار عطور لا وجود لها، وتعد لي أطعمة صعبة، قبل أن أخرج إلى الشارع، إيماناً منها بالخرافة الشعبية بأن زوجها وإنها لن يتجرأ على ممارسة الحب، في أثناء عملية هضم تلك المأكولات، وأخيراً، عندما لم نجد في إحدى الليالي، مزيداً من الأعذار، لاحتجازي في البيت، جلست قبالي وقالت لي:

- يقولون إنك متورط مع امرأة شرطي، وإنه أقسم أن يطلق عليك رصاصة.

تمكنت من إقناعها بأن ذلك غير صحيح، ولكن الإشاعة تواصلت بالحاح، وكانت تيفغروماتنا ترسل إلي المراسيل بأنها وحيدة، وأن زوجها قد غادر في مهمة، وأنها لم تره منذ بعض الوقت، وكنت أبذل كل ما هو ممكن، كيلا ألتقي به، ولكنه كان يسارع إلى تحييتي عن بُعد، بإيماءة يمكن لها أن تكون مصالحة أو تهديداً على السواء، وقد رأيت آخر مرة في إجازة السنة التالية، في ليلة عريضة دعاني خلالها، إلى تناول كأس روم ثقيل لم أنجراً على رفضه.

لست أدري، بسبب فنون أية شعوبة بدأ الأساتذة والزملاء الذين اعتبروني على الدوام طالباً منزوياً، ينظرون إلي في السنة الخامسة، كشاعر ملعون، وريث أجواء الانفتاح التي ازدهرت في عهد المدير كارلوس مارتين. ألا تكون رغبتني في الظهور بهذه الصورة، هي ما دفعني إلى البدء بالتدخين في المعهد، وأنا في الخامسة عشرة؟ كانت ضربة التدخين الأولى رهيبه، فقد أمضيت نصف ليلة أحضر، وسط قبضي على أرض الحمام، وطلع على الصباح مستنفداً، لكن آثار سكرة

التبغ تلك، بدل أن تبعث في القرف، أثارت لدي رغبات لا تقاوم في مواصلة التدخين. وهكذا بدأت حياتي كمُدخن ضار، إلى حد أنني لم أعد قادراً على التفكير في جملة واحدة، ما لم يكن في ممتلئاً بالدخان. لم يكن التدخين مسموحاً في المعهد، إلا خلال الاستراحات، ولكنني كنت أطلب الإذن للذهاب إلى المراض، مرتين أو ثلاث مرات في كل درس، لكي أخدم لهفتي إلى التدخين وحسب. وهكذا وصلت إلى تدخين ثلاث علب من ذات العشرين سجارة، في كل يوم، وقد أتجاوز الأربعة في صخب الليل، وفي إحدى الفترات، بعد مغادرة المعهد، حسبت أنني سأصاب بالجنون، بسبب جفاف الحلق وآلام العظام، فصمعت على ترك التدخين، لكنني لم أصمد أكثر من يومين، من الجزع.

لا أدري إذا ما كان هذا هو نفس ما أطلق يدي في النشر، في الراجبات المدرسية المتزايدة الجراءة التي كان يطالبنا بها الأستاذ كالديرون، وفي كتب نظرية الأدب التي كان يفرض علي، بالإكراه تقريباً، أن أقرأها. واليوم، بينما أنا أسترجع حياتي، أتذكر أن مفهومي للقصة القصيرة، كان يدانياً على الرغم من كثرة القصص التي قرأتها، منذ انبهارني الأول بقصص ألف ليلة وليلة، حتى أنني تجرأت على التفكير في أن العجائب التي ترونها شهرزاد، كانت تحدث فعلاً، في الحياة اليومية، في عصرها. ولم تعد تحدث بسبب عدم تصديق الأجيال التالية، وجننها الواقعي. وكان يبدو لي أنه من المستحيل، للسبب نفسه، أن يعود أحد في عصرنا إلى تصديق أنه يمكن الطيران فوق المدن والجبال، على متن حصيرة، أو أن يُعاقب عبد من كارتاخينا دي إندياس بالعيش، متني سنة، داخل قارورة، اللهم إلا إذا كان مؤلف القصة قادراً على جعل قرائه يصدقون ذلك.

كانت الدروس تُضجرتني، باستثناء دروس الأدب - التي كنت أحفظها عن ظهر قلب - حتى صرت البطل الوحيد فيها. وللملئ من الدراسة، كنت أترك كل شيء، لمشيئة حسن الطالع. وقد كنت أمتع بقرينة خاصة تمكنني من حذب نقاط الضعف عند كل معلم، فأترقع بصورة تقريبية، ما هو أهم ما يشير اهتمام المعلمين، كيلا أدرس ما عداه. والواقع أنني لم أكن أفهم لماذا يتوجب علي التضحية بالموهبة وبالوقت، في دراسة مواد لا تحرك مشاعري، ولن تفيدني كذلك، مطلقاً، في حياة هي ليست حياتي.

وقد نجرت علي التفكير في أن معظم أساتذتي يقيمونني، تبعاً لطريقتي في الحياة، وليس وفق امتحاناتي. فقد كانت تنقذني إجاباتي غير المتوقعة، وخواطري الجنونية، وابتكاراتي غير العقلانية. ومع ذلك، عندما أنهيت السنة الخامسة بامتياز أكاديمي، لا أشعر بأنني قادر على تجاوزه. أدركت مدى محدوديتي. كانت الثانوية حتى ذلك الحين، طريقاً معيلاً بالمعجزات، ولكن القلب كان يشهني إلى أنه ينتظرني، في نهاية السنة الخامسة، سوراً لا يمكنني تجاوزه. والحقيقة العازية من الزخرف هي أنه كانت تنقصني الإرادة، والميل، والتنظيم، والنقود، والإملاء، لكي أتمكن من الالتحاق بدراسة أكاديمية جامعية. وبكلمة أخرى، كانت السنوات تقضي طيراناً، دون أن تكون لدي أدنى فكرة عما سأفعله في حياتي. وكان لا بد من مضي زمن طويل، قبل أن أدرك أن حالة الهزيمة تلك، مواتية أيضاً، لأنه لا وجود لشيء، في هذا العالم، ولا في العالم الآخر، إلا له فائدة للكاتب.

ولم تكن أوضاع البلاد أحسن حالاً. فقد استقال ألفونسو لوبيث

بومارينو من رئاسة الجمهورية في الثالث عشر من تموز ١٩٤٥. بعد أن حاصره المحافظون الرجعيون بضراوة. خلفه ألبرتو بيراس كامارغو، الذي عينه مجلس الشيوخ، ليكمل السنة الأخيرة من الفترة الرئاسية. ومنذ خطابه في تولي المنصب، بصوته المسكن ونثره الأسلوبية القخم، بدأ بيراس المهمة الراهمة في تهدئة خواطر البلاد، تمهيداً لانتخاب رئيس جديد.

وبوساطة من المنسيور لوبيث بيراس، ابن عم الرئيس الجديد، توصل مدير المعهد إلى تحديد موعد للقاء خاص مع الرئيس، من أجل طلب مساعدة من الحكومة، لرحلة طلابية إلى ساحل الأطلسي. ولم أدر أيضاً لماذا اختارني المدير لمرافقته إلى ذلك الاجتماع، شريطة أن أرتب قليلاً، شعري المشعث وشاربي المنفوش. وكان المدعوون الآخرون هم غييرمو لوبيث غيرا، وهو من معارف الرئيس، وألفارو رويث توريس، ابن أخت لورا فيكتوريا، وهي شاعرة مشهورة بموضوعاتها الجريئة في "جيل الجدد"، الذي كان ينتهي إليه الرئيس بيراس كامارغو نفسه أيضاً. لم أجد مخرجاً آخر، وفي ليلة السبت، بينما غييرمو غرانادوس يقرأ في قاعة النوم رواية لا علاقة لها بحالتي، قام صبي حلاق متدرب من طلاب السنة الثالثة، يقص شعري كمجند غراً، وشذب لي شارب تانغو. وقد لحملت، طوال ما تبقى من ذلك الأسبوع، سخريات الطلاب الداخليين والخارجيين، من مظهري الجديد. كان مجرد التفكير في الدخول إلى القصر الرئاسي، يجمد الدم في عروقي. ولكن ذاك كان خطأ من القلب، لأن الملحق الوحيد لقموض السلطة الذي وجدناه هناك، هو الصمت السناوي. وبعد انتظار قصير في قاعة الانتظار ذات السجاد ومشاير المخمل، اقتادنا ضابط بالزي العسكري إلى مكتب الرئيس.

كان مظهر الرئيس بيراس كامارغو، قليل الشبه بصورة، وقد أثر في ظهوره المثلث، ببذلة الجوخ الإنكليزي المتقنة، ووجنتيه البارزتين، وشحوب الرق في بشرته، وأستان الطفل الحبيث التي كانت تفتق رسامي الكاريكاتير، ونطه حركاته، وطريقته في المصافحة، وهو ينظر مباشرة إلى العيتين. لا أذكر ما هي الفكرة التي كانت لدي عن الرؤساء، ولكنني لا أظن أنهم جميعهم مثله. ومع مرور الزمن، عندما تعرفت عليه بصورة أفضل، أدركت شيئاً، ربما لن يعرفه هو نفسه أبداً، أنه كاتب قد ضل الطريق، قبل أي شيء آخر.

بعد أن استمع إلى كلمات المدير، باهتمام أكثر من جلي، قدم بعض التعليقات المناسبة. ولكنه لم يتخذ قراره، قيل أن يستمع كذلك، إلى الطلاب الثلاثة. وفعل ذلك باهتمام مائل، وأشعرنا بأننا نُعامل بالاحترام واللطف نفسيهما اللذين يعامل بهما المدير. وكانت الدقيقتان الأخيرتان كاثيتين لتوثن أنه يعرف في الشعر، أكثر مما يعرف في الملاحاة النهرية. وأن اهتمامه به أكثر من اهتمامه بها بكل تأكيد.

متحنا كل ما طلبناه، ووعد فوق ذلك، بحضور احتفال نهاية العام الدراسي في المعهد، بعد أربعة شهور. وقد فعل ذلك، مثلما يحضر أكثر نشاطات الحكومة جديدة. وضحك أكثر من الجميع من كوميديا المواقف المضحكة التي قدمناها على شرفه. وابتهج في حفل الاستقبال الختامي، كما لو أنه طالب آخر من طلاب المعهد، ويظهر مختلف عن مظهره الرسمي. ولم يستطع مقاومة إغراء القيام بدعابة طلابية، حين مدّ إحدى ساقيه، معترضاً طريق من كان يوزع الكؤوس، فلم يسكن هذا من تنادي الوقوع، إلا بصعوبة.

ذهبت، مسلحاً بخماس حفلة نهاية العام الدراسي، لقضاء إجازة السنة الخامسة مع أسرتي، وكان أول خبر قديمه لي هو الخبر السعيد جداً، بأن أخي لويس إنريكي قد رجع بعد أن أمضى ستة شهور في دار الإصلاح. وقد فاجأني مرة أخرى، بحسن طبيعه، لم يكن يشعر بأدنى قدر من الضغينة على أحد، بسبب الحكم عليه. وكان يروي المصائب بمزاج مريح لا يهزم. وقد توصل في تأملاته، وهو سجين، إلى النتيجة بأن أبونا قد أدخله الإصلاحية بطيب نية. ومع ذلك، فإن حماية المطران وتوصيته لم تعفياه من التعرض لتجارب قاسية في حياة السجن اليومية. ولكن بدل أن تفسده تلك المحن، وتغرقه في الضلال، أغنت طبيعه ومزاجه الآخر.

وكانت أول وظيفة شغلها بعد عودته، هي منصب سكرتير عمدة سوكري. وبعد بعض الوقت، أصيب العمدة بتوسعك مفاجئ في المعدة، فوصف له أحدهم دواء سحرياً نزل للتر إلى السوق: ألكاسيلتير. ولكن العمدة لم يذّب ذلك الدواء في الماء، وإنما ابتلعه مثلما يبتلع أي قرص دواء عادي. ولم يختنق بأعجوبة، بالفوران الذي أحدثه الدواء الفوار في معدته. وقبل أن يستعيد الطمأنينة من الذعر الذي ألمّ به، احتاج إلى عدة أيام من الراحة. ولكن كانت لديه أسباب سياسية تحول دون تكليف أي واحد من معاونيه الشرعيين، بمهام منصبه؛ فتمنح التفويض المؤقت لأخي، وبسبب هذه المصادفة الغريبة - وهو دون السن القانونية للمنصب - دخل لويس إنريكي تاريخ البلدية، باعتباره العمدة الأصغر سناً.

الشيء الوحيد الذي كان يقلقني حقاً، في تلك الإجازة، هو اليقين بأن أفراد أسرتي، في أعماق قلوبهم، يبنون مستقبلهم على ما يعقدونه

من آمال علي. وكنت أنا الوحيد الموقن من أن تلك الآمال ليست سوى
أوهام باطلة. وقد جعلتني جملتان عارضتان أو ثلاث، قالها أبي أثناء
الغداء. أدرك أن هناك الكثير مما يجب الحديث فيه عن مصيرنا
المشترك. فسارعت أمي إلى التأكيد: "إذا ما استمرت الحال على هذا
المنوال، فسوف نضطر عاجلاً أو آجلاً، إلى العودة إلى كاتاكما". ولكن
نظرة واحدة من أبي، دفعتهما إلى التصحيح:
- أو إلى أي مكان آخر.

لقد صار الأمر واضحاً عندئذ: احتمال انتقال جديد إلى أي مكان،
هو موضوع مطروح في الأسرة. ليس بسبب الجو الأخلاقي، وإنما من أجل
مستقبل أوسع أفقاً للأبناء. لقد كنتُ أجد العزاء حتى ذلك الحين، بفكرة
أن أعزو روح الهزيمة التي أعاني منها، إلى القرية وناسها، وحتى إلى
أسرتي. ولكن دراماتيكية أبي كشفت لي مرة أخرى أنه من الممكن،
دوماً، العثور على مذنب لكي لا يكون أحدنا هو نفسه المذنب.

ما لحته في الجو، كان شيئاً أشد رخصاً. فأمي تبدو مهتمة فقط،
بحالة خيمي الصحية. وهو الابن الأصغر، الذي لم يستطع تجاوز وضعه
كخديج. فكانت تقضي معظم اليوم، مستلقية معاً في أرجوحتهما في
حجرة النوم، مشغلة بالجزن والجر المذل. وبدأ البيت يتصدع بسبب
إهمالها. فبدأ أخوتي طليقي العنان، دون عراية فحميهم. وكان نظام
تناول الطعام قد تراخى كثيراً، بحيث صرنا نأكل دون توقيت معين،
كلما أحسنا بالجوع. أما أبي، وهو أكثر الرجال تعلقاً بالبيت، فصار
يقضي النهار، متأملاً الساحة من الصيدلية، ويذهب في المساء للعب
بضعة أدوار في نادي البيلياردو. لم أستطع، في أحد الأيام، تحمّل

المزيد من التوتر، فاستلقيت إلى جانب أمي في أرجوحة النوم، مثلما لم
أستطع أن أفعل في طفولتي. وسألها ما هو السر الذي يجري تنفسه في
أجواء البيت، فابتلعت زفرة كاملة، كيلا يرنجف صوتها، وفتحت لي روحها:
- لأبيك، ابن في الشارع.

ومن الراحة التي أحسنت بها في صوتها، أدركت كم كانت تتلهف
لنصالي. لقد اكتشفت الحقيقة ببصيرة الغيرة، عندما رجعت إحدى
طفلات الخدمة إلى البيت متأثرة، لأنها رأت أبي يتكلم بالهاتف في
مركز التلفزيون. ولم تكن امرأة غيبورة مثل أمي بحاجة لمعرفة المزيد.
فذلك الهاتف هو الوحيد في القرية، ولا يُستخدم إلا في المكالمات
الخارجية، وبناء على موعد مسبق، مع ما يتخلل ذلك من انتظار غير
مؤكد ودقائق غالية التكاليف، مما يحصر استخدامه في الحالات الحرجة
القصورى. فكل مكالمات، مهما كانت بساطتها، توقظ النذر الخبيثة في
مجتمع الساحة. ولهذا، عندما رجع أبي إلى البيت، راحت أمي تراقبه
دون أن تقول شيئاً، إلى أن مزق قصاصة ورقية كانت في جيبه تتضمن
إشعاراً باستدعاء قضائي بتهمة سوء استغلال المهنة. انتظرت أمي
الفرصة المواتية لتسأله مباشرة، ودون مقدمات، عنم كان يكلمه
بالهاتف. وكان السؤال مباغتاً جداً، لم يجد معه أبي جواباً سريعاً قابلاً
للتصديق، أكثر من الحقيقة:

- كنت أكلم محامياً.

فقالت أمي:

- هذا أعرفه. ولكنني بحاجة لأن تخبرني ذلك أنت بالذات،

وبالصراحة التي أستحقها.

وقد وافقت أمي قبما بعد، على أنها هي من أصابها الرعب من القيد المتعنت التي يمكن لها أن تكون قد كشفت الغطاء عنها، دون أن تتبهر، لأنه إذا كان قد نجراً على قول الحقيقة لها، فإنما فعل ذلك، لاعتقاده بأنها تعرف كل شيء، وأن عليه أن يخبرها به.

وهذا ما حدث، اعترف أبي بأنه تلقى إشعاراً بدعوى قضائية ضده، بتهمته اغتصاب مريضة مخدرة بحقنة مورفين في عيادته، الحادثة وقعت في مركز قضائي منسي، حيث أمضى فترات قصيرة لعلاج مرضى لا يملكون موارد، وقدم على الفور دليلاً بيناً على نزاهته؛ ميلودراما التخدير والاغتصاب هي تلميح إجرامية دبرها أعداء له، أما الطفل فهو منه فعلاً، وجلبت به أمه في ظروف طبيعية.

لم يكن من السهل على أمي، تفادي الفضيحة، لأن شخصاً من الوزن الثقيل هو الذي كان يحرك خيوط المزامرة في الظل، لقد كانت هناك سابقة آييلاردو وكارمن روسا، اللذين عاشا معنا في فترات مختلفة محاطين بحبة الجميع، ولكن كليهما ولد قبل زواج أمي وأبي، ومع ذلك، فقد تجاوزت أمي الضغينة أيضاً بجرعة الابن الجديد المريرة، وعدم وفاء الزوج، وناضلت إلى جانبه بوجه ساخر، إلى أن قضت على أكذوبة الاغتصاب.

عاد السلام إلى الأسرة، ومع ذلك، فقد وصلت بعد قليل، أخبار سرية من المنطقة نفسها، عن طفلة من أم أخرى اعترف بها أبي على أنها ابنته، وكانت تعيش في ظروف يرثى لها، لم تضيق أمي الوقت في منازعات واقتراعات، وإنما خاضت معركة إحضارها إلى البيت، وقد قالت في تلك المناسبة: لقد فعلت مينا الشيء نفسه بأبناء أبي الميعشرين، ولم تندم على

ذلك قط، وهكذا تمكنت بنفسها من جعلهم يرسلون الطفلة إليها، دون ضجة عامة، وضمتها إلى الأسرة كبيرة العدد، أصلاً.

كل تلك الأمور كانت قد ضارت جزءاً من الماضي، عندما وجد أخي خيمي، في حفلة في قرية أخرى، صيباً يشبه أخي غوستافو إلى حد التطابق، وكان ذاك هو الابن الذي تسبب في النزاع القضائي، وقد كبر جيداً معنطاً برعاية أمه، ولكن أمنا قامت بكل أنواع المساعي، وأحضرت له يعيش معنا في البيت - عندما كان عدونا أحد عشر ابناً - وساعدته على تعلم مهنة، وعلى الانطلاق في الحياة، عندئذ لم أستطع إخفاء دهشتي من إقدام امرأة غيبور إلى حد الهلليان، على مثل تلك التصرفات، فردت عليّ هي نفسها، بجملة ما زلت أحفظها، منذ ذلك الحين، مثل قطعة ألماس:

- لا يمكن ترك من يحملون دم أبنائي نفسه، هائمين على وجوههم.
كنت أرى اخوتي في إجازاتي السنوية فقط، وبعد كل رحلة، كنت أجد صعوبة أكبر في التعرف عليهم، وفي حفظ اسم جديد في ذاكرتي، فإضافة إلى أسمائنا المعهودة، كان لكل واحد منا، اسم آخر في البيت، ينادوننا به فيما بعد من أجل البساطة اليومية. ولم يكن تصغيراً لاسمنا وإنما لقباً عارضاً، فأنا، منذ لحظة ميلادي دعوني غابيتو - وهو تصغير غير نظامي لاسم غابرييل في ساحل غواخيرا - فكنت أشعر على الدوام بأن هذا هو اسمي الأول، وأن اسم التصغير هو غابرييل، وقد سألتنا شخص أدهشتنا تلك التسميات الغريبة، لماذا لم يُعمد أبوانا منذ الأصل، جميع أبنائهم بالأسماء المستعارة.

ومع ذلك، فإن ليبرالية أمي تلك، بدت كما لو أنها قضى باتجاه

معاكس، في موقفها من ابنتيهما الكبيرتين، مارغوث وعائدا، اللتين حاولت أن تفرض عليهما الصرامة نفسها التي فرضتها أمها عليها في أثناء غرامياتها مع أبي. كانت تريد الانتقال من القرية. أما أبي بالمقابل، الذي لم يكن بحاجة إلى سماع ذلك مرتين، من أجل أن يجمع أمتعته وينطلق عبر العالم، فلم يكن موافقاً على الرحيل، في تلك المرة. انقضت عدة أيام. قيل أن أعرف أن المشكلة هي وقوع الابنتين الكبيرتين في حب رجلين مختلفين، ولكن لهما الاسم نفسه: رافائيل. وعندما أخبروني بذلك، لم أستطع منع نفسي من الضحك، وأنا أتذكر رواية الرعب التي عانى منها أبي وأمي. وقد قلتُ لها ذلك. فردت:

- الحالة ليست نفسها.

فقلتُ بإصرار:

- بل هي نفسها.

- حسنٌ - قالت بشيرة مصالحة - إنها نفسها، ولكنها مكررة مرتين، في الوقت نفسه.

ومثلما حدث لها في حينه، لم يكن ثمة نفع لأية مبررات أو مساع، لم يُعرف قط، كيف علم الأبوان بالأمر، لأن كلا من أختي، كانت قد اتخذت، على انفراد، الاحتياطات كيلا ينكشف أمرها. ولكن الشهود كانوا هم الأشخاص الذين لا تفكران في الارتياح بهن، إذ كانت الأختان تأخذان معهما أحياناً أحد أختنا الصغار، لإضفاء المصداقية على براءتهما. وكانت المفاجأة الكبرى هي أن أبي نفسه شارك أيضاً في ترصدهما، ليس بصورة مباشرة، ولكن بالإصرار السليبي نفسه الذي مارسه الجد نيكولاس، ضد ابنته.

كنا نذهب إلى حفلة رقص، فيدخل أبي إلى الحفلة ويعيدنا إلى البيت، إذا ما اكتشف وجود الرافائيلين هناك، هذا ما روتها عائدا روسا في مقابلة صحفية. لم يكن أبواي يسمحان لهما برحلة إلى الريف أو بالذهاب إلى السينما، أو بمرسلان معهن شخصاً لا يتعرف عن مراقبتهما. وكانت كل واحدة منهما تختلق ذرائع غير مجدية للذهاب إلى مواعيدها الغرامية، فيظهر هناك شبح غير مرئي يشي بهما، وقد اكتسبت أختي ليخيا، التي تصفرهما، الشهرة بأنها جاسوسة وواشبة، ولكنها هي نفسها كانت تبرز تصرفها بحجة أن الغيرة بين الأخوة هي طريقة أخرى في الحب.

حاولتُ في تلك الإجازة أن أتدخل لدى والدي، كيلا يكررا الأخطاء التي اقترفها أبواي ضدها، فكانا يجدان على الدوام، أسباباً ملتوية لعدم التفهم. وكان أكثر تلك الأسباب إشارة للرغبة، هو المنشورات التي كشفت أسراراً فظيعة - حقيقية أو مختلفة - حتى في أقل الأسر إثارة للشكوك. فقد وشت بأبوات مستترة، وخيانات زوجية مخجلة، ومفاسد فرائش كانت معروفة للملأ عبر أساليب أكثر بساطة من المنشورات. ولكن لم يُعلق أي منشور يكشف أمراً غير معزوف بطريقة ما، مهتما كان خفياً، أو أمراً سيحدث عاجلاً أو آجلاً. وكان أحد الضحايا يقول:

"المنشورات من فعل الشخص نفسه".

ما لم يخسب أبواي حسابه، هو أن ابنتيهما ستدافعان عن نفسيهما بالأساليب نفسها التي اتبعها هما. لقد أرسلوا مارغوث لتدرس في مونتيريّا، وذهبت عائدا بقرار منها إلى سانتا مارتا، كانتا داخليتين، وفي أيام العطل، يكون هناك شخص متيقظ يراقبهما. ولكنهما كانتا

تتدبران الأمر دوماً، للاتصال بالرافائيلين البعيدين. ومع ذلك، فقد نجحت أمني في ما لم ينجح به أبواها معها. إذ أمضت عابدا نصف حياتها في دير، وعاشت هناك دون أحزان ولا أمجاد، إلى أن شعرت بأنها صارت بمنجى من الرجال. وبقينا أنا ومارغوت متحدين دوماً، بذكريات طفولتنا المشتركة، عندما كنتُ أنا نفسي أراقب الكيار كيلا يضطروها وهي تأكل التراب. وصارت أخيراً مثل أم ثانية للجميع، وبخاصة كيكي، الذي كان يحتاج إليها أكثر من سواه. وأبقتة معها حتى نفسها الأخير.

اليوم فقط، ألاحظ إلى أي حد كانت حالة أمني المعنوية، والثورات الداخلية في البيت، متطابقة مع تناقضات البلاد القاتلة التي لم تكن تخرج إلى العلن، بيد أنها موجودة. كان على الرئيس بيراس أن يدعو إلى انتخابات في السنة الجديدة. وكان المستقبل يبدو مكفهرًا. فالمحافظون الذين تمكثوا من الإطاحة بلوبيث، حققوا بذلك الحدث لعبة مزهوجة: فهم يمتلقون الرئيس الجديد، بامتنادح عدم تحيزه وحياده المحسوب رياضياً، غير أنهم يشجعون الشقاق في يروينشيا، ليستولوا مجدداً على السلطة بالحق أو بالقوة.

ظلت سركري مستثناة من العنف. والحالات القليلة التي تُذكر، لم تكن لها أي علاقة بالسياسة. إحدى تلك الحالات هي اغتيال خواكين بيرغا. وكان موسيقياً محبوباً يعزف اليومباردينو^(١) في الجوقة الموسيقية المحلية. وقد كان يعزف في الساعة السابعة مساءً، عند مدخل السينما، عندما وجه إليه أحد أقربائه المعادين، ضربة واحدة بحد السكين على

(١) آلة موسيقية نحاسية من آلات النفخ.

عنقه المتنفخ من النفخ في آله الموسيقية. وتزف على الأرض حتى الموت. كلاهما كان محبوباً في القرية، والتفسير الوحيد المعروف، وغير المؤكد، هو أنها قضية شرف. في تلك الساعة بالذات، كنا نحتفل بعيد ميلاد أختي ريتا، فأفسدت صدمة الخبر الحفلة التي كان مقرراً لها أن تستمر عدة ساعات.

المبارزة الأخرى، وهي سابقة جداً لتلك، ولكنها لا تحي من ذاكرة القرية، كانت بين بلينيو بالماسيدا وديونيسيانو باريوس. أولهما ينتمي إلى أسرة قديمة ومحترمة. وقد كان هو نفسه، رجلاً ضخماً ولطيفاً. ولكنه يتحول إلى باحث عن المشاكل أيضاً وذو طبع مشاكس، عندما يسرف في تناول الكحول. فحين يكون بكامل وعيه، يتمتع بزواج وظرف أي رجل مهذب. غير أنه إذا ما زاد عيار الشرب، صار غريباً يسرع باللجوء إلى المسدس، ويحمل بسوط فارس على خصره يجلد به من لا يروقه مظهره. وكانت الشرطة نفسها تحاول إيقاعه بعيداً عنها، تفادياً لشروره. وقد تعبه أفراد أسرته الطيبة من جرجرته إلى البيت، كلما أسرف في الشراب، وانتهى بهم الأمر إلى التخلي عنه لمصيره.

أما ديونيسيانو باريوس فكان تقيض ذلك: رجل خجول وعائر الحظ، عدو الخصام، ولا يشرب الكحول منذ مولده. لم تحدث له أي مشكلة مع أحد قط، إلى أن بدأ بلينيو بالماسيدا يستغفزه بسخریات مهينة من مسكنته وطيبته. فصار يتجنبه كيفما استطاع، حتى اليوم الذي صادفه بالماسيدا في طريقه وصنع وجهه بسوطه، لأنه رغب في عمل ذلك. عندئذ تغلب ديونيسيانو على خجله، وعلى خنوعه وسوء طالعته، وتواجه مع المعتدي بالرصاص. كانت مبارزة سريعة، سقط

كلاهما جريحاً في حالة خطيرة، ولكن ديوثيبانو وحده هو الذي مات.
ومع ذلك، فإن المباراة التاريخية في القرية، هي الموت الثوم الذي
أودي بحياة بلينيو بالماسيدا المذكور، وتاسيو آتاناياس، وهو رقيب
شرطة مشهور بشأنقه، وابن مثالي ثاوريشيو آتاناياس، عازف الطبل في
الموجة الموسيقية نفسها التي كان يعزف فيها خواكين بيغا آلة
البرمباردينو. كانت مباراة رسمية في منتصف الشارع. وقد أصيب
فيها كلاهما، بجرح بليغ، واحتضر كل منهما طويلاً في بيته. استعاد
بلينيو الصحو بعد المباراة مباشرة تقريباً، وأبدى قلقه فوراً على مصير
آتاناياس. وفوجئ هذا الأخير بدوره من القلق الذي يتضرع به بلينيو،
من أجل نجاته. فبدأ كل منهما يتوسل إلى الله ألا يموت الآخر. وأبقت
أسرتهما كلأ منهما على إطلاع على حال الآخر حتى النقص الأخير.
وعاشت القرية كلها حالة الذهول تلك، باذلة كل أنواع الجهود لإطالة
حياتيهما.

بعد أربع وعشرين ساعة من الاحتضار، قرعت أجراس الكنيسة،
حداداً على امرأة ماتت لنوها. سمع المحتضران الأجراس. وظن كل منهما
في سريره، أنها تُقرع لموت الآخر. تزقي آتاناياس على الفور تقريباً من
الحزن، وهو يبكي موت بلينيو. عرف هذا الأخير بالأمر، فمات بعد
يومين، وهو يبكي بحرقه على الرقيب آتاناياس.

في بلدة أصدقاء، مسالمين مثل تلك، اتخذ العنف في تلك السنوات
مظهراً أقل فتكاً، ولكنه ليس أقل أذى: إنها المنشورات. كان الرعب
يتأجج في بيوت الأسر الكبيرة التي تنتظر طلوع صباح اليوم التالي،
مثل من ينتظر بانصيب القدر. وفي أقل الأماكن تزقياً، تظهر ورقة

عقابية، تكون مبعث راحة لما لا تقوله عن أحدهم، وأحياناً حفلة سرية لما
تقوله عن آخرين. وأبى الذي ربما كان أكثر رجل مسالم عرفته، زيت
المسدس الموقر الذي لم يطلق النار قط، وأفلت لسانه في صالة اليلياردو
صارخاً:

- من يخطر له أن يمس أي واحدة من بناتي بكلمة، سيناله رصاص
هذا الباسل.

بدأت أسر عديدة بالنزوح، خوفاً من أن تكون المنشورات مقدمة
للعنف البوليسي الذي كان يعيثُ خراباً بقرى بكاملها، في المناطق
الداخلية من البلاد، لتخريف المعارضة.

تحول التوتر إلى جبر آخر لكل يوم. في البدء جرى تنظيم دوريات
متخفية، ليس للكشف عن كنية المنشورات، بقدر ما هي لمعرفة ما
تقوله، قبل أن تُنزع عند الفجر. وقد وجدنا، نحن التأخرين في السهر،
موظفاً بلدياً في الساعة الثالثة فجراً، يستمع بالبرودة أمام باب منزله.
ولكنه في الحقيقة كان يرصد من يعلقون المنشورات. قال له أخي، بين
المزاح والجذ، إن بعض المنشورات تقول الحقيقة. فأخرج الرجل مسدسه
وصوبه مهياً:

- كبر ما قلته!

عندئذ علمنا أنهم قد علقوا في الليلة السابقة، منشوراً صحيحاً،
ضد ابنته العازبة. ولكن المعلومات كانت متداولة بين الجميع، حتى في
بيته بالذات. والوحيد الذي لم يكن يعرفها هو أبوها.
بدا جلياً في أول الأمر أن من يكتب المنشورات هو الشخص نفسه،
بالريشة نفسها، وعلى الورق نفسه. ولكن في سوق تجارية ضيقة كالتي

في الساحة، لم يكن هناك سوى متجر واحد بإمكانه بيع تلك الأوراق. وقد سارع صاحبه بالذات إلى إثبات براءته. وعرفت منذ ذلك الحين، أنني سأكتب رواية عن المنشورات، ولكن ليس عما تقوله، وهو في الغالب، تخيلات يعرفها الجميع، وليس فيها الكثير من الطرافة. وإنما عن التوتر غير المحتمل الذي توصلت تلك المنشورات إلى توليده في البيوت.

وفي "ساعة الشؤم"، روايتي الثالثة التي كتبتها بعد عشرين سنة من ذلك، بدا لي أن أبسط متطلبات الاحترام تفرض عليّ عدم استخدام حالات محددة بعينها، أو يمكن التعرف عليها، بالرغم من أن بعض الحالات الواقعية كانت أفضل من تلك التي اختلقتها أنا. ولكنني لم أكن بحاجة إلى ذلك، لأنني كنت أهتم على الدوام، فضلاً عن ذلك، بالظاهرة الاجتماعية، أكثر من اهتمامي بحياة الضحايا الخاصة. وبعد أن نشرت الرواية فقط، عرفت أن منشورات كثيرة كانت سبباً للاحتفال في الأحياء الهامشية، حيث كنا مكروهين، نحن من نساكن في الساحة الكبرى.

والحقيقة أنني لم استفد من المنشورات، إلا كنقطة انطلاق في قصة لم أستطع تحييدها في أي وقت، لأن ما كنت أكتبه بالذات كان يؤكد أن المشكلة، في أعماقها، هي سياسية، وليست أخلاقية مثلما كنت أعتقد. ولقد فكرت على الدوام، بأن زوج نيفرومانتا هو نموذج جيد للعمدة العسكري في "ساعة الشؤم"، ولكنني بينما كنت أطوره كشخصية، راح يغوييني ككائن بشري. ولم أجد مبرراً لأن أمتعه، ذلك أنني اكتشفت أنه لا يمكن للكاتب الجدّي أن يقتل شخصية، ما لم يكن لديه مبرر مقنع، ولم يكن الموت مقنعاً في تلك الحالة.

إنني أرى اليوم، أنه يمكن للرواية نفسها أن تكون رواية أخرى. لقد كتبتها في فندق للطلاب في شارع كوجا، في الحي اللاتيني في باريس، على بعد خمسين متراً من جادة سان ميشيل، بينما الأيام تنقضي بانتظار شيك مصرفي لم يصل قط. وعندما أنهيتها، جعلت من الأوراق لفافة وربطتها بواحدة من ربطات العنق الثلاث التي أخذتها معي، في أرملة أفضل، ودفنتها في قاع الخزانة.

بعد سنتين من ذلك، وبينما أنا في مدينة مكسيكو، لم أكن أعرف أين هي تلك الأوراق، عندما طلبت مني من أجل مسابقة في الرواية، تنظمها شركة إسو الكولومبية. وبجائزة قدرها ثلاثة آلاف دولار من نفوذ أيام الأزمات تلك. كان المبعوث هو المصور الضوئي غييرمو أنغولو، صديقي الكولومبي القديم الذي كان يعرف بوجود أصول الرواية، منذ كنت أكتبها في باريس. وقد أخذها بالوضع الذي كانت عليه، وهي لا تزال مربوطة بربطة العنق، دون أن يتاح لي على الأقل، كتابتها على البخار، بسبب ضيق الوقت. وهكذا أرسلتها إلى المسابقة دون أدنى أمل بالجائزة التي كانت تكفي لشراء بيت. ولكنني ما إن أرسلتها حتى أعلن عن فوزها، من قبل لجنة تحكيم سامية، في السادس عشر من نيسان، ١٩٦٢. وفي الساعة نفسها تقريباً التي ولد فيها ابني الثاني، غونشالو، وخبره تحت إبطه.

لم يكن قد أتبع لنا الوقت حتى للتفكير في الأمر، عندما تلقت رسالة من الأب فيليكس ريستريبو، رئيس الأكاديمية الكولومبية للغة، والرجل الطيب الذي ترأس لجنة تحكيم الجائزة، ولكنه كان يجهل ما هو عنوان الرواية. وعندئذ فقط انتبهت إلى أنني في تسرع الساعة الأخيرة، نسيت كتابة العنوان على الصفحة الأولى: "قرية البراز تلك".

دُعِر الأب ريس تريسيو حين عرف العنوان، وطلب مني عن طريق خيرمان يارغانس، وبأكبر الطرق تهديداً، أن أستبدله بعنوان آخر أقل فظاظة، وأكثر ملاءمة لإيقاع الكتاب. وبعد تداول مطول معه، حسمت أمرى بعنوان ربما ليس له علاقة كبيرة بالدراما، ولكنه يتشعبها كناية، لشبح في بحار التفاف: "ساعة الشوم".

بعد أسبوع من ذلك، وعاني الدكتور كارلوس أرانغو بيليث، سفير كولومبيا في مكسيكو، والمرشح حديثاً لرئاسة الجمهورية، إلى لقاء في مكتبه ليطلعني على أن الأب ريس تريسيو يرجوني أن أهدل كلمتين تبدوان له غير مقبولتين في النص الفائق: "الواقعي الذكري" و "استمنا". ولم أستطع أنا ولا السفير إخفاء دهولنا، ولكننا اتفقنا على أنه لا بد من إرضاء الأب ريس تريسيو للوصول إلى نهاية سعيدة، للمابقة التي لن تنتهي، بحل غير متحيز. فقد قلت للسفير:

- لا بأس أيها السيد السفير. سوف أحوذ إحدى الكلمتين، ولكنك أنت من ستقدم لي الجميل باختيارها.

أطلق السفير زفرة راحة، وهو يحذف كلمة "استمنا"، وهكذا صُفِي الخلاف، وطُبعت الكتاب دار نشر إييرو أميركانا في مدريد، بطبعة كبيرة وإطلاقاً يومية: بغلاف من الجلد، وعلى ورق ممتاز، وبطاعة متقنة. ولكنه كان شهر عسل عابر، لأنني لم أستطع مقاومة إغراء القيام بقراءة متفحصة، فاكشفت أن الكتاب المكتوب بلغتي الهندية، قد جرت دبلجته - مثل أفلام ذلك الزمان - إلى أنصع اللهجات المدرية.

كنت قد كتبت: "Así como ustedes viven ahora, no sólo están en", "una situación insegura sino que constituyen un mal ejemplo para el pueblo".

وقد بعثت إعادة الكتابة التي قدمها المحرر الإسباني القشعريرة في جلدي: "Así como vivís ahora, no sólo estás en una situación insegura", sino que constituís un mal ejemplo para el pueblo. أن من يقول هذه العبارة هو كاهن، مما سيدفع القارئ الكولومبي إلى الظن أنها غمرة من المؤلف للإشارة إلى أن الحوري، في الرواية، إسباني، وهو ما سيعقد سلوكه. وينزع الأجواء الطبيعية تماماً عن مظهر جوهر في الدراما. ولم يكتف المصحح بتمشيط النحو في الحوارات، بل خوك نفسه التدخل بيد مسلحة في الأسلوب، فامتلاً الكتاب بترقيعات مدرية لا علاقة لها بالأصل. وبالنتيجة، لم يبق لي من مخرج سوى عدم الاعتراف بتلك الطبعة، باعتبارها مزيفة، وجمع النسخ التي لم تُبع وإحراقها. أما رد المسؤولين فكان الصمت الكامل.

منذ تلك اللحظة، اعتبرت الرواية غير منشورة. وانهمكت في المهمة القاسية لإعادة ترجمتها إلى لهجتي الكاريبية، لأن نسخة المخطوط الأصلية الوحيدة هي تلك التي أرسلتها إلى المسابقة، وهي نسخها التي ذهبت إلى إسبانيا، من أجل تلك الطبعة. وبعد إقرار النص الأصلي الذي صححته في أثناء ذلك، مرة أخرى، بمبادرة مني، نشرت الرواية دار إييرو، في مكسيكو، مع التنبيه المطبوع والواضح بأنها الطبعة الأولى.

(١) الفوارق هي في تحويل الأفعال التي أشرنا بخط تحتها من التكلم بكلفة، إلى التكلم برفق الكلفة. وهما أسلوبان تختلف دلالتهم (في اللغة المتداولة) في إسبانيا عما هي عليه في بعض بلدان أميركا اللاتينية، وبخاصة الكاريبية منها، أما ترجمة العبارة فهي كما يلي: "هذه الحياة التي تعيشونها الآن، لا تجعلكم في وضع غير آمن وحسب، وإنما تقدمان بها قدوة سيئة للقرية". وهذه العبارة يقولها الأب أنخل في رواية "ساعة الشوم" لدوق سيلاس وعشيقته وهو يحضنها على الزواج بصورة شرعية.

لم أدر قط، لماذا كانت "ساعة الشؤم" هي الوحيدة بين كتبي التي تجلبني إلى زمانها ومكانها، في ليلة ذات قصر كبير ونسمات ريفية. كان ذلك في يوم سبت، وكان المطر قد انقطع، ولم تكن السماء تتسع للنجوم. وكانت الساعة قد أعلنت الحادية عشرة للتو عندما سمعتُ أمي في شرفة الطعام تهمس بأغنية حب شعبية لكي تنوم الطفل الذي تمشي، وهي تحمله بين ذراعيها. سألتها من أين أتت الموسيقى، فردت عليّ بطريقةها:

- من بيوت قاطعات الطريق.

أعطتني خمسة بيزوات دون أن أطلب منها ذلك، لأنها رأتني ارتدي ملابس للذهاب إلى الحفلة. وقبل أن أخرج تبهتني، وبعد بصيرتها المؤكدة، إلى أنها ستترك باب الفناء مغلقاً، دون أن توصله، لكي أتأكد من العودة في أي وقت أشاء، دون أن أوقظ أبي. لم أصل إلى بيوت قاطعات الطريق، لأنه كانت هناك تدريبات موسيقية في بيت المايسترو بالديس، وكان لويس إنريكي قد انضم إلى فرقته، فور عودته إلى البيت.

انضمت إليهم في تلك السنة، للعرز على التيهلي والغناء مع معلمهم الستة المجهولين، حتى الفجر. لقد كنتُ أنظر دوماً إلى أخي على أنه عازف جيتار جيد، ولكنني عرفت، منذ الليلة الأولى، أن الجميع، بمن فيهم خصومه الألداء، يعتبرونه فتاناً بارعاً. لم تكن هناك فرقة موسيقية أفضل، وكانوا واثقين من أنفسهم، إلى حد أنه عندما يتعاقد أحد معهم من أجل سرناة مصالحة أو استرضاء، تحت نافذة جيبته، يطمئنه المايسترو بالديس مسبقاً:

- لا تقلق، سنجعلها تنام، وهي تغض وسادتها.

الإجازات من دونه، لم تكن كالإجازات التي يكون فيها. فقد كان هو ولويس إنريكي، مع فيلادلفو بيليا يعزفون كمحترفين. وكان أن اكتشفتُ آنذاك، وقاء الكحول، وتعلمت العيش بصورة سوية، بالنوم نهاراً والغناء ليلاً، ومثلما تقول أمي: لقد أفلتُ العنان للعريضة.

لقد قيل عني كل شيء، وشاع القول عن أن رسائلي لا تصل إلى عنوان أبي، وإنما إلى بيوت قاطعات الطريق. تحولتُ إلى أكثر الزبائن مواظبة على ما يطهونه من وجبات السالكوتشو الملحمة، بمراة النمر، ومرق عظامات الإخوانا التي تمنح القوة لثلاث ليالٍ متتالية. لم أعد أقرأ أو أنضم إلى مائدة الأسرة. وكان ذلك ينطبق على الفكرة التي عبرت عنها أمي مرات عديدة، بأنني أقبل ما يحلو لي، كما أشاء، بينما المسكين لويس إنريكي هو الذي يجرح سوء السمعة. وقد قال لي لويس إنريكي، في أحد تلك الأيام، دون أن يعرف بأمر عبارة أمي: "الشيء الوحيد الذي ينقصني الآن هو أن يقولوا إنني المسزول، ويرسلوني مرة أخرى إلى دار الإصلاح".

قررت أن أهرب في عيد الميلاد من منافسة العريات الستوية. وقد قررت برفقة صديقين مواطنين إلى بلدة ماخاغوال المجاورة. أعلنتُ في البيت أنني سأذهب لثلاثة أيام، ولكنني بقيت عشرة. وكان اللذنب في ذلك هو ذنب ماريا أليخاندريتا ثيرفانتس، وهي امرأة غير معقولة، تعرفت عليها في الليلة الأولى، وفقدت معها عقلي في أحد حفلات العريضة صخباً في حياتي. حتى صباح يوم الأحد الذي لم أجدها فيه في فراشي، واختفت إلى الأبد. بعد سنوات من ذلك، أخرجتها من حيني،

ليس بسبب أفضالها ومحاسنها، بقدر ما هو بسبب رنين اسمها، ويعيشها لصحفي امرأة أخرى، في واحدة من روياتي، كصاحبة وسيدة بيت متعة لم يكن له وجود قط.

حين رجعتُ إلى البيت، وجدت أمي تغلي القهوة في المطبخ، في الساعة الخامسة فجراً. فطلبت مني، بهمسها المتواظف، أن أبقى معها. لأن أبي قد استيقظ، وهو مستعد لأن يثبت لي أنني لست حراً كما أظن نفسي، حتى وأنا في إجازتي. قدمت لي فنجاناً من القهوة الحسنة، بالرغم من معرفتها بأنها لا تروقني، وأجلستني إلى جانب الموقد. دخل أبي بالبيجاما، والنعاس لا يزال يادياً عليه، وفوجئ برؤيتي، ومعني اللعنان الذي يتصاعد منه البخار، ولكنه وجه إلي سؤالاً موارباً:

- ألم تكن تقول إنك لا تشرب القهوة؟

ودون أن أجد ما أردُ به، اختلقت أول ما خطر لي:

- أشعر بالعطش دوماً، في مثل هذه الساعة.

فردّه هو:

- مثل كل السكيرين.

لم ينظر إليّ بعدها، ولم يعد إلى الحديث في الموضوع. ولكن أمي أخبرتني أن أبي الذي تضايق منذ ذلك اليوم، بدأ يعتبرني حالة ميثوساً منها، وإن لم يشعرني بذلك قط.

تزايدت نفقاتي إلى حدٍ قررت معه السطو على نقود أمي. وقد برأني لويس إيريكي بمنطقه القائل إن النقاد التي تُسرق من الآباء، إذا استُخدمت من أجل السينما وليس للتعبير، فإنها نقود شرعية. عانيتُ من حرج تواظف أمي في سعيها لتلا يعرف أبي أنني أمضي في دروب

خييئة. وقد كانت على حق، إذ كان ملحوظاً، بصورة واضحة في البيت، أنني أظل نائماً أحياناً، دون مسوغ حتى مرعد الغداء، وكان لي صوت ديك أبيض، وأمضي ساهياً إلى حدٍ لم أسمع معه في أحد الأيام، سؤالين طرحهما أبي عليّ. فوجه إليّ عندئذ، أشدَّ تشخيصاته قسوة:

- أنت مريض في كبذك.

وعلى الرغم من كل ذلك، تمكنتُ من الحفاظ على المظاهر الاجتماعية. فكنت أبدو حسن الملبس، وأكثر تهدياً في حفلات الرقص وولائم الغداء التي تنظمها في المناسبات أسرُ الساحة الكبرى، ممن تظل بيوتهم مغلقة طوال السنة، ويفتحونها في عطلة عيد الميلاد، عندما يرجع الطلاب.

كانت تلك السنة هي سنة كابيتانو خينتيلي الذي احتفل بإجازته، بإقامة ثلاث حفلات رقص بدبعة. وقد كانت تلك الحفلات بالنسبة لي تواريخ حفظ. لأنني رقصت طوال الوقت، في الحفلات الثلاث، مع الفتاة نفسها، دعوتها إلى الرقص في الليلة الأولى، دون أن أتكلف مشقة السؤال عن تكون، أو ابنة من هي، أو من تراقق. بدت لي متحفظة جداً، فافترحتُ عليها في الرقصة التالية، بجدية، أن تتزوج، وكان جوابها أكثر وضوحاً:

- أبي يقول إنه لم يولد بعد كما يبدو من سيتزوجني.

بعد أيام رأيتهما يجتاز المنهل في الساحة، تحت شمس الثانية عشرة الحارقة، مرتدية فستاناً برافاً من الأورغترا، وهي تقود بيديها طفلاً وطفلة في السادسة والسابعة من عمرهما. "إنهما ابناي"، قالت لي وهي تموت من الضحك، دون أن أسألها عنهما. وقد قالت ذلك، بمكر كبير، بدأت أفكر معه في أن اقترحي بالزواج، لم يذهب أدراج الرياح.

تعلمت النوم في أرجوحة النوم، منذ طفولتي المبكرة في بيت أراكاتاكا، ولكنني في سوكري فقط، جعلت منها جزءاً من طبيعتي. ليس هناك ما هو أفضل منها للقبولة، ولعيش ساعة النجوم، وللنفكير بتهل، ولمارسة الحب دون مزاعم وأوهام. في اليوم الذي عدت فيه من أسبوعي الماجن، علقتها بين شجرتين في الفناء، مثلما كان يفعل أبي في أزمئة أخرى، وتمت مطمئن الضمير. ولكن أمي المرسومة من أننا نحن أنامها، سموت في أثناء نومنا، أيقظني في نهاية المساء، لثري إذا ما كنت ما أزال حياً. وعندئذ اضطجعت إلى جانبي، وتطرفت دون مقدمات، إلى المسألة التي تنفص حياتها.

- أبوك وأنا، نريد أن نعرف ما الذي أصابك.

لا يمكن للجملة أن تكون أكثر دقة. كنت أعرف منذ بعض الوقت أن أبري يشعسان القلق من طريقي في الحياة، وكانت هي ترجل تفسيرات تافهة لطمأنينة. لم يكن يحدث شيء في البيت لا تعلم به أمي، وكانت نوبات غضبها أسطوانية، منذ زمن. ولكن الكأس طفحت بعودتي إلى البيت في وضع النهار، طوال أسبوع، وكان موقعي الصحيح هو تفادي أسلكتها أو تركها معلقة إلى فرصة مناسبة، ولكنها كانت تعرف أن مسألة يمثل تلك الجديدة، تتطلب إجابات قوية.

كانت كل حججها مشروعة: فأنا أغادر عند الغروب، مرتدياً ملابس من هو ذاهب إلى عرس. ولا أرجع للنوم في البيت، ولكنني أغفو في اليوم التالي، في أرجوحة النوم إلى ما بعد موعد الغداء. لم أعد أقرأ، ولأول مرة منذ ولادتي، صرت أجهراً على العودة إلى البيت، دون أن أعرف أين كنت بالضبط. وقالت لي أمي: "حتى إنك لا تنظر

إلى أخوتك، وتخطي بأسمائهم وأعمارهم. وتبل أيام قبلت حفيد كليمنثيا موراليس، معتقداً أنه أحد أخوتك. ولكنها سرعان ما وعت مبالغاتها، فموضتها بالحقيقة البسيطة:

- وباختصار، لقد صرت غريباً في البيت.

قلت لها:

- كل هذا صحيح، ولكن السبب بسيط جداً: لم أعد أطيق هذه

الحال.

- منا؟

وكان يمكن لردي أن يكون بالإيجاب، ولكنه لن يكون عادلاً. فقلت:

- من كل شيء.

وعندئذ، أخبرتني بحقيقة وضعي في المعهد. وبأنهم يحكمون علي، من خلال درجاتي التي أنالها. وأن أبري يفاخران بتسائلي ستة بعد ستة. وهما لا يظنان أنني التلميذ الذي لا تشويه شائبة وحسب، وإنما كذلك الصديق المثالي، والأكثر ذكاء وسرعة، والأوسع شهرة، بفضل لطفه وكياسته. أو مثلما كان يقول جدي: "الطفل الكامل".

ومع ذلك، من أجل أن أنتهي بسرعة، فإن الحقيقة هي عكس ذلك. فأنا أبعد كذلك فقط، لأنني لا أمتلك جرأة أخي لويس إريكي، وحسه بالمسؤولية. لأنه بفعل ما يشاء على هواه. وهو سوف يتوصل دون ريب إلى سعادة غير تلك التي يتمتعها الآباء لأبنائهم؛ ولكنها التي تصبح لهم تجاوز حنان الأبرين المفرط، ومخاوتها غير العقلانية، وآمالهما السعيدة، صُغعت أمي، للصورة المناقضة لتلك التي صاغها في أحلامهما المتوحدة. وقالت بعد صمت قاتل:

- لا أدري ماذا ستفعل الآن، لأنني إذا ما أخبرت أبك بكل هذا، فسوف يموت في الحال، ألا تدرك أنك فخر الأسرة؟

المسألة في نظرهما كانت بسيطة: بما أنه ليس هناك أي إمكانية لأن أكون الطيب اللامع الذي لم يستطع أبي أن يصير إليه، بسبب شح الموارد، فإنهما يحلمان على الأقل، بأن أكون خريجاً جامعياً في أي شيء آخر.
فاختتمت:

- لن أكون شيئاً. إنني أرفض أن تجعلوا مني، بالإكراه، ما لا أريد أن أكونه، وأرفض أن أكون مثلما تريدون أنتم أن أكون. وأقل من ذلك، مثلما تريد الحكومة.

استمر الجدل، بشيء من الضداية الطائشة، طوال بقية الأسبوع، وأظن أن أمي كانت تريد كسب الوقت، لكي تتحدث في الأمر مع أبي، وقد منحنتي هذه الفكرة نفساً جديداً. وفي أحد الأيام أطلقت اقتراحاً مفاجئاً:

- يقولون إنه يمكن لك، إذا ما صُمت، أن تصبح كاتبة جيدة. لم أكن قد سمعت مثل ذلك الكلام، من قبل، في الأسرة قط. فميتولي منذ الطفولة، كانت تتبجح الافتراض بأنني قد أصبح رسامة، موسيقياً، مغنياً في الكنيسة، أو شاعراً جوالاً في أيام الآحاد. وكنت قد اكتشفت مبكراً معروفاً لدى الجميع، إلى أسلوب في الكتابة، أقرب إلى التلوي والرقعة الأثرية. ولكن رد فعلي في هذه المرة، كان أقرب إلى المفاجأة، فقد أجيبت أمي:

- إذا كان علي أن أصبح كاتبة، فلابد لي من أن أكون أحد

الكبار. وهؤلاء لا يصنعونهم. وهناك في نهاية المطاف، مهن أفضل كثيراً إذا ما كنتُ أرغب في الموت جوعاً.

في إحدى تلك الأسابيع، وبدلاً من أن تتبادل الحديث معي، بكت دون دموع. لو أن ذلك حدث اليوم لأثار هلعاً، لأنني أقدر اليكاه المكبوح كدواء ناجع ومؤكد تلجأ إليه النساء القريات، لغرض نوابهن. ولكنني في الثامنة عشرة من عمري، لم أدري ما أقول لأمي، فأحبط صمتي دموعها. وقالت عندئذ:

- حسن جداً، عاهدني على الأقل أن تنهي الثانوية، على أفضل وجه ممكن، وأنا سأتولى ترتيب ما تبقى مع أبيك.

كلانا أحسنا في الوقت نفسه، براحة الفوز. وافقت على طلبها، من أجلها ومن أجل أبي على السواء، لأنني خفت أن يموتا إذا لم نترصل بسرعة إلى اتفاق. وهكذا وجدنا الحل السهل بأن أدرس الحقوق والعلوم السياسية، ليس لأن هذه الدراسة تشكل قاعدة ثقافية جيدة، لأي مهنة أخرى وحسب، وإنما كذلك لأنها دراسة إنسانية، تقدم دروسها في الفترة الصباحية، فيكون لدي متسع من وقت الفراغ للعمل بعد الظهر. ولقلقي كذلك، من شحنة التأثير التي تحملتها أمي في تلك الأيام، طليت منها أن تهين الأجواء، لكي أكلم أبي وجهاً لوجه. عارضت ذلك، وهي واثقة من أننا سننتهي إلى التزاج. وقالت لي:

- لا وجود في هذا العالم لرجلين أكثر تشابهاً من تشابهكما، أنت وهو. وهذا أسوأ حال للتقاش.

لقد كنتُ أعتقد على الدوام، عكس ذلك، ولكنني الآن فقط، وبعد أن مررت بكل المراحل العمرية التي مر بها أبي في حياته المديدة، بدأت أرى نفسي في المرأة، أكثر شبهاً به من نفسي.

وكان على أمي، أن تتزوج تلك الليلة بأسلوبها في تزيين الأمر، لأن أبي جمع الأسرة كلها حول المائدة، وأعلن بصورة غير متوقعة: "سيكون لدينا محام في البيت"، ولخشبيتها من أن يفتح أبي الجدال مجدداً لتشارك فيه الأسرة بكاملها، تدخلت أمي بأفضل ما لديها من براءة لتوضح لي:

- في وضعنا هذا، ومع هذا العدد من الأبناء، فكرنا في أن أفضل حل هو الدراسة الوحيدة التي يمكنك تغطية نفقاتها بنفسك.

لم يكن أمر الدراسة بتلك البساطة أيضاً، ولا بأي حال. ولكنه يمكن أن يكون بالنسبة لنا، أهون الشروع، ويمكن لأضراسه أن تكون أقل دمية. وهكذا ظلمت من أبي أن يبدي رأيه، لأجاريها في اللعبة، وكان جوابه فوراً وبصراحة مؤثرة:

- ماذا تريدني أن أقول؟ إنك تمزق قلبي إلى نصفين، ولكن يبقى لي على الأقل، الفخر بمساعدتك في أن تكون ما تشاء، أنت.

ذروة ترف كانون الثاني لسنة ١٩٤٦ ذاك، تمثلت في رحلتي الأولى بالطائرة، بفضل خوسيه بالينشيا الذي جاء، ولديه مشكلة كبيرة. كان قد أنهى، بقبضات مشتتة، سنوات الدراسة الثانوية الخمس الأولى في كارتاخينا، ولكنه أخفق في السنة السادسة. تعهدت بأن أجد له مكاناً في معهدنا، لكي يحصل أخيراً على شهادته، فدعاني للذهاب معه بالطائرة.

كانت هناك رحلتان أسبوعياً، إلى بوغوتا في طائرة من طراز DC-3 تابعة لشركة LANSA. ولم تكن مجازفة الرحلة الكبرى هي الطائرة نفسها، وإنما الأبقار الطليقة على المدرج الطيني المرحل في المراعي.

فكان على الطائرة في بعض الأحيان أن تقوم بعدة جولات حتى تتمكن من إخافة الأبقار وإبعادها. ويعود إلى تلك الفترة، تدشين خروفي الخرافي من الطائرة، وهي الفترة نفسها التي كانت الكنيسة تحظر فيها نقل خبز القربان المقدس بالطائرة لتجنبه الكوارث. كانت الرحلة تستمر حوالي أربع ساعات دون توقف، بسرعة ثلاث عشرة وعشرين كيلومتراً في الساعة. وكنا نحن الذين قمنا من قبل بالرحلة النهرية العجيبة، نشجع الطريق من الجو، على الخريطة الحية، لنهر مجدلين الكبير. نتعرف على القرى كأنها ماكينات مصغرة، وعلى السفن كأنها ألعاب تتحرك بنوابض، وعلى الدمي السعيدة التي تلوح لنا مودعة من باحات المدارس. وكانت المضيفات اللواتي من لحم وعظم، يقضين الوقت في طمأننة الركاب الذين يسافرون وهم يصلون، وفي إسعاف من يخشى عليهم، وفي إقناع كثيرين بأنه لا وجود لخطر الاصطدام بأسراب تسير الرخسة التي ترصد الجيف التي يحطمها النهر، وكان المسافرون الحكيرون من جانبيهم، يروون أخبار رحلاتهم التاريخية الطائرة، مرة بعد أخرى، كمآثر في الشجاعة. وقد شعرنا بالارتفاع للشحيق فوق لجذ بوغوتا، دون تكيف للضغط الجوي، ودون أئنة أوكسجين، كأنه قرع طبول في قلوبنا، فكانت الاهتزازات وخفق الأجنحة يزيدان من سعادة الهبوط. ولكن المفاجأة الكبرى هي أننا وصلنا قبل برقياتنا التي أرسلناها في اليوم السابق.

أثناء مرورنا العابر في بوغوتا، اشترى خوسيه بالينشيا آلات موسيقية لفرقة أوركسترا كاملة. ولست أدري إذا ما فعل ذلك، بناء على تفكير مسبق، أم حدث مسبق، ولكن منذ أن رآه المدير إسمييتاً

يدخل، وهو يبطأ الأرض بثبات، ومعه تلك المجتارات والطبول والماراكات والهورمنكات، أدركت أنه قد قُبل في المعهد. كما أحسنت أنا أيضاً من جهتي بوزن وأهمية وضعي الجديد، منذ أن اجتزت المدخل؛ فقد صرت تلميذاً في السنة السادسة. لم أكن أعني، حتى ذلك الحين أنني أحمل في جبهتي نجمة يحلم بها الجميع، وكان ذلك يبدو جلياً من الطريفة التي يتقربون بها منا، واللهجة التي يتكلمون بها إلينا، بشيء من الخوف التوقيري. وقد كانت تلك السنة كذلك، هي سنة عيب بكاملها، فعلى الرغم من أن قاعة النوم مخصصة لذوي المنح الدراسية وحدهم، إلا أن خوسيه بالينثيا استقر في أفضل فندق في محيط ساحة المدينة، وكانت إحدى صاحبات الفندق تعزف البيانو، فتحولت حياتنا إلى يوم أحد متواصل طوال السنة.

كانت تلك قفزة أخرى في حياتي، لقد كانت أمني تشتري لي ملابس مستعملة، في مراهقتي. وعندما لا تعود تنفع لمفاسي، تكيفها لأخوتي الصغار. وكانت أكثر السنوات إشكالية هما السنتان الأوليان في المعهد، لأن ثياب الصوف المناسبة للمناخ البارد، كانت غالية وصعبة. وبالرغم من أن جسدي لم يعد ينمو باندفاع كبير، إلا أنه لم يكن هناك متسع من الوقت، لتكيف الألبسة نفسها لمقاسين مختلفين، في الوقت نفسه. وما زاد الطين بلة، أن عادة تبادل الملابس، بين الطلبة الداخليين، لم تصل إلى حد فرض نفسها، لأن الاستعارات كانت تبدو واضحة، بحيث تعرض لاسيها الجدد إلى سخريات لا تطاق. وقد حلت هذه المسألة جزئياً، عندما فرض المدير إسييتيا زياً موحداً من سترة زرقاء وبطال رمادي، فوحد المظهر وأخفى الملابس المستعملة.

في السنتين الثالثة والرابعة، استخدمت البذلة الوحيدة التي أصلحها لي خياط سوكري. ولكنني اضطررت إلى شراء بذلة أخرى في حالة جيدة للسنة الخامسة. غير أنها لم تنفعني حتى السنة السادسة. ومع ذلك، فقد تحمس أبي جداً لنواياي في إصلاح نفسي، فأعطاني نفرداً لشراء بذلة جديدة على مقاسي، كما أهدى إليّ خوسيه بالينثيا، بذلة أخرى من بدلاته في السنة السابقة، وهي من صوف الجمال، وغير مستعملة تقريباً. ولكنني سرعان ما تأكدت من أن المسوح وحدها لا تصنع الراهب. فقد حضرت، بالبذلة الجديدة، حفلات الرقص التي كان يسيطر عليها الساحليون، ولم أتمكن من التعرف إلا على خطيبة واحدة لم تدم علاقتي بها سوى أقل من عمر زهرة.

استقبلني إسييتيا بحماس غريب، فكان يبدو كأنه علمي حصتي الكعبية الأسبوعيتين عليّ أنا مجدداً، مع دفع من الأسئلة والإجابات. وقد تكشف لي ذلك الاهتمام، كنقطة انطلاق جيدة، لإنجاز ما وعدت به أبوي من نهاية جذيرة. وما سوى ذلك، تكفل به منهج مارتينا فرنسيسكا الوحيد والبسيط: تركيز الانتباه، في الدروس من أجل تجنب السهر والنزع في لحظات الرعب الأخيرة. لقد كانت من التعليمات الحكيمة. وقد هدأت مخاوفني، منذ قررت تطبيقها في السنة الأخيرة في المعهد، فكنْتُ أجيب بسهولة على أسئلة الأساتذة الذين صاروا أكثر تألفاً معنا، وأدركت كم هو سهل إنجاز العهد الذي قطعتة لأبوي.

أما مشكلتي الوحيدة المثيرة للقلق، فبقيت هي مسألة ولولات الكوايس. وكان الأستاذ المشرف على الانضباط آنذاك، والمرتبط بعلاقات طيبة مع تلاميذه، هو الأستاذ غونزالو أوكاميو. وقد دخل في

إحدى ليالي الفصل الثاني من السنة، على رؤوس أصابعه، إلى قاعة النوم المظلمة، ليطلب مني مغاتيخ له، نسبت إعادتها إليه، وما كاد يضع يده علي كنتفي، حتى أطلقت زعيقاً متوحشاً أبطل الجميع، وفي اليوم التالي، نقلوني إلى غرفة نوم أخرى مرتجلة تنسع لستة أشخاص، في الطابق الثاني.

كان ذلك حلاً لحاوفي الليلية، ولكنه حلٌ متغير جداً، لأن الغرفة كانت فوق مستودع المؤونة. وقد تسلل أربعة من طلاب حجرة النوم المرتجلة تلك، إلى المطبخ وسطوا عليه، مثلما يشتهرون، من أجل عشاء في منتصف الليل. وقد بقيت أنا، أقلهم جرأة، وسيرخيو كاسترو غير المريب، في سريرنا لنقوم بالتفاوض في حالة الطوارئ. وبعد مرور ساعة من الوقت، رجعوا، ومعهم نصف التمرين جاهزاً للأكل. وكانت تلك هي أضخم وجبة في سنوات إقامتنا الداخلية الطويلة، غير أنهم، لسوء الهضم، اكتشفوا فعلتنا خلال أربع وعشرين ساعة. وفكرت في أن تلك الواقعة ستضع حداً لكل شيء، إلا أن موهبة المدير إستيتياً في التفاوض، أنقذتنا من الطرد.

لقد كانت مرحلة جيدة في المعهد، وواعدة على الأقل، في البلاد. فقد أدت حيادية الرئيس المؤقت بيراس، دون أن يخطط لذلك، إلى زيادة التوتر الذي بدأنا نشعر به، لأول مرة في المدرسة. ومع ذلك، فإنني أدرك اليوم، أنه كان موجوداً قبل ذلك، في داخلي. ولكنني في ذلك الحين فقط، بدأت أعني نوعية البلاد التي أعيش فيها. فبعض الأساتذة الذين كانوا يحاولون البقاء على الحياد، منذ السنة السابقة، لم يستطيعوا التوصل إلى ذلك في الدروس، وراحوا يطلقون زخات عنيفة

الهضم، حول أفضلياتهم السياسية. ولا سيما بعد بدء الحملة الدعائية القاسية للرئاسة التالية.

وفي كل يوم كان يظهر بجلاء أكبر، أن الحزب الليبرالي، بمرشحيه: غايتان وطرييه، في الوقت نفسه، سيخسر رئاسة الجمهورية، بعد خمس وعشرين سنة من حكمه المطلق. كانا مرشحين شديدي التباين، كما لو أنهما من حزبين مختلفين، ليس في خطاهما الشخصية وحسب، وإنما كذلك بسبب تصميم المحافظين الدموي، الذين رأوا الأمر واضحاً، منذ اليوم الأول: بدلاً من مرشحهم لاوريانو غوميث، فرضوا ترشيح أوسينا بيريث. وكان مليونيراً اكتسب شهرة واسعة بكونه بطبركاً، وبوجود التيار الليبرالي منقسماً، والتيار المحافظ متحداً ومسلحاً، لم يكن هناك خيار آخر: جرى انتخاب أوسينا بيريث.

استبعد لاوريانو غوميث، منذ ذلك الحين، ليخلفه، باللجوء إلى استخدام القوات الرسمية في أعمال عنف شاملة. فكانت استعادة جديدة للواقع التاريخي، في القرن التاسع عشر، حيث لم نعرف السلام، وإنما فترات هدنة عابرة بين ثماني حروب أهلية عامة، وأربع عشرة محلية، وثلاثة انقلابات عسكرية، انتهت أخيراً بحرب الألف يوم التي خلقت حوالي ثمانين ألف قتيل في الجائنين، من عدد سكان يقل عن أربعة ملايين. هكذا كان الوضع ببساطة: برنامج مشترك ومتكامل للتقهر مدة سنة إلى الورا.

في نهاية العام الدراسي، قام الأستاذ خيرالدو بانستثناء مشهود تجاهي، لم أستطع التخلص من عاره حتى الآن. فقد أعد لي قائمة أسئلة بسيطة لكي ألجج في مادة الجبر التي تجاهلتها طوال أربع سنوات،

وتركتني وحدي في مكتب الأساتذة، ووسائل الغش كلها في متناول يدي. رجع واهماً بعد ساعة من ذلك، ورأى النتيجة الكارثية، فألقى كل صفحة بخطين متقاطعين، من أعلاها إلى أسفلها، وأطلق زنجرة شرسية: "يا لهذا الرأس المتعفن". ومع ذلك، فقد ظهرت ناجحاً بمادة الجيز في التقويم النهائي، ولكنني وجدت ما يكفى من الوقار، لعدم شكر الأستاذ على مخالفته مبادئه وواجباته لمصلحتي.

عشية الامتحان النهائي لتلك السنة، وقعت حادثة مؤسفة بيئي أنا وغيري من لوبيث غيراً من جهة، والأستاذ غونزالو أوكامبو من جهة أخرى. بسبب مشادة سكارى. كان صديقنا خوسيه بالينثيا قد دعانا للدراسة معه في غرفته في الفندق، وهو دوة معسارية على الطراز الكولونيالي، مع إطلالة حاملة على الحديقة المزهرة، والكاتدرائية كخلفية. وبما أنه لم يكن قد تبنى سوى الامتحان الأخير، فقد بقينا هناك حتى الليل، ورجعنا إلى المدرسة، مارين في طريقنا على حانات الفقراء التي اعتدنا ارتيادها. كان الأستاذ أوكامبو هو أستاذ الانضباط المتأوب، فربخنا لعودتنا في مثل تلك الساعة المتأخرة، ولحالنا المتردية، فراجعنا كلاماً بالسباب، فأيقظ رد فعله الغاضب، وأصواتنا الصارخة جميع من في قاعة النوم.

كان قرار جمعية الأساتذة هو منعي أنا ولوبيث غيراً من التقدم إلى الامتحان النهائي الوحيد المتبقي. وهذا يعني أنه لا يمكن لنا، في تلك السنة على الأقل، إنهاء الدراسة الثانوية. لم ندر قط، كيف جرت المفاوضات السرية بين الأساتذة، لأنهم الشقوا في تضامن لا يمكن اقتصاصه، فكان على المدير إسبينيّا أن يتولى حل المشكلة على

مسؤوليته. وتوصل إلى إمكانية أن نتقدم إلى الامتحان في وزارة التربية، في بوغوتا. وكان هذا ما جرى. وقد راغقنا إسبينيّا نفسه إلى العاصمة، وبقي معنا بينما نحن نحبب عن أسئلة الامتحان التحريري الذي جرى تصحيحه هناك بالذات. وكانت النتيجة جيدة.

لا بد أن الوضع الداخلي كان معقداً جداً، لأن أوكامبو لم يحضر الحفل الرسمي، ربما بسبب الحلّ السهل الذي لجأ إليه إسبينيّا، وتقديرنا المعنوي. وأخيراً أهلني نتائج الشخصية لنيل جائزة خاصة، هي كتاب لا يتسمى: "حيوات الفلاسفة اللامعين"، من تأليف ديوجينيس لايرثيو. لم تكن النتيجة أكثر مما كان أبواي ينتظرانه وحسب، وإنما كنت الأول في تقويم تلك السنة، على الرغم من أن زملائي في الصف - وأنا أكثر من الجميع - كنا نعرف أنني لم أكن الأفضل.

لم أتصور قط أن قصتي القصيرة الأولى ستُنشر، بعد تسعة شهور على تخرجي من الثانوية، في الملحق الأدبي "نهاية الأسبوع" الذي تصدره جريدة الاسبكتادور في بوغوتا، وهي أكثر صحف تلك المرحلة أهمية وصرامة. وبعد اثنين وأربعين يوماً من ذلك، نُشرت القصة القصيرة الثانية. ومع ذلك، فإن أكثر ما فاجأني هو الملاحظة التكريسية التي كتبها نائب مدير الجريدة، ومدير الملحق الأدبي، إدوارد ثالاميا بوردا، الملقب أوليسيس، وكان ألمع ناقد أدبي آنذاك، والأكثر تيقظاً لظهور قيم أدبية جديدة.

لم يكن أمراً متوقعاً، وليس من السهل روايته. كنتُ قد سُجلت، في مطلع تلك السنة، في كلية الحقوق بالجامعة الوطنية في بوغوتا، مثلما جرى الاتفاق مع أبوي. وكنتُ أعيش في مركز المدينة تماماً، في نزل في شارع فلوريدا، معظم نزلاته طلاب من منطقة ساحل الأطلسي. وكنتُ في فترات ما بعد الظهر، بدلاً من أن أعمل لأعيش، أظل أقرأ في غرفتي أو في المقاهي التي تسمح بذلك. كانت قراءاتي في كتب يوفرها الحظ والمصادفات، تعتمد على حظي أكثر من اعتمادها على مصادفاتي، ذلك أن الأصدقاء القادرين على شرائها يعيرونني إياها

لفترات محدودة، فأقضي الليالي ساهراً كي أتمكن من إعادتها إليهم في الموعد المحدد، ولكن، على العكس من الكتب التي قرأتها في معهد ثيباكيرا، والمجديرة بأن تكون في ضريح للكتاب المكرسين، صرنا نقرأ الآن كتباً حديثة، كأنها خير طازج، مترجمة لتوها ومطبوعة في مدينة بونيس آيرس التي عرفت حياة نشر طويلة، خلال الحرب الأوربية الثانية. وهكذا حالتي الحظ في اكتشاف من هم مكتشفون جيداً منذ زمن، مثل خورخي لويس بورخيس، ودي. آتش. لورانس، وألدوس هكسلي، غراهام غرين، تشيسترتون، ويليام إيريش، وكاترين مانسفيلد وغيرهم. كانت هذه المستجدات معروضة في واجهات المكتبات البعيدة عن متناول يدي. غير أنه كان يجري تداول عدد من النسخ في مقاهي الطلبة، وهي آنذاك مراكز فعالة للانتشار الثقافي بين الجامعيين الريفين. وقد كانت لكثيرين منهم أماكنهم المحجوزة، سنة بعد أخرى، في تلك المقاهي، فيها يتلقون رسائلهم، وحتى حوالاتهم البريدية، وقد كان يفضل أصحاب بعض تلك المقاهي، أو العاملين الموثقين فيها، خاساً في إنقاذ الكثير من الدراسات الجامعية، فالعديد من خريجي البلاد يدينون لهم أكثر مما يدينون إلى متكفليهم غير المرتين.

أنا فضلتُ "الطاحونة"، مقهى الشعراء الكبار، وهو على بُعد حوالي مئتي متر عن المنزل الذي أقيم فيه، وعلى ناصية تقاطع جادة خيمينث دي كيسادا مع الشارع السابع. لم يكونوا يسمعون هناك أن يحتل الطلاب مائدة ثابتة، ولكن أخذنا يكون واثقاً هناك من أنه سيتعلم من المحادثات الأدبية التي كنا نسمعها، ونحن لا يديون على الطاولة المجاورة، أكثر وأفضل مما يتعلمه من الكتب المقررة. كان المقهى بيتاً

فسيحاً وجيد البناء على النمط الإسباني. جدرانها زينت بالرسام سانتياغو سارتيث ديلقادو، بمشاهد قتل معارك دون كيشوته ضد طواحين الهواء. ومع أنه لم يكن لي مكان محجوز، فقد كنت أتدبر الأمر دوماً، لكي يجلسني النذل أقرب ما يكون من المعلم الكبير ليون دي غريف - ملتح، مهمهم، فائن -، الذي كان يبدأ مسامراته الأدبية عند الغروب، مع بعض أشهر كتاب ذلك الحين، وينتهي عند منتصف الليل، مختنقاً بخمرة رديئة مع تلاميذه في لعب الشطرنج. كانت قليلة أسماء كبار عالم الفنون والآداب الذين لا يبرون بتلك المنضدة. وكنا نحن نتصنع الموت على منضدتنا كيلا نضيع كلمة واحدة مما يقوله. ومع أنهم كانوا يتحدثون دوماً عن النساء أو المكاييد السياسية، أكثر مما يتحدثون عن فنونهم ومهنهم، إلا أنهم يقولون على الدوام، شيئاً جديداً نتعلمه. وكنا نحن، أبناء ساحل الأطلسي، أكثر الطلاب مواظبة، ليس لاتحادنا بالتأمر الكاريسي ضد الكاتشاكو، بقدر ما هو بسبب إدمان الكتب، فخوريه ألفارو إسبينوسا، وهو طالب حقوق، علمني الإبحار في الكتاب المقدس، وجعلني أحفظ عن ظهر قلب، الأسماء الكاملة لأعضاء منتدى يوأب. جاء في أحد الأيام، ووضع على المنضدة أمامي سفراً ضخماً مرعباً، وأصدر حكمه بسلطة مطران:

- هذا هو التوراة الجديد.

وقد كان ذلك الكتاب، وكيف لا، هو "أوليسيس" لجيمس جويس، فقرأته في تنف متقطعة ويتعثر، إلى أن لم يعد الصبر يسمح لي بالمزيد. لقد كان رعباً ميكراً، بعد سنوات من ذلك، حين صرت ناضجاً منقاداً، عكفت على قراءته بهجد. ولم تكن تلك القراءة مجرد اكتشاف لعالم

خاص لم يخطر لي يوماً وجوده في داخلي، وإنما كان كذلك، مساعدة تقنية لا تقدر بشيء، في حرية اللغة؛ والأفضل في لعبة الزمن والبناء لكتبي.

كان أحد زملائي في الهجرة هو دومنغو ماثويل بيغا، طالب طب تربطني به صداقة منذ وجودنا في سوكري، ويشاطرنني نهم القراءة. وزميل آخر هو ابن خالي نيكولاس ريكاردو، الابن الأكبر للخال خوان دي ديوس، الذي كان يحافظ على روابط الأسرة حية لدي. وقد رجع بيغا في إحدى الليالي، ومعه ثلاثة كتب اشتراها لشراء فأعارني واحداً لا على التعيين منها، مثلما كان يفعل بكثرة، لمساعدتي على النوم. ولكنه توصل، في تلك الليلة، إلى عكس ما يريد: قاماً؛ إذ لم أعد قط، إلى النوم بالرواية السابقة. كان الكتاب هو "المسيح" لفرانز كافكا، في ترجمة بورخيس المزيفة التي نشرتها دار النشر لوسادا في بوينس آيرس. وقد حدد ذلك الكتاب مساراً جديداً لحياتي منذ السطر الأول، وهو اليوم أحد رايات الأدب العالمي: "حين استيقظ غريغوري سامسا، في صباح أحد الأيام، بعد حلم مضطرب، وجد نفسه في السرير، وقد تحول إلى حشرة هائلة". كانت كتباً غامضة، فتعرجات دروبها لم تكن مختلفة وحسب، وإنما في أحيان كثيرة، متناقضة لكل ما كنت أعرفه حتى ذلك الحين، فإثبات الأحداث ليس ضرورياً فيها: يكفي أن الكاتب قد كتبها لكي تبدو حقيقية، دون أي دليل آخر سوى قدرة موهبته وسلطة صوته. إنها شهرزاد من جديد، ولكن ليس في عالمها القديم، حيث كل شيء كان ممكناً، وإنما في عالم آخر لا خلاص له، ضاع فيه كل شيء.

حين انتهيت من قراءة "المسيح"، بقيت لدي لهفة لا تقاوم إلى العيش في ذلك الفردوس القريب. وفي اليوم التالي، فاجأني دومنغو ماثويل بيغا نفسه بالآلة الكاتبة النقالة التي أعارني إياها، لكي أحاول شيئاً يشبه موظف كافكا المسكين المنحول إلى صرصار ضخم. لم أذهب في الأيام التالية إلى الجامعة، خوفاً من كسر ذلك السحر، وواصلت تعرق قطرات من الحسد إلى أن نشر إدواردو ثالاميا بوردا، على صفحات ملحقه الأدبي، ملاحظة متفجعة، يتحسر فيها من أن جيل الكتاب الكولومبيين الجدد يفتقر إلى أسماء يمكن تذكرها، وأنه ليس هناك ما يلح في المستقبل، ويمكنه التعويض وتعديل تلك الحال. لا أدري بأي حق أحسست أنني المعني، باسم أبناء جيلي، بما تتضمنه الملاحظة من تحدٍ، فعدت إلى تناول القصة المهجورة، في محاولة لإصلاح الحيف. صغت الفكرة المحورية للجنة الواعية في "المسيح"، إنما متخلصة من أسرارها الزائفة وأحكامها الأنطولوجية المسبقة.

كنت أشعر بانعدام الثقة، إلى حد لم أتحير معه على التشاور في الأمر مع أي واحد من زملاء منضدي في المقهى، ولا حتى مع غونثالو مايارينو، زميلي في كلية الحقوق، الذي كان القارئ الوحيد لما أكتبه من نشر غثائي يعينني على تحمل ضجر الدروس. أعدت قراءة القصة وتصحيحها حتى الإنهاك، ثم كتبت أخيراً، ملاحظة شخصية موجهة إلى إدواردو ثالاميا - ولم أكن قد رأيت قط - وليست أذكر من الملاحظة نفسها الآن، حرفاً واحداً. ووضعت كل شيء في مغلف أخذته بنفسني، إلى حجرة الاستقبال، في جريدة الأسبويكنادور. سمح لي الباب بالصرير إلى الطابق الثاني، لتسليم الرسالة إلى ثالاميا نفسه، بجيبه

وروحه. ولكن الفكرة بعد ذاتها، أصابني بالشلل. فتركت المغلف على منضدة البواب، ومضيت هارباً.

حدث ذلك في يوم الثلاثاء. ولم أكن أشعر بأدنى قدر من القلق على مصير قصتي القصيرة. ولكنني كنت واثقاً من أنه في حال نشرها، لن يكون ذلك في وقت قريب جداً. وفي أثناء ذلك، تسكعت متنقلاً من مقهى إلى آخر، طوال أسبوعين، لأشغل نفسي عن لهفة أيام السبت مساءً. حتى يوم الثالث عشر من أيلول، حين دخلت إلى مقهى الطاحونة، واصطدمت، بمواجهة، بعنوان قصتي على كامل عرض الاسبيكتادور التي صدرت لشوها: ١٣ الاستسلام الثالث.

كان ردّ فعلي الأول هو اليقين الساحق بعدم امتلاكي خمسة سنتات لشراء الصحيفة. وقد كان ذلك هو الرمز الأكثر جلاءً للفقر. لأن أشياء كثيرة أساسية من متطلبات الحياة اليومية، فضلاً عن الصحيفة، كانت تكلف خمسة سنتات: الشرام، والهاتف العمومي، وفنجان القهوة، ومسح الحذاء. انطلقت إلى الشارع، دون حماية من رذاذ المطر المتواصل. ولكنني لم أجد في المقاهي المجاورة أحداً من معارفي، يمكنه أن يمنحني قطعة نقد كصدقة. كما أنني لم أجد أحداً في المنزل، في تلك الساعة المبكرة من يوم السبت، اللهم إلا صاحبة المنزل. وهذا كان نقول لا أحد، لأنني كنتُ مديناً لها بخمسة سنتات مكرورة ممتدة وعشرين مرة، مقابل أجرة السرير والخدمة لشهرين. عندما رجعتُ إلى الشارع، مستعداً للإقدام على أي شيء، وجدت رجلاً أرسلته العناية الإلهية، يترجل من سيارة تكسي، وفي يده جريدة الاسبيكتادور، فطلبت منه، مواجهة، أن يهديها إليّ.

هكذا استطعت قراءة قصتي الأولى مطبوعة، مع رسم توضيحي لهيرمان مييرينو، رسام الجريدة الرسمي. قرأت القصة مختبئاً في حجرتي، بقلب جامع، وفي نفس واحد متواصل. لقد كنتُ أكتشف، في كل سطر، القدرة الساحقة للكلمة المطبوعة. فما بينته بكثير من الحب والألم، كمحاكاة خاضعة لعبقري عالمي، تكشف لي عندئذ على أنه منولوج متشابهك وهش، يستند بمشقة على ثلاث أو أربع جمل تنح العزاء. كان لا بد من مرور عشرين سنة، قبل أن أعجزاً على قراءتها مرة ثانية. وكان حكيم آنذاك - دون أن تخفف منه الشفقة كثيراً - أقل رضى بكثير.

أصعب ما في الأمر، كان تدفق الأصدقاء الذين داهموا الغرفة، حاملين نسخاً من الجريدة، وإطراء مبالغاً فيه للقصة التي لم يفهموها بكل تأكيد. وكان هناك، بين أصدقائي في الجامعة، من ثمنوا القصة، وآخرون فهموها بقدر أقل، وغيرهم - وهم محقون - لم يتجاوزوا السطر الرابع؛ أما غوثشالو مياريانو الذي لم يكن من السهل وضع أحكامه الأدبية موضع الشك، فقد أثنى عليها، دون تحفظ.

كانت لهفتي الكبرى في معرفة رأي خورخي ألفارو إسبينوسا، لأن مبضعه النقدي هو الأشد رهبة، حتى في ما هو أبعد من محيطنا. كنت أشعر بزواج متناقض: فأنا أريد رؤيته فوراً، ولكنني كنت خائفاً، في الوقت نفسه، من فكرة مواجهته. اختفى حتى يوم الثلاثاء. ولم يكن ذلك بالأمر الغريب، على قارئ نهم مثله. وعندما عاد للظهور في مقهى الطاحونة، لم يبدأ الحديث معي عن القصة، وإنما عن جرأتي. - أظن أنك مدرك للوضع الذي أدخلت نفسك فيه - قال لي ذلك

وهو يصوب عيشية المحضرواين، كعيشي الكوبرا الملكية، إلى عيشي،
وأضاف:- أنت الآن في واجهة الكتاب المعترف بهم. وعليك بذل جهد
كبير لتكون جديراً بذلك.

بقيت متحجراً حبال الرأي الوحيد الذي يمكن له أن يهمني بقدر ما
يهمني رأي أوليسيس. ولكن قيل أن ينهي كلامه، صممت أن أسبقه بما
كنت، وما زلت أعتبره الحقيقة:

- هذه القصة ليست سوى براز.

فرد علي يهدوء، دون أن يطرأ عليه أي تبدل، بأنه لا يستطيع أن
يقول شيئاً حتى الآن، لأنه لم يكد يجد الوقت إلا لقراءة مستعجلة،
ولكنه أوضح لي أنه حتى لو كانت القصة سيئة جداً مثلما أقول، فإنها
ليست سيئة إلى الحد الذي أضحي فيه بالفرصة الذهبية التي وفرتها لي
الحياة. وانتهى إلى القول:

- هذا أمر آخر، لأن هذه القصة ضارت من الماضي. والمهم الآن هو
القصة القادمة.

أصابني الارتباك. وارتكبت حماقة البحث عن حجج مضادة، إلى
أن اقتنعت بأنني لن أسمع نصيحة أذكى من نصيحته. وقد توسع في
فكرته الشابتة بأنه لا بد، أولاً، من وضع تصور للقصة. وبعد ذلك يأتي
الأسلوب. بيد أن استناد كل منهما إلى الآخر، في عبودية متبادلة، هو
عصا الكلاسيكيين السحرية. وقد استوقفتني قليلاً برأيه الذي طالما
ردده، بأنني بحاجة إلى قراءة معمقة وشاملة للكتاب الإغريق، لا تقتصر
على هوميروس وحده، وهو الوحيد الذي قرأته مضطراً، ضمن منهاج
الثانوية. وعدته بذلك، ورغبت في سماع أسماء أخرى. ولكنه غير

الموضوع للحديث عن "مزيجو التقود" لأندريه جيد، وكان قد قرأها في
نهاية ذلك الأسبوع. لم أجد، قط، الحماس لأن أقول له إن مجادتنا
تلك، ربما هي التي حسمت مسار حياتي. أنضيت تلك الليلة ساهراً،
أدون ملاحظات من أجل قصتي التالية، دون تلويحات تنميق القصة
الأولى وزخرفها.

كانت تراودني الشكوك في أن من حدثوني عن القصة، لم يكونوا
مبهورين بها - وربما لم يقرأوها، وهم لم يفهموها بكل تأكيد - وإقنا
فعلوا ذلك لأنها نُشرت باهتمام غير مألوف في صفحة بذلك الأهمية.
ومن أجل أن أبدأ، لاحظت أن نقيصتي الكبيرين هما الأخطر: رعونة
الكتابة وجهل القلب البشري. وقد بدا ذلك جلباً في قصتي الأولى التي
كانت تأملاً تجريدياً مشوشاً، زاد من سونها التعسف المفرط في استغلال
المشاعر المختلفة.

وبينما أنا أبحث في ذاكرتي عن مواقف من الحياة الواقعية، من
أجل القصة الثانية، تذكرت أن إحدى أجمل النساء اللواتي تعرفت إليهن
في طفولتي، قالت لي إنها ترغب في أن تكون داخل قط ذي جمال
غريب، كانت تدأغية في حضنها. فسألتها لماذا، وردت علي: "لأنه
أجمل مني". عندئذ وجدت نقطة إسناد للقصة الثانية، وعنواناً جذاباً:
"حواء داخل قطها". وما تبقى، كما في القصة الأولى، اخشلقته من
العدم، وللسبب نفسه - مثلما كان يروق لنا أن نقول آنذاك - كانت
القستان كلتاهاما تحمل في أحشائها بقرة دمارها.

نُشرت هذه القصة بالإبراز نفسه الذي نُشرت به القصة الأولى، في
يوم السبت، الخامس والعشرين من تشرين الأول ١٩٤٧، يزينها رسم

بريشة نجم صاعد في سماء الكازيني: الرسام إنريكي غراو. ولفت انتباهي أن أصدقائي تلقوا القصة كأمر روتيني من كاتب مكرس. أما أنا بالمقابل، فتأملت للأخطاء وتشككت بما هو صواب. ولكنني توصلت إلى إيقاع روي معلقة في الهواء. وجاءت الضربة الكبرى بعد عدة أيام من ذلك. في ملاحظة نشرها إدواردو ثالاميا، باسمه المستعار المعهود "أوليسيس"، وفي عموده اليومي في صحيفة الإنيبيكتادور. وقد توجه مباشرة إلى ما يريد قوله: "لا بد أن قراء (نهاية الأسبوع)، ملحق هذه الصحيفة الأدبي، قد لاحظوا ظهور موهبة جديدة، أصيلة، وذات شخصية قوية". ويواصل بعد ذلك: "ضمن التخيل القصصي، يمكن حدوث كل شيء، إذا معرفة كيفية إظهار اللؤلؤة التي يمكن استخراجها منه، بصورة طبيعية، ببساطة، ودون أي تصنع. وهذا أمر لا يمكن أن يتوصل إليه كل الشبان الذين هم في العشرين من عمرهم، وبدوا، لتتو، علاقاتهم بالأدب". وينتهي إلى القول دون تحفظ: "مع غارسيا ماركيز يولد كاتب جديد وبارز".

لقد سببت لي الملاحظة - وكيف لا - صدمة سعادة. ولكنني ذهلت في الوقت نفسه، لأن ثالاميا لم يترك لنفسه سبيلاً للخروج. فكل شيء صار ناجزاً؛ ولا بد لي من أن أفسر أرنحيته تلك، على أنها دعوة للضميري، على مدى الحياة. وقد كشفت لي الملاحظة كذلك، أن أوليسيس قد اكتشف هويتي الحقيقية، من خلال أحد زملائه في التحرير. وفي تلك الليلة، علمت أن من فعل ذلك هو غونشالو غونشالث، ابن عم قريب لأبناء عمي الأقرباء؛ وهو من كتب، طوال خمس عشرة سنة، في الصحيفة نفسها، بالاسم المستعار "غوغ"، ويشغف

متواصل، عنوداً يرد فيه على أسئلة القراء، على بعد خمسة أمتار من منضدة إدواردو ثالاميا. ولحسن الحظ أن هذا الأخير لم يبحث عني، ولم أبحث أنا عنه أيضاً. رأيت مرة على مائدة الشاعر دي غريف، وعرفت صوته وسعاله الجاف كمدخن مدمن، ثم رأيت عن قرب في عدة أنشطة ثقافية، غير أن أحداً لم يحاول أن يُعرك أحدنا على الآخر. لأن البعض ما كانوا يعرفوننا، بينما يظن آخرون بأنه من غير الممكن ألا يكون كل منا على معرفة بالآخر.

من الصعب تصور إلى أي حد كانت الحياة تعاش، آنذاك، في ظل الشعر. لقد كان الشعر شغفاً جنونياً، طريقة أخرى في الحياة، كرة من لهب تتدحرج تلقائياً في كل الاتجاهات. نفتح الجريدة، حتى في الصفحة الاقتصادية والصفحة القضائية، أو نقرأ بقايا القهوة في قعر الفنجان، فنجد أن ما ينتظرنا هو الشعر، ليتولى مسؤولية أحلامنا. وهكذا، كانت بوغوتا، في نظرنا نحن جميع الريفيين، هي عاصمة البلاد ومقر الحكومة. ولكنها قبل كل شيء، المدينة التي يعيش فيها الشعراء. ولم تكن نؤمن بالشعر، ونموت من أجله وحسب، وإنما كنا نعلم علم اليقين - مثلما كتب ذلك لويس كارودونا إي أراغون - أن "الشعر هو الدليل الملوس الوحيد على وجود الإنسان".

لقد كان العالم للشعراء. وكان جديدهم، في نظر أبناء جيلي، أهم من الأخبار السياسية المخيبة للآمال، أكثر فأكثر. كان بعضي سماء الشعر الكولومبي، في القرن التاسع عشر، نجم وحيد هو خوسيه أسونثيون سيلفا، الرومانسي الأعلى الذي أطلق، وهو في الحادية والثلاثين، رصاصة مدس على منتصف الدائرة التي رسمها له الطبيب

بالنود، في موضع القلب. ولم أولد في الوقت المناسب لأنعرف على رافائيل بومبو أو على إدواردو كاستينو - الغنائي الكبير -، الذي يصغه أصدقاؤه بأنه شبح حارب من القبر عند القروب، بعبادة من طبعتين، ويشرة مائلة إلى الحضرة بفعل المورفين، وبروفيل نسر وخمسة التمثيل الجسدي للشعراء الملغونين. لقد مررت في عصر أحد الأيام، قبالة منزل ضخم في الشارع السابع، ورأيت عند البوابة أشد الرجال الذين رأيتهم في حياتي مهابة، ببذلة لا تشوبها شائبة، وقبعة إنكليزية، ونظارة سوداء لعينيه اللتين بلا نور، وعبادة أهالي السهوب. كان ذلك، الشاعر ألبيرتو آنخل مونشوي، وهو رومانسي على شيء من الأبهة، نشر بعض القصائد المهمة في زمنه. وقد كان أولئك الشعراء جميعهم، بالنسبة إلى جيلي، أشباحاً من الماضي الغابر، باستثناء المعلم ليون دي غريف الذي رصده وراقبته طوال سنوات، في مقهى الطاحونة.

ولكن أياً منهم لم يستطع بلوغ المجد الذي بلغه غيرمو بالينثيا، وهو أرسقراطي من بويابان، فرض نفسه قبل بلوغه الثلاثين، حبراً أعظم لشعراء جيل المثوية الذين عرفوا بهذا الاسم، لأن تجمعهم في عام ١٩١٠، توافق مع مرور القرن الأول على الاستقلال الوطني. ولم يحصل معاصراه إدواردو كاستينو وبورفيريو باريا خاكوب، الشعراء الكبيران ضمن السلالة الرومانسية، على الإنصاف النقدي الذي يستحقانه بجدارة، في بلاد مهيورة بالخطابية الرخامية لشعر بالينثيا الذي سب، بظله الأسطوري، الطريق في وجه ثلاثة أجيال من الشعراء، الجيل التالي مباشرة، وقد برز في العام ١٩٢٥، باسم واندفاع "المجدد"، كان لديه شعراء رائعون مثل رافائيل مايا، وليون غريف مرة أخرى، لم يُعترف

بعظمتهم كلها طوال الوقت الذي ترع فيه بالينثيا على عرشه. وقد قطع هذا الأخير حتى ذلك الحين، بأمجاد خاصة مميزة، رفعتة محمولاً حتى أبواب رئاسة الجمهورية نفسها.

الوحيدون الذين تجرؤوا على اعتراض طريقه، طوال نصف قرن، هم جماعة "حجر وسما" بدفاترهم الشيبانية. وكانت ميزتهم الوحيدة المشتركة في نهاية المطاف، هي عدم كونهم من أتباع بالينثيا: إدواردو كارانشا، ألاتورو كاماتشو راميريث، أوريليو أرتورو وخورخي روخاس نفسه الذي مول نشر قصائدهم. لم يكونوا متشابهين في الشكل ولا في الإلهام، ولكنهم زرعوا، معاً، أطلال البرناسيين الأثرية. وأبقتوا إلى الحياة شعراً جديداً صادراً من القلب بأصداً متعددة، من خوان رامون خيمينث، أو روبين داريو، أو غارسيا لوركا، أو بايلو نيرودا، أو فيشتي هويدورو. التقبل الشعبي لم يكن فورياً، وكان يبدو أنهم هم أنفسهم غير واعين أنه يُنظر إليهم كمبعوثين من العناية الإلهية، من أجل كس بيت الشعر. ومع ذلك، فإن دون بادوميرو سانين كانو، الدارس والناقد الأوسع احتراماً في تلك السنوات، سارع إلى كتابة مقال حاسم ليقطع الطريق على أي محاولة للنيل من بالينثيا. فاخطلت موازينه ومقاساته النقدية التي كانت مضرب المثل. وبين أحكامه الحاسمة الكثيرة، كتب أن بالينثيا قد "تمكن من العلوم القديمة، ليعرف روح العصور الماضية المفرقة في القدم؛ وتأمل في النصوص المعاصرة، ليفاجئ، بالتناظر، روح الإنسان كلها". وكرسه مرة أخرى كشاعر بلا زمان وبلا حدود، وصفه بين أولئك الشعراء "من أمثال لوكريسيو، ودانتي، وغوته، الذين حفظوا الجسد لإتقاء الروح". ولا بد أن أكثر من شخص قد فكر آنذاك، بأن بالينثيا، بوجود أصدقاؤه مثل ذلك، لن يكون بحاجة إلى أعداء.

رد إدواردو كارانشا على سائين كانوا، بمقال يقول كل شيء من العنوان: "حالة شاعر واحد أحد". وكانت تلك هي الهجمة الأولى والموقفة لوضع بالينشيا ضمن حدوده، واختصار قاعدة تقديسه إلى مكانها وحجمها الحقيقيين. اتهمه بأنه لم يشعل في كولومبيا شعلة الروح، وإنما تحجير عظام للكلمات؛ ووصف أشعاره بأنها أشعار حرفي متحذلق، ويارد، وحاذق، ونحات مجتهد. وكانت النتيجة التي توصل إليها هي سؤال وجهه إلى نفسه بالذات، وبقي في جوهره كإحدى فصائده الجيدة: "إذا لم ينفع الشعر في تسريع دمي، في أن يفتح لي النوافذ فجأة على الغموض، في مساعدتي على اكتشاف العالم، في مرافقة هذا القلب المحزون في الوحدة وفي الحب، في الاحتفال وفي الكراهية، فما هي فائدة الشعر؟". وينتهي قائلاً: "أما أنا - وأعوذ من قول أنا! - فأرى أن بالينشيا ليس أكثر من شاعر مقبول".

نشر "حالة شاعر واحد أحد" في ملحق "قراءات أحدية"، الصادر عن جريدة التيمبو، وكانت واسعة الانتشار آنذاك، أثار هزة اجتماعية. وكانت نتيجته العجيبة، في الوقت نفسه، هي إعادة تقييم معمقة للشعر في كولومبيا، من أصوله. وهو ما لم يجر تجديده، منذ أن كتب دون خوان دي كاستيانيوس إحدى عشارياته المئة والخمسين، في "مراثي رجال بلاد الهند البارزين".

صار الشعر، منذ ذلك الحين، مكشوفاً في العراق، ليس فقط لجماعة "الجده" الذين أصبحوا رائجين، وإنما لآخرين كذلك، برزوا فيما بعد، وراحوا يتنافسون على مكانتهم بالمناكب. وبلغت شعبية الشعر حداً لم يعد بالإمكان اليوم، فهم إلى أي حد كان يعيش كل عده من ملحق

"قراءات أحدية" الذي يشرف عليه كارانشا، أو من مجلة "السبت" التي كان يديرها آنذاك كارلوس مارتين، مدير معهدنا القديم. وفضلاً عن أشعاره، فرض كارانشا بأمجاده طريقته في أن يكون شاعراً في الساعة السادسة مساءً، في الشارع السابع في بوغوتا، حيث يتمشى كما لو أنه في واجهة زجاجية طولها عشر كوادرات، وفي يده كتاب مسند إلى قلبه. لقد كان نموذجاً لجيله، وكون مدرسته من الجيل التالي، كل واحد على طريقته.

في أواسط تلك السنة جاء إلى بوغوتا الشاعر بابلو نيرودا، بقناعته بأنه لا بد للشعر من أن يكون سلاحاً سياسياً، وعلم خلال مسامراته البوغوتية مدى رجعية لاوريانو غوميث، وعلى سبيل الوداع، كتب على شرفه، بسرعة القلم تقريباً، ثلاث سونيتات هجاء عقابية. الأبيات الأربعة الأولى منها تفتح البقية إيقاعها ونبرتها:

وداعاً يا لاوريانو الذي لن يكلل بالغار أهدأ.

أيها المرزيان الحزين والملك الوصولي.

وداعاً يا إمبراطور طابق رابع،

قبل موعدة، وبأماجوراً على الدوام.

على الرغم من ميول كارانشا اليمينية، وصداقته الشخصية مع لاوريانو غوميث نفسه، إلا أنه أبرز سونيتات بابلو نيرودا في صفحاته الأدبية. وقيل ذلك كسبق صحفي، أكثر مما هو موقف سياسي. ولكن الاستنكار جاء، بالإجماع تقريباً، ولا سيما بسبب نشرها المخالف للمنطق، في جريدة يملكها ليبرالي ذو عظم أحمر، مثلما هو الرئيس السابق إدواردو ساتوس، المعارض لفكر لاوريانو غوميث الرجعي، بقدر

معارضته لفكر بابلو نيرودا الثوري. وجاء أشد ردود الفعل صخباً، من جانب من لم يتسامحوا حيال إقدام أجنبي على السماح لنفسه بمثل ذلك التمادي. إن مجرد تمكّن ثلاث سونيئات، وجدانية تعتمد الصنعة أكثر منها شاعرية، من إثارة مثل تلك الضجة، كان دليلاً ساطعاً على سلطة الشعر في تلك السنوات. ولكن نيرودا مُنِعَ قيصراً بعد، على أي حال، من الدخول إلى كولومبيا. ومن منعه هو لاوريانو غوميث نفسه، حين صار رئيساً للجمهورية، والجنرال غوستافو رохاس بينيا في حينه، لكن نيرودا نزل مع ذلك، في كارتاخينا وفي بونيفينتورا عدة مرات، أثناء توقفه العابث في رحلات بحرية، بين تشيلي وأوروبا، وكان كل عبور له، في الذهاب والإياب، احتفالاً كبيراً بالنسبة لأصدقائه الذين كان يخبرهم، مسبقاً، بمروره.

عندما دخلت كلية الحقوق، في شباط ١٩٤٧، كان توافقي مع جماعة "حجر وساء" لا يزال سارياً، ومع أنني كنت قد تعرّفت على أبرزهم في بيت كارلوس مارتين، في ثيباكيرا، إلا أنني لم أجد المرأة على أن أذكر بذلك حتى كاراتشا، وكان أكثر من يسهل الوصول إليه منهم. في إحدى المرات وجدته قريباً جداً ووحيداً في مكتبة غرانكولومبيا، فوجهت إليه تحية معجبة به. رد علي بلفظ شديد، ولكنه لم يتذكرني. أما المعلم ليسون دي غريف بالمقابل، فنهض في مناسبة أخرى عن مائدته في مقهى الطاحونة، وجاء يحبيني على طاولتي، عندما أخبره أحدهم بأنني قد نشرت قصصاً في *الاسبكتادور*، ووعدني بأن يقرأها. ونسوا، الحظ أنه بعد أيام قليلة من ذلك، وقعت أحداث التاسع من نيسان الشعبية، واضطرت إلى هجر المدينة التي كان

الدخان ما يزال يتصاعد منها. وعندما رجعت إليها، بعد أربع سنوات، كان مقهى الطاحونة قد اختفى تحت رماده. والمعلم قد انتقل بقضيه وقضيضه، وبطانة أصدقائه إلى مقهى "إل أوتوماتيكو"، حيث صرنا أصدقاء، كتب وخمر، وعلمني كيف أحرك أحجار الشطرنج، دون فن ولا حظ.

كان أصدقاء مرحلتي الأولى يستغربون انكياي على كتابة القصص القصيرة. وأنا نفسي لم أكن أجد تفسيراً لذلك، في بلاد يعدّ الشعر فيها هو الفن الأكبر. وقد كنت أعرف ذلك منذ طفولتي المبكرة، بسبب النجاح الساحق لقصيدة "بوس بشري"، تلك القصيدة الشعبية التي كانت تباع في كرايس صغيرة من ورق أسمر، أو تُلقَى مقابل سنتين اثنتين في أسواق ومقابر قرى منطقة الكاريبي. أما الرواية بالمقابل، فكانت نادرة جداً. فعند رواية "ماريا" لخورخي إيساكس، كتبت روايات كثيرة لم تُحدث صدى يذكر. وكان خوسيه ماريا بارغاس بيلا ظاهرة فريدة بكتابته اثنتين وخمسين رواية موجهة مباشرة إلى قلوب الفقراء. كان رجاله لا يكل، أشعته المفرطة هي كتيبه نفسها التي تُعرض وتنفذ مثل الحيز عند أبواب الفنادق، في أميركا اللاتينية وإسبانيا. وقد مزقت روايته الفلكية "أورا أو زهور البنفسج" من القلوب، أكثر بكثير من روايات أخرى أفضل منها لعاصريه.

الروايات الوحيدة التي استطاعت البقاء، حية بعد زمنها، هي "الحروف" التي كتبها الكاتب الإسباني خوان رودريغيث فريبلي، بين عامي ١٦٠٠ و١٦٣٨، في أوج العهد الاستعماري. وهي قصة شديدة الشطط في المبالغة والشحرر من القيود، حول تاريخ غرناطة الجديدة

(كولومبيا)، مما حولها إلى عمل روائي بارع؛ ورواية "ماريا" لمخورخي إيساكس، في سنة ١٨٦٧؛ و"الدوامة" لحوسيه إوسناسيو ريفيرا، سنة ١٩٢٤؛ و"مركيزة يولومبو" لتوماس كاراسكيّا، سنة ١٩٢٦؛ وأربع سنوات على مئة نفسي" لإدواردو ثالاميا، سنة ١٩٥٠. ولم تستطع أي من هذه الروايات بلوغ المجد الذي كان الشعر يتمتع به، بحق أو دون حق. وبالمقابل، كانت القصة القصيرة - مع سابقة بارزة مثلها كاراسكيّا نفسه، كاتب أنثيوكيا الكبير - غارقة في بلاغية متبوشة ومتقبة عنها بجهد، ودون روح.

والدليل على أنه كانت لذي مبول قصاص فقط، هو الأشعار المبعثرة التي خلفتها في المعهد، دون توقيع أو بأسماء مستعارة، لأنني لم أكن مستعداً على الإطلاق، للموت من أجلها، بل أكثر من ذلك؛ فعندما نشرت قصصي الأولى في الأسبكتادور، كان كثيرون يتنازعون هذا الجنس الأدبي، ولكن دون إمكانيات كافية. وأنا أفكر اليوم في أنه يمكن فهم ذلك، لأن الحياة في كولومبيا، من وجهات نظر متعددة، كانت ما تزال في القرن التاسع عشر. وبخاصة في بوغوتا الأربعينيات الكتيبة التي كانت لا تزال نحن إلى العهد الاستعماري، عندما ألحقت تسجيلي، دون مبول ولا رغبة، في كلية الحقوق بالجامعة الوطنية.

وللتأكد من ذلك يكفي الغوص في المركز العصبي لتقاطع الشارع السابع مع جادة خيمينث دي كيسادا، وهو التقاطع الذي اعتبرته المبالغة البوغوتية أفضل ناصية في العالم. فعندما تعلن الساعة العامة، في برج كنيسة سان فرانسيسكو، الثانية عشرة ظهراً، يتوقف الرجال في الشارع، أو يقطعون أحاديثهم في المقاهي، ليضبطوا ساعاتهم على

ساعة الكتيبة الرسمية. وفي ما حول ذلك التقاطع والشوارع المجاورة، كانت تقع أكثر الأماكن ارتياداً، حيث يلتقي، مرتين في اليوم، التجار والسياسيون والصحفيون - والشعراء بالطبع - وجميعهم يرتدون السواد حتى أقدامهم، مثل مولانا ملك إسبانيا دون فيليبي الرابع.

وفي أزمتي كطال، كانت لا تزال تُقرأ، في ذلك المكان، جريدة ربما لم يوجد الكثير مثلها في العالم. إنها سيورة سوداء كالتني في المدارس، تُعلن على شرفة الأسبكتادور في الساعة الثانية عشرة ظهراً، ثم في الساعة الخامسة مساءً. وقد كُتبت عليها آخر الأخبار بالطباشير. عندئذ يصبح مرور حافلات التراب صعباً، إن لم يكن مستحيلًا، بسبب عرقلة الحشود التي تنتظرها بفارغ الصبر. وكان يمكن لقراء الشارع أولئك، أن يصفقوا بحماس. للأخبار التي تبدو لهم جيدة، وأن يصفقوا أو يقدحوا الحجارة على السيورة، عندما لا تروقهم الأخبار، لقد كانت طريقة في المشاركة الديمقراطية الفورية، نحصل الأسبكتادور من خلالها، على ميزان حرارة أكثر فعالية من أي ميزان آخر لقياس درجة حرارة الرأي العام.

لم يكن التلفزيون قد وجد بعد، وكانت هناك نشرات أخبار إذاعية كاملة جداً، ولكنها تُبث في ساعات محددة وثابتة. وهكذا كان المرء قبل أن يذهب لتناول الغداء أو العشاء، ينتظر ظهور السيورة، ليذهب إلى البيت، ولديه رواية أكثر تكاملاً عن حال الدنيا. هناك عُرف وتُوعى بصرامة غودجيبة لا تُنسى خير الطيران الوحيد للكاتب كوثشا بينيغاس، بين ليما وبوغوتا، فعندما تكون ثمة أخبار مثل هذا الخير، يجري تبديل السيورة عدة مرات، في غير الموعد المحدد، لتغذية نهم الجمهور بلاحق

استثنائية. لم يكن أي واحد من قراء تلك الجريدة الشوارعية الفريدة. يعرف أن مبتكر الفكرة، وعيها، يدعى خوسيه سالغار. وهو محرر رائد في الأسبكتادور، توصل وهو في العشرين من عمره، لأن يكون صحفياً من الكبار، دون أن يكون قد تجاوز مرحلة الدراسة الابتدائية.

المؤسسة التي كانت تشكل علامة بوغوتا المميزة، هي مقاهي مركز المدينة، وفيها تصب عاجلاً أو آجلاً شؤون حياة البلاد بأسرها. وكان كل مقهى منها يتمتع، في زمانه، باختصاص محدد - سياسي، أدبي، مالي - بحيث أن قصماً كبيراً من تاريخ كولومبيا، في تلك السنوات، كان مرتبطاً بها بطريقة ما. فكل شخص له مقهى المفضل، كعلامة مؤكدة لشخصيته.

فكتاب وسياسيو النصف الأول من القرن - من فيهم بعض رؤساء الجمهورية - درسوا في مقاهي الشارع الرابع عشر، قبالة مدرسة روساريو. وكان مقهى إلوندور الذي عاش مرحلة ارتياد السياسيين المشهورين له، أحد أكثر المقاهي استمرارية. وكان ملاذ رسام الكاريكاتير الكبير ريكاردو ريندون الذي ألجأه هناك عمله الأكبر، ثم ثقب جميعته العبقريّة، بعد سنوات من ذلك، برصاصة مسدس، في الحجرة الخلفية لمقهى غران بيبيا.

الوجه الآخر لأمسيات ضجري الكثيرة، كان اكتشافي، مصادفة، لقاعة موسيقى مفتوحة للجمهور في المكتبة الوطنية. فجعلت منها ملاذ المفضل لأقرأ في كتب كبار الموسيقيين الذين كنا نطلب أعمالهم خطياً من موظفة فاتنة. وقد اكتشفنا، بين الزوادم المعهودين تشابهات، من كل صنف من خلال نوع الموسيقى التي نفضلها. وهكذا عرفت معظم

مؤلفي الموسيقى المفضلين، من خلال أذواق الآخرين، على كشرتهم وتنوعهم. وسكنت شويان لسنوات طويلة، بسبب هاور للموسيقى يظليه في كل يوم تقريباً، دون أي رحمة.

في أحد الأيام، وجدت القاعة مقفلة، لأن جهاز الموسيقى معطل. ولكن المدير سمحت لي بالجلوس للقراءة وسط الصمت. أحسيت في البدء كما لو أنني في بركة سلام راکدة. ولكنني لم أتمكن، قبل مرور ساعتين، من التركيز، بسبب ومضات جزع تعرقل قراءتي، وتُسرعني بأنني غريب عن جلدي. وقد احتجت إلى عدة أيام لكي أدرك أن علاج جزعي، ليس صمت القاعة، وإنما جو الموسيقى الذي صار منذ ذلك الحين، وإلى الأبد، شغفاً شبه سري.

في أمسيات أيام الأحاد، عندما كانوا يغلقون قاعة الموسيقى، كانت مشعني المنصة هي ركوب حافلات الترام ذات الزجاج الأزرق التي تجول الشوارع دون توقف، مقابل خمسة سنتافو، من ساحة بوليفار حتى جادة تشيلي، وكنت أقضي فيها أمسيات مراهقة تبدو كأنها تجر وراءها ذيلاً بلا نهاية من أيام آحاد أخرى ضائعة. الشيء الوحيد الذي كنت أقوم به، خلال جولات الحفلات المفرقة تلك، هو قراءة كتب أشعار، ربما كوادرا من المدينة مقابل كل كوادرا من الشعر، إلى أن تضاء أول الأنوار تحت رذاذ المطر الأبدى. عندئذ ألياً إلى المقاهي الهادئة في الأحياء القديمة، بحثاً عن من يقدم لي صدقة تبادل النقاش معي، حول القصائد التي انتهت من قراءتها. كنت أجد، في بعض الأحيان، من يفعل ذلك - وهو دائماً من الرجال - فيبقى إلى ما بعد منتصف الليل، في حجرة بانسة، مجهز على أعقاب السجائر التي كنا قد دخناها نحن أنفسنا،

وتحدثت عن الشعر، بينما الإنسانية في ما تبقى من العالم بأسره،
قارن الحب.

في ذلك الزمان كان الجميع شباباً، ولكننا كنا نجد دوماً آخرين
أكثر شباهاً منا، كانت الأجيال تدفع بعضها بعضاً، وبخاصة بين الشعراء
والمجرمين. ولا يكاد أحدهم يفعل شيئاً إلا ويظهر له من يتوعد بأنه قادر
على عمل ذلك بصورة أفضل. إنني أجد بين أوراقتي القديمة أحياناً بعض
الصور التي كان يلتقطها لنا مصورو الشوارع الجوالون، عند مدخل
كنيسة سان فرانسيسكو، فلا أستطيع أن أكبح إحساساً بالشفقة، لأنها لا
تبدو صوراً لنا، وإنما لأبنائنا بالذات، في مدينة أبواب مغلقة، حيث لا
وجود لشيء سهل، ولا سبيل البقاء، على قيد الحياة دون حب، في
أمسيات أيام الأحاد، وهناك تعرفت مصادفة، على خالي خوسيه ماريا
بالديبلاتيكث، عندما ظننت أنني أرى جدي يشق طريقه، جالساً مظلة
بين حشود يوم الأحد الخارجة من القديس، فخامة ملائكة لم تخف شيئاً
من هويته: كان يرتدي بدلة كاملة من المبرخ الأسود، وقميصاً أبيض
بباقة من السيلولويد، وربطة عنق ذات خطوط مائلة، وصدراً بسلسلة
ساعة، وقبعة قاسية، ونظارة مذهبة. كان تأثيري كبيراً إلى حدٍ قطعت
عليه الطريق دون أن أنتبه. فرفع المظلة متوعداً، وأوقفني على بُعد شبر
عن عيني:

- هل يمكنكني المرور؟

فقلت له خجلاً:

- أعذرتي، لقد حسيتك جدي.

واصل تفحصني بنظرة عالم فلكي، وسألني بسخرية خبيثة:

- وهل يمكنكني أن أعرف من هو جدك الشهير هذا؟
ولاضطرابي من وقاحتي المتهورة، أخبرتني باسمه كاملاً، فأقول عندئذ
المظلة، وابتسم بمزاج طيب قائلاً:

- هناك سبب إذن للتشابه. فأنا ابنه البكر.

الحياة اليومية كانت أقل وطأة في الجامعة الوطنية. ومع ذلك، لا
أتوصل إلى أن أجد في ذاكرتي واقع ذلك الزمن، لأنني لا أصدق أنني
كنت طالباً ولو ليوم واحد، بالرغم من أن درجتي في السنة الأولى -
وهي السنة الوحيدة التي أنهيتها في بوغوتا - تتيح التفكير في عكس
ذلك. لم يكن هناك الوقت ولا الفرصة لإقامة علاقات شخصية كذلك
التي توصلت إليها في المعهد. كما أن زملاء الدراسة يتفرقون في
أنحاء المدينة، بعد انتهاء الدروس. أما مفاجأتي الكبرى فتتمثل في أن
الأمين العام لكلية الحقوق، هو الكاتب بيدرو غوسيث بالديراما، وكانت
لدي أخبار عنه من خلال مشاركاته المبكرة في الصفحات الأدبية. وقد
بقي واحداً من أصدقائي المقربين حتى موته المبكر.

أما زميلي الأكثر مواظبة، منذ السنة الأولى، فكان غوثالو ماريانو
بوتيرو، الوحيد المعتاد على الإيمان بأن بعض أعاجيب الحياة حقيقية، حتى
وإن لم تكن صحيحة، وكان هو من علمني أن كلية الحقوق ليست جدياً،
إلى الحد الذي أظنه، فحصد اليوم الأول، أخرجني من درس الإحصاء
والسكان، في الساعة السابعة صباحاً، وتحدثني في مباراة شخصية
بالشعر، في مقهى المدينة الجامعية. وكان في ساعات الصباح المبكرة، يطلو
من الذاكرة، أشعار الكلاسيكيين الإسبان، فأرد عليه بقصائد للشعراء
الشباب الكولومبيين الذين فتحوا النار على ذبول القرن السابق البلاغيين.

دعائي في أحد أيام الأحاد إلى بيته، حيث كان يعيش مع أمه وأخواته وأخوته، وسط توترات أخوية مثل تلك التي ببنت أبيي. فالأخ الأكبر، فيكتور، كان رجل مسرح طوال الوقت، ومفتي أوبرا معشوقاً به في ميدان اللغة الإسبانية. منذ أن هربت من وصاية أبيي، لم أشعر قط أنني في بيتي، إلى أن تعرفت إلى بيبا بوتيرو، أم الأخوة ماريانو، وهي أنتيوكية^(١) لم يروضها العيش في نخاع الأرستقراطية البوغوتية الكثيم. وكانت، بذكائها الفطري وطريقتها العجيبة في الكلام، تمتلك قدرة لا تتعذب على معرفة المكان الدقيق الذي عليها أن تستعيد فيه الكلمات البديئة لسلالتها الشرفانسية. كانت أمسيات لا تُنسى، مع رؤية الغروب على زمرد السهب غير المحدود، ودفء الشوكولاته المعطرة في المعجنات الساخنة. ما تعلمته من بيبا بوتيرو، برطانتها المكشوفة، وطريقتها في قول أشياء الحياة العادية، لم يكن يُشمن، في التعرف على بلاغة الحياة الواقعية.

وكان من الزملاء الآخرين المشابهين، غييرمو لوبيث غبيرا وألفارو بيدال بارون. وكانا متواظنين معي في معهد ثيباكيرا. ومع ذلك، فقد كنتُ في الجامعة، أقرب إلى لويس بيشار بوردا وكاميلو توريس ريسيريو، اللذين كانا ينجزان بالأطفال، وحباً بالفن، الملحق الأدبي بجريدة "الارائون"، وهي صحيفة شبه سرية، كان يديرها الشاعر والصحفي خوان لوثانو إي لوثانو. وعشية صدور كل عدد من الملحق، كنتُ أذهب معها إلى مكاتب التحرير، وأقدم لهما مساعدة الساعة

(١) أنتيوكية Antioquia : تنسب إلى مقاطعة أنتيوكيا Antioquia (إسبانية) الكولومبية .

الأخيرة. وقد التقيت في بعض المرات مع مدير الجريدة، وكنتُ معجباً بسونيئاته، وأكثر منها بترجمة حياة الشخصيات الوطنية التي كان ينشرها في مجلة "السبت". وكان يتذكر، بشيء من الغموض، الملاحظة التي كتبها أوليسيس عني، ولكنه لم يقرأ أي قصة من قصصي. وقد تهرئت من الموضوع، لأنني كنت متأكداً من أنها لن تروقه. ومنذ اليوم الأول، قال لي وهو يودعني، إن صفحات جريدته مفتوحة لي. ولكنني اعتبرت ذلك مجرد مجاملة بوغوتية.

في مقهى أستورياس، عرفني زميلاني في كلية الحقوق، كاميلو توريس ريسيريو ولويس بيشار بوردا، على بيلينيو ميندوتا الذي نشر، مذ كان في السادسة عشرة، مجموعة من نصوص النثر الغنائي، هذا الجنس الأدبي الراجح آنذاك، بعد أن فرضه إدواردو كاراتشا، من خلال الصفحات الأدبية لصحيفة التيمبو. كان ذا بشرة مدبوغه، وشعر داكن وأملس، يبرز مظهره كهندي، وكان قد توصل، على الرغم من سنه، إلى جعل مقالاته تُعتمد في مجلة السبت الأسبوعية التي أسسها أبوه بيلينيو ميندوتا نيبيرا، وهو وزير حرب قديم وصحفي كبير، ربما لم يكتب سطوراً كاملاً واحداً طوال حياته. ومع ذلك، فقد علم كثيرين الكتابة في الصحف التي كان يؤسسها بكل أهبة، ويهجرها إلى مناصب سياسية رفيعة، أو لإقامة مؤسسات أخرى هائلة وكارثية. أما ابنه فلم أراه سوى مرتين أو ثلاث مرات في تلك الفترة، ودوماً مع زملاء لي، وقد أذهلني أنه في سنه تلك، كان يحاكم الأمور كعجوز مسن. ولكن لم يخطر لي آنذاك أننا سنعاون، بعد سنوات، في جولات صحافة جريئة، لأنني لم أكن قد فكرت بعد، في غواية الصحافة كمهنة. أما اهتمامي بها كعلم، فكان أقل من اهتمامي بالحقوق.

لم أفكر، في الواقع قط، أن الصحافة ستكون موضع اهتمامي يوماً، حتى ذلك اليوم الذي قامت فيه إلفيرا ميندوتا، شقيقة بلينيو، بإجراء مقابلة عاجلة مع مغنية الأوبرا الأرجنتينية بيرتا سينغريمان، فبدلت تماماً أحكامي المسبقة ضد المهنة، وكشفت عن ميل مجهول لدي. فالمقابلة التي بدت أبعد ما يكون عن مقابلات الأسئلة والأجوبة التقليدية - وهو النمط الذي كان، ولا زال، يخلف لدي الكثير من الشكوك - كانت واحدة من أكثر المقابلات التي نُشرت في كولومبيا أصالة. وبعد سنوات من ذلك، عندما صارت إلفيرا ميندوتا صحفية عالمية مكرسة، وإحدى أفضل صديقاتي، أخبرتني بأن ما فعلته يومذاك، إنما كان وسيلة يائسة لإنقاذ إخفاقاتها.

لقد كان وصول المغنية بيرتا سينغريمان حدث ذلك اليوم. فطلبت إلفيرا - وكانت مسؤولة القسم النسائي في مجلة السبت - أن تُكلف بإجراء مقابلة معها. وقد تلقت التكليف، مع بعض التحفظات من جانب أبنائها، بسبب ضالة خبرتها في ذلك النوع من العمل الصحفي. كانت مكاتب تحرير مجلة السبت آنذاك مركز اجتماع أشهر مشققي تلك السنوات، فطلبت منهم إلفيرا أن يقدموا لها بعض الأسئلة للمقابلة. ولكنها بلغت حافة الهلع عندما لاحظت الاستخفاف الذي استقبلتها به بيرتا سينغريمان، في الجناح الرئاسي في فندق غرانادا.

فقد وجدت المغنية متعة، منذ السؤال الأول، في استنكار الأسئلة باعتبارها حقاً غريبة، دون أن يخطر لها بأن وراء كل سؤال منها كاتباً جيداً من الكتاب الكثرين الذين عرفتهم وقدّرتهم خلال زياراتها المتعددة إلى كولومبيا. وكان علي إلفيرا، المعروفة دوماً بطبعها المحي،

أن تبتلع دموعها، وأن تتحمل بشرق قلب تلك الكارثة. ولكن دخول زوج بيرتا سينغريمان المفاجئ أنقذ تحقيقها الصحفي، بعد أن أوشك على التحول إلى حادث خطير. فقد تكفل الزوج بتحريك الوضع بلمسة عذبة وحسن سخرية طيب.

لم تكتب إلفيرا الحوار الذي تصورته مسبقاً، من أجوبة مغنية الأوبرا، وإنما كتبت ريبورتاجاً عن مصاعبها معها. واستغلت تدخل الزوج الذي وفرته لها العناية الإلهية، وحولته إلى البطل الحقيقي في اللقاء. وقد ثارت ثائرة بيرتا سينغريمان، في واحدة من نوبات غضبها التاريخية، عندما قرأت المقابلة. ولكن السبت كانت المجلة الأسبوعية الأوسع انتشاراً، وقد ارتفع توزيعها الأسبوعي إلى مئة ألف نسخة، في مدينة عدد سكانها ستمئة ألف نسمة.

برود الأعصاب والذكاء اللذان استغلت بهما إلفيرا خواء بيرتا سينغريمان، لتكشف حقيقة شخصيتها، دفعتني إلى التفكير، للمرة الأولى، في إمكانيات الريبورتاج الصحفي، ليس كوسيلة باهرة لتقديم المعلومات، وإنما أكثر من ذلك: كجنس أدبي. ولن تنقضي سنوات طويلة قبل أن أخوض تلك التجربة بنفسني، وأن أتوصل إلى الإيمان، مثلما أؤمن اليوم أكثر من أي وقت آخر، بأن الرواية والريبورتاج الصحفي هما ابناؤنا للأمان نفسها.

لم أكن قد جازقت حتى ذلك الحين، إلا بكتابة الشعر: أشعار ساخرة في مجلة مدرسة سان خوسيه، ونثر غنائي أو سونيئات غراميات متخيلة على طريقة شعراء "حجر وساء" في العدد الوحيد من الجريدة الأدبية، في مدرسة المعهد الوطني. وقبل ذلك بقليل، كانت سيسيليا غونزالث، المتواظطة معني في نيباكيرا، قد أقتعت الشاعر والباحث

دانييل أراتغو بأن ينشر أغنية قصيرة كتبها باسم مستعار، وقد نُشرت بحروف طباعية "ثمرة سبعة"، في ركن غير ظاهر من ملحق يوم الأحد لجريدة التيسير. ولم يجعلني نشرها أنبهر، ولا أن أشعر بأنني شاعر أكثر مما كنت عليه. أما ريبورتاج الفيرا بالمقابل، فقد جعلني أعني الصحفي الهاجع في قلبي، وتشجعت على إيقافه. بدأت بقراءة الصحف بطريقة أخرى. وكان كاميلو توريس ولويس بيبار بوردا متففين معي، فكروا العرض الذي قدمه دون خوان لوتانو، بالكتابة في صفحات جريدته "الاراثون". غير أنني لم أنجز إلا على نشر قصيدتين تقنيتين، لم اعتبرهما لي قط. اقترحنا على أن يكلمنا بليسيو أبوليسيو ميندوثا للكتابة في مجلة "النبت". ولكن حياتي الوصي، نيهني إلى أنني ما زلت بحاجة إلى الكثير، قيل أن أجازف، تحت أضواء مطلقاً، في مهنة جديدة. ومع ذلك، فقد كان لاكتشافني الذي توصلت إليه، فائدة فورية. ففي تلك الأيام كنت مشوشاً يادراكي أن كل ما أكتبه، نشر أو شعراً، بما في ذلك واجباتي المدرسية في المعهد، ما هي إلا محاكاة بليدة لجماعة "حجر وسما". وطرحت على نفسي مهمة إجراء تحول جاسم، ابتداء من قصتي التالية. وقد انتهت التجربة إلى إقناعي بأن ظروف الحال الناجزة في الذهن، ما هي إلا تقيصة مقلقة، فبدأت بجمعها، أينما اعترضت طريقي، وفي كل مرة كان ذلك الهوس يجبرني على إيجاد أشكال أخرى أكثر غنى وقدرة على التعبير، ومنذ زمن طويل لم يعد يرد في كتبي ظرف منها، اللهم إلا في استشهادات مقتبسة بنصها. ولست أدري بالطبع، إذا ما كان مرجعوا أعمالني قد التقطوا ذلك هذا الهوس الأسلوبي، وأصيبوا بعدواه، بسبب طبيعة مهنتهم.

سرعان ما تجاوزت صداقتي لكاميلو توريس وبيبار بوردا، حدود قاعات الدرس والتحرير. وصرتا نقضي معاً في الشارع، وقتاً أطول من الذي نقضيه في الجامعة. وكلاهما كان يغلي على نار هادئة، في استياء قاس من وضع البلاد السياسي والاجتماعي. أما أنا المتضعض بأسرار الأدب، فلم أكن أحاول حتى فهم تحليلاتهم الدروانية وتوقعاتهم الثقافية. غير أن آثار صداقتهم فاقت أحب صداقتي وأكثرها فائدة في تلك السنوات. أما في الدروس الجامعية بالمقابل، فكنت غارقاً في ورطة. وقد ندمت دوماً على قلة ورعي تجاه جذارة الأسئلة ذوي الأسماء الكبيرة الذين كانوا يتحملون نفورنا من الدروس. وكان منهم ألفونسو لوبيث ميتشيلسين، ابن الرئيس الكولومبي الوحيد الذي أعيد انتخابه مرة ثانية في القرن العشرين. وأظن أن ذلك هو مبعث الانطباع العام الذي كان شائعاً، بأنه هو أيضاً مرضود، منذ مولده، ليكون رئيساً. وهو ما صار إليه فعلاً. كان يصل إلى منبر أستاذه في مادة "مدخل إلى الحقوق" بدقة تشير الغيظ، مرتدياً سترات كشيرية بدعة مصنوعة في لندن. ويلقي دروسه دون أن ينظر إلى أحد، بذلك المظهر السماوي لمسيحي النظر الأذكيا، ممن يبدو دوماً، كما لو أنهم يشون غير أحلام الآخرين. كانت دروسه تبدو لي مونولوجات رتيبة على وتيرة واحدة، مثلما هو بالنسبة لي أي درس آخر غير الشعر. إلا أنه كان لرتابة صوته المضجر، ميزة القدرة على الترويم التي يتمتع بها جاري الأفاعي. وكانت ثقافته الأدبية الواسعة تستند، منذ ذلك الحين، إلى أسس راسخة، يعرف كيف يستخدمها كتابة أو بصوته الحي مباشرة، ولكنني لم أبدأ بتقديره إلا عندما عدنا للتعارف بعد سنوات من ذلك، وصرتا صديقين بعيداً عن

سببات الدروس الجامعية. كانت سمعته، كسياسي صلب، تتغذى من فتنة شخصية سحرية، ومن صفاء ذهن وبصيرة خطيرة في اكتشاف الثواب الخفية للناس. وخاصة من يحبهم أقل. ومع ذلك، فإن فضيلته الأكثر تميزاً، كشخصية عامة، هي قدرته المذهلة على خلق أوضاع تاريخية بجملة واحدة.

توصلنا مع مرور الزمن إلى صداقة جيدة. ولكنني لم أكن في الجامعة من أكثر الطلاب دأباً ومواظبة. وكان خجلي الذي لا مفر منه، يبقيني على مسافة لا يمكن لي تجاوزها، خاصة مع الناس الذين أقدرهم وأحترمهم. ولهذا فوجئت كثيراً عندما استدعاني إلى الامتحان النهائي للمسنة الأولى، بالرغم من أن كثرة غيابي عن الدروس جعلتني جديراً بلقب الطالب الخفي. لجأت إلى حيلتي القديمة في تحويل اتجاه الحديث حول الموضوع بأساليب بلاغية. ولاحظت أن الأستاذ واع لحيلتي، ولكنه ربما قدّرها كتسليية أدبية. وكانت الزلة الوحيدة هي استخدامي في الامتحان النهائي كلمة *تقادم* (prescription)، فسارع هو إلى الطلب مني أن أحده معناها، ليتأكد من أنني أعرف ما الذي أقوله.

فقلت له:

- الفعل *تقادم* *prescribit* يعني اكتساب خواص معينة مع مرور الزمن.

فسألني على الفور:

- اكتسابها أم فقدانها؟

إنه الشيء نفسه^(١)، ولكنني لم أناقشه في ذلك، بسبب عدم يقيني المفطري. وأظن أن تلك كانت واحدة من مداعباته الشهيرة التي

(١) الفعل *prescribit* يتضمن معنيين متناقضين، فهو يعني «في الوقت نفسه» اكتساب مهارة أو التقادم.

يرجئها بعد الامتحان، لأنه لم يحاسبني عليها ولم يتقاضى مني ذلك الدين عند وضع درجة التقويم. وقد حدثت بعد سنوات من ذلك، عن الواقعة، فلم يتذكرها بالطبع. ولكننا لم نكن عندئذ، أنا وهو، متأكدين من أن تلك الحادثة كانت صحيحة.

لقد وجد كلانا في الأدب، ملاذاً طيباً لتناسي السياسة وأسرار "التقادم"، واكتشفنا بالمقابل كثيراً مذهلة وكتائباً منسيين في محادثات لانهائية أدت، في بعض الأحيان، إلى إفساد زيارات، وإثارة حفيظة زوجتي. أقنعني أمني بأتنا قريبان، وقد كان الأمر كذلك بالفعل. ومع ذلك، فإن ما كان يحدد هويتنا، أفضل من أي رابطة غائمة، هو شعفنا المشترك بأغاني منطقة بايناتور.

وكان هناك قريب عارض آخر، من جهة أبي، هو كارلوس هـ. باربخا، أستاذ الاقتصاد السياسي وصاحب مكتبة غرانكولومبيا، المكتبة المفضلة لدى الطلاب، بسبب عاداتها الحسيدة في عرض الكتب الجديدة لكيار الكتاب على مناضد مكشوفة ودون مراقبة. فكنّا، حتى نحن طلابه، نغزو المحل في سهو الغروب، ونسرق الكتب بلنون خفة الأصابع. وكانت سرقة الكتب تعتبر، حسب العرف المدرسي، جريمة؛ ولكنها ليست خطيرة. أما دوري في عمليات السرقة تلك، فكان يقتصر، ليس بدافع الفضيلة وإنما بسبب الخوف الجسدي، على حماية ظهر من هم أكثر مهارة؛ شريطة أن يسرقوا، فضلاً عن الكتب التي يريدونها لأنفسهم. بعض الكتب الأخرى التي أطلبها أنا، وفي مساء أحد الأيام، وكان أحد زملائي المواطنين قد انتهى للتو من سرقة المدينة دون لاورا لفرانثيسكو لويس بيرنارديث. عندما أحسست بقبضة قوية تمسك بكتفي، وبصوت رقيق يقول:

- أخيراً.. يا للجنة!

التفت مذعوراً، ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع الأستاذ كارلوس هـ. باريخا، بينما كان ثلاثة من شركائي يهربون متدافعين. ولحسن الحظ أنني انتهيت، قبل أن أتمكن من الاعتذار، إلى أن الأستاذ لم يفاجأ لأنه ضبطني كلص، وإنما لأنه لم يرني في دروسه منذ أكثر من شهر. وبعد تأنيب أقرب إلى العادي، سألتني:

- هل أنت ابن غابرييل البخير حقاً؟

كان ذلك صحيحاً، ولكنني أجبت أن لا، لأنني كنت أعرف أن أباء وأبي قريبان بعيدان بحادثة شخصية لم أفهمها قط. ولكنه عرف الحقيقة فيما بعد. ومنذ ذلك اليوم صار يعاملني بتميز، في المكتبة وفي الدروس، باعتباره ابن أخ له. وقد احتفظنا بعلاقة سياسية أكثر مما هي أدبية، بالرغم من أنه كان قد كتب ونشر عدة كتب شعرية متفاوتة القيمة، بالاسم المستعار "سيمون اللاتيني". ولكن وعي صلة القرابة أفاده هو فقط، لأنني لم أعد أقوم بدور المستر على سرقة الكتب.

أستاذ آخر رائع هو ديفغو مونتانيا كويار. وكان نقيض لوبيث ميتشيلسين. ويبدو أنهما كانا على خصومة سرية. لوبيث كليبرالي بشاكس ومونتانيا كويار كبساري رديكالي. لقد أقمت مع هذا الأخير علاقة جيدة خارج الجامعة. وبدأ لي على الدوام أن لوبيث ميتشيلسين ينظر إليّ، على أنني قرخ شاعر، بينما يرى في مونتانيا كويار داعية جيداً لمعتقداته الشورية.

نعاطفي مع مونتانيا كويار بدأ بمشكلة تعرض لها مع ثلاثة ضباط شباب، من المدرسة العسكرية، كانوا يحضرون دروسه يزي المراسم.

وكانوا يراغبون على الدروس بدقة الشكنة، ويجلسون معاً على المقاعد الجانبية نفسها، ويدونون ملاحظات متقنة لا تشوبها شائبة، ويحصلون على درجات يستحقونها بجدارة في الامتحانات الصارمة. تصحبهم ديفغو مونتانيا كويار بعدم المجيء إلى الدروس بالزي العسكري. فقالوا له بأكثر أساليبهم تهدياً إنهم ينفذون أوامر عليا. ولم يفوتوا فرصة لجعله يشعر بذلك. ومع ذلك، وعلى الرغم من غرابة سلوكهم، فقد كان الضباط الثلاثة، في نظر الطلاب والأساتذة، طلاباً نجيبين.

كانوا يأتون بزيهم العسكري المشابه، والمتقن، معاً على الدوام، وفي الموعد الدقيق، ويجلسون جانباً. لقد كانوا أكثر الطلاب جدية ومنهجية. ولكنني كنت أرى على الدوام أنهم في عالم مختلف عن عالمنا. فإذا ما توجه أحد إليهم الكلام، يُبدون الاهتمام واللفظ، ولكن بصورة رسمية وشكلية لا يمكن التغلب عليها؛ فهم لا يقولون أكثر مما يُسألون عنه. وفي أزمئة الامتحانات، كنا نحن المدنيين نتوزع في جماعات من أربعة طلاب لندرس في المقاهي. وكنا نلتقي في حفلات الرقص أيام السبت، وفي المبارزات الطلابية، وفي الحانات الهادئة ومواخير ذلك العصر الكثيرة. ولكننا لم نكن نلتقي قط، بزملائنا العسكريين.

لم أكد أتبادل معهم التحية، خلال السنة الطويلة التي أمضيناها معاً في الجامعة، فضلاً عن أنه لم يكن هناك متسع لذلك، لأنهم كانوا يحضرون إلى الدروس في الموعد المحدد بدقة، ويغادرون مع آخر كلمة ينطق بها الأستاذ، دون أن يتعاملوا مع أحد، اللهم إلا مع شبان عسكريين آخرين في السنة الثانية. يجتمعون وإياهم معاً في الاستراحات. لم أعرف أسماءهم قط، ولم أحصل على أي خبر عنهم

فيما بعد، وأنتبه اليوم إلى أن أكبر الموانع لم تكن من جانبيهم، بقدر ما هي من جانبي، لأنني لم أستطع قط أن أتجاوز المرأة التي كان جدي يستذكران بها حروبهما المحبطة والمذابح الفظيعة في مناطق الموت.

كان أستاذ مادة القانون الدستوري، خورخي سوتو دل كوزكال، مشهوراً بأنه يعرف عن ظهر قلب، كل دساتير العالم، وكان يبهزنا، في دروسه، بذكائه وعلوه الحقوقية، التي لا يعكسها إلا ضعف حسن الدعاية لديه. وأظن أنه كان واحداً من الأساتذة الذين يبدلون ما أمكنهم من جهد كيلا تظهر اختلاقاتهم السياسية في الجامعة، ولكنها كانت تبدو بوضوح أكبر مما يظنون، حتى من خلال إيماءات أيديهم ونبرة التفخيم لأفكارهم. ذلك أن الجامعة هي المكان الذي كان يلصق فيه، أكثر من سواء، النبض العميق للبلاد التي كانت على حافة حرب أهلية جديدة، بعد بضع وأربعين سنة من السلام المسلح.

على الرغم من غيابي الزمن وإهمالي القانوني، فقد نجحت في المواد السهلة من سنة الحقوق الأولى، بفضل تحميسات في اللحظة الأخيرة، ونجحت بأصعبها، بفضل حيلتي القديمة في تحاشي الموضوع المطلوب بوسائل مستتيلة. والحقيقة أنني لم أكن مرتاحاً داخل جلدي، ولم أكن أعرف كيف أوصل المشي بالتمسك في ذلك الطريق المسدود. فقد كان فهمي للحقوق قليلاً، واهتمامي به أقل بكثير من أي مادة دراسية في المعهد. كما أنني صرت أشعر بأنني قد تضجعت بما يكفي لاتخاذ قراراتي بنفسى. وأخيراً، بعد ستة عشر شهراً من البقاء حياً، بأعجوبة، لم يبق لي إلا جماعة من الأصدقاء الجيدين الذين سيبقون كذلك مدى الحياة.

ضالة اهتمامي بالدراسة تضاعفت أكثر بعد ملاحظة أوليسيس، وبخاصة في الجامعة، حيث بدأ بعض زملائي يمنحي لقب أستاذ وتقديري ككاتب. وتوافق ذلك مع تصميمي على تعلم بناء بيان يكون في الوقت نفسه، محتملاً وخيالياً، إذا دون فيجرات؛ وفق نماذج كاملة الإتقان وصعوبة، مثل أوديب ملكاً لسوفوكليس، حيث يبحث بطلها عن قاتل أبيه، وينتهي إلى اكتشاف أنه هو نفسه القاتل؛ ومثل "قائمة القرد" و، و. جاكوب W.W. Jacob، هذه القصة المحكمة، حيث كل ما يجري هو مصادفة. ومثل "كتلة الشحم"، لمريسان، وغيرهم كثير من الخطأ الكبار الذين أرجو أن يحفظهم الرب في ملكوته، وكنت أفكر في هذا الأمر، في ليلة يوم أحد جرى لي فيها أمر يستحق أن يروى. كنت قد أمضيت ذلك النهار بطوله في تهوية إحيائاتي، ككاتب، مع غونزالو مايارينو، في بيته في جادة تشيلي. وأثناء عودتي إلى المنزل، في الترام الأخير، صعد "فونوس"^(١) من لحم وعظم في محطة تشابينيرو. لم أخطئ القول؛ فونوس. لاحظت أن أحداً من ركاب منتصف الليل القاتل، لم يفاجأ برؤيته، فدفعني ذلك إلى التفكير في أنه واحد آخر ممن يتذكرون بهيئات مختلفة، في أيام الأحاد، لبييعوا كل شيء في حدائق الأطفال. ولكن الواقع أقتنعني بأنه لا يمكنني الشك، لأن له قرني تيس ولحيته، حتى إنني أحسست لدى مرووره، برائحة شعره الماعزي. وقيل بلوغنا الشارع ٢٦، وهو شارع المقبرة، نزل بمظهر رب أسرة طيب، واختفى بين أشجار الحديقة.

(١) فونوس Fauno أو Faunus: إله الغابات والمراعي وحامي القطعان والزراعة عند الرومان، يمثل بهيمة غريزية وبرأس ذي قرنين، وله لحية وقدماء تيس، وشعر كشعر الماعز.

استيقظت بعد منتصف الليل، من نومي القلق في فراشي، فسألني دومنغو مانويل بيغا عما أصابني.. "لقد صعد فونوس إلى الترام"، قلت له ذلك وأنا بين النوم واليقظة. فرد علي، وهو مستيقظ تماماً، بأنه إذا كان كابوساً فلا بد أن السبب هو سوء هضم من الذي يصيب المرء في يوم الأحد. أما إذا كان موضوعاً لقصتي القصيرة القادمة، فإنه يبدو له موضوعاً رائعاً. ولم أعد أدري، في الأيام التالية، إذا ما كنت قد رأيت حقاً "فونوساً" في الترام أو أنها مجرد أضغاث أحلام أحدية. وبدأت أتقبل أنني قد تمت تحت تأثير إرهاق ذلك اليوم، ورأيت حلماً واضحاً جداً لا يمكن فصله عن الواقع. ولكن الجوهرى بالنسبة لي لم ينته بهل كان الفونوس حقيقياً، وإغما إذا كان كذلك. وبالتالي - سواء أكان حقيقياً أم حلماً - لم يكن من المشروع اعتباره سحراً من الخيلة، وإغما كسجيرة عجيبة في حياتي.

وهكذا كتبت القصة في اليوم التالي، دفعة واحدة، ووضعتها تحت الوسادة، وقرأتها وأعدت قراءتها طوال ليال عديدة قبل النوم، أو لدى استيقاظي صباحاً. كانت القصة وصفاً خارجياً وحرفياً لواقعة الترام، مثلما جرت تماماً، وبأسلوب بالغ البراعة، مثل خبر تعميد طفل في صفحة الأخبار الاجتماعية. وأخيراً، وبدافع شكوك أخرى، قروت إخضاع القصة لتجربة الكلام المطبوع الحتمية. ولكن ليس في جريدة الاسبيكتادور، وإغما في الملحق الأدبي لجريدة التيمبو. وربما كانت تلك هي الطريقة لمعرفة وجهة نظر أخرى، مختلفة عن رأي إدواردو ثالاميا، دون أن أوظفه في مغامرة ليس هناك ما يستدعي إشراكه فيها. أرسلت القصة مع زميل في النزول، ومعها رسالة، إلى دون خيمي بوسادا، المدير

الجديد والشاب جداً لـ "الملحق الأدبي" في جريدة التيمبو. ولكن القصة لم تُنشر مع ذلك، ولم أتلق رداً على الرسالة. قصص تلك المرحلة، وفق تسلسل كتابتها ونشرها في ملحق "نهاية الأسبوع"، اختفت من أرشيف جريدة الاسبيكتادور خلال الهجوم على هذه الجريدة وإحراقها، على يد جنود الشغب الرسمية في السادس من أيلول ١٩٥٢. أنا نفسي، لم تكن لدي نسخة منها، ولم تكن كذلك لدى أصدقائي المهتمين. ولهذا ظننت، بشيء من الراحة، أن النسيان قد ابتلعها. ومع ذلك، فقد كانت بعض الملاحق الأدبية المحلية في الأقاليم، قد أعادت نشرها في حينها دون إذن، ونشر بعضها كذلك في مجلات مختلفة، إلى أن جمعتها في كتاب دار نشر "ألفيل" في مونتيفيديو سنة ١٩٧٢، وأصدرتها بعنوان قصة منها: "نابو، الزنجي الذي جعل الملائكة ينتظرون".

وكانت تنقصها قصة واحدة لم تُضم إلى الكتاب، ربما بسبب الافتقار إلى نسخة موثوقة منها: "توبال كايين بصوغ نجمة"، التي نُشرت في الاسبيكتادور يوم ١٧ كانون الثاني ١٩٤٨، واسم البطل، مثلما لا يعرف الجسيع، هو اسم خداد توراتي ابتدع الموسيقى. لقد كانت ثلاث حكايات، وقرأتها وفق الترتيب الذي كُتبت ونُشرت فيه، بدت لي معدومة الشرائط وتجريدية، بعضها غير معقول، ولا تستند أي واحدة منها إلى مشاعر حقيقية. ولم أستطع قط، أن أتبين وجهة النظر التي قرأها بها ناقد بالغ الصرامة مثل إدواردو ثالاميا. ومع ذلك، فإنها تشتمع في نظري، بأهمية لا يراها أحد سواي، ذلك أن في كل واحدة منها شيئاً يتناسب مع تطور حياتي السريع في ذلك الحين.

كثير من الروايات التي كنت أقروها آنذاك، وأقدرها، كانت تشد اهتمامي بما تتضمنه من تعليم تقني فقط. أي ما فيها من صنعة سرية. فمن التجريد الميتافيزيقي في القصص الثلاث الأولى، حتى قصص ذلك الحين الثلاث الأخيرة، وجدت دروباً محددة ومفيدة جداً للتكوين الأولي للكاتب. لم تكن قد وردت إلى خاطري، فكرة ارتياد أشكال أخرى. فقد كنت أفكر في أن القصة والرواية ليسا جنسين أدبيين مختلفين وحسب، وإنما هما جسدان من طبيعتين مختلفتين، وسيكون الخلط بينهما وخيباً. وما زلت اليوم أؤمن بذلك، مثلما كنت أؤمن به آنذاك. وصرت أكثر اقتناعاً بتفوق القصة القصيرة على الرواية.

سبب لي النشر في الاسبيكتادور، على هامش النجاح الأدبي، مشاكل أخرى أكثر دسرية ودعابة. فقد صار أصدقاء غافلون يوقفوني في الشارع، ليطالبوا مني أن أفرضهم نقوداً منقذة، فما كان بإمكانهم أن يصدقوا أن كاتباً يمثل ذلك الانتشار، لا يتلقى مبالغ مالية ضخمة مقابل قصصه. وقلة قليلة فقط هم الذين كانوا يصدقون أنه لم يدفع لي مقابل نشرها سنت واحد؛ وأنتي أنا نفسي، لم أكن أنتظر أن يدفع لي، لأن ذلك لم يكن شائعاً في صحافة البلاد. والأخطر من ذلك، هو خيبة أمل أبي عندما اقتنع بأنني لن أفك من تغطية نفقاتي الخاصة، في الوقت الذي كان يدرس فيه ثلاثة من أخوتي الأحد عشر الذين كانوا قد ولدوا جميعهم. كانت الأسرة ترسل لي ثلاثين بيزو في الشهر، وكان النزول وحده يكلفني ثمانية عشر بيزو. دون أن يكون لي الحق بالحصول على بيضة على الفطور. وكنت أجد نفسي غير قادر على استكمال المبلغ على الدوام، بسبب نفقات طارئة. ولحسن الحظ، لا أدري من أين

أصابني عدوى الرسم، وأنا ساء، على هوامش الصحف، وعلى المناديل الورقية في المطاعم. وعلى موائد الرخام في المقاهي. وأعجباً على الاعتقاد بأن تلك الرسوم هي سبيلة مباشرة لما كنت أرسمه، وأنا طفل، على جدران مشغل صباغة الجند. وربما كانت صمامات أمان سهلة للتفريغ عن النفس. كان لأحد رواد مقهى الطاحونة الطارئين، وساطة في إحدى الوزارات، نعتين رساماً فيها دون أن تكون لديه أدنى دراية بالرسم. وعرض علي أن أقوم بالعمل بدلاً منه، ونتقاسم الراتب في ما بيننا. لم أقرب طوال ما تبقى من حياتي قط إلى ذلك الحد من القساذ، ولكنني لم أقرب منه آنذاك، إلى الحد الذي أندم عليه.

تزايد اهتمامي بالموسيقى أيضاً، في تلك الفترة التي كانت فيها أغاني الكاريبي الشعبية - التي رضعتها منذ الصغر - تشق طريقها في بوغوتا. كان البرنامج الإذاعي الأوسع رواجاً هو ساعة ساحلية الذي ينشطه دون باسكوال ديلفيشكيو. وكان بمثابة قنصل موسيقي من ساحل الأطلسي إلى العاصمة. وقد حاز البرنامج على شعبية واسعة في أيام الأحاد صباحاً، إلى حد أننا، نحن الطلاب الكاريبيين، كنا نذهب للرقص في مكاتب محطة البث الإذاعي، حتى وقت متقدم من بعد الظهر. كان ذلك هو منشأ الشعبية الواسعة لموسيقانا في مناطق البلاد الداخلية، ثم بعد ذلك في أقصى أركانها، وتنشيطاً اجتماعياً للطلاب الساحليين في بوغوتا.

أما العائق الوحيد، فكان شبح الزواج الإجباري. ولست أدري ما هي السوابق السيئة التي أدت إلى أن يزدهر في الساحل، الاعتقاد بأن الفتيات البوغوتيات يسعدن بالشبان الساحليين وينصيون لنا الحياتل ليتروجن منا بالقوة. ليس بدافع الحب، وإنما بحلم العيش في بيت تطل

نافذته على البحر. لم تراودني هذه الفكرة قط. بل على العكس، فأكثر الذكريات غير المرغوبة في حياتي هي المواقف المشؤومة خارج أسوار بوغوتا، حيث كنا نذهب لتقيؤ سكراتنا المكفهرة. وقد أوشكت، في أكثرها قذارة، على التخلي عن بصيل الحياة الضئيل المتبقي في داخلي، عندما ظهرت امرأة، كنتُ معها للتو، غارية في العمر، وهي تصرخ قائلة إنني سرق ثني عشر بيزو من درج خوان زينتها. طرحني اثنان من العاملين في المحل أرضاً بالكلمات، ولم يكتفيا بانتزاع آخر بيزوين متيقنين في جيوبي، بعد ممارستي حباً مشؤوماً، وإغما غراياني حتى من الحذاء وراحا يفتشانني بأصابعهما بحثاً عن النقود المسروقة. وكنا قد قررا عدم قتلي على أي حال، وإغما تسليمي إلى الشرطة، عندما تذكرت المرأة أنها يدك مخبأ نقودها في اليوم السابق، ووجدتها كاملة، دون نقصان.

بين الصداقات المتبقية لي من الجامعة، لم تكن صداقتي لكاميلو توريس هي الأقل عرضة للنسيان فقط، وإنما الأكثر دراماتيكية في شأنا. في أحد الأيام تغيب عن الدروس لأول مرة، فانتشر السبب مثل نثار البارود. لقد رتب أشياء وقرر الهرب من بيته للذهاب إلى مدرسة تشيكينكيبرا الإكليريكية، على بعد أكثر من مئة كيلومتر عن بوغوتا. أدركته أمه في محطة القطار وحبيسته في مكتبها، وقد زرتة هناك، كان شاحباً أكثر من المعتاد، بغفارة بيضاء، وطمانينة دفعتني لأول مرة إلى التفكير في حالة الرضى الزباني، لقد قرر الالتحاق بالمدرسة الإكليريكية، استجابة لمبول كان يخفيها جيداً، ولكنه مصمم على الانصياع لها حتى النهاية.

قال لي:

- لقد انقضى أصعب ما في الأمر.

وكانت تلك هي طريقته في القول لي إنه قد فارق خطيبته، وإنها قد احتفت بقراره. وبعد أسبوع خصيبة، قدم لي هدية لا يمكن فك رموز اختيارها: أصل الأنواع لداروين. ودعته، براودني يقين غريب بأنه وداع إلى الأبد.

لم أره طوال فترة وجوده في المدرسة الدينية، وبلغتني أخبار غامضة عن أنه قد ذهب إلى لوفايانا، مدة ثلاث سنوات، للإعداد اللاهوتي، وأن استسلامه الديني لم يبدك روحه الطلابية وأساليبه العلمانية، وأن الفتيات كن يتنهذن من أجله، يعاملنه كما لو أنه ممثل سيثماني جعلته المسرح أعزل.

بعد عشر سنوات من ذلك، عندما رجعتُ إلى بوغوتا، كان قد تسم جسداً وروحاً طبيعة مكانته، إلا أنه بقي يحتفظ بأفضل فضائله، كمرافق. وكنتُ أنا آنذاك كاتباً وصحفياً دون شهادة، متزوجاً ولدي ابن واحد، رودريغو، الذي ولد يوم ٢٤ آب ١٩٥٩ في مستشفى باليرمو في بوغوتا، وقررنا في الأسرة، أن يكون كاميلو هو من يتولى تسميد ابنا؛ وأن يكون العراب هو بلينيو أبوليو ميندوتا الذي كنا أنا وزوجتي، قد أقنعنا معه صداقة عبريين من قبل. أما العرابية فكانت سوزانا ليناريس، زوجة خيرمان بارغاس الذي نقل إلي فتوته، كصحفي جيد وصديق مفضل. كان كاميلو أقرب إلى بلينيو مما هو إلينا، وعلاقته به أقدم بكثير. ولكنه لم يشأ قبوله كمراب، بسبب اتصالاته آنذاك مع الشيوعيين، وربما كذلك بسبب روحه الساخرة التي يمكن لها أن تسي.

إلى وقار الطقوس المقدسة. فتعهدت سوزانا بأن تتولى بنفسها أمر تكوين الطفل روحياً؛ ولم يجد كاميلو، أو لم يشأ أن يجد، حججاً أخرى لقطع الطريق على العراب.

جرت طقوس التعميد في مصلى مستشفى باليرمو، في شبه الظلمة الجليدية للساعة السادسة مساءً، دون وجود أحد سواي أنا والعرابان، وفلاح عبادة جبيلة وصندلاً، اقترب منا لحضور القداس كما لو أنه يطغو فوق الأرض، دون أن يكشف عن حضوره. وعندما وصلت سوزانا ومعها الوليد، أفلت العراب الذي لا سبيل إلى إصلاحه استفزازه الأول ساخراً:

- سنجعل من هذا الطفل رجلَ حرب عضابات جيداً.

فرد عليه كاميلو الذي كان يعدّ حوائج الطقس المقدس، بهجوم مضاد بالنبرة نفسها: "أجل، ولكنه سيكون محارباً في سبيل الرب". وياشر الطقوس بقرار من أكبر العيادات مقاساً، وغير مألوف تماماً في تلك السنوات:

- سوف أعمده بالإسبانية، لكي يفهم الجاحدون ما الذي يعنيه هذا

السر المقدس.

واح صوته يرنّ بقشالية مدوية، تابعتها من خلال لاتييتية ستوات صباي، كخادم كاهن في أراكاتاكا، وفي لحظة الرش بالماء، ودون أن ينظر إلى أحد بعينه، ابتدع كاميلو صيغة استفزازية أخرى:

- فليسر كع كل من يؤمن بأن الروح القدس سينزل الآن، على هذا

الطفل.

بقيت أنا والعرابان واقفين، ورها متضايقين قليلاً من مكر صديقنا

الحنوري، بينما الطفل يزحف تحت رشاش الماء البارد، والشخص الوحيد الذي جثا راكمعاً هو الفلاح ذو الصندل. لقد ظلت صدمة هذه الواقعة، واحدة من العبر القاسية في حياتي، لأتني اعتقدت دوماً، بأن كاميلو هو من جاء، بالفلاح، بتخطيط مسبق، لمعاقبنا بدرس في الإذلال، أو في حسن التربية على الأقل.

عدتُ للقاء به مرات قليلة. ودائماً لسبب قوي أو قاهر، يكون مرتبطاً على الدوام تقريباً، بأعمال إحسانه لمصلحة المطارد بين السياسيين. وفي أحد الأيام حضر إلى بيتي، ومعه لص سطر على المنازل أنهى حكماً بالسجن، ولكن الشرطة لم تمنحه الراحة وتخفف من وطأتها عنه؛ فكان رجال الشرطة يستولون على كل ما يملكه. في إحدى المرات، أهديتُ إليه حذاءً كشاف، في أسفل نعله رسم خاص من أجل مزيد من الأمان. وبعد أيام قليلة، تعرفت خادمة البيت على النعل، في صورة جانيح متشرده عُثر عليه ميتاً، في تصفية حسابات. لقد كان ذلك القليل هو اللص الصديق.

لست أزعم أنه كان لتلك الواقعة علاقة بالمصير النهائي الذي صار إليه كاميلو. ولكنه بعد شهور قليلة من ذلك، دخل إلى المستشفى العسكري لزيارة صديق مريض. ولم يعد يعرف أي شيء عنه، إلى أن أعلنت الحكومة أنه ظهر كمقاتل حرب عضابات عادي، في صفوف جيش التحرير الوطني. وقد مات في الخامس من شباط ١٩٦٦، في السابعة والثلاثين من عمره، خلال معركة حامية مع دورية عسكرية.

تزامن التحاق كاميلو بالمدرسة الدينية مع قراره الخاص بعدم مواصلة إضاعة الوقت في كلية الحقوق. ولكنني لم أجد الشجاعة

لمواجهة أبوي بذلك، دفعة واحدة. وقد علمت من خلال أخي لويس إنريكي - الذي جاء إلى بوغوتا في وظيفة جيدة في شهر شباط ١٩٤٨ - أن أبوي راضيان جداً عن نتائج في الثانوية وسنة الحقوق الأولى. وقد أرسلنا إليّ هدية مفاجئة، هي أخف وأحدث آلة كاتبة معروضة في السوق. كانت تلك هي أول آلة كاتبة أحصل عليها في حياتي، وأكثرها سوء طالع في الوقت نفسه، لأنني رهنها في ذلك اليوم بالذات مقابل اثني عشر بيزو من أجل مواصلة حفلة الترحيب بأخي مع زملائي في النزول. وفي اليوم التالي، بينما آلام الرأس تسبب لنا الجنون، ذهبنا إلى بيت الرهونات للأطمئنان إلى أن الآلة الكاتبة لا تزال هناك وأن خاتم تغليفها لم يمس. وللتأكد من أنها لا تزال في حالة جيدة، رشنا تسقط علينا من السماء النقود اللازمة لتخليصها. وقد واتتنا فرصة طبية بفضل ما دفعه لي شريكي الرسام المزيف، ولكننا قررنا في اللحظة الأخيرة، التخلي عن فك الرهن إلى ما بعد. وكلما مررنا أمام بيت الرهونات، أنا وأخي، معاً أو منفصلين، كنا نتأكد ونحن في الشارع، من أن الآلة الكاتبة ما تزال في مكانها، مغلفة مثل جوهرة بورق السيلوفان، مع شريط من الحرير، وسط صفوف من الأجهزة المنزلية المحمية جيداً. بعد مرور شهر، لم تتحقق الحسابات السعيدة التي كنا قد أجريناها في نشرة السكر. ولكن الآلة الكاتبة بقيت في مكانها دون أن تمس. ويمكن لها أن تبقى هناك إلى أن ندفع، في الوقت المناسب، الفوائد الفصلية عن قيمة الرهن.

أظن أننا لم نكون نعي بعد، التوترات السياسية الرهيبة التي بدأت تعكر صفو البلاد. وعلى الرغم من سعة المحافظ المعتدل التي وصل بها

أوسيينا بيريث إلى السلطة، فإن أغلبية حزبه كانت تعرف أن فوزه لم يكن ممكناً إلا بانقسام الليبراليين. وكان هؤلاء، وقد أفقدتهم الضربة صوابهم، يؤمنون ألبيرتو بيراس على حياديته الانتخابية التي سمحت بوقوع الهزيمة. أما الدكتور غابرييل طريه المثقل بمزاجه المعكر، أكثر من ضيقه من الأصوات العادية، فقد غادر إلى أوروبا دون وجهة ولا معنى، بحجة تخصص عالٍ في أمراض القلب. ومات وحيداً تحت وطأة ربو الهزيمة، بعد سنة ونصف، بين الأزهار الورقية الداوية في فندق بلاس آنتنيه الباريسي. أما خورخي إلسير غايتان بالمقابل، فلم يقطع يوماً واحداً، حملته الانتخابية من أجل الدورة التالية، وإنما جذرها بعنق! ببرنامج إصلاح أخلاقي للجمهورية تجاوز اقتسام البلاد التاريخي بين الليبراليين والمحافظين، وعممه بشرخ أقي وأكثر واقعية، بين المستقلين والمستقلين: البلد السياسي والبلد الوطني. ويصرخته التاريخية - إلى الهجوم! - نشر بحماسة فوق الطبيعي، بذرة المقاومة حتى في أقصى الأركان، عبر حملة تحريض ضخمة راحت تكسب أرضية صلبة، خلال أقل من سنة. حتى وصلت إلى عشية ثورة اجتماعية حقيقية.

وهكذا فقط، وعيننا أن البلاد بدأت تنحدر في مهاوي الحرب الأهلية نفسها التي بقيت لنا، منذ الاستقلال عن إسبانيا، وراحت تصل إلى الجيل الثاني من أحفاد أبطالها الأصليين. فالحزب المحافظ الذي استعاد الرئاسة من الفريق الليبرالي، بعد أربع دورات متتالية، كان مصحفاً على عدم فقدانها من جديد، مهما كلف الأمر. وللتوصل إلى ذلك، استبقت حكومة أوسيبو بيريث الأمور، بانتهاج سياسة أرض معروقة أدمت البلاد، ووصلت إلى الحياة اليومية في البيوت.

لم أستطع بالانعدام وعيي السياسي، ومن ضبابيتي الأدبية، أن ألمح ذلك الواقع الجلي، حتى ليلة كنتُ عائداً فيها إلى المنزل، والتقيت بشبح وعيي. كانت المدينة مقفرة، تعصف فيها رياح جليدية تهب من المضائق الجبلية، يحاصرها صوت خورخي إليسير غايتان المعدني ونبرة تفخيجه الشعبية المتعمدة، في خطابه الدوري الصارم، كل يوم جمعة في المسرح البلدي. لم تكن طاقة المكان الاستيعابية تزيد على ألف شخص متراجمين، ولكن الخطاب كان ينتشر في موجات متحدة المركز، أولاً من مكبرات الصوت في الشوارع المجاورة، وبعد ذلك من أجهزة المذياع التي تملعل بأعلى صوت، مثل ضربات مدوية في أجواء المدينة الذاهلة، وتستحوذ لثلاث ساعات، وحتى لأربع ساعات، على الاستماع الوطني. راودني في تلك الليلة الإحساس بأنني الوحيد في الشوارع، اللهم إلا عند ناصية تقاطع جريدة التيمبو، المحروسة كما في كل يوم جمعة، بفصيلة من رجال الشرطة المسلحين كما لو أنهم في حالة حرب. لقد كان ذلك كشفاً أتاح لي عجرفة عدم الإيمان بخورخي غايتان: فقد أدركتُ فجأة، في تلك الليلة، أنه قد تجاوز البلد الذي خلفته إسبانيا، وأنه يخترع لغة صريحة للجميع، ليس من خلال ما تعنيه الكلمات بقدر ما هو بسبب الهياج الذي يبثه، والدهاء الذي في صوته. لقد كان هو نفسه، في خطابهاته الملحمية، ينصح مستمعيه بنبرة أبوية مأكرة، بأن يعودوا بسلام إلى بيوتهم، فيترجموا نصيحته بصورة سوية على أنها أمر مشفر للإعراب عن رفضهم لكل ما يمثل التفاوت الاجتماعي وسلطة الحكومة الجائرة. وحتى رجال الشرطة أنفسهم الذين يتوجب عليهم حفظ النظام، كانوا يجدون تبريراً لأنفسهم، من خلال تنبيه يفسرونه معكوساً.

كان موضوع الخطاب في تلك الليلة، سرداً مكشوفاً للأضرار والخسائر التي أحدثها العنف الرسمي، بانتهاج سياسة الأرض المحروقة من أجل تدمير المعارضة الليبرالية، وما أسفرت عنه من عدد لم يحدد بعد من القتلى على يد قوات الأمن العام في المناطق الريفية، ولجؤ سكان قرى بكاملها إلى لاجئين في المدن، دون سقف ودون خبز. وبعد تعداد مرعب للاغتيالات وخرق القوانين، بدأ غايتان برفع صوته، متلذذاً بما يقوله كلمة كلمة، جملة جملة، بإعجاز بلاغي مبهرج وصائب. كان توتر الجمهور يتزايد على إيقاع صوته، حتى بلغ انفجاراً نهائياً في أجواء المدينة، ودوى عبر الإذاعة في أقصى أركان البلاد.

اندفعت الحشود الغاضبة إلى الشارع، في معركة جامية وغير دامية، وسط تسامح سري من جانب الشرطة. وأظن أنني فهمت أخيراً، في تلك الليلة، إحياءات جدي وتحليلات كاميلو تورييس ريسوريو الشاقية. ما فاجأني هو أن طلاب الجامعة الوطنية بقوا منقسمين إلى ليبراليين وقوطيين (محافظين)، مع وجود حلقات شيوعية. ولكن الثغرة التي كان يشقها غايتان في البلاد لم تتجاوز ذلك. وصلتُ إلى المنزل ذاهلاً من صدمة تلك الليلة، ووجدت زميلي في الفرقة يقرأ في سريريه بسلام، كتاباً لأورتيغا آي غاسيت، فقلت له:

- لقد جئت متحولاً إلى شخص آخر جديد يا دكتور بيغا. فقد عرفت الآن كيف ولماذا كانت تبدأ حروب الكولونيل نيكولاس ماركيز.

بعد أيام قليلة من ذلك - في السابع من شباط ١٩٤٨ - أقام غايتان أول مهرجان سياسي حضرته في حياتي: مسيرة خداد على ضحايا العنف الرسمي في البلاد الذين لم يُعرف عددهم، وقد شارك

فيها أكثر من ستين ألف امرأة ورجل يرتدون ملابس الحداد، ويرفعون رايات الحزب الحمراء، ورايات الحداد الليبرالي السوداء. وكان شعار المسيرة الوحيد هو: الصمت المطلق. وقد طُبق الشعار بصرامة لا يمكن تصورها، حتى في شرفات المنازل والمكاتب التي شهدت مرورنا عبر إحدى عشرة كوادرا المزدهجة في المادة الرئيسية. وكانت هناك إلى جانبي، امرأة تدمدم بتريلة من بين أسنانها. فنظر إليها باستغراب وجل يسير بجوارها:

- أرجوك يا سديتي.

فأصدرت المرأة زفرة أسف، وغرقت وسط بحر الأشباح الصامتة. ومع ذلك، فلان ما جرجرتني إلى حافة البكاء هو احتباس الخطوات وهي تطفأ الأرض، وأنفاس الحشود في صمتها الخارق. لقد انضمت إلى المسيرة دون أية قناعة سياسية، يجتذبي فضول الصمت. وفجأة داهمتني عقدة البكاء الحبيسة في حنجرتي. ذلك الخطاب الذي ألقاه غايتان في ساحة بوليفار، من فوق شرفة دار البلدية، كان صلاة مأتمية ذات شحنة انفعالية تبعث على القشعريرة. وعلى خلاف تنبؤات حزبه المشؤومة، أنهى خطابه بالشرط الأكثر ملاءمة لشعار المسيرة: ولم يكن هناك أي تصنيف.

هكذا كانت "مسيرة الصمت"، الأكثر إثارة للمشاعر، بين كل المسيرات التي جرت في كولومبيا. الانطباع الذي تبقى من تلك الأمسية التاريخية، بين الناصرين والمعادين، هو أن انتخاب غايتان صار أمراً محتسماً لا يمكن وقفه. وقد كان المحافظون يعرفون ذلك أيضاً، بسبب درجة التلوث التي بلغها العنف في كل أنحاء البلاد، وبسبب شراسة

شرطة النظام ضد الليبرالية العزلاء، وبسبب سياسة الأرض المحروقة، والتعبير الأكثر ضبابية عن حالة البلاد المعنوية، عاشه في عطلة نهاية الأسبوع تلك، من حضروا مصارعة الشبران في ميدان المصارعة في بوغوتا، حيث انقض جمهور المدرجات على الحلبة بسخط، وقد استشارته وداعة الثور وعجز المصارع عن الإجهاز عليه. فمزقت الحشود الغاضبة الثور حياً. صحفيون وكثاب كثيرون ممن عاشوا ذلك الرعب أو سمعوا به، فسروه على أنه العارض الأشد هولاً للغضب الهائج الذي كان يعتدل في البلاد.

في مناخ التوتر العالي ذلك، اقتنع في بوغوتا المؤتمر التاسع لعموم أميركا، في الثلاثين من آذار، الساعة الرابعة والنصف مساءً. كان قد جرى تجديد شباب المدينة بكلفة باهظة، وبالرؤية الجمالية الباذخة لوزير الخارجية لاوريانو غوميث الذي كان، بحكم منصبه، رئيساً للمؤتمر. وحضره وزراء خارجية جميع بلدان أمريكا اللاتينية، وشخصيات بارزة من ذلك الزمن. وكان جميع السياسيين الكولومبيين البارزين ضيوف شرف، باستثناء وحيد وذو مغزى لخورخي إلسير غايتان، إذ ألغيت دعوته، دون ريب، بالفيتو الذي المفزى الكبير الذي فرضه لاوريانو غوميث، وربما بعض القادة الليبراليين أيضاً، ممن كانوا يكرهونه لمهاجمته الأوليغارشية في كلا الحزبين. أما نجم القطب في المؤتمر فكان الجنرال جورج مارشال، مندوب الولايات المتحدة واليطل الأكبر للحرب العالمية المنتهية حديثاً، والمتألق كفتان سينمائي مبهر في قيادته إعادة إعمار أوروبا التي دمرتها الحرب.

ومع ذلك، فقد كان خورخي إلسير غايتان هو رجل اليوم في

الأخبار. في ذلك التاسع من نيسان، لأنه توصل إلى إصدار حكم بشبهة الملازم خيسوس هاريزا كورتيس بوبندا، المتهم بقتل الصحفي إدواردو غالارثا أوسا. كان قد وصل ممثلاً بالنشوة إلى مكتبه كمحام، في التقاطع المزدهم للشارع السابع مع جادة خيميث كيسادا، قبل الساعة الثامنة صباحاً بقليل، على الرغم من أنه كان قد بقي في المحاكمة حتى الفجر. وكانت لديه مواعيد عديدة للساعات التالية، ولكنه تقبل فوراً، الدعوة إلى الغداء التي وجهها إليه بلينيو ميندوثا نيرا، قبل الساعة الواحدة بقليل، مع ستة أصدقاء، شخصيين وسياسيين، ذهبوا إلى مكتبه لتنهئته بالفوز الحاسم الذي لم تتمكن صحف ذلك اليوم من نشره. وكان بينهم طبيبته الخاص، بيدرو إليسيو كروث، وهو في الوقت نفسه أحد أفراد بطائفة السياسية.

في ذلك الجو المنوتر، جلست لتناول الغداء في قاعة الطعام، في المنزل الذي أعيش فيه، على بعد أقل من ثلاث كوادرات. لم يكن الحساء قد قُدم إلى بعد، عندما وقف ويلفريدو ماتيو أمام المنضدة، وقال لي:

- لقد تغوزقت هذه البلاد! فقد قتلوا للثر غايتان، قبالة القط الأسود.

كان ماتيو طالب طب وجراحة مشالياً، ينحدر من سوكري مثل نزلأ آخرين في المنزل، ويعاني من نبوءات مشؤومة. وقد أخبرنا أقل من أسبوع، بأشد تنبؤاته هولاً وأقربها إلى الحدوث، بسبب عواقبها المدمرة، وهي احتمال أن يجري اغتيال خورخي إيسير غايتان. غير أن ذلك ما كان ليدهش أحداً، لأنه لم تكن هناك حاجة إلى النبوءات من أجل توقع حدوثه.

استجتمعت أنفاسي بصعوبة لأجتاز، بأقصى سرعة، جادة خيميث دي كيسادا، طائراً. ووصلت منقطع الأنفاس، قبالة مقهى القط الأسود، عند ناصية التقاطع مع الشارع السابع تقريباً. كانوا قد نقلوا الجريح للثر، إلى المستشفى المركزي، على بعد حوالي أربع كوادرات من المكان. وكان لا يزال حياً إنما دون أمل بالنجاة. وكانت هناك جماعة من الرجال يغمسون مناديلهم في بركة الدم الدافئ، ليحتفظوا بها كأثر تاريخي. وزمجررت امرأة تضع منديلاً أسود وتنتعل صندلاً، كانت بين النساء اللواتي يعمن أشياء رخيصة في ذلك المكان، وهي ترفع المنديل الدامي:

- لقد قتله أبناء العاهرة!

حاولت زمر ماسحي الأحذية، المسلحين بصناديقهم الخشبية، أن يحطموا الستارة المعدنية لصيدلية "تريفيا غرانادا"، حيث كان عدد قليل من رجال الشرطة قد احتجزوا المعتدي، لحمايته من الجموع المتأججة غضباً. وكان هناك رجل طويل القامة، شديد الثقة بنفسه، يرتدي بدلة رمادية متقنة، كما لو أنه في حفل زفاف، يعرض الجموع بصرخات محسوبة جيداً. وقد كان لصرخاته مفعولها، مما اضطر صاحب الصيدلية إلى رفع ستارة الباب المعدنية، خوفاً من أن يقدموا على إراقها. أما المعتدي، فقد أنهار هلعاً، في مواجهة الحشد الغاضب الذي اندفع باتجاهه، فتشبث بأحد رجال الشرطة، وهو يتوسل دون صوت تقريباً:

- لا تدعهم يقتلوني أيها الشرطي.

لن أستطيع نسيانه إلى الأبد. كان شعره مشعثاً، وذقنه لم يخلق منذ يومين، يغطي وجهه شحوب الموت، وعيناه جاحظتان من الرعب.

وكان يرتدي بدلة جوخ بنية مستخدمة طويلاً، ذات خطوط رأسية، وقد تفرقت ياقنتها مع أول أعمال شدة ولجاذب الجسوع له. كانت رؤية خاطفة وأبدية، لأن ماسحي الأحذية انتزعوه من الشرطة بضربات صناديقهم، وأجهزوا عليه ركلاً بالأقدام. ومنذ عشرة الأول، فقد إحدى فردتي حذائه. صرخ الرجل ذو البدلة الرمادية الذي لم تُحدد هويته قط:

- إلى القصر! إلى القصر!

انصاع له أشد الناس اندفاعاً، أمسكوا جسد القتاتل الدامي وسحلوه في الشارع السابع، باتجاه ساحة بوليفار، بين آخر حافلات الترام التي عرقل الخبر مسيرها، مطلقين سياب وشنائم الحرب ضد الحكومة. ومن الأرصفة والشرفات، كانوا يحشرونهم بالصرخات والتصفيق، بينما الجثة الممزقة بالضرب، تخلف تنفأ من الملابس والجسد على حجارة الشارع. انضم كثيرون إلى المسيرة، وخلال اجتياز أقل من ست كوادرات، صارت أشبه بانفجار حرب في اتساع حجمها وقوتها. ولم يبق على الجسد الممزق سوى سرواله الداخلي وفرد من الحذاء.

أما ساحة بوليفار التي أعيد تصميمها حديثاً، فلم تكن لها نهاية وجلال أيام الجمعية التاريخية الأخرى، فالأشجار جردت من ملائكتها، ونصبت التماثيل النقطة المعبرة عن الجماليات الرسمية الجديدة. وفي مبنى الكابيتوليو الوطني (اليزلمان)، حيث أقيم قبل عشرة أيام، مؤتمر عموم أمريكا، كان المندوبون قد غادروا لتناول الغداء. وهكذا واصلت الجسوع مسيرها حتى قصر الرئاسة، وكان أيضاً بلا حراسة. وهناك تركوا ما تبقى من الجثة التي لم يعد عليها من الملابس، سوى مزق من السروال الداخلي وفردة الحذاء اليسرى وربطتي عنق لا تفسير لهما، معفودتين

عند العنق. بعد دقائق، وصل رئيس الجمهورية مارباتو أوسيينا بيرث وزوجته لتناول الغداء. بعد أن افتتحا معرضاً للثروة الرعوية والمائية في بلدة إنغاتيغا، وكانا يجهلان حتى تلك اللحظة، خبر الاغتيال، لأن جهاز المذيع في السيارة الرئاسية، كان مطناً.

بقيت في مكان الجريمة حوالي عشر دقائق أخرى، مذهولاً من السرعة التي تتبدل فيها روايات الشهود، شكلاً ومضموناً، إلى أن تفقد أي تشابه لها مع الواقع. كنا في تقاطع جادة خيمييتيت والشارع السابع، في الوقت الذي بلغ فيه تجمع الناس ذروته، على بعد خمسين خطره من صحيفة التيمبو. وعرفنا عندئذ أن من كانوا يرافقون غايتان، عند خروجه من مكتبه، هم بيدرو إليسيو كروث، واليخاندرو بايخو، وخورخي باديا، وبيلينو ميندوتا نيبيرا، وزير الحرب في حكومة ألفونسو لويت يوماريخو الأولى. وكان هذا الأخير هو من دعاهم إلى الغداء. لقد خرج غايتان من البناء الذي يوجد فيه مكتبه، دون أي نوع من الحراسة، وسط جماعة متراصة من الأصدقاء. وما إن بلغوا الرصيف، حتى أمسكه ميندوتا من ذراعه، وتقدم به خطوة عن الآخرين، وقال له:

- ما أريد أن أقوله لك، هو أمر تافه.

لم يستطع قول المزيد. فقد غطى غايتان وجهه بذراعه، وسمع ميندوتا يطلقه الأولى قبل أن يرى في مواجهتهم الرجل الذي سدد مسدسه، وأطلق النار ثلاث مرات على رأس الزعيم، ببرود أعصاب قاتل محترف. بعد لحظة من ذلك، كان هناك حديث عن طلقة رابعة أطلقت دون اتجاه، وربما عن خامسة أيضاً.

بيلينيو أبوليو ميندوتا الذي وصل مع أبيه وأختيه، إلغيرا وروسا

إنيس، تمكن من رؤية غايتان مطروحاً على ظهره على الرصيف، قبل دقيقة واحدة من نقله إلى المستشفى. وقد أخبرني بعد سنوات من ذلك: "لم يكن يبدو ميتاً. كان أشبه بتمثال مهيب ممدد على ظهره فوق الرصيف، بجوار بقعه دم صغيرة، ويحزن عظيم في عينيه المفتوحتين والثابتتين." في لحظات الاضطراب تلك، فكرت أختاه في أن أباهما قد مات أيضاً، وكانتا ذاهلتين إلى حد أن بيلينير ابرليو صعد بهما إلى أول ترام مر من هناك، ليبعدهما عن المكان. لكن السائق أدرك ما حدث بالكامل، فألقى قبضته على الأرض، وغادر الترام في وسط الشارع، لينضم إلى صرخات التمرد الأولى. بعد دقائق كان ذلك الترام هو الأول الذي قلبته الحشود التي أصابها الجنون.

كانت هناك خلافات لا حل لها، حول عدد المشاركين في الاعتقال وأدوارهم؛ فقد أكد أحد الشهود أنهم كانوا ثلاثة، وتوالوا على إطلاق النار. وقال آخر إن القاتل الحقيقي قد اندس بين الجموع الهائجة، وصعد دون تسرع إلى ترام سائز. ولم يكن ما أراد ميتدونا نيسيرا طلبه من غايتان، عندما اقتضاه من ذراعه، أي شيء من الأشياء الكثيرة التي قبلت منذ ذلك الحين؛ وإنما أراد إبلاغه بمنحه الموافقة على إنشاء معهد لإعداد القادة النقابيين. أو "مدرسة لتعليم السائقين الفلسفة"، مثلما سخر منه حمزه قبل أيام من ذلك، ولكنه لم يتمكن من قول ذلك له، عندما دوت أمامهما الرصاصات الأولى.

بعد مرور خمسين سنة، ما زالت راسخة في ذاكرتي، صورة الرجل الذي بدا أنه يحرض الناس أمام الصيدلية، ولم أغش عليه في أي واحدة من الشهادات الكثيرة التي قرأتها عن ذلك اليوم. لقد رأيته عن قرب،

بلايس من النوع الفاخر، وبشرة من المرمر، وسيطرة محكمة على تصرفاته. وقد لغت انتباهي إلى حد بقيت معه أتابعه إلى أن التقطته سيارة جديدة تماماً فور سجل جثة القاتل. ومنذ تلك اللحظة، بدا محوياً من الذاكرة التاريخية، وحتى من ذاكرتي، إلى ما بعد سنوات طويلة، في أزمئة عملي كصحفي، حين داهمتني فجأة فكرة أن ذلك الرجل قد تمكن من دفع الجموع إلى قتل قاتل مزيف ليخفي هوية القاتل الحقيقي.

وقد كان وسط تلك الفوضى المتقلبة من عقالاتها، القائد الطلابي الكوبي فيديل كاسترو، في العشرين من عمره، مندوباً عن جامعة هافانا إلى مؤتمر طلابي، انعقد كره ديمقراطي على مؤتمر عموم أمريكا. كان قد حضر قبل حوالي ستة أيام، برفقة ألفريدو غيفارا، وإرنكي أوفاريس، ورفائيل دل بينو - وهم طلاب جامعيون كوبيون مثله - وكانت إحدى مناسباته الأولى، طلب موعد للقاء، مع خورخي اليسير غايتان، وكان معجبا به، بعد يومين من وصوله، التقى كاسترو بغايتان، وحدد له هذا الأخير موعداً لقايلته يوم الجمعة التالي. وقد سجل غايتان، شخصياً، هذا الموعد في مفكرة مكتبه، في الصفحة الموافقة ليوم التاسع من نيسان: "فيديل كاسترو، في الثانية بعد الظهر".

ووفق ما قاله فيدل نفسه لوسائل إعلام عديدة، وفي مناسبات مختلفة، وفي استعادتنا معاً، مرات لا حصر لها، لتلك الأحداث على امتداد صداقتنا القديمة، فقد سمع بأول خير عن الجريمة، بينما كان يتجول قريباً من المكان، لكي لا يتخلف عن مواعده في الساعة الثانية. وقاجاته بغثة أول الجماعات التي كانت تركض غاضبة، ومطلقة الصيحة العامة:

- لقد قتلوا غايتان!

لم يشبه فيديل كاسترو، إلا في ما بعد، إلى أنه ما كان يمكن له إنجاز مواعده، بأي حال من الأحوال، قبل الساعة الرابعة أو الخامسة، بسبب دعوة الغداء الطارئة التي قدمها ميتوثا نيرا لغايتان.

لم يكن هناك مشع لأي شخص آخر في موقع الجريمة. فقد كانت حركة المرور متوقفة، وعربات الترام مقلوبة، فتوجهت إلى النزول لأنهي عذائي، عندما اعترض طريقي أستاذي كارلوس هـ. باروخا أمام باب مكتبة، وسألني إلى أين أنا ذاهب؟ فقلت له:

- إنني ذاهب لتناول الغداء.

فقال بطلاقة الكاريلية المتصادية:

- يا ملعنة! كيف يخطر لك تناول الغداء، وقد قتلوا لشوهم غايتان؟

ودون أن يمنحني وقتاً لقول أي شيء آخر، أمرني بأن أذهب إلى الجامعة، وأن ألق على رأس حركة الاحتجاج الطلابي. الغريب أنني انضمت له على خلاف طبيعتي. واصلت مسيري عبر الشوارع السابعة باتجاه الشمال، وهو عكس اتجاه الحشد الذي كان يتراكم نحو الناصية التي وقعت فيها الجريمة، بفضول وألم وغضب. كانت حافلات الجامعة الوطنية، يقودها طلاب هائجون، تتقدم المسيرة. وفي حديقة سانتاندير، على بعد متر من ناصية الجريمة، كان الموظفون يغلقون بأقصى سرعة بوابات فندق غرانادا - أنخم فنادق المدينة -، حيث كان ينزل في تلك الأيام بعض وزراء الخارجية وضيف مؤتمر عموم أمريكا.

راحت جمهرة جديدة أخرى من الفقراء، تبرز من كل التواصي، في وضع قتالي. كثيرون منهم جاؤوا مسلحين بمناجل متشيعتي سُرقت للتو،

في أول هجمات على المتاجر. وكانت تبدو عليهم اللهفة إلى استخدامهما. لم تكن لدي رؤية واضحة لنتائج الاغتيال المحتملة؛ واصلت طريقي مفكراً في الغداء أكثر من تفكير في الاحتجاج. وهكذا رجعت ثانية باتجاه النزول، صعدت الدرج فظراً وأنا واثق من أن أصدقائي المسبين يقفون على أهبة الحرب. لكن الأمر لم يكن كذلك؛ فقد كانت قاعة الطعام لا تزال مقفرة، وكان أخي وخوسيه بالنشيا - اللذان يقبضان في الغرفة المجاورة - يغتبان مع أصدقاء آخرين في غرفة النوم، فصرخت بهم:

- لقد قتلوا غايتان!

أومأوا إلي بأنهم يعرفون ذلك، ولكن مزاجهم جميعاً كان أقرب إلى الاحتفالية منه إلى المأقية، ولم يقطعوا غناهم. بعد ذلك جلسنا لتناول الغداء في قاعة الطعام الخاوية، مقتنعين بأن الأمر لن يتجاوز الحد الذي بلغه، إلى أن رفع أحدهم صوت المذياع ليستمعه غير المباليين. وأكد كارلوس هـ. باروخا، عبر المذياع، على ما كان قد نبهني إليه قبل ساعات؛ فأعلن أنه جرى تشكيل مجلس حكومي ثوري مكون من أبرز ليبراليي اليسار، ومنهم الكاتب والسياسي الأوسع شهرة، خورخي ثالاميا. وكان أول اتفاق توصل إليه هو تشكيل اللجنة التنفيذية، وقباده الشرطة الوطنية وكل الأجهزة اللازمة للدولة الثورية. ثم تحدث بعد ذلك أعضاء اللجنة الآخرون بشعارات أكثر فأكثر ثنائياً.

كان أول ما خطر لي، في وقار المهرجان، هو ما الذي يمكن لأبي أن يفكر فيه عندما يعلم، وهو المحافظ الصليب، أن ابن عمه هو الزعيم الأكبر لثورة اليسار المتطرف. فوجئت صاحبة النزول، خيال كثرة أسماء

الأساتذة الجامعيين، ورأت أنهم لا ينصرفون كآسائذة، وإنما كطلاب
سيني التربية. كان يكفي تجاوز رقمين على مؤشر المذياع، ليجد أحدهما
نفسه في بلد مختلف. ففي الإذاعة الوطنية، كان دعاة الليبرالية يدعون
إلى الهدوء، وفي إذاعات أخرى يحرضون ضد الشيوعيين الموالين
لموسكو. بينما كبار زعماء الليبرالية الرسمية يتحدون أخطار الشوارع
التي في حالة حرب، محاولين الوصول إلى القصر الرئاسي ليتفاوضوا
على تسوية وحدة مع الحكومة المحافظة.

بقينا حائرين من تلك الليلة المجنونة إلى أن صرخ ابن صاحبة
التزل، فجأة، بأن البيت يحترق. وبالفعل، كانت قد انفتح شق في الجدار
الرخامي في أقصى البناء، وبدأ دخان أسود كثيف يخلخل هواء غرف
النوم. لا شك أنه كان يأتي من مبنى الإدارة الحكومية - المجاور للتزل -
الذي أحرقه المتظاهرون. ولكن الجدار بدا قوياً بما يكفي للصمود. وهكذا
نزلنا الدرج قافزين، ووجدنا أنفسنا وسط مدينة في حالة حرب. كان
المهاجمون المندفعون يلقون من نوافذ المبنى الحكومي، كل ما يجدونه في
المكانب، وكان دخان الحرائق يعبق في الهواء، وبدت السماء المكفهرة
بالدخان كأنها غطاء مشؤوم. بينما كانت الشراذم الغاضبة، المسلحة
بمناجل التشيستي وكل أنواع الأدوات المسروقة من محلات الخردوات،
تنقض على متاجر الشارع السابع والشوارع المجاورة، وتضرم فيها
النار، بمساعدة رجال الشرطة المتمردين. وكانت نظرة آتية واحدة، كافية
لندرك أن الوضع قد خرج عن السيطرة. وسبق أخى تفكيرى، مطلقاً
صرخة:

- يا للعنة الآلة الكاتبة.

ركضنا باتجاه بيت الرهونات الذي ما زال سليماً، وروايته ذات
القضبان الحديدية محكمة الإغلاق. ولكن الآلة الكاتبة لم تكن في
المكان الذي كانت فيه دائماً. لم تطلق، وفكرنا في أنه يمكننا استعادتها
في الأيام التالية، دون أن يدور في خلدنا أنه لن تكون هناك. بعد تلك
الكارثة الفظيعة، أية أيام تالية.

اكتفت حامية بوغوتا العسكرية بحماية المراكز الرسمية والمصارف.
وبقي الأمن العام على عاتق لا أحد. تحصن عدد كبير من كبار قادة
الشرطة في مقر الفرقة الخامسة، منذ الساعات الأولى، ولحق بهم الكثير
من رجال شرطة الشوارع، مع شحنات أسلحة جمعوها من الطرق. وقد
أطلق بعضهم، وكانوا يضعون عصاية المتمردين الحمراء على أذرعهم،
زخات من رصاص يتادقهم قريباً منا؛ فأحسستُ بها تدوي في صدري.
ومنذ ذلك الحين صرت على قناعة بأنه يمكن للبلندقية أن تقتل بالدوي
وحده.

لدى رجوعنا من بيت الرهونات، رأينا اجتياح وتدمير متاجر الشارع
الثامن في دقائق. وكانت تلك هي أغنى المتاجر في المدينة. المجوهرات
الشمينة، والأجواخ الإنكليزية، وقبعات بوند مشرّبة التي كنا، نحن
الطلبة الساحليين، ننظر إليها بإعجاب في واجهات المتاجر البعيدة عن
متناولنا، صارت جميعها حينذاك، في متناول يد الجميع، أمام الجنود
غير المبالين الذين يحرسون المصارف الأجنبية. وكان مقهى سان مارينو
الراقي، حيث لم نستطع الدخول قط، مفتوحاً ومخرباً، ولأول مرة دون
البوابين ذوي السمكينغ الذين كانوا يبادرون إلى منع الطلاب الكاريبيين
من الدخول.

بعض من كانوا يخرجون مخملين بالملابس الفاخرة، ولقائف أقمشة الجوخ الكبيرة على أكتافهم، لا يلبثون أن يتركوها في الشارع. انضطت واحدة منها، دون أن يخطر لي أنها ثقيلة إلى ذلك الحد، واضطرت إلى التخلي عنها بالرغم من ألم روحي. كنا نشعر في كل مكان، بأجهزة منزلية ملقاة في الشارع. ولم يكن من السهل المشي بين زجاجات ويسكي من أنخر الأصناف، وكل أنواع المشروبات الغريبة التي كان الجصور تذهبها بضربات المشيتي. وجد أخي لويس إنريكي وخوسيه بالينشيا ما تبقى من تهب أحد متاجر الثياب الجيدة، وكانت بيتها بدلة زرقاء، مساوية من قماش جيد جداً، ومناسبة تماماً لمقاس والدي الذي استخدمها طوال سنوات في المناسبات المهيبة. أما غنيمتي الوحيدة التي وفرتها لي العناية الإلهية، فكانت حافظة أوراق من جلد البقر، وجدتتها في أعلى قاعة شاي في المدينة. وقد أفادتني في حمل مخطوطاتي تحت إبطي، خلال ليالي السنوات التالية الطويلة التي لم أكن أجد فيها مكاناً أنام فيه.

كنت أمضي مع جماعة تشق طريقها في الشارع الثامن، متوجهة إلى الكايبشوليو، عندما كنست راحة من رصاص رشاش، أوكل من أطلقوا على ساحة بوليفار، القتلى والجرحى الذين سقطوا فوراً متكورين في منتصف الشارع، جعلونا نتوقف فجأة. خرج زاحفاً من ذلك الكوم، محتضراً مضرج بالدماء، وأمسك بساق بنطالي، وصرخ بتوسل مؤثر يمزق القلب:

- حياً بالرب أيها الشاب، لا تتركني أمتاً

هربت خائفاً. ومنذ ذلك الحين تعلمت تسيان أحوال أخرى، خاصة بين أو بالآخرين؛ ولكنني لن أنسى أبداً خذلان تينك العينين في وعيض

الحرائق. ومع ذلك، ما زال يفاжنتني أنني لم أفكر لحظة واحدة، أنه كان يمكن لنا، أنا وأخي، أن نموت في ذلك المجيم الذي تداخلت فيه المواقع. كان المطر قد بدأ بالهطول منقطعاً، منذ الساعة الثالثة بعد الظهر. ولكنه انفلت بعد الخامسة في وابل ثوراني أطفأ الكثير من الحرائق الصغرى، وخلف من حدة اندفاع الصعد. عمدت حناية بورغوتا ضئيلة العدد إلى تفكيك غضب الشوارع، لعجزها عن مراجعته. ولم يتم تعزيزها إلى ما بعد منتصف الليل، بقوات طوارئ من المقاطعات المجاورة، وبخاصة من بويكا، ذات السمعة السيئة، باعتبارها مدرسة العنف الرسمي. وكانت الإذاعة حتى ذلك الحين تحث وتحض، ولكنها لا تقدم أخباراً. ولهذا لم يكن هناك منشأ أصلي لأي نبال، وكان من المستحيل معرفة الحقيقة. عند الفجر، استعادت القوات التي أحضرت حديثاً، السيطرة على المركز التجاري الذي دمرته الجصور، ولم يبق فيه وسيلة إنارة سوى الحرائق. ولكن المقاومة المسيية تواصلت لعدة أيام بعد ذلك، مع وجود قناصين متمركزين في الأبراج وعلى الأسطح. أما عدد القتلى في تلك الساعة، فكان لا يحصى.

عندما رجعنا إلى المنزل، كانت السنة اللهب تتصاعد من معظم أجزاء مركز المدينة، وكانت هناك حافلات ترام مقلوبة، وأنقاض سيارات تستخدم كمشاريس عارضة. دسنا في حقيبة، أشياء القليلة التي تستحق أن نحمل، ولم أنسبه إلا في ما بعد، إلى أنه بقيت لي هناك مسودة قصتين أو ثلاث قصص قصيرة غير منشورة، ومعجم الجدل الذي لم أسترده قط، وكتاب ديوجين ليرسيو الذي تلقينته كمكافأة، في سنة دراستي الثانوية الأولى.

الشيء الوحيد الذي خطر لنا، أنا وأخي، هو طلب اللجوء في بيت الخال خوانيتو. وكان لا يبعد سوى أربع كمادات عن النزول. في شقة طابق ثانٍ، مؤلفة من صالة، وغرفة طعام وحجرتي نوم، حيث يعيش الخال مع زوجته وأبنائه إدواردو، ومارغريتا، ونيكولاس. وكان أكبرهم قد أمضى بعض الوقت معي في النزول. كان المكان يكاد لا يتسع، إلا أن آل ماركيز كابيرو كانوا طبيين إلى حد أنهم ارتحلوا أماكن حيث لا مكان، حتى في غرفة الطعام، ليس لنا وحسب، وإنما كذلك للعديد من أصدقائنا وزملائنا في النزول: خوسيه باليشيا، دومينغو ماتويل بيغا، كارميلو مارتينيث - جميعهم من سوكري - وآخرون كنا لا نكاد نعرفهم.

قريب منتصف الليل يقبل، عندما توقف المطر، سعدنا إلى السطح لنشاهد المنظر الجهنمي للمدينة المضاة ببقايا الحرائق. بدا جيلا مونيرات وغوادالوبي، في أقصى المشهد، مثل كتلتي ظلال على خلفية السماء الغائمة بالدخان. ولكن الشيء الوحيد الذي كنت ما أزال أراه في الغمام الكثيب هو الوجه الهائل للمحتضر الذي زحف نحوي ليتوسل مساعدة مستحيلة. كانت عمليات الصيد الشوارعى قد تقلصت، ولم يعد يُسمع في الصمت الرهيب، سوى صوت طلقات متفرقة من القناصين الكثيرين المنتشرين في كل أنحاء مركز المدينة، وجبهة القوات التي تصفي شيئاً فشيئاً بقايا المقاومة المسلحة أو العزلاء، للسيطرة على المدينة. وقد أغرب الخال خوانيتو، المتأثر بمشهد الموت، في زفرة واحدة عن مشاعر الجميع:

- ربه، يبدو هذا أشبه بحلم!

لدى الرجوع إلى الصالة المتعسفة، انهرت على الأريكة. كانت النشرات الرسمية من الإذاعات التي احتلتها الحكومة، ترسم بانوراما عودة تدريجية إلى الهدوء، لم تعد هناك خطابات، ولكن لم يكن ممكناً التمييز بدقة بين الإذاعات الرسمية، وتلك التي ما زالت تحت سيطرة المتمردين. وحتى هذه الأخيرة، كان من المستحيل تمييزها وسط وابل يريد الساحرات الجوارف. قيل إن كل السفارات تغص باللاجئين، وإن الجنرال جورج مارشال يقيم في سفارة الولايات المتحدة، تحت حماية حرس شرق من المدرسة العسكرية. وقد التجأ لاوريانو غوميث كذلك إلى السفارة نفسها، منذ الساعات الأولى، وأجرى من هناك اتصالات هاتفية مع رئيسه، محاولاً الحيلولة دون دخول الرئيس في مفاوضات مع الليبراليين. في ظل وضع يتلاعب به، حسب رأيه، الشيوعيون. أما الرئيس السابق أليخاندرو بيراس، وهو يومذاك أمين عام الاتحاد عموم أميركا، فقد نجح بحياته بأعجوبة، حين تم التعرف عليه وهو في سيارته غير المصفحة، عندما غادر مبنى الكابيتوليو، وحاولوا أن يجبروه على الموافقة على تنازل المحافظين عن السلطة وتسليمها بصورة شرعية. وعند منتصف الليل كان معظم المندوبين المشاركين في مؤتمر عموم أميركا، قد صاروا في أماكن آمنة.

وبوسط الأخبار الكثيرة، أعلن أن غييرمو ليون باليشيا، ابن الشاعر الذي يحمل الاسم نفسه، قد رُجم بالحجارة حتى الموت، وأن جثته معلقة في ساحة بوليفار، ولكن فكرة أن الحكومة تسيطر على الوضع، بدأت تتضح عندما راح الجيش يستعيد محطات البث الإذاعي التي سيطر عليها المتمردون. وبدلاً من صرخات الحرب، صارت الأخبار ترمي عندئذ

إلى طمأننة البلاد بعزاء أن الحكومة هي سيادة الموقف، بينما كانت القيادات الليبرالية العليا تتفاوض مع رئيس الجمهورية على نصف السلطة.

الحقيقة أن الوحيدين الذين بدا أنهم يعملون بحس سياسي، هم الشيوعيون، وكانوا قلة ومتحسين؛ فقد خرجوا إلى الشوارع وسط القوضى، ليوجهوا الحشود - مثل شرطة المرور - ويقودوها نحو مراكز السلطة. أما الليبرالية بالمقابل، فكشفت انقسامها إلى التصفيين اللذين ندد بهما غايتان في حملته الانتخابية: القادة الذين يتفاوضون على حصة من السلطة مع القصر الرئاسي، وجمهور منتخبيهم الذين خاضوا المقاومة، كييفما استطاعوا وإلى حيث استطاعوا، من فوق الأبراج والأسطح.

أول الشكوك التي برزت في شأن مقتل غايتان، كانت حول هوية قتله، وليست هناك، حتى يومنا هذا، قناعة إجماعية بأن القاتل هو خوان روا سييرا، رجل المسدس المنفرد الذي أطلق النار عليه بين الحشود في الشارع السايغ، وما يصعب فهمه هو أن يكون قد تصرف من تلقاء نفسه، مادام يبدو بلا ثقافة ذاتية تمكنه من اتخاذ قرار تلك الميثة المدمرة، في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة، وفي ذلك المكان، يمتلك الطريقة نفسها. أمه إنكارناثيون سييرا، أرملة روا، وكانت آنذاك في الثانية والخمسين من عمرها، علمت من الإذاعة بمقتل غايتان، بطلها السياسي، وكانت تصيح أفضل ثوب لديها بالأسود من أجل الحداد. ولم تكن قد انتهت من عمل ذلك، عندما سمعت بأن القاتل هو خوان روا سييرا، الابن الثالث عشر بين أبنائها الأربعة عشر. لم يكن أي واحد

منهم قد تخطى المدرسة الابتدائية، وأربعة منهم - طفلان وطفلتان - ماتوا مبكراً.

وقد صرخت بأنها لاحظت، منذ حوالي ثمانية أشهر، تبدلاً غريباً في سلوك خوان، كان يتكلم وحيداً، ويضحك دون سبب، وفي إحدى المرات اعترف للأسرة باعتقاده بأنه مجنون للجندال فرانسيسكو دي باولا ساتاندير، بطل استقلالنا، ولكنهم ظنوا أنها مجرد دعاية تكبير سيئة. لم يخطر لها قط أنه يمكن لايتها أن يسيء إلى أحد. وكان قد توصل إلى الحصول على توصيات من أناس يتمتعون ببعض النفوة، من أجل الحصول على وظيفة، وكان يحمل واحدة من تلك التوصيات في محفظته، عندما قتل غايتان، وقبل ستة شهور من ذلك، كتب رسالة يخط يده إلى الرئيس أوسيبو بيريث، يلتمس فيها أن يقابله ليطلب منه توفير عمل له.

أعلنت الأم للتحققين أن ابنها قد طرح مشكلته على غايتان شخصياً كذلك، ولكن هذا لم يمنحه أي أمل. لم يُعرف عنه أنه أطلق النار من سلاح في حياته، ولكن الطريقة التي استخدم به سلاح الجريمة، كانت أبعد ما تكون عن مبتدئ. فقد كان المسدس من عيار ٨٣، طويلاً، قديماً ومستهلكاً، إلى حد أن عدم انحراف أي طلقة عن هدفها، بدا مشيراً للدهشة.

أعرب بعض موظفي المبنى عن اعتقادهم بأنهم رأوه، عشيبة الاغتيال، في الطابق الذي توجد فيه مكاتب غايتان. وأكد البواب، دون أي مجال للشك، بأنه رآه صباح التاسع من نيسان يصعد السلالم، ثم ينزل بعد ذلك في المصعد مع شخص مجهول. وبدا له أن كليهما قد

انتظرا عدة ساعات بالقرب من مدخل المبنى، ولكن روا كان وحيداً إلى جانب البوابة، عندما صعد غايتان إلى مكتبه، قبل الساعة الحادية عشرة بقليل.

غابرييل ريستريبو، وهو صحفي في جريدة لاخررتادا - صحيفة حملة غايتان الانتخابية -، وضع قائمة بالوثائق الشخصية التي كان روا سيبراً يحملها عند اقتراف الجريمة، وهي لا تترك مجالاً للشك حول هويته ووضعها الاجتماعي. فقد كان في جيوبه بطاقله، اثنان وثمانون سنتافو على شكل قطع معدنية مختلفة، في الوقت الذي كانت فيه أشياء كثيرة، من مستلزمات الحياة اليومية، تكلف خمسة سنتافو. وكان يحمل في جيب سترته الداخلي، محفظة من جلد أسود، فيها ورقة نقدية من فئة البيزو الواحد، وكان يحمل كذلك، شهادة تؤكد حسن سيرته، وأخرى من الشرطة تشير إلى أنه بلا سوابق جنائية، ووثيقة ثالثة عليها عنوانه في حي الفقراء الذي يسكنه: الشارع الثامن، الرقم ٣٠-٧٣. وحسب دفتر الخدمة العسكرية، كاحتياطي من الدرجة الثانية، الذي كان يحمله في الجيب نفسه، فهو ابن رافائيل روا وإنكارثايبون سيبرا. وقد ولد قبل إحدى وعشرين سنة من ذلك: في الرابع من تشرين الثاني ١٩٢١. كل شيء كان يبدو عادياً، اللهم إلا كونه رجلاً ذا وضع بائس ودون سوابق جنائية، يحمل معه كل تلك الأدلة على حسن سيرته وسلوكه. ومع ذلك، فإن الشيء الوحيد الذي خلف لدي أثرًا من الشك، لم أستطع تجاوزاًه أبداً، هو الرجل المتأنيق ذو الملابس الجسيدة الذي حرص عليه الشرافم الغاضبة، ثم اختفى إلى الأبد، في سيارة فخمة.

وسط جلبة المأساة، وبينما كان يجري تحييط جثمان الزعيم المقتول،

اجتمعت قيادة الليبراليين في قاعة الطعام، في المستشفى المركزي، للاتفاق على صيغ طوارئ. وكانت أكثر تلك الصيغ إلحاحاً، هي التوجه إلى القصر الرئاسي، دون طلب مسبق، لمناقشة رئيس الدولة في صيغة طوارئ يمكن لها أن تدرك خطر الكارثة التي تهدد البلاد. بدأ هطول المطر قبل الساعة التاسعة بقليل، وشق أول المندوبين الليبراليين طريقهم كيغما استطاعوا، عبر الشوارع التي حولتها الثورة الشعبية إلى أنقاض، وبين الجثث التي اخترقها رصاص القناصين الطائش من الشرفات والأسطح.

مع نهاية المساء كان الرئيس قد فقد الاتصال مع أشد الأماكن خجاً وخطورة. وكان يحاول مع قادة عسكريين ووزراء، وراء أبواب مغلقة، تقويم وضع الأمة. أخذته زيارة القادة الليبراليين على حين غرة، قبيل الساعة العاشرة ليلاً، ولم يشأ أن يقابلهم دفعة واحدة، وإنما كل اثنين منهم على حدة. ولكنهم صمموا أن أياً منهم لن يدخل بتلك الطريقة. فتنازل الرئيس، ولكن الليبراليين رأوا في الأمر مبرراً للباس.

وجدوه جالساً على رأس منضدة اجتماعات طويلة، وبدلة لا تشوبها شائبة، ودون أدنى ملمح من الجزع. وكان الشيء الوحيد الذي يشي ببعض التوتر، هو طريقته المتواصلة والشرهة، في التدخين؛ فكان في بعض الأحيان يطفئ السيجارة وهي في منتصفها، لكي يشعل واحدة أخرى. وقد أخبرني أحد الزائرين بعد سنوات من ذلك، عن الوقع الذي خلفه في نفسه وميض الحرائق المتعالية، وراء رأس الرئيس القضي غير الميالي. فقد كان جمر الانقراض تحت السماء الملتهبية، يلمح من خلال واجهات المكتب الرئاسي الزجاجية الكبيرة، ممتداً حتى أطراف الدنيا.

ما هو معروف عن ذلك الاجتماع، ندين به للقليل الذي رواه أبطاله،

واعترافات بعضهم السرية النادرة، وتخييلات آخرين الكثيرة، وإلى إعادة تركيب فئات ما جرى في تلك الأيام المشؤومة، على يد الشاعر والمؤرخ أرتورو ألاني، وهو الذي أتاح إلى حد كبير، تماسك هذه المذكرات.

كان الزائرون هم: دون لويس كاثو، مدير جريدة الاسبينيكثادور المسائية، وبيليو ميندوتا نبيرا الذي نشط ذلك الاجتماع، وثلاثة آخرون من أنشط قادة الليبراليين وأكثرهم فعالية: كارلوس بيراس ريسثريو، داريو إتشانديا، وألفونسو آراوخو. وفي سياق النقاش، دخل وخرج ليبراليون آخرون بارزون.

ووفقاً للاستذكارات الواضحة التي سمعتها، بعد سنوات، من بيليو ميندوتا نبيرا، في منفاء الضجر، في كاراكاس، لم تكن لدى أي واحد منهم خطة جاهزة بعد. وكان هو نفسه الشاهد الوحيد بين الحضور، على عملية اغتيال غايتان. وقد روى ما جرى، خطوة خطوة بفنونه كراو، فطري وصحفي مزمّن. استمع إليه الرئيس باهتمام مهيب، ثم طلب في النهاية أن يعرب الزائرون عن أفكارهم من أجل حل عادل ووطني لذلك الوضع الطارئ الخطير.

فرد عليه ميندوتا، المشهور بين أصدقائه وأعدائه بصراحته البعيدة عن المجاملة، بأن تفوض الحكومة سلطاتها إلى القوات المسلحة، بسبب الثقة التي توليها إليها الشعب في تلك اللحظات. فقد كان وزيراً للحرب مؤخراً. في حكومة الليبرالي ألفونسو لوبيث بوماريخو، ويعرف العسكريين جيداً من الداخل، ويرى بأنهم هم وحدهم من يستطيعون إعادة الأمور إلى نصابها، ولكن الرئيس لم يوافق على واقعية هذه الصيغة، ولم يزيدها كذلك الليبراليون أنفسهم.

المداخلة التالية قدمها دون لويس كاثو، المعروف جيداً بيريق حذره وتعقله. كان يحس بمشاعر شبه أبوية تجاه الرئيس. واكتفى بعرض استعداداته للقبول بأي قرار سريع وعادل يوافق عليه الرئيس أوسيينا، ويحظى بتأييد الأغلبية. فأكد له هذا الأخير على ضرورة التوصل إلى الإجراءات الضرورية للعودة بالأوضاع إلى حالتها الطبيعية؛ ولكن مع التمسك بالدستور دوماً. ثم ذكرهم بسخريّة غير مكبوحّة تماماً، وهو يشير من التوافد إلى المجيم الذي يلتهم المدينة، بأن الحكومة ليست من تسببت بكل ذلك.

كان مشهوراً باعتداله وحسن تربيته، على نقبض صخب وزير خارجيته لاوريانو غوميث، وغطرسة آخرين من محازبيه المحافظين، الحيراء في الانتخابات المركبة. ولكنه أثبت في تلك الليلة التاريخية، أنه غير مستعد لأن يكون أقل منهم عناداً. وهكذا امتد النقاش حتى منتصف الليل، دون التوصل إلى أي اتفاق. وكانت تقطعه بين حين وآخر، زوجة الرئيس، دونيا بيرتا دي أسينا، حاملةً إليه أخباراً مروعة، إلى هذا الحد أو ذلك.

كانت أعداد القتلى عندئذ لا تحصى في الشوارع. وكذلك أعداد القناصين الذين يسمركزون في مواقع لا يمكن الوصول إليها، وأعداد الحشود التي أفقدها صوابها الحزن والغضب وأصناف الخسر الغالية المسلوقة من المتاجر الفخمة. كان مركز المدينة مهدماً، والحرائق ما زالت تشتعل فيه. كما هدمت أو أحرقت دكاكين بيع الكتب والأشياء الدينية، وقصر العدل، ودار الحكومة، وأبنية تاريخية أخرى كثيرة. لقد كان الواقع هو الذي يضيق، دون رحمة، دروب التوصل إلى اتفاق هادئ بين عدة رجال ضد رجل واحد، في جزيرة المكتب الرئاسي المعزولة.

داريو إتشانديا، الذي ربما كان صاحب أعلى سلطة، لكنه بدأ أقل الحضور تكلماً. فقد اكتفى بتعليقين أو ثلاثة تعليقات ساخرة حول الرئيس، وعاد يلوح بعالمه الضبابي. كان يبدو المرشح المؤكد للدخول محل أوسينا بيريت في رئاسة البلاد، ولكنه لم يفعل في تلك الليلة شيئاً يجعله جديراً بالمنصب أو يجنبه إياه. أما الرئيس الذي اعتبر محافظاً معتدلاً، فقد صار يبدو أقل قائل اعتدالاً. لقد كان حفيد وابن أخي رئيسين سابقين في قرن واحد، ورب أسرة، ومهندساً متقاعداً، ومليونيراً منذ الأزل، فضلاً عن أشياء أخرى كان يمارسها دون أدنى ضجيج. حتى إنه كان يقال، دون الاستناد إلى أي أساس، إن من يحكم في الواقع، سواء في البيت أو في القصر، هي زوجة الرئيس التي امتشقت السلاح. ومع ذلك، انتهى الرئيس إلى القول، بسخرية فظة، إنه لا يجد غضاضة في تقبل الاقتراح، غير أنه يشعر بالراحة في قيادته الحكومة من المقعد الذي يجلس عليه بمشيئة الشعب.

كان يتكلم مستقرباً، دون شك، بخبر لا يعرفه الليبراليون: فهو مطلع تماماً وبدقة على الوضع الأمني العام في البلاد. وكان يعرف ذلك طوال الوقت، من خلال المرات العديدة التي خرج فيها من المكتب للحصول على معلومات معينة. لم تكن حامية بوغوتا تريد على الألف رجل، وكانت هناك أخبار خطيرة إلى هذا الحد أو ذاك، تصل من كل القطاعات. إلا أن كل شيء لا يزال تحت السيطرة، إضافة إلى وراء القوات المسلحة، وفي مقاطعة بويكا المجاورة، المشهورة بتسيارها الليبرالي التاريخي، وتيارها المحافظ الشرس، لم يكن حاكم المقاطعة خوسيه ماريا بيباريال - وهو قوطي قليلاً وقالباً - قد أفلح في جمع

أعمال الشعب المحلية، منذ وقت مبكر وحسب، وإنما راح يرسل قوات أفضل تسليحاً لإخضاع العاصمة. وهكذا فإن الشيء الوحيد الذي كان الرئيس يحتاج إليه، هو إلهاء الليبراليين باعتداله المحسوب جيداً، بالتكلم قليلاً والتدخل ببطء. لم ينظر في أي لحظة إلى ساعته، ولكنه كان يقدر جيداً دون ريب، الوقت الذي ستكون فيه المدينة محمية جيداً، بقوات المدد الإضافية والمجربة في أعمال القمع الرسمي.

وبعد تبادل طويل لصيغ عجزية، اقترح كارلوس بيراس ريستريبو الصيغة التي اتفق عليها القادة الليبراليون في المستشفى المركزي، واحتفظوا بها كوسيلة أخيرة قصوى، الاقتراح على الرئيس بأن يسلم السلطة إلى داريو إتشانديا، في سبيل الرئام السياسي والسلام الاجتماعي. ولا بد أن الفكرة كانت ستلقى القبول دون تحفظ، من جانب إدواردو سانتوس وألفونسو لوبيث بومارينخو، الرئيسين السابقين اللذين يشتمعان برصيد سياسي كبير، ولكنهما كانا خارج البلاد في ذلك اليوم. ومع ذلك، فإن إجابة الرئيس التي قالها بالبطء نفسه الذي كان يدخل به، لم تكن ما يرجى انتظاره منه: فهو لم يبدد تلك الفرصة ليكشف عن طبعه الحقيقي، وكان من يعرفونه قلة حتى ذلك الحين. فقد قال إن الأمر المريح له ولأسرته، هو التخلي عن السلطة والعيش في الخارج، على ثروته الشخصية، بعيداً عن الهموم السياسية، إلا أن ما يقلقه هو ما يمكن أن يعنيه للبلاد، خروج الرئيس المنتخب جازماً من منصبه ومسؤولياته. فالحرب الأهلية ستكون حتمية عندئذ. وحيال إلحاح جديد من جانب بيراس ريستريبو، حول تخلي الرئيس عن السلطة، سمع هذا الأخير لنفسه بالتذكير بواجبه في الدفاع عن الدستور والقوانين،

وبأنه يعاهد وطنه فقط على ذلك، وإنما عاهد عليه أيضاً ضميره والله، وعندئذ نطق، كما يقال، بالجملة التاريخية التي يبدو أنه لم يقلها قط، ولكنها بقيت مسجلة باسمه إلى أهد الأبدن: "الديمقراطية الكولومبية تنتفع برئيس ميت، أكثر من انتفاعها برئيس هارب".

لا يتذكر أي واحد من الشهود أنه سمعها من فمه، ولا من فم أي شخص آخر. وقد تُسبت مع مرور الزمن إلى موهوبين عديدين. بل نُوقشت كذلك مزايها السياسية، وقيمتها التاريخية، ولكن دون أن يُطرح روثنها الأدبي للنقاش قط. وقد صارت هذه الجملة، منذ ذلك الحين، هي العلامة المميزة للحكومة أوسيينا بيريث، وأحد أعمدة مجدها. ووصل الأمر إلى نسبة ضياعها إلى صحفيين محافظين مختلفين، ووجدت ميرزات أكبر لنسبتها إلى الكاتب والسياسي المعروف، وزير المناجم والنفط الحالي، خواكين إدواردو مونسالفني، وكان موجوداً يومذاك في القصر الرئاسي بالفعل. ولكن ليس في قاعة الاجتماعات. وبقيت الجملة للتاريخ على أي حال، مقولة بلسان من كان عليه أن يقولها، في مدينة مدمرة، حيث بدأ الرماد يتجمع، وفي بلاد لن تعود أبداً لأن تكون هي نفسها.

ولكن كفاءة الرئيس وأهليته لم تتجلبا في ابتكار عبارات تاريخية، وإنما في إلهاء الليبراليين بسكاكر متومة إلى ما بعد منتصف الليل، حين وصلت قوات النجدة الإضافية، لتقمع قردة العامة، وتقرض السلام المحافظ. عندئذ فقط، في الساعة الثامنة من صباح العاشر من نيسان، أيقظ داريو إتشاتنديا بنكابوس أحد عشر رئيساً من الهاتف، وأبلغه بتعيينه وزير دولة في نظام مواساة من الحزبين. وعبد لاوريانو غوميث

المشاة من هذا الجمل، والقلق على أمنه الشخصي، إلى السفر إلى نيويورك مع أسرته، بينما كانت الشروط متوفرة لتحقيق رغبته الأبدية في أن يكون رئيساً.

أما أحلام التحول الاجتماعي العميق الذي مات غايتان من أجلها، ثلاث كلها وسط أنقاض مدينة يتصاعد منها الدخان، وزاد عنده القتل، ممن سقطوا في شوارع بوغوتا، وتواصل سقوطهم على يد القمع الرسمي في السنوات التالية، على المليون، فضلاً عن يؤس ونفي الكثيرين، وقيل وقت أبعد بكثير من بدء القادة الليبراليين، في الحكومة العليا، بالانتباه إلى أنهم قيد جازقوا بدخول التاريخ، كمتواطنين.

بين الشهود التاريخيين الكثيرين على ذلك اليوم في بوغوتا، كان هناك اثنان لا يعرف أحدهما الآخر. ولكنهما سيكونان بعد سنوات من أعظم أصدقائي. أحدهما هو لويس كاردوتا أي أراغون، الشاعر والكاتب السياسي والأدبي الفواتيمالي. وكان يحضر مؤتمر عموم أميركا بصفته وزير خارجية بلاده ورئيس وفد، والآخر هو فيدل كاسترو. وقد اتهم كلاهما، فوق ذلك، في أحد الأوقات، بالترور في أحداث الشغب. فقد قيل عن كاردوتا أي أراغون تحديداً، إنه كان واحداً من المحرضين، متسراً بأوراق اعتماده كمندوب خاص لحكومة خاكوبو أرينز التقدمية، في غواتيمالا، لا بد أن ندرك أنه لا يمكن لكاردوتا أي أراغون، وهو مندوب حكومة تاريخية، وشاعر كبير في لغتنا، أن يقدم أبداً على مثل تلك المغامرة الجنونية الطائشة. لقد كانت أشد الذكريات ألماً في كتاب مذكراته البديع، هي الاتهام الذي وجهه إليه إنريكي

سانتوس مونتيخو، الملقب "كاليبان"، في عموده المشهور في جريدة
إلتيمبو، "رقصة الساعات"، حين نسب إليه أنه مكلف رسمياً بمهمة
اغتيال الجنرال جورج مارشال. وقد بذل عدد من المندوبين إلى المؤتمر،
مساعيهم لكي تقوم الصحيفة بتصويب تلك الإشاعة الهذلية المختلفة.
ولكن ذلك لم يكن ممكناً. أما جريدة السيغل، لسان المحافظين الذين في
السلطة، فأعلنت في الرياح الأربع، بأن كاردوتنا أي أراغون، هو
المحرض على الفتنة.

لقد تعرفت عليه بعد سنوات طويلة من ذلك، في مدينة مكسيكو،
مع زوجته ليا كوستاكوسكي، في بيته في كويواكان، المشرع بصور
ذكرياته، والأكثر تحملاً بأعمال أصلية لرسامين من زمانه. وكنا نحن
الأصدقاء، نقضي هناك ليالي الأحد، في سهرات حفيضة ذات أهمية بلا
مزايع. لقد كان يعشير نفسه ناجياً من الموت، أولاً عندما تعرضت
سيارته لرصاص رشاشات القناصين، بعد ساعات قليلة من وقوع الجريمة،
ثم بعد أيام من ذلك، وكان قد تم القضاء على التمرد، عندما اعترض
طريقه سكير في الشارع، وأطلق النار على وجهه من مسدس استعصى
معه مرتين. وقد كان التاسع من نيسان موضوعاً متواتراً في أحاديثنا،
حيث كان يختلط الغضب بالحنين إلى السنوات الضائعة.

وكان فيدل كاسترو بدوره، ضحية لكل أنواع الاتهامات العيشية،
بسبب بعض الأعمال المتصلة بوضعه كناشط طلابي، في تلك الليلة
السوداء، وبعد يوم رهيب بين الجموع الضاخية، انتهى به المطاف إلى
ثكنة فرقة الشرطة الوطنية الخامسة، بحثاً عن طريقة يكون فيها مفيداً
في وضع حد لمذبحة الشوارع. ولا يد من معرفته لتصور ما كان عليه

قنوطه في تلك الثكنة المتمردة حيث بدأ من المستحيل، فرض وجهة نظر
جساعية مشتركة.

قابل قادة الحامية وغيرهم من الضباط المتمردين، وحاول، دون
جدوى، إقناعهم بأن كل قوة تعتصم بثكنتها هي قوة مهدورة. اقترح
عليهم أن يخرجوا رجالهم للتضال في الشوارع، من أجل الحفاظ على
الأمن، ومن أجل نظام أكثر عدالة. وحشهم بكل أنواع السوابق
التاريخية، ولكنهم لم يسمعوا نصيحته، بينما كانت القوات والديابات
الرسمية تطلق النار على الثكنة. وأخيراً قرر أن يربط مصيرهم بمصير
الآخرين.

وفي الفجر، جاء بيلينو ميندوتا نيبيرا إلى مقر الفرقة الخامسة،
ومعه تعليقات من قيادة الليبراليين، للتوصل إلى استسلام سلمي، ليس
فقط للضباط والشرطيين المتمردين، وإنما كذلك للعديد من الليبراليين
العاديين الذين كانوا ينتظرون الأوامر للبدء بالتحرك. وخلال الساعات
الطويلة التي استغرقتها مفاوضات الاتفاق، بقيت راسخة في ذاكرة
ميندوتا نيبيرا، صورة ذلك الطالب الكويتي، المربوع والمحب للجدال، الذي
توسط عدة مرات، في المحادثات بين القيايين الليبراليين والضباط
المتمردين، ببعد بصر فاق الجميع، ولم يعرف من هو إلا بعد عدة سنوات
من ذلك، لأنه رآه مصادفة في كاراتاكاس، في صورة فوتوغرافية من
صور الليلة الزهينة، بعد أن كان فيدل كاسترو قد بدأ تضالته في جبال
سييرا مايسترا في كوبا.

أما أنا فتعرفت عليه بعد إحدى عشرة سنة، عندما سارعتُ
بالذهاب كصحفي، لدى دخوله الطائر إلى هافانا، وتوصلنا مع مرور

الزمن، إلى صداقة شخصية صمدت عبر السنين، لما لا حصر له من العثرات، وفي أحاديث الطويلة معه، حول كل ما هو إلهي وبشري، كان يوم التاسع من نيسان موضوعاً كثير التواتر، لا يتوانى فيدل كاسترو عن تذكره كأحد المآسي الخاسمة في تكوينه. وخاصة الليلة التي أمضاها في ثكنة الفرقة الخامسة، حيث انتبه إلى أن معظم المتمردين الذين يدخلون ويخرجون، كانوا يحطون من قبة أنفسهم، في أعمال السلب والنهب، بدل أن يصروا في ممارستهم، على ضرورة الإسراع في التوصل إلى حل سياسي.

بينما كان هذان الصديقان شاهدين على الأحداث التي قسمت تاريخ كولومبيا إلى قسمين، بقيت أنا وأخي على قيد الحياة، في الظلمات، مع اللاجئين الآخرين في بيت الحال خوانيتو، لم أع في أي لحظة آنذاك، أنني صرت كاتباً متدرباً، وأنتي سأحاول في أحد الأيام، أن أعيد، من الذاكرة، تركيب شهادتي عن الأيام الرهيبة التي كنا نعيشها. فقد كان همي الوحيد حينذاك هو أكثر الهموم دنيوية: إخبار أسرنا بأننا ما زلنا على قيد الحياة - حتى تلك اللحظة على الأقل - وأن نعرف في الوقت نفسه، أخبار أبونا وأخوتنا، وخاصة أكبرهم، مارغوت وعائدا، الطالبتين الداخليتين بمدرستين في مدينتي بعيدتين.

لقد كان ملجأ الحال خوانيتو أشبه بمعجزة. وقد كانت الأيام الأولى شاقة بسبب تبادل إطلاق النار المتواصل، والافتقار إلى أية أخبار موثوقة. ولكننا، شيئاً فشيئاً، رحنا نرتاد المتاجر القريبة، ونمكنا من شراء أطعمة نأكلها. كانت الشوارع محتلة بقوات عسكرية لديها أوامر حازمة بإطلاق النار. تنكر خوسيه بالانيموس الذي لا سبيل إلى إصلاحه

ببلايس عسكرية، لكي يتجول دون قيود، معترضاً قبة كشاف، وبطمان وجده في صندوق قمامة. وقد هرب بأعجوبة من أول دورية اكتشفته. أخضعت محطات البث الإذاعي التجارية التي أسكنت قبل منتصف الليل، لرقابة الجيش. أما التلفزيون والهواتف اليدوية والقليلة، فكانت محجوزة لقوات الأمن العام. ولم تكن هناك وسائل أخرى للاتصال. كانت صفوف الانتظار أودية أمام مكاتب التلفزيون المزدحمة. ولكن محطات الإذاعة رتبت خدمة رسائل عبر الأثير، موجهة إلى من يحالفهم الحظ بالتقاط بثها. وقد بدت لنا هذه الوسيلة هي الأسهل والأضمن، وإليها توجهنا دون آمال كبيرة.

خرجت أنا وأخي إلى الشارع، بعد ثلاثة أيام من الحبس في البيت. كان المشهد مرعباً، فالمدينة تحولت إلى أنقاض، بدت غائمة وعكرة بالأمطر المتواصل الذي خفف من استشراب الحرائق، ولكنه أخر استرداد المدينة. كثير من الشوارع كانت مغلقة بأعشاش القناصين، على أسطح مباني مركز المدينة. فكان لا بد من القيام بالتفافات بلا معنى، استجابة لأوامر الدوريات المسلحة، كما لو أنها في حرب عالمية. كانت رائحة الموت في الشوارع لا تطاق. ولم تتمكن شاحنات الجيش من تحميل أكوام الجثث المتراكمة على الأرصفة، فكان على الجنود أن يراجهوا جماعات البائسين الآتين للتعرف على جثث أقربائهم.

في أطلال ما كان المركز التجاري، لم تكن النشاة تسمح بالنفس، حتى إن أسراً كثيرة اضطرت إلى التخلي عن البحث عن جثث مفقودها. وفي أحد أهرامات الجثث الكبيرة، برزت جثة حافية ودون بتطال، أما سترتها فلم تكن تشوبها شائبة. وعلى الرغم من مرور ثلاثة أيام، كان

الرماد لا يزال يطلق نشانة الأجساد التي لا أهل لها، متعفنة بين
الأنقاض أو مكومة على الأرصفة.

وفي وقت لم يكن يخطر ببالنا، أوقفت أنا وأخي فجأة، بتهينة
بندقية مؤكدة وزاً، ظهرنا، وصوت يأمر بخزم:

- ارفعا أيديكما!

رفعتُ يدي دون تفكير، وقد جمدني الرعب، إلى أن أعادتني إلى
الحياة، قهقهة صديقنا أنخل كاسيخ، وكان قد استجاب لنداء القوات
المسلحة، باعتباره احتياطياً من الدرجة الأولى. وبفضلة تمكنا، نحن
اللاجئين في بيت الخال خوانيتو، من إرسال رسالة عبر الأثير، بعد يوم
من الانتظار أمام الإذاعة الوطنية، سمع أبي الرسالة في سوكري، بين ما
لا حصر له من الرسائل التي كانت تُقرأ نهاراً وليلاً، طوال أسبوعين.
أحسست أنا وأخي أننا سنكون ضحية لا مفر منها، لنزوات الأسرة
التخمينية، فبقينا خائفين من أنه يمكن لأبنا أن تفسر الخبر على أنه
صدقة طمأنة من الأصدقاء، ربما يهيئونها لما هو أسوأ. ولكننا أخطأنا
في تفكيرنا قليلاً؛ إذ كانت أبنا قد حطمت، منذ الليلة الأولى، بأننا
نحن، ابنيها الكبيرين، قد غرقنا في بحر من الدم، خلال أعمال
الشغب. ولا بد أنه كان كابوساً مقنعاً جداً، إلى حد أنها عندما عرفت
الحقيقة عبر وسائل أخرى، قررت ألا تسمح لأحد منا بالعودة أبداً إلى
بوغوتا، حتى لو اضطررنا إلى البقاء في البيت، والموت جوعاً. ولا بد
أن ذلك القرار كان قاطعاً، لأن الأمر الوحيد الذي تلقيناه من أبونا في
برقيتهما الأولى، هو السفر إلى سوكري، بأسرع ما يمكن، لليت في شأن
المستقبل.

وفي توتر الانتظار، زين لي عدد من زملاء، إمكانية مواصلة
الدراسة في مدينة كارتاخينا دي إندياس، مفكرين بأن بوغوتا ستتمكن
من الخروج من بين أنقاضها. ولكن البوغوتيين لن يشعروا أبداً من رعب
المجزرة وهولها. وأخبروني بأن هناك في كارتاخينا، جامعة عريقة واسعة
الشهرة، مثل أوأبدها التاريخية، وكلية حقوق بالحجم الإنساني،
سينظرون فيها إلى نتائج السيئة في جامعة بوغوتا، على أنها جيدة.
لم أشأ استبعاد الفكرة، قبل أن أغليها أولاً، على نار حامية، ولا
أن أذكرها لأبوي، قبل أن أذهب وأؤكد من ذلك، بنفسى. أخبرتُهما
فقط، بأنني سأسافر إلى سوكري بالطائرة عن طريق كارتاخينا، لأنه يمكن
لنهر منجلدنا أن يكون طريقاً انتحارياً في ظل تلك الحرب الحامية. أما
لويس إنريكي من جاتيه، فأخبرهما بأنه سيسافر إلى بارانكيا للبحث عن
عمل، بعد أن يصفى حساباته مع رب عمله في بوغوتا.

لقد كنتُ أعرف، على أي حال، أنني لن أصير محامياً في أي
مكان. وما كنتُ أريد، هو كسب قليل من الوقت لإلهاء أبوي، ويمكن
لكارتاخينا، بالتالي، أن تكون محطة فنية جيدة للتفكير في الأمر.
ولكن ما لم يخطر لي على بال مطلقاً، هو أن تلك الحسابات العقلانية
ستفقدني إلى أن أقرر، وقلبي في يدي، أن ذلك هو المكان الذي أرغب
في أن أواصل فيه حياتي.

الحصول في تلك الأيام، على خمسة أماكن في طائرة متوجهة إلى
أي مكان على الساحل، كان واحدة من مآثر أخي. بعد الوقوف في
صفوف انتظار لانهائية وخطرة، والركض من مكان إلى آخر، طوال يوم
يكامله، في مطار طوارئ، وجد الأماكن الخمسة في ثلاث طائرات

مختلفة، وبمواعيد غير مؤكدة، ووسط إطلاق نار وانفجارات غير مرئية. ثبتوا لي ولأخي، أخيراً، حجز مقعدين في الطائرة نفسها، إلى بارانكيّا. ولكننا غادرتنا في النهاية، في طائرتين مختلفتين. كان رذاذ المطر والضباب المتواصلين في بوغوتا منذ يوم الجمعة السابق يعيقان برائحة البارود والأجساد المتفحخة. ومن البتة إلى المطار، جرى استجوابنا في حاجزين عسكريين متتاليين، كان جنودهما مرتبكين من الرعب. وعند الحاجز الثاني انبطحوا أرضاً وجعلونا تنبطع مثلهم بسبب انفجار تلاء تراشق إطلاق نار من أسلحة ثقيلة. تبين بعد ذلك أنه تمرب غاز صناعي. وقد تفهمنا نحن المسافرين، ذلك عندما قال لنا أحد الجنود إن مأساته هي في وجوده هناك منذ ثلاثة أيام، في نوبة حراسة متواصلة، دون بذيل؛ ولكن دون ذخيرة أيضاً، لأن الذخائر قد نفذت في المدينة. لم نكد نتجرأ على الكلام منذ أن أوقفونا. وقد جاء رعب الجو ليجهز علينا. ومع ذلك، بعد الإجراءات الرسمية للتشيت من الهوية وأسباب السفر، أحسبنا بالعزاء، حين علمنا أنه علينا البقاء هناك، دون الخضوع لأي إجراءات أخرى، إلى أن يقنأدونا إلى الطائرة. وكان كل ما دخنته، خلال الانتظار هو سيجارتين من السجائر الثلاث التي تصدق بها أحدهم عليّ. واحتفظت بالسيجارة الثالثة لتساعدني على تحمل رعب الرحلة.

وبما أنه لم تكن هناك هواتف، فقد كان الإعلان عن الرحلات، وعن التبدلات الطائرة الأخرى، يُعرف في مواقع المفارز العسكرية المتباعدة، بواسطة مراسلين عسكريين على دراجات نارية، في الساعة الشامنة صباحاً، استدعوا جماعة من الركاب للصعود فوراً إلى طائرة، غير

طائرتي، متوجهة إلى بارانكيّا. وقد علمتُ بعد ذلك أن أصدقائنا الثلاثة وأخي قد سافروا عبر موقع صفرة عسكرية أخرى. كان يقاني في الانتظار وحيداً، علاجاً حصارياً لحوفي الفطري من الطيران، لأن السماء في لحظة صعودنا إلى الطائرة، كانت مليدة برعود وعرة. كما أن سلم طائرنا كان قد نُقل إلى طائرة أخرى، فاضطر جنديان إلى مساعدتي على الصعود، باستخدام سلم بقاء. وكان ذلك في المطار نفسه، والساعة نفسها التي صعد فيها فيدل كاسترو إلى طائرة أخرى متوجهة إلى هافانا، محملة بشيران مصارعة - مثلما أخبرني هو نفسه، بعد سنوات من ذلك.

ومن حسن - أو سوء - الحظ، أن طائرتي كانت من نوع DC-3، تعيق برائحة طلاء طري وتشحيم حديث، دون أنوار فردية، وبلا تهوية منتظمة في كابينة الركاب. وكانت قد أعدت لنقل قوات عسكرية؛ فبدلاً من مقاعها الثلاثية المتالية، كما في الرحلات السياحية، كان هناك مقعدان طويلان من ألواح خشبية عادية، مثبتة جيداً بالأرضية. وكانت كل أمتعتي في حقيبة واحدة من الكتان، فيها غياران أو ثلاثة غيارات من الملابس المتسخة، وكتب شعر وقصاصات من ملاحق أدبية تمكن أخي لويس إنريكي من إنقاذها. جلسنا نحن الركاب، في صفين متقابلين يتفان من كابينة القيادة حتى الذيل. وبدلاً من أحزمة الأمان، كان هناك حبلان من القنب المستخدم في ربط السفن، يشكلان جزامي أمان طويلين جماعيين، في كل جانب. أما أقسى ما حدث لي، فهو أنني ما كدت أشعل السيجارة الوحيدة التي استبقيتها لتساعدني على اجتياز الرحلة، حتى أعلن لنا الطيران من كابينته بأنه ممنوع علينا

التدخين، لأن خزانات وقود الطائرة موجودة عند أقدامنا، تحت أرضية الألواح الخشبية. فكانت ثلاث ساعات من الطيران غير النهائي.

توافق وصولنا إلى بارانكيّا، مع هطول مطر من ذاك الذي لا يهطل إلا في نيسان، مع وجود بيوت مبنوثة من جذورها، يجرفها التيار في الشوارع، ومرضى متوحدين يغرقون في أسرهم. فكان علي أن أنتظر توقف المطر، في المطار المضطرب من الفيضان. وتوصلت بصعوبة إلى معرفة أن طائرة أخي ومراقبيه قد وصلت في موعدها. ولكن الثلاثة سارعوا إلى مغادرة المطار قبل أول رعود وأبل المطر الأول.

احتجت إلى ثلاث ساعات أخرى للوصول إلى وكالة السفر. ولم أستطع اللحاق بالحافلة الأخيرة التي خرجت إلى كارتاخينا، قبل موعدها، بسبب اقتراب العاصفة. لم أشعر بالقلق، لأنني ظننت أن أخي كان هناك. ولكنني أحسست بالخوف على نفسي، خيال فكرة اضطراري لقضاء ليلة دون نفوذ في بارانكيّا. وأخيراً، حصلت بفضل خوسيه باليتيا، على ملجأ طوارئ في بيت الأختين الجميلتين إيلسي وليلا ألباراثيا، وبعد ثلاثة أيام من ذلك، سافرتُ إلى كارتاخينا، في حافلة وكالة البريد المخلفة. أما أخي لويس إنريكي فسيبقى بانتظار العثور على عمل في بارانكيّا. لم يبق لي أكثر من ثمانية يسزوات، ولكن خوسيه بالاثيوس وعدني بإحضار بعض النقود الأخرى لي، في حافلة الليل. لم أجد مكاناً شاغراً في الحافلة، ولا حتى وقفاً على الأقدام. ولكن السائق وافق على حمل ثلاثة ركاب على السطح، جالسين على أمتعتهم وحمولتهم. وبيع قيمة التعرفية النظامية. في ذلك الوضع الغريب، وتحت الشمس الساطعة، أظن أنني أدركت أن ذلك التاسع من نيسان لعام ١٩٤٧، هو بداية القرن العشرين في كولومبيا.

في نهاية رحلة من الارتجاج والمخاضة المصيبة، عبر طريق اللبغال، أطلقت حافلة وكالة البريد آخر أنفاسها، في مكان يليق بها، متوقفة في مستنقع أشجار مانغلي تئن ذي أسماك متعفنة، على بعد نصف فرسخ من كارتاخينا دي إندياس. وتذكرتُ بذاكرة جدي: "من يسافر في الحافلة، لا يدري أين يموت". الركاب المخبولون، بعد ست ساعات من الشمس العارية ورائحة عفونة المستنقع، لم ينتظروا إنزال السلم لكي يترجلوا، بل سارعوا يلثون، من فوق الحافة، بأقفاص الدجاج، وحزم الموز وكل أصناف مواد البيع أو الموت التي استخدموها للجلوس على سطح الحافلة. قفز السائق من مقعده وأعلن بصرخة لأذعة:

- البطلة!

وهذا هو الاسم الرمزي الذي تُعرف به مدينة كارتاخينا دي إندياس، لأمجادها الغابرة. ولا بد أن المدينة كانت هناك، ولكنني لم أرها، لأنني كنت أكاد لا أستطيع التنفس، في بدلة الجوخ السوداء، التي أرتديها منذ التاسع من نيسان، أما البدلتان الأخريان اللتان كانتا في خزائني، فلقيتا المصير نفسه الذي لقيته الآلة الكاتبة في محل رهونات "مونتني دي بيداد"، إلا أن الرواية الجديدة بالاحترام التي قدمتها لأبوي، هي أن

الألة الكاتبة، وأشياء شخصية أخرى غير ذات قيمة، قد اختفت مع الملابس، في فوضى الحريق. السائق المتفطرس الذي سخر، خلال الرحلة، من مظهري كقطاع طريق، أوشك على التفجر بهجة، عندما واصلت الدوران حول نفسي، دون أن أعثر على المدينة. فصرخ بي، ليُسمع الجميع:

- إنها في طيزك! وكن حذراً، فإنهم هناك يقلدون أوسمة للحمقى. وبالفعل، كانت كارتاخينا دي إندياس في مكانها، وراء ظهري، منذ أربعين سنة. ولكنني لم أستطع تصور أن تكون على بعد نصف فرسخ من منبت أشجار المانغلي، متوارية وراء السور الأسطوري الذي أبقاها بمنجى من الوثنيين والقراصنة، في سنوات عظمتها، وانتهى بها الأمر إلى الاختفاء تحت أجسام ملتفة من الأغصان المشعثة، وصفوف طويلة متدلية من أزهار الجرس الصفراء. انضمت إلى جلية المسافرين الآخرين، وسحبت الحقيبة عبر دغل تغطي أرضه سرطانات حية، تنهشم دروعها القشرية كأنها المفرقات تحت تعال الأحذية، كان من المستحيل، ألا أتذكر عندئذ، صرة الأمتعة التي ألقي بها رفاقي إلى نهر مجدينا، خلال رحلتي الأولى، أو الصندوق الجنائزي الذي جرجرته عبر نصف البلاد، وأنا أبكي من القهر، في سنواتي الأولى في المعهد، ثم ألقيت به أخيراً في أحد مهاوي جبال الأنديز، على شرف إنهائي الدراسة الثانوية. لقد بدا لي، على الدوام، أن هناك شيئاً غريباً في قلبي، في تلك الحملات الزائدة الشافهة، ولم تكف سنوات حياتي الطويلة لتفتيد ذلك الإحساس.

ما إن بدأنا نلمح بروفيل بعض قباب الكنائس والأديرة في غيش

العروب، حتى خرجت للقائنا عاصفة خفافيش تطير فوق رؤوسنا، ولا تطرحنا أرضاً بفضل حكمتها فقط. كانت أجتحتها تنز مثل دوي الرعد، مخلقة وراءها نثانة قاتلة. أربعتني المفاجأة، فأفلت الحقيبة وتكورت على نفسي، فوق الأرض، حاصياً رأسي بذراعي، إلى أن صرخت بي امرأة متقدمة في السن، كانت تمشي بجاني:

- صل صلاة التعظيمة

وهي تعني تلك الصلاة السرية، للتخلص من هجمات الشيطان، المكروهة من الكنيسة، ولكنها مكرمة من قبل كبار الملحد، عندما لا يجدون ما يكفي من التجديف. انتهت المرأة إلى أنني لا أعرف كيف أصلي، فأمسكت حقيبتني من حزامها الآخر، لتساعدني في حملها. وقالت لي:

- صل معي، ولكن عليك أن تفعل ذلك بإيمان كبير.

وهكذا راحت تلي علي التعظيمة بيتاً بيتاً، فردتها بصوت عالٍ، ويورع لم أعد إلى الشعور بمثله قط. تلاشى خفق أجنحة الخفافيش، وإن كنت أجد اليوم مشقة في تصديق ذلك، واختفت جميعها من السماء، قبل أن تنتهي من الصلاة. ولم يعد يُسمع عندئذ، سوى صخب البحر المدوي في وهاد الشاطئ.

كنا قد وصلنا إلى رواية الساعة الكبرى. لقد كان هناك، منذ ستة سنة، جسر متحرك يصل المدينة القديمة بضاحية جشيمان وبي الفقراء المزدحم في منابت أشجار المانغلي، ولكنهم كانوا يرفعون الجسر، منذ التاسعة ليلاً حتى فجر اليوم التالي، فيبقى الأهالي مغزولين، ليس عن بقية العالم وحسب، وإنما عن التاريخ أيضاً. ويقال إن الإسبان قد أقاموا

ذلك الجسر، خوفاً من أن يتسلل إليهم فقراء الأرياض في منتصف الليل، ليدبحوهم وهم نائمون. ومع ذلك، فقد بقي للمدينة شيء من أهيئتها، لأن خطرة واحدة خطورتها داخل الأسوار، كانت كاتبة لرويتها، بكل عظمتها، على ضوء الساعة السادسة مساءً، الخبازي. ولم أستطع كبح إحساسي بأنني قد ولدت من جديد.

هذا أقل ما يمكن أن يقال. ففي بداية ذلك الأسبوع، خلفت يوغوتا تنخبط في بركة من الدم والوحل، ولا تزال فيها أكوام جثث مجهولة الهوية، ومهجورة بين أنقاض يتصاعد منها الدخان. وفجأة، تغيرت الدنيا وصارت عالماً آخر في كارتاخينا. لم يكن هناك أي أثر للحرب التي تعصف بالبلاد. وقد وجدت مشقة في تصديق أن تلك الوحدة دون ألم، وذلك البحر غير المنقطع، وذلك الإحساس الفسيح بأنني قد وصلت، كانت تحدث لي في الحياة نفسها، بعد انقضاء أقل من أسبوع.

لكثرة ما سمعت من أحاديث عنها، منذ ولادتي، تعرفت فوراً على الساحة الصغيرة التي كانت تتوقف فيها عربات الخيول، وعربات الحمولة التي تجرها الحمير، وفي أقصاها رواق القناطر، حيث تصبغ السوق الشعبية أشد ازدهاماً وصخباً. ومع أنه لم يكن معترفاً به، على أنه كذلك، في الوعي الرسمي، إلا أن ذلك المكان هو القلب النابض الأخير للمدينة، منذ أصولها. فخلال العهد الاستعماري، سمي "ميدان التجار". ومن هناك كانت تُحرك الخيوط غير المرئية لتجارة العبيد، وتتأجج المشاعر بالحماس ضد السيطرة الإسبانية. ثم سمي، فيما بعد، "ميدان الكتبة العموميين"، بسبب الخطاطين ليلي الكلام الذين كانوا يرتدون صدارات من الجوخ، وأكماماً مستعارة، ويكتبون رسائل حب،

وكل أنواع الوثائق لغير المتعلمين الفقراء. كثيرون منهم كانوا باعة كتب مستعملة من تحت الطاولة، وخاصة الكتب التي تدينها محاكم التفتيش. ويُعتقد بأنهم كانوا متنبئين بمزامير الكرموليين المحليين ضد الإسبان. وقد اعتاد أبي، في مطلع القرن العشرين، أن يخفق من غلواء اندفاعه الشعري، في فن كتابة رسائل الحب في تلك الساحة. والواقع أنه لم يزدهر في هذا العمل أو ذاك، لأن بعض الزبائن الماكريين - أو البائسين حقاً - لم يكونوا يكتبون بطلب كتابة الرسائل كصدقة، وإنما يطلبون منه كذلك خمسة ريالات لدفع أجور البريد.

قبل عدة سنوات، كان المكان يسمى "ميدان الحلويات"، بمظلاته العفنة، والمسؤولين الذين يأتون ليأكلوا فضلات السوق، وصرخات عراك في الهنود المشؤمة الذين يتقاضون أجراً غالياً مقابل امتناعهم عن إطلاع الزبون على يوم وساعة موته. وكانت سفن الكاريبي الشراعية تتأخر في الميناء، لشراء حلويات ذات أسماء تخترعها لها النساء اللواتي يصنعنها، وينظمنها الباعة المنادون في نداءات صفاء: "بسكوت المحشو بهليبة ولوز، مأكول القروء" أو "حلوى الشوكولاته للرضع المصابين" أو "حلوى جوز الهند للمجانين"، أو "بسكوت الفانيلا لماثريلا". وهكذا ظلت الساحة، في الخير والشر، مركز المدينة الحبري، حيث تُكشف أمور الدولة من وراء ظهر الحكومة، والمكان الوحيد في العالم الذي تعرف فيه باتعات المعجنات المقلية، من سيكون حاكم المقاطعة القادم، قبل أن يخطر ذلك لرئيس الجمهورية في يوغوتا.

بهرني اللقط والصخب على الفور، فشقت طريقي متعشراً، وأنا أجر حقيبتني بين جموع السادسة مساءً. كان هناك عجوز بأسمال ليس

في جسمه سوى العظم، ينظر إليّ، دون أن يرف له جفن، من فوق منصة
ماسحي الأحذية، بعيني باشق جامدتين، اعترض طريقي فجأة. فما إن
رأى أنني رأيته حتى عرض علي أن يحصل لي الحقيبة. شكرته، ولكنه
حدد بلسانه الأمومي ما يريده مقابل ذلك:
- ثلاثون جدياً.

مستحيل. ثلاثون متنافر مقابل حمل حقيبة هو قضم للبيزوات
الأربعة الوحيدة المتبقية لدي، إلى أن أتلقى مدداً من أبوي في الأسبوع
التالي. فقلت له:

- هذا المبلغ يساوي الحقيبة وكل ما فيها.
أضف إلى ذلك، أن النزول الذي يجب أن تكون شلة بوغوتو فيه
ليس بعيداً جداً. رضي العجوز بثلاثة جديان، فعلق حول عنقه، صندله
الجلدي الذي كان يتعلقه، وحمل الحقيبة على كتفه، بقوة لا تُصدق،
بالنظر إلى هشاشة عظامه، واندفع راكضاً مثل رياضي يقدمين عاريتين،
في متاهة بيرت كولونبالية متداعية بفعل قرون من الإهمال. كاد قلبي
أن يطفر خارجاً من فمي، على الرغم من سنوات عمري العشرين، وأنا
أحاول ألا يغيب عن ناظري، ذلك العجوز الأولي الذي لم تبق له
ساعات كثيرة في الحياة، وبعد اجتياز خمس كوادرات، دخل من بوابة
الفندق الكبيرة، وصعد درجات السلم، مثني، ثم وضع الحقيبة على
الأرض، بأنفاس هادئة، ومدّ لي راحة يده:
- ثلاثون جدياً.

ذكرته بأنني قد دفعت له أجره، ولكنه أصر على أن الثلاثة ستنافر
التي تقاضاها في الساعة لا تتضمن صعود الدرج. وأيدت كلامه

صاحبة الفندق التي خرجت لاستقبالنا: فأجرة صعود الدرج تُدفع على
حدة. وقدمت لي المرأة نبوءة ستنتفعني مدى الحياة:
- سوف ترى أن كل شيء مختلف في كارتاخينا.

وكان عليّ أن أواجه كذلك الخير السيئ بأن أبدأ من أصدقائي، في
نزل بوغوتو، لم يصل بعد، على الرغم من أن هناك حجزاً مؤكداً في
الفندق لأربعة أشخاص، بمن فيهم أنا، البرنامج الذي اتفقنا عليه هو أن
نلتقي في الفندق، قبل الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم. ومع أن
تبديل الحافلة النظامية بحافلة وكالة البريد المتعسة، قد أخرني ثلاث
ساعات، إلا أنني كنت أكثرهم جميعاً، دقة في الوصول، دون أن أتمكن
من عمل أي شيء بأربعة بيزوات نقصت ثلاثة وثلاثين ستنافو. فقد
كانت صاحبة الفندق أمّاً لطيفة، ولكنها عبدة لأنظمتها التي فرضتها
بنفسها، مثلما سأؤكد من ذلك، خلال أكثر من شهرين أمضيتهما في
فندقها. وهكذا لم توافق على تسجيلي كنزيل، ما لم أدفع أجرة الشهر
الأول مقدماً؛ ثمانية عشر بيزو مقابل وجبات الطعام والنوم في غرفة
لستة أشخاص.

لم أكن آمل برصول مساعدة أبوي قبل انقضاء أسبوع. ولهذا لن
تجاوز حقيقتي صحن الدرج ما لم يصل أصدقائي الذين يمكن لهم أن
يساعدوني. جلست أنتظر على متكأ يليق بمطران، مزين برسوم زهور
كبيرة، بدا لي كما لو أنه نزل من السماء، بعد يوم كامل تحت شمس
ساطعة، في حافلة نكيتي. الحقيقة أن أحداً لم يكن متأكداً من شيء في
تلك الأيام. واتفاقنا على اللقاء هناك، في يوم معين وساعة محددة،
كان بلا معنى في الواقع، لأننا لم نكن نتجراً على القول حتى لأنفسنا،

إننا في بلاد تعيش حالة حرب دامية، مستترة في الأقاليم، منذ عدة سنوات، ومكشوفة وقاتلة في المدن، منذ نحو أسبوع. بعد ثماني ساعات من الانتظار، وبينما أنا مسأزوم في فندق كارتاخينا، لم أستطع تصور ما الذي يمكن أن يكون قد حدث لحوسيه بالينشا وأصدقائه، وبعد ساعة انتظار أخرى دون تلقي أي خبر، خرجت للتسكع في الشوارع المقفرة، الظلام يخيم في شهر نيسان باكراً. وقد كانت الأنوار العامة مضاعفة، غير أن نورها شحيح جداً إلى حد يمكن الظن معه أنها لمجوم باهتة بين الأشجار. قمت بجولة أولية من خمس عشرة دقيقة، دون وجهة محددة، في تعرجات القطاع الكولونيالي المرصوفة، وكانت كافية لأن أكتشف، بإحساس عظيم بالراحة، أن تلك المدينة الغربية ليست لها أي علاقة بالمستعانة المحلية التي يصفونها لنا في المدرسة.

لم تكن هناك نفس واحدة في الشوارع، فالجموع التي تأتي من الضواحي عند الفجر، للعمل أو البيع، تعود متعجلة إلى أرباضها، في الساعة الخامسة مساءً. أما سكان المدينة داخل السور، فيلودون ببيتهم، ليتناولوا العشاء ويلعبوا الدومينو حتى منتصف الليل. لم تكن عادة السيارات الشخصية قد شاعت بعد. وسيارات الخدمة القليلة كانت تبقى خارج السور. وحتى أرفع الموظفين منزلة، كانوا يأتون حتى ساحة العربات، في حافلات النقل المحلية المزركشة، ومن هناك يشقون طريقهم إلى مكاتبهم، أو يقفزون فوق دكاكين البضائع الرخيصة، المعروضة على الأرصفة العامة. وقد تهاهى أحد أكثر حكام المدينة تكلفاً، في تلك السنوات المساوية، بمواصلته التنقل من حبه الراقي إلى ساحة العربات، في الحافلات نفسها التي كان يذهب فيها إلى المدرسة.

التخفيف من وطأة السيارات، كان اضطرارياً، لأنه وجودها مخالف للواقع التاريخي؛ إذ لا تتسع لها شوارع المدينة الضيقة والمتعرجة، حيث يتردد في الليل، وقع حوافر الخيول الضامرة غير المعذبة. وفي أزمته الحار الشديد، عندما تُفتح الشرفات لتدخل برودة الحداثق، تُسمع رشقات من أكثر الأحاديث حميمية، برنة شبحية، ويسمع الأجداد المتناومون، وقع خطوات تنسل خفية في الشوارع الحجرية، فيتابعونها باهتمام، دون أن يفتحوا أعينهم، إلى أن يشعروا على أصحابها، ويقولوا بخيبة أمل: "إنه حوسيه أنطونيو ذاهباً إلى حيث تشابيللا". والواقع أن الشيء الوحيد الذي كان يُخرج الموزقين عن طورهم، هو ضربات الفيضات، على طاولة الدومينو، التي تدوي في كل أرجاء المنطقة المسورة.

لقد كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي. وكنت أكاد لا أعترف، في أرض الواقع، إلا بصعوبة، على تخیلات الكتب المدرسية التي هزمتها الحياة. لقد هزني الانفعال حتى الدموع، وأنا أرى أن قصور المركيزين القديمة نفسها، موجودة أمام عيني، مخلفة الأبواب، ينام المتسولون في مداخلها. رأيت الكاثدرائية بلا نواقيسها التي انتزعها القرصان فرانسيس دراك، ليضع منها مدافع. أما النواقيس القليلة التي نجت من الهجوم، فقد طُهرت بعد أن حكم عليها سحرة المطران بالحرقة، بسبب ونيها الخبيث الذي يستدعي الشيطان. رأيت الأشجار الذائبة، وقنايل الشخصيات المرموقة التي لا تبدو منحوتة من المرمر الميت، وإنما هي نفسها ميتة بلحمها. ذلك أنها لم تكن محمية، في كارتاخينا، من صدأ الزمن، بل على العكس تماماً؛ فالزمن يحافظ على نفسه في الأشياء التي ما زالت تمتلك عمرها الأصلي، بينما القرون تهرم. هكذا، في ليلة

وصولي بالذات. تكشفت لي المدينة، في كل خطوة، بحياتها الخاصة. ليس باعتبارها مستحاة الكرتون الحجري، مثلما يصفها المؤرخون، وإنما كمدينة من لحم وعظم، لم تعد تستند إلى أمجادها الحربية، وإنما إلى حية أطلالها.

بهذا النفس الجديد، رجعت إلى النزل، عندما دقت ساعة البرج معلنة العاشرة. أخبرني الحارس شبه الغائبي بأن أجداً من أصدقائي لم يأت، ولكن حقيبي صارت في مكان آمن في مستودع الفندق. عندئذ فقط، تنبهت إلى أنني لم أتناول طعاماً أو شرباً منذ الفطور السيئ في بارانكيّا. تراخت ساقاي من الجوع. ولكنني اكتفيت بأن تقبل السيدة إيداع حقيبي، وتسرّكني أنام في الفندق، تلك الليلة فقط، ولو على أريكة الصالة. ولكن الحارس سخر من برأئي، وقال لي يكاربيبة فيجة: - لا تكن أبداً فهذه "الدامة" ^(١)، بفضل أكوام المال التي تملكها، تنام منذ الساعة السابعة، ولا تستيقظ إلا في الساعة الحادية عشرة، من اليوم التالي.

شعرت أنها حجة مقبولة، وخرجت للجلوس على مقعد في حديقة بوليفار، في الجهة الأخرى من الشارع، بانتظار مجيء أصدقائي، دون أن أزعج أحداً. كانت الأشجار الذائبة تُرى بصعوبة على أنوار الشارع، لأن مصابيح الحديقة لا تضاء إلا في أيام الأحاد والأعياد. كان على مقاعد الرخام، آثار كتابات محابها وأعاد كتابتها شعراء صفيقون، مرات ومرات، وفي قصر محكمة التفشيش، وراء الواجهة الكولونيالية المنحوتة من الحجر البكر، وبوابتها التي كيوابة كنيسة متقدمة، كان

(١) الدامة: استخدام عامي للكلمة مدام "سيدة" الفرنسية.

يُسمع أنين لا عزاء له، يصدره طائر مريض لا يمكن له أن يكون من هذا العالم. عندئذ، داهمتني فجأة، الرغبة في التدخين وفي القراءة، في آن واحد، وهما آفتان أدمنت عليهما، واختلطت إحداهما بالأخرى في شباي، بسبب إلحاحهما وعنادهما. كانت رواية ألدوس هكلي "مباراة شعيرة" التي لم يُتح لي الخوف الجسدي مواصلة قراءتها في الطائرة، ترقد حبيسة وراء قفل في حقيبي. وهكذا أشعلت السيجارة الأخيرة بإحساس غريب من الراحة والرعب، ثم أطفأتها في منتصفها، كاحتياط لليلة بلا غد.

وعندما كنت قد تهيأت معنوياً للنوم على المقعد الذي أجلس عليه، بدا لي أن هناك شيئاً مختبئاً في الظلمة الدامسة، بين الأشجار. إنه تمثال سيمون بوليفار، ممتطياً صهوة جواد. لا أقل من ذلك، الجنرال سيمون خوسيه أنطونيو دي لا سانتيسسيما تريديداد بوليفار أي بالاثيوس، بطلي المفضل منذ أن أمرني جدي بذلك، صردياً بدلة المراسم، ورائس إمبراطور روماني، يغطيه يراز طيور السنونو.

كان لا يزال شخصيتي التي لا تُنسى، على الرغم من تناقضاته المستحكمة، أو ربما بسببها، وهي في نهاية المطاف، مماثلة لتلك التي توصل جدي بفضلها، إلى رتبة كولونيل، وقامر بحياته، مرات عديدة، في الحرب التي شنّها الليبراليون ضد الحزب المحافظ الذي أسسه بوليفار نفسه وقواده. كنت مستغرقاً في تلك الأفكار الضيائية، عندما أعادني إلى أرض الواقع، صوت حازم وراء ظهري:

- ارفع يديك!

رفعتهما بإحساس بالراحة، واثقاً من أن أصدقائي قد وصلوا أخيراً.

ولكنني وجدت نفسي، حين استدوت، في مواجهة رجلي شرطة فطين،
 ويلايس أقرب إلى الأسفل، يصوبان بندقيتيهما الجديديتين باتجاهي.
 أرادا أن يعرفا لماذا خرقت حظر التجوال الذي بدأ قبل ساعتين من ذلك.
 لم أكن أعرف أنه قد فُرض منذ يوم الأحد السابق، مثلما أخبراني هما.
 ولم أسمع بوقاً أو نوافيس أو أي إشارة أخرى تنبئ لي أن أدرك سبب
 عدم وجود أحد في الشوارع. وكان الشرطيان أكثر تكاسلاً وأقل تفهماً
 عندما رأيا أوراقتي الثبوتية، بينما أنا أشرح لهما سبب وجودي هناك.
 أعادا إلي الوثائق دون أن يتفحصاها. سألتني كم من النقود معي،
 فأخبرتهما بأن ما أملكه لا يصل إلى أربعة بيزوات. عندئذ طلب مني
 أشدهما تصميماً أن أعطيه سيجارة، فأريتهما عقب السجارة الطفاً
 الذي كنت أتوي تدخينه قبل أن أنام. فانتزعني مني ودخله حتى لامست
 جمرته ظفريه. ثم اتشادني الشرطيان بعد ذلك، من ذراعي، على امتداد
 الشارع، وهما متلهفان إلى التدخين أكثر من حرصهما على تطبيق
 القانون، بحثاً عن محل مفتوح لشراء بضعة سجاائر، من تلك التي تباع
 كل واحدة منها بستنافو. كان الليل قد تحوّل شفاقاً وبارداً تحت القمر
 المكتمل، وبدا الصمت مادة غير مرئية، يمكن تنفسه كما الهواء. عندئذ
 فهمت ما كان يرويه لنا أبي كثيراً، دون أن نصدق، من أنه كان يتعمر
 على العزف على الكمان فجراً، في صمت المفيرة، لكي يشعر بأن أنغام
 الحب التي يعزفها، يمكن أن تُسمع في كل أجواء منطقة الكاريسي.

بعد أن تعبنا من البحث عن سجاائر، خرجنا إلى خارج السور، حتى
 مرفأً مراكب رحلات قصيرة، يعيش حياته الخاصة وراء السوق العام،
 حيث ترسو سفن شراعية من جزر كوراساو وآرويه وغيرها من جزر

الأنشيل الصغرى. إنه مكان سهر أكثر الناس مرحاً وفائدة في المدينة
 بأسرها، ممن يملكون حق الحصول على تصريحات لحرق منع التجوال،
 بسبب طبيعة أعمالهم. إنهم يأكلون حتى الفجر، في مطاعم في الهواء
 الطلق، بأسعار مناسبة ورفقة طيبة! إذ لا يذهب إلى هناك، الموظفون
 اللياليون وحدهم، وإنما كل من يرغب في الأكل، عندما لا يكون ثمة
 مكان يمكن تناول الطعام فيه. لم يكن للمكان تسمية رسمية، بل يُعرف
 باسم لا يناسبه بأي حال: الكهف.

وصل إليه الشرطيان وكأنهما يصلان إلى بيتهما. وكان واضحاً أن
 الزبائن الجالسين إلى الموائد يعرف بعضهم بعضاً منذ الأزل، ويشعرون
 بالسعادة لوجودهم معاً. وكان من المستحيل معرفة كنياتهم الأسرية، لأن
 الجميع يتعاملون بألقابهم المدرسية، ويتكلمون بأصوات صارخة في وقت
 واحد، دون أن يفهموا أو ينظروا مع من يتكلمون. وكانوا يلبس العسل،
 باستثناء ستيبي ذي رأس ثلجي، يرتدي سموكغ من أرمئة أخرى، مع
 امرأة ناضجة ما زالت تحتفظ بجمال باهر، ترتدي فستاناً مزيناً بالبرق،
 ومستهلكاً من كثرة الاستخدام، وتضع الكثير من الحلبي الأصلية. يمكن
 لوجودهما هناك أن يكون إشارة حية إلى حقيقة وضعهما. لأنه من
 النادر، وجرّد نساء، يسمح لهن أزواجهن بالظهور في تلك الأماكن سيئة
 السمعة. وكان بالإمكان الظن أنهما سائحان، لولا نزقهما ولكنتهما
 المحلية، وتآلفهما مع الجميع، وقد علمت، في ما بعد، أنهما لا يمان
 بصلة إلى ما يبدو أن عليه، وإنما هما زوجان ساهيان من كارتاخينا،
 ينتهزان أي ذريعة لارتداء ملابسهما الاحتفالية من أجل تناول العشاء
 خارج البيت، وقد وجدا المضيفين، في تلك الليلة، نائمين، والمطاعم
 مغلقة بسبب حظر التجوال.

وكانا هما من دعوانا للعشاء. أقسح لنا الآخرون مكاناً في المكان، وجلسنا نحن الثلاثة، محشورين ومتلاصقين بعض النسيء. وكانوا يتعاملون كذلك، مع الشرطيين، بتألف الخدم. وقد كان أحد الشرطيين جدياً ومنفلاً في الكلام، وله ردود أفعال طفل مؤدب على المائدة. أما الآخر، فكان حريصاً، اللهم إلا في الأكل والتدخين. وقد طلبتُ أطباقاً أقل منهما، بدافع الخجل أكثر مما هو بدافع التأدب والاعتدال. وعندما انتهت إلى أنني سأبقى بأكثر من نصف جوعي، كان الآخران قد انتهيا. صاحب المطعم، وكان الخادم الوحيد في الكهف، يدعى خوسيه دولوريس، وهو زنجي شبه مراهق، له جمال مشير للقلق، يتلفع بملامات مسلم ناصعة البياض، ويضع طوال الوقت زهرة قرنفل نظرة على أذنه. ولكن أكثر ما يلفت الانتباه فيه هو ذكاهه المفرط، ومعرفة كيف يستخدم ذكاهه دون تحفظ، ليكون سعيداً وليسعد الآخرين. كان واضحاً أنه لا ينقصه إلا القليل جداً ليكون امرأة، وله سمعة راسخة بأنه لا ينام إلى مع "رجله". لم يداعبه أحد قط بالسخرية من وضعه، لأنه كان يتمتع بظرف وسرعة بديهة في الرد. لا يشرك معهما صديقاً دون شكر، ولا إساءة دون رد يناسبها. وكان هو وحده يقوم بكل شيء، ابتداءً من طيخه الصائب لما يعرف أنه يروق كل واحد من زبائنه، حتى قلبي شرائع الموز الأخضر بإحدى يديه، وإجراء المحادثات بيده الأخرى، دون أي مساعدة إلا تلك الضئيلة التي يقدمها له صبي في حوالي السادسة، ويدعوه "ماما". عندما ودعناه، أحسستُ بالتأثر لتلك اللقطة، ولكنني لم أنصوّر أن ذلك المكان الذي يرتاده متأخرون في السهر متصادون، سيكون أحد الأماكن التي لا تُنسى في حياتي.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، رافقت الشرطيين ليستكملنا جولاتهما المتأخرة. كان القمر طيقاً ذهبياً في السماء. وكان الهواء قد بدأ يشتد ويجرجر معه، من بعيد جداً، تنفأ من الموسيقى وصرخات نائبة من حفلة كبيرة. كان الشرطيان يعرفان أن أحداً، في أحياء الفقراء، لا يذهب إلى النوم بسبب خطر التجوال، وإنما يقيمون هناك كل ليلة حفلات رقص يساهمون جميعهم في نفقاتها، في بيوت بعيدة، لا يخرجون منها إلى الشارع حتى الفجر.

عندما أعلنت الساعة الثانية، طرفنا باب فندقي، وانقن من أن أصدقائي سيكونون قد حضروا. ولكن الحارس صرخ باستياء بأن نذهب إلى المحيم، لأننا أبقتناه دون مبرر. عندئذ انتبه الشرطيان إلى أنه لا يوجد لدي مكان أنام فيه، وقرروا أخذي إلى السجن. بدا لي ذلك سخرية شديدة الوقاحة، تفقدت طيب مزاجي ووجهت إليهما شتيمة. فوجئ أحدهما من رد فعلي الصبياني، فأعادني إلى الانضباط بتوجيه قوّة الهندقية إلى معدتي، وقال لي وهو يوشك على الموت من الضحك: - دعك من البلاهة. وتذكر أنك لا تزال معتقلاً، لأنك خرقت منع التجوال.

وهكذا، تمت ليأتي الأولى في كارتاخينا، في زنزانة تتسع لستة أشخاص، وعلى حصيرة متخمة بعرق غريب. الوصول إلى روح المدينة، كان أسهل علي بكثير من تجاوز اليوم الأول حياً. وقبل انقضاء أسبوعين، كنت قد استعدت الاتصال بالوالدي، وقد وافقاً دون تحفظ، على قراري بالعيش في مدينة لا حرب فيها. أما صاحبة الفندق التي ندمت لأنها حكمت علي بقضاء ليلة في السجن،

فقد أسكتني مع عشرين طالباً آخر في مهجع بني حديثاً على سطح بينها الديدع، المشيد على الطراز الكولونيالي. لم أجد سبباً للاحتجاج، لأن المهجع كان نسخة كاريبية عن قاعة النوم في المعهد الوطني، وكلفته أقل من نزل بونغوتا، مع تضمنه الطعام وكل شيء.

مسألة التسجيل في كلية الحقوق، حُلَّت خلال ساعة، بامتحان قبول أجزاء أمين الكلية إغناسيو فيليث مارتينيث، وأستاذ في الاقتصاد السياسي لم أتمكن من العثور على اسمه في دكراتي. ومثلما كانت العادة المتبعة، جرى الامتحان بحضور طلاب السنة الثانية كلهم. وقد لفت انتباهي، منذ اللحظة الأولى، وضوح أحكام الأستاذين ودقة لغتهما، في منطقة مشهورة في أنحاء البلاد الداخلية، باضطراب نطقها. كان الموضوع الأول، في القرعة، هو الحرب الأهلية في الولايات المتحدة. وهو ما كنت أعرف عنه أقل من لا شيء، بقليل. ومن المحزن أنني لم أكن قد قرأت بعد، الروائيين الأمريكيين الجدد الذين بدأت بعض أعمالهم بالوصول إلينا آنذاك. ولكن الحظ حالفتني حين بدأ الدكتور فيليث مارتينيث بإشارة عرضية إلى "كروخ العم توم". وكنت أعرفها منذ الثانوية. فالتقطت الإشارة بسرعة خاطفة، ولا بد أن الأستاذين قد أصيبا بصدمة حين، ذلك أن الستين دقيقة المخصصة للامتحان انقضت كلها في تحليل، يطغى عليه التأثير والانفعال، لعار نظام العبودية في جنوبي الولايات المتحدة. ولم تتجاوز ذلك الموضوع. وهكذا، فإن ما كان يبدو لي نوعاً من الروايت الروسي، تكشف عن محادثة ممتعة استحققت عليها تقديراً جيداً، وبعض التصفيق الودي.

بهذه الطريقة، دخلت الجامعة لأنهي سنة الحقوق الثانية، مع الشرط

الذي لم أنجزه قط، بأن أؤدم لامتحان تأهيل في مادة أو مادتين لم أكن قد أنهيتهما من السنة الأولى في بونغوتا. تخمس بعض زملاء الدراسة لطيفتي في ترويض الموضوعات والالتفاف عليها؛ إذ كانت تنتشر بينهم فكرة النضال من أجل حرية الإبداع، في جامعة أصابتها الصرامة الأكاديمية بالجمود. وقد كان ذلك هو حلمي المتوحد منذ معهد الثانوية، ليس بدافع رفض مجاني للتقاليد، بل لأنه الأمل الوحيد للتمسك من النجاح في الامتحانات، دون أن أدرس. ومع ذلك، فإن من كانوا يطالبون باستقلالية وجهات النظر في قاعات الدرس، ما كانوا يجدون مغراً من الاستسلام للقدر، والصعود إلى منصة إعدام الامتحان، وقد حفظوا، عن ظهر قلب، مجلدات النصوص الضخمة الموروثة من العهد الاستعماري. ومن حسن الحظ أنهم كانوا أساتذة متمرسين في فن تشييط حفلات الرقص المساهمة أيام الجمعة، على الرغم من مخاطر القمع الذي صار أكثر فأكثر، غادياً، في ظل حالة الطوارئ. تواصلت إقامة حفلات الرقص، باتفاق غير معلن مع سلطات حفظ الأمن العام، خلال الوقت الذي استمر فيه منع التجوال. وعندما رُفِع، اتبعثت الحفلات من احتضارها بقوة أكبر من السابق، ولا سيما في ضاحية توريس أو جشيماني أو عند أطراف "لاهورا"، أكثر الأحياء، صخباً احتفالياً في تلك السنوات المكفهرة. كان يكفي أن نطل من النافذة لاختيار الحفلة التي سترونا أكثر من سواها. ومقابل خمسين سنتافو، كان يمكن لنا الرقص حتى الفجر، على وقع أشد إيقاعات الموسيقى الكاريبية سخونة، مُضخمة بدوي مكبرات الصوت. أما الفتيات المدعوات مجاناً، فكان الطالبات أنفسهن اللواتي نلتقيهن خلال الأسبوع، لدى الخروج من

المدارس، غير أنهم يذهبون بلباس قدامس يوم الأحد، ويرقصون كنساء الحياة الطيبات، تحت نظرات متيقظة من عبات مرافقات أو أمهات متحدرات. في إحدى ليالي الصيد الأكبر تلك، كنتُ أمضي في حي جشيمان الذي كان حياً للعبيد، خلال العهد الاستعماري، عندما أحسست بشريت علي ظهري، وفرقة صوت يقول، كما لو أنها كلمة سر:

- يا قاطع الطريق!

كان مانويل زاباتا أوليفييا، ساكن شارع "الشقاوة" المشهور، حيث عاشت أسرة أجداد أجداده الأفارقة. وكنا قد التقينا من قبل في بوغوتا، وسط أوار التاسع من نيسان. وكانت دهشتنا الأولى عند لقائنا مجدداً في كارتاخينا، هي معرفة كل منا أن الآخر لا يزال حياً. وقد كان مانويل، فضلاً عن أنه طبيب إحسان، روائياً، وناشطاً سياسياً، ومنتشراً لموسيقى الكاريبي، غير أن ميله الساحق كان السعي إلى حل مشاكل الجميع. وما كدنا ننتهي من تبادل الحديث عن تجربتنا في يوم الجمعة العظيمة، وعن خططنا للمستقبل، حتى اقترح علي أن أجرب حظي في الصحافة. قبل شهر من ذلك، كان الزعيم الليبرالي لوبيث إسكاوريانا قد أسس صحيفة الأونيفرسال، وكان رئيس تحريرها هو كليمنتي مانويل ثابالا. وكنتُ قد سمعت شيئاً عن هذا الأخير، ليس كصحفي، وإنما كعلامة في الموسيقى، وشيوعي كامن. أصر زاباتا أوليفييا على أن نذهب لقايلته، إذ كان يعرف أنه يبحث عن أناس جدد، لكي يُنشط غطاءً من الصحافة الخلاقة، في مواجهة الصحافة الروتينية المنقادة، السائدة في البلاد، وخاصة في مدينة كارتاخينا. وهي آنذاك إحدى أكثر المدن تخلفاً.

كنتُ أدرك بوضوح، أن الصحافة ليست مهنتي. فأنا أريد أن أصير كاتباً مختلفاً. ولكنني أحاول ذلك بمحاكاة كتاب آخرين لا علاقة لهم بي. وقد كنتُ في تلك الأيام في استراحة تأمل؛ إذ بعد قصصي الثلاث الأولى التي نُشرت في بوغوتا، ولقيتُ بسببها، إطراء إدواردو ثالامبا ونقاد آخرين وأصدقاء طيبين وسيئين، شعرت بأنني وصلت إلى طريق مسدود. فألح زاباتا أوليفييا، مفتداً حججي، على أن الصحافة والأدب سينتهيان عما قريب ليكونا الشيء نفسه، وأنه يمكن لارتياطي بجريدة الأونيفرسال، أن يضمن لي ثلاثة معاشر في الوقت نفسه: حل شؤوني الحياتية بصورة كريمة ونافعة، والدخول في عالم أُحترِف فيه عملاً هو بعد ذاته مهنة مهمة، والعمل مع كليمنتي مانويل ثابالا، أفضل معلم صحافة يمكن تخيله. كان يمكن لكايح الحياة الذي أثاره في ذلك التبرير شديد البساطة، أن ينجيني من المصيبة. ولكن زاباتا أوليفييا لم يكن قادراً على تقبل الإخفاق في مساعيه، فطلب مني الحضور في اليوم التالي، الساعة الخامسة مساءً، إلى الرقم ٣٨١ بشارع سان خوان دي ديوس، حيث مقر الصحيفة.

تمت تلك الليلة قلقاً، وفي اليوم التالي، سألتُ صاحبة الفندق، أثناء تناول الفطور، أين هو شارع سان خوان دي ديوس، فأشارت بإصبعها من النافذة، وقالت لي:

- هناك بالذات، بعد شارعين.

وهناك كان مقر الأونيفرسال، قبالة الجدار الحجري الضخم والمزخرف لكنيسة سان بيدرو كلافير، أول قديس، في أميركا، والذي ما زال جثمانه غير المتفسخ معروضاً، منذ مئة سنة، تحت مذبح الكنيسة الكبير.

كانت مكاتب الجريدة في بناء قديم من الطراز الكولونيالي، موسى بترميمات جمهورية، وبوايتين كبيرتين وبعض النوافذ التي يظهر من خلالها كل ما كانت عليه الجريدة. ولكن رغبتي الحقيقي كان يقبع وراء شرفة من خشب دون سحج، على بُعد نحو ثلاثة أمتار من النافذة؛ إنه رجل ناضج ومتوحد، يرتدي بدلة قطنية بيضاء وربطة عنق، وله بشرة فاتمة وشعر هندي قاس وأسود. يكتب بقلم رصاص، وراء مكتب عليه أكדاس أوراق متأخرة. مرت ثانية بالاتجاه المعاكس، بافتتان طابع، ثم أعدت الكرة مرتين أخريين. وفي المرة الرابعة، مثلما في المرة الأولى، لم يراودني الشك في أن ذلك الرجل هو كليمنتني مانويل ثابالا، قامساً مثلما توقعت، ولكن أشد رهبة. وبينما الرعب يملؤني، اتخذت القرار البسيط بعدم الذهاب إلى الموعد، في ذلك المساء، مع رجل تكفي رؤيته من النافذة، لاكتشاف أنه يعرف أكثر مما يجب عن الحياة وعن مهنته. رجعت إلى الفندق، وأهديت يوماً آخر من أيامي، بلانديم، وأنا مستلق على السرير، لقراءة "مزيفو النقود" لأندريه جيد، والشخص دون توقف. في الخامسة مساءً، اهتز باب الحجرة بصعقة قوية كأنها رصاصة بندقية، وصرخ بي زاباتا أوليفييا من المدخل:

- هيا بنا، يا للعبة! ثابالا ينتظرك، وليس هناك في هذه البلاد من يسمح لنفسه بشرف التخلف عن موعد معه وتركه معلقاً.

كانت البداية أصعب مما يمكن لي أن أتخيله في كابوس. استقبلني ثابالا دون أن يدري ما يفعل. وكان يدخن دون توقف، باضطراب يزيد الحر من حدته. أَرَأنا كل شيء: رئاسة التحرير والإدارة في جانب، وفي الجانب الآخر قاعة التحرير والورشة، وفيهما ثلاث مناضد غير مشغولة

في تلك الساعة المبكرة. وفي أقصى المكان مطبعة دوارة ناجية من قشة، وألنا تنظيف وحيدتان من نوع لينوتيبا.

وكانت مفاجأتي الكبرى أن ثابالا قرأ قصصني الثلاث، وبدأت له الملاحظة التي كتبها ثالاميا منتصفه. فقلت له:

- أما أنا فلا أرى ذلك. القصص لم تعجبني. لقد كتبها بدوافع غير راعية إلى حد ما. وبعد أن قرأتها مطبوعة، لم أعد أدري من أين سأواصل.

استنشق ثابالا الدخان عميقاً. وقال لزاباتا أوليفييا:

- إنها بادرة طيبة.

فالتقط مانويل الفرصة بسرعة، وقال له إنني قد أكون مفيداً له في الصحافة، خلال وقت فراغي من الجامعة. فقال ثابالا إنه فكر في الشيء نفسه عندما طلب منه مانويل موعداً لي. وقد قدمني إلى المدير العام، الدكتور لوبييث إسكايويثا، على أنني المساعد المحتمل الذي حدث عنه في الليلة السابقة.

- سيكون ذلك رائعاً - قال المدير باهتمامه الأبدية، كسيد نبيل على الطريقة القديمة.

لم تتفق على شيء، غير أن المعلم ثابالا طلب مني الرجوع في اليوم التالي، ليقدمني إلى هيكتور روخاس هيراثو، وهو شاعر ورسام من الجيدين، وكاتب عمود لامع في الجريدة. لم أقل له إنه كان أستاذي في الرسم، في مدرسة سان خوسيه، بسبب ضجّل يبدو لي اليوم غير قابل للتفسير. وفور الخروج من هناك، قفز مانويل قفزة طرب في ساحة الجمارك، قبالة واجهة كنيسة سان بيدرو كلاتير الهيبة، وهتف بفرح مبكر:

- أرأيت أيها النمر، لقد أنجز الأمر

نجاوت معه بجاراته في عناق ودي، كيلا أخيب أمه. ولكنني كنت أحتفظ بشكوك جدية حول مستقبلتي. سألتني مانويل عندئذ، كيف بدا لي ثابالا، وأجبتته بالحقيقة: لقد بدا لي صياد أرواح. وربما كان هذا هو السبب الخامس في أن الجماعات الشبابية تتغذى على عقله ودهائه. واختتمت قائلاً، بتقويم عجوز مبكر، وزائف دون ريب، إن طريقته تلك قد تكون هي التي حالت دون توليه دوراً حاسماً في حياة البلاد العامة. اتصل بي مانويل ليلاً، وهو يكاد يموت من الضحك، بسبب محادثة دارت بينه وبين ثابالا. لقد حدث هذا الأخير عني بحساس شديد، وأكد على ثقته بأنني سأكون مكسباً مهماً لصفحة الافتتاحيات. وكان المدير متفقاً معه في الرأي. غير أن السبب الحقيقي لاتصاله كان رغبته في إخباري بأن الشيء الوحيد الذي يقلق المعلم ثابالا، هو أنه يمكن لخبرتي المرضي أن يشكل عقبة كبيرة في حياتي.

وإذا كنت قد قررت في اللحظة الأخيرة، العودة إلى الصحيفة، فلأن زميلاً في المجرة، فتح علي الباب، وأنا أستحم في صباح اليوم التالي، ووضع أمام عيني صفحة التعليقات الانتحارية في الأولينفرسال. كانت هناك ملاحظة مزعومة عن وصولي إلى المدينة، تورطني بكوني كاتباً قبل أن أصبح كذلك، وبأنني صحفي لامع قبل مرور أقل من أربع وعشرين ساعة على رؤيتي، أول مرة، جريدة من الداخل. أثبتت مانويل الذي اتصل بي فوراً بالهاتف، لتعشتي، دون أن أداري غطيتي من كتابته مثل تلك الملاحظة غير المسؤولة دون أن يخبرني بها مسبقاً. ومع ذلك، فإن شيئاً قد تغير في، وربما إلى الأبد، عندما

علمت أن المعلم ثابالا نفسه، هو الذي كتب تلك الملاحظة. وهكذا حزمت بنطالي ورجعت إلى تحرير الجريدة لأقدم له الشكر. لم يكذبهم بشكري. وقدمني إلى هيكتور روخاس هيراثو الذي كان يرتدي بنطالاً خاكياً وقميصاً مزيناً يزهر أمارونية. ويتكلم كلمات ضخمة يطلقها بصوت راعد، ولا يستسلم في المحادثات إلى أن يقتنص طريدته. لم يتعرف علي بالطبع، كواحد آخر من تلاميذه في مدرسة سان خوسيه في باراناكيا.

وضعنا المعلم ثابالا - مثلما كان يدعو الجميع - في مداره، بذكريات عن صديقين أو ثلاثة أصدقاء مشتركين، وعن آخرين يتوجب علي أن أتعرف عليهم. ثم تركنا وحدنا، ورجع إلى الحرب الضارية التي يخوضها بقلمه الرصاص المثوقد، على أوراقه المستعجلة، وكأنه لم تكن له قط، أي علاقة بنا. واصل هيكتور حديثه إلي، على وقع آلي الليوتيب الرتيب المخافت، وكأنه هو أيضاً لم تكن له أي علاقة بشابالا. لقد كان محدثاً لا نهائياً، يتمتع بذكاء تعبيرى مبهر، ومغامراً في التخيل. يختلق وقائع لا تُصدق، ينسهي به الأمر، هو نفسه، إلى تصديقها. تبادلنا الحديث طوال ساعات، عن أصدقاء آخرين، أحياء وميتين، وعن كتب ما كان يجب كتابتها أبداً، وعن نساء نسينا، لكننا لم نستطع نسيانهن، وعن شواطئ حاملة في فردوس تولو الكاريبي - حيث ولد هو - وعن سحرة معصومين عن الخطأ، ونكبات أراكاتاكا التوراتية. وعن كل ما كان وما سيكون، دون شرب أي شيء. ودون أن نكاد نتنفس، ونحن ندخن حتى المرفقين، خوفاً من ألا نقتد بنا الحياة للتحدث عن كل ما نحتاج إلى التحدث عنه.

في الساعة العاشرة ليلاً، عندما أغلق تحرير الصحيفة، ارتدى المعلم ثياباً سترته، وعقد ربطة عنقه، وبخطوة ياليه راقصة لم يبق فيها إلى القليل من الشباب، دعانا لتناول الطعام. ومثلما هو متوقع، ذهنا إلى الكهف، حيث فوجئ بأن خوسيه دولوريس وعدداً من زبائن آخر الليل، تعرفوا عليّ كزبون قديم. وازدادت مفاجأتنا عندما مرّ أحد الشرطين اللذين رافقاني في زيارتي الأولى للمطعم، ومازحني بدعابة مسترة عن ليالي السيئة في الحبس، وصادر مني عليه سجاثر كنت قد فتحتها للتو. وبدوره، أثار هيكتور مبارزة كلامية مزدوجة المعنى مع خوسيه دولوريس، أثارت ضحك الزبائن، أمام صمت المعلم ثياباً السعيد. ونجرات أنا على التدخل برّد لا ظرف فيه، أفادني على الأقل في أن أكون معترفاً بي كواحد من الزبائن القليلين الذين يقدم لهم خوسيه دولوريس الطعام ديناً، حتى أربع مرات في الشهر.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، واصلت أنا وهيكتور حديثنا الذي يدأناه مساءً، في شارع الشهداء، قبالة الخليج النقي بفضلات السوق العام الجمهوري. كانت ليلة رائعة في منتصف العالم، بينما أول سن كوراسو الشراعية تُقلع خفية. في ذلك الفجر، قدّم لي هيكتور أول الإضاءات، حول تاريخ كارتاخينا الحفي، والمغطى ببحار من الدموع، وربما بدت أقرب إلى الحقيقة من خيال الأكاديميين المجميل. حدثني عن حياة الشهداء العشرة الذين تنتصب تماثيلهم النصفية على جانبي مر الساحة، تخليداً لبطولتهم. الرواية الشعبية - وهي تبدو كما لو أنها من بنات أفكاره - تقول إنه عند وضع التماثيل في أماكنها الأصلية، لم ينقش النحاتون أسماء الشهداء، وتاريخ ميلادهم على التماثيل نفسها،

ولما غلى القواعد التي استقرت عليها. ولهذا، عندما رقعوها من أماكنها لتنظيفها بمناسبة الذكرى المئوية لاستشهادهم، لم يعودوا يعرفون لمن تتبع الأسماء والشواريح، واضطروا إلى إعادة وضع التماثيل على القواعد، كيفما اتفق، لأن أحداً لم يكن يعرف اسم أحد. كانت الحادثة متداولة كدعابة، منذ سنوات طويلة، ولكنني فكرت بالمقابل، بأنها حققت العدالة التاريخية بتكريسها أولئك الأعيان دون أسماء، لأنهم لم يُخلدوا بسبب حياتهم التي عاشوها، بقدر ما هو بسبب مصيرهم المشترك.

تكررت ليالي السهر تلك، بصورة يومية تقريباً، خلال سنواتي في كارتاخينا. ولكنني منذ الليتين أو الثلاث الأولى، انتبهت إلى أن هيكتور يتمتع بقدرة على الإغواء المباشر، مع حسن صداقة شديد التعقيد، لا يمكن إلا لنا نحن الذين نحبه كثيراً، أن نفهمه دون تحفظ. فقد كان رقيقاً جداً، إلا أنه قادر في الوقت نفسه، على اجترار غضبات صاخبة، وأحياناً كارثية، ثم يحتفل بنفسه. بعد ذلك، يصفح، كأنه الطفل بسوع، عندئذ يفهم أحداً حقيقته، ويفهم لماذا يفعل ثياباً كل ما هو ممكن لكي نحبه كثيراً بقدر ما نحبه. في الليلة الأولى، مثلنا في ليال كثيرة أخرى تالية، بقينا حتى الفجر في شارع الشهداء، محتمين من خطر التجوال، بوضعنا كصحفيين. كان صوت هيكتور وذاكرته لا يزالان على خير ما يرام، حين رأى بريق النهار الجديد في أفق البحر، وقال:

- عسى أن تنتهي هذه الليلة كما في "كازابلانكا".
لم يقل أي شيء آخر. ولكن صوته أعادني إلى كل بها صورة

همفري بوغازت وكلود ريتس، وهما يعضيان كنفاً إلى كنف، في الفجر الضبابي، باتجاه تائق الأفق المشرق، والجملة التي صارت نائية عن تلك النهاية المأساوية السعيدة: "هذه بداية صداقة عظيمة".

بعد ثلاث ساعات من ذلك، أيقظني المعلم ثابالا هاتفياً، بعبارة أقل سعادة:

- أين وصلت في هذا المقال العظيم؟

احتججتُ إلى بضع لحظات لكي أدرك أنه يعني مساهمتي في المجردة لليوم التالي. لا أتذكر أننا توصلنا إلى أي اتفاق، أو أنني قلت نعم أو لا، عندما طلب مني أن أكتب مساهمتي الأولى. ولكنني كنت أشعر، في ذلك الصباح، بأنني قادر على أي شيء، بعد المحادثة الأولمبية في الليلة السابقة. ولا بد أن ثابالا فهم الأمر على ذلك النحو، إذ كان قد أشار إلى بعض الموضوعات التي سيجري تناولها في ذلك اليوم. واقترحتُ عليه موضوعاً آخر يدا لي أكثر راحة: حظر التجوال.

لم يقدم لي أي توجيه. وكنتُ أنوي رواية مغامرة ليلتي الأولى في كارتاخينا، وهذا ما فعلته، بخط يدي، لأنني لم أسنطع التفاهم مع الآلات الكاتبة الخرافية في قاعة التحرير. كان مخاضاً استمر نحو أربع ساعات، راجع المعلم أمامي دون أي ملمح أو تعبير يكشف عما يفكر فيه، إلى أن وجد أقل الأساليب مراة ليقول لي:

- ليس سيئاً. ولكن من المستحيل نشره.

لم يفاجئني. بل على العكس، فقد كنت أتوقع الأمر، وحررتني من ذلك الهم الثقيل في أن أصير صحفياً. ولكن أسبابه الحقيقية التي كنت أجهلها، كانت جاسمة: فمتذ الشاسع من نيسان، صار هناك في كل

صحيفة في البلاد، رقيب من الحكومة، يقبع وراء منضدة في قسم التحرير، كما لو أنه في بيته، منذ الساعة السادسة مساءً، ويتمتع بالإرادة والسلطة في عدم السماح بنشر أي حرف يمكن له أن يمس الأمن العام.

كانت مبررات ثابالا أشد وطأة عليّ، من مبررات الحكومة، لأنني لم أكن قد كتبت تعليقاً صحفياً، وإنما إعادة سرد ذاتية لحدث خاص، دون أية مزاعم بأنه تعليق صحفي. كما أنني لم أتعامل مع حظر التجوال كوسيلة شرعية تتخذها الدولة، وإنما كحجة يتذرع بها بعض الشرطيين الأفظاظ لكي يحصلوا على سجناء من تلك التي تساوي كل واحدة منها ستفافو واحداً. ولحسن الحظ أن المعلم ثابالا، قبل أن يحكم عليّ بالإعدام، أعاد إليّ الملاحظة التي يجب إصلاحها من ألها إلى ياتها، ليس من أجله هو، وإنما من أجل الرقيب، وأنعم عليّ بحكم ذي حدين قائلاً:

- أنت قتلتك الكفاءة الأدبية، وهذا أمر لا شك فيه. ولكننا

نتحدث في ذلك فيما بعد.

هكذا كان هو، فعند يومي الأول في الصحيفة، عندما تحدث ثابالا معي ومع زابانا أوليفيبيّا، لفتت انتباهي عاداته الفريدة بالتحدث إلى أحدها، وهو ينظر إلى وجه الآخر، بينما أظفاره تحترق بجمرة سيجارته. لقد سبب لي ذلك، في البدء، قلقاً مزعجاً. والأمر الأقل حماسة الذي خطر لي، بدافع الحياء المحض، هو الاستماع إليه بانتباه حقيقي واهتمام هائل، ولكن دون النظر إليه. وإنما إلى ماويل، لكي أستخلص نتائجي من كليهما. وبعد ذلك، عندما تبادلنا الحديث مع روخاس هيراثو، ثم مع

المدير لويث إسكاوريتا فيما بعد، ومع كثيرين غيرهما، أدركت أن تلك هي طريقة ثابالا الخاصة، عندما يتحدث ضمن جماعة. فهتأ الأمر على هذا النحو، وعلى هذا النحو استطعنا، أنا وهو، تبادل الأفكار والمشاعر من خلال النظر إلى شركاء غافلين ووسطاء برتنيين. وعندما استقرت الثقة المتبادلة بيننا، مع مرور السنوات، تجمرات على التحدث إليه عن انطباعي ذاك، فأوضح لي دون استعراب، بأنه إنما ينظر إلى محدثه بصورة مائلة تقريباً، كيلا ينفث دخان سيجارته في وجهه. لقد كان هكذا؛ لم أعترف قط، على أحد، بطبع شديد الوداعة والتكتم مثله، ومزاج مدني مثل مزاجه؛ لأنه عرف أن يكون على الدوام، ما يريد أن يكونه؛ حكيماً في الظل.

الحقيقة أنني كنت قد كتبت خطابات، وأشعاراً مبكرة في معهد ثيباكيرا، ونداءات وطنية ومذكرات احتجاج على سوء الطعام، وكتابات قليلة أخرى، دون حساب الرسائل إلى الأسرة التي كانت أمي تعيدها إليّ. وقد صححت ما فيها من أخطاء إملائية، حتى بعد أن صرتُ كاتباً معترفاً به. لكن المقالة التي نُشرت أخيراً في صفحة التعليقات الافتتاحية، لم تكن لها علاقة بما كتبتّه. فما تبقى مني، بين ترقيعات المعلم ثابالا والرقيب، هو مجرد نصف نشر غنائي بلا وجهة نظر ولا أسلوب، أجهز عليها مصحح التجارب بتعصبيه النحوي. اتفقتا في نهاية المطاف على أن أتولى كتابة عمود يومي، ربما لتحديد المسؤوليات، يُنشر باسمي الكامل، ويعنوان دائم: "نقطة، وسطر جديد". تمكن ثابالا وروخاس هيراثو، المجربان جيداً في الاستنزاف اليومي، من مواساتي من الضيق الذي سببه لي ما حل بمقالتي الأولى. وهكذا

تجمرات على المرافلة، بكتابة مقالة ثانية وثالثة، لم تكونا أوفر حظاً. بقيتُ في التحرير قرابة سنتين، أنشر حتى زاويتين صحفيتين يومياً، وأتمكن من كسبهما من الرقابة، بتوقيع ودون توقيع، حتى أوشكت على الزواج من ابنة أخي الرقيب.

ما زلت حتى اليوم أتساءل، كيف كان يمكن لحياتي أن تكون، من دون قلم المعلم ثابالا، ومشد الرقيب الذي كان مجرد وجوده تحدياً خلاقاً. ولكن الرقيب كان يعيش باحتراس أكثر منا، بسبب جوسه في الملاحقة. فالاقتباسات من كبار الكتاب، تبدو له مكاييد مريبة. وهي كذلك بالفعل، في أحيان كثيرة. لقد كان يرى أشباحاً، فهو كويتب نافه، يقترض معاني متخيلة. وفي إحدى ليالي سوء طالعاه اضطر إلى الذهاب إلى المرحاض، كل ربع ساعة، إلى أن تجمراً على القول لي، إنه يوشك على أن يصاب بالجنون، لما نسيه له من الرقيب، وصرخ:

- يا لللعنة! يمثل هذا الذهاب والإياب، سأبقى دون مؤخرة

كانت قد جرت عسكرة الشرطة، كدليل آخر على صرامة الحكومة تجاه العنف السياسي الذي كان يدمي البلاد، مع شيء من الاعتدال على ساحل الأطلسي. ومع ذلك، فقد أطلقت الشرطة النار في أوائل شهر أيار، دون سبب، على مركب الأسبوع المقدس، في شوارع بلدة كارمن دي بوليفار، على مسافة نحو عشرين فرسخاً من كارتاخينا. كنت أشعر بضعف عاطفي تجاه تلك البلدة، حيث ترعرعت العمة "ماما". وحيث ابتكر الجد نيكولاس أسماك الذهبية الشهيرة. فطلب مني المعلم ثابالا، المولود في قرية سان خاثنتر المجاورة، بإصرار غريب، أن أتناول الخبر بمقالة افتتاحية، دون أن أولي اهتماماً للرقابة ولكل ما سيمرتب على

ذلك، من نتائج. فطالبت الحكومة في مقالتي الأولى المغفلة من التوقيع، في صفحة الافتتاحية، بفتح تحقيق معمق حول الاعتداء، ومعاينة من قاموا به. وأنهيت المقالة بسؤال يقول: "ما الذي حدث في كارمن دي بوليفار؟". وحيال التجاهل الرسمي، وفي حرب صريحة ضد الرقابة، واصلنا ترديد السؤال في تعليق يومي في الصفحة نفسها، بخماس متنام، وباستعداد لإثارة حفيظة الحكومة، أكثر مما كانت عليه. بعد ثلاثة أيام من ذلك، طلب مدير الجريدة من ثابالا تأكيداً بأنه تشاور في الأمر مع هيئة التحرير بكاملها. وكان هو نفسه موافقاً على وجوب مواصلة الموضوع. وهكذا واصلنا توجيه السؤال. وفي أثناء ذلك، كان الشيء الوحيد الذي عرفناه عن موقف الحكومة هو ما جاءنا من خلال وشاية: لقد أصدرنا الأوامر بتركنا نردد موضوعنا كمجانين طلقاء، إلى أن يصيبنا الملل. لم يكن ذلك سهلاً، فسؤالنا اليومي كان ينتشر في الشارع كتحية شعبية: "مرحباً يا أخي، ما الذي حدث في كارمن دي بوليفار؟".

وفي ليلة لا تخطر على بال، ودون أي إنذار مسبق، أغلقت دورية عسكرية شارع سان خوان دي ديوس بجلية أصوات وقعقة أسلحة، ودخل الجنرال أرنستو بولانيا بويو، قائد الشرطة المجيشة، إلى مبنى جريدة الأونيفرسال. وهو يطمأ الأرض بقوة. كان يرتدي الزي العسكري الأبيض المخصص للناسيات الكبرى، وطماقاً ملصعاً بالورثيش، بينما السيف معلق إلى جانبه بحبل من الحرير، وأزراره وشاراته تلمع كأنها من الذهب. لم يكن ينتقص مقدار ذرة من سمعته كمتأنق وجذاب، وإن كنا نعرف أنه رجل صلب في السلام والحرب، وهو ما أثبتته بعد سنوات

من ذلك بقيادته للفرقة الكولومبية، في حرب كوريبا. لم يتحرك أحد خلال الساعتين المشورتين من محادثة، على انفراد، مع المدير. تناولا اثنين وعشرين فتجان فهوة سوداء، دون سجاير ودون كحول، لأنهما كليهما كانا متحرزين من آفة الإدمان. ولدى خروجه، بدا الجنرال أكثر تورطاً وهو يضافحنا فرداً فرداً. وقد تأخر أكثر قليلاً في مصافحتي. نظر إلى عيني مباشرة بعينيهِ الثابيتين، وقال لي:

- أنت ستصل بعيداً.

ظفر قلبي من مكانه، فقد فكرت في أنه ربما يعرف كل شيء عني، وأن البعيد الذي سأصل إليه، في نظره، قد يكون الموت. وعندما اجتمع المدير مع ثابالا على انفراد، ليطلععه على محادثته مع الجنرال، كشف له عن أن الجنرال يعرف من يكتب كل تعليق في الجريدة، باسمه وكنيته. وقد قال له المدير، بإيماء خاصة قمبه، إن كل ما يكتب يتم بأمر منه، وإن الأوامر في الصحف، تنفذ مثلما في الثكنات العسكرية. ولكن الجنرال نصح المدير، على أي حال، بأن يهتدي الحملة، فقد يظهر متوحش، من رجال الكهوف، راغب في إحقاق العدالة باسم حكومته. فهم المدير المغزي من ذلك، وقهمتا جميعتا حتى ما لم يقله. وكان أكثر ما فاجأ المدير هو تباهي الجنرال بمعرفة تفاصيل الحياة الداخلية في الجريدة، كما لو أنه يعيش فيها، جميعتنا كنا موقنين بأن عميله السري هو الرقيب، على الرغم من أن هذا الأخير أقسم برفات أمه، أنه ليس الواشي. الشيء الوحيد الذي لم يحاول الجنرال الإجابة عليه، خلال زيارته، هو سؤالنا اليومي. وقد نصحننا المدير، المعروف بحكمته، بأن نصدق ما قاله لنا، لأنه يمكن للحقيقة أن تكون أسوأ بكثير.

منذ أن التزمت بالحرب ضد الرقابة، لم أعد أعبأ بالجامعة، ولا بالقصص القصيرة. ولحسن الحظ، أن معظم الأساتذة لم يكونوا يجرون تفقداً للحضور، مما كان يسهل حضور الدروس والتغيب عنها. أضف إلى ذلك أن الأساتذة الليبراليين الذين يعرفون مشاكلهم مع الرقابة، كانوا يعانون أكثر مني وهم يبحثون عن طريقة لمساعدتي في الامتحانات. واليوم، بينما أنا أحاول رواية تلك الأحداث، لا أجد أثراً لتلك الأيام في ذاكرتي. وقد انتهى بي الأمر إلى الإيمان بالنسيان أكثر من الذاكرة.

نام أبواي مطمئنين، منذ أن أعلمتهما بأنني أكسب في الجريدة، ما يكفيني للعيش. لم يكن ذلك صحيحاً. فراتبني الشهري كمتدرب، لم يكن يكفيني أسبوعاً. وقبل انقضاء ثلاثة شهور، تركت الفندق بديون لا يكتفي تسديدها. وقد قايضتني عليها صاحبة الفندق، فيما يعد، بنشر ملاحظة في صفحة المجتمع عن عيب مبلاد حفيدتها الخامس عشر، ولكنها لم توافق على مثل تلك الصفقة، سوى مرة واحدة.

مكان النوم الأكثر ارتياداً وبرودة في المدينة، كان لا يزال شارع الشهداء، حتى في أزعمة حظر التجوال. فقد كنت أنام هناك جالساً، بعد أن تنهي السهرات التي تستمر حتى الفجر. وفي أحيان أخرى، كنت أنام في مستودع الجريدة، فوق لفافات الورق، أو أذهب حاملاً أرجوحة نومي الشبكية، تحت إبطي، إلى غرف طلاب آخرين عاقلين، ما داموا قادرين على تحمل كوابيسي وعادتي السيئة بالكلم نائماً. هكذا عشت تحت رحمة الحظ والقدر، أكل ما أجده وأنام حيث يشاء الله، إلى أن اقترحت عليّ قبيلة آل فرانكو مونيرا الإنسانية، أن تقدم لي الوجبتين اليوميّتين بسعر أقرب إلى الإحسان. كان والد القبيلة سبوليفار فرانكو

باريخا - معلماً تاريخياً في المدارس الابتدائية، ورب أسرة مريحة ومتعصبة، تضم فنانين وكشاًباً. فكانوا يجبرونني على أن أكل، أكثر مما كنت أدفعه لهم، كيلا يجف دماغي. وفي أحيان كثيرة، لم يكن لدي ما أدفعه، ولكنهم كانوا يكتفون بأشعار ألقبها عليهم بعد تناول الطعام. وكانت نسبة كبيرة من تلك الصفقة المشجعة، هي مقاطع لدون خورخي مانريكي في موت أبيه، و"أغنيات الفجر" لغارسيا لوركا.

المواخير المكشوفة في العراء على شواطئ تيسكا، بعيداً عن صمت سور المدينة المقلق، كانت أكثر ضيافة من فنادق السباح على الشواطئ. وكنا حوالي ستة طلاب جامعيين نلتقي في "البجعة" منذ ليلة التحضير للامتحانات الأولى، تحت أنوار فناء الرقص المبهر. كان نسيم البحر وجوار السفن عند الفجر، يرأسنا من صخب النحاسيات الكاريبية، ومن إثارة الفتيات اللواتي يرقصن دون سراويل داخلية، ويتناثر واسعة جداً، يرفعها هواء البحر حتى خصورهن. وبين حين وآخر، تدعونا عصافير نحن إلى أبيها، للنوم مع نزر الحب اليسير المتبقي لديها، عند الفجر، إحداهن، وما زلت أتذكر اسمها وحجمها جيداً. أسلمت نفسها لإغواء الادعاءات المتبجعة التي كنت أرويها لها، وأنا نائم، ويفضلها نجحت بمادة القانون الروماني، دون تلاعبات لفظية؛ وأقلت من عدة مداخلات. عندما حظرت الشرطة النوم في الحدائق. كنا متفاهمين كزوجين منتفعين. ليس في السرير فقط، وإنما كذلك، في الأعمال المنزلية التي كنت أقوم بها بدلاً منها، في الفجر، لكي تتمكن هي من النوم بضع ساعات إضافية.

في أثناء ذلك، بدأت أستقر جيداً في عملي، في كتابة التعليقات الافتتاحية. وكنت أعشيره على الدوام، شكلاً أقرب إلى الأدب، منه إلى

الصحافة. كانت بوغوتا كابوساً من الماضي، على مسافة مئتي فرسخ، وعلى ارتفاع أكثر من ألفي متر فوق سطح البحر، لا أذكر منها إلا عفونة رماء التاسع من نيسان، وكنتُ ما أزال غارقاً في حمى الفنون والآداب، لا سيما في مسامرات منتصف الليل. ولكنني بدأت أفقد الحماس في أن أصير كاتباً. وكان ذلك صحيحاً إلى حد أنني لم أعد إلى كتابة قصة واحدة، بعد القصص الثلاث التي نُشرت في الاسبيكتاتور. إلى أن عشر علي إدواردو ثالاميا في أوائل شهر تموز، وطلب مني، بوساطة من المعلم ثابالا، أن أُرسل إليه قصة أخرى لنشرها في جريدته، بعد ستة شهور من الصمت. ولأن الطلب جاء منه، استجمنت، كيما اتفق، بعض الأفكار الضائعة في مسوداتي، وكتبت "الضلع الآخر للموت"، وكانت أكثر قليلاً من الشيء نفسه. أذكر جيداً أنه لم يكن لها أي موضوع مسبق، فرحت أختلقه في أثناء كتابتها. وقد نُشرت يوم الخامس والعشرين من تموز ١٩٤٨، في ملحق "نهاية الأسبوع"، مثل مايقاتها. ولم أعد إلى كتابة مزيد من القصص، حتى السنة التالية، عندما كانت حياتي قد تبدلت. لم يكن ينقصني إلا التخلي عن دروس الحقوق القليلة التي أتابعها، بين حين وآخر، ولكنها كانت الوسيلة الوحيدة لإلهاء حلم أبوي.

لم أكن أنا نفسي، أنصور آنذاك، أنني سأكون عما قريب، طالباً أفضل مما كنته في أي وقت آخر، في مكتبة غوستافو إيبارا ميرلانو، وهو صديق جديد، عرفني عليه ثابالا وروخاس هيراثو بحماس كبير. كان قد رجع لثود من بوغوتا، بشهادة من دار المعلمين العليا، وانضم فوراً إلى مسامرات الأصدقاء، في الأونيفرسال، ومناقشات الفجر في

شارع الشهداء. وبين طلاقة لسان هكتور البركانية وارتياحية ثابالا الخلاقة، أسهم غوستافو بإضافة الصرامة المنهجية التي كانت تفتقد لها كثيراً، أفكاره المرتجلة والشعثة، وخفة قلبي. وكل هذا وسط رقة كبيرة وطبع حديدي.

منذ اليوم التالي، دعاني إلى بيت أبويه على شاطئ ماريبيبا، حيث يشكل البحر الفصح قنا، خلفياً. وكانت فيه مكتبة تغطي جداراً كاملاً طوله اثنا عشر متراً، جديدة ومرتبعة، تحفظ فيها الكتب التي لا بد من قراءتها من أجل عيش الحياة دون تأنيب ضمير. كانت هناك طبعات لأعمال الكلاسيكيين الإغريق، واللاتينيين، والإسبان، معننى بها جيداً كما لو أنها لم تُقرأ، لكن هوامش صفحاتها تحمل خريشة ملاحظات حكيمة، بعضها باللاتينية. وكان غوستافو يقرؤها بأعلى صوته. وحين ينطق بها يحمر خجلاً، حتى جذور شعره، ويحاول هو نفسه أن يجد مخرجاً لها بسخریات لاذعة. لقد قال لي عنه أحد الأصدقاء، قبل أن أتعرف إليه: "هذا الشخص خوري". وسرعان ما أدركت السبب في سهولة تصديق ذلك، على الرغم من أنه، بعد التعرف إليه، كان من شبه المستحيل، تصديق أنه ليس كذلك.

في تلك الليلة الأولى، تبادلنا الحديث، دون توقف، حتى الفجر. وعرفت أن قراءاته كانت طويلة ومتنوعة، ولكنها مدعمة بمعرفة متعمقة لأعمال المثقفين الكاثوليكين المعاصرين، ممن لم أكن قد سمعت بهم قط. كان يعرف كل ما يجب معرفته عن الشعر، خاصة أشعار الكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين الذين يقرأ أعمالهم في طبعات أصلية. وكانت لديه، أحكام تستند إلى معطيات جيدة، عن أصدقائنا

المشاركين. وقد قدم لي معلومات قيمة، لكي أحبهم أكثر. وأكد لي كذلك، أهمية التعرف على صحفيي بارانكيثا الثلاثة - سيبيدا، وبارغاس، وفورتنابور - الذين طالما حدثني عنهم روخاس هيراثو والمعلم تابالا. وقد لفت انتباهي أنه، فضلاً عن كل مزاياه الفكرية والتمدية، يتقن السباحة، كبطل أولمبي، بجسد مصاغ ومدرب ليكون كذلك. وكان أكثر ما ألفتني بشأنه، هو ازدرائي للكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين الذين يبدون لي، نملين وغير مفيدتين، باستثناء الأوديسة التي كنت قد قرأتها وأعدت قراءتها، منفردة، عدة مرات في المعهد. وهكذا، وقبل أن يودعني، اختار من المكتبة، كتاباً مجلداً بالجلد، وقدمه إلي، بنوع من الوفاق قائلاً: "يمكن لك أن تصبح كاتباً جيداً، ولكنك لن تكون جيداً جداً على الإطلاق، ما لم تتعرف بعنق، على الكلاسيكيين الإغريق." كان الكتاب هو الأعمال الكاملة لسوفوكليس. وكان غوستافو، منذ تلك اللحظة، أحد الأشخاص الحاسمين في حياتي، لأن أوديب ملكاً تكشف لي من القراءة الأولى، عن أنها العمل كامل الإتقان.

لقد كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي، لأنني اكتشفت فيها غوستافو إيبارا وسوفوكليس في الوقت نفسه، ولأنه كان يمكن لي، بعد ساعات من ذلك، أن أموت ميتة سيئة في حجرة خطيشي السرية في "البجعة". أتذكر كما لو أن ذلك حدث بالأمس، عندما قام وصي قديم عليها، كانت نظته ميتاً منذ أكثر من سنة، بتحطيم باب غرفتها ركلاً، وهو بصرخ بشأنه من به نرس. تعرفتُ فيه فوراً على زميل طيب من زملائي في مدرسة أراكاتاكالا الابتدائية، عائد والسخط يملؤه لستعيد موقعه

في فراشها. لم يكن أحدنا قد رأى الآخر منذ ذلك الحين، وقد أهدى سلامة ذوق، بتجاهله ما جاء من أجله، عندما تعرف علي وأنا عاب، يضمخني الرعب في السرير.

تعرفتُ في تلك السنة أيضاً على راميرو وأوسكار دي لا إسبيريتا، وهما محدثان لا يملآن الحديث، ولا سيما في البيوت التي تحظرها الأخلاق المسيحية. كلاهما كان يعيش مع أبويه في تورياكو، على بعد ساعة من كارتاخينا، ويظهريان كل يوم تقريباً، في مسامرات الكتاب والفنانين في صالة أمير كانا للمثلجات. كان راميرو، خريج كلية الحقوق في بوغوتا، مقرباً من جماعة جريدة الأونيفرسال. وفيها كان ينشر عموداً طوعياً. كان أبوه محامياً صلياً وليبرالياً غير متزمت، وكانت زوجته امرأة محببة، ولا تستطيع أن تكتم سراً. وكلاهما يشجع بالعبادة الحميدة في تبادل الحديث مع الشباب. وقد قدما لي، خلال محادثاتنا الطويلة، تحت أشجار الدردار الوارفة في تورياكو، معلومات لا تشمن حول حرب الألف يوم، ذلك المعين الأدبي الذي جف بعد موت الجد. ومنهما ما زلتُ أحتفظ إلى الآن، بالرؤية التي أظنها أكثر دقة للجنرال رافائيل أوربي أوربي، بحضوره المهيّب ومقاس معصيه.

أفضل شهادة عن الوضع الذي كنا عليه، أنا ورامون، في تلك الأيام، جسده في لوحة زيتية على القماش، الرسامة سيسيليا بوراس التي كانت تشعر، في حفلات الرجال الصاخبة، كما لو أنها في بيتها، على الرغم من استنكار وسطها الاجتماعي. كانت اللوحة رسماً لنا نحن الاثنين، جالسين إلى طاولة المقهى الذي كنا نلتقي فيه معها ومع أصدقاء آخرين، مرتين كل يوم. عندما أراد كل واحد منا، أنا ورامون،

أن يمضي في طريق مختلف، دار بيننا جدل لا مجال فيه للاتفاق، حول من هو صاحب اللوحة. وقد حلت سبيليا الأمر بالمعادلة السلمانية، إذ قصت اللوحة إلى نصفين ينقص تقليد أشجار، وأعطت كل واحد منا قسمه. بقي النصف الخاص بي ملفوفاً. لسنوات بعد ذلك، في خزانة شقة في كاراكاس، ولم أستطع استرداده قط.

على خلاف بقية أنحاء البلاد، لم يخلف العنف الرسمي تأثيره في كارتاخينا حتى بدايات تلك السنة، عندما جرى اختيار صديقنا كارلوس أليمان نائباً في المجلس البلدي المحلي. عن دائرة موميوكس الانتخابية الموقرة جداً. كان محامياً خارجاً لثوره من القرن، وذا طبع مرح؛ ولكن الشيطان مازحه بتلك الدعاية الخبيثة، حيث جرى في الجلسة الافتتاحية تبادل إطلاق نار بين الحزبين المتضادين، وأحرقت رصاصه طائشة كثيفة سترته. ولا بد أن أليمان قد فكر، بمبررات حميدة، في أن سلطة تشريعية غير ذات نفع، مثلما هي عندنا، لا تستحق أن يضحى المرء بحياته من أجلها. وفضل أن يُنفق حبيبته مقدماً، مع صحة طيبة من أصدقائه.

كان أوسكار ذي لا إسبرييا، وهو محب من الطراز الأول للهو والقصف، يتفق مع وليم فوكتر في أن الماخور هو أفضل مقر إقامة للكاتب. لأن الصباحات فيه تكون هادئة، وهناك حفلة في كل ليلة، وعلاقة جيدة بالشرطة. وقد تبلى النائب أليمان ذلك الرأي بحذائيره، وصار ضيفنا طوال الوقت. ومع ذلك، فقد تدمت في إحدى تلك الليالي، لأنني صدقت أوام فوكتر؛ عندما اندفع حام قديم لصاحبة الماخور، ماري ريبس، وحطم الباب ليأخذ ابنتها الذي كان يعيش معها.

وعمره حوالي خمس سنوات، فخرج حامياها الحالي، وهو ضابط شرطة، من غرفة النوم بسرواله الداخلي، ليدافع عن شرف وممتلكات البيت، بمسدسه النظامي، فاستقبله الآخر برشقة رصاص دوت مثل قذيفة مدفع في قاعة الرقص. فارتعب رقيب الشرطة، ولاذ بغرفته للاختباء. وعندما خرجت من غرفتي، وأنا نصف عار، كان التزلاء العائزون يراقبون من غرفهم، الطفل الذي يبول في نهاية الممر، بينما الأب يسد له شعره بيده اليسرى، ويمسك بيده اليمنى، المسدس الذي مازال الدخان يتصاعد منه. ولم تكن تُسمع في أجواء البيت سوى شتائم ماري، وهي تؤنب الرقيب لأنه جبان يفتر إلى خصيتين.

في تلك الأيام بالذات، دخل إلى مكاتب الأوتيفرسالي، رجل مناد، خلع قميصه بحسن مسرحي كبير، وراح يمشي في قاعة التحرير ليفاجتنا بظهره وذراعيه المغطاة بقروح تبدو كما لو أنها من الاسنت. وأوضح لنا بصوت زاعد، وهو منفعل من الدهشة التي أثارها فينا، سبب تلك الآثار التي في جسده:

- إنها خرمشات أسود!

الرجل هو إيميليو رازوري، وكان قد وصل لتوه إلى كارتاخينا، للإعداد لموسم السيرك الشهير الذي يملكه، وهو أحد أكبر سيركات العالم. كان السيرك قد غادر هافانا في الأسبوع السابق، في عابرة المحيطات أوسكيرا التي ترفع العلم الإسباني. ومن المنتظر وصوله يوم السبت التالي. وكان رازوري يتباهى بأنه وُجد في السيرك منذ ما قبل مولده. ولم تكن ثمة حاجة لرؤية استعراضه لاكتشاف أنه مروض حيوانات ضارية. كان يدعوها بأسمائها الخاصة، مثلما يدعو أفراد

أسرته، فترد عليه بمعاملة حميمة وفظة في الوقت نفسه، قهر يدخل أعزل إلى أقباص النور والأسود، ليقدم إليها طعامها بيده. وقد احتضنته، في إحدى المرات، ذبه المدلل في عناق حب أقباء في المستشفى ربيعاً كاملاً. ومع ذلك، لم يكن هو نفسه جاذبية السيرك الكبرى، ولا عرض أكل النار كذلك، وإنما الرجل الذي كان يفك رأسه ويتمشى حول الحلبة، واضعاً الرأس تحت إبطه. ما لا يمكن تسيانته من إميليو رازوري، هو تمسكه الراسخ بالحياة، وبعد الاستماع إليه بانيهار، على امتداد ساعات طويلة، نشرت في الأونيفرسال تعليقاً افتتاحياً عنه، تجرأت فيه على الكتابة بأنه "أكثر الرجال الذين عرفتهم هولاً في إنسانيته". ولم يكن من تعرفت إليهم كشيرين، وأنا في الحادية والعشرين من عمري. ولكن تلك الجملة ما تزال صالحة، على ما أظن، حتى الآن. كنا نتناول طعامنا في "الكهف" مع العاملين في الصحيفة، وقد صار محبوباً هناك أيضاً بقصصه عن الضواير المأسسة بالمحب، وفي واحدة من تلك الليالي، بعد طول تفكير في الأمر، تجرأت على الطلب منه بأن يأخذني في سيركه، ولو لتنظيف الأقباص، عندما لا تكون النور بداخلها. لم يقتل لي شيئاً، ولكنه مد لي يده بصمت. فنهمت ذلك على أنه كلمة سر خاصة بالسيرك، واعتبرت الاتفاق ناجزاً. الشخص الوحيد الذي اعترفت له بذلك، كان سلفادور ميسا نيشوس، وهو شاعر أنتيوكي (من أنتيوكيا)، يعيش خيمة السيرك إلى حد الجنون، خضر لثوه إلى كآ وتاخينا كشريك محلي لرازوري. وكان هو نفسه قد ذهب مع سيرك كذلك، عندما كان في مثل ستي، فحذرني من أن من يرون المهرجين، يكون أول مرة، يرغبون في الذهاب معهم، ولكنهم

يتدمون في اليوم التالي. ومع ذلك، لم يكتف بتأييد قراري وحسب، بل أقتنع المروض به، شريطة أن نتكتم على السر، بصورة مطلقة، كيلا يتحول إلى خير قبل أوانه. فتحول انتظاري السيرك إلى رغبة جامحة، بعد أن كان انفعالياً حتى ذلك الوقت.

لم تصل السفينة إوسكيرا في الموعد المحدد. وكان من المستحيل الاتصال بها. وبعد مرور أسبوع آخر، أقمتا من الجريدة خدمة هواة راديو لتتبع الظروف الناحية في الكاريبي. ولكننا لم نتمكن من الحيلولة دون يد، الصحافة والإذاعة في التفكير حول احتمالات الخير المرعب. بقيت أنا وميسا نيتشوس في تلك الأيام، منتوترين مع إميليو رازوري، دون أكل ولا شرب، في غرفته في الفندق، رأيتاه بنهار، يضمح حجماً وقدرة في الانتظار غير النهائي، إلى أن أكد القلب لنا جميعاً أن إوسكيرا لن تصل أبداً إلى أي مكان، ولن تتوفر أية أخبار عن مصيرها. بقي مروض الوحوش يوماً آخر معتكفاً في غرفته، وحيداً. وفي اليوم التالي، زارني في الصحيفة ليقول لي إنه لا يمكن لمدة سنة من المعارك اليومية، أن تتلاشى وتختفي في يوم واحد. ولهذا فإنه سيذهب إلى ميامي، دون مال ودون أسرة، لكي يعيد بناء السيرك الغارق، قطعة قطعة، انطلاقاً من العدم. لقد أذهلني تصميمه على تجاوز المأساة، فرافقته إلى بارانكيا لكي أودعه في الطائرة الذاهبة إلى فلوريدا. وقيل أن يصعد إلى الطائرة، شكرني على قراري بالانضمام إلى سيركه، ووعدني بأن يبعث في طلبي فور أن تتوفر لديه شيء ملموس. ودعني بعناق مستهتر، فهمت به من أعماق روحي، كيف هو حب أسوده. ولم أعد أعرف أي شيء عنه منذ ذلك الحين.

أقلعت الطائرة إلى ميامي في الساعة العاشرة من اليوم نفسه الذي ظهر فيه تعليقي عن رازوري في الجريدة؛ يوم السادس عشر من أيلول ١٩٤٨. وكنت أستمع للعودة إلى كارتاخينا في مساء ذلك اليوم بالذات. عندما خطر لي زيارة إناسيونال، الجريدة المسائية التي يكتب فيها خيرمان بارغاس والفارو سييدا، صديقاً أصدقائي في كارتاخينا. كانت مكاتب تحرير الجريدة في بناء متأكل في المدينة القديمة، تتألف من صالة طويلة فارغة، يقسمها حاجز شرفة خشبي. وكان في أقصى الصالة، رجل شاب أشقر، يرتدي قميصاً قصير الكمين، ويكتب على آلة كاتبة تدوي ملامسها كأنها المفرعات في الصالة المقفرة. اقتربت على رؤوس أصابعي تقريباً، مغزعاً من طقطقة خشب الأرضية الكثيب، وانتظرت عند الشرفة إلى أن نظر إليّ، وقال لي بهجاء، وبصوت مذبذب معترف، متناسق:

- ماذا تريد؟

كان شعره قصيراً، ووجنتاه قاسيتين. وبدت لي عيناه الصافيتان والحادتان متضايقتين من المقاطعة. فأجبتة كيفما استطعت، وحرفاً حرفاً:

- أنا غارسيا ماركيز.

ولدى سماعي اسمي منظوقاً بتلك القناعة، أدركت أنه يمكن لخيرمان بارغاس ألا يعرف من أكون، بالرغم من أن كثيرين في كارتاخينا، أخبروني بأنهم قد تحدثوا عني كثيراً مع أصدقائهم في بارانكيا منذ أن قرؤوا قصتي القصيرة الأولى. وكانت جريدة إناسيونال قد نشرت تعليقياً متحمساً، كتبه خيرمان بارغاس الذي لا يتساهل مع المستجدات الأدبية. ولكن الحماس الذي قابلني به أكد لي أنه يعرف

جيداً من أكون، وأن عاطفته أكثر صدقاً مما قيل لي. بعد ساعات من ذلك، تعرفت على ألفونسو فنونمايور والفارو سييدا في مكتبة "موندو"، وتناولنا المقيلات معاً في مقهى كولومبيا. أما دون رامون فينيس، الحكيم الكتلاي الذي كنت أرغب، بلهفة ورهبة شديدتين، في التعرف إليه، فلم يحضر في مساء ذلك اليوم إلى جلسة الأصدقاء في الساعة السادسة. عندما خرجنا من مقهى كولومبيا، بعد تناول خمسة كؤوس من الشراب، كنا نبدو كأننا أصدقاء، يعرف بعضنا بعضاً منذ سنوات.

لقد كانت ليلة طويلة من البراعة. نالفارو، السائق العبقري الأكثر ثقة بنفسه، والأكثر حذراً، كلما زاد في الشراب، قام باجتياز طريق المناسبات التاريخية. ففي "لوس ألتدروس"، وهي حانة في الهواء الطلق، تحت أشجار لوز مزهر، لا يستقبلون فيها سوى مشجعين متعصبين لنادي جونيور الرياضي، نشب نزاع بين عدة زبائن، أوشك أن ينتهي باللكمات. فحاولت تهدئتهم إلى أن تصحني ألفونسو بعدم التدخل، لأن رواد ذلك المكان هم دكاترة في كرة القدم، ويستأذون جداً من تدخل دعاة السلام. وهكذا أمضيت تلك الليلة في مدينة مختلفة تماماً، عن تلك التي عرفتتها من قبل، وعن التي عرفتها أبواي في سنواتهما الأولى. وعن مدينة سنوات الفقر التي عشناها مع أمي، وعن مدينة مدرسة سان خوسيه، إنها بارانكيا الأولى الخاصة بي، كبائع، في فردوس مواخيرها.

كان المحي الصيني عبارة عن أربعة شوارع تضج بموسيقى معدنية ترج الأرض، إلا أن فيه كذلك، منعطفات خدمة منزلية تقارب الإحسان.

كان هناك مواخير أسرية يعكف أصحابها، مع نسائهم وأبنائهم، على خدمة زبائنهم المجرمين، وفق قواعد الأخلاق المسيحية وقدن دون مانويل أنطونيو كارينيو، ويعمل بعضهم كفيلاً لكي توافق الفتيات المستجدات على مضاجعة الزبائن المعروفين بالدين، وكانت أقدمهن، مارتينا ألفارادو، تملك باباً سرياً وتعرفه إنسانة خاصة بالكهنة الثانيين، لم تكن هناك مشروبات مزيقة، ولا أحسابات سكر، ولا مفاجآت أمراض زهرية، وكانت آخر الحبيرات الفرنسية اللواتي جئن خلال الحرب العالمية الأولى، معتلات وكشييات، يجلسن منذ الغروب، عند أبواب بيوتهن، تحت بقعة ضوء المصابيح الحمراء، بانتظار جيل ثالث من الزبائن، يؤمن بالقدرة الشيقية لأوقباتهن الذكرية. وكانت هناك بيوت فيها صالونات ميرة لأجتماعات المتأمرين، ولتوفير ملاذ للعهد الهاريين من زوجاتهم.

كان ماخور "القط الأسود"، مع فتاة رقص تحت عريشة نبات متسلقة، فردوس البحرية التجارية، منذ أن اشترته غواخيرية ذات بشرة برونزية تغني بالإنكليزية، وتبيع من تحت الطاولة، سراهم هذيانية للسيدات والسادة. وفي ليلة تاريخية من حولياته، لم يستطع ألفارو سيبينا وكينكي سكوبيل تحمل عنصرية اثني عشر بحاراً نرويجياً، ينفون بالدور أمام حجرة الموصى الزنجية الوحيدة، بينما هناك ست عشرة بيضا، يشخرن جالسات في الفناء، فتحدياهن باللكمات، وخاض الاثنان مواجهة، بالقبضات وحدها، ضد الاثني عشر بحاراً، وأجبروهم على الفرار بمساعدة الموصيات البيضات اللواتي استيقظن سعيدات، وأجهزن عليهم بالضرب بالكراسي. وأخيراً، في ترضية هذيانية، توجهوا الزنجية، وهي غارية، ملكة على الترويج.

كانت هناك، خارج الحي الصيني، بيوت عثية أو سرية أخرى، وجميعها على علاقة جيدة بالشرطة. أحدها كان فناء أشجار لوز كبيرة مزهرة في حي فقراء، فيه خيمة بائنة ومخدع بسريرين ضيقين للإيجار. أما بضاعته فكانت صغيرات مصابات بفقر الدم من الجوار، يكسبن مبلغ ييزو، دفعة واحدة من السكاري فاقد الرشد. لقد اكتشف ألفارو سيبينا المكان فصادفة، في مساء يوم ضل فيه الطريق، خلال وابل مطر تشريني، واضطر إلى اللجوء إلى الخيمة، فدعته صاحبة المحل لتناول البيرة، وعرضت عليه طفلتين بدلاً من واحدة، مع الحق بأن يكرر ذلك ريثما يتوقف المطر، وقد واصل ألفارو دعوة الأصدقاء لتناول البيرة المثلجة تحت أشجار اللوز، ليس من أجل مضاجعة الفتيات الصغيرات، وإنما لتعليمهن القراءة. وقد تمكن من الحصول على منح لأكثرهن مواظبة، كي يدرسن في المدارس الرسمية، وصارت واحدة منهن محروسة في مستشفى الإحسان، بعد عدة سنوات، وأهدي البيت إلى السيدة، وحمل بيت الصغيرات البائس ذاك حتى انقراضه الطبيعي، اسماً مغريباً: بيت الفتيات اللواتي يضاجعن بدافع الجوع.

لم يختاروا لليلتي التاريخية الأولى في بارانكيا، سوى بيت الزنجية أوفيميا، بفنائها الإسمتي الفسيح المخصص للرقص، بين أشجار ثمر هندي وأرقة، وبأكواخه التي تزجر بخمسة ييزوات في الساعة، وموائده وكراسيه المظلية بألوان زاهية، تتمشى في ما بينها الكروانات على هواها. وكان أوفيميا الهائلة والثوية، تستقبل بنفسها الزبائن وتنتقيهم عند المدخل، وراء منضدة مكتب لا يوجد عليه سوى شيء واحد - لا تفسير له - هو مسمار ضخم من مسامير الكنيسة، وكانت هي

نفسها تتولى اختيار الفتيات، وفقاً لحسن تربيتهن ومفاتيهن الطبيعية. وتختار كل واحدة من الفتيات لنفسها الاسم الذي يروقها. وبعضهن كن يفضلن الأسماء التي يطلقها عليهن ألفارو سيبيدا، والمستعدة من ولعه بالسبنا المكسيكية؛ إربما الحبيشة، سوزانا الشقية، عذراء منتصف الليل.

كان يبدو، من المستحيل، تبادل الحديث بوجود أوركسترا كاريبية متتشبة، بأعلى صوتها. بأغنيات المامبر الجديدة التي يغنيها بيرث برادو، ولحقة غناء بوليرو، لتبيان الذكريات السينة. ولكننا كنا جميعنا خيراً، في تبادل الحديث والتقاش، صارخين. وكان خيرمان وألفارو هما من أثارا موضوع النقاش في تلك الليلة، حول العناصر المشتركة في الرواية والريپورتاج الصحفي. وكانا متحمسين للريپورتاج الذي نشره للتو، جون هيرسي حول قبيلة هيروشيما الذرية. أما أنا فكنت أفضل "يوميات سنة الطاعون" كشهادة صحفية مباشرة، إلى أن أوضح لي الآخرون بأن دانييل ديفو لم يكن قد تجاوز الخامسة أو السادسة من عمره، عند انتشار الطاعون في لندن. وهي الحالة التي استخدمها كنموذج.

وعبر هذا الطريق، وصلنا إلى لغز الكونت دي مونت كريستو. وكان الثلاثة قد خاضوا حوله مناقشات سابقة، باعتباره أحجية للروائيين؛ كيف تمكن ألكسندر دوماس من جعل بحار ساذج، وجاهل، وفقير، ومسجون دون قطبة. يتمكن من الهرب من قلعة محصنة، ويتحول إلى أغنى رجال عصره، وأكثرهم ثقافة؛ وكان الجواب هو أنه عندما دخل إدmond دانتس إلى قلعة إيف، كان قد تشكل فيه الأباتي فاريا، وهو

الذي نقل إليه في السجن، خلاصة حكمته ومعارفه. وكشف له عما يتوجب عليه معرفته في حياته الجديدة: المكان الذي يخبأ فيه كنز خراقي، وطريقة الهرب. هذا يعني أن دوماس قد صاغ شخصيتين مختلفتين، ثم عمد بعد ذلك، إلى تبديل مصيريهما. وهكذا، عندما هرب دانتس، كان قد صار شخصية ضمن شخصية أخرى. وكان الشيء الوحيد المتبقي منه هو جسده، كراو جيد.

كان من الواضح، لدى خيرمان، أن دوماس تعمد جعل شخصيته بحاراً، لكي يتمكن من الهرب من الكيس، والسباحة حتى الشاطئ، عندما يلقون به إلى البحر. أما ألفونسو واسع المعرفة وأكثر الثلاثة تحييصاً، فقد رد بأن كون الشخصية بحاراً، لا يضمن ولا يعني أي شيء. لأن سبعين بالمئة من بحارة كريستوف كولومبس، ما كانوا يتقنون السباحة. لم يكن هناك ما يسعده أكثر من إلقاء ذرات الفلفل تلك، لكي يفقد الطبيع أي طعم من الحذقة. وفي خضم حماسي للعبة الألغاز الأدبية تلك، رحت أحسني دون حساب، كنوساً من الروم مع الليسون. بينما كان الآخرون يتناولون في رشقات تذوق صغيرة. وكانت النتيجة التي توصل إليها الثلاثة هي أن موهبة دوماس، وتلاعبه بالمعطيات، في تلك الرواية، وربما في كل أعماله، هي أقرب إلى موهبة وتلاعب كاتب ريپورتاجات صحفية، منها إلى روائي.

وقد انضح لي في النهاية، أن أصدقائي الجدد يقرؤون كينيدي وجيمس جويس، بالجد والمنفعة نفسيهما اللذين يقرؤون بهما كورنان دويل. وأنهم يتمتعون بحس دعاية لا ينضب. ويمكن لهم قضاء ليالٍ بطولها، وهم يغنون أغنيات بوليرو وفابناتو، أو يلقون عن ظهر قلب، ودون تلعثم،

أفضل أشعار العصر الذهبي، وقد توصلنا، عبر سبل مختلفة، إلى الاتفاق على أن ذروة الشعر العالمي هي مقاطع دون خورخي مانريك في موت والده، تحولت الليلة إلى تسلية تمتعة، قوضت آخر الأحكام المسبقة التي يمكن لها أن تعكر صداقتي لتلك العصابة من المرضى الأدبيين، لقد أحسست معهم، ومع الزوم، بأنني على أحسن حال؛ فأزحت عن نفسي قيود الحياة، دعنتي سوزانا الشقية إلى الرقص، وكانت قد كسبت في شهر آذار من تلك السنة، مسابقة الرقص في الكرنفال، فأبعدوا الدجاج والكروانات من الخلية، وأحاطوا بنا لتشجيعنا.

رقصنا مجموعة أغنيات المامبو الخاصة لداماسو بيريث برادو، واستوليت، بما تبقى لي من أنفاس، على الماراكاس^(١) من مصطبة الفرقة الموسيقية الثروبيكالية، وغنيت طوال أكثر من ساعة، أغنيات بوليو لدانييل مانتوس، وأغوسطين لارا، بينينيدو غرانادا، وكلما غنيت أكثر، أحسست بأنني أنتشي بنفحة حرية، لم أعرف قط، إذا ما كان الثلاثة فخورين بي أم خجلين مني، ولكنني، عندما رجعت إليهم على المائدة، استقبلوني كواحد منهم.

كان ألفارو قد بدأ، عندئذ، موضوعاً لم يناقشه الآخرون من قبل؛ السينما. فكان بالنسبة لي، أشبه بلقبة وفرتها العناية الإلهية، لأنني كنت أعتبر السينما على الدوام، فناً قريعاً يتغذى على المسرح أكثر من تغذية على الرواية. أما ألفارو بالمقابل، فكان يرى فيه إلى حد ما، ما أراه أنا في الموسيقى؛ فناً مفيداً لكل الفنون الأخرى.

(١) - الماراكاس las maracas: آلة موسيقية كاريبية، تتألف من ثنية قرع مجوفة تزود بحبيبات، وتوضع فيها أحجار.

عند الفجر، كان ألفارو يقود السيارة المترعة بكتب حديثة الصدور، وملاحق نيوبيورك تايمز الأدبية، وهو بين النائم والخمور، مثل سائق تكسي محترف. أوصلنا خيرمان وألفونسو إلى بيتيهما، وأصر ألفارو على أن يأخذني إلى بيته، لكي أتعرف على مكتبته التي تغطي ثلاثة جدران، من حجرة النوم، حتى السقف، وقد أشار بسيابته إلى الكتب، بحركة دائرية كاملة، وقال لي:

- هؤلاء هم الكتاب الرحيدون في العالم الذين يعرفون كيف يكتبون.

كنت في حالة انشلاء، جعلني أنسى ما كان يعنيه الجوع والنعاس بالأحسن. كان الكحول لا يزال حياً في داخلي، كأنه حالة نعمة ربانية. أراني ألفارو كتيبة المفضلة، بالإسبانية والإنكليزية، وكان يتحدث عن كل واحد منها بصوته الصدى، وشعره المشعث، وعينيه الزائغتين أكثر من أي وقت آخر، تكلم عن أثورين وعن سارويان - وهما نقطتا ضعف لديه - وعن آخرين، يعرف حيواتهم العامة والخاصة، حتى سراويلهم الداخلية، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها باسم فيرجينيا وولف، وكان هو يسميها العجوز وولف، مثل العجوز فوكنر. وقد استشاره ذهولي حتى بلغ حد الهذيان. تناول كدسة الكتب التي أراني إياها، على أنها كتيبة المفضلة، وضعها بين يدي قائلاً:

- لا تكن أبله، خذها كلها، وعندما تنتهي من قراءتها ستذهب لإحضارها أينما تكون.

لقد كانت تلك الكتب بالنسبة لي، ثروة لا يمكن تصورها، فلم أجزأ على المجازفة بأخذها، وأنا لا أملك حجرة صغيرة بانسة أضعها فيها.

واكتفى أخيراً بأن يهدي إلي الترجمة الإسبانية لرواية فيرجينيا وولف "السيدة ديلوي"، مرفقاً ذلك بنبذة لا تقبل الاستئناف، بأنني سأحفظها عن ظهر قلب.

كان الفجر يبرق، وكنت أرغب في العودة إلى كارتاخينا في أول حافلة. ولكن ألفارو أصر على أن أنام في السرير المجاور لسريره. وقال بآخر نفس لديه:

- يا للعنة! ابق للعيش هنا، وغداً تجد لك وظيفة رائعة.

استلقيت بملابسي على السرير، وعندئذ فقط أحسست، في جسدي، بالثقل الهائل لكوني حياً. وفعل هو الشيء نفسه، وبقينا نائمين حتى الحادية عشرة صباحاً، عندما أقدمت أمه، سارا ساموديو المحيرة والحجولة، على طرق الباب بقبضتها، معتقدة أن ابن حياتها الوحيد قد مات.

- لا تهتم بها يا معلم - قال لي ألفارو من أعماق حلمه، وأضاف: - إنها تقول الشيء نفسه صباح كل يوم. والخطر هو أن ذلك سيكون صحيحاً في أحد الأيام.

رجعت إلى كارتاخينا بزاج شخص اكتشف العالم، لم تعد جلسات ما بعد تناول الطعام، في بيت آل فرانكو مونيرا تقضي، عندئذ، في قراءة أشعار العصر الذهبي الإسباني و"عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة" لنيروذا، وإثماً في قراءة مقاطع من "السيدة ديلوي" وهذيانات شخصيتها المؤثرة سيبتيموس وارن سمث. لقد صرت شخصاً آخر، جزءاً وصعباً، إلى حد أن هيكتور والمعلم ثابالا رأيا في ذلك، محاكاة واعية لألفارو سيبيدا. أما غوستافو إيبارا، برؤيته المشفقة كقلب كاربي، فقد

استمتع بقصتي عن ليلة بارانكيا، بينما هو يقدم لي جرعات أكثر فأكثر حكمة من الشعراء الإغريق، مع الاستثناء الواضح وغير المفسر أبداً، لأعمال يوربيديس. كشف لي عن ملقيل: ماثرة "مربي ديك"، والموعظة العظيمة حول بونس، من خلال صيادي الحيتان المجريين في كل بحار العالم، تحت القبة الهائلة المشيدة من أضلاع الحيتان. وأعازني البيت ذو الأسقف السبعة لثانايال هوثورن الذي أثر بي مدى الحياة. وحاولنا معاً، التوصل إلى نظرية حول حتمية الحنين في تيه إوليسيس الأوديسي، وضرره في الآفاق، حيث ضعننا ولم نجد مخرجاً. ولكنني وجدته محللاً بعد نصف قرن من ذلك، في نص لميلان كوتديرا.

وإلى تلك المرحلة بالذات، يعود لقائي الوحيد مع الشاعر الكبير لويس كارلوس لوبيث، المشهور بلقب "الأعور"، والذي ابتكر طريقة مريحة ليكون ميتاً دون أن يموت، ومدفوناً دون أن يُدفن، وبلا خطابات تكريم قبل ذلك كله. كان يعيش في مركز المدينة التاريخي، في بيت تاريخي يقع في شارع تابلون التاريخي، حيث ولد ومات دون أن يزعم أحداً. كان يرى مع قلة من الأصدقاء الداعمين، بينما كانت سمعته كشاعر كبير، تواصل التعظيم في حياته، مثلما تتعظم أمجاد ما بعد الموت وحدها.

سمي الأعور، دون أن يكون كذلك، لأنه كان في الواقع، أحول وحسب، ولكن بطريقة مختلفة كذلك، ومن الصعب تمييزها. وكان أخوه دومنغو لوبيث إسكاوريانا، مدير جريدة الأوتيفرسال، برد بالجواب نفسه دوماً، على من يسأله عنه:

- إنه هناك.

الجواب يبدو مشهوراً، ولكنه الحقيقة الوحيدة: فقد كان هناك. حياً أكثر من أي شخص آخر، ولكن مع مزية كونه حياً دون أن يُعرف الأمر كثيراً، متنبهاً إلى كل شيء ومصمماً على الذهاب للدفن بقدميه. كان الكلام يدور عنه، كما عن أثر تاريخي، ولا سيما بين من لم يسمعه قط. ولهذا لم أحاول رؤيته منذ وصولي إلى كارتاخينا، احتراماً لامتيازاته كرجل خفي. كان عمره آنذاك ثمانية وستين عاماً، ولم يكن هناك من يخافه الشك في أنه أحد كبار شعراء اللغة، في كل العصور، مع أننا لم تكن كثيرين، نحن الذين نعرف قيمته وسبب تلك القيمة. ولم يكن من السهل، تصديق ذلك، بسبب نوعية أشعاره الغريبة.

ثالها، وروخاس هيراثو، وغوستافو إيبارا، وجمبعنا، كنا نحفظ قصائد من شعرة عن ظهر قلب، وكنا نردها دوماً دون تفكير، بصورة عفوية وصائبة، لكي ندخل الإشراف إلى أحاديثنا. لم يكن من عزل الطباع وإنما خجولاً. لا أتذكر أنني رأيت حتى الآن، صورة له، إذا كان له صورة ما، وإنما بعض رسوم الكاريكاتير السهلة التي كانت تنشر مكان الصورة. وأظن أننا نسينا أنه ما يزال حياً، بسبب عدم رؤيته. وفي أحد الأيام، بينما كنت أنهي مقالتي اليومية، صنعت ضرخة ثالما المختوفة: - يا للجنة. إنه الأعور!

رفعت بصري عن الآلة الكاتبة، ورأيت أغرب رجل شاهدته في حياتي. أقصر بكثير مما كنا نتصوره، وشعر شديد البياض إلى حد يبدو معه أزرق، وشديد التشعث، بحيث يبدو مستعاراً. لم يكن أعور العين اليسرى، وإنما مثلما يشير لقبه، بصورة أفضل: أحول، وكان يرتدي ملابس، كما لو أنه في البيت: بنطال من قماش قطني رقيق وقاتم.

وتنحصر مخطط، يده اليمنى على مستوى الكتف، ومبسم فظي مع سيجارة مشتعلة لا يدخنها، ويسقط رمادها دون نفضه، عندما لا يعود تماسكه ممكناً.

مر، عَرَضاً، حتى مكتب أخيه، وخرج بعد ساعتين من ذلك، عندما لم يبق أحد سواي. أنا وثالما في قاعة التحرير، تنتظر مصافحته. وقد مات بعد حوالي سنتين من ذلك. والهزة المؤثرة التي خلفها في الموالين له، لم تكن بسبب الإحساس بالأسى لموته، وإنما أبعائه. فني أثناء عرضه في التايوت، لم يكن يبدو ميتاً أكثر مما كان عليه، وهو حي.

في تلك الفترة نفسها، ألقى الكاتب الإسباني داماسو ألونسو وزوجته، الروائية أولاليا كالفارياتو، محاضرتين في مدرج الجامعة الكبير. المعلم ثالما الذي لم يكن يروقه أن يزعج حياة الآخرين، تغلب في تلك المرة، على تحفظه، وطلب منهما لقاء. ورافقتاه أنا وغوستافو إيبارا، وهكتور روخاس هيراثو، وقد حدث تفاعل فوري معهما. بقينا قرابة أربع ساعات في قاعة خاصة، في فندق الكاربي، تتبادل الانطباعات حول رحلتها الأولى إلى أميركا اللاتينية، وأحلامنا ككتاب جدد. قدم إليهما هكتور كتاب أشعار، وقدمت أنا إليهما نسخة مصورة من إحدى قصصني المنشورة في الاسبينكنادور. وكان أكثر ما أثار اهتمامنا، نحن الإثنين، هو صراحة تحفظاتهما، لأنهما يستخدمانها كتأكيد موارد للمديح.

في شهر أكتوبر، وجدت في الأونيفرسال، رسالة من غنشالو مابارينو يقول لي فيها: إنه ينتظرنني مع الشاعر ألفارو موتيس في فيلا توليبان، وهو نزل لا ينسى في متجع بوكاغراندي البحري، على

بعد أمتار قليلة من المكان الذي هبط فيه الطيار تشالز ليندبيرغ، قبل نحو عشرين سنة، وكان غوثالو - شريك في جلسات إلقاء الشعر الخاصة في الجامعة - محامياً ممارساً، وقد دعاه موتيس ليتعرف على البحر، بوصفه مدير العلاقات العامة في شركة LANSA، وهي شركة طيران محلية أسسها طياروها بالذات.

كان قد تصادف، مرة واحدة على الأقل، نشر قصائد لموتيس وقصص لي في ملحق "نهاية الأسبوع". وكان لقائنا كافياً لأن نبدأ محادثة لم تنته، في أماكن لا حصر لها من العالم، طوال أكثر من نصف قرن. وكثيراً ما سألنا أولادنا أولاً، ثم أحفادنا بعد ذلك، عم نتكلم بكل ذلك الشغف النضاري. وكنا نجيبهم بالحقيقة: إننا نتكلم دوماً، في الموضوع نفسه.

صدقاتي الإعجازية مع ناضجين في عالم الفنون والآداب، متحتني الحماس لمواصلة العيش في تلك السنوات التي ما زلت أذكرها، على أنها أكثر سنوات حياتي التباساً وتقلباً. في العاشر من تموز، نُشرت آخر مقالة لي في زاوية "نقطة وسط جديد" في الأوليفرسال، بعد ثلاثة شهور عسيرة لم أستطع خلالها، تجاوز حواجز كمثدرب مبتدئ، وفضلت قطعها والخروج بالميزة الوحيدة المتوفرة، ألا وهي الهرب قبل قنات الأذان، لذت بالإفلات من المسؤولية، في تعليقات الصفحة الافتتاحية، دون توقيع، اللهم إلا عندما يتوجب تضمينها لمسة شخصية، واظبت عليها بروتينية محض، حتى أيلول - ١٩٩٥، حيث أنهيتها بمقالة رنانة عن إدغار آلان بو، ميزتها الوحيدة هي كونها الأسوأ.

كنت ألع، طوال تلك السنة، على أن يعلمني المعلم ثابالا أسرار

كتابة الزيبورتاجات الصحفية، ولكنه، بطبعه الغامض، لم يحسم الأمر. غير أنه أبقاني مشوشاً بلغز طفلة في الثامنة عشرة من عمرها، دفنت في دير سانتا كلارا، وغما شعرها بعد موتها، أكثر من منتي مني، خلال قرنين. لم أتصور مطلقاً أنني سأعود إلى الموضوع نفسه، بعد أربعين سنة، لأقصه في رواية رومانسية ذات تداخلات مشؤومة. ولكن تلك الأزمنة لم تكن أفضل أزمتي للشكبير. فقد كنت أغضب لأنفسه الأسباب، وأنغيب عن العمل دون تفسير، إلى أن يرسل المعلم ثابالا من بكيج جماعي وبروضني. نجحت في الامتحانات النهائية لسنة الحقوق الثانية، بضربة حظ، مع حملي مادتين اثنتين، واستطعت التسجيل في السنة الثالثة. وقد انتشرت إشاعة تقول إنني توصلت إلى ذلك النجاح، بفعل ضغوط سياسية من جانب الجريدة. وكان على المدير أن يتدخل، عندما جرى اعتقاله لدى الخروج من السينما، ومعني دفتر تجنيد مزيف، وكانوا قد أدرجوا اسمي في قائمة لتكليف بمهمات أمن عام تأديبية. وبسبب غشاوتي السياسية في تلك الأيام، لم أعلم حتى بأن حالة الطوارئ قد فُرضت من جديد، في البلاد، بسبب تردي الأمن العام. شددت الرقابة من قبضتها على الصحافة، وتخلخلت الأجواء كما في أسوأ الأزمنة، وراحت شرطة سياسية معززة بمجرمين عاديين، تزرع الرعب في الأرياف. أجبر العنف الليبراليين على هجر أراضيهم ومنازلهم. أما مرشحهم المحتمل، داريو إتشانديا، وهو أستاذ أساتذة في القانون المدني، متشكك بالولادة وقارئ صدمي للكتاب الإغريق واللاتينيين، فأعلن عن تأييده لامتناع الليبراليين عن خوض الانتخابات، صار الطريق مفتوحاً لانتخاب لاوريانو غوميث الذي بدا أنه يحرك الحكومة، بخيوط غير مرئية، من نيويورك.

لم أكن أعني بوضوح، في ذلك الحين، أن تلك الأحداث العارضة المشؤومة، ليست مجرد مخاز مشينة يقتربها المحافظون، وإنما هي أعراض تبدلات خبيثة ستطراً على حياتنا، إلى أن خطر لي في واحدة من لياليها الكثيرة في الكهف، أن أتناهى بشيئني في عمل ما أرغب فيه، فأبقى المعلم ثابلاً معلقة الحساء معلقة في الفضاء، بعد أن كان على وشك تناولها، ونظر إليّ من فوق قوس نظارته، وأوقفني بجفاء:

- قل لي يا غابرييل: وسط كل الحماقات التي تمارسها، هل استطعت أن تلاحظ أن هذه البلاد آخذة بالدمار؟

أصاب السؤال الهدف. وبينما أنا مخمور حتى النخاع، استلقت لأنام عند الفجر، على مقعد في شارع الشهداء، فحولني مطر ثوراتي إلى ما يشبه حساء عظام. بقيت أسبوعين في المستشفى مصاباً بالتهاب رئوي مقاوم لأول المضادات الحيوية المعروفة. وكانت تتمتع بالسمعة السيئة في أنها تسبب أعراضاً جانبية مخيفة، مثل العجز المبكر. صرت أكثر شحوباً وأقرب إلى هيكل عظمي مما أنا عليه عادة، فاستدعاني أبواي إلى سوكرى، من أجل ترميم صحتي من العمل المجهد - حسب ما قالوا في رسالتهم -. وقد مضت الأونيفرسال أبعد من ذلك، بنشرها تعليق وداغ، كرّستني فيه صحفياً وكاتباً بارعاً، وفي تعليق آخر اعتبرتنني فيه مؤلف رواية لم يكن لها وجود قط، بعنوان لم يكن لي: "لقد قطعنا الخشب". والأغرب أن ذلك جاء في وقت لم تكن لدي فيه، أية نوايا للعودة إلى التورط في القصص التخيلي. الحقيقة أن من اخترع ذلك العنوان الغريب عني تماماً، هو هيكتور روخاس هيراثو، بسرعة الآلة الكاتبة، على أنه مساهمة أخرى من سير غيرا بالديس،

وهو كاتب وهمي من أنقى السلالات الأمريكية اللاتينية، اختلقه هيكتور نفسه لإغناء مناظراتنا. كان قد نشر في الأونيفرسال خبراً عن وصوله إلى كارتاخينا، وكتبت أنا تحية موجهة إليه في زاويتي "نقطة وسط جديد" على أمل نفض الغبار عن الوعي الهاجع لرواية قارية حقيقية. وعلى كل حال، فقد جرت الإشارة بعد سنوات، في مقالة حول كشيبي، لا أدري أين أو لأي سبب، إلى الرواية الوهمية ذات العنوان الجليل الذي أبدعه هيكتور، باعتبارها أحد الأعمال الأساسية في الأدب الجديد.

الجو الذي وجدته آنذاك في سوكرى، كان ملائماً جداً لأفكاري في تلك الأيام. كتبت إلى خيرمان بارغاس، طالباً منه أن يرسلوا لي كتباً، الكثير من الكتب... أكبر عدد ممكن منها، لأغرق في أعمال بارزة، خلال فترة نقاهة مقدر لها أن تستمر ستة شهور. كانت القرية في حالة فيضان، وكان أبي قد تخلص من عبودية الصيدلية، وشيد عند مدخل القرية، بيتاً يتسع للأبناء، وكنا قد صرنا أحد عشر ابناً منذ مولد إليخيو، قبل ستة عشر شهراً من ذلك. بيت كبير يقمره الضوء، مع شرفة لاستقبال الزوار، مفتوحة على تسعات كانون الثاني، كانت في البيت، ست غرف نوم جيدة التهوية، مع سرير لكل واحد منا، وليس كل اثنين في سرير، كما هو الحال في السابق، وكانت هناك حلقات لتعليق أراجيح النوم على مستويات متعددة، حتى في الممرات. أما الفناء غير المسيج، فيمتد حتى الجبل، وفيه أشجار مثمرة مشروكة تحت تصرف العموم، وحيوانات لنا وللآخرين، تشجول في الحجرات. ذلك أن أبي التي كانت نحن إلى أفنية طفولتها في بارانكيا وأراكاتاكا، تعاملت مع

البيت الجديد، كما لو أنه مزرعة، فيه دجاج ويط دون قن، وخنازير
متهتكة تنسل إلى المطبخ لتأكل الأطعمة المعدة للغداء. وكان لا يزال
بالإمكان، استغلال فصول الصيف للنوم والتوافد مفتوحة، مع ههمة
الربو التي يصدرها الدجاج من فوق المشاجب، ورائحة ثمار الغوانابانا
الناضجة التي تسقط عن الأشجار عند الفجر، وتتفوز بفرقة أنية
وقوية، "تبدو كأنها أطفال"، هذا ما كانت تقول أمي لدى سماعها. أما
أبي، فقد قصر الاستشارات، في الفترة الصباحية، على قلة من المؤمنين
بالطب التجانسي، وواصل قراءة أية ورقة مطبوعة تصل إليه، وهو
مستلق في أرجوحة نوم يعلقها بين شجرتين. وأصيب بعدوى حمى
التسلية باللياردو لتحمل كآبة الغروب. وكان قد تخلى كذلك، عن
ارتداء ملابس القطنية البيضاء وربطة العنق، وصار يحضي في الشارع،
مثملاً لم أراه من قبل: بقمصان شياوية قصيرة الأكمام.

كانت الجدة ترانكيليتا إغوران قد ماتت قبل شهرين، عمياء وخرفة.
وقد واصلت في صحو الاحتضار، الوعظ، بصوتها المشرق ونطقها
السليم، منعنة أسرار الأسرة. وكان موضوعها الأيدي، حتى النفس
الأخير، هو راتب الجهد التقاعدي. هيا أبي الجثة بعيدان الند الحافظة،
وعطاها بالكلس داخل التابوت، من أجل تفسخ هادئ. لقد كانت لويسا
سنيابغا تقدر على الدوام، شغف أمها بالورود الحمراء، فغرس لها
حديقة منها في أقصى الغناء، كيلا تفتقد لها أبداً، وهي في قبرها. وقد
حققت تلك الورود بها، رائحة في تفتحها، حتى إن الوقت لم يعد يكفي
لإرضاء الغريب، الذين يأتون من بعيد، متلهفين لمعرفة إذا ما كانت كل
تلك الأزهار الباهرة، من شؤون الرب أم الشيطان.

تلك التبدلات في حياتي وفي أسلوبي، في العيش، كانت تستجيب
للتبدلات التي طرأت على أسرتي، ففي كل زيارة، تبدل لي الأسرة
مختلفة، بفعل إصلاحات ومحولات أبوي، وبسبب الأخوة الذين يولدون
ويكبرون متشابهين جداً، إلى حد يسهل معه الخلط بينهم، أكثر من التعرف
عليهم. فأخي خيمي، وكان في العاشرة من عمره، هو أكثر من تأخر في
مقارعة الحصن الأمومي، بسبب وضعه كخديج. ولم تكذ أمي تتوقف عن
إرضاعه، حتى ولد هيرناندو (نانتشى)، وبعد ثلاث سنوات من ذلك، ولد
ألفريدو ريكاردو (كوكي)، وستة ونصف، بعدها، إليخيو (بيرو)، الأخير.
وكان خلال إجازتي تلك، قد بدأ باكتشاف معجزة الجبر.

وكنا نحصى كذلك، أبناء أبي قبل وبعد زواجه: كارمن روسا، في
سان ماركوس، وآبيلااردو اللذان كانا يأتيان لقضاء فترات في سوكري؛
وخيرمان هاناى (إبي) الذي تبنته أمي، كما لو كان ابنها، وسط رضى
الأخوة. وأخيراً أنطونيو ماريا كلاريت (تونيو) الذي تربى في كنف أمه
في سينشى، وكان يزورنا بكثرة، خمسة عشر يوماً في المحصلة، تأكل
كأننا ثلاثون، عندما يكون هناك ما يؤكل، ونحن نجلس جثماً نستطيع.
الروايات التي صاغها أخوتي الكبار عن تلك السنوات، تقدم فكرة
شاملة عما كان عليه البيت الذي لم تكن تنتهي فيه تربية ابن إلا ويأتي
آخر، لقد كانت أمي نفسها واعية لذنبها، وكانت تنوّل إلى بناتها لكي
يتولين أمر الصغار. وقد كانت مارغوت تقوت رعباً عندما تكتشف أن
أمها حبلى من جديد، لأنها تعرف أن الأم لن تجدد، وحدها، الوقت
الكافي لثريتهم جميعاً. ولهذا رجت أمها بجدية مطلقة، قبل أن تذهب
إلى المدرسة الداخلية في مونتيريا، بأن يكون الأخ التالي هو الأخير.

وقد وعدتها أمي بذلك، كالعادة، ولو لمجرد إرضائها، لأنها كانت واثقة من أن الرب، بحكمته الواسعة، سيحل المشكلة بأفضل طريقة ممكنة.

كانت الوجبات على المائدة كارثية، لأنه لم تكن هناك طريقة لجمع الكل معاً. فكانت أمي وأختي الكبيرتان تقدمان الطعام كلما حضر الآخرون، إلا أنه لم يكن مستغرباً أن يحضر أحدهم متأخراً بعد البدء بتناول الحلوى، ليطلب بوجبت. وخلال الليل يأخذ الصغار بالانتقال إلى سرير الوالدين، لأنهم لا يستطيعون النوم بسبب البرد أو الحر، بسبب ألم الأضراس أو الخوف من الموتى، بدافع حب الأبوين أو الغيرة من الآخرين، ويطلع الصباح عليهم جميعاً، متكومين في السرير الزوجي، وإذا لم يولد أحد بعد إليخير، فإن الفضل في ذلك يعود إلى مارغوت التي فرضت سلطتها، بعد عودتها من المدرسة الداخلية، وجعلت أمي تنجز وعدها بعدم إغجاب مزيد من الأبناء.

لسوء الحظ، أن الواقع وجد متسعاً من الوقت ليفرض خطأً أخرى على شقيقتي الكبيرتين، فبقينا عازيتين مدى الحياة. فقد انضمت عايداً، كما في الروايات الوردية، إلى دير، مصدرة على نفسها حكماً بالمؤبد، ولكنها تخلصت منه بعد اثنتين وعشرين سنة، بكل قانونية. وعندها لم تجد رافائيل نفسه، أو أي آخر سواه في تناول يدها، أما مارغوت، بطبعها الصلب، فقدت رافائيلها بسبب خطأ من كليهما. وخلافاً لهذه السوابق الحزينة، تزوجت ريتا من أول رجل أعجبها، وعاشت سعيدة مع خمسة أبناء وتسعة أحفاد. أما الأختان الأخريان - ليخيا وإيغي - فتزوجتا من أراوتام، بعد أن تعب الأبوان من الصراع ضد الحياة الواقعية.

كانت كروب أسرتي تبدو كأنها جزء من الأزمة التي تعيشها البلاد، يفعل انعدام اليقين الاقتصادي، والنزف في العنف السياسي الذي وصل إلى سوكري، مثل موسم مشؤوم، ودخل البيت على رؤوس أصابعه، إنما بخطوات واثقة. كنا قد أكلنا آنذاك الاحتياطي الضئيل، وصرنا فقراء جداً مثلما كنا عليه في بارانكيا، قبل الرحيل إلى سوكري. ولكن أمي لم تشعر بالقلق، لبقيتها المجرب بأن كل طفل يأتي إلى الدنيا وخبرته تحت إبطه. كان هذا هو وضع البيت، عندما أتيت من كارتاخينا، للنفاذة من الالتهاب الرئوي، غير أن الأسرة كانت قد توافأت، منذ زمن، كيلا يظهر عليها ذلك.

الموضوع الذي كان يشغل الجميع، في القرية، هو العلاقة المزعومة بين صديقنا كايثانو خينتيلي ومعلمة مدرسة، في دسكرة تشابارال المجاورة؛ وهي فتاة جميلة، وضعها الاجتماعي مختلف عن وضعه. إلا أنها جديّة جداً، ومن أسرة محترمة. لم يكن ذلك غريباً؛ فقد كان كايثانو صاحب غراميات متقلبة على الدوام، ليس في سوكري وحدها، وإنما كذلك، في كارتاخينا، حيث درس الثانوية وبدأ بدراسة الطب، ولكن، لم يكن يُعرف أن له خطيبة معينة في سوكري، ولا رفيقات مفضلات في حفلات الرقص.

في إحدى الليالي رأيت أتياء من مزرعته، على متن أفضل جواد لديه. وكانت المعلمة تجلس على السرج، ممسكة الأعنة في قبضتها، وهو على ردف الحصان، محتضناً خصرها، لم تفاجأ بمدي الحميمية التي بلغاها، وإنما بهجراتهما في الدخول من بحر الساحة الرئيسية، في ساعة الحركة القصوى. وفي قرية سيئة الظنون، وقد أوضح كايثانو لمن رغب

في سماعه، بأنه وجدها عند باب مدرستها، بانتظار أحد يحسن إليها
بإيصالها إلى القرية. في تلك الساعة من الليل. فنبهته مازحاً بأنه
سينسبب، في صباح أحد الأيام، ليجد منشوراً على باب بيته، فهز
كتفيه بحركة تميز بها، وأطلق دعائه المفضلة:
- لا يتجرؤون على عمل ذلك مع الأغنياء.

بالفعل، كانت موضة المنشورات قد اختفت فجأة، مثلما جاءت،
وشاع الظن بأنها، ربما كانت عارضاً آخر، على سوء المزاج السياسي
الذي يعصف بالبلاد، وعادت الطمأنينة إلى أحلام من كانوا يخشونها.
ومع ذلك، فقد أحسست بعد أيام قليلة من مجيئي، بأن تغيراً قد طرأ
عجائي في مزاج بعض محازبي أبي، ممن اعتبروني كاتب مقالات معادية
للحكومة المحافظة، نُشرت في جريدة الأونيفرسال، لم يكن ذلك
صحيحاً. وإذا ما اضطررت، في بعض الأحيان، إلى كتابة تعليقات
سياسية، فإنها كانت تنشر دوماً، دون توقيع، وتحت مسؤولية الإدارة،
منذ أن تقرر إلغاء السؤال عما حدث في كارمن دي بوليفار. لقد كانت
المقالات التي تحمل توقيعى، في عمودي اليومي، تكشف دون شك،
عن موقف واضح، حيال حالة البلاد المتردية، وعار العنف والجور، إنما
دون التزامات حزبية، وعملياً، لم أكن آنذاك، ولا في أي وقت آخر،
عضواً في أي حزب، أثار تلك الاتهامات دعر أبوي، وبدأت أمي
بإشعال الشموع للقديسين، خاصة عندما أتأخر، خارج البيت، فأحسست
لأول مرة بأن جواً من التعسف يحيط بي، وقررت عدم الخروج من البيت،
إلا في أضيق الحدود.

وكان أن حضر إلى عيادة أبي، في تلك الآونة، رجل مشير للدخنة،

يبدو كأنه شيخ نفسه، له بشرة شفافة يظهر من خلالها، لون عظامه،
وطن منتفخ ومشدود مثل طبل. وكانت جملة واحدة قالها كافية لأن
تحوله إلى شخص لا يمكنني نسيانه، مطلقاً، وإلى الأبد:
- إنني آت يا دكتور لكي تُخرج قرداً جعلوه ينمو في بطني.

وبعد أن قسام أبي بفحصه، أدرك أن تلك الحالة ليست ضمن
إمكانياته العلمية؛ فأرسله إلى زسيل جراح، لم يجد القرد الذي ظن
المريض أنه موجود، بل وجد مسخاً بلا شكل، غير أنه حي بذاته. ومع
ذلك، فإن ما أثار اهتمامي ليس البهيمة التي في البطن، وإنما قصة
المريض عن عالم لاسيربي السحري، وهو بلد أسطوري ضمن حدود
سوكري نفسها، لا يمكن الوصول إليه إلا عبر مخاضات مرعبة، يتصاعد
منها البخار، حيث أشد الأمور عادية هو الانتقام، من إهانة، يسحر
خيث، مثل ذاك الذي ولد مخلوقاً شيطانياً، في البطن.

وسكان لاسيربي هم كاثوليك مؤمنون. غير أنهم يعيشون الدين
على طريقتهم، وبشريكات سحرية خاصة لكل مناسبة. وهم يؤمنون
بالرب، وبالعدراء، وبالثالوث المقدس، ولكنهم يمارسون عبادتهم من خلال
أي شيء يرون أنه يكشف عن قدرات إلهية. وما يمكن أن يكون غير
معقول في نظرهم، هو أن تبلغ عقلانية من غت في بطنه دابة شيطانية،
حد اللجوء، إلى الاستعانة بهرطقة جراح.

وسرعان ما فوجئت بأن الجميع، في سوكري، يعلمون بوجود
لاسيربي، كحقيقة واقعة. ومشكلتها الوحيدة هي أن الوصول إليها يتم
عبر كل أصناف العقبات الجغرافية والذهنية. ثم اكتشفت في اللحظة
الآخيرة، وبالمصادفة، أن المعلم الضليع في موضوع لاسيربي، هو آنخل

كاسيخ الذي كنت قد رأيته آخر مرة، يغني ضمن فرقة موسيقية، في الحي الصيني، في بارانكايرميخا، في رحلتي الثانية أو الثالثة، غير نهر مجدلبنا. وجدته أكثر تعقلاً مما كان عليه في تلك المرة، ولديه قصة مهلوسة عن رحلاته العديدة إلى لاسيربي. وقد عرفت عندئذ، كل ما يمكن معرفته عن المركيزيتا، مالكة وسيدة تلك المملكة الفسيحة، التي تعرف تربيلات سرية من أجل فعل الخير والشر، أو من أجل إنهاض محتضر من فراشه، دون معرفة أي شيء عنه سوى وصف جسده، والمكان الدقيق الذي هو فيه، أو من أجل إرسال أفعى، عبر المستنقعات، تسبب الموت لعدو، بعد ستة أيام.

الشيء الوحيد المحجوب عنها، هو بحث الموتى، لأنها قدرة تخص الرب وحده. وقد عاشت كل السنوات التي شاءتها. ويعتقد أنها بلغت مئتين وثلاثاً وثلاثين سنة، ولكن دون أن تهرم يوماً واحداً، بعد بلوغها السادسة والسبعين، وقبل موتها، جمعت قطعانها الخرافية، وجعلتها تدور طوال يومين وليليتين، حول بيتها، إلى أن تشكل مستنقع لاسيربي، وهو بحر بلا حدود، تغطيه سحابة من شقائق النعمان الفوسفورية. ويقال إن في منتصفها، شجرة تحمل ثمار يقطن من الذهب، ويربط إلى جذعها زورق، يندفع مبحراً بمفرده في الثاني من تشرين الثاني، كل عام، وهو يوم الموتى، تحرسه تماسيح بيضاء، وحيات ذات جلاجل ذهبية، حتى الضفة الأخرى، حيث دفنت المركيزيتا ثورتها الهائلة غير المحدودة. منذ أن روى لي أنخل كاسيخ هذه القصة الخيالية، بدأت أشتق باللهفة لزيارة فردوس لاسيربي الجناح في دنيا الواقع. جهزنا كل شيء: خيولاً مخصصة بتربيلات معكوسة، زوارق غير مرئية، وخبراء ساحرين، وكل ما هو ضروري لكتابة تحقيق ضحفي عن واقع خارق.

ومع ذلك، فقد بقيت اليغال مسرحية تنتظر؛ إذ إن نقاهتي البطيئة من الالتهاب الرئوي، وسخريات الرفاق في حفلات الرقص، في الساحة، وغير الأصدقاء الكيار المربعة، اضطررتني إلى تأجيل الرحلة حتى موعد تال لم يحن قط. ومع ذلك، فإنني أتذكر ذلك الآن، كحدث حسن الطالع، لأنني باقتضاد المركيزيتا الخيالية، انغمست منذ اليوم التالي، بعمق، في كتابة روايتي الأولى، وهي التي لم يبق لي منها سوى العنوان: "البيت".

كانت الرواية تطمح إلى أن تكون دراما من حرب الألف يوم، في منطقة الكاريبي الكولومبية. وقد تحدثت عنها مع مانويل زابانا أوليفيا، خلال زيارة سابقة إلى كارتاخينا. ففي تلك المناسبة، ودون أن تكون للأمر أي علاقة بمشروع، أهدى إلي كتاباً كتبه أبوه عن صغار قديم من خاضوا تلك الحرب، فذكرتني صورته المطبوعة على الغلاف، بالشرة شبه العسكرية والشارب المحترق بالبارود، بجدي، بطريقة صا. لقد نسيت اسمه الأول، أما كنيته فظلت معي إلى أهد الأبدن: بونديا. ولهذا فكرت في كتابة رواية بعنوان البيت، عن ملحمة أسرة، يمكن لها أن تتضمن الكثير من ملامح أسرتنا، خلال حرب الكولونيل ليكولاس ماركيز القاحلة.

كان العنوان يستند إلى التبة في عدم خروج الأحداث مطلقاً، خارج البيت. كتبت عدة مطالع، ومخططات لشخصيات جزئية كنت أضع لها أسماءها الأسرية. وقد استخدمتها، فيما بعد، في كتب أخرى. إنني متحسّن للمضعف تجاه جملة، تنتهي كلمتان متقاربتان فيها، بالقافية نفسها، حتى ولو كانت قافية صوتية. وأفضل عدم نشرها ما لم أتمكن

من إيجاد حل لها. ولهذا السبب، كنت على وشك التخلي، في مرات كثيرة، عن كنية يونديا، بسبب قافيتها التي لا مهرب منها مع صيغة الفعل الماضي الناقص. ومع ذلك، فقد فرض اللقب نفسه عليّ، لأنني كنت قد توصلت إلى تكرين هوية مقنعة له.

لقد كنت مستغرقاً في هذا الأمر، عندما طلع الصباح في البيت، في سوكري، على صندوق خشبي بلا أي كتابة أو إشارة. وقد استلنته أختي مارغوت دون أن تدري من، مقنعة بأنه بقية متأخرة من الصيدلية المباعية. وقد ظننت أنا الشيء نفسه، وتناولت الفطور مع الأسرة، وقلبي مستقر في مكانه. وأوضح أبي بأنه لم يفتح الصندوق لأنه فكر في أنه بقية أمتعتي، دون أن يتذكر أنه لم يبق لدي بقية من أي شيء في هذا العالم. وعندئذ قرر أخي غوستافو، وكان لديه، وهو في الثالثة عشرة، ما يكفي من الخبرة العملية لتسمير أي شيء أو انتزاع المسامير منه، أن يفتح الصندوق دون الحصول على إذن بذلك. وقد سمعنا بعد دقائق صرخته:

- إنها كتب!

قفز قلبي، قبلي. وكانت بالفعل كتباً دون أي أثر يدل على المرسل، معلبة بيد خبيرة حتى حافة الصندوق، ومعها رسالة يصعب حل رموزها، بسبب خطها الهيروغليفي وغنائية خيرمان بارغاس المحكمة: "ها قد وصلت هذه اللعنة يا معلم. فلتر إن كنت ستتعلم أخيراً". وكانت تحمل كذلك، توقيع ألفونسو فريشايور، وخرشة عرفت أنها يخط دون رامون فينيس الذي لم أكن قد تعرفت عليه بعد. والشيء الوحيد الذي ينصحونني به هو عدم الإقدام على اقتراء أي احتمال يكون ملحوظاً

جداً. وكانت هناك، داخل كتاب لفونكر، ملاحظة من ألفارو سيبيدا، بخطه العويص، وقد كتبت فوق ذلك بأقصى سرعة: يخبرني فيها أنه سيسافر في الأسبوع التالي مدة ستة، لاتباع دورة خاصة في مدرسة الصحافة بجامعة كولومبيا في نيويورك.

كان أول ما فعلته هو عرض الكتب على منتزة غرفة الطعام، بينما كانت أمي ترفع بقايا الفطور. وكان عليها أن تصلح بمكنسة، لإبعاد أبنائها الصغار الذين أرادوا قص الضرر بقص لتقليم الأشجار، والكلاب الشاردة التي راحت تشتم الكتب، كأنها شيء يؤكل، وأنا أيضاً، كنت أشمها، مثلما أعمل دوماً بكل كتاب جديد، تصفحتها جميعها، دون تعيين، لأقرأ منها بانتباه فقرات متفرقة، بدلت مكاني ثلاث أو أربع مرات، في الليل، لأنني لم أكن أجيد الراحة أو لأن ضوء ممر الفناء الشاحب كان ينفذ. واستيقظت، وقد أصيبت بالتواء في ظهري، ودون أن تكون قد تشكلت لدي أدنى فكرة بعد، عن الفائدة التي يمكن لي أن أجنحها من تلك المعجزة.

كانت ثلاثة وعشرين عملاً مميزاً لمؤلفين معاصرين، كلها بالاسبانية، ومختارة بنية واضحة، وهي أن تُقرأ من أجل هدف وحيد: تعلم الكتابة. وبينها ترجمات حديثة جداً مثل "الصخب والعنف" لوليم فونكر، لقد صار من المستحيل، بعد مرور خمسين سنة، أن أتذكر القائمة الكاملة. كما أن الأصدقاء الأبديين الثلاثة الذين يعرفونها، لم يعودوا هنا ليذكروها. كنت قد قرأت اثنين منها فقط: السيدة دلووي للسيدة وولف، و"مباراة شعرية" لآلوس هاجسلي. والكتب التي أتذكرها أكثر من سواها، هي أعمال ولیم فونكر: البيت الريفي، والصخب والعنف،

وبينما أرقد محتضرة، والتخللات المتوحشات، وكذلك مانهاتن ترانسفير، وربما كتاب آخر لجون دوس باسوس؛ وأورلاند لفيرجينا وولف؛ وفثران ورجال، وعناقيد الغضب لجون شابينيك، وصورة جيتي لروبيرت ناان، وطريق التبغ لإرسكين كالدويل. وبين العناوين التي لا أتذكرها عن مسافة نصف قرن، كان هناك، على الأقل، كتاب لهيمنفراي، ربما هو قصص قصيرة، لأنها كانت أكثر أعماله محطاً لإعجاب أصدقاء بارانكيا الثلاثة. وكتاب آخر لمورخي لويس بورخيس، لا شك في أنه كتاب قصص قصيرة أيضاً. وربما كتاب آخر لفيليسيرتو هيرنانديث، القصص الأرجواني الوحيد الذي كان أصدقائي قد اكتشفوه للتو، بإعجاب. قرأتها جميعها في الشهور التالية. بعضها بصورة جيدة وأخرى أقل من ذلك. وبفضلها استطعت الخروج من الليمبوس الإبداعي الذي كنت عالماً فيه.

مُتعت من التدخين، بسبب النزلة الصدرية، ولكنني كنت أذخن في الحمام، كما لو أنني أختبئ من نفسي. لاحظ الطبيب ذلك وكلمني بجدية. ولكنني لم أتمكن من الانصياع له. وعندما كنت في سوكري، بينما أنا أحاول أن أقرأ، دون هوادة، الكتب التي تلقيتها، كنت أشعل سيجارة من عقب أخرى، إلى أن لم أعد قادراً على المزيد. وكلما حاولت ترك التدخين، كنت أذخن أكثر. وصلت إلى تدخين أربع علب سيجائر في اليوم. وكنت أقطع وجبات الطعام لكي أذخن، وأحرق ملامات السرير لأنني أغفو، والسيجارة مشتعلة. وكان الخوف من الموت، يوقظني في أي ساعة من ساعات الليل، فلا أستطيع التغلب عليه إلا بمزيد من التدخين، إلى أن قررت أنني أفضل الموت على ترك التدخين.

بعد أكثر من عشرين سنة من ذلك، وكنت قد تزوجت وصار لي ابنان، واصلت التدخين. وحين رأى طبيب رثي على الشاشة، قال لي مدهوراً إنني لن أتمكن من التنفس، بعد سنتين أو ثلاث سنوات. أصابني الرعب، وبلغ بي الأمر حد اليقاع جالساً لساعات وساعات دون أن أفعل شيئاً آخر، لأنني لم أعد أستطيع القراءة، أو الاستماع إلى الموسيقى، أو تبادل الحديث مع الأصدقاء أو الأعداء، دون تدخين. وفي إحدى الليالي، خلال عشاء عارض في برشلونة، كان طبيب نفسياني صديق يشرح لآخرين أنه، ربما كان التدخين هو الإدمان الذي يصعب التخلص منه أكثر من سواه. فتجذرات على سؤاله عن السبب العميق وراء ذلك، فكان رده تبسيطاً يبعث على القشعريرة:

- لأن ترك التدخين سيكون بالنسبة لك، أشبه بقتل كائن عزيز. ما حدث كان أشبه بتفجير بصيرة. لم أعرف السبب قط، ولم أشأ معرفته. لكنني سحقت، في المفظة، السيجارة التي كنت قد أشعلتها للتو، ولم أعد للتدخين بعدها، بلا جزع ولا أسف، طوال ما تبقى من حياتي. الإدمان الآخر، لم يكن أقل إلحاحاً. في مساء أحد الأيام، دخلت إحدى خادومات البيت المجاور. وبعد أن تكلمت إلى الجميع، جاءت إلى الشرفة، وباحترام كبير، طلبت مني الإذن بالتكلم معي. لم أقطع القراءة إلى أن سألتني:

- هل تتذكر ماتيلدي؟

لم أتذكر من تعني، لكنها لم تصدقني.

- لا تتظاهر بالغياء يا سيد غابيتو - قالت لي ذلك، بتفخيم

واش، وأضافت: - إنها نيفرو-ما-تا.

والحقيقة أن نيفروماتا كانت حينئذ امرأة طليقة، لديها ابن من الشرطي الميت. وكانت تعيش بمفردها، مع أمها وآخرين من أسرته في البيت نفسه، إنما في حجرة منعزلة، لها مخرج خاص يؤدي إلى طرف المقبرة. ذهبت لرؤيتها، وألح علي اللقاء المتجددة مدة تزيد على الشهر. وكنت في كل مرة، أؤجل العودة إلى كارتاخينا، وأريد البقاء في سوكري إلى الأبد. حتى كان فجر يوم فاجأتني فيه، وأنا في بيتها، عاصفة رعود وبروق، مثل ليلة الروليت الروسي. حاولت الاحتما. تحت أقاريز البيوت، ولكنني عندما لم أعد أستطع ذلك، اندفعت إلى منتصف الشارع، حيث بلغ الماء ركبتني. وقد حالفني الحظ بوجود أمي وحدها في المطبخ، فأخذتني إلى غرفة النوم، عبر الحديقة، كيلا يعلم والدي بالأمس. وما إن انتهت من مساعدتي على خلع القميص المبلل، حتى أبعدته بمد ذراعها بعيداً، وهي تمسك به بالسباية والإيهام، وألقت به إلى الركن بحركة قرف، وقالت:

- كنت مع الساقطة.

أصابني الجمود.

- وكيف تعرفين!

فقلت بهدوء أعصاب:

- لأنها الرائحة نفسها التي جثت بها في تلك المرة، لحسن الحظ أن الرجل قد مات.

فاجأني إظهارها تلك القسوة، لأول مرة في حياتها. ولا بد أنها لاحظت ذلك، لأنها عززت قزلها، دون تفكير في الأمر:

- إنها الميتة الرجيدة التي أسعدتني، عندما علمت بها.

- وكيف عرفت من تكون!

فتنهدت:

- آي بني، الرب يخبرني بكل ما له علاقة بكم.

ساعدتني أخيراً على خلع البنطال المبلل، وألقت به إلى الركن، مع بقية الملابس. "جميعكم ستكونون مثل أبيكم"، قالت لي ذلك فجأة بهمسة عميقة، بينما هي تمسح ظهرها بمنشفة من القنب. وانتهت إلى القول من روحها:

- عسى أن يجعلكم الرب أزواجاً صالحين مثله.

لا بد أن الرعاية الدراماتيكية التي أخضعتني لها أمي قد أعطت أكلها في تحاشي عودة الالتهاب الرئوي. إلى أن انتهت إلى أنها كانت تعتقد تلك الرعاية دون سبب، ل تمنعني من العودة إلى فراش رعود وبروق نيفروماتا. فلم أعد إلى رؤيتها قط.

رجعت إلى كارتاخينا مستعيداً عافيتي وسعيداً، وحاملاً خير أنني أكتب "البيت". وكنت أتحدث عنها، كما لو أنها عمل ناجح، منذ أن كنت في فصلها الأولي. استقبلني ثايالا وهيكتور مثلما يستقبلان ابناً ضالاً. ويبدو أن أساتذتي الطبيين في الجامعة، قد استسلموا لتقبلي على ما أنا عليه. وواصلت في الوقت نفسه، كتابة تعليقات غارضة جداً، كانوا يدفعون مقابلها بالقطعة في الأونيفرسال. أما مسيرتي كقصاص، فتواصلت بالقليل الذي استطعت كتابته، من أجل إرضاء المعلم ثايالا تقريباً: "حوار المرأة" و"مرارة المسرحيين الثلاثة"، نشرتا في الاسبيكتادور. مع أنه كان يلحظ فيهما تخلفاً من البلاغة الابتدائية التي تبثت في القصص الأربع السابقة، إلا أنني لم أستطع الخروج من المستنقع.

كانت كارتاخينا قد أصيبت آنذاك، بعدوى التوتر السياسي الذي يعم بقية أرجاء البلاد. وكان لا بد من اعتبار ذلك نبوءة شوم، وإشارة إلى أن شيئاً خطيراً سيحدث. في أواخر تلك السنة، أعلن الليبراليون مقاطعتهم التامة للانتخابات، بسبب وحشية الاضطهاد السياسي. لكنهم لم يتخلوا عن مخططاتهم السرية لإسقاط الحكومة. اشتد العنف في الأرياف، فهرب الناس إلى المدن، لكن الرقابة كانت تحجب الصحافة على الكتابة المثيرة. ومع ذلك، فقد كان معروفاً للجميع، أن الليبراليين الملاحقين قد شكلوا وحدات حرب عصابات في أماكن مختلفة من البلاد. ففي السهوب الشرقية - وهذه منحيط فسيح من أعشاب خضراء يغطي أكثر من ربع مساحة التراب الوطني - صارت تلك الوحدات أسطورية. وكان ينظر إلى قائدها العام، غوادالوبي سالتيدو، كشخصية خرافية، حتى من قبل الجيش، فكانت صورته توزع سراً، وتنسخ بالملئات وتضاء لها الشموع على المذابح.

كان الأخوة دي إسبريما يعرفون، كما يبدو، أكثر مما يقولونه، وكان الحديث داخل منطقة السور، يجري بصورة طبيعية عن انقلاب وشيك ضد النظام المحافظ. لم أكن أعرف أية تفاصيل، ولكن المعلم تابالا نهني إلى وجوب الحضور فوراً إلى الجريدة، إذا ما لاحظت وقوع أية اضطرابات في الشوارع. لقد كان التوتر شديداً إلى حد يمكن معه لمسه باليد، عندما دخلت، لإنجاز موعد في محل مثلجات أميركانا، في الساعة الثالثة، بعد الظهر. جلست أقرأ على منضدة معزولة، ريثما يأتي الشخص المنتظر، فقال لي أحد زملائي القدامى، وهو يمر، ولم أكن قد تحدثت معه في السبابة قط:

- اذهب إلى الجريدة، فالأمر على وشك الحدوث.
فعلت عكس ما قاله: كنت أريد أن أعرف كيف سيحدث ذلك في مركز المدينة بالذات، بدلاً من أن أحبس نفسي في قاعة التحرير. بعد دقائق من ذلك، جلس إلى طاولتي، ضابط من مكتب الصحافة الحكومي، وكنت أعرفه جيداً. ولم يخطر لي بأنهم كلفوه بتحبيدي، تبادلت الحديث معه نحو نصف ساعة، بأقصى حالات البراعة. وعندما نهض لينصرف، اكتشفت أن صالة محل الثلجات الفسيحة قد أخلت بالكامل، دون أن ألاحظ ذلك. تابع هو نظري في المكان، وتأكد من الوقت: الواحدة وعشر دقائق. ثم قال لي براحة مكثونة:

- لا تقلق، لن يحدث أي شيء.

وبالفعل، فقد كان أبرز قادة الليبراليين، ممن أصابهم العنف الرسمي بالقنوط، قد اتفقوا مع عسكريين ديمقراطيين من أعلى المراتب، لوضع حد للمذبحة التي يقتربها، في كل أنحاء البلاد، النظام المحافظ المستعد للاحتفاظ بالسلطة بأي ثمن. كان معظمهم قد شارك في اتصالات التاسع من نيسان، من أجل التوصل إلى السلام، من خلال اتفاق أبرموه مع الرئيس أوسبينيا بيرث. ولم يكدر عشرون شهراً على ذلك، حتى أدركوا، بعد قوات الأوان، أنهم كانوا ضحية خدعة هائلة. وهكذا، فإن العملية الانتقالية المحيطة التي كان مخططاً لها أن تتم في ذلك اليوم، صادق عليها رئيس الإدارة الليبرالية شخصياً، كارلوس بيراس ريس تريرو، من خلال بليبيو ميندوتا نيبيرا الذي تربطه علاقات بمنازاة بالقوات المسلحة. مذ كان وزيراً للحرية، في ظل الحكومة الليبرالية، وكان يتوجب بدء العملية التي نسفها ميندوتا نيبيرا، بالتعاون المتكتم

مع محازبين في كل أنحاء البلاد، في فجر ذلك اليوم، بقصف القصر الرئاسي بطائرات القوات الجوية. وكان التحرك يلقى دعم القاعدتين البحريتين في كارتاخينا وأيباي، ومعظم الحاميات العسكرية في البلاد، والمنظمات النقابية المصممة على تولي السلطة لإقامة حكومة مدنية تتولى المصالحة الوطنية.

بعد إخفاق العملية فقط، عُرف أن الرئيس السابق إدواردو سانتوس، كان قد جمع في بيته في بوغوتا، قبل يومين من الموعد المقرر، القادة الليبراليين وقيادة الانقلاب من أجل مراجعة نهائية للمشروع. وفي أثناء المناقشة، وجه أحدهم السؤال التقليدي:

- هل ستحدث إراقة دماء؟

ولم يكن هناك أحد ساذج أو صفيق إلى حد القول: لا. وأوضح قادة آخرون بأنه تم اتخاذ أقصى الاحتياطات كيلا تكون هناك إراقة دماء، إلا أنه لا توجد صفات سحرية للحيلولة دون حدوث ما هو غير متوقع. فأصدرت الإدارة الليبرالية، المرعوبة من مؤامرتها بالذات، الأوامر بإلغاء العملية. عدد كبير من المواطنين الذين لم يُبلغوا بالأمر في الوقت المناسب، جرى اعتقالهم أو قتلهم أثناء المحاولة. ونصح آخرون ميتوثا بأن يواصل العملية وحده حتى الاستيلاء على السلطة. فأحجم عن فعل ذلك لأسباب أخلاقية أكثر منها سياسية. ولكن لم يتوفر له الوقت ولا الوسائل لإخيار جميع المشاركين بإلغاء العملية. وقد تمكن من اللجوء إلى سفارة فنزويلا. وعاش أربع سنوات منفياً في كاراكاس، بعيداً عن المجلس الحربي الذي حكم عليه غيابياً، بخمسين وعشرين سنة سجناً بتهمة التمرد. والآن، بعد اثنتين وخمسين سنة من

ذلك، لا يرتعش تبضي وأنا أكتب - دون إذن منه - بأنه أحس بالندم طوال ما تبقى من حياته، في منفاه في كاراكاس، بسبب حصيلة القتلين الذين حصدهم الحزب المحافظ وهو في السلطة: ليس أقل من ثلاثمائة ألف قتيل، خلال عشرين سنة.

لقد كانت لحظة حاسمة، بطريقة ما، بالنسبة لي أنا أيضاً. فقبل شهرين من ذلك، كنت قد تخليت عن دراستي لسنة الحقوق الثالثة، ووضعت حداً للالتزامي مع جريدة الأونيفرسال، لأنني لم ألح لي مستقبلاً في أي منهما. وكانت الذريعة هي تحرير وقتي، من أجل كتابة الرواية التي لم أكد أبدأ بها، مع أنني كنت أعرف، في أعماق روحي، بأن ذلك لم يكن صدقاً ولا كذباً، وإنما تكشف لي مشروع الرواية، فجأة، على أنه صيغة بلاغية، فيها شيء قليل جداً من الجيد الذي استطعت استخلاصه من فؤكري، وكل ما هو سيئ من انعدام تجربتي. وسرعان ما تعلمت أن رواية قصص موازية للقصص التي يكتبها أحدنا - دون الكشف عن جوهرها - هو جزء ثمين التصور والكتابة. ولكن لم تكن هذه هي جالتي آنذاك، وإنما كان اقتقاري إلى شيء محدد أعرضه، هو ما دفعني إلى اختلاق رواية محكية، ألهم بها المستمعين وأخدع نفسي.

أجبرني وعي ذلك، على إعادة التفكير في المشروع الذي لم يزد قط عن أربعين صفحة غير مؤكدة، من أقصاء إلى أقصاء. ومع ذلك، فقد ذكر في مجلات وصحف - ومن قبلي أنا أيضاً -، هل نُشرت عنه، مسبقاً، بعض المقالات النقدية شديدة الرصانة، كتبها قراء واسعدو المخيلة. أما توجهي نحو عادة رواية مشاريع موازية لما أكتبه، فلم يكن يستحق، في العمق، اللوم، وإنما الشفقة، لأنه يمكن لرعب الكتابة أن

يكون غير محتمل مثل رعب عدم الكتابة. يضاف إلى ذلك، في حالتي، أنني مقتنع بأن رواية القصة الحقيقية هو مجلية لسوء الطالع، ومع ذلك، فإنني أجد العزاء في أنه يمكن للقصة المحكية، أن تكون أحياناً أفضل من المكتوبة، وأنا نقوم كذلك، دون أن ندري، باختراع جنس أدبي جديد يحتاج الأدب إليه: تخيل التخيل.

حقيقة الحقيقة هي أنني لم أكن أعرف كيف سأواصل العيش. نقاهتي في سوكري أفادني في إدراك أنني لا أعرف أين أمضي في الحياة. غير أنها لم تمنحني إشارة لتوجه صائب، ولا حجة واحدة جديدة أقتنع بها أبوي بأنهما لن يموتا إذا ما سمحت لنفسي بحرية اتخاذ القرار بنفسي. وهكذا ذهبت إلى بارانكيا، ومعى متا بيزو أعطني إياها أمي قبل عودتي إلى كارتاخينا، مختلصة من الرصيد العائلي.

في الخامس عشر من كانون الأول ١٩٤٩، دخلتُ إلى مكتبة موندو، في الساعة الخامسة مساءً. لانتظر الأصدقاء الذين لم أعد لرويتهم، منذ ليلتنا في شهر أيار. عندما ذهبت مع السيد رازوري الذي لا يُنسى. لم أكن أحمل معي سوى حقيبة شاطئ، فيها غيار ملابس آخر، وبعض الكتب وحافظة الأوراق الجلدية التي تضم مسوداتي. بعد دقائق من وصولي جازوا جميعهم إلى المكتبة، واحداً بعد الآخر. وكان ترحيباً صاعياً لم يحضره ألفارو سيبيدا الذي كان لا يزال في نيويورك. وعندما اكتملت الجماعة، ذهبنا لتناول المقبلات. وكان تناولها قد محو من مفهني كولومبيا المجاور للمكتبة، إلى فناء مسور يرتاده الأصدقاء المقربون على الرصيف المقابل؛ مفهني جاني.

لم تكن لي وجهة محددة، لا في تلك الليلة ولا في بقية حياتي.

والغريب أنني لم أفكر، قط، في أنه يمكن لتلك الوجهة أن تكون بارانكيا. وإذا كنت قد ذهبت إلى هناك، فأنا للتحدث في الأدب وحسب، وتقديم الشكر، بجسدي الحاضر، على إرسالية الكتب التي بعثوا بها، إليّ في سوكري. بالنسبة إلي الأمر الأول، توصلنا إلى فائض منه. أما الثاني فلا شيء. بالرغم من محاولات كثيرة المتكررة، لأن الجماعة كانت تخاف خوفاً طقسياً من تقديم الشكر وتلقيه فيما بين أفرادها.

ارتحل خيرمان بارغاس في تلك الليلة، طعماً لاثني عشر شخصاً، كان بينهم أناس من كل الأوساط، ابتداءً من صحفيين ورسامين وموثقي عقود، حتى حاكم القطاع، وهو من المحافظين التقليديين في بارانكيا، له طريقته الخاصة في التمييز والحكم. وقد انسحب معظمهم بعيد منتصف الليل، وراح الآخرون ينصرفون فرادى، إلى أن لم يبق سوى ألفونسو وخيرمان وأنا، ومعنا الحاكم، وهو لا يزال يحافظ، إلى هذا الحد أو ذاك، على سلامة أحكامه، مثلما اعتدنا أن نكون عند الفجر في سن المراهقة.

وخلال تبادلتنا الطويل للأحداث في تلك الليلة، تلقيت درسا مفاجئاً، حول طريقة حكام المدينة في التصرف، في السنوات الدامية. فقد كان الحاكم يقدر أن أضعف الناس أصلاً، وسط أضرار تلك السياسة الهمجية، هو عدد مشير للدهشة من اللاجئين في المدينة، يعيشون دون سقف ولا خبز. وانتهى إلى القول:

- إذا ما استمرت الحال على هذا النحو، فإن حزبي سيبقي، بقوة السلاح، دون خصم ينافسه في الانتخابات القادمة. وسيكون سيد البلاد المطلق.

الاستثناء الوحيد هو بارانكيّا، فاستناداً إلى ثقافة تعايش سياسي يتسهجها المحافظون المحليون، تحولت المدينة إلى ملاذ آمن في قلب الإصصار. أردت أن أورد اعتراضاً أخلاقياً، إلا أنه أوقفني بحركة فظة من يده، وقال:

- المعذرة، هذا لا يعني أننا على هامش الحياة الوطنية. بل على العكس: بسبب ميولنا السلمية تحديداً، راحت مأساة البلاد الاجتماعية بالتسلل إلينا، على رؤوس أصابعها، من الباب الخلفي. وقد صارت موجودة عندنا الآن، هنا في الداخل.

وعرفتُ عندئذ، أن هناك حوالي خمسة آلاف لاجئ، آتين من المناطق الداخلية، في أسوأ حالات البؤس. وأنهم لا يعرفون كيف يعيدون تأهيلهم، ولا أين يخفونهم حتى لا تظهر المشكلة أمام الملاء. وللأسرة الأولى في تاريخ المدينة، كانت هناك دوريات عسكرية تقوم بالحراسة في أماكن حساسة. وكان الجميع يرونها، ولكن الحكومة تنكر ذلك، وتمنع الرقابة كشفه في الصحافة.

عند الفجر، وبعد أن غادر السيد الحاكم، بما يشبه الجرجرة، ذهبتُ إلى تشوب سوبي، مكان فطور الناس المبكرين جداً. اشترى الفونسو من الكشك الذي على الناصية، ثلاث نسخ من الهيرالدو. وكان في صفحة التعليقات الافتتاحية، ملاحظة بتوقيع "بوك"، وهو اسم المستعار في مقالته اليومي. وكانت الملاحظة تحية لي وحسب. لكن خيرمان سخر منها، لأنها تقول إنني موجود هناك، في إجازة غير رسمية.

- كان من الأجدر، القول إنه سيبقى للعيش هنا، من أجل كتابة ملاحظة ترحيب، ثم أخرجني بعد ذلك للوداع - قال خيرمان ساخراً، وأضاف: - فهذا أقل كثافة، لجريدة شديدة البخل مثل الهيرالدو.

وكان الفونسو قد بدأ يفكر، جدياً، في أنه لن يكون من السيئ، ضم كاتب عمود آخر، إلى قسم التعليقات الافتتاحية الذي يُشرف عليه. ولكن خيرمان كان جامحاً على ضوء الفجر.

- سيكون خامس كتاب الأعمدة، لأن لديكم أربعة.

لم يستطلع أي منهما موقفني، مثلما كنتُ أرغب، لكي أقول لهما أجل. ولم يجر مزيد من الحديث في الأمر، ولم تكن ثمة حاجة لذلك، لأن الفونسو أخبرني في تلك الليلة، بأنه تحدث مع إدارة الجريدة، وبدأت لهم فكرة كاتب العمود الجديد مقبولة. ولكنهم لا يستطيعون البت في الأمر، على أي حال. قبل أعياد رأس السنة، وهكذا بقيتُ هناك بحسبة الوظيفة، على الرغم من أنهم أبلغوني رفضهم، في شهر شباط.

الاستثناء الوحيد هو بارانكيّا، فاستناداً إلى ثقافة تعايش سياسي يتنهجها المحافظون المحليون، تحولت المدينة إلى ملاذ آمن في قلب الإعمار. أردت أن أورد اعترافاً أخلاقياً، إلا أنه أوقفني بحركة فظة من يده، وقال:

- المَعذرة. هذا لا يعني أننا على هامش الحياة الوطنية. بل على العكس: بسبب ميولنا السلمية لتحديداً، راحت مأساة البلاد الاجتماعية بالتسلل إلينا، على رؤوس أصابعها، من الباب الخلفي. وقد صارت موجودة عندنا الآن، هنا في الداخل.

وعرفتُ عندئذ، أن هناك حوالي خمسة آلاف لاجئ، آتين من المناطق الداخلية، في أسوأ حالات البؤس. وأنهم لا يعرفون كيف يعيدون تأهيلهم، ولا أين يخفونهم حتى لا تظهر المشكلة أمام الملاء. وللحيرة الأولى في تاريخ المدينة، كانت هناك دوريات عسكرية تقوم بالحراسة في أماكن حساسة، وكان الجميع يرونها، ولكن الحكومة تنكر ذلك، وتمنع الرقابة كشفه في الصحافة.

عند الفجر، وبعد أن غادر السيد الحاكم، بما يشبه الجرجرة، ذهبتنا إلى تشوب سوي، مكان فطور الناس المبكرين جداً. اشترى ألفونسو من الكشك الذي على الناصية، ثلاث نسخ من الهيرالدو. وكان في صفحة التعليقات الافتتاحية، ملاحظة بتوقيع "يوك"، وهو اسم المستعار في مقاله اليومي. وكانت الملاحظة تحية لي وحسب. لكن خيرمان سخر منها، لأنها تقول إنني موجود هناك، في إجازة غير رسمية.

- كان من الأجدر، القول إنه سيبقى للعيش هنا، من أجل كتابة ملاحظة ترحيب، ثم أخرى بعد ذلك للوداع - قال خيرمان ساخراً، وأضاف: - فهذا أقل كلفة، لجريدة شديدة البخل مثل الهيرالدو.

وكان ألفونسو قد بدأ يفكر، جدياً، في أنه لن يكون من السيئ، ضم كاتب عمود آخر، إلى قسم التعليقات الافتتاحية الذي يُشرف عليه. ولكن خيرمان كان جامعاً على ضوء الفجر.

- سيكون خاصي كتاب الأعمدة، لأن لديكم أربعة.

لم يستطلع أي منهما موقفى، مثلما كنتُ أرغب، لكي أقول لهما أجل. ولم يجر مزيد من الحديث في الأمر، ولم تكن نمة حاجة لذلك، لأن ألفونسو أخبرني في تلك الليلة، بأنه تحدث مع إدارة الجريدة، وبذت لهم فكرة كاتب العمود الجديد مقبولة. ولكنهم لا يستطيعون البت في الأمر، على أي حال، قبل أعياد رأس السنة. وهكذا بقيتُ هناك بحجة الوظيفة، على الرغم من أنهم أبلغوني رفضهم، في شهر شباط.

هكذا نُشرت مقالتي الأولى في صفحة الاقتتاحيات بجريدة الهيرالدو في بارانكيا، يوم الخامس من كانون الثاني ١٩٥٠. لم أشأ توقيعها باسمي لكي أخرج سليماً، إذا ما عجزتُ عن إيجاد طريق للاستمرار، مثلما جرى لي في جريدة الأونيفرسال. ولم أتردد وأفكر مرتين، في اختيار الاسم المستعار الذي سأكتب به: "سيبتيموس"، المأخوذ من سيبتييموس وارنر سميث، شخصية فيرجينيا وولف المهروس في رواية السيدة دلووي. أما عنوان العنود - "الزرافة" - فكان لقباً سرياً، لا يعرفه أحد سواي، لرفيقتي الوحيدة في الرقص في حفلات سنوكري.

بدا لي أن رياح كانون الثاني تهب في تلك السنة، أقوى منها في أي وقت آخر. حتى إن المرء يجد صعوبة في المشي بعكس اتجاهها، في الشوارع التي تضربها الرياح حتى الفجر. فكان موضوع الأحاديث عند الاستيقاظ، هو الأضرار التي سببتها الرياح المجنونة خلال الليل، وما تذروه معها من أحلام وأقنان دجاج، ولحويها ألواح توتيا، السقوف إلى مقاصل طائرة.

إنني أفكر اليوم، في أن تلك الرياح المجنونة كانت تكنس بقايا

ماضٍ قاحل، وتفتح لي أبواب حياة جديدة. لم تعد علاقتي بالجماعة متدفقة بتلقائية، وتحولت إلى تواطؤ مهني. في البدء كنا نناقش الموضوعات التي نفكر فيها، أو نتبادل ملاحظات ليس فيها شيء من الحذقة، ولكنها من النوع الذي لا يُنسى. وقد كانت المناقشة الحاسمة، بالنسبة لي، هي التي جرت في صباح يوم دخلتُ فيه إلى مقهى جابي، بينما كان خيرمان يارغاس ينهي بصمت، قراءة "الزرافة" في قضاصة من صحيفة ذلك اليوم. وكان أفراد الجماعة الآخرون، حول المنضدة، ينتظرون حكمه، ينزع من الرعب التوقييري، يزيد دخان الصالة من كشافته. وعندما انتهى خيرمان من القراءة، وحتى دون أن ينظر إليّ، مرق القضاصة إلى ثنف صغيرة، دون أن ينطق بكلمة واحدة، ونثرها بين قبة أعقاب السجائر وأعواد الثقاب المحروقة في المنضدة. لم يقل أحد شيئاً، ولم يتبدل المزاج على المنضدة، ولم يجر التعليق على الحادث، في أي وقت آخر. ولكن الدرس ما زال ينفعني حتى الآن، كلما داهمني بسبب الكسل أو التسرع، إغواء كتابة فقرة متسعة، لكي أخرج من مأزق.

في فندق لانثي، الذي عشت فيه قراءة السنة، انتهى الأمر بأصحابه إلى معاملتي كفرد من الأسرة. كانت ثروتي الوحيدة آنذاك، هي صندلي التاريخي، وغياران من الملابس، أغسلهما تحت الدوش، عند الاستحمام. وخفية الجلد التي سرقتها من صالة الشاي الأكثر أبهة في بوغوتا، خلال أحداث التاسع من نيسان، كنتُ أحملها معي أينما ذهبت، وأضع فيها أصول ما أكتبه. وهي الأشياء الوحيدة التي يمكن لي أن أفقدها. ولم أكن لأجازف بتركها، ولو وراء سبعة أقال، في صندوق

مصفح في أحد المصارف. والشخص الوحيد الذي كنتُ أأثقه عليها في ليالي الأولى، هو لاثيديس المتكتم، بواب الفندق الذي تقبلها مني كضمان لأجرة الغرفة. فقد ألقي نظرة ثاقبة على قصاصات الورق المكتوبة على الآلة الكاتبة، والمشاكلة بالنصحيات، وخبأها في درج منضدة الكونتوار. اقتديتها في اليوم التالي، في الساعة الموعودة، وواصلت دفع أجر الغرفة بصرامة. وكان يتقبل الحقيقة كرهن عن مبيتي مدة تصل إلى ثلاث ليال. وبلغ الأمر حد اتفاق جدي، إذ كنتُ أضعها أحياناً، على منضدة الكونتوار، دون أن أقول له شيئاً سوى طابت ليلتك، وأتناول بنفسي المفتاح، من لوحة المفاتيح، وأصعد إلى حجرتي.

كان خيرمان يتابع، على الدوام، حالات عوزي، حتى إنه كان يعرف إذا ما كنت لا أجد مكاناً أنام فيه، فيعطيني خفية، عندئذ، مبلغ البيزو والنصف من أجل دفع أجرة السرير. لم أدر، قط، كيف كان يعرف ذلك، ويفعل حسن سلوكي، كسبت ثقة العاملين في الفندق. حتى إن العاهرات الصغيرات كن يعرثن صابونهن الخاص، لأستحم. وفي موقع القيادة، كانت صاحبة الفندق وسيدته، كاتالينا الكبرى، يثديها المهيبين ورأسها اليقطيني، هي التي تترأس الحياة فيه. أما فعلها، الخلاسي جوناس سان فيشتي، فكان عازف ترومبون راقياً إلى أن تهشمت أسنانه الذهبية في عملية سطر تعرض لها، لسرقة تلييسة أسنانه الذهبية. فاضطر إلى تغيير مهنته، بسبب تكسر فكّه وفقدانه القدرة على التفتح. ولم يستطع العثور، لثبوته ذي الست بوصات، على ما هو أفضل من سرير كاتالينا الكبرى الذهبي. وكانت هي نفسها تملك كذلك، كنزها الحميم الذي أقاده في الصعود، خلال سنتين، من ليالي المرفأ النهرية البائسة، إلى

عرشها كأم كبرى. وقد حالفها الحظ بالتعرف على موهبة وأريحية
المكاتبين، من أجل إسعاد أصدقائها. ولكنهم لم يستطيعوا هناك، أن
يفهموا قط، سبب افتقادي البيزرو ونصف البيزرو، لدفع أجرة الغرفة، على
الرغم من أن أشخاصاً من عليه الناس، يأتون لأخذي في سيارات
ليموزين رسمية.

خطوة سعيدة أخرى في تلك الأيام، هي توصلي إلى أن أكون الريان
المساعد الوحيد لمونو غيراً. وهو سائق سيارة تكسي شديد الشقرة إلى
حد يبدو معه أنه أمهق، وبالغ الذكاء واللفظ إلى حد يمكن معه، للناس،
أن يختاروه عضواً في المجلس البلدي، دون حملة انتخابية. كانت
سهراته حتى الفجر في الحى الصينى، تبدو سينمائية، لأنه هو نفسه كان
يتولى إيرادها - وجعلها جنونية أحياناً - بتزوات غير متوقعة. وعندما
يرغب في أن يقضى ليلة على هواه، يخبرني بذلك، وتذهب لقضائنها
معاً في مواخير الحى الصينى المتردي، حيث تعلم آياونا وآباء آباؤنا
كيف يصنعونها.

وسط حياة يمثل تلك البساطة، لم أعرف، قط، سبب عرقى المفاجئ
في حالة فتور طارئة. فروايتي التي كنت أكتبها - البيت - بدت لي،
بعد ستة شهور من البدء بها، مهزلة غير موفقة. وكان كلامي عنها أكثر
مما أكتب فيها. والحقيقة أن الشيء المأساك القليل الذي توصلت إليه،
هي المقطوعات التي نشرتها، قبل وبعد ذلك، في "الزرافة" وفي مجلة
كروتيتكا، كلما وجدت نفسي بلا موضوع أكتب عنه. في وحدة عطلات
نهاية الأسبوع، عندما يلوذ الآخرون ببيوتهم، كنت أبقى وحيداً، أكثر مما
هي عليه اليد اليسرى، في المدينة الخاوية. لقد كنت في حالة فقر

مدقع، وخجل طائر سمائي، أحاول أن أعارض ذلك بعجرفة لا تطاق،
وصراحة فظة. كنتُ أشعر بأنني فائض عن الحاجة في كل مكان. وكان
بعض المعارف يُشعرونني بذلك. وبدا الأمر أشد حرجاً في قاعة تحرير
الهيرالدو، حيث كنت أكتب أحياناً طوال عشر ساعات متواصلة، في
وكن منعزل، دون أن أخاطب أحداً، يلفني دخان السجائر الرخيصة التي
أدخنها دون توقف، في عزلة بلا عزاء. كنت أكتب بأقصى سرعة، وفي
أحيان كثيرة حتى الفجر، على شرائح ورق طباعة أحمله معي إلى كل
مكان في حقيبتى الجلدية.

في واحدة من لحظات السهر الكثيرة في تلك الأيام، نسبت الحقيبة
في سيارة تكسي، واعتبرت الأمر مزحة أخرى من مقالب سوء الطالع
الذي يلاحقني، لم أقم بأي جهد لاستردادها، لكن ألفونسو فونسابور،
المدعور من تهاوتي، حرر ونشر ملاحظة في نهاية زاويتي: "يوم السبت
الماضي، نسيت جافطة أوراق في سيارة أجرة عامة. ونظراً لأن صاحب
جافطة الأوراق تلك، وكاتب هذه الزاوية هما، بالمصادفة، الشخص نفسه،
فإنهما يشكران من يتلطف بالاتصال بأي واحد منهما، علماً أن جافطة
الأوراق لا تحتوي أي شيء ذا قيمة على الإطلاق؛ وإنما زرافات غير
منشورة وحسب". بعد يومين من ذلك، ترك أحدهم مسوداتي عند بواب
الهيرالدو. ولكن دون الحقيبة، بعد أن صحح ثلاثة أخطاء إملائية فيها،
بخط جميل جداً، وبحبر أخضر.

الأجر اليومي كان يكفيني، بالضغط، لدفع إيجار الغرفة. ولكن
أقل ما كان يقلقني، في تلك الأيام، هو هاوية الفقر. وفي المرات
الكثيرة التي لم أستطع فيها دفع أجرة الغرفة، كنت أذهب للقراءة في

مقهى روما، مثلما أنا في الواقع: متروحداً وهائماً على وجهي في ليل شارع بوليفار. كنتُ أوجه التحية، من بعيد، لأي شخص أعرفه، إذا ما تنازلت بالنظر إليه، وأواصل قدماً حتى مكاني المحجوز المعهود، حيث أظل أقرأ في بعض الأحيان إلى أن "تكشني" الشمس. فقد كنتُ ما أزال آنذاك، قارئاً نهماً، دون أي تكوين منهجي، وخاصة للشعر، بما في ذلك الشعر السيئ، لأنني في أسوأ لحظات انحطاط معنوياتي، كنت مقتنعاً بأن الشعر الردي، يزدي، عاجلاً أو آجلاً، إلى الجيد.

كنتُ أبدو، في زاويتي "الزرافة"، متحسباً جداً للثقافة الشعبية، على خلاف قصصي القصيرة التي تبدو أشبه بأحجيات كافكاوية، يكتبها شخص لا يدري في أي بلاد يعيش. ومع ذلك، فإن حقيقة روحي هي أن مأساة كولومبيا كانت تصلني كما في رجع بعيد، ولا تستثيرني إلا عندما تطفح الأنهار بالدم. كنتُ أشعل سيجارة قبل أن أنهي السيجارة السابقة، وأعب الدخان بلهفة الحياة التي يعبّ بها المصابون بالربو الهواء، وكانت علب السجائر الثلاث التي أستهلكها، كل يوم، تظهر على أظفاري، وفي سعال الكلب العجوز الذي عكر سنوات شبابي، وباختصار، كنتُ خجولاً وكثيراً، مثل أي كاريبي طيب، وشديد الغيرة على حميستي إلى حد الرد على أي سزال عنها، بعبارة سفاهة بليغة. وكنت مقتنعاً من أن سر، طالعي خلقي، ولا خلاص لي منه، خاصة مع النساء والنقود. ولكن ذلك لم يكن يهمني، لأنني كنت أؤمن بأنني لا أحتاج إلى حسن الطالع كي أكتب بصورة جيدة، لم أكن أحفل بالمجد، ولا بالمال، ولا بالشبوخة، لأنني كنتُ واثقاً من أنني سأصوت شاباً قتيلاً ومشرداً في الشارع.

الرحلة مع أمي لبيع البيت في أراكاتاكا، أنقذتني من تلك الهاوية. وكشف لي يقين الرواية الجديدة، مستقبلاً مختلفاً. لقد كانت رحلة حاسمة بين الرحلات الكثيرة في حياتي، لأنها أثبتت لي بالتجربة، أن الكتاب الذي حاولت كتابته، ما هو إلا مجرد اختلاق بلاغي، ليس له أي استناد إلى حقيقة شعرية. وقد تفتت المشروع شظايا بالطبع، عند مواجهته بالواقع الذي تكشف لي في تلك الرحلة.

ما كان يمكن لنموذج ملحمة كالذي كنتُ أحلم به، أن يكون غير نموذج أسرتي بالذات، وهي أسرة لم تكن قط بطلقة، أو حتى ضحية شيء محدد بعينه، وإنما مجرد شاهدة بلا فائدة، وضحية لكل شيء، بدأتُ بكتابتها منذ لحظة عودتي بالضبط، إذ لم يعد يفيدني، في شيء، الشغل بأدوات مصطنعة. وإنما الشحنة الانفعالية التي أجرجرها دون أن أدري، والتي انتظرتني سليمة في بيت الجدين، فنحن خطراتي الأولى على رمال القرية الملتهية، أدركتُ أن منهجي لم يكن هو الأكثر ملاءمة لرواية ذلك الفردوس الأرضي من الحراب والحنين، بالرغم من أنني أنفقت الكثير من الوقت والعمل، للعشور على المنهج الصحيح. ولم تكن مشاغل كرونيكا التي على وشك الصدور تشكل عائقاً، بل على العكس تماماً: لقد شكلت كايحاً للجزء.

وباستثناء ألفونسو فورتينمايور - وقد فاجأني وأنا في حمى الإبداع، بعد ساعات من بدئي الكتابة - ظل بقية أصدقائي يعتقدون، لوقت طويل، أنني ما زلت أواصل العمل في مشروع "البيت القديم". فقررت أن أبقى الأمور على ذلك النحو، بسبب الخوف الطفولي من أن يُكتشف إخفاق فكرة كنت قد تكلمت عنها طويلاً، كما لو أنها عمل

خالد، ولكنني فعلت ذلك أيضاً، لاعتقاده خرافتي ما زلت أؤمن به،
بوجوب رواية قصة، وكتابة أخرى مختلفة كيلا يُعرف أي منهما هي
الصحيحة. ولا سيما في المقابلات الصحفية، وهي في نهاية المطاف
جنس تخييل خطير بالنسبة لكتاب خجولين لا يريدون أن يقولوا أكثر مما
يجب عليهم قوله. ومع ذلك، لا بد أن خيرمان بارغانس قد اكتشف الأمر
بفطنته الغربية؛ فيعد شهر من سفر دون رامون إلى برشلونة، قال له في
إحدى رسائله: "أظن أن غابيتو قد تخلى عن مشروع البيت. وهو منهمك
الآن في رواية أخرى". وكان دون رامون يعرف ذلك بالطبع، قيل أن
يغادر.

لقد كنت أشعر، منذ السطر الأول، بأنه لا بد للكتاب الجديد من أن
يستند إلى ذكريات طفل في السابعة، ناج من مجزرة عام ١٩٢٨
العامة في منطقة الموز، ولكنني سرعان ما استبعدت ذلك، لأن القصة
سبقت محدودة ضمن وجهة نظر شخصية، ليس لديها ما يكفي من
الموارد الشعرية لروايتها، وعندئذ وعيت أن مغامرتي بقراءة أوليسيس،
وأنا في العشرين من عمري، ثم الصخب والعنف فيما بعد، كانت جراحة
مبكرة بلا مستقبل؛ فقررت إعادة قراءتهما بنظرة أقل احتراساً.
وبالفعل، فقد تكشف لي عندئذ، كثير مما بدا لي متحذلقاً ومغلقاً، عند
جويس وفوكتر، عن جمال وبساطة جارفيتين. فكرت في جعل المونولوج
متعدد الأصوات، يشمل القرية كلها، مثل كورال إغريتي راو، على
طريقة بينما أرقد محتضرة، حيث تتوالى تأملات أسرة كاملة تحيط
بمحتضرة. لم أنجح أبداً على تكرار أسلوبها البسيط في الإشارة إلى أسماء
الأبطال، عند كل تكلم، مثلما في النصوص المسرحية. ولكنها أمدتني

بفكرة الاختصار على استخدام ثلاثة أصوات، الجد والأم والطفل، يمكن
لنراتها ومصائرهم المختلفة جداً، أن تحدد هوية المتكلم تلقائياً. والجد في
الرواية لن يكون أعور مثل جدي، وإنا أعرج. وستكون الأم ذاهلة،
ولكنها ذكية، مثل أُمي. والطفل جامد، مرعوب ومتأمل، مثلما كنتُ
وأنا في مثل سنه. لم يكن كل ذلك لقبة إبداعية بأي حال، وإنا مجرد
وسيلة تقنية.

لم يتعرض الكتاب الجديد لأي تغير معنق خلال كتابته، ولا لأي
نسخة مختلفة عن الأصلية، باستثناء بعض الحذف والترقيع على امتداد
سنتين، قبل صدور طبعته الأولى، ربما بسبب إدماجي عادة مواصلة
التصحيح حتى الموت. أما القرية - وهي مختلفة تماماً عن تلك التي
كانت لدي في المشروع السابق - فقد رأيتها رؤية العيان في الواقع،
عند عودتي إلى أراكاتاكا مع أُمي، غير أن هذا الاسم - مثلما نهني
دون رامون الحكيم جداً - بدا لي غير ملائم، مثله مثل بارانكييا. وكان
يخلو كذلك، من النفحة الأسطورية التي أبحث عنها للرواية. وهكذا
قررت تسمية القرية بالاسم الذي كنت أعرفه، دون شك، منذ طفولتي،
ولكن شحنته السحرية لم تتكشف لي حتى ذلك الحين؛ ماكوندو.

كان عليّ أن استبدل عنوان "البيت" - وهو مألوف جداً آنذاك بين
أصدقائي - لأنه لا علاقة له بالمشروع الجديد. ولكنني اقترفت الخطأ بأن
رحت أدون، على دفتر مدرسي، كل عنوان يخطر لي، بينما أنا أكتب.
وقد تجمع لدي أكثر من ثمانين عنواناً. وأخيراً، وجدته دون أن أبحث
عنه، في النسخة الأولى شبه المكتملة، عندما استسلمت لإلحاح كتابة
مقدمة من المؤلف. لقد قفز العنوان في وجهي، كأكثر التسميات أنفة

وأكثرها إشفاقاً في الوقت نفسه، بين تلك التي أطلقتها جدتي، بما تبقى لديها من ترسيات أرستقراطية، على بقايا اليونانية قروت كومباني: عاصفة الأوراق^(١).

الكتاب الذين حفزوني أكثر من غيرهم على كتابتها، هم الروائيون الأمريكيون، وخاصة أولئك الذين أرسل لي أعمالهم إلى سوكري، أصدقائي في ياراتيكيا، ولا سيما بسبب تشابهات من كل نوع كنت أجدها بين ثقافات أعماق الجنوب الأمريكي وثقافة الكاريبي التي أتوحد معها توحداً مطلقاً وجوهرياً وغير قابل للتبدل، في تكويني ككائن بشري وكاتب. منذ وعيت ذلك، بدأت أقرأ ككاتب حرفي حقيقي، ليس للمتعة فقط، وإنما بدافع فضول لا يرتوي إلى اكتشاف كيف كُتبت أعمال الحكماء تلك، قرأتها أولاً بصورة سوية، ثم بالمقلوب، وأخضعتها لنوع من نزوع الأحشاء الجراحي، بغية التوغل في أشد أسرار بنائها خفية. وبالتوجه نفسه، لم تكن مكتبتني قط، سوى أداة عمل، حيث يمكنني أن أجد في الحال، فضلاً لدوستريفسكي، أو التأكد من معلومة حول صرح بوليس قبصر أو حول آلية مُقَحَّم سيارة. ولدي، فوق ذلك، مرجع في افتراق الاغتيالات المحكمة، إذ قد يحتاج إليه أحد شخصي المعوزين. أما ما عدا ذلك، فألجزة أصدقائي الذين كانوا يوجهوني في قراءاتي، ويعيرونني الكتب التي عليّ قراءتها في الوقت المناسب، والذين قاموا بالقراءات القاسية لأصول كُتبي قبل نشرها.

لقد أمدتني تلك النماذج برعي جديد لتفسي بالذات. وانتهى

(١) عنوان الرواية في الأصل: La hojarasca، أي الأوراق للذابلة المتساقطة، ولكن الرواية تُرجمت إلى العربية، وعُرفت بعنوان "عاصفة الأوراق"، وهو عنوان موفّق.

مشروع مجلة كرونিকা إلى منحي أجنحة، كانت مغفباتنا مرتفعة إلى حدّ توصلنا معه، على الرغم من العوائق الجسدية، إلى امتلاك مكتب خاص بالمجلة، في طابق ثالث بلا مصعد، بين نداءات الباعة المتجولين والحافلات المتشابكة في شارع سان بلاس الذي كان مهرجاناً صاخباً، منذ الفجر حتى الساعة السابعة ليلاً. لم يكن المكتب يكاد يتسع لنا. ولم يكن فيه هاتف بعد، أما جهاز تكييف الهواء فكان حلماً يمكن له أن يكلفنا أكثر من كلفة المجلة الأسبوعية. ولكن فوينمايوز وجد الوقت الكافي للـ المكتب بمسوحاته المهلهلة، وقصاصاته من صحف بكل اللغات، ومراجعته الشهيرة حول مهن غريبة، وعلى منضدته كندير، كان يقع تاريخ أندروود الذي أنقذه، مجازفاً بحياته، من حريق في إحدى السفارات، وهو اليوم درة في متحف ياراتيكيا الرومانسي. أما المنضدة الوحيدة الأخرى، فكتبتُ أشغلها أنا، وعليها آلة كاتبة مستعارة من الهيرالدو، بحكم منصبني اللامع كرئيس للتحريم، وكانت هناك طاولة رسم مخصصة لأليخاندرؤ أوبريغون، وأورلاندو غيرا، وألفونسو ميطو، ثلاثة رسامين مشهورين التزموا، وهم بكامل وعيهم، بوضع رسوم توضيحية للمساهمات الكتابية. وهذا ما فعلوه، أولاً بدافع من كرمهم الفطري، وأخيراً لأننا لم نكن نملك فلساً فائضاً لنا نحن بالذات. أما المصور الأكثر مواظبة وتضحية، فكان كيكي سكوبيل.

فضلاً عن عملي في التحرير المرتبط بمنصبي، كان عليّ أن أتابع، كذلك، عملية تنضيد المواد، ومساعدة مصحح التجارب، على الرغم من إملاتي الهولندي، ولأنني حافظت على التزامي مع الهيرالدو، بمواصلة كتابة "الزرافة"، لم أجد متسعاً كبيراً من الوقت، للمشاركة في

مساهمات منتظمة في كرونিকা، ولكنني كنت أجد وقتاً مع ذلك،
لكتابة قصص القصيرة، في ساعات الفجر المبكرة.

وضع ألفونسو، الحبير في كل الأجناس الكتابية، ثقل إيمانه في
القصص البوليسية، وكان مولعاً بها إلى حد التعطش. فكان يترجمها أو
ينتقيها، ثم أخضعها أنا إلى عملية تبسيط شكلية ستفيدني فيما بعد،
في مهنتي. وكان ما أفعله يتلخص في الاقتصاد في المساحة، ليس
فقط بحذف الكلمات غير الضرورية، وإنما كذلك، الأحداث الفائضة عن
الحاجة، إلى أن تبقى القصة في جوهرها الخالص، دون الانتقاص من
قدرتها على الإقناع. هذا يعني شطب كل ما يمكن أن يكون فائضاً عن
الحاجة في جنس كتابي جائر، يتوجب على كل كلمة فيه أن تتكامل مع
البناء كله. وقد كان ذلك من أكثر ممارساتي العملية فائدة في تحرياتي
المؤلفة لتعلم تقنية حكاية قصة.

لقد أنقذتنا بعض أفضل قصص خوسيه فيليكس فوينمايور، عدة
سيوت. ولكن تداول المجلة بقي راكداً. ومع ذلك، فإن خشية النجاة
الأبدية ظلت تتمثل في صلاية ألفونسو فوينمايور الذي لم يُعرف عنه
قط، تمتعه بمزايا رجل مقاولات. وقد انكب على العمل في مؤسستنا
بعناد يفرق قواه، كان هو نفسه يحاول كسره في كل خطوة، بحس
سخريته الرهيب. لقد كان يقوم بكل شيء، ابتداءً من كتابة أكثر
الاقتراحات بُعد نظر، حتى أقل الملاحظات فائدة، بالجلد نفسه الذي
يسعى به إلى الحصول على إعلانات، وقروض لا تخطر على بال.
وأعمال حصرية من كتاب يصعب إقناعهم. ولكنها كانت معجزات
قاحلة. وعندما يرجع الباعة بالكمية نفسها من النسخ التي تسلموها

للبيع، كنا نحاول التوزيع الشخصي في الحانات المقفلة، ابتداءً من
حانة الرجل الثالث، حتى حانات الميناء النهري المكشوفة، حيث كان علينا
أن نتقاضى القوائد القليلة عينياً، بمقادير من الكحول.

تبين أن أحد أكثر المساهمين صوابية في الكتابة، والمقروء أكثر من
الجميع دون ريب، هو فاني أوسيو. فمنذ عدد كرونিকা الأول، كان أحد
أكثر المواظبين. وقد انتهى عموده "يوميات كاتب آلي"، الموقع بالاسم
المستعار دولي ميلو، إلى الاستحواذ على قلوب القراء. لم يكن هناك
من يصدق أن كل تلك المهن قد مارسها، بكل ذلك اللطف، الرجل نفسه.
وكان يمكن ليوب بريشو، من جانبه، أن يمنع غرق كرونিকা بأي لقبة
طبية أو فنية من العصر الوسيط. إلا أنه في موضوع العمل، كانت له
قاعدة تميز بالشفافية: إذا لم تدفعوا، فلن أقدم نتائجاً. وبالنسبة،
سرعان ما لم يعد الدفع ممكناً، رغم حسرة أرواحنا.

ومن خوليو ماريو سانتودومغو، توصلنا إلى نشر أربع قصص
ألغاز كتبها بالإنكليزية. وكان ألفونسو يترجمها بلهفة صياد يعاسيب،
في أجسام معاجمه النادرة. ويزينها أليخاندرو أوبريقون برهافة رسام
كبير، لكن خوليو ماريو كان كثير السفر، وفي اتجاهات كثيرة
متناقضة. حتى صار شريكاً غير مرئي. وقد كان ألفونسو فوينمايور هو
الوحيد الذي عرف أين يجده. وكشف لنا ذلك بجملته مثيرة للقلق:

- كلما أرى طائرة تمر، أفكر في أن خوليو ماريو سانتودومغو
موجود فيها.

أما بقية الكتاب فكانوا مساهمين مؤقتين، يُقرون أرواحنا معلقة
حتى لحظة إغلاق العدد، أو الدفع.

تقربت بوعوثنا منا، كالأنداد، ولكن لم يبدل أي من الأصدقاء النافعين جهوداً من أي نوع، لإبقاء أسبوعيتنا طافية، باستثناء خورخي ثالاميا الذي أدرك التشابه بين مجلته ومجلتنا، فاقترح علينا اتفاق تبادل للمواد، أعطى نتائج طيبة، إلا أنني اعتقد أن أحداً لم يقدر، في الواقع، ما الذي كانت ثقله كرونيكا من معجزة. كان مجلس التحرير مؤلفاً من ستة عشر عضواً، اخترناهم لمزايا كل واحد منهم المعترف بها. وجميعهم كانوا من لحم وعظم، ولكنهم متنفذون ومشغولون إلى حد يمكن الشك بوجودهم.

لقد كان لكرونيكا، بالنسبة لي، أهمية جانبية، في أنها أجبرتني على ارتجال قصص مستعجلة للـ فراغات طارئة عند إغلاق العدد. كنت أجلس إلى الآلة الكاتبة، بينما عمال الليثوتيب والإخراج يقومون بعملهم، فأخترع من العدم، قصة بحجم الفراغ المتبقي، على هذا النحو كتبت، "عن كيف قامت ناتانال بزيارة"، وحلّت لي مشكلة مستعجلة عند الفجر؛ وقصة "عيننا الكلب الأزرق" بعد خمسة أسابيع من ذلك.

أول هاتين القصتين، كانت أصل سلسلة قصص بالشخصية الرئيسية نفسها. وقد أخذت اسمها، دون إذن، من أندريه جيد. وكتبت فيما بعد "نهاية ناتانال" لكي أحل مأساة أخرى، في اللحظة الأخيرة. وشكلت القستان كلثامها جزءاً من مشهد من ست قصص، أرشفتها دون ألم عندما أدركت أنه ليس لها أي علاقة بي، وأتذكر مما بقي منها، واحدة ليست لدي أي فكرة عن موضوعها، بعنوان: "عن كيف ارتدت ناتانال ملابس العروس"، الشخصية لا تبدو لي اليوم شبيهة بأحد عرفته، ولم تكن تستند إلى معاشاتي الخاصة أو معاشات آخرين، ولا

يمكنني حتى أن أتصور كيف أمكن لقصة لي، أن تتناول مثل ذلك الموضوع الحاطن جداً. لقد كانت ناتانال، في نهاية المطاف، مجازفة أدبية دون أية أهمية إنسانية. غير أنه من المناسب، تذكر تلك النكبات، كيلا ننسى أن الشخصية لا تُخلق من الصفر، مثلما أردت أن أفعل بناتانال. ولحسن الحظ، أن المخيلة لم تتح لي المضي بعيداً جداً عن نفسي. وليسوء الحظ، أنني كنت مقتنعاً كذلك، بأنه لا بد من أن يدفع للعمل الأدبي أجر جيد، مثلما يدفع لبناً الأجر. وإذا كنا ندفع جيداً، وفي الموعد المحدد، لعمال الطباعة، فأولى بنا أن ندفع كذلك، للكاتب.

أفضل صدى كنا نلقاه عن عملنا في كرونيكا، كان يأتي في رسائل دون رامون التي يرسلها إلى خيرمان بارغاس. لقد كان يهتم بأدنى الأخبار التي لا تخطر على بال، وبالأصدقاء والأحداث في كولومبيا. وكان خيرمان يرسل إليه قصاصات من الصحف، ويروي له في رسائل لانهائية، الأخبار التي تمنعها الرقابة. هذا يعني أنه كان يتلقى كرونيكا مزدوجة: المجلة التي نحررها نحن، وتلك التي يلخصها له خيرمان في نهاية كل الأسبوع. وقد كانت تعليقات دون رامون المشحمة أو القاسية حول مقالاتنا، هي نهمنا الأكبر.

بين الأسباب العديدة التي أرادوا أن يفسروا، من خلالها، عشرات كرونيكا، وحتى تروث الجماعة، عرفت مصادفة أن البعض يعزونها إلى سوء طالعني الخلفي والمعدني. وكدليل دامع على ذلك، كانوا يذكرون محققني الصحفي عن بيراسكوتشيا، لاعب كرة القدم البرازيلي، الذي أردنا المصاحبة من خلاله، بين الرياضة والأدب في جنس كتابي جديد، وكان إخفاقاً مدوياً. عندما علمت بسمعتي الشيعة، كان الأمر قد انتشر

بين زبائن مقهى جايي. فأقدمت، وقد وهنت عزيمتي حتى التخاع، على طرح الأمر مع خيرمان بارغاس؛ وكان مطلعاً على ما يقال، مثل بقية أفراد الجماعة، فقال لي دون أدنى تردد:

- اطمئن يا معلم، فكتابة مثل كتابتك، لا يمكن تفسيرها إلا بحسن طالع لا يمكن لأحد أن يهزمه.

لم تكن الليالي كلها سيئة. فليلة السابع والعشرين من تموز ١٩٥٠، في دار حفلات نيفرا إوفيميا، كان لها نوع من القيمة التاريخية في حياتي ككاتب. لا أدري لأي سبب، أمرت صاحبة المحل بطهي وجبة سانكوتشو ملحية بأربعة أصناف من اللحوم. وقد ضاعفت الكروانات التي شربتها الروائح الحادة، من تعييبها حول الموقد. فأمسك زبون هائج بعنق كروان منها، وألقى به حياً، في قدر الطبخ الذي يغلي. لم يستطع الحيوان أن يطلق أكثر من صرخة ألم مع خفقة أخيرة من جناحيه، وغرق في أعماق الجحيم. حاول القاتل الهيجي أن يسك كرواناً آخر، لكن نيفرا إوفيميا نهضت عن عرشها، بكل ما لديها من سلطة، وصرخت:

- يا للعنة! اهدؤوا، وإلا ستقتل الكروانات عيونكم!

لم يهتم أحد سواي بذلك، لأنني الوحيد الذي لم تتحمل روحه تذوق السانكوتشو المذنب. وبدلاً من أن أذهب للنوم، سارعت بالذهاب إلى مكتب كروتنيكا، وكتبتُ في نفس واحد، قصة قصيرة عن ثلاثة زبائن في مأجور، تقتلع الكروانات عيونهم، ولا يصدق ذلك أحد، كان حجم القصة أربع صفحات من القطع الرسمي، وبفراغ مزدوج بين الأسطر. وكانت مروية بصيغة المتكلم المفرد، وهو في هذه المرة دون اسم. إنها

قصة ذات واقعية شفافة، وهي مع ذلك أكثر قصصي لغزية. وقد جعلتني أتوغل في انجلاء كنت أوشك أن أهجره، لأنني لم أعد قادراً على مواصلة. بدأت الكتابة في الساعة الرابعة فجراً، من يوم الجمعة، وانتهيت في الساعة صباحاً، يعطيني انبهار عراف. وشواطئ منزله من جانب بورفيريو مبدوثاً، منتفد الهيرالدو التاريخي، أعدت تنظيم مخطط طبعة كروتنيكا التي ستوزع في اليوم التالي. وفي اللحظة الأخيرة، بينما أنا قانط من مقصلة إغلاق العدد، أملت على بورفيريو العنوان النهائي الذي فكتنتُ، أخيراً، من العشر عليه. وقد كتبه هو مباشرة، بالرماض المصهور: "ليلة الكروانات".

لقد كانت هذه القصة بالنسبة لي، بداية مرحلة جديدة، بعد تسع قصص لا تزال في الليبوس الميشاليزيقي، وفي وقت لم يكن لدي فيه أي مشروع لمواصلة التقدم في جنس أدبي لم أستطع الإمساك به. أعاد خورخي ثالاميا نشر القصة، في الشهر التالي، في مجلة كروتنيكا، وهي مجلة بمثابة للشعر الكبير. وقد عدت لقراءتها، بعد خمسين سنة من ذلك، قبل أن أكتب هذه الفقرة بالذات. وأظن أنني غير مستعد لاستبدال فاصلة واحدة منها، ووسط الفوضى التي كنت أعيش فيها دون بوصلة، كانت تلك القصة هي بداية ربيع.

أما البلاد، بالمقابل، فكانت تعيش في دوامة. فقد رجع لاوريانو غوميث من نيويورك، ليعلن أنه المرشح المحافظ لرئاسة الجمهورية. امتنع الليبراليون عن خوض الانتخابات حيال سيطرة العنف، فاختير غوميث رئيساً في السابع من آب ١٩٥٠. وبما أن الكونغرس كان مغلقاً، فقد تولى المنصب أمام محكمة العدل العليا.

لم يكذب يمارس الحكم بجسده الحاضر، إذ أنه استقال من الرئاسة، بعد خمسة عشر شهراً، لأسباب صحية حثاً. وحل محله الحقوقي والبرلماني المحافظ روبرتو أوردانيتا أربيلاز، بوصفه المسمى الأول لخلافة رئيس الجمهورية. وقد فسر الليبراليون ذلك، على أنه صيغة تليق تماماً بسلوك لاوريانو غوميث، إذ تضح له ترك السلطة في أيدي أخرى، ولكن دون أن يفقدها، ويواصل الحكم من بيته عبر شخص وسيط. وغير الهاتف، في الحالات المستعجلة.

أظن أن عودة ألفارو سيبيدا بشهادته من جامعة كولومبيا، قبل شهر من التضحية بالكروان، كانت حاسمة لتجاوز أقدار تلك الأيام المشؤومة. لقد عاد أقصر شعراً، ودون شاربته الذي كالفرشاة، وأكثر فظاظاً مما كان عليه عند ذهابه. كنت أنا وخيرمان بارغاس ننتظره منذ عدة شهور، والخوف يمتلئنا من أن يكونوا قد هذؤوا طباعه في نيويورك. وكذنا تموت من الضحك عندما رأينا ينزل مرتدياً سترة وربطة عنق، ويلوح محبباً من سلم الطائرة، برواية هيمستغواي حديثة الصدور، عبر النهر وبين الأشجار. انتزعت الكتاب من يديه، وداعيت خافتيه. وعندما أردت أن أسأله شيئاً، سقني ألفارو إلى القول:

- إنه براز!

غص خيرمان بارغاس بالضحك، وهمس لي: "لقد رجع مثلما ذهب". ومع ذلك، فقد أوضح لنا ألفارو، بعد ذلك، أن حكمه على الكتاب مجرد مزاح، لأنه بدأ بقراءته، خلال الرحلة، من ميامي فقط. وما رفع معنوياتنا، على أي حال، أنه جاء حاملاً معه، بصخب أكثر من السابق، حصية الصحافة والسينما والأدب. وخلال الشهور التالية، بينما هو يستعيد التألم، كان يبقينا محمومين بأربعين درجة مئوية.

لقد كانت العدوى مباشرة؛ فزاويتي "الزرافة" التي كانت، منذ شهور، تدور حول نفسها، وتضرب خيط عشاء، بدأت تنفخ من مقطعين مستلين من مسودة "البيت". أحدهما "ابن الكولونيل" الذي لم يولد قط، والآخر "ني"، عن طفلة مشهورة، طرقت بابها مرات كثيرة، بحثاً عن دروب مختلفة، ولم تجني قط. واستعدت كذلك، اهتمام صباي بالرسوم المتسلسلة، ليس كتسليية ليوم الأحد، وإنما كجنس أدبي جديد محكوم عليه، دون مسوغ، بالبقاء في حجرة الأطفال. وكان بطلني، بين الأبطال الكثيرين، هو "ديك تراكي". واستعدت فضلاً عن ذلك، وكيف لا، ولعي بالسينما الذي غرسه في الجد، وغذاء دون أنطونيو داكوتيني في أراكاتانكا، وحوكة ألفارو سيبيدا إلى شغف إنجيلي، في بلاد تُعرف فيها أفضل الأفلام، من خلال ما يرويه الرحالة. وكان من حسن الحظ، أن رجوعه توافق مع عرض فيلمين بارعين: *Introducer in the Dust*، من إخراج كلارنس براون عن رواية لوليم فركتر، وصورة جيئي، من إخراج ولیم دبتريل عن رواية لروبرت ثاتان. وقد علقت على الفيلمين في "الزرافة"، بعد مناقشات مطولة مع ألفارو سيبيدا، وواظبت على الاهتمام، إلى أن بدأت أنظر إلى السينما بروية جديدة. قبل أن أتعرف عليه، لم أكن أعرف أن اسم المخرج هو الأهم، مع أنه آخر من يظهر في "التصويرات"، فقد كانت السينما، في نظري، مجرد كشاية سيناريو وتحريك ممثلين. وما سوى ذلك ينجزه بقية أعضاء الفريق الكثيرين. عندما رجع ألفارو سيبيدا، قدم لي دورة تعليمية كاملة، عمادها الصراخ والروم الأبيض حتى الفجر، على موائد أسوأ المائات؛ لكي يعلمني، بالضرب، ما علموه إياه في الولايات المتحدة، عن السينما. وكان يطلع علينا الفجر ونحن نحلم، مستيقظين، بصنع سينما في كولومبيا.

وما خلا هذه الانفجارات المضيفة، كان انطباعاتنا، نحن الأصدقاء الذين نتبع ألفارو في سرعة الطواف التي ينطلق بها، هو أنه لا يمتلك السكنية ليجلس ويكتب. ولا يمكن لنا، نحن الذين عايشناه عن قرب، أن نتصوره جالساً لأكثر من ساعة، إلى أي متضدة. ومع ذلك، بعد شهرين أو ثلاثة شهور من رجوعه، اتصلت بنا تيتا مانوتاس - خطيبته لسنوات طويلة، وزوجته مدى الحياة - مذكورة، لتخبرنا بأن ألفارو قد باع شاحنته الصغيرة التاريخية، وأنه نسي في محفظتها، أصول قصصه القصيرة غير المنشورة، والتي لا توجد نسخة أخرى منها. لم يبدل ألفارو أي جهد للبحث عنها، متعللاً بذريعة خاصة به تماماً، بأنها تست أو سبع قصص برازية، انهمكنا، نحن الأصدقاء والمراسلين، في مساعدة تيتا في البحث عن الشاحنة التي أعيد بيعها، عدة مرات على امتداد ساحل الكاريبي والأراضي الداخلية حتى ميدلين، وأخيراً وجدناها في ورشة، في سيثيليكو، على بعد نحو مئتي كيلومتر، سلمنا الأصول المكتوبة على شرائح ورق طباعة، وكانت مجمعة وناقصة، إلى تيتا، خوفاً من أن يضيعها ألفارو مرة أخرى، سهواً أو عمداً.

نُشرت قصتان من تلك القصص في كرونيكا، واحتفظ خيرمان بارغاس بالأخباريات بضع سنوات، ريثما يجد حلاً لنشرها، وقامت الرسامة سيميليا يوراس، الوفية للجماعة دوماً، بتزيينها برسوم ملهمة، هي صورة شعاعية لألفارو، مرتدياً كل ما هو ممكن في آن واحد: زي سائق شاحنة، مهرج مهرجان، شاعر مجنون، طالب في جامعة كولومبيا أو أي مهنة أخرى، باستثناء إظهاره كرجل عادي وسوي. وقد تولت مكتبة "موندو" نشر الكتاب بعنوان جميعنا كنا بالانتظار. وكان حدثاً

أديباً، لم يتجاهله سوى النقد الأكاديمي وحده. وقد كان في نظري - وهو ما كتبته آنذاك - أفضل كتاب قصص قصيرة، يُنشر في كولومبيا، حتى ذلك الحين.

أما ألقوتسو فريشايور، من جانيه، فكان كاتب تعليقات نقدية، ومعلم أدب في الصحف والمجلات. ولكنه يخجل كثيراً من جمع كتاباته تلك، في كتاب. وكان قارئاً استثنائياً في نهجه الذي يكاد لا يقارن إلا بنهم ألفارو موتيس أو إدواردو ثالاميا. وقد كان هو وخيرمان بارغاس، ناقلين بارعين، لا سيما في نقد قصصهما أكثر من نقد قصص الآخرين. ولكن نزوتهما في العصور على قيم أدبية شابة، لم تخطئ التوجه قط. كان ذلك في الربيع الذي سرت فيه شائعة ملحة بأن خيرمان يتأخر في السهر، وأنه يكتب قصصاً بارعة. غير أنه لم يُعرف شيء عنها إلا بعد سنوات طويلة، عندما حبس نفسه في غرفة تومه، في بيت أبويه، وأحرق تلك القصص. قبل ساعات من زواجه من اثليينتي سوزانا لينارس، ليؤكد من أن أحداً، بمن في ذلك هي نفسها، لن يتمكن من قراءتها. ويُعتقد أنها كانت قصصاً قصيرة ودراسات، وربما مسودة رواية، لكن خيرمان لم يقل قط، كلمة واحدة عنها. لا قبل ولا بعد. وعشية زفافه فقط، اتخذ الاحتياطات المشروعة كيلا يعرف أحد شيئاً عنها، بمن في ذلك المرأة التي ستصير زوجته، منذ اليوم التالي. لقد انتبهت سوزانا إلى ما يفعله، ولكنها لم تدخل الغرفة لمعه، لأن حمايتها ما كانت تسمح لها بذلك. وقد قالت لي سوزي بعد سنوات، بمزاح متهور: "لم يكن بإمكان الخطيبة، في تلك الأزمنة، أن تدخل، قبل الزفاف، إلى غرفة نوم خطيبها".

لم تكن قد انقضت سنة، عندما بدأت رسائل دون رامون تصير أقل وضوحاً، وأشد كآبة وتندرة. دخلتُ إلى مكتبة موندو، يوم السابع من أيار ١٩٥٢، في الثانية عشرة ظهراً، ولم يكن على خيرمان أن يقول لي شيئاً لأعرف أن دون رامون قد مات، قبل يومين من ذلك، في برشلونة أخلامم. وكان تعليقنا الوحيد، مع توالي وصولنا إلى المقهى عند الظهيرة، هو تعليق الجميع:

- يا للخسارة!

لم أكن واعياً، آنذاك، أنني أعيش سنة مختلفة من حياتي. ولم يعد لدي شك اليوم، في أنها كانت سنة حاسمة. لقد كتبت حتى ذلك الحين، بمظهري المهمل. كنتُ محبوباً ومحترماً من كثيرين، وألقي تقدير البعض، في مدينة يعيش كل امرئ فيها على طريقتيه وهواه. وكنت أمارس حياة اجتماعية مكثفة، وأشارك في مناسبات فنية واجتماعية بصندل الحاج الذي أنتعله، والذي بدا كما لو أنه اشترى لحاكة الغارو سبيدا. ولم يكن لدي سوى بنطال واحد من الكتان، وقميصين أغسلهما تحت الدوش، أثناء الاستحمام.

وبين ليلة وضحاها، لأسباب متعددة - بعضها بالغ الابتذال - بدأت ملايسي تتحسن، وقصصت شعري كالمجندين، وشلبت شاربي وجعلته ربيعاً، وتعلمت انتعال حذاء سيناتور أهداه إليّ الدكتور رافائيل هارياشا، رفيق طريق للشلة، ومؤرخ المدينة، لأنه كبير على مقاس قدميه. وبفعل ديناميكية وصولية غير واعية، بدأت أشعر بانني أختشق من الحر، في حجرة الفندق الذي أسميناه "ناطحة السحاب"، كما لو أن أراكاتاكا موجودة في سيبيريا، وأعاني من زبائن الفندق العابرين الذين

يشكلون بصوت عال، عند استيقاظهم، ولا أكل من التذمر لأن عصفورات الليل يواصلن اقتياده زمر كاملة من بحارة المياه العذبة، إلى حجراتهن.

وأنا أدرك اليوم، أن مظهري كمتسول، لم يكن بسبب فقري أو لكوني شاعراً، وإنما لأن طائفتي كانت مركزة بعمق، على الإصرار على تعلم الكتابة. وما إن لمحت الطريق الصحيح، حتى هجرت "ناطحة السحاب" وانتقلت إلى حي برادو الهادئ، في الجانب الأقصى الآخر، عمرانياً واجتماعياً، على بعد كوادرتين من بيت ميلا ديلامار، وعلى مسافة خمس كوادرات من الفندق التاريخي، حيث يرقص أبناء الأغنياء مع حبيباتهم العذراوات، بعد قداس يوم الأحد. أو أنني، مثلما قال خيرمان: بدأت أتحسن إلى الأسوأ.

سكنت في بيت الأخوات أبيلا - إستير، ومايشو، وتونيا -، وكنت قد تعرفتُ عليهن في سوكري. وكن منهنكات منذ زمن، في محاولة إنقاذي من الضياع. وبدلاً من حجرة الكرتون التي فقدت فيها الكثير من حراشف الحفيد المدلل، صار لي حينئذ، غرفة نوم خاصة بي، لها حمام خاص ونافذة مطلة على الحديقة، مع تقديم الوجبات اليومية الثلاث، مقابل أجر يزيد قليلاً عن راتبي. اشتريت بنطالاً ونصف درنة من القمصان التروبيكالية المزينة برسوم أزهار وطيور، استحققت عليها، لبعض الوقت، سمعة سرية بأنني مخنث سفينة. وبدأت ألتقي عندئذ، في كل مكان، بأصدقاء قداماء لم يكونوا يصادفونني في أي مكان من قبل. واكتشفتُ بهجة أنهم يحفظون، عن ظهر قلب، حقايات "الزرافة"، وأنهم متعصبون لجلة كروتিকা بسبب ما يسمونه، هم، كغيرها

الرياضي. بل إنهم كانوا يقرؤون قصصي كذلك. دون أن يتمكنوا من فهمها. وجدت ريكاردو غونزالث ريبول، جاري في قاعة الترم في المعهد الوطني، وكان قد استقر في بارانكيًا بشهادته كمهندس معماري. وخلال أقل من سنة، حلَّ شؤون الحياة، باقتنائه سيارة شيفروليه "ذيل البطة". ذات عمر غير محدد. وكان يحشر فيها، عند الفجر، حتى ثمانية ركاب. وقد اعتاد أن يأتي ليأخذني من البيت، في بداية الليل، ثلاث مرات كل أسبوع. كي نذهب للسهر مع أصدقاء جدد مهووسين في تقويم حال البلاد، بعضهم بصيغ السحر السياسي، وآخرون يتبادل اللكمات مع الشرطة.

عندما علمت أنني بأمر هذه المستجدات، أرسلت لي رسالة شفوية تعبر تماماً عن شخصيتها: "المال يستدعي المال". أما جماعة الشلة، فلم أخبرهم بأي شيء. عن انتقالني، إلى أن وجدتهم في إحدى الليالي، حول المنضدة، في مقهى جابي، فأمسكت بصبغة لومي دي بيغا البارعة: "ورقيت نفسي، بما يلائم ترتيبني لفوضائي". ولست أتذكر صغير استهجان مائلاً حتى في ستاد كرة القدم. وقد راهن خيرمان على أنني لن أستطيع وضع تصور لأي فكرة، بعيداً عن "ناطحة السحاب". ورأى الفارو أنني لن أقوم بمقضى ثلاث وجبات يومية في مؤعدها الدقيق. وعلى خلافهما، احتج ألفونسو إساءة تدخلهما في حياتي الخاصة، واستبعد الموضوع بفتح جدال عن الحاجة الملحة إلى اتخاذ قرارات جذرية بشأن كرونيكًا. أظنهم كانوا يشعرون، في أعماقهم، بأنهم مذبذبون بشأن فوضائي، ولكنهم كانوا على درجة من الوفاق لا تصبح لهم أن يشكروني على قراري بإطلاق زهرة راحة.

وخلافاً لما يمكن توقعه، فإن حالتي الصحية والمعنوية قد تحسنت. صرت أقرأ أقل، بسبب ضيق وقتي، ولكنني رفعت من نبرة "الزرافة"، وأجبرت نفسي على مواصلة كتابة عاصفة الأوراق في غرفتي الجديدة، مستخدماً الآلة الكاتبة الحجرية التي أعارني إياها ألفونسو فوينمايور، خلال ساعات الفجر التي كنت أهددها من قبل مع مولود غيري. وصرت قادراً، في مساء عادي، في الجريدة، على كتابة "الزرافة"، وتعليق اقتتاحي، وبعض الأخبار الكثيرة التي تُنشر دون توقيع، وتكثيف قصة بوليسية، وكتابة ملاحظات اللحظة الأخيرة من أجل إغلاق تحرير كرونيكًا. ولحسن الحظ، أن الرواية التي كنت أكتبها، بدلاً من أن تصبح أسهل مع الأيام، راحت تفرض عليَّ زواها الخاصة المخالفة لوجهات نظري. وكنت ساذجاً إلى حد فهمت معه ذلك، على أنه أمانة رياح مواتية.

كانت همتي متوثبة، حتى إنني ارتجلت بصورة مستعجلة، قصتي القصيرة العاشرة - "أخذهم يُفسد ترتيب هذه الأزهار" -، لأن المعلق السياسي الذي حجزنا له ثلاث صفحات من كرونيكًا، من أجل مقال اللحظة الأخيرة، أصيب بقوة قلبية خطيرة. وعندما قمت بتصحيح تجارب قصتي المطبوعة فقط، انتهت إلى أنها دراما ساكنة أخرى، من تلك التي كنت أكتبها، دون أن ألاحظ ذلك. وقد أدى هذا التناقض إلى زيادة حدة تأنيب ضميري، لأنني أيقظت صديقاً قبيل منتصف الليل، لكي يكتب لي المقال، خلال أقل من ثلاث ساعات. بهذا الحالة المعنوية من الندم، كتبت القصة في الوقت نفسه، وعدت يوم الاثنين، في اجتماع هيئة التحرير، إلى طرح مسألة الضرورة الملحة لخروجنا إلى الشارع، من

أجل إخراج المجلة من ركودها، بريورتاجات صدامية. ومع ذلك، فإن الفكرة - وهي فكرة الجميع - رُنِضت مرة أخرى، بالهجة المفضلة لسعادتي: إذا ما خرجنا إلى الشارع، بمفهوما الغنائي التالي عن الريورتاج، فإن المجلة لن تصدر في موعدها - إذا صدرت -. وكان عليّ أن أفهم ذلك على أنه ثناء، غير أنني لم أستطع أن أتجاوز قط الفكرة الخبيثة بأن السبب الحقيقي هو الذكرى المشؤومة لتحقيقتي الصحافي عن بيراسكوتشيا.

وكان العزاء الطيب في تلك الأيام، هو المكاملة الهاتفية التي تلقبها من رافائيل إسكالونا، مؤلف الأغنيات التي كانت تُغنى، وما زالت تُغنى، في هذا الجانب من العالم. لقد كانت بارانكيًا مركزًا حيويًا، لكثرة ما يتردد عليها عازفو الأكورديون البارعون الذين كنا نعرفهم في حفلات أراكاتاكا، ولسعة انتشارهم في إذاعات ساحل الكاريبي. وكان غييرمو بويتراغو، أحد المغنين المعروفين جداً آنذاك، يتباهى بأنه يطلع أولاً بأول، على مستجدات بروفينشيا. وكان هناك مغن آخر واسع الشعبية يدعى كريستينشو سالسيدو، وهو هندي خاف، اعتاد الرقوف عند ناصية محل أمبركانا للمأكولات الخفيفة، ليغني، دون أي مرافقة موسيقية، حصاد أغنياته وأغنيات آخرين، بصوت فيه شيء من الصقيع، إما بفن خاص تفرد به، وفرضه على الجمهور اليومية في شارع سان يلاس. وقد أمضيت شطراً لا بأس به من شبابي المبكر، واقفاً إلى جانبه، حتى دون أن أحبيه، ودون أن أجعله يراني، إلى أن أحفظ عن ظهر قلب، أغنيات الجميع التي يغنيها.

وقد بلغت ذروة ذلك الشغف، في مساء يوم قاتظ، قاطعتني فيه

الهاتف، بينما أنا أكتب "الزرافة"، وحياتي صوت، مثل أصوات كثيرين من أصدقائي طفولتي، دون العبارات والصيغ المتداولة: - ما أخيارك يا أخي. أنا رافائيل إسكالونا.

بعد خمس دقائق، التقينا في مقهى روما لنبدأ صداقة ستستمر مدى الحياة. ما إن انتهينا من تبادل التحيّة، حتى بدأت بمحاضرة إسكالونا لكي يغني لي أغنياته الأخيرة. وقد غنى ألياً متفرقة منها، بصوت خافت جداً وموزون بدقة، رافقه بالقرع بأصابعه على المائدة. كان شعر منطفئنا الشعبي يخطر بزي جديد في كل مقطع يغنيه، وقد غنى: "سأقدم لك باقة من أزهار (لا تنسيني) لتعلمي معناها". ويشت له أنا من جهتي. أنني أعرف، عن ظهر قلب، أفضل أغنيات منطفئنا، وأنتي التقطتها منذ طفولتي المبكرة من نهر التفاليد الشفوية الصاحب. لكن أكثر ما فاجأ، هو أنني أتكلم عن بروفينشيا، وكأنتي أعرفها.

قيل أيام من ذلك، كان إسكالونا قد سافر بالمحافلة، من بييانوفيا إلى باييدوبار، بينما هو يولف، ذهنياً، موسيقى وكلمات أغنية جديدة من أجل الكرنفال، في يوم الأحد التالي. كان ذلك هو منهجه البازع، لأنه لم يكن يعرف كيفية كتابة الموسيقى، ولا العزف على آلة موسيقية، وفي إحدى قرى الطريق، صعد إلى الحافلة مغني تروبادور جوال، يتنقل صندوقاً جلدياً ويحمل أكورديوناً. واحد من أولئك المغنين الذين كانوا يجوبون المنطقة للغناء، منتقلين من مهرجان شعبي إلى آخر. أجلسه إسكالونا إلى جانبه، وغنى له بصوت هامس، المقطعين الناجزين من أغنيته الجديدة.

نزل العازف سعيداً في بييانوفيا، بينما واصل إسكالونا طريقه في

الحافلة إلى باييدوبار، حيث اضطر إلى التزم ليتعرق حتى الأربعين درجة التي سببها له رشح غاذي. وبعد ثلاثة أيام من ذلك، كان يوم أحد الكرنفال، فكانت أغنية إسكالونا، غير المكتملة التي غناها، همساً، للصديق الطارئ، كل الموسيقى القديمة والجديدة، من باييدوبار حتى رأس لايبلا، ولم يعرف أحد سواه، من الذي نشر الأغنية، بينما هو يتعرق حتى كرنفاله، ومن هو الذي وضع لها اسم: "سارة العجوز".

القصة صحيحة، ولكنها ليست غريبة ولا نادرة، في تلك المنطقة وفي أوساط نقابة الغنّين تلك، حيث العجيب المدهش هو أكثر الأمور طبيعية. فالأكورديون الذي لا يعتبر آلة موسيقية خاصة بكولومبيا أو شائعة فيها، يتمتع بشعبية واسعة في مقاطعة باييدوبار، وربما يكون قد جيء به إليها من جزيرتي آروية أو كوراساو. وخلال الحرب العالمية الثانية، توقف الاستيراد من ألمانيا، وبقيت الأكورديونات التي في المقاطعة على قيد الحياة، بفضل عشية أصحابها المخيلين بها. وكان أحدهم لياندرو ديات، وهو نجار لم يكن مؤلف موسيقى، عبقرياً، ومعلم أكورديون وحسب، وإنما الوحيد الذي عرف كيف يصلح تلك الآلات، طوال فترة الحرب، على الرغم من أنه كان أعشى منذ الولادة. لقد كان أسلوب حياة أولئك العازقين المتجولين، هو التنقل من قرية إلى قرية، وغناء أحداث ووقائع قصص الحياة اليومية الطريفة والعادية، في حفلات دينية أو دنيوية، ولا سيما في هرج ومرج الكرنفالات. أما رافائيل إسكالونا، فكان حالة مختلفة، فهو ابن الكولونيل كليمنتي إسكالونا، وابن أخت المطران المشهور سيليدون، وهو فرق ذلك حاصل على الثانوية من معهد سانتا مارتا الذي يحمل اسمه. بدأ بتأليف

الموسيقى، منذ طفولته المبكرة، وسط استنكار الأسرة التي تعتبر الغناء وعزف الأكورديون من أعمال المعوزين، ولم يكن عازف الأكورديون الجوال الوحيد الحاصل على الثانوية وحسب، وإنما أحد القلة الذين يتقنون القراءة والكتابة في تلك الأزمنة، والرجل الأكثر كبرياء وسهولة في الوقوع في الحب على الإطلاق. ولكنه لم يكن، ولن يكون الأخير؛ فهناك منهم الآن بالمئات، وهم أكثر فتوة وشباباً في كل مرة، وقد فهم بيل كليمنتون الأمر على هذا النحو، في الأيام الأخيرة من رئاسته، عندما استمع لجماعة أطفال مدرسة ابتدائية، سافروا من بروفينشيا، لكي يغفوا له في البيت الأبيض.

في أيام حسن الطالع تلك، التقيت مصادفة، بـميرثيديس بارتشا، ابنة صيدلي سوكري التي عرضت عليها الزواج مذ كانت في الثالثة عشرة من عمرها، وعلى خلاف المرات الأخرى السابقة، وافقت يومذاك، على دعوتي لها إلى الرقص، يوم الأحد التالي في فندق برادو. وقد علمتُ عندئذ فقط، أنها قد انتقلت مع أسرتهما إلى بارانكيّا، بسبب الوضع السياسي الذي تزداد وطأة طغيانه أكثر فأكثر. لقد كان أبوها، ديمتريو، ليبرالياً متشدداً لم تُرهبه التهديدات الأولى التي كانت توجه إليه كلما اشتدت الملاحقة، ولا عار المنشورات الاجتماعية، ولكنه حيال ضغط أسرته، صفى ما تبقى له من ممتلكات قليلة في سوكري، وأقام صيدليته في بارانكيّا، على مقربة من فندق برادو. ومع أنه كان في سن والدي، إلا أنه احتفظ على الدوام، بصداقة شيبانية معي، اعتدنا أن نعيد تحميتها في الحانة المقابلة، وانتهى بنا المطاف أكثر من مرة، إلى سكرات مجدفي سفن، مع شلة الأصدقاء، بكاملها، في حانة الرجل الثالث.

كانت ميرثيديس تدرس، آنذاك، في ميدلين، ولا تأتي للعيش مع أسرته إلا خلال عطلة أعياد الميلاد. لقد كانت مريحة ولطيفة في تعاملها معي، على الدوام، ولكنها تمتلك موهبة مشعوذ في التخلص من الأسئلة والإجابات، وعدم الالتزام بأي شيء محدد. وكان عليّ أن أتقبل ذلك، على أنه استراتيجية أكثر رحمة من عدم المبالاة أو الصد. وكنت أكتفي بالتقاني مع أبيها وأصدقائه في الحانة المقابلة. وإذا كان هو نفسه لم ينتبه إلى اهتمامي بإجازات ابنته التي أنتظرها بملهفة، فلأن السر كان أفضل الأسرار صوتاً خلال العشرين قرناً الأولى من التقويم المسيحي. لقد تباهى مرات عديدة، في "الرجل الثالث"، بالجملة التي ذكرتها هي نفسها في حفلة رقصة الأولى في سوكري: "أبي يقول إنه لم يولد بعد، الأمير الذي سيتزوجني". ولم أعرف إذا ما كانت تؤمن فعلاً بذلك. ولكنها كانت تتصرف كما لو أنها تؤمن به، حتى عشية عيد الميلاد ذاك الذي وافقت فيه على أن نلتقي يوم الأحد التالي، في حفلة الرقص الصباحية في فندق برادو.

إنني أؤمن بالخرافات، إلى حد أنني عززت قرارها بالقبول، إلى طريقة الفنانين التي قص بها الحلاق شعري وشاربي، وإلى بدلة الكتان الخام وربطة العنق الحريرية اللتين اشتريتهما للمناسبة، من تصفية أتراك. ولأنني كنت واثقاً من أنها ستحضر مع أبيها، مثلما تفعل حين تذهب إلى أي مكان، فقد دعوتُ كذلك، أختي عايدا روسا. وكانت تُمنّني بإجازتها معي. ولكن ميرثيديس حضرت وحيدة بروحها، ورقصت بصورة طبيعية وبكثير من المرح، بحيث يمكن لأي عرض جدي أن يبدو لها مضحكاً. في ذلك اليوم دشّن الموسم الذي لا ينسى لصديقي باتشو

غالان، المبدع المجيد لموسيقى "ميركوميري" التي بقي الناس يرتقصون على إيقاعها طوال سنوات، وكانت أصل ألحان كاريبية جديدة لا تزال حية حتى الآن. كانت ميرثيديس ترتقص جيداً على إيقاع الموسيقى الرائجة، وتستغل مهارتها لتتهرب، بتحايلاتها السحرية، من العروض التي كنت أحاصرها بها. بدا لي أن تكتيكها يرمي إلى جعلني أظن أنها لا تأخذني على محمل الجد. ولكنني كنتُ أتمكن، بالمهارة التي أجدها دوماً، من العثور على طريقة للمواصلة قدماً.

أصابها الرعب في الساعة الثانية عشرة تماماً، بسبب مرور الوقت، فتركتني وحيداً في منتصف الرقصة. ولكنها لم توافق على أن أرافقها، ولو حتى الباب. وقد بدا ذلك التصرف غريباً جداً لأختي، فأحست بأنها المذنبه بطريقة ما. وما زلتُ أتساءل حتى الآن، عما إذا لم يكن لذلك المثل السيئ، علاقة ما بقرارها المفاجئ في الانضمام إلى دير الراهبات الساليسينيات، في ميدلين. وقد انتهى بنا الأمر، أنا وميرثيديس، منذ ذلك اليوم، إلى اختراع رموز خاصة، نتفاهم بواسطتها دون أن نقول شيئاً، وحتى دون أن يرى أحدهما الآخر.

عدت إلى تلقي معلومات عنها، بعد شهر من ذلك، في الثاني والعشرين من كانون الثاني من السنة التالية، برسالة مقتضبة تركتها لي في الهيرالدو: "لقد قتلوا كايانو". وهذا لا يمكن له، بالنسبة لنا، إلا أن يكون شخصاً واحداً: كايانو خيتيلي، صديقنا في سوكري، وهو طبيب لامع، ومنشط حفلات رقص، وعاشق بالمهنة. كانت الرواية المباشرة تقول إنه قد قُتل طعنًا بسكين على يد أخوي معلمة "مدرسة تشابارال" التي رأيناها يأنى بها على حصانه. وخلال ذلك اليوم، بين برقية وأخرى، حصلت على القصة كاملة.

لم تكن أزمته الهوائف السهلة قد بدأت بعد، وكانت المكالمات الشخصية البعيدة يُتفق عليها بمرقيات مسيئة. وقد كان رد فعلي الأول هو رد فعل كاتب التحقيقات الصحفية. قررت السفر إلى سوكرى لكتابه ريبورتاج صحفي. ولكنهم فسروا ذلك في الجريدة، على أنه اندفاع عاطفي، وأنا أنفهم اليوم ذلك؛ لأننا نتهكم، نحن الكولومبيين، منذ ذلك الحين، في قتل بعضنا بعضاً لأي سبب. وقد نخلق الأسباب اختلاقاً في بعض الأحيان لكي تقتل؛ بينما تبقى الجرائم العاطفية ترفاً مقتصرأ على الأغنياء في المدن. بدا لي أنه موضوع أيدي، ورحت أسجل المعلومات من الشهود، إلى أن اكتشفت أمني نواياي الخفية، فتوصلت إلى ألا أكتب ذلك الريبورتاج. على الأقل ما دامت دونيا خوليستا تشيمنتو، أم كايثانو، على قيد الحياة؛ لأنها كانت، وهذه ذروة الأسباب، أم ابنها الروحية، باعتبارها عرابة تعميد هيرناندو، الثامن في الترتيب بين أخوتي. أما ميررها - وهو ما لا بد من ذكره في أي ريبورتاج صحفي - فكان من الوزن الثقيل. ذلك أن أخوي المعلمة لحقا بكايثانو، عندما حاول أن يهرب إلى بيته، لكن دونيا خوليستا، أمه، سارعت إلى إغلاق الباب الخارجي، لأنها ظنت أن ابنها موجود في غرفة نومه. وهكذا، فإن من لم يستطع الدخول، كان هو ابنها نفسه، وقد تمكنا من قتله بالسكاكين، عند الباب المغلق.

كان رد فعلي الفوري هو الجلوس لكتابة الريبورتاج عن الجريمة، ولكنني واجهت كل أنواع العوائق. لم يعد ما يهمني هو الجريمة بعد ذاتها، وإنما الموضوع الأدبي عن المسؤولية الجماعية. إلا أن أمني لم تقتنع بأي حجة. وبدا لي أن الكتابة دون موافقتها، هي ضرب من إساءة

الاحترام. ومنذ ذلك الحين، لم يمر يوم واحد إلا وكانت أصابعي تتحرق لهفة إلى كتابة ذلك التحقيق. وكنت قد بدأت أستسلم، بعد سنوات طويلة من ذلك، بينما أنا أنتظر طائرة مغادرة في مطار الجزائر. وفجأة فُتح باب الدرجة الأولى، ودخل أمير عربي بعباءة قشبية من عباءات بني قومه، وعلى قبضته أنثى صقر جوال بديعة. وبدلاً من غمامة الجلد التقليدية التي توضع للبيران المروضة، كانت على أنثى الصقر تلك واحدة، من الذهب مرصعة بالماس. لقد تذكرت، بالطبع، كايثانو خيتيلي الذي كان قد تعلم من أبيه، فنون التصقر الجميلة؛ في البدء يواشق محلبة، وبعد ذلك، بنساذج بديعة من الصقور المجلوبة من بلاد العرب السعيدة، وكان يملك في مزرعته، عند موته، محترفاً لتربية الصقور، فيه ذكر وأنثيان مروضة ومدربة على اصطيد الخجل. وصقر اسكتلندي مدرب على الدفاع الشخصي. وكنت أعرف، آنذاك، المقابلة التاريخية التي أجراها جورج بليمبتون مع إرنست هينغواي في مجلة "ذي باريس ريفيو"، وسأله فيها عن عملية تحويل شخصية من الحياة الواقعية إلى شخصية روائية. وقد رد عليه هينغواي: "إذا ما شرحت كيف أفعل ذلك، فسوف أنحول، في أحد الأيام، إلى مرجع للمحاميين المتخصصين في قضايا القذاح والتشهير". ومع ذلك، ومنذ ذلك الصباح الذي وفرته لي العناية الإلهية في مدينة الجزائر، كان وضعي معكوساً تماماً؛ لم أعد أشعر بأنني سأجد الحماية على مواصلة العيش بسلام، ما لم أكتب قصة موت كايثانو.

واصلت أمني التمسك بإصرارها على منع ذلك، مهما كانت الذرائع، إلى ما بعد ثلاثين سنة من المأساة؛ عندما اتصلت هي نفسها بي، وأنا

في برشلونة، لتطلعني على الخير السيئ بأن خوليتنا تشيخنتو، أم كابتانو، قد ماتت دون أن تستعيد موازنها لفقدان ابنها. ولكن أمي لم تجدد، في هذه المرة، بأخلاقها المجرية، مسيرات المنع من كتابة الريبورتاج. فقالت لي:

- إنني أرجو منك، كأم، شيئاً واحداً فقط. تعامل مع الموضوع، كما لو أن كابتانو هو ابني.

نشرت القصة التي تحمل عنوان "قصة موت معلن"، بعد سنتين من ذلك. ولم تقرأ أمي الكتاب لبس أحفظ به، في متحفى الشخصي، كجوهره أخرى منها: "إن أمراً حدث يمثل ذلك السوء في الحياة، لا يمكن له أن يكون جيداً في كتاب".

رَن الهاتف على منضدة عملي، في الساعة الخامسة مساءً، بعد أسبوع من صوت كابتانو. وكنت قد بدأت بكتابة واجبي اليومي في الهيرالدو. كان المتصل هو أمي. وقد وصل، لنوء، إلى بارانكيلا، دون إشعار مسبق. وكان ينتظرنى بصورة مستعجلة في مقهى روما. أرغبتى تهديج صوته، ولكنني دُعرت أكثر. حين رأيته مثلما لم أراه من قبل: مشعث المظهر وبذقن غير حلقة، يرتدي بدلة التاسع من نيسان الزرقاء الساوية، وقد لاکها الحر وطريق السفر. ولا يكاد يستند إلا إلى سكينه المهزومين.

سيطر عليّ حيق لا أشعر معه بأنني قادر على نقل الغم والبراءة اللذين أطلعني بهما أمي، على الكارثة الأسرية. فبلدة سوكري، فردوس الحياة السهلة، والفتيات الجميلات، قد انسأقت لتيار العنف السياسي المتلاطم. ولم يكن موت كابتانو سوى أحد أعراضه.

قال لي:

- أنت لا تدرك ما هو ذلك الجحيم، لأنك تعيش في واحة السلام هذه. أما نحن، فما زلنا أحياء هناك، لأن الرب يعرفنا.

كان واحداً من أعضاء الحزب المحافظ القليلين الذين لم يضطروا إلى التواري عن أنظار الليبراليين المتأججين غضباً، بعد التاسع من نيسان؛ أما جماعته الذين كانوا يلوذون في ظله، فقد نبذوه الآن. بسبب فتور حماسه. رسم لي لوحة بالغة الرعب - وبالغة الواقعية - تسوغ تماماً قراره التسرع بالتخلي عن كل شيء. والانتقال بالأسرة إلى كارتاخينا. لم تكن لدي حجة عقلانية أو عاطفية ضده، ولكنني فكرت في أنه قد يفهم ذلك على أنه حل أقل جذرية من الانتقال الفوري.

كان لا بد لي من كسب الوقت للتفكير. تناولنا شرباً مرطباً ونحن صامتان، كل منا مستغرق في أفكاره. وقد استرده هو مثاليته المحنومة قبل الانتهاء، وشلّ قدرتي على الكلام حين قال، وهو يطلق زفرة رهيبية: "عزائي الوحيد في كل هذا الأمر، هو سعادتي في أنك ستتمكن أخيراً من إنهاء دراستك." لم أخبره قط، بالتأثر الذي سببته لي سعادته الروحية تلك، بقضية على ذلك القدر من الاضلال. أحسست بنفحة جليدية في بطني، تفجرها الفكرة الخبيثة بأن رحيل الأسرة ليس سوى حيلة منه لإجباري على أن أصير محامياً. نظرت مباشرة إلى عينيه وكانتا يركبتين ذاهلتين. إنه ينتهي إلى أنه في حالة من الخذلان والجزع، لن يجبرني معها على شيء، ولن يرفض لي رأياً. ولكن إيمانه بتصيبه من العناية الإلهية، كان كافياً لأن يعتقد بأنه يمكن لي أن أستسلم من التعب، بل أكثر من ذلك: فقد كشف لي بالحماسة الأسرة نفسها، أنه قد

حصل لي على وظيفة في كارتاخينا، وأن كل شيء جاهز لأبدأ عملي يوم الاثنين التالي. إنها وظيفة كبيرة، أوضح لي، لا يتوجب علي الذهاب إليها إلا مرة كل خمسة عشر يوماً، لقبض راتبي.

كان ذلك أكثر بكثير مما أستطيع هضمه. ضغطت على أسناني، وأنا أقدم له مسبقاً، بعض التحفظات لتبنيته من أجل رفض نهائي. أخبرته بمحادثتي الطويلة مع أمي، خلال الرحلة إلى أراكاناكا التي لم أتلق منه أي تعليق حولها. ولكنني قهيت أن تجاهله الموضوع، هو أفضل إجابة. وكان المحزن في الأمر هو أنني أأعيبه، وأنا أدرك مسبقاً أن النتيجة محسومة، لأنني كنت أعرف أنني لن أقبل في الجامعة، بعد أن خسرت مادتين من السنة الثانية، لم ألحج فيهما قط، فضلاً عن مادتين أخريين لا يمكن لا سبيل إلى استيفائهما من السنة الثالثة. وقد أخفيت الأمر عن الأسرة لكي أجنبها غماً لا طائل منه، ولم أشأ أن أتصور ما سيكون عليه رد فعل والدي، إذا ما أخبرته بالحقيقة في ذلك المساء. كنت قد صمتت، عند بدء المحادثة، على ألا أخضع لأي ضعف قلب، لأنني كنت سأتألم لرؤية رجل طيب مضطر إلى الظهور أمام أبنائه، بمثل ذلك المظهر من الهزيمة. ومع ذلك، فقد بدا لي أنني أمتنع قدراً أكبر من الثقة للحياة. ثم استسلمت أخيراً، للمعادلة السهلة بتحديد ليلة رحمة وغفران، للتفكير في الأمر. فقال لي:

- موافق، شريطة ألا تتواري عن الأنظار، لأن مستقبل الأسرة بين يديك.

إنه شرط كاف. فقد كان يعني جيداً نقطة ضعفي، حتى إنني عندما ودعته في الحافلة الأخيرة، في الساعة السابعة ليلاً، اضطررت إلى كبح

قلبي كيلا أذهب معه في المقعد المجاور. كان واضحاً بالنسبة لي، أن الدورة قد اكتملت، وأن الأسرة ستعود فقيرة إلى حد لا يمكنها معه الحفاظ على بقائها إلا بتعاون الجميع.

لم تكن الليلة مناسبة لاتخاذ أي قرار. فقد أخلت الشرطة، بالقوة، عدة أسر من اللاجئين القادمين من المناطق الداخلية، ممن أقاموا مخيمهم في حديقة سان نيكولاس، هرباً من العنف في الأرياف. ومع ذلك، كان السلام المتبع يسيطر على مقهى روما. وكان اللاجئين الإسبان يسألوني دوماً عن أخبار دون رامون فينيس، فأرد عليهم على الدوام مازحاً، بأن رسائله لا تتضمن أخباراً عن إسبانيا وإنما أسئلة مثلهفة عن بارانكيا. ومنذ أن مات، لم يعودوا إلى ذكر اسمه، ولكنهم أبقوا كرسيه شاغراً على المتضدة. هنأني أحد الرواد على "الزراعة" المنشورة في اليوم السابق، لأنها ذكّرتهم بطريقة ما، برومانسية مريانو خوسيه دي لارا المؤثرة، ولم أدر قط، سبب ذلك. وقد أخرجني الأستاذ بيريث دومينش من المازق، بإحدى عباراته التي تأتي في وقتها المناسب: "أمل ألا تحذو كذلك حذو مثله السيئ، بإطلاق رصاصة على نفسك". وأظن أنه ما كان ليقول ذلك، لو أنه عرف إلى أي حد، كان قوله صحيحاً في تلك الليلة.

بعد نصف ساعة من ذلك، اقتدت خيرمان بارغاس من ذراعه إلى عمق مقهى جاني. وما إن قدم لنا ما طلبناه، حتى قلت له إنني أريد استشارته في أمر مستعجل. بقي هو ممسكاً بالغنجان الذي كان يوشك أن يتذوقه - مثل دون رامون بالضبط -، وسألني مدعوراً:

- إلى أين ستذهب؟

أدهشتني بصيرته، فقلت له:

- وكيف عرفت!

لم يكن يعرف، ولكنه توقع ذلك، وكان يرى أن رحيلي سيقتني نهاية كرونيكا، وأنه انعدام حس بالمسؤولية خطير سيثقل علي طوال ما تبقى من حياتي. وأوصي إلي بأن ذلك لا يقل إلا قدرًا قليلاً عن الخيانة. ولم يكن هناك من له الحق أكثر منه في أن يقول لي ذلك. لم يكن أحد منا يعرف ما الذي ستفعله بمجلة كرونيكا، ولكننا جميعًا كنا ندرك أن ألفونسو قد حافظ على بقائها في لحظة مصيرية، وتحمل نفقات تفوق إمكانياته. ولهذا لم أستطع قط أن أنتزع من رأس خيرمان الفكرة الحبيشة بأن ذهابي الذي لا مفر منه، هو بمثابة الحكم بالموت على المجلة. إنني واثق من أنه، هو الذي يفهم كل شيء، كان يعرف أن مبرراتي قاهرة. ولكنه ألحز واجبه الأخلاقي بأن قال لي ما يفكر فيه.

في اليوم التالي، وبينما ألفارو سيببدا يوصلني إلى مكتب كرونيكا، قدم لي دليلاً مؤثراً على القسرية التي تسببها له تقلبات الأصدقاء الحميمة. بما لا شك فيه أنه كان على علم، من خلال خيرمان، بقراري في المغادرة. وقد أنقذنا، نحن الاثنين، خجله النمذجي، من أي ذرائع مشككة. فقد قال لي:

- يا للعنة، الذهاب إلى كارتاخينا لا يعتبر ذهاباً إلى أي مكان. الفظاعة هي في الذهاب إلى نيويورك، مثلما حدث لي، أما هنا فأنا على أحسن حال.

كان هذا هو نوع الردود الحكيمة التي تفيدني في حالات كهذه. ليتجاوز الرغبة في الهكاء، وللسبب نفسه، لم تفاجئني رغبته في التحدث للمرة الأولى، عن مشروع صنع سبنا في كولومبيا، والذي

ستواصله دون التوصل إلى نتائج، طوال ما تبقى من حياتنا. تطرق إلى الموضوع كطريقة مواربة لشركي مع شيء من الأمل. وضغط بكبح السيارة فجأة. بين المجموع المتوقفة والمحانات الصغيرة، في شارع سان يلاس، ثم صرخ بي من نافذة السيارة:

- لقد أخبرت ألفونسو بأن يرسل هذه المجلة إلى المجيم، ولنصنع واحدة مثل التايم!

المحادثة مع ألفونسو، لم تكن سهلة لي وله على السواء؛ إذ كانت هناك مسألة تحتاج إلى توضيح من كلينا، منذ نحو ستة شهور، وكلانا كنا نعاني نوعاً من التلعثم الذهني في المناسبات الصعبة. فقد حدث في إحدى نوبات غصبي الصيبانية، ونحن في غرفة الإخراج، أن حذفنا اسمي ومنصبي من قائمة هيئة تحرير كرونيكا، ككناية عن استقالة رسمية. وعندما مرت العاصفة، نسيت إعادة إدراجهما. لم ينتبه أحد إلى ذلك قبل خيرمان بارغاس، بعد مرور أسبوعين. وقد تحدث في الأمر مع ألفونسو الذي فرجى به أيضاً. وقد أخيرهما يورفيريو، مسؤول قسم الإخراج، كيف حدثت المشكلة؛ فاتفقا على ترك الأمور على حالها، إلى أن أعرض عليهما وجهة نظري ومبرراتي. ولسوء حظي أنني نسيت الأمر تماماً. حتى اليوم الذي توصلت فيه أنا وألفونسو إلى الاتفاق على أن أترك كرونيكا. وعندما انتهينا، ودعني وهو يكاد يموت من الضحك، بداعية من مداعباته، وكانت قوية ولكنها لا تقاوم. إذ قال:

- لحسن الحظ، أننا لن نضطر حتى إلى حذف اسمك من هيئة التحرير.

عندئذ فقط، استعدت الحادث كضرورة سكين، وأحسست أن الأرض

تغور تحت قدمي، ليس بسبب ما قاله ألفونسو بطريقة مناسبة تماماً، وإنما لأنني نسيت توضيح الأمر في حينه. ومثلما هو مأمول منه، قدم لي ألفونسو تفسير شخصي واضح. إذا كان ذلك هو الخلاف الوحيد الذي لم توضحه، فليس من اللائق تركه معلقاً في الفضاء دون تفسير. وما تبقى سيقوم به ألفونسو مع الفارو وخيرمان، وإذا كان لا بد من إنقاذ المركب، يتعاون الجميع، فإنه يمكن لي أنا أيضاً، أن أعود خلال ساعتين. وكنا نضع في اعتيادنا، كاحتياطي أخير، الاستعانة بمجلس التحرير كنوع من العناية الإلهية، وإن لم نتسكن قط، من جبعه للجلوس على جانبي منضدة خشب الجوز التي تُخذ عليها القرارات الكبرى.

منحتني تعليقات خيرمان والفارو الشجاعة التي كنت أفتقدها من أجل المغادرة. وقد تفهم ألفونسو مبرراتي وتقبلها بأريحية، ولكنه لم يُلح بأي شكل، إلى أنه يمكن لمجلة كرونিকা أن تنتهي باستقالتي. بل على العكس، فقد نصحتني بأن أتناول الأزمة بهدوء، وطمأنني بفكرة تشبيد قاعدة راسخة للمجلة، مع مجلس التحرير، وأنه سيخبرني عندما يتمكن من تحقيق شيء يستحق العناء فعلاً.

كان تلك هي أول إشارة ألحظها في أن ألفونسو يضع في اعتباره الاحتمال غير المعقول، في أنه يمكن لمجلة كرونিকা أن تنتهي. وهذا ما حدث، دون أحزان ولا أمجاد، في الثامن عشر من حزيران، بعد ستة وثلاثين أعداد، في أربعة عشر شهراً. ومع ذلك، لدي انطباع، بعد انقضاء نصف قرن، بأن المجلة كانت حدثاً مهماً في الصحافة الوطنية. لم تبق منها مجموعة كاملة، وإنما الأعداد الستة الأولى فقط، وبعض القصصات في مكتبة دون رامون فينيس الكتالانية.

ومن محاسن المصادفات، أن أصحاب البيت الذي كنت أعيش فيه آنذاك، أرادوا استبدال أثاث الصالة، وعرضوه علي بسعر زهيد. وعشية السفر، عند تصفية حساباتي في الهيرالدو، وافقوا على منحي أجر ستة شهور من "الزرافة" مقدماً. فاشترت بجزء من تلك النقود أثاث مايبيتو ليتنا في كارتاخينا، لأنني كنت أعلم أن الأسرة لن تأتي معها بأثاث بيتنا في سوكري، وليس لديها موارد لشراء أثاث آخر. ولا يمكنني أن أتجاهل أن ذلك الأثاث لا يزال، بعد خمسين سنة أخرى من الاستخدام، في حالة جيدة، وفي الخدمة، لأن الأم الممتنة لم تسمح ببيعه.

بعد أسبوع من زيارة أبي، انتقلت إلى كارتاخينا بحمولة الأثاث وحدها، وشيء أكثر بقليل من الملابس التي كنت أرتديها. وعلى خلاف المرة الأولى، كنت أعرف كيف أفعل كل ما يجب فعله، وعلى دراية بكل ما أحتاج إليه في كارتاخينا. وكنت أرغب من كل قلبي، في أن تقضي أمور الأسرة على أحسن حال، وأن تكون سيئة بالنسبة لي، كعقاب على افتقادي للعزيمة.

كان البيت في موقع جيد من حي لاهويا، في ظل الدير التاريخي الذي يبدو، على الدوام، أنه على وشك أن ينهار، وكانت غرف النوم الأربع والحمامان في الطابق السفلي، محجوزة للأبوين والأبناء الأحد عشر: أنا أكبرهم، في السادسة والعشرين من عمري تقريباً، وإليخو أصغرهم، في الخامسة. وقد تربى الجميع جيداً على ثقافة الكاريبي ذات أراجيح النوم والحصائر على الأرض، والأسرة لمن وجدوا لها مكاناً.

أما في الطابق العلوي، فكان يعيش العم هيرموخينس سول، شقيق أبي، مع ابنه كارلوس مارتينيث سيماهان. لم يكن البيت بكامله كافياً

لكل ذلك العدد، إلا أن قيمة الإيجار كانت معتدلة بفضل علاقات العم مع مالكة البيت التي لم تكن نعرف عنها سوى أنها امرأة غنية جداً، وتدعى لايبيا. وسرعان ما وجدت الأسرة، بموهبتها في السخريّة، عنواناً بارعاً للبيت، له إيقاع أغنية: "بيت لايبيا في حي لايبيا".

ما زال انتقال القبيلة، بالنسبة لي، مجرد ذكرى يلفها الغموض. كان الثور قد انقطع عن نصف المدينة. وكنا نحاول أن تهين البيت في العتمة، لكي ينام الصغار. وكنا نحن الأخوة الكبار نعرف بعضنا على بعض، من أصواتنا. أما الصغار فكانوا قد تبدّلوا كثيراً منذ زيارتي الأخيرة، حتى إن عمونهم الهائلة والحزينة كانت ترعيني على ضوء الشموع. غانيت من فوضى الصناديق، والحزم، وأراجيح النوم المعلقة في الظلام. وأحسست كما لو أنني أعيش تاسعاً من نيسان منزلياً. ومع ذلك، فإن تأثيري الأكبر أحسست به عندما حاولت تحريك كيس بلا شكل راح يقلت من يدي. وكان ما يحسبه هو رفات الجدة ترانكيلينا، فقد نشت عنها أمي، وجاءت بها معها لتودعها في مقبرة سان بيدرو كلافير، حيث توجد رفات أبي والحالة الفيرا كاريو في المدفن نفسه.

لقد كان عمي هيرموخينس سول وجلّ العناية الإلهية في حالة الطوارئ تلك، فقد عُيّن أميناً عاماً لإدارة الشرطة في كارتاخينا. وكان تدبيره الجذري الأول هو فتح ثغرة بيروقراطية لإنقاذ الأسرة. فمن فيهم أنا، الضال السياسي، ذو السمعة الشيوعية التي لم أكسبها بأيديولوجيتي، وإغا لطريقي في المليس. كانت هناك وظائف للجميع. فقد مُنح أبي منصباً إدارياً دون مسؤولية سياسية. وعُيّن أخي لويس إيريكي محرراً، ومنحت أنا وظيفة براتب وبلا عمل في مكاتب الإحصاء.

الوطني الذي انكبت الحكومة المحافظة على إجازته، ربما لتتوفر لها فكرة عن عددنا، نحن الخصوم المتبقين على قيد الحياة. وقد كانت الكلفة الأخلاقية لتلك الوظيفة، أشد خطراً بالنسبة لي من كلفتها السياسية. لأنني كنت أقبض راتبي كل أسبوعين، ولا أظهر في القطاع بقية الشهر، تفادياً للتساؤلات. وكان التبشير الرسمي، ليس لي وحدي، وإنما لأكثر من مئة موظف آخر، هو أننا في مهمة خارج المدينة.

كان مقهى موكا، قبالة مكاتب الإحصاء، يزدحم بموظفين زائفين من القرى المجاورة، ممن يأتون لقبض رواتبهم وحسب. لم يكن ينبغي فلس واحد لاستخدامي الشخصي، خلال الفترة التي وقعت فيها جدول الرواتب، لأن راتبي كان مهماً، ويذهب بكامله إلى الموازنة المنزلية. وفي أثناء ذلك، حاول أبي إعادة تسجيلي في كلية الحقوق، وصُدِم بالحقيقة التي أخفيت عنها. وقد أحسست بالسعادة، كما لو أنني ثلت الشهادة، لمجرد أنه عرف بالأمر. وكانت سعادتني أكثر جذارة من ذلك، لأنني وجدت الوقت والمكان أخيراً، وسط كل تلك التناقضات والمشاحنات، لأنهي الرواية.

لدى دخولي إلى جريدة الأونيفرسال، جعلوني أشعر كما لو أنني قد رجعت إلى البيت. كانت الساعة السادسة، أشد الساعات نشاطاً وحركة. غير أن الصمت الوعر الذي فرضه دخولي على آلات اللينوتيب والآلات الكاتبة، شكل عقدة في حنجرتي. بدا لي كما لو أنه لم تقض لحظة واحدة على فراقي للمعلم نابالا، بخصل شعره الهندي. وقد طلب مني، كما لو أنني لم أغادر قط، معروفاً بأن أكتب له تعليقاً افتتاحياً مستعجلاً. كان يشغل آتني الكاتبة مراهقٌ مبتدى، تعثر بتعجله المرتبك وهو يخلي لي

المقعد، وكان أول ما فاجأني هو صعوبة كتابة تعليق مغفل التوقيع، بالرصانة التي تتطلبها الافتتاحية، بعد حوالي سنتين من تجاوزي كل الحدود في "الزرافة". كنت قد أنهيت كتابة صفحة عندما اقتراب المدير لوبيث إسكوريانا لتحييتي. فتوره البريطاني كان موضوعاً شائعاً في مسامرات الأصدقاء، ورسوم الكاريكاتير السياسية. وقد أثر بي خجل سعادته، وهو يحييني معانقاً. عندما أنهيت كتابة التعليق، كان ثابالا ينظرني، وضعه قصاصة ورقة أجرى عليها المدير بعض الحسابات، ليشرح عليّ راتباً من مئة وعشرين بيزو، في الشهر، مقابل كتابة تعليقات افتتاحية، أذهلني الرقم، وهو غير المعقول في ذلك الزمان وذلك المكان، حتى إنني لم أجب ولم ألقم الشكر، وإنما جلست لأكتب تعليقين آخرين، ثملاً بالإحساس بأن الأرض تدور فعلاً حول الشمس. بدا ذلك كما لو أنني قد عدت إلى الأصول، فالموضوعات نفسها التي يصححها المعلم ثابالا بالخبر الأحمر، وتحذف منها الرقابة نفسها كلمات من خلال رقيب هزمه تحايل المحررين؛ وأنصاف الليل نفسها، العايقة بعفونة الحبل ورائحة القلقاس في مطعم الكهف؛ وموضوع الحديث نفسه عن إعادة تركيب العالم، حتى الفجر في شارع الشهداء. كان روحاس هيراثو قد أمضى سنة في بيع اللوحات كي ينتقل إلى أي مكان آخر، إلى أن تزوج من روسا إسبائيل العظيمة، وانتقل إلى بوغوتا. كنت أجلس في آخر الليل، لأكتب "الزرافة" التي أرسلها إلى الهيرالدو بالوسيلة الوحيدة الحديثة في ذلك الحين، ألا وهي البريد العادي. وكان يشغل ذلك تخلفي، في أحيان قليلة، عن كتابتها لأسباب قاهرة، إلى أن أكملت سداد الدين.

الحياة مع الأسرة بكاملها، وفي ظروف يتحكم بها القدر، ليس مجالها الذاكرة، وإنما الخيلة. كان الأبوان ينامان في حجرة، في الطابق السفلي، مع بعض الصغار. وكانت الأخوات الأربع يشعرن بأن لهن الحق في حجرة لكل واحدة منهن. وفي الحجرة الثالثة، كان ينام هيرناندو والفونسو ريكاردو، حيث يرعيان الصغير خيمي الذي يقيهما في حالة تأهب بمراعظه الفلسفية والرياضية. أما ريتا ذات الأربع عشرة سنة، فكانت تدرس حتى منتصف الليل، أمام الباب الخارجي، تحت نور مصباح الشارع، لكي تقتصد في نور البيت. كانت تحفظ الدروس عن ظهر قلب، وتغنيها بصوت عال، بالظرف والإلقاء الجيد اللذين ما زالت تحفظ بهما. غرائب كثيرة في كتي مصدرها قمارين قراءتها، عن البغلة التي تقضي إلى الطاحونة، وشركولاته الصني ذي البرنيطة الصغيرة، والعراف الذي يغمس في الشراب. كان البيت أكثر حياة، وأكثر إنسانية قبل ذلك، منذ منتصف الليل، ما بين الذهاب إلى المطبخ لشرب الماء، أو الذهاب إلى المرحاض، لقضاء حاجات سائلة أو صلبة مستعجلة، أو في تعليق أراجيج الثوم متقاطعة على مستويات مختلفة في الممرات. كنت أعيش في الطابق الثاني مع غريستافو ولويس إنريكي - عندما انتقل العم وإينه للاستقرار في بيتهما الأسري -، بعد ذلك مع خيمي الخاضع لوقف مواظته حول أي شيء، بعد الساعة التاسعة ليلاً، وفي إحدى الليالي، أبقانا ثغماً باهت ومتناوب، يطلقه حمل يتيم، مستيقظين عدة ساعات. فقال غريستافو حانقاً:

- يبدو كما لو أنه فنار.

لم أنس ذلك قط، لأنه كان نوعاً من التشبيهات التي كنت أتلقيها

في تلك الأزمنة، على الطائر، من الحياة الواقعية، لأصغرها روابي
الوشكة.

كان البيت الأكثر حيوية بين بيوت كنا تاحينا الحيرية العديدة التي
سكنناها، والتي راح مستواها ينخفض، باطراد، مع تقلص موارد الأسرة.
ففي بحثنا عن بيوت أرخص، راح مستوانا يتحدر حتى وصلنا إلى بيت
نوريل، حيث كان يظهر في الليل، شيخ امرأة. وقد حالفني حسن الحظ
بعدم وجودي هناك، ولكن شهادات الأيوين والأخوة وحدها، سببت لي
قدراً من الذعر، يعادل كوني موجوداً. كان أبواي يتناويمان في الليلة
الأولى، على الصوقا في الصالة، ورأيا تلك الرؤيا التي مرت دون النظر
إليهما، تنتقل من حجرة نوم إلى أخرى، بغستان مزين بزهور حمراء
وشعر قصير معقود وراء الأذنين، بشرائط ملونة. وقد وصفتها أُمي
بتفصيل لم يفتها فيه شكل نستانها وطراز حداثها. أما أبي، فأذكر أنه
رأها، كيلا يسبب مزيداً من الذبول لزوجته، والخوف لأبنائه. ولكن الألفة
التي كانت المرأة الشيخ تتحرك بها في أرجاء البيت، منذ الغروب، لم
تكن تسمح بتجاهلها. فقد استيقظت أختي مارغوت في فجر أحد
الأيام، ورأتها عند طرف سريرها، تتفحصها بنظرة حادة، ولكن أكثر ما
أثر بها، هو رعب كونها مريضة من حياة أخرى.

وفي يوم الأحد، لدى الخروج من القديس، أكدت إحدى الجارات
لأُمي أن أحداً لم يسكن ذلك البيت، منذ سنوات طويلة، بسبب قناري
المرأة الشيخ التي ظهرت مرة في غرفة الطعام، في وضوح النهار، بينما
الأسرة تتناول الغداء. وفي اليوم التالي، خرجت أُمي مع اثنتين من
أخوتي الصغار، بحثاً عن بيت تنتقل إليه. وقد وجدته بعد أربع

ساعات. ومع ذلك، فقد تكلف معظم أختي مشقة في استبعاد فكرة أن
شيخ المرأة الميتة قد انتقل معهم.

في البيت الذي على سفح لابويا، وعلى الرغم من الوقت الطويل
المتوفر لي، كانت لدي رغبة كبيرة في الكتابة. حتى إنني كنت أشعر بأن
الأيام قصيرة. وهناك عاد للظهور في أحد الأيام، راميرو ديلا إسبرييا،
بشهادته كدكتور في القانون، سياسياً أكثر مما كان عليه في أي وقت
مضى، ومتحمساً بقراءته لروايات حديثة الصدور، لا سيما رواية "الجلد"
لكورثيو مالابارتي التي تحولت في تلك السنة، إلى كتاب حاسم لأبناء
جيلي. فقد كانت تأسراً فعالية النشر، وحدة الذكاء، والرؤية الغظة
للتاريخ المعاصر، فتجذبنا وتستغرق في قراءتها حتى الفجر. ولكن
الزمن أثبت لنا، مع ذلك، أنه كان مقدراً لمالابارتي أن يكون نموذجاً جيداً
لملاحظات مختلفة عن الشي أرغب فيها. وانتهى الأمر بتلك الميزات،
إلى استبعاد ضرورته. فكان حالة مناقضة تماماً لما جرى لنا، في الوقت
نفسه تقريباً، مع ألبير كامو.

كان الأخوة ديلا إسبرييا يعيشون آنذاك قريباً منا، وكان لديهم قيو
لتخزين الخمر، يسرقون منه زجاجات بريئة ليأتوا بها إلى بيتنا. وعلى
عكس نصيحة دون رامون فينيس، كنت أقرأ لهم ولأخوتي آنذاك،
مقاطع مطولة من مسوداتي، في الحالة التي كانت عليها دون تشذيب،
وعلى شرائح ورق المطبوعة نفسها التي كتبت عليها كل ما كتبت في
ليالي الأرق، في الأوتيفرنال.

في تلك الأيام رجع ألفارو مونتيس وغوثالو مايارينوس، ولكنني
كنتُ محظوظاً باستلاك الحياء الذي يمنعي من أن أطلب منهما قراءة

المخطوط غير المنتهي، والذي لا يزال بلا عنوان. كنت أريد الاعتكاف دون راحة، لأعجز النسخة الأولى من المخطوط على ورق نظامي، قبل التصحيح الأخير. كان لدي حوالي أربعين ورقة زيادة على النسخة المترقعة. ولكنني كنت ما أزال أجهل أنه يمكن لذلك أن يكون عشرة خطرة. وسرعان ما أدركت أنه كذلك: فأنا عبيد لصرامة في الدقة والكمال، تضطرنني إلى إجراء حساب مسبق لطول الكتاب، وإلى ضبط عدد الصفحات بدقة، في كل فصل، وفي الكتاب بجممله. وكان خطأ واحد بارز في هذه الحسابات، يجبرني على إعادة النظر في كل شيء: بل إن وجود خطأ في الكتابة، على الآلة الكاتبة، يشير دعري كما لو أنه خطأ إبداعي. كنت أظن أن هذا المنهج المطلق يستند إلى رؤية متشددة في المسؤولية، ولكنني أعرف اليوم أنه كان مجرد رعب وقائي خالص.

غير أنني تجاهلت مرة أخرى، بالمقابل، نصيحة دون رامون فينيس، وأوصلت إلى غوستافو إيبارا، نسخة كاملة من الرواية، وإن كانت ما تزال دون عنوان، عندما اعتبرتها منتهية. بعد يومين من ذلك، دعاني إلى بيته. وجدته يجلس على كرسي هزاز من الخيزران، على الشرفة المطلة على البحر، يعرض جسده للشمس، ويسترخي بملابس البحر، وقد تأثرت للرقعة التي كان يداعب بها أوراقي، بينما هو يكلمني. إنه معلم حقيقي، لم يمل علي محاضرة حول الكتاب، ولم يقل لي إنه يراه جيداً أو سيئاً، وإنما جعلني أعي قيمه الأخلاقية. وعندما انتهى، تفضضني راضياً، وانتهى إلى القول ببساطته اليومية:

- إنها أسطورة أنتيغون.

أدرك من ملامحي، أنني فقدت أثراري، فتناول من رفوفه، كتاب

سوفوكليس، وقرأ لي ما الذي يعنيه. وبالفعل، كانت الحالة الدرامية في روايتي، في جوهرها، مطابقة لأنتيغون المحكوم عليها بشرك جثة أخيها بوليتمس دون دفن، بأمر من عمهما الملك كرون. كنت قد قرأت أوديب في كولون من المجلد الذي أهداه إلي غوستافو نفسه، في الأيام الأولى لتعارفنا. ولكنني لم أكن أتذكر أسطورة أنتيغون بصورة واضحة، تتيج لي إعادة بنائها من الذاكرة، ضمن مأساة منطقة الموز، ولم أكن قد لمحت التشابهات الانفعالية بينهما حتى تلك اللحظة. أعدت في تلك الليلة، قراءة العمل، بمزيج غريب من الفخر لتوافقي، حسن النية، مع كاتب يمثل تلك العظمة، والألم من أن يلحق بي عار الانتحال أمام الملأ. بعد أسبوع من أزمة النشوش، قررت إجراء بعض التغييرات العميقة التي تتيج لي إنقاذ حسن توابتي. دون أن أدرك أبعاد الزهر الذي يفوق طاقة البشر، وأنا أعتمد إلى تعديل كتاب لي، كيلا يبدو أنه لسوفوكليس. وأخيراً أحسنت - مستسلماً - بأن لي الحق الأخلاقي في استخدام جملة له، كخاتمة توقيرية. وهذا ما فعلته.

الانتقال إلى كارتاخينا حسناً، في الوقت المناسب، من تردي سركري المخرج والخطر. ولكن معظم الحسابات بدت أجلاً، سواء بسبب شح الموارد أو بسبب حجم الأسرة. كانت أمي تقول إن أبناء الفقراء يأكلون أكثر من أبناء الأغنياء، ويكثرون أسرع منهم. ولكي تثبت ذلك يكلفها مثال أسرتهما. فرواتبنا جميعنا لم تكن تكفي لكي نعيش دون مفاجآت.

وقد تولى الزمن كل ما عدا ذلك. فأخي خيمي، وفي تواطؤ أسري آخر، صار مهندساً مديناً، فكان الجواز الوحيد في أسرة تنظر إلى

الشهادة الجامعية، كما لو أنها لقب نباله. وضار لويس إنريكي معلماً في المحاسبة، وتخرج غوستافو طوبوغرافياً، وبقي كلاهما عازت الجيتار والمغني نفسه في سيرنادات الآخرين. وقاجانا بيو، منذ طفولته المبكرة، يميل أدبية واضحة، وبقوة شخصيته التي قدم لنا دليلاً مبكراً عنها، وهو في الخامسة من عمره، عندما ياغتبوه وهو يحاول إحضام النار في خزانة ملابس، ليحقق حلمه برؤية رجال المطافئ، وهم يطفئون الحريق في البيت. وفيما بعد، عندما دعاه، هو وأخوه كوكي، زملاً، أكبر منهما سناً، لتدخين الماريجوانا، رفض بيو ذلك مذعوراً. أما كوكي بالمقابل، وكان قضيولياً ومتهوراً، فدخنها بعمق. وحين غرق، بعد سنوات من ذلك، في هول المخدرات، أخبرني أنه قال لنفسه منذ تلك المرة الأولى: "يا للجنة! لا أريد أن أفعل شيئاً آخر غير هذا في حياتي". ولم يفعل شيئاً آخر، خلال الأربعين سنة التالية، يشغف دون مستحيل، سوى إنجاز وعده لنفسه بالموت ضمن قوانينه. وفي الثانية والخمسين من عمره، تجاوز الحد في فردوسه المصطنع، وقضت عليه سكتة قلبية.

أما نانثشي - أكثر الرجال حباً للسلام في العالم - فبقي في الجيش، بعد إنهاء خدمته العسكرية الإجبارية، وأتقن استخدام كل أنواع الأسلحة الحديثة. وشارك في العديد من المناورات العسكرية. ولكن لم تُنح له الفرصة قط، للمشاركة في واحدة من حروبنا المزمنة. وهكذا قنع أخيراً بمهنة رجل المطافئ، عندما خرج من الجيش. ولكنه لم يجد الفرصة هناك أيضاً، لإطفاء حريق واحد طوال أكثر من خمس سنوات. غير أنه لم يشعر قط بالاحباط، بفعل حسن سخرية كرسه ضمن الأسرة، أستاذاً في الدعاية القورية، وأتاح له أن يكون سعيداً لمجرد كونه حياً.

عمل بيو، في أقصى سنوات الفقر، كاتباً وصحفيّاً بجهده، المتألصة، دون أن يدخن قط، أو يشرب قطرة واحدة أكثر مما يجب في حياته. وقد استطاعت ميوله الأدبية الجارفة، وإبداعه المتكتم أن تفرض نفسها وتتغلب على المصاعب والعقبات، ومات، وهو في الرابعة والخمسين من عمره، بعد أن أتيح له الوقت لينشر كتاباً من أكثر من ستئة صفحة، تضم تحريات بارعة حول الحياة السرية لرواية ثمة عام من العزلة. وقد اشتغل في الكتاب، طوال سنوات، دون أن أعرف ذلك، ودون أن يسألني قط، بصورة مباشرة، عن أية معلومات.

عرفت أخشي ريتا، وكانت لا تزال في سن المراهقة تقريباً، كيف تستفيد من عبدة التشكيل بغيرها. فعندما رجعت إلى بيت والدي، بعد فترة غياب طويلة، وجدتها تعاني اجتياز المطهر نفسه الذي عانت منه أخواتها الأخريات، بسبب وقوعها في غرام شاب أسمر رشيق، جذبي، ووقور. والشبيء الوحيد فيه غير الملام لها، هو طول قامته الذي يزيد عنها شبرين ونصف الشبر. وجدت أبي، في تلك الليلة بالذات، يستمع إلى الأخبار، وهو في أرجوحة النوم المعلقة في مخدعه. أخفضت صوت المذياع، وجلست على السرير المقابل، وسألته بحقي، كايين بكراً، عما يتحدث بشأن غراميات ريتا. فأطلق في وجهي الجواب الذي كان قد أعده، دون شك، منذ الأزل:

- الشبيء الوحيد الذي يحدث هو أن الرجل لص.

وهذا هو بالضبط ما كنت أنتظره منه. فسألته:

- ماذا تعني بلص؟

فقال لي، دون أن ينظر إليّ:

- لص. لص.

- وما الذي سرقه؟ - سألته دون رحمة.

وواصل هو عدم النظر إليّ. ثم تنهد أخيراً:

- حسن. ليس هو، ولكن له أخاً سجيناً بسبب السرقة.

- ليست هناك مشكلة إذن - قلت له ببساطة سهلة -، لأن رشا لا

تريد الزواج منه، وإنما من الآخر غير السجين.

لم يجب. لأن نزاعته التي لا يرقى إليها الشك، تجاوزت الحدود، منذ الجواب الأول في ذلك اليوم، فقد كان يعرف عدم صحة الإشاعة عن الأخ السجين. وحين لم يبق لديه مزيد من الحجج، حاول التثبت بأسطورة الكرامة.

- لا بأس. ولكن عليهما أن يتزوجا بأسرع ما يمكن. لأنني لا أريد

فترات خطوبة طويلة في هذا البيت.

وكان ردي فوراً، وبانعدام رحمة لم أغفره لنفسى قط:

- غداً، في أول ساعات الصباح.

- يا رجل! يجب عدم المبالغة أيضاً - ردّ عليّ أبي متفاجئاً، لكنه

أظهر اهتمامه الأولي، وأضاف: - لا يوجد لدى هذه البيت مناعة ضد مرتدّيه حتى الآن.

المرّة الأخيرة التي رأيته فيها العمّة "بنا"، وهي في التسعين من

عمرها تقريباً، كانت حين جاءت إلى البيت في كارتاخينا، في مساء

ذي حرّ مذلّ، دون إشعار مسبق؛ قادمة من زوهاشفا في سيارة تكسي

إكسبريس، ومعها حقيبة تلميذ؛ مرتدية ملابس حداد، وعمامة من

قباش أسود. دخلت سعيدة، بذراعين مفتوحين، وصاحت بالجميع:

- إنني آتية لأودعكم، لأنني سأموت.

احتضناها، ليس لما قتلته لنا وحسب، وإنما لأننا كنا نعلم كذلك،

مدى معرفتها لشؤونها مع الموت. بقيت في البيت، منتظرة ساعاتها في

غرفة الخدمة، وهي الغرفة الوحيدة التي قبلت النوم فيها. وهناك ماتت،

عابقة برائحة العفّة، عن عمر قدّرناه بمئة سنة ومئة.

كانت تلك الفترة هي الأشدّ زخماً في الأونيغرسال. فقد كان ثابالا

يوجهني بحكمته السياسية لكي تقول مقالتي ما يجب أن تقوله، دون

أن تصطدم بقلم الرقابة. وأبدي للمرة الأولى، اهتمامه بفكرتي القديمة،

في كتابة ريبورتاجات للصحيفة. وسرعان ما برز الموضوع الرهيب

للسائحين الذين هاجسهم أسماك القرش على شواطئ ماربيّا. ومع ذلك،

فإن أكثر الخلل الذي خطر للبلدية أصالة، هو عرض مبلغ خمسين يورو

مقابل كل سمكة قرش تُقتل. وفي اليوم التالي، لم تعد أغصان أشجار

اللوز تكفي لعرض الأسماك التي قُتلت خلال الليل. وقد كتب هيكاتور

روخاس هيراثو من بوغوتا، وهو يكاد يموت من الضحك، في عموده

الجديد في جريدة إلتيمبو، ملاحظة ساخرة حول الفكرة غير الموفقة،

بتطبيق ذلك المبدأ الخاطئ، وفق أسلوب اقتلاع الفجل من أوراقه، على

صيد أسماك القرش. وقد وفر لي ذلك فكرة كتابة ريبورتاج عن الصيد

الليلي. ساندني ثابالا بحساس، لكن إخفاقي بدأ منذ لحظة صعودي

المركب، عندما سألوني عما إذا كنت أصاب بدوار البحر، وأجبت أن لا؛

وعما إذا كنت أخاف البحر. والحقيقة أنني كنت أخافه، ولكنني قلت لا.

ثم سألوني أخيراً، إذا ما كنت أعرف السباحة - وكان عليهم أن يوجهوا

هذا السؤال أولاً - ولم أخرجاً على الكذب بأنني أعرف. ولكنني علمت

على أي حال، وأنا على اليابسة، من خلال محادثة مع بعض البحارة، بأن الصيادين يذهبون إلى بوكاس دي ثينشا، على بعد تسعة وثمانين ميلاً بحرياً عن كارتاخينا، ويعودون محملين بأسمك قرش بريشة ليبيعوها، على أنها الأسماك المجرمة، يخسفين بينو. غير أن هذا الخير العظيم انتهى في اليوم نفسه، وانتهى بالنسبة لي الحلم بكتابة الريبورتاج. فنشرت بدلاً منه قصتي الثامنة: "نايو، الزلجي الذي جعل الملائكة ينتظرون". وقد رأى نايدان جديان على الأقل، وأصدقائي الصارمون في بارانكيا، أن القصة تشكل تحولاً طيباً في توجهي.

لا أظن أن تضجعي السياسي كان كافياً للتأثير عليّ، ولكنني عانيت في الحقيقة، انتكاسة مماثلة للمساواة. فقد أحست أنني غارق في الوحل، إلى حد أن متعتني الوحيدة كانت تتمثل في طلوع الفجر على، وأنا أغنى مع السكاري في عقود قباب السور التي كانت مواخير للجنود، خلال العهد الاستعماري، ثم تحولت فيما بعد إلى سجن سياسي مشؤوم. وقد قضى الجنرال فرانيسكو دي باولا سانتاندير فيها حكناً بالسجن لمدة ثمانية أشهر، قبل أن ينفيه رفاقه، في القضية والسلاح، إلى أوروبا.

القيم على تلك الآثار التاريخية، كان عامل ليوثيب متقاعداً، يجتمع معه، كل يوم، زملاؤه الذين ما زالوا يمارسون المهنة، بعد أن ينتهوا من طباعة الصحف، للاحتفال باليوم الجديد، بدمجانة من الروم الأبيض السري، المركب ينفون المحتالين البارعين في غش الخمور. لقد كانوا عمال طباعة مشفقين، غير تقاليد أسرية، ونحويين درامين، وشرعيين عظاماً أيام السبت، وقد انضمت إلى نقابتهم.

أصغرهم سناً كان يدعى غيرمو دافيللا، وكان قد توصل إلى مأثرة الحصول على عمل في منطقة الساحل، على الرغم من تشدد بعض القادة المحليين الذين يعارضون قبول الكانثاكو في نقابتهم. وربما توصل إلى ذلك بفن من فنونه البحرية، إذ كان، فضلاً عن قمره الجيد في المهنة ولطفه الشخصي، مشعوذ أعاجيب. وكان يبهتنا بالآعيبه البحرية في إخراج عصافير حية من أدراج المكاتب، أو تبييض الصفحة التي نكون قد انتهينا من كتابة تعليق افتتاحي عليها، وسلمناها للثور، بينما نحن على وشك إغلاق الطبعة، فكان المعلم ثابلاً، الصارم جداً في الواجب، ينسى للحظة، باديرفسكي والثورة البروليتارية، ويطلب منا التصنيف للساحر، مع تبيئه المتكرر، والذي لا يتم التقيد به دوماً، بأنها المرة الأخيرة. أما أنا، فرأيت أنني قد اكتشفت الواقع أخيراً، بمشاطرتي ذلك الساحر، ووتن الحياة اليومية.

في فجر أحد تلك الأيام، في قباب السور، أخبرني دافيللا بفكرته في إصدار جريدة من قطع خسة وعشرين بخمسة وعشرين سنتيمتراً - أي بحجم نصف صفحة نظامية - توزع مجاناً في المساء، في ساعة الازدحام عند إغلاق المتاجر. ستكون أصغر جريدة في العالم، يمكن قراءتها في عشر دقائق، وهذا ما حدث. وقد أسميت "المضغوطة"، وكنت أتولى كتابتها خلال ساعة من الوقت، في الحادية عشرة صباحاً، بينما يتولى دافيللا تنضيدها وطباعتها خلال ساعتين، ويرزعهما بائع صحف جري، لم يكن يتاح له الوقت لينادي عليها مرتين.

صدرت الجريدة يوم الثلاثاء، الثامن عشر من أيلول، ١٩٥١ ومن المستحيل تصور نجاح ساحق أكبر، وأمد حياة أقصر: ثلاثة أعداد في

ثلاثة أيام. وقد اعترف لي دافيلاً بأنه ما كان ليتصور، ولو بقدرات السحر الأسود، تحقيق فكرة مثل تلك العظيمة، ومثل تلك الكلفة المنخفضة، يتسع لها مكان يمثل ذلك الصغر، وتنفذ مثل ذلك الوقت القصير، وتنفذ مثل تلك السرعة. الأمر الأكثر غرابة هو أنني توصلت إلى التفكير للحظة، في اليوم الثاني - وكنتُ نملأً بتخاطف الجريدة في الشوارع، وتحمس المتعصبين - في أنه يمكن لها ببساطة، أن تكون الحل لحياثي. استمر الحلم حتى يوم الخميس، عندما بين لنا المدير الإداري أن إصدار عدد آخر سيؤدي بنا إلى الإفلاس، حتى ولو قررنا نشر إعلانات تجارية، لأن الإعلانات ستكون صغيرة جداً، وغالية إلى حد لا يمكن إيجاد حل عقلائي له. ففكرة الجريدة نفسها، المستندة أساساً إلى خجمتها، تحمل معها - رياضياً - جرثومة دمارها؛ إذ أنها تصير أقل مردوداً كلما زادت مبيعاتها.

بقيت كمن هو معلق بالمصباح. فقد كان الانتقال إلى كارتاخينا مناسباً ومفيداً، بعد تجربة كرونيكا، فضلاً عن أنه وفر لي أجواء ملائمة جداً لمواصلة كتابة عاصفة الأوراق، ولا سيما وسط حمى الإبداع التي كنت أعيشها في بيتنا، حيث تبدو أشد الأمور الغريبة وغير المألوفة، محتملة دائماً. ويكفي أن أستهزئ غداً، كنا نتحدث فيه مع والدي، حول الصعوبة التي يواجهها كتاب كثيرون في كتابة مذكراتهم، عندما يفقدون القدرة على تذكر أي شيء. فخرج علينا كوكي ببساطة، ولم يكن قد أكمل السادسة من عمره، بالنتيجة الباهرة حين قال:

- يجب على الكاتب إذن، أن يبدأ بكتابة مذكراته أولاً، وهو ما يزال يتذكر كل شيء.

لم أتجرأ على الاعتراف بأن ما يحدث لي في عاصفة الأوراق هو الشيء نفسه الذي كان يحدث لي في "البيت"؛ فقد بدأت أهتم بالتقنية أكثر من الموضوع، وبعد سنة من العمل بكثير من البهجة، تكشف لي أن ما أكتبه هو متاهة دائرية بلا مدخل ولا مخرج. وأظن أنني أعرف السبب اليوم؛ ففتبار تصوير العادات والتقاليد الاجتماعية الذي قدم نماذج عديدة جيدة لي بداياته، انتهى به الأمر إلى التحجر في الموضوعات الوطنية الكبرى التي حاول أن يشق بها مخرج طوارئ، وتحولها بدورها إلى مستحاثات. والواقع أنني لم أكن أحتمل لحظة أخرى من التردد. ولم يكن ينقصني سوى التحقق من المعلومات وإحكام الأسلوب، قبل أن أضع نقطة النهاية، بالرغم من أنني لم أكن أشعر بأن العمل ينتفس. ولكنني كنت متورطاً بعد كل ذلك الوقت من العمل في الظلمات، وكنت أرى أن الكتاب يفرق، دون أن أكتشف أين هي الشقوق فيه. والأمراً من ذلك، أنني وصلت إلى مرحلة في الكتابة لا تغبطني فيها مساعدة أحد، لأن الحلل لم يكن في النص، وإنما في داخلي؛ ولا يمكن لأحد سواي أن يمتلك عيوناً ترى ذلك الحلل، أو قلباً يعانده. وربما لهذا السبب بالذات توقفت، دون تردد، عن كتابة "الزرافة"، بعد أن انتهيت من تسديد سلفة الهيرالدو التي اشترت بها الأثاث.

لسوء الحظ أنه لم يكن بمقدور الذكاء، ولا الصمود، ولا الحب، أن تهزم الفقر. وبدا كما لو أن كل شيء يعمل لمصلحته. فقد انتهى العمل في جهاز الإحصاء بعد سنة، ولم يكن راتبني في الأوتيفرسال كافياً لتعويضه. لم أرجع إلى كلية الحقوق، على الرغم من تحاييل بعض الأساتذة عن تواطؤوا لدفعني قدماً، على الرغم من عدم اهتمامي

باهتمامهم وعلمهم. لم تعد نقود الجميع قادرة على تغطية نفقات البيت. وكانت الفجوة كبيرة، بحيث أن مساهمتي لم تكن كافية قط، وكان شع الأحلام يؤثر بي أكثر من شع النقود.

وفي أحد الأيام قلتُ أثناء تناول الغداء:

- إذا كنا سنغرق جميعنا، فدعوني أنجُ لعلي أحاول أن أرسل إليكم ولو زورق مخدّيف صغيراً.

وهكذا ذهبتُ مجدداً، في الأسبوع الأول من كانون الأول، إلى بارانكيّا، بموافقة الجميع، وباليقين بأن زورقاً ما سيصلهم. ولا بد أن ألفونسو قرشمايور قد تصور ذلك منذ النظرة الأولى، عندما رأيته أدخل، دون إشعار مسبق، إلى مكتبنا القديم في الهيرالدو؛ ذلك أنه لم تعد هناك موازاة للإيقاع على مكتب كرونيكا. نظر إليّ كما لو أنه ينظر إلى شيخ من وراء الآلة الكاتبة، وهتف مدعوياً:

- أبة لعنة تفعلها هنا دون إنذار مسبق!

وقليلة هي المرات التي أجبت بها، في حياتي، برد قريب إلى ذلك الحد من الحقيقة:

- إنني غارق تماماً، يا معلم.

استعاد ألفونسو الطمأنينة:

- آه، جيد - ردةً بوجهته الدائمة، وأردف بيت الشعر الأكثر كولومبية في النشيد الوطني: - الإنسانية بأسرها تنهكتنا، لحسن الحظ، في السلاسل.

لم يُبدِ أدنى قدر من الفضول حول سبب رحلتي. وبدت له نوعاً من التخاطر، لأنه كان برد على كل من يسأله عني، خلال الشهور الأخيرة،

بأنني قد أصل في أي لحظة، لأبقى هناك. نهضت سعيلاً من وراء المنضدة، بينما هو يرتدي سترته، لأنني جشعة مصادفة، كما لو أنني أسقط عليه من السماء. فقد كان لديه موعد، تأخر عنه نصف ساعة، لكي ينهي كتابة مقالته الافتتاحية لعدد اليوم التالي، فطلب مني أن أنهئها. ولم أكد أمكن من سؤالي سوى عن موضوعها، فأجابني من العتبة، على طريقتنا كأصدقاء، وهو يقادر مسرعاً، بتضارته التقليدية:

- اقرأ ما كتبته، وستعرف.

وفي اليوم التالي كانت هناك، من جديد، آلتان كاتبان متقابلتان في مكتب الهيرالدو، وكنتُ أكتب من جديد "الزرافة"، للصفحة المعهودة نفسها. و - كيف لا! - بالأجر نفسه. وفي الظروف الخاصة نفسها، بيني وبين ألفونسو، حيث تظهر في كثير من المقالات، فقرات لأحدنا أو للآخر، من المستحيل تمييزها. وقد رغب بعض طلاب الصحافة أو الأدب في تمييزها بينها، في الأرشفة، ولم يجدوا سبيلاً إلى ذلك، اللهم إلا في بعض الموضوعات المحددة، ليس من خلال الأسلوب وإنما من خلال المعلومات الثقافية.

وفي حانة الرجل الثالث، أحزنني الخبر المشؤوم عن مقتل صديقنا اللص. فقد خرج في إحدى الليالي كعادته، لممارسة مهنته، والشئ الوحيد الذي عُرف عنه بعد ذلك، دون مزيد من التفاصيل، هو أنه تعرض لطلق نار في القلب، داخل البيت الذي سطا عليه. طالبت بجثمانه أخته الكبرى، وهي العضو الوحيد من أسرته، ولم يحضر جنازه سوانا نحن وصاحب الحانة.

رجعتُ إلى بيت الأخوات أفيلا، وواصلت ميردا ديلمار، وقد عادت

جارة من جديد، تطهير ليالي البسة في القف الأسود، سهراتها المسكنة. وكانت تبدو، هي وأختها أليسيا، نوحين في ظريفتيهما في الحياة، وفي تمكتهما من جعل الزمن يصير دائرياً، عندما تكون معهما. وقد بقيتا، بطريقة خاصة جداً، ضمن الجماعة. فقد ظلتا تدعواننا، مرة واحدة في السنة على الأقل، إلى وليمة من لذائذ المأكولات العربية التي كانت تغذي روحنا. وكانت تقام في بيتهما سهرات مفاجئة لزارين بارزين، ابتداءً من فنانين كبار في أي نوع من الفنون، حتى شعراء تانيين. وأظن أنهما هما من نظمنا ميرلي الموسيقية المشوشة، وضمنتاني إلى عصية المركز الفني السعيدة.

يبدو لي اليوم، أن بارانكيًا قد وفرت لي أنفأ أفضل لرواية عاصفة الأوراق؛ ذلك أنني ما إن امتلكت منضدة، عليها آلة كاتبة، حتى بدأت التصحيح باندفاع متجدد. وفي تلك الأيام، تجمعت على عرض النسخة الأولى القابلة للقراءة، وأنا أعرف أنها غير منتهية، على شلة الأصدقاء. كنا قد تحدثنا عنها كثيراً إلى حد أن أي تنبيه كان يبدو فائضاً عن الحاجة. بقي ألفونسو يومين، يكتب قبالي، دون أن يأتي على ذكرها. وفي اليوم الثالث، عندما أنهينا مهامنا في آخر المساء، وضع المخطوط مفترحاً فوق المنضدة، وقرأ صفحات كان قد أشر عليها بقصاصات ورقية متطاولة. وكان يبدو مترصداً لنقاط عدم الترابط، ومتقياً للأسلوب، أكثر منه ناقداً. كانت ملاحظاته باللغة الصواب، وقد أخذتُ بها كلها، باستثناء واحدة بدت له مقحمة دون مسوغ، حتى بعد أن أثبت له أنها حادثة واقعية من طفولتي. فقال: وهو يكاد يموت من الضحك:

- حتى الواقع نفسه يخطئ عندما يكون الأدب رديئاً.
أما منهج خيرمان بارغاس فيتلخص في أنه لا يقدم تعليقات
قوية إذا كان النص جيداً، وإنا يقدم فكرة مطمئنة بنهجها بإشارة
تعجب:

- بدعاً

ولكنه يواصل في الأهام التالية، إطلاقاً وإيل من الأفكار المتفرقة
حول الكتاب، ينهيها في أي ليلة عريضة، بحكم سديده. أما إذا بدا له
المخطوط غير جيد، فإنه يتفق مع المؤلف على موعد، على انفراد،
ويطلعه على رأيه بكل صراحة، ويلطف بالغ، لا يبقى معه للمتدرب من
مخرج سوى تقديم الشكر إليه من كل قلبه، على الرغم من إحسانه
بالرغبة في الهكاء. ولكن لم تكن هذه هي حالتي. ففي يوم لا يخطر
على بال، قدم لي خيرمان، بين المزاح والجحد، تعليقاً حول مخطوطتي،
أعاد الروح إلى جسدي.

كان ألفارو قد اختفى من متهمى جاني، دون أدنى إشارة إلى أنه
حي. وبعد أسبوع تقريباً، حين لم أكن أنتظر رؤيته، سداً على الطريق
بسيارته في شارع بوليفار، وصرخ بي بأفضل مزاج لديه:
- اصعد يا معلم، سوف أخوزك لفظاً منك.

كانت تلك هي عبارته التخديرية. قمنا بعدة جولات، دون وجهة
محددة، في المركز التجاري الملتهب قيطاً، بينما ألفارو يطلق، بالصراخ،
تحليلاً لقراءته أقرب إلى الاتصالي، غير أنه مؤثر، وكان يقطع كلامه
كلما رأى أحد معارفه على الرصيف، ليصرخ مزجهاً إليه عبارة مداعبة
متوددة أو ساخرة، ثم يواصل محاكمتة العقلانية بحماس، بصوت

متهدج من الجهد، وشعر مشعث، وبتيمنك العيتين الزائغتين اللتين
تبدوان، كما لو أنهما تنظران إليّ من خلال مشهد عام وشامل، وانتهى
بنا المطاف إلى تناول بيرة مثلجة على رصيف مقهى لوس ألبندروس،
يُشقل علينا صخب مشجعي فريق جوتنور وسبورتنغ المتعصبين في
ستاد كرة القدم، على الرصيف المقابل؛ وأخيراً داهمنا تدافع المسوين
الخارجين من الستاد، قانطين بسبب التعادل المشين بهدفين لهدفين. أما
الحكم الحاسم الوحيد حول مخطوط كتابي، فقد صرخ به ألفارو في
اللحظة الأخيرة، من خلال نافذة السيارة:

- ما زال لديك، على كل حال يا معلم، الكثير من رواية العادات
والتقاليد

وقد تمكنت، شاكرًا، من القول له صارخًا:

- ولكنه من جيد فوكترا

فوضع هو حدًا لكل ما لم يقل وما لم يفكر فيه، بقهقهة مدوية:

- لا تكن ابن عاهرة!

بعد خمسين سنة من ذلك، وكلما تذكرت ذلك المساء، أعود لسماح
القهقهة المدوية التي رنت بظعم الحجارة، في الشوارع الملتهب.

صار واضحًا لدي، أن الرواية قد أعجبت الثلاثة، مع تحفظاتهم
الشخصية، وربما العادلة؛ ولكنهم لم يقولوا ذلك بصراحة كاملة، ربما لأنه
يبدو لهم وسيلة سهلة، لم يتكلم أي واحد منهم عن نشرها. وكان هذا
أيضًا من طيناعهم، فالهم في نظرهم، هو الكتابة بصورة جيدة. أما ما
عدا ذلك فهو شأن الناشرين.

وباختصار: لقد كنتُ مرة أخرى، في مدينتنا بارانكيّا المعهودة، إلا

أن تكبتي غثلت في الوعي بأنني لن أجِد الحماسة، في هذه المرة،
للمواظبة على كتابة "الزرافة"، والحقيقة أن زاويتي الصحفية كانت قد
أنجزت مهمتها في فرض حرفة الكتابة اليومية عليّ، من أجل تعلم
الكتابة من الصفر، بالعناد والطموح الضاري لأن أكون كاتبًا مختلفًا. لم
أكن قادرًا في أحيان كثيرة، على التعامل مع الموضوع. وكنت أستبدله
بموضوع آخر، عندما أدرك أنه ما زال كبيرًا على مقاسي. وقد كانت على
أي حال، رياضة أساسية لتكويني ككاتب، مع اليقين المريح بأنها ليست
سوى مادة غذائية دون أي التزام تاريخي.

مجرد البحث عن موضوع يومي، ملأ شهوري الأولى تلك بالغم، لم
يكن ذلك البحث يترك لي متسعًا من الوقت لعمل شيء آخر؛ فقد كنتُ
أضيع ساعات في تفحص الجرائد الأخرى، وأدون ملاحظات من
المحادثات الشخصية الخاصة، وأهم في تخيلات تطلق أحلامي؛ إلى أن
واجهتني الحياة الواقعية. فكانت تحريري الأكثر سعادة في هذا الاتجاه،
هي رؤيتي في مساء أحد الأيام، وأنا أمر في الحافلة، إعلانًا بسيطًا
على باب بيت: "تبيع سعف تخيل جنائزياً".

كان أول ما تبادر إلى ذهني، هو طرق الباب لتجري معلومات عن
تلك اللقبة. ولكن الحياة تغلب عليّ. وهكذا علمتني الحياة نفسها أن
أحد أكثر الأسرار فائدة، في الكتابة، هو تعلم قراءة رموز الواقع دون
توجيه أسئلة. وقد اتضح لي ذلك بصورة أكبر بينما أنا أعيد، قبل
سنوات قليلة، قراءة أكثر من أربعين "زرافة" منشورة، ومقارنتها مع
بعض النصوص الأدبية التي نشأت عنها.

في عطلة أعيناد الميلاد، جاء أعضاء هيئة أركان جريدة

الاسبىكتادور. ابتداءً من المدير العام، دون غابرييل كانو، مع كل أبنائه: لويس غابرييل، الوركيل، وغيرمو، وهو نائب المدير آنذاك؛ والفونسو، نائب الوركيل، وفيديل. أصغرهم سنًا، وكان يتدرب على كل شيء، وجاء معهم إدواردو ثالاميا، الملقب أوليسيس، وكانت له مكانة خاصة بالنسبة لي، لأنه نشر قصص القصيرة وملاحظة تقديمه لها. وكانوا معندين على التمتع معاً، كعصبة، بالأسبوع الأول من العام الجديد، في منتجع يرادومار، على بعد عشرة فراسخ عن بارانكيّا، حيث كانوا يقتحمون البار معاً، بعجلة. الشيء الوحيد الذي أتذكره من ذلك الصخب، بشيء من الدقة، هو أن أوليسيس، شخصياً، كان إحدى أكبر المفاجآت في حياتي. لقد كنت أراه بكثرة في بوغوتا، في البدء، في مقهى الطاحونة، ثم بعد سنوات من ذلك، في مقهى الأوتوماتيكو، وأحياناً في مسامرات المعلم دي غريف. كنت أتذكره بطبعه المنعزل وصوته المعدني. ومنهما خرجت باستنتاج أنه شخص نزق. وهذه كانت سمعته في الحقيقة، بين القراء الجيدين في المدينة الجامعية. ولهذا تحببته في مناسبات عديدة كيلا ألطخ الصورة التي اختلفتها له من أجل استخدامي الشخصي. وكنتُ على خطأ. فقد كان واحداً من أكثر الكائنات التي أتذكرها ودأً وبذلاً لخدماته، مع تفهمي بأنه يحتاج إلى مبرر خاص. نابع من العقل أو من القلب، لإظهار ذلك. لم يكن، في مادته البشرية، شيء من مادة دون رامون فيثيس، أو الفارو موتيس، أو ليون دي غريف، ولكنه يشاطرهم الكفاءة والقابلية القطرية في أن يكون معلماً في كل حين، ويأته حظي بحسن حظ نادر أتاح له قراءة كل الكتب التي لا بد من قراءتها.

أما أبناء كانو الشباب - لويس غابرييل، وغيرمو، والفونسو، وفيديل - فتوصلت إلى أن أكون أكثر من صديق لهم، عندما عملت محرراً في جريدة الاسبيكتادور. وسيكون من المجازفة، تذكر حوار ما من تلك الأحاديث التي كان الجميع يخوضونها ضد الجميع في لبالي يرادومار. ولكن من الصعب في الوقت نفسه، نسيان إتحاحها غير المحتمل على مرضى الصحافة والأدب القاتل. لقد جعلوني واحداً منهم، وأشبه بحكايتهم الشخصي الذي اكتشفوه وتبنوه بأنفسهم، ومن أجلهم. ولكنني لا أتذكر - مثلما قلت كثيراً - أن أياً منهم اقترح عليّ الذهاب للعمل معهم. لم أتأسف لذلك، لأنه لم تكن لدي، في ذلك الوقت الرديء، أدنى فكرة عما سيؤول إليه مصيري، ولا إذا ما كانوا سيتيحون لي اختياره.

رجع الفارو موتيس، المتحمس لحماسة آل كانو، إلى بارانكيّا لدى تعيينه مديراً للعلاقات العامة في شركة "إسو الكولومبية"، وحاول إقناعي بالذهاب للعمل معه في بوغوتا. غير أن مهمته الحقيقية مع ذلك، كانت أكثر دراماتيكية بكثير: فبسبب خطأ رهيب ارتكبه أحد المتعهدين المحليين، ملئوا خزانات الوقود في المطار ببنزين سيارات، بدلاً من بنزين الطائرات، ولم يكن هناك ريب في أنه لا يمكن لطائرة مزودة بذلك الوقود الخطأ، أن تصل إلى أي مكان. وكانت مهمة موتيس تتمثل في إصلاح الخطأ، بسرية مطلقة، قبل حلول الفجر، دون أن يعلم بذلك موظفو المطار، وأقل منهم يكثير الصحافة. وهذا ما فعله. فقد تم استبدال الوقود بأخر جيد، خلال أربع ساعات من الويسكي تخلفتها معادئة جيدة في المطار المحلي. لقد كان لدينا فائض من الوقت للحدث

في كل الأمور. ولكن الموضوع الذي ما كنت قادراً على تصوّره، هو أنه يمكن لدار نشر لوسادا في بوينس آيرس، أن تنشر روايتي التي كنت على وشك الانتهاء منها. وكان ألفارو موتيس يعرف ذلك، مباشرة، من المدير الجديد لفرع الدار في بوغوتا، خوليو سير فييغاسي، وهو وزير سابق في البيرو، ملتجئ منذ وقت قريب، في كولومبيا.

لست أتذكر تأثراً أشد حدة؛ فقد كانت لوسادا واحدة من أفضل دور النشر في مدينة بوينس آيرس التي ملأت فراغ النشر الذي سببته الحرب الأهلية الإسبانية. كان ناشروها يغذوننا، يومياً، بمستجدات باللغة الأهمسية والتشويق، يكاد لا ينحاح لنا الوقت لقراءتها. وكان وكلاء مبيعاتها يأتوننا، في مواعيد دقيقة، بالكتب التي نوصي عليها، ونلتقاهم كمبعوثي السعادة. ومجرد التفكير في أن واحدة من دور النشر تلك يمكن لها أن تنشر عاصفة الأوراق، أو شك أن يزعزعني ويحدث في اختلالاً. فلم أكد أنني من تدبّع موتيس، وهو يسافر في طائرة مزودة بوقود سليم، حتى هرعت إلى الصحيفة، لأقوم بمراجعة معمقة لأصول الرواية.

انكبت، بكامل جسدي، في الأيام التالية، على تفحص مهووس لنص يمكن له أن يخرج من بين يدي. لم يكن أكثر من مئة وعشرين صفحة، مطبوعة على الآلة الكاتبة بفراغ مزدوج بين السطور، ولكنني قمت بعملیات ضبط، وتبديل، واختلاق لم أعد أعرف معها إذا ما صار النص أفضل أو أسوأ مما كان عليه. أعاد خيرمان وألفونسو قراءة أكثر الأجزاء حساسة، وكانا طيبي القلب إلى حد أنني لم يوجها إليّ ملاحظات وتحفظات لا خلاص منها، في تلك الحالة من الجزع، راجعت

النسخة النهائية، وروحي في يدي، واتخذت القرار بعدم نشرها. وسيصبح ذلك، في المستقبل، هوساً لدي. فكلما أحسست بالرضى عن كتاب ناجز، يراودني شعور محزن بأنني سأكون عاجزاً عن كتابة آخر أفضل منه.

ولحسن الحظ، أن الشكوك راودت ألفارو موتيس حول سبب تأخري، فرجع إلى بارانكيا، ليأخذ نسخة الأصل الوحيدة المبيضة، ويرسلها إلى بوينس آيرس. دون أن يتيح لي الوقت لقراءة الأخيرة. لم يكن التصوير الفوتوكروبي التجاري قد وُجد بعد. وكان الشيء الوحيد المتبقي لدي، هو المسودة الأولى المصححة، على الهوامش وبين السطور، بأحبار متنوعة الألوان، لتفادي البلبلة والاختلاط. ألقيت بتلك المسودة إلى القمامة، ولم أستهذ الطمأنينة على مدى أكثر من شهرين، تطلبهما تلقي الجواب.

وفي أحد الأيام، سلموني في الهيرالدو، رسالة كانت قد اختلطت بأوراق أخرى، على منضدة رئيس التحرير. جمّد قلبي مرأى عنوان دار نشر لوسادا في بوينس آيرس، على المغلف؛ ولكن الحياة منعني من فتحها هناك بالذات، فلم أفعل إلا في حجيراتي الخاصة. وبفضل تصرفي هذا، واجهت دون شهرد، الخير المقتضب بأن عاصفة الأوراق قد رُفضت. ولم أجد نفسي مضطراً إلى قراءة الحكم كاملاً، لأشعر بالصدمة القاسية، في تلك اللحظة، وبإحساسي بأنني سأموت.

كانت الرسالة هي القرار السامي للسيد غييرمو توروي، رئيس مجلس إدارة النشر، مدعماً بمجموعة من الحجج البسيطة التي برن فيها تفخيم، وكفاة، وخطابة أناس قشالة البيض. وكان العزاء الوحيد هو التساهل الأخير المفاجئ: "لا بد من الاعتراف للمؤلف، بمواهبه

الاستثنائية في كراصد وشاعر". ومع ذلك، ما زلت أفاجا حتى اليوم، بصرف النظر عن ذهولي وخجلي، بأن أشد الاعتراضات فجاجة، تبدو لي مناسبة.

لم أحفظ قط، بنسخة من الرسالة، ولم أدر أين صارت بعد أن تداولها، طوال عدة شهور، أصدقائي في بارانكيّا الذين لجؤوا إلى كل أنواع المبررات البليسية، في محاولة التبرية عني. والحقيقة أنني عندما حاولت الحصول على نسخة من الرسالة، من أجل توثيق هذه المذكرات، بعد انقضاء خمسين سنة، لم يجدوا لها أثرا في دار النشر في بونيس آيرس. لست أدري إذا ما كانت قد نُشرت كغير، رغم أنني لم أحاول أن تكون خبرا قط. ولكنني أعرف أنني احتججت إلى وقت لا بأس به، كي أستعيد حماسي بعد أن تهجمتُ على هواي، وكنتُ رسالة غاضبة، نُشرت دون إذن مني. وقد سب لي سوء الائتمان ذلك، حزنا كبيرا، لأن ردّ فعلي النهائي كان استغلال ما هو مفيد في الحكم، وتصحيح كل ما يمكن تصحيحه، وفق وجهة نظري، والمواصلة قدما.

أفضل تشجيع هو الذي وفره لي خيرمان بارغاس، والفونسو فوينمايور، والفارو سيبيدا. لقد وجدتُ ألفونسو في إحدى حانات السوق العام، حيث اكتشف واحة للقراءة وسط جلبة حركة التجارة. استشرته إذا ما كان عليّ ترك روايتي على حالها، أم أنه يتوجب عليّ إعادة كتابتها في بناء جديد. ولا سيما أنني كنت أرى أنها تفتقد، في نصفها الثاني، الزخم الذي يسود نصفها الأول. استمع الفونسو إليّ، بشيء من نفاذ الصبر، وأصدر لي حكمه:

- انظر يا معلم - قال لي أخيرا، كمعلم بكل معنى الكلمة -

المسيد غييرمو دي تورّي شخص محترم جدا إلى الحد الذي يظنه هو نفسه، ولكنه لا يبدو لي مطلقاً قاماً على ما وصلت إليه الرواية اليوم، وفي محادثات خرقا. أخرى في تلك الأيام، وجدتُ العزاء في سابقة أن غييرمو دي تورّي كان قد رفض، من قبل، أصول ديوان إقامة في الأرض "ليابلو نيرودا"، عام ١٩٢٧. وكان فوينمايور يفكر في أن مصير روايتي سيكون مختلفاً، لو أن من قرأها هو خورخي لويس بورخيس؛ ولكن الضرر سيكون أكبر أيضاً لو أنه هو الذي رفضها. وانتهى ألفونسو فوينمايور إلى القول:

- ولهذا، دعك من الإلحاح والإزعاج. فروايتك جيدة مثلما بدت لنا، والشئ الوحيد الذي عليك عمله، منذ الآن، هو مواصلة الكتابة. أما خيرمان - الرفي لأسلوبه المتزن - فقد طلب مني أن أقدم المعروف بعدم المبالغة. وكان يفكر في أن الرواية ليست سينة إلى حد عدم الموافقة على نشرها، في قارة يعاني فيها هذا الجنس من أزمة، وليست جيدة إلى حد إثارة فضيحة دولية، الحاسر الوحيد فيها سيكون كاتباً مبتدئاً ومجهولاً. بينما لخص ألفارو سيبيدا حكم غييرمو دي تورّي بواحدة من عباراته المزهرة:

- المسألة هي أن الإسباني أناس شديدو النظافة. وعندما انتبهت إلى أنني لا أملك نسخة مبسطة من الرواية، أعلمتني دار النشر لوسادا، عبر شخص ثالث أو رابع، أنها وفق أنظمتها، لا تعيد النصوص الأصلية إلى أصحابها، ولحسن الحظ أن خوليو سيسر بييغاس كان قد استنسخ نسخة قبل إرسال نسختي إلى بونيس آيرس، فأوصلها إليّ. عكفتُ عندئذ على تصحيح جديد

بالاستناد إلى النتائج التي توصل إليها أصدقائي. ألفت مقطعا مطولا عن البطلة التي تتأمل من ممر أزهار البيجونيا، وابل مطر يستمر ثلاثة أيام، وهو المقطع الذي تمحوك، فيما بعد، إلى القصة القصيرة "مونولوج لإيزابيل وهي ترى هطول المطر في ماسكوندو". وحذفت حواراً غير ضروري للجد مع الكولونيل أوريليانو بونديا، قبل مذبحة شركات الموز، وحوالي ثلاثين صفحة تشوش، شكلاً ومضموناً، البناء الموحد للرواية. وبعد عشرين سنة من ذلك تقريباً، حين كنت أظن أنني قد نسيتها، ساعدتني أجزاء من تلك المقاطع، في تدعيم حالات الحنين، على طول مئة عام من العزلة وعرضها.

كنت على وشك تجاوز الصدمة، عندما نشر الخير القائل إن الرواية الكولومبية التي اخترت للنشر، بدل روايتي، في دار نشر لوسادا، هي رواية إدواردو كاباييرو كالديرون "السيح مولياً ظهوراً". لقد كان خطأ أو حقيقة تترسو، لأن المسألة لم تكن مسابقة، وإنما برنامج دار النشر لوسادا من أجل الدخول إلى السوق الكولومبية بمؤلفين كولومبيين. وروايتي لم ترفض في منافسة مع رواية أخرى، وإنما لأن غيرمو دي توروي لم يجدها صالحة للنشر.

طاش صواي أكثر مما اعترفت به أنا نفسي آنذاك. ولم أجد الجرأة على معاناة ذلك الوضع، دون أن أقنع نفسي به. ولهذا سقطت، دون إشعار مسبق، على صديقي منذ الطفولة، لويس كارميلو كورتيا، في مزرعة الموز في سيبيا - على بعد بضعة فراسخ عن كاناكا - حيث كان يعمل في تلك السنوات مراقباً للطقس، ومراجع ضرائب. وبقينا يومين نسترجع مرة أخرى، كما هي عادتنا، طفولتنا المشتركة. كانت ذاكرته،

وبدايته، وصراحته تبدو لي كاشفة إلى حد تسبب لي شيئاً من الرعب. وبينما نحن نتبادل الحديث، كان يقوم، مستخدماً صندوق عدته، بإصلاح أعطال البيت، بينما أنا أستمع إليه من أرجوحة نوم تهبها نسيمات المزارع الخفيفة. وكانت زوجته، نينا سانتشيث، تصحح هذياننا ونسياننا، وهي تقف من الضحك، في المطبخ. وفي النهاية، في جولة مصالحة في شوارع آراكاتاكا المقفرة، أدركت إلى أي حد كنت قد استعدت صحتي المعنوية، ولم يبق لدي أدنى شك في أن عاصفة الأوراق - سواء أرفضت أم لم ترفض - ليست الكتاب الذي نويت كتابته بعد الرحلة مع أُمي.

ومتحمساً ب تلك التجربة، ذهبت بحثاً عن رافائيل إسكالونا في فردوسه في بايبيديار، محاولاً التفتيح عن عالمي حتى الجدور. لم أفاجأ، لأنني أحسست أن كل ما وجدته، كل ما كان يحدث، وكل الناس الذين عرفوني عليهم، هي أمور تبدو، كما لو أنني قد عشتها، ليس في حياة أخرى، وإنما في الحياة التي أعيشها، في ما بعد، في واحدة من رحلاتي الكثيرة. تعرفت على الكولونيل كليمنتي إسكالونا، والد رافائيل، الذي أدهشني منذ اليوم الأول، برفاهه وسلوكه كبطريك على الطريقة القديمة. لقد كان نحيلاً ومستقبلاً كقصبة بامبو، له بشرة مدهونة وعظام متينة، ويستمع بوقار تجاوز كل التجارب. لقد لاخفتني، منذ صباي، موضوع اللهفة والوقار اللذين انتظر بهما جدائي حتى نهاية حياتيهما المديدة، تقاعد المحارب القديم، ومع ذلك، عندما كتبت أخيراً، الكتاب في فندق قديم في باريس، بعد مرور أربع سنوات، لم تكن الصورة الراسخة في ذهني، طوال الوقت هي صورة جدي، وإنما صورة دون كليمنتي إسكالونا، كإعادة جسدية للكولونيل الذي لا يكتبه أحد.

عرفتُ من رافائيل إسكالونا أن ماثويل ثاباتا أوليفيا قد استقرت كطبيب فقراء في بلدة لايات، على بعد كيلومترات قليلة من بايدوبار، فذهبنا إلى هناك. وصلنا عند الغروب، وكان هناك في الجو، شيء خائق يضيق أنفاسي. ذكرني ثاباتا وإسكالونا بأن القرية وقعت، قبل حوالي عشرين يوماً، ضحية هجوم شنته الشرطة التي كانت تزرع الرعب في المنطقة، لتفرض الإرادة الرسمية. لقد كانت ليلة رعب، قتلوا الناس دون تمييز، وأضرموا النار في خمسة عشر بيتاً.

ولم نعرف تلك الحقيقة بسبب الرقابة الحديدية. ومع ذلك، لم تُنح لي الفرصة آنذاك لتصورها. كان خوان لوبيث، أفضل موسيقي في المنطقة، قد غادر دون عودة، منذ الليلة السوداء. وقد طلبنا من أخيه الأصغر بابلو، في بيته، أن يعزف لنا شيئاً، فقال لنا ببساطة حاسمة:

- لن أعود إلى الغناء في حياتي، إلى الأبد.

عندئذ علمنا أن جميع موسيقيي البلدة، وليس هو وحده، قد خيروا أكورديوناتهم، وطبولهم، وآلاتهم الموسيقية الأخرى، ولم يعودوا إلى الغناء، حزناً على موتاهم. لقد كان ذلك مفهوماً، حتى إن إسكالونا نفسه الذي كان معلم كثيرين. وثاباتا أوليفيا الذي بدأ يصير طبيب الجميع، لم يتمكنوا من جعل أحد بأن يغني.

حيال إلحاحنا، توافق الجيران ليعرضوا مبرراتهم، ولكنهم كانوا يشعرون، في أعماق روحهم، بأنه لا يمكن للحداد أن يستمر أكثر. هذا يبدو كما لو أن أحداً قد مات مع من ماتوا، قالت ذلك امرأة تضع وردة حمراء على أذنها. وقد أيدها آخرون. عندئذ أحس بابلو لوبيث بأنه مخول بأن يلوي عنق أحرانه، إذ دخل إلى بيته دون أن يقول كلمة واحدة،

وخرج منه حاملاً الأكورديون. غنى، كما لو يغني فقط، وبينما هو يغني، بدأ موسيقيون آخرون بالتوافد. فتح أحدهم الحانة المقابلة وقدم شرباً على حسابه. وما لبثت الحانات الأخرى أن شرعت أبوابها، بعد شهر من الحداد، وأضيت الأتوار، واستغرقتنا جميعنا في الغناء. بعد نصف ساعة من ذلك، كانت القرية بأسرها تغني. وخرج في الساحة المقفزة أول مخمور منذ شهر، وراح يغني بأعلى صوته. إحدى أغنيات إسكالونا، مهداة إلى إسكالونا نفسه، تكرماً لمعجزته في بعث الحياة في القرية.

لحسن الحظ، أن الحياة كانت تتواصل في بقية العالم. وبعد شهرين من رفض أصول روائي تعرفت على خوليو سيسر بيبغاس، وكان قد قطع علاقاته بدار نشر لوسادا، وعُين ممثلاً في كولومبيا لدار النشر غونثالث بورتو، المتخصصة في بيع موسوعات وكتب علمية وتقنية، بالتقسيط. لقد كان بيبغاس أطول الرجال قامة، وأقواهم بشية، والأوسع حيلة في مواجهة أسوأ عثرات الحياة الواقعية. وكان مستهلكاً مفرطاً لأغلى أنواع الريسكي ثناً، ومحدثاً لا سبيل للتهرب منه، وزاوية بارعة لحكايات الصالونات. في ليلة لساننا الأول، في الجناح الرئاسي في فندق برادو، خرجت متعشراً، وأنا أحمل حقيبة بائع متجول مترعة بنشرات دعائية ونماذج من موسوعات مصورة، وكتب في الطب والحقوق والهندسة، من مطبوعات دار نشر غونثالث بورتو. فقد وافقت، منذ كأس الريسكي الثاني، على التحول إلى بائع كتب بالتقسيط، في مقاطعة باديبيا، ابتداءً من بايدوبار حتى غواخيرا. وكان مكسبي هو سلفة تدفع نقداً بقيمة عشرين بالمنة من المبيعات، يجب أن تكفيني للعيش دون ضائقات، بعد دفع نفقاتي، بما في أجرة الفندق.

هذه هي الرحلة التي حوكتها أنا نفسي، إلى أسطورة بسبب
نقيصتي غير القابل للإصلاح في عدم تقدير أهدافي في الوقت
المناسب. الأسطورة هي أنه جرى التخطيط للرحلة، على أنها حملة
خرفائية للبحث عن جنوري في أراضي أسلاقي، متتبعا الطريق
الرومانسي نفسه الذي قطعه أُمي عندما اقتادتها أمها لإبعادها عن
عامل تلفراف أراكاتاكا. والحقيقة أن رحلتي لم تكن واحدة، وإنما
برحلتين قصيرتين جداً وطائفتين.

ولم أرجع في الثانية منهما إلا إلى القرى المحيطة ببايدوبار.
وعندما صرت هناك، كنت قد قررت مسبقاً بالطبع، أن أواصل قدماً،
حتى رأس بيلا، على الطريق نفسه الذي اجتازته أُمي العاشقة، ولكنني
لم أصل إلا إلى ماناوري دي لا سيررا، ولايات، وبيباثويقا، على بعد
فراخ قليلة من بايدوبار. لم أتعرف آنذاك على سان خوان دي سيسر،
ولا على بازاتاكاس، حيث تزوج جدّي وولدت أُمي، وحيث قُتل
الكولونيل نيكولاس ماركيز ميدرادو باتشيكو. ولم أتعرف على
ريوهاتشا، وهي جنين قبيلتي، حتى عام ١٩٨٤، عندما أرسل الرئيس
بيليساريو بيتانكور من بوغوتا، جماعة من الأصدقاء المدعوين لافتتاح
مناجم الحديد في ثيربخون. كانت تلك هي رحلتي الأولى إلى غواخيرا،
غواخيرا، التخييلة، التي بدت لي أسطورة مثلما وصفتها في مرات
كثيرة، قبل أن أتعرف عليها. ولكنني لا أظن أن السبب هو ذكرياتي
الزائفة، وإنما ذاكرة الهنود الذين كان جدّي يشتري كل واحد منهم بمئة
بيزو من أجل الخدمة في بيت أراكاتاكا. وكانت مفاجأتي الأولى، بكل
تأكيد، هي رؤيتي الأولى لريوهاتشا، مدينة الرمل والملح، حيث ولد

أسلاقي منذ جدي الثالث، وحيث رأت جدتي عذراء المعجزات تطفئ
الفرن بنفخة جليدية، حين أوشك خبزها أن يحترق، وحيث خاض جدّي
جره وعانى السجن بسبب جريمة غرامية، وحيث خيلت بي أُمي خلال شهر
عسل أبوي.

لم يُنح لي كثير من الوقت لبيع الكتب في بايدوبار. كنت أسكن
في "فندق ويلكلم"، وهو بيت كولونيسيالي بديع مُحفوظ به في إطار
الساحة الكبرى. في فناءه صف طويل متشابك من أشجار النخيل،
ومرائد حانة خشنة، وأراجيح نوم معلقة بأعمدة الدعائم. وكان صاحب
المحل، فيكتور كوين، يحرص نظام البيت كأنه سيرير^(١)، مثلما يحرص
سمعه الأخلاقية التي يتهددها الغرياء المتهتكرون. وكان في الوقت
نفسه، من دعاة نقاء اللغة، يشدد ثيرباتس عن ظهر قلب، بشامت
قتالية، وي طرح أخلاقيات غاربا لوركا على بساط البحث. وقد أقيمت
علاقة طيبة معه لتعمقه في أعمال أندريس بيلو^(٢)، ولإلقائه الصارم
لقصائد الرومانسيين الكولومبيين؛ وعلاقات سيئة جداً، كذلك، لهوسه
في منع مخالفة الأنظمة الأخلاقية في أجواء الفندق المطهرة. وقد بدأ
كل ذلك بصورة بالغة السهولة، لكونه صديقاً قديماً لخالي خوان دي
ديوس، يُسعده استحضار ذكرياته عنه.

لقد كان فناء الفندق بالنسبة لي، ضرباً من البانصيب، لأنني كنت

(١) سيرير Cerbero أو Cencerbero، في الأساطير الإغريقية، وحش بجسم كلب، له
ثلاثة رؤوس ورقية أفي وأسان مسمومة، يحرص مدخل الجحيم.

(٢) أندريس بيلو Andres Bello، كاتب ولغوي وسياسي أمريكي لاتيني، ولد في
كاراكاس (١٧٨١)، وتوفي في سنغافو دي تشيلي (١٨١٠)، أسس جامعة تشيلي،
 ووضع قانون الأحوال المدنية في تلك البلاد.

أقضي فيه الساعات الطويلة الفائضة، وأنا أقرأ في أرجوحة نوم، تحت قبط الظهرية. وقد وصل بي الأمر في أيام السغب، إلى أن أقرأ ابتداء من أبحاث في الجراحة وحتى مراجع في المحاسبة، دون أن يخطر لي أنها ستفيدني فيما بعد، في مقاماتي ككاتب. كان العمل يجري بصورة تلقائية تقريباً، لأن معظم الزبائن كانوا يرون بطريقة ما من غربال آل إغواران أو آل كوتيس، فكانت تكفيني زيارة، تمتد حتى موعد الغداء، أستحضر خلالها حيلاً أسرية. وكان البعض يوقعون العقد دون قراءته، لكي نصل في الوقت المناسب، إلى حيث بقية أفراد القبيلة الذين ينتظروننا، لتناول الغداء في ظل الأكورديونات، وما بين بايديوار ولاهات، جنيت محصولي الوفير خلال أقل من أسبوع، ورجعت إلى بارانكيّا وأنا أشعر، متأثراً، بأنني كنت في المكان الوحيد في العالم الذي أفهمه حقاً.

يوم الثالث عشر من حزيران، وبينما أنا ذاهب في الصباح الباكر في الحافلة، إلى مكان لا أدري ما هو، علمت أن القوات المسلحة قد استولت على السلطة، بسبب الفوضى التي تسود الحكومة والبلاد بأسرها. ففي السادس من أيلول من السنة السابقة، قامت زمر من المحافظين، في بوغوتا، بإضرام النار بمبنى التيمبو والاسبيكتادور، أهم صحيفتين في البلاد، وهاجمت بالرصاص، منزل الرئيس السابق ألفونسو لوبيث بومارينخا، وماركوس بيراس ريستريو، رئيس إدارة الحزب الليبرالي. وقد تمكن هذا الأخير، المعروف كسياسي صارم الطباع، من تبادل إطلاق النار مع المعتدين عليه. ولكنه اضطر في النهاية إلى الهرب عبر بيت مجاور. وكانت حالة العنف التي تعاني منها البلاد منذ

التاسع من نيسان، قد صارت لا تطاق. وظلت على تلك الحال، حتى فجر الثالث عشر من حزيران، عندما أقدم الجنرال غوستافو روخاس بينيّا على إخراج الرئيس المكلف، روبيرتو أورباتيّا أريلايث، من القصر. عندئذ قام لاوريانو غوميث، الرئيس الوصي الذي كان ينعم بشقاع طبيب، باستعادة القيادة، وهو على كرسي ذي عجلات، بترتيب من أطبائه. وحاول القيام بانقلاب على نفسه، وممارسة الحكم خلال الخمسة عشر شهراً المتبقية على انتهاء ولايته الدستورية. ولكن الجنرال روخاس بينيّا كان قد استولى، مع أركانه العامة، على السلطة، ليحافظ على قسكته بها.

جاء التأييد الوطني قوياً وإجماعياً لقرار الجمعية التأسيسية التي أضفت الشرعية على الانقلاب العسكري. وولي الجنرال روخاس بينيّا السلطات حتى نهاية الفترة الرئاسية، في شهر آب من السنة التالية، بينما سافر لاوريانو غوميث مع أسرته إلى بيتيدوم، على الساحل الشرقي الإسباني، مخلفاً وراءه الانطباع الواهم بأن أزمة غضبه قد انتهت. أعلن الزعماء التقليديون الليبراليون تأييدهم للمصالحة الوطنية بدءاً إلى محازبيهم الذين امتشقوا السلاح في كل أنحاء البلاد، والصورة ذات المغزى الكبير التي نشرتها الصحف في الأيام التالية، هي صورة الليبراليين الطليعيين الذين غنوا سيرنادر عشاق، تحت شرفة المخدع الرئاسي. وقد ترأس ذلك التكريم دون روبيرتو غارسيا بينيّا، مدير جريدة التيمبو، وأجد أشد المعارضين للنظام البائد.

غير أن الصورة الأكثر وقعاً وتأثيراً في تلك الأيام، هي صورة رجل جرب العصابات الليبراليين اللامتناهي، وهم يسلمون أسلحتهم في

السهراب الشرقية، يقودهم غوادالوبي سالتيدو الذي لمست ضرورته بعمق، كقاطع طريق رومانسي، قلوب الكولومبيين المعذبين بالعنف الرسمي. لقد كانت سلالة جديدة من رجال حرب العصابات المناهضين للنظام المحافظ؛ اعتُبروا بطريقة ما، بقية متأخرة من حرب الألف يوم، وكانوا يقبضون علاقات ليست سرية بأي حال، مع القادة الشرعيين للحزب الليبرالي. كان على رأسهم، غوادالوبي سالتيدو قد أشاع لنفسه، في كل مستشفيات البلاد - بين الموالين والمعارضين - صورة أسطورية جديدة. وربما لهذا السبب، وبعد سبع سنوات من استسلامه، جرى قتله بالرصاص على يد الشرطة، في مكان ما من بوغوتا. لم يحدد بدقة قط، مثلما لم تتضح ظروف موته بصورة مؤكدة.

التاريخ الرسمي هو السادس من حزيران ١٩٧٧. وقد أودع الجثمان، في احتفال رسمي مهيب، في مدفن مرقم في مقبرة بوغوتا المركزية، بحضور سياسيين معروفين. ذلك أن غوادالوبي سالتيدو، ومن مراكز قيادته الحربية، احتفظ بعلاقات ليست سياسية وحسب، وإنما اجتماعية أيضاً، مع قادة الاتجاه الليبرالي المنكوب. ومع ذلك، هناك ثنائي روايات مختلفة، على الأقل، حول موته، ولا يخلو الأمر من مرتابين، في تلك الفترة وفي هذه ما زالوا يتسائلون إذا ما كانت الجثة هي جسده حقاً، وإذا ما كان مدفوناً فعلاً في المدفن الذي وري جثمانه فيه.

بتلك الحالة العنوية، انطلقت في رحلة الأعمال الثانية إلى بروفينثيا، بعد التأكد مع بيبفاس، من أن كل شيء يسير على ما يرام. ومثلما في المرة السابقة، ألحزت مبيعاتي بسرعة كبيرة، في باينديوار،

مع زبائن مقتنعين بالشراء مسبقاً، ذهبت مع رافائيل إسكالونا وبانتشو كوتيس إلى بيبانويفا، ولاهاث، وباتييال، وماناوري دي لا سييرا، لزيارة أطباء بيطريين ومهندسين زراعيين. وكان بعضهم قد تحدث مع بعض من اشترىوا الكتب مني في الرحلة السابقة، وكانوا ينتظروني بطلبات خاصة. وقد كانت أي ساعة من اليوم، مناسبة لإقامة حفلة مع الزبائن أنفسهم ورفاقهم المرحين، فيطلع علينا الفجر، ونحن نغني مع كبار عازقي الأكورديونات، دون الإخلال بأية التزامات أو دفعات مستحقة؛ إذ كانت الحياة اليومية كانت تواصل إيقاعها الطبيعي في حنى العريضة. كنا في بيبانويفا مع عازف أكورديون وقارعي طبل، يبدو أنهم أحفاد بعض من كنا نستمع إليهم في طفولتنا في أراكاتاكا. وهكذا تكشف لي في تلك الرحلة، إن ما كان إيماناً طفولياً، هو مهنة ملهمة سترافقني إلى الأبد.

في هذه المرة تعرفت على ماناوري، قلب سلسلة الجبال. وهي قرية بدیعة وحادثة، وتاريخية في الأسرة، لأنهم أخذوا إليها أمي للاستشفاء. وهي طفلة، بعد إصابتها بحمى ثلاثية لم تنفع معها كل أنواع العقاقير. وكنت قد سمعت الكثير عن ماناوري؛ عن أمسياتها في أيار، وعن صيامها العلاجي، حتى إنني لاحظت عندما ذهبت إليها للمرة الأولى، أنني أتذكرها، كما لو أنني عرفتني في حياة سابقة.

كنا نتناول بيرة مشبعة في حانة القرية الوحيدة، عندما دنا من متحدثنا، رجل يبدو كأنه شجرة، يضع طماق خيال، ويعلق على خصره مسدساً حريباً. قام رافائيل إسكالونا بتعريف أحدنا على الآخر، فأمعن الرجل النظر إلى عيني، وهو ما يزال يمسك بيدي، وسألني:

- هل لك علاقة بالكولونيل نيكولاس ماركيز؟

فقلت له:

- إنه جدي.

فقال:

- جدي هذا إذن، هو من قتل جدي.

هذا يعني أنه حفيد ميداردو باتشيكو، الرجل الذي قتله جدي في مبارزة صريحة. ثم يُنح لي الوقت للفرح، لأنه قال ذلك بنبرة دافئة جداً، كما لو أن القتل هو أيضاً طريقة للارتباط بصلة قرابة. بقينا معه في حفلة سكر استمرت ثلاثة أيام بلياليها، في شاحنة لحصيل الأحجار التي يملكها، نشرب براندي ساخناً ونأكل سانكوتشو لحم جديان، تكرماً للذكرى جدينا الميتين. وقد انقضت عدة أيام قبل أن يعترف لي بالحقيقة: إذ كان قد اتفق مع إسكالونا على إخافتي، ولكن قلبه لم يطاوعه على مواصلة دعايات الجدين الميتين. والواقع أن اسمه كان خوسيه برودينيو أغيلار. وكان عمله مهرباً، وهو شخص مستقيم وطيب القلب. وتكرماً له، وكبلاً يكون أقل مكانة، عمدتُ باسمه الخصم الذي قتله خوسيه أركاديو بويتيا بحرية في ميدان صراع الديكة، في رواية مئة عام من العزلة.

أما الأمر السيئ، فهو أن الكتب التي يعتها، لم تكن قد وصلت بعد، عند انتهاء رحلة الحنين تلك. ولا يمكن لي دون وصولها، أن أقبض سلفتي. لم يبق معي فلس واحد، بينما كان حساب الفندق يزايد بسرعة أكبر من لبالي المحسومة. وبدأ فيكتور كوين يفقد الصبر القليل المتبقي لديه، بسبب الشائعات بأنني أهدد نقود دينه على بنات هوى متردات،

وفي أوكار عريضة بانسة. وكان الشيء الوحيد الذي يث في بعض الطمأنينة، هو الغراميات المعاكسة في مسلسل "الحق بالولادة"، الرواية الإذاعية التي كتبها دون فيليكس ب. كايغيت، وأنعشت الصدمة الشعبية التي أحدثتها، أحلامي القديمة بأدب الصرع: غير أن قراءتي غير المتوقعة لرواية هيمنغواي الشيخ والبحر، التي وصلت فجأة في مجلة لايف بالإسبانية، جاءت لتشفي من كآباتي.

وفي البريد نفسه، وصلت شحنة الكتب التي علي تسليمها إلى أصحابها، كي أقبض سلفتي عنها. جميعهم دفعوا ما عليهم، لكنني كنتُ مديناً للفندق بضعف ما كسبته. وقد حذوني بيفاس من أنني لن أحصل على أي شيء إضافي قبل مرور ثلاثة أسابيع. عندئذ تحدثت بجديّة إلى فيكتور كوين، ووافق هو على قبول إيصال بوجود ضامن يكفلي. ولأن إسكالونا وعصيته لم يكونوا في ميثاق يدي، فقد قدم لي تلك الخدمة صديق وفرت العناية الإلهية، دون أي التزام من جانبي، ولمجرد أنه أعجب بقصة لي منشورة في كرونيكا. ولكنني لم أستطع مع ذلك، أن أذفع شيئاً لأحد، عندما أزلت ساعة الحقيقة.

وقد صار ذلك الإيصال تاريخياً، بعد سنوات، عندما أخذ فيكتور كوين يري لأصدقائه وزواره، ليس كوثيقة اتهام وإنما كغنيمة. وفي المرة الأخيرة التي رأيته فيها، كان عمره مئة سنة تقريباً، وكان منتصب القامة، صافي الذهن، ودون تغيير في مزاجه. وأثناء تعييد أحد أبناء أختي بالمعمودية كونسويلو أراخونوغيرا، وكنتُ عراكه، عدت لرؤية الإيصال غير المدفوع. بعد مرور قرابة خمسين سنة. فقد عرفته فيكتور كوين على كل من رغب في رؤيته، بظرفه وتهذيبه المعهودين. وفاجأتني

دقة الوثيقة التي حررها هو نفسه، والإرادة الهائلة بالدفع والسداد التي تشبدي في وقاحة توقعي. وقد احتفى به فيكتور في تلك الليلة، بأن رقص رفصة باسيو بايثاتو، يتألق كولونياتي، مثلما لم يرقصها أحد منذ سنوات فرانشيسكو الرجل. وفي النهاية شكرني أصدقاء كثيرون لأنني لم أدفع، في الموعد المحدد، قيمة ذلك الإيصال الذي أدى إلى تلك الليلة التي لا تقدر بثمن.

كانت شعرة الدكتور بيبغاس المغرية تحتل المزيد، ولكن ليس في ميدان بيع الكتب، فمن غير الممكن، نسيان البراعة النبيلة التي كان يناور بها الدائنين، والسعادة التي كانوا يتفهمون بها مبرراته كيلا يدفعوا في الوقت المناسب، وقد كان أكثر موضوعاته إغراء آنذاك، مرتبطاً برواية "لقد أغلقوا الدروب"، للكاتبة الباراكسية أولغا سالتيدو دي ميدينا، التي أثارت ضجة اجتماعية أكثر منها أدبية، ولكن بسوابق محلية ضئيلة. وباستلهاهم نجاح المسلسل الإذاعي "الحق بالولادة" الذي تابعته باهتمام متزايد، طوال شهر بكامله، فكرت في أننا نشهد ظاهرة شعبية لا يمكن لنا، نحن الكتاب، أن نتجاهلها. وقد طرحت الأمر على بيبغاس، لدى عودتي إلى بايدينبار، دون أن أذكر الدين المتوجب عليّ. فاقترح عليّ كتابة الاقتباس بمر يكفي لاجتذاب ثلاثة أضعاف جمهور المستمعين الواسع الذي تابع دراما فيليكس ب. كايغيت الإذاعية.

قُمتُ باقتباس الرواية للإذاعة خلال أسبوعين من الاعتكاف. وقد بدوا لي أكثر كشفاً بكثير مما توقعت، لأنه كان عليّ تقدير الحوارات، وتدرجات التوتر، وتبديل مواقف وأزمنة متقلبة لا تشبه في شيء، كل ما كُتب من قبل، ولعدم خبرتي في شؤون الحوار - وهو ما زال نقطة

ضعفي -، كانت التجربة مفيدة ومحمودة في التعلم، أكثر مما هي في الكسب المادي. ومع ذلك، ما كان بإمكانني أن أشكر في هذا الشأن الأخير أيضاً، لأن بيبغاس دفع لي نقداً نصف الأجر مقدماً، ووعد بأن يحفني من الديون المترتبة عليّ، مع حصوله على أول دخل من الرواية الإذاعية.

جرى التسجيل في إذاعة أتلاتيكو، مع الفضل توزيع محلي ممكن للأدوار، وبإخراج دون خيرة ولا إلهام، قام به بيبغاس نفسه، ولأداء دور الراوي، تصحرو خيرمان بارغاس، كمذيع مختلف لتناقض بساطته واتزانه مع زعاق الإذاعة المحلية. وكانت المفاجأة الأولى في أن خيرمان وافق على العرض، أما المفاجأة الثانية فكانت في توصله هو نفسه، منذ التسعين الأول، إلى استنتاج أنه ليس الشخص المناسب، عتيدت تولى بيبغاس نفسه مسؤولية الراوي، بإيقاعه الرتيب وصغير صوته الأنديزي الذي فرض تلك المغامرة المتهورة.

بُثت الرواية الإذاعية كاملة، تكتنفها الأحزان أكثر من الأمجاد، وكانت درساً بليغاً لطموحاتي المتعطشة إلى أن أكون راوياً في أي جنس كتابي، حضرت عمليات التسجيل، وكانت تجري مباشرة على أسطوانة خام، وبإبرة محراث تخلف وراءها خيوطاً دقيقة سرداء ولا معة، يكاد لمسها يكون متعذراً، كما لو أنها شعر ملاك، وفي كل ليلة، كنت أحمل معي حفنة لا بأس بها من تلك الخيوط لأوزعها على أصدقائي، كغنيمة غير مألوفة، ووسط تخطيط وعشرات لا حصر لها، جرى بث الرواية الإذاعية، على الهواء، في موعدها المحدد، ورافقتها حفلة هائلة من تلك التي يتميز بها صاحب المشروع.

لم يستطع أحد أن يبتدع حجة مجاملة، يجعلني أصدق معها أن العمل قد أعجبه، ولكن المسلسل الإذاعي اجتذب جمهور مستمعين لا بأس به، وقدراً من الإعلانات كافيّاً لإنقاذ ماء الوجه. وقد منحني أنا، لحسن الحظ، همة جديدة لجسّ كتابي بدا لي أنه ينطلق إلى آفاق لا يمكن توقع أبعادها. وقد بلغ إعجابي بدون فيليكس ب. كايغيت وروايته الإذاعي، حد الإقدام على طلب مقابلة خاصة معه، بعد نحو عشرة أعوام من ذلك، حين كنت أقضي بضعة شهور في هافانا، كمحرر في وكالة الأنباء الكوبية "برتسا لاتينا". ولكن، على الرغم من كل المبررات والحجج، لم يظهر لي قط، ولم يبق لدي منه سوى درس بليغ قرأته في مقابلة معه: "الناس يرغبون درماً في اليكاه، والشئ الوحيد الذي أفعله أنا، هو أنني أولم لهم الذريعة". أما شعوريات بليغاس بالمقابل، فلم تقض إلى ما هو أبعد من ذلك، وقد تعقدت أموره أيضاً مع دار نشر غوثزالث بورتو - مثلما حدث له من قبل مع لوسادا - ولم تكن ثمة طريقة لتصفية حساباتنا الأخيرة، لأنه تخلّى عن أحلامه بالعظمة، لكي يعود إلى بلاده.

أخرجني ألفارو سيبيدا ساموديو من المطهر، بفكرته القديمة في تحويل الناسيونال إلى صحيفة حديثة كتلك التي تعلم صنعها في الولايات المتحدة. ولم تكن حتى ذلك الحين، باستثناء مساهماته القليلة في كرونিকা، وهي مساهمات أدبية على الدوام، قد أتحت له فرصة ممارسة العمل بشهادته التي حصل عليها من جامعة كولومبيا (في نيويورك)، إلا بتعليقات موجزة وغوذجية يرسلها إلى سيورتنغ نيوز في سانت لويز، بولاية ميسوري. وأخيراً، في عام ١٩٥٣، قام صديقنا

خوليان دافيس إتشانديا الذي كان أول رئيس لألفارو، باستدعائه لكي يتولى المسؤولية الكاملة عن جريدته المسائية الناسيونال. وكان ألفارو نفسه قد استحثه بالمشروع الفلكي الذي قدمه إليه لدى عودته من نيويورك. ولكن ما إن أمسك بالمستبدون^(١) حتى استدعاني لكي أساعده، دون ألقاب أو واجبات محددة، إنما بالراتب الأول المدفوع مقدماً، والذي كان يكفي لي لأن أعيش حتى دون أن أتقاضى كاملاً.

لقد كانت مغامرة قاتلة. كان ألفارو قد أعد الخطة كاملة، بالاستناد إلى نماذج من صحف الولايات المتحدة، ومثلما الرب في الأعلى، بقي دافيس إتشانديا، أحد رواد الأزمنة البطولية للصحافة المحلية الضخمة، وأقل الرجال الذين عرفتهم قابلية لحل لغزه: طبيب المولد وعاطفي أكثر مما هو رحيماً. أما بقية المحررين فكانوا من كبار الصحفيين الضدائين، من جماعة الحصاد الباسل، وجميعهم أصدقاء فيما بينهم، وزملاء عمل منذ سنوات طويلة. وكان لكل واحد منهم، نظرياً، مداره المحدد؛ غير أنه فيما وراء النظرية، لم يُعرف قط من الذي جعل المستبدون التقني عاجزاً عن أن يخطو خطوته الأولى. الأعداد القليلة التي صدرت كانت تناج عمل بطولي، إنما لم يُعرف قط من الذي كان ينجز ذلك العمل، ففي موعده إدخال صفائح الزنكوغراف إلى الطباعة، نجدها ملطخة بالشحم، أو تختفي المواد المستعجلة فجأة، وسيطر علينا، نحن الغيورين، جنون الغضب، لا أتذكر مرة واحدة خرجت فيها الجريدة في موعدها، ودون إشكالات تسببها العفاريث القابعة في المطبعة. لم يُعرف قط، ما الذي كان يحدث، وربما كان التفسير الذي شاع هو الأقل توقّعاً: لم يستطع

(١) المستبدون mastodonte حيوان مفرغ شبيه بالفيل.

بعض قديما . المحررين المتخشين السامع مع ذلك النظام التجديدي ،
فتأمروا مع توائم أرواحهم إلى أن تمكثوا من تخريب المؤسسة .

غادر القاروا الجريدة صافقاً الباب وراءه . أما أنا فمكثتُ مرتبطاً
باعتد عمل يمكن له ، في الظروف العادية ، أن يكون ضماناً لي . ولكنه
في تلك الظروف السيئة ، كان أشبه بغيره . وفي تلهفي لاستغلال الوقت
الضائع ، حاولت أن أولف ، بالسرعة التي تتيحها الآلة الكاتبة ، أي شيء
نافع من المواد غير المتصلة المشيئة لدي من محاولات سابقة . تنف من
"البيت" ، محاكيات سريعة لفوكر من نورو في آب ، ومن وإيل مطر
عصافير ناثانيل هوثورن الميتة ، ومن القصص البوليسية المكرورة التي
أضجرتني ، ومن بعض الكدمات المتبقية لي من الرحلة مع أمي إلى
أراكاتاكا . تركت كل ذلك يتدفق على هواء في مكتبي المقفر ، حيث لم
يبق سوى المنضدة المقشرة ، وآلة الكتابة التي على آخر نفس ، إلى أن
وصلت في نفس واحد إلى العنوان النهائي : "يوم بعد السبت" . وهي
قصة أخرى من قصصي القليلة التي رصيت عنها منذ نسختها الأولى .

حاضرتني في إنناسيرنال بائع ساعات معظم متجول . لم أكن قد
اقتنيت واحدة قط ، لأسباب واضحة في تلك السنوات . وكانت الساعة
التي عرضها عليّ فاخرة جداً وغالية الثمن . وقد اعترف لي بائع
الساعات نفسه آنذاك ، بأنه عضو في الحزب الشيوعي ، مكلف ببيع
ساعات قطع لاصطيد محولين للحزب . وقال لي :

- هذا يشبه شراء الثورة بالتقسيت .

فأجبت بطيب نية :

- الفرق الوحيد هو أنكم تعطونني الساعة فوراً ، أما الثورة فلا .

لم ينظر البائع برضى كبير إلى دعائمي السيئة ، وانتهى بي الأمر
إلى شراء ساعة أرخص ثمتاً ، لكي أرضيه فقط . ونظام أقساط يأتي هو
ليستقاضه كل شهر . كانت تلك هي أول ساعة أمتلكتها ، وكانت باللغة
الدقة والدعومة ، حتى إنني لا زلت أحتفظ بها كلقبية أثرية من تلك
الأزمنة .

في تلك الأيام ، عاد القارو موتيس حاملاً خبر تخصيص شركته
لميزانية كبيرة من أجل تنشيط الثقافة ، والظهور التوثيك لمجلة المصباح .
لسان حالها الأدبي . وعندما دعاني إلى المشاركة في المجلة ، اقترحت
عليه مشروعاً مستعجلاً : أسطورة "السيربي" . لقد فكرت في أنه إذا ما
كان علي أن أرويها في أحد الأيام ، فيجب ألا يكون ذلك عبر أي كتابة
خطابية ، وإنما باستخراج الأسطورة من المخيلة الجماعية ، مثلما هي عليه :
حقيقة جغرافية وتاريخية . هذا يعني أن تتحول - أخيراً - إلى ريبورتاج
صحفي عظيم .

فقال لي موتيس :

- افعل ما يخرج معك من أي مكان . ولكن انجزه ، فهذا هو الجو

والإيقاع اللذان تبحث عنهما للمجلة .

وعنده بتسلمه الموضوع بعد أسبوعين . وقبل أن يذهب إلى المطار ،
اتصل بمكتبه في برغوتا ، وأمر بأن تُدفع لي المكافأة مقدماً . الشيك
الذي وصلني بالبريد ، بعد أسبوع ، أفقدني أنفاسي . وأكثر من ذلك ،
عندما ذهبت لصرفه . فقد أقلق مظهري أمين الصندوق في المصرف .
فأدخلوني إلى مكتب أعلى مرتبة . حيث سألتني مدير بالغ اللطف ، أين
أعمل . أجبت بأنني أكتب في الهيرالدو ، وفقاً لعادتي في الرد ، وإن لم

يكن جوابي صحيحاً في ذلك الحين. لا شيء سوى ذلك. تفحص المدير الشيك على منطقتيه. أمعن النظر إليه بإحساس بعدم الثقة الشخصية، ثم أصدر حكمه أخيراً:

- إنها وثيقة صحيحة تماماً.

في مساء ذلك اليوم بالذات، وبينما كنت أبدأ في كتابة "الاسيبري"، أخبروني بأن هناك اتصالاً من المصرف، وتوصلت إلى التفكير في أن الشيك لم يكن سليماً لسبب من الأسباب الكثيرة المحتملة في كولومبيا. ولم أكن قد ابتلعت بعد، العقدة التي تشكلت في حلقي، عندما اعتذر لي موظف المصرف، بإيقاع الأتديزين الرتيب، بأنه لم يعرف في الوقت المناسب، أن المسئول الذي قبض قيمة الشيك هو كاتب "الزرافة" نفسه.

رجع موتيس مرة أخرى في نهاية تلك السنة. ولم يكد يتفوق الغداء، وهو يسعى لمساعدتي على التفكير في طريقة مستقرة ودائمة، لكي أكتب أكثر ودون تعب. والفكرة التي وجدتها أفضل من سواها، ونحن نتناول التحلية، هي إخبار آل كائو بأنني سأكون تحت تصرف الاسبيكتادور، وإن كنت ما أزال أشعر بالقشعريرة ل مجرد فكرة العودة إلى بوغوتا. ولكن ألفارو لم يكن يعرف الهدوء ولا الصراجع عندما يتعلق الأمر بمساعدة ضديق.

- فلتتفق علي أمر - قال لي -، سأرسل إليك تذكرة السفر لكي تذهب إلى بوغوتا، عندما تشاء وكيفما تشاء، لكي ترى ما الذي يمكن أن يخطر لنا.

كان العرض أكبر من أن أرفضه، ولكنني كنت واثقاً من أن آخر

طائرة في حياتي، هي تلك التي أخرجتني من بوغوتا، بعد التاسع من نيسان. أضف إلى ذلك أن المكافأة الضئيلة التي تلقيتها عن الرواية الإذاعية ونشر الفصل الأول من "الاسيبري" بصورة بارزة، في مجلة "المصباح" أتاحت لي توفير أجر بعض النصوص الإعلانية، مما مكنتني من إرسال زورق نجدة إلى الأسرة في كازتاخينا. ولهذا قاومت مرة أخرى، إغراء الانتقال إلى بوغوتا.

حدثني ألفارو سيبيدا، وخيرمان، وألفونسو، ومعظم رواد مقهي جامي وروما، بإطراء عن "الاسيبري" عندما نُشر الفصل الأول منها في المصباح. وكانوا متفقين على أن الصيغة المباشرة للريبورتاج، هي الأكثر ملاءمة للموضوع الذي كان على الحد الحرج لما يمكن تصديقه. وقد قال لي ألفونسو يومذاك، بأسلوبه بين الجد والهزل، شيئاً لم أنسه قط: "لأن المصادقية، يا معلمي العزيز، تعتمد إلى حد كبير، على الوجه الذي يسيده أحدها وهو يروي ما يرويه". كنت على وشك أن أكتشف لهم عن عرض العمل الذي قدمه لي ألفارو موتيس، ولكنني لم أجد على ذلك، وأنا أعرف اليوم أن السبب هو خوفاً من أن يؤيدوا ذلك. وقد عاد إلى الإلحاح عدة مرات، وحتى بعد أن حجز لي على الطائرة، وألقيت الحجز في اللحظة الأخيرة. أكد لي أنه لا يبدل، من وراء ظهري، أية مساعٍ لدى الاسبيكتادور، ولا لدى أي وسيلة مقرونة أو منطوقة أخرى. وأن هدفه الوحيد - وقد أصر على ذلك حتى النهاية - هو تبادل الحديث حول مجموعة من المساهمات الشابة للمجلة، ومراجعة بعض التفاصيل الفنية حول سلسلة "الاسيبري" الكاملة، والتي كان فصلها الثاني سيُشتر في العدد الذي يوشك على الصدور. وأعرب ألفارو موتيس عن يقينه من

أنه يمكن لهذا النوع من الريبورتاجات، أن يكون وخزة تنفيس لتيار أدب العادات والتقاليد المسطح في مبدائه بالذات. ومن بين كل الأسباب الأخرى التي طرحها علي، حتى ذلك الحين، كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أستغرق في التفكير.

في يوم ثلاثاء - ذي رذاذ مطر كثيب، أدركت أنه لا يمكنني الذهاب، حتى لو رغبت في ذلك، لأني لا أملك من الثياب أكثر من قمصاني المزركشة. لم أجد أحداً في الساعة السادسة، في مكتبة "مونود"، فبقيت أنتظر عند الباب، محتبياً كرة من الدموع على الفسق الحزين الذي بدأ بالثلاشي. وكانت هناك، على الرصيف المقابل، واجهة متجر ملابس رسمية لم أرها من قبل قط، بالرغم من أنها موجودة هناك منذ الأزل، ودون أن أفكر في ما أفعله، اجتزت شارع سان بلاس تحت رماد الرذاذ المطري. ودخلت بخطوات واثقة، إلى أعلى متجر في المدينة. اشتريت بدلة كهنوتية من جوخ أزرق قاتم، مناسبة تماماً لروح بوغوتا في تلك الأزمنة؛ وقمصين أبيضين ضلبي الياقة، وربطة عنق ذات خطوط مائلة وحذاء من تلك التي أشاع استخدامها الممثل خوسيه موخيكا، قبل أن يتحول قديساً. والوحيدون الذين أخبرتهم أنني ذاهب، هم خيرمان، وألفارو، وألفونسو، فأيدوا ذلك بقرار سديد يشترط علي ألا أرجع أبداً.

احتفلنا بذلك في الرجل الثالث مع الشلة كاملة، حتى الفجر، وكان احتفالاً مسبقاً بعيد ميلادي القريب، ذلك أن خيرمان يارغاس الذي كان حارس تقاويم المناسبات، أعلن أنني سأكمل في السادس من شهر آذار القادم، سبعاً وعشرين سنة من عمري. ووسط تهنئات أصدقائي الطيبة، أحسست أنني على استعداد لأن أكل، نيشة، الثلاث والستين سنة المتبقية لي، لكي أكمل المئة سنة الأولى من حياتي.

استدعائي مدير جريدة الاسبيكتادور، غييرمو كاثو، بالهاتف، عندها علم أنني في مكتب ألفارو موتيس، فوق أربعة طوابق من مكتبة، في مبنى دشنه حديثاً، على بعد خمس كوادرات من مقر الجريدة القديم. كنت قد وصلت في العشية، وكنت أستعد لتناول الغداء مع جماعة من الأصدقاء. ولكن غييرمو أصرّ علي أن أمر قبل ذلك لتحيته. وهذا ما حدث. بعد العناق الحار، على طريقة أهالي العاصمة، بالمعنى الطيب، وبعض التعليقات القصيرة حول خير اليوم، أمسكني من ذراعي واقتادني بعيداً عن زملائه في هيئة التحرير، وقال لي ببراعة لا تطاق: "اسمع يا غابرييل، لماذا لا تقدم لي معروفاً صغيراً بأن تكتب لي مقالة افتتاحية قصيرة أحتاج إليها لإغلاق عدد الجريدة؟"، وأشار بسياتته وإبهامه إلى حجم نصف كأس من الماء، وأضاف:

- بهذا الحجم.

فسأنته وأنا أكثر مرحاً منه، عن المكان الذي يمكنني أن أجلس فيه، فأشار إلى منضدة خاوية، عليها آلة كاتبة من أزمنة أخرى. جلست دون مزيد من الأسئلة، لأنكر في موضوع مناسب لهم. وبقيت جالساً هناك على الكرسي نفسه، وإلى المنضدة نفسها، والآلة الكاتبة نفسها، طوال الثمانية عشر شهراً التالية.

بعد دقائق من وصولي، خرج من المكتب المجاور إدواردو ثالاميا بوردا، نائب المدير، مستغرقاً في رزمة من الأوراق. وقد فزع لدى التعرف عليّ.

- يا رجل، دون غايو! - قال ذلك صارخاً تقريباً، وبالاسم الذي ابتدعه لي في يارانكيّا، مقتطعاً من لقب غاييتو، ولم يكن يستخدمه أحد سواه. ولكن اللقب تعسم في ذلك اليوم، في مكاتب التحرير، وواصلوا استخدامه حتى في حروف الطباعة: غايو.

لست أتذكر موضوع الزاوية التي كلفني غييرمو كاتو بكتابتها. ولكنني كنت أعرف على أحسن وجه، مذ كنت في الجامعة الوطنية، أسلوب جريدة الاسبينكتادور العريق. ولا سيما في زاوية "من يوم ليوم" في الصفحة الافتتاحية، وهو أسلوب يتمتع بشهرة يستحقها؛ وقد قررت محادثاته ببرود الأعصاب الذي كانت لويسا سانتياغا تواجه به شياطين الرزايا والملمات. أنهيت المقالة المطلوبة في نصف ساعة، ثم أضفت إليها بعض لمسات التصحيح بالقلم، وسلمتها إلى غييرمو كاتو الذي قرأها واقفاً، من فوق قوس نظارة قصر البصر التي يضعها. لم يبد أن تركيزه في القراءة خاص به وحسب، وإنما هو تركيز ملالة من الأسلاك ذوي الشعور البيضاء. بدأ من دون فيديل كاتو، مؤسس الجريدة في العام ١٨٨٧، واستمر به من بعده أخوه دون لويس، ورسخه ابنه دون غابرييل؛ ثم تلقاه ناضجاً ومندفق الحيرة، حفيده غييرمو الذي كان قد تسلم للتو، منصب المدير العام، وهو في الثالثة والعشرين من عمره. ومثلما كان أسلافه يفعلون، أجرى بعض المراجعات المختصرة لعدة شكوك صغرى، وانتهى إلى أول استخدام عملي وميسط لاسمي الجديد:

- جيد جداً يا غايو.

لقد انتهت، منذ ليلة عودتي، إلى أن بوغوتا لن تعود لتكون هي نفسها في نظري، طالما ظلت ذكرياتي حية. ومثلما هو شأن الكوارث الكبرى الكثيرة في البلاد، كان أثر التاسع من نيسان في النسيان، أكبر منه في التاريخ. كان الفندق الكبير قد هدم في حديقته القديمة التي تعود إلى مئات السنين، وبدأ ينتصب مكانه، بناء جديد لمصرف الجمهورية. ولم تكن شوارع سنواتنا هناك تشبه أهداً باستثناء حافلات الترام المضاعة. وكانت ناصية الجرفنة التاريخية قد فقدت عظمتها في الاتساعات الفسيحة التي قوضتها الحرائق. لقد صارت تبدو الآن، مدينة كبيرة بالفعل، قال ذلك أحد مرافقينا، ثم مرق قليلاً بجسلة طقوسية:

- لا بد من تقديم الشكر للتاسع من نيسان.

ولم أشعر قط، بالمقابل، بأنني لم أكن أحسن حالاً، في أي وقت على الإطلاق، مما كنت عليه في النزل الذي بلا اسم، حيث أنزلني ألفارو هورتيس. إنه منزل جميلته النكية، يقوم إلى أحد جوانب الحديقة الوطنية، حيث لم أستطع، في الليلة الأولى، تحمل إحساسي بالحسد تجاه جاري في الحجرة المجاورة، اللذين يمارسان الحب، كما لو أنهما يخوضان حرباً سعيدة. وفي اليوم التالي، عندما رأيتهما يخرجان لم أستطع أن أصدق أن يكونا هما نفسيهما: بنية ضامرة بفستان دار أيتام عمومية، وسيد متقدم في السن، بلاتيني البشرة، وبقامة طولها متران، يمكن له أن يكون جدها. ظننت أنني أخطأت الظن بهما، ولكنهما تكفلاً بتأكيد شكوكي، في الليالي التالية كلها، بموتهما في صراخ شيق حتى الفجر.

نشرت الإسيكتادور مقالتي في صفحة الافتتاحيات، وفي مكان بارز منها. وقد أمضيتُ فترة الصباح، في شراء ملابس كان موتيس يفرحها عليّ بالملكة الإنكليزية الصاخبة التي يشتدعها، لكي يسلي البائعين. تناولنا الغداء مع غونثالو مابارينو وكثاب شباب آخرين، جرت دعوتهم من أجل تقديمي إلى المجتمع. ولكنني لم أعد أعرف شيئاً عن غييرمو كانو إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام، عندما اتصل بي في مكتب موتيس. وقال لي بصرامة مبنية المحاكاة لصرامة رئيس تحرير:

- اسمع يا غابو، ما الذي جرى لك؟ يوم أمس تأخرنا في إغلاق تحرير الصحيفة، بانتظار مقالاتك.

نزلتُ إلى قاعة التحرير لأحدث إليه. ولا زلتُ إلى الآن، لا أعرف كيف واصلت كتابة مقالات يومية دون توقيع، طوال أكثر من أسبوع، دون أن يكلمني أحد عن أية وظيفة أو أي راتب. كان المحررون في مسامرات الاسراحة، يعاملونني كواحد منهم. وقد كنتُ كذلك بالفعل، ولكن دون أن أتخجل إلى أي حد.

صفحة "من يوم ليوم" التي لم تكن تحمل توقيع أحد قط، كان يتصدر عادة غييرمو كانو بزواية سياسية. وكان يعلوها، وفق ترتيب مقرر من رئاسة التحرير، زاوية ذات موضوع حر، يكتبها غونثالو غونثاليت، فضلاً عن أنه كان يتولى، كذلك، أذكى صفحات الجريدة وأكثرها شعبية - "أسئلة وأجوبة" - حيث يحل أية شكوك تراود القراء، مستخدماً الاسم المستعار "غوغ"، ليس تيمناً بجيوفاني بامبيني، وإنما اختصاراً لاسمه هو نفسه. ثم ينشرون بعد ذلك، مقالتي. وفي بعض المناسبات القليلة، ينشرون زاوية خاصة يكتبها إدواردو ثالاميا الذي

كان يحتل، يومياً، أفضل مساحة في صفحة الافتتاحيات بعنوان - "المدينة والعالم" - ويوقعها باسم أوليسيس، ليس تيمناً بهوميروس - مثلما اعتاد أن يقول -، وإنما تيمناً بجيمس جويس.

كان على ألفارو موتيس أن يقوم برحلة عمل إلى بورت دا برانس، في الأيام الأولى من السنة الجديدة، فلدعائي لرافقتي. كانت هابتي في ذلك الحين، هي بلاد أحلامي، بعد أن قرأت رواية أليخو كارينتيير "ملكة هذا العالم". ولم أكن قد أجبته في الثامن عشر من شباط، عندما كتبتُ زاوية حول الملكة الأم في إنكلترا، الضائعة في عزلة قصر بيكينغهام المترامية الأطراف. ولفت انتباهي أنها نُشرت في الموقع الأول من صفحة "من يوم ليوم"، وجرى التعليق عليها بصورة جيدة في مكاتينا. في تلك الليلة، في حفلة ضمت جماعة قليلة العدد، في منزل رئيس التحرير خوسيه سالغار، قدم إدواردو ثالاميا تعليقاً أكثر حماسة مما سبق. وقد أخبرني واش أريحي فيما بعد، بأن ذلك الرأي هو الذي أزال آخر الترددات لدى الإدارة، لتعرض عليّ رسمياً، وظيفة ثابتة في الجريدة.

في اليوم التالي، استدعاني ألفارو موتيس في وقت مبكر إلى مكتبه، لينقل إليّ الخبر المحزن بالغاء الرحلة إلى هابتي. ولكن ما لم يقله لي هو أنه توصل إلى هذا القرار، على أثر حديث عارض مع غييرمو كانو، طالبه فيه هذا الأخير، من كل قلبه، ألا يأخذني إلى بورت دا برانس. فأراد ألفارو الذي لم يكن قد زار هابتي كذلك، أن يعرف السبب. فقال له غييرمو: "عندما تتعرف عليه، ستفهم أن هذه الرحلة هي أكثر ما يمكن أن يروق غابو في العالم". وأنهى ذلك المساء بإيماءة بارعة.

- إذا ما ذهب غايو إلى هايتي، قلن يعود منها أبداً.
فهم ألفارو المطلوب، وألغى الرحلة. وقال لي إنه قرار اتخذته
شركته التي يعمل فيها. وهكذا، لم أعرف قط، على بويرت دا برانس،
ولكنني لم أعرف السبب الحقيقي إلا قبل سنوات قليلة، عندما أخبرني
ألفارو ذلك، في واحدة من جلسات تذكرونا الطويلة كجدين. أما غييرمو
من جانبه، وبعد أن قيدني بعقد عمل في الجزيرة، ردد على مسامعي،
طوال سنوات، بأن أفكر في ريبورتاج عظيم عن هايتي. ولكنني لم
أستطع الذهاب قط، ولم أخبره بالسبب.

ما كان ليخطر ببالي أبداً، حلم العمل محرراً ثابتاً في
الإسبنيكتادور؛ فقد كنت أدرك أنهم ينشرون قصصني القصيرة، بسبب
ندرة هذا الجنس الأدبي وقرره في كولومبيا. ولكن الكناية اليومية في
جريدة مسائية، كان محدياً مختلفاً تماماً بالنسبة لشخص طويل الخبرة في
الصحافة الصدامية. فجريدة الإسبنيكتادور التي كان عمرها نصف قرن،
ونشأت في بيت مستأجر، وبفائض آلات التيمبو - الصحيفة الغنية
والقوية والتنفذة -، كانت جريدة مسائية متواضعة، في ست عشرة
صفحة مزدحمة. غير أن نسخها الخمسة آلاف، غير المعدودة جيداً،
يجري تلقفها من المتادين عند أبواب مطبعتها تقريباً، وتقرأ خلال نصف
ساعة، في المقاهي الهادئة في المدينة القديمة. كان إدواردو ثالاميا يوردا
شخصياً، قد صرّح غير الـ BBC اللندنية، بأن الإسبنيكتادور أفضل
جريدة في العالم. لكن المرح الكبير لم يكن في التصريح بحد ذاته،
ولما في أن جميع من يهاجرون في صنع الجريدة تقريباً، ومعظم من
يقرؤنها، كانوا مقتنعين بأن ذلك صحيح.

لا بد لي من الاعتراف بأن قلبي ظفر من مكانه في اليوم التالي
لإلغاء الرحلة إلى هايتي. عندما حدد لي المدير العام، لويس غابرييل
كانو، موعداً في مكتبه، لم تستمر المقاتلة، مع كل شكلياتها، أكثر من
خمس دقائق. كان لويس غابرييل مشهوراً بأنه رجل متجهم، كريم
كصديق وبخيل كمدير جيد، ولكنه بدا لي، وظل يبدو لي على الدوام،
بالغ الدقة والحساسية. وكان اقتراحه، في خطوطه العامة، هو أن أبقى
في الجريدة، كمحرر ثابت، لأكتب أخباراً عامة، ومقالات رأي. وكل ما
ينطلبه الأمر في طوارئ اللحظة الأخيرة، براتب شهري قدره تسعمئة
بيزو. فقدت القدرة على التنفس. وعندما استعدتها، سألته: كم؟ فأعاد
عليّ حرفاً حرفاً: تسعمئة. كان تأثيري شديداً إلى حد أن عزيزي لويس
غابرييل، وبينما كنت أتكلم في هذا الأمر في حفلة، بعد بضعة شهور،
كشف لي أنه فسّر ذهولي على أنه رفض للعرض. وقد أصرب دون
غابرييل عن ارتياحه الأخير، يخوف له ما يبرره: إنك نحيل وشاحب إلى
حد يمكن لك معد أن تموت في المكتب. وهكذا انضمت كمحرر، إلى
طاقم الإسبنيكتادور، حيث استهلكت أكبر كمية من الورق في حياتي،
خلال أقل من سنتين.

لقد كانت مصادفة حسنة الطالع. المؤسسة الموهوبة أكثر من سواها
في الجريدة، هي دون غابرييل كانو، البطيريك، الذي حول نفسه بتصميم
خاص، إلى حاكم تفتيش لا يرحم في هيئة التحرير. كان يقرأ بعديته
المكبرة الميليمترية، كل شيء، حتى الفاصلة التي لا تخطر ببال في
الطبعة اليومية. ويشير بالخبر الأحمر إلى العشرات في كل مقالة،
وبعرض في لوحة إعلان، المقاطع المعاقبة مع تعليقات قاسية ساحقة منه.

وقد فرضت لوحة الإعلان تلك نفسها، منذ اليوم الأول، على أنها "جدار العار". ولا أظن أن هناك محرراً واحداً أقلت من ريشته الدعوية القاسية، ثرقية غير مرموقة كانوا الاستعراضية إلى منصب مدير الأسبكتادور، وهو في الثالثة والعشرين، لم تكن تبدو لمرءة مبكرة لمزاياه الشخصية، وإنما تنفيذ قدر مكتوب منذ ما قبل مولده، ولهذا كانت مفاجأتي الأولى هي التأكد من أنه كان المدير بكل معنى الكلمة، في الوقت الذي كان الكثيرون يفكرون، من الخارج، في أنه ليس أكثر من ابن مطيع، وكان أكثر ما شد انتباهي هو السرعة التي يتعرف بها على الخبر.

كان يضطر أحياناً إلى مواجهة الجميع، حتى عندما لا يكون لديه الكثير من الحجج، إلى أن يتمكن من إقناعهم بحقيقته. لقد كان زمن لا يجري فيه تعليم المهنة في الجامعات، وإنما يتم تعلمها عند قائمة البقرة، وبانتشاق حيز المطبعة، وكان في الأسبكتادور أفضل الأساتذة وأطيبهم قلباً، إنما أشدهم صرامة في الوقت نفسه. وقد بدأ غييرمو التعلم هناك منذ حروفه الأولى، بمقالات عن مصارعة الثيران، باللغة الصرامة واسعة الاطلاع، بدأ معها أن ميله الغالب ليس التحول إلى صحفي وإنما إلى مربى عجول مصارعة. وهكذا، فإن أقصى تجربة في حياته، دون شك، هي صعوده، بين ليلة وضحاها، دون تدرجات وسيطة، من تلميذ ابتدائي إلى معلم كبير، وما كان بإمكان أحد لم يعرفه عن قرب، أن يلمح وراء أساليبه الرقيقة، وحتى المتهرية بعض الشيء، التصميم الرهيب في طبيعته، وقد خاض بالشغف نفسه، معارك واسعة وخطرة، دون أن يتوقف أبداً أمام اليقين بأنه يمكن للمصير أن يكون متأهياً بالمحصاة، وراء أشد القضايا نبلاً.

لم أتعرف في ما بعد، على شخص أشد منه رفضاً للتصهار في الحياة العامة، وأكثر من رافض للتشريفات الشخصية، وأكثر تهرباً من إغرامات السلطة، كان رجلاً قليل الأصدقاء، ولكن أولئك القلة كانوا طبيين جداً. وقد شعرت بأنني واحد منهم منذ اليوم الأول، وربما أسهم في ذلك كوني أحد الصغار سنأ، في قاعة تحرير تضم مجريين محترفين، وهو ما ولّد بيننا نحن الاثنين، شعوراً بالتواضع لم يضعف أبداً، وما كان مثالياً في هذه الصداقة، هو قدرتها على تجاوز كل تناقضاتنا، فالاختلافات السياسية كانت عميقة جداً، وراح عمقها يزداد أكثر فأكثر، مع تنفخ العالم، ولكننا كنا نعيد على الدوام، أرضية مشتركة، يمكننا منها مواصلة النضال في سبيل القضايا التي نراها عادلة.

كانت قاعة التحرير فسيحة جداً، تضم مناظرة على الجانبين، ويسودها جو من المزاج الطيب والدعابة القاسية. هناك كان داريو باوتيسستا، وهو نوع نادر من نقيض وزير المالية، يعكف منذ أول صباح للديكة، على بحث المارة في صباح أعلى الموظفين مرتبة، بتكهنات سحرية عن مستقبل مشؤوم، تكون صائبة في أغلب الأحيان، وكان هناك المحرر القانوني فيليبي غونزالث توليدو، كاتب التحقيقات بالولادة، وقد سبق في أحيان كثيرة التحريات الرسمية، في فن إحباط ضرر أو كشف النقاب عن جريمة، أما غييرمو لاناو الذي كان يغطي عدة وزارات، فقد حافظ على سر يقانه طفلاً حتى آخر طراوة عمود شيخوخته، وكان روكيليو إتشيبيريا، وهو شاعر من الكيار، مسؤولاً عن الطبعة الصباحية، فلم تكن نراء أبداً على ضوء النهار. أما ابن عمي غونزالو

غونثالث، بساقه الملفوفة بالجبس، بسبب مناراة كرة قدم خبيثة، فكان عليه أن يدرس، لكي يرد على أسئلة حول أي شيء، وانتهى به الأمر إلى التحول إلى اختصاصي في كل شيء، وعلى الرغم من أنه كان لاعب كرة قدم من الطراز الأول، في الجامعة، فقد كان يؤمن إيماناً غير محدود، بالدراسة النظرية، لأي شيء، أكثر من إيمانه بالتجربة العملية. وقد قدم لنا الدليل الباهر على صحة رأيه في بطولة البولو للصحفيين، عندما عكف على دراسة قواعد اللعبة من مرجع مطبوع، بدل أن يمارسها مثلنا في الملاعب حتى الفجر، وأحرز بطولة تلك السنة.

يمثل هذه القائمة، كانت قاعة التحرير استراحة تسليية أبدية، خاضعة على الدوام لشعار داريو باوتيسنا، أو فيليب غونثالث توليدو: "من يشهر يخزق نفسه". جميعنا كنا نعرف الموضوعات التي يكتبها الآخرون، ويساعد بعضها بعضاً إلى حيث يُطلب منا، أو إلى حيث تكون المساعدة ممكنة. وقد كانت المشاركة متبادلة إلى حد يمكن القول معه، إن العمل كان يجري بصوت عالٍ، ولكن عندما تشتد وطأة العمل، لا يعود يُسمع أي نفس، ومن المنظمة الوحيدة المستعرضة في أقصى القاعة، كان خوسيه سالغار يُصدر الأوامر. وقد اعتاد أن يتجول بين المحررين، ليُعلم ويستعلم عن كل شيء، بينما هو يظنّ روجه بعلاج يهلواني.

أظن أن اليوم الذي اقتادني فيه غييرمو كانو من منظمة إلى أخرى، على امتداد القاعة، ليُقدمني إلى المجتمع، كان اختباراً بالار تحجلي الذي لا سبيل إلى تجاوزه. فقدت القدرة على الكلام وخارت ركبتي، عندما جأ داريو باوتيسنا، دون أن ينظر إلى أحد، بصوته الراعد:

- لقد جاء العيقر!

فلم يخطر لي سوى الدوران في نصف الثفافة مسرحية، ماداً ذراعي نحو الجميع. وثقت لهم أقل من خرج من روحي، ظرافة:

- في خدمتكم جميعاً.

وما زلت حتى الآن، أعاني من صدمة السخريّة العامة. ولكنني أشعر كذلك، بالراحة للمعانقات والعبارات الطيبة التي قالها كل واحد منهم، وهو يرحب بي. منذ تلك اللحظة، صرت واحداً من جماعة النصور المشفقة تلك، بصداقة وروح فريق لم تخمد قط. فكل معلومة أحتاج إليها لمفاتي، مهما صغر شأنها، كنت أطلبها من المحرر المعني، ولم تكن تتأخر قط عن مواعدها.

درسي الكبير الأول في كتابة الريبورتاجات، تلقيته من غييرمو كانو، وعاشت قاعة التحرير بكامل أفرادها في مساء يوم، هطل فيه على بوغوتا وابل من المطر، أبقاها في حالة فيضان كوني طوال ثلاث ساعات دون توقف. سيل الماء الجارف في جادة خيمنت دي كيساندا، جرف كل ما وجده في طريقه على السطوح، وخلف في الشوارع آثار كارثة. ظلت السيارات مختلفة الأنواع، ووسائل النقل العام، مشلولة في الأماكن التي فاجأتها فيها حالة الطوارئ. والتجأ آلاف المارة متدافعين ومتعثرين، إلى العمارات الفارقة حتى لم يبق فيها متسع للمزيد. محررو الصحيفة الذين فاجأتهم الكارثة في لحظة إغلاق تحرير الجريدة، راكوا يشأمون المشهد الكئيب من النوافذ، دون أن يدروا ما الذي يمكنهم عمله، مثل أطفال معاقين يضعون أيديهم في جيوبهم. وفجأة، بدا كما لو أن غييرمو كانو قد استيقظ من حلم بلا قاع، والتفت نحو المحررين المشلولين وصرخ:

- هذا الوابل من الأمطار خيراً

كان أمراً لم يُصدّر، وجرى تنفيذه في الحال. وكضنا، نحن المحررين، إلى مواقعنا القتالية لكي نحصل، عبر الهاتف، على المعلومات المستعجلة التي يطلبها منا خوسيه سالغار، لنكتب معاً، وبالشجيرة، ريبورتاجاً صحفياً عن عاصفة القرن المطرية. سيارات الإسعاف ودوريات الشرطة اللاملكية التي استدعيت من أجل الحالات المستعجلة، شكّت حركتها بسبب السيارات العالقة في منتصف الشوارع. وكانت مجاري الصرف المنزلي مسدودة بالمياه. ولم تكف كل أطقم الإطفاء لدرء الخطر الطارئ. وتوجب إخلاء أحياء بكاملها، بالقوة، بسبب تصدع سدّ مديني مجاور. وفي أحياء أخرى، تفجرت المجاري. وكانت الأرصفة مشغولة بمسنين مشلولين وأطفال مختفين. ووسط تلك الفوضى، نظم خمسة من مالكي الزورق ذات المحرك، تستخدم عادة للصيد في عطلة نهاية الأسبوع، سباقاً في جادة كاراكاس، أكثر شوارع المدينة اختناقاً. راح خوسيه سالغار يوزع هذه المعطيات المتجمعة للتو، على المحررين الذين انهمكوا في إعدادها وصياغتها للطبعة الخاصة التي جرى ارتجالها في سياق العمل. وعكف المصورون المبللون، على الرغم من معاطفهم المطرية، على معالجة الصور على الساخن. وقبل الساعة الخامسة بقليل، كتب غيرمو كاتو ملخصاً بارعاً عن أشد العواصف المطرية التي تذكرها المدينة، دراماتيكية. وعندما توقف المطر أخيراً، كانت طيبة الاسيكتادور المرحلة قد ضارت قيد التداول، كما في كل يوم، مع تأخير يكاد لا يزيد على ساعة واحدة.

علاقتي الأولية مع خوسيه سالغار، كانت الأضعف، ولكنها الخلاقة

أكثر من أي علاقة أخرى. وأظن أنه كانت لديه مشكلة مناقضة لشككتي؛ فهو يحاول على الدوام، دفع كتاب التحقيقات في القسم، إلى إطلاق أعظم صوت صدري، بينما كنتُ أتلهف إلى أن يضعني على المرجة الصحيحة. ولكن التزاماتي الأخرى مع الجريدة، كانت تقيدني، ولم يبق لي متسع من الوقت سوى في أيام الأجازة. أظن أن سالغار قد وضع عينه عليّ، لأنّ كتاب تحقيقات، بينما وضع آخرون عيونهم عليّ، لأشخاص في الكتلة السينمائية، والتعليقات الافتتاحية، والشؤون الثقافية، لأنني عرفت دوماً كقصاص. ولكني كنت أحلم، منذ خطواتي الأولى في الساحل، أن أصبح كاتب تحقيقات، وكنت أعرف أن سالغار هو أفضل معلم، ولكنه كان يغلق الأبواب في وجهي، ربما على أمل دفعي إلى تحطيمها، والدخول عنوة. كنا نعمل على أحسن وجه، بمودة وديناميكية. وكلما قدمت إليه مادة صحفية، مكتوبة بالاتفاق مع غيرمو كاتو أو حتى مع إدواردو ثالاميا، يوافق عليها دون تأخير، ولكنه لم يكن يتسامح مع الإخلال بالطقوس. كان يقوم بحركة انتزاع سداة قارورة بالقوة، ويقول لي بجذ أكبر مما يعتقد هو نفسه:

- إلّا عنق هذه البجعة.

ولكنه لم يكن مع ذلك، عدوانياً قط. بل على العكس تماماً؛ كان رجلاً ودوداً، تصطب في نار متأججة، ارتقى سلم الخدمة الجيدة. ابتداءً من تقديم القهوة في المطبعة، وهو في الرابعة عشرة من عمره، حتى التحول إلى رئيس تحرير يتمتع بأوسع سلطة مهنية في البلاد. أعتقد أنه لم يكن قادراً على أن يغفر لي إسرائي في البهلوانيات الغنائية، في بلاد تفتقر إلى الكثير من كتاب التحقيقات الصدامية. أما أنا بالمقابل،

فكنت أفكر في أنه ليس هناك جنس صحفي أفضل من التحقيقات، للتعبير عن الحياة اليومية. ومع ذلك، فإنني أعرف اليوم أن العناد الذي كنا نحاول به كلاً ما عمل ذلك هو أفضل حافظ توفر لي من أجل تحقيق حلمي بأن أصبح كاتب ريبورتاجات صحفية.

اعترضت الفرصة لطريقي، في الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة، من صباح التاسع من حزيران ١٩٥٤، بينما أنا راجع من زيارة صديق في سجن بوغوتا النموذجي. كانت هناك قنات من الجيش، مسلحة كما لو أنها في حالة حرب، تعترض حشداً طلابياً في الشارع السابع، على بعد كوادرتين من الناصية التي جرى فيها قتل ست سنوات، اغتيال خورخي إيسير غابثان. لقد كانت مظاهرة احتجاج على مقتل طالب، في اليوم السابق، على يد جنود من الفرقة الكولومبية التي دُريت من أجل الحرب في كوريا. وأول صدام في الشوارع يخوضه المدنيون ضد حكومة القوات المسلحة. لم تكن تُسمع، من المكان الذي أنا فيه، سوى صرخات الجذال بين الطلاب الذين يحاولون مواصلة مسيرتهم حتى القصر الرئاسي، والعسكريين الذين يمنعونهم. ولم تتمكن، وسط الحشود، من فهم ما يقولونه صارخين، ولكن التوتّر كان ملموساً في الجو. ولجأة، ودون سابق إنذار، سُمعت رشقة رصاص من بندقية رشاشة، ثم تلتها رشقتان أخريان. سقط عدد من الطلاب وبعض العابرين، قتلى على الفور. والأحياء الذين حاولوا حمل المرحى إلى المستشفى، جرى إبعادهم بأعقاب البنادق. أخذت القوات العسكرية المنطلقة، وأغلقت الشوارع، وأحسست في صدمة خاطفة، استمرت بضع ثوان. بأنني أعيش ثانية، كل هول التاسع من نيسان، في الساعة نفسها والمكان نفسه.

صعدتُ راكضاً، الكوادر الثلاث، في الطريق الصاعد باتجاه مبنى الاسبيكتادور، ووجدت المحررين في معنعة التأهب لمعركة. رويت بشقة، ما تمكنت من رؤيته في موقع المجزرة. ولكن أقل المحررين اطلاعاً على ما جرى، بدأ، بسرعة خاطفة، في إعداد التقرير الأول عن هوية الطلاب التسعة القتلى، وعن حالة المرحى في المستشفيات. كنت موقناً من أنهم سيظلمون من رواية الواقعة، لأنني الوحيد الذي شهدتها. لكن غييرمو كانتو وخوسيه سالغار كانا قد اتفقا على وجوب أن يكون التقرير جماعياً يضع فيه كل واحد ما لديه، ويتولى المحرر المسؤول، فيليبي غونثالث توليدو. بعد ذلك، صياغة الوحدة النهائية للموضوع. وقد قال لي فيليبي القلق، لما لمسه من خيبة أمني:

- اطمئن، فالناس يعرفون أننا جميعاً نعمل هنا في كل الموضوعات، وإن كانت لا تحمل توقيعاً.

وقد واثاني أوليسيس، من جانبه، بفكرة أنه يمكن للتعليق الافتتاحي الذي يتوجب على كتابته، أن يكون الأكثر أهمية، لأنه يتناول مشكلة خطيرة تتعلق بالأمن العام. وقد كان محقاً، ولكنه كان تعليقاً شديد الحساسية ويالغ التوريط لسياسة الجريدة، فكتب بعدة أيدي من أعلى المستويات. أظن أنه كان درساً عادلاً للجميع، ولكنه بدا لي قاسياً جداً. كانت تلك هي نهاية شهر العسل، بين القوات المسلحة والصحافة الليبرالية، الذي بدأ قبل ثمانية شهور من ذلك، عندما تسلم السلطة الجنرال روخاس بينيا، وأتاح للبلاد إطلاق زفرة راحة بعد حمام دم الحكومتين المحافظتين المتتاليتين، واستمر حتى ذلك اليوم. وقد كان ذلك اليوم بالنسبة لي أيضاً اختباراً بالنار لأحلامي، ككاتب لتحقيقات عادي.

بعد وقت قصير من ذلك، نُشرت صورة جثة طفل بلا أهل لم يتمكنوا من التعرف عليه في مشرحة الطب الشرعي. وقد بدت لي مشابهة لصورة طفل آخر ضائع، نُشرت قبل أيام. عرضت الصورتين على مسؤول الصفحة القضائية. فيلبي غونثالث توليدو، فاتصل بأُم الطفل الأول الضائع الذي لم يكن قد عُثر عليه بعد، وكانت تلك الواقعة درساً تعلمته إلى الأبد. فقد انتظرتنا أُم الطفل، أنا وفيلبي، في فناء المشرحة. وبدت لي شديدة الفقر والضالة إلى حد بذلت معه جهداً فائقاً من أعماق قلبي، كيلا تكون الجثة لطفلها. وفي القبر الجليدي الطويل تحت إضاءة قوية، كانت هناك حوالي عشرين طاولة مصفوفة، عليها جثث كأنها أكوام حجارة، تحت ملامح متسخة. لحقتا، نحن الثلاثة، بالحارس المتجهم حتى المنضدة قبل الأخيرة، في أقصى القاعة، كان يبرز من تحت طرف الملاءة نعلاً خدأ. كتيب، حدثنا كعبيه مستهلكتان جداً من كثرة الاستعمال، تعرفت المرأة عليهما، فشحب لونها، ولكنها قامكت بأخر نفس لديها إلى أن نزع الحارس الملاءة بحركة مصارع ثيران. كان الجسد ذو التسع سنوات، بعينه المفتوحتين والذاهلتين، مرتدياً الملابس الممزقة نفسها التي وجد بها ميتاً قبل عدة أيام، في ساقية إلى جانب الطريق، أطلقت الأم ولولة، وانهارت على الأرض، وهي تطلق العويل والصراخ. ساعدها فيلبي على الوقوف، وهذأها بعبارات مواساة هامة، بينما كنتُ أتأمل عما إذا كان ذلك كله خليق بأن يكون العمل الذي أحلم به، وقد أكد لي إدواردو ثالاميا أن لا؛ إذ كان هو نفسه يفكر أيضاً، في أن التقارير الصحفية عن الجرائم والحوادث، المتجذرة جداً لدى القراء، هي اختصاص صعب يتطلب طبيعة خاصة، وقلباً قاسياً مجرباً. فلم أقرب ذلك العمل بعدها قط.

واقع آخر مختلف تماماً اضطرني إلى أن أصير ناقداً سينمائياً، لم يكن قد خطر لي من قبل، أنني قد أفعل ذلك. ولكنني في مسرح أولمبيا الذي كان يملكه دون أنطونيو داكوتسي في أراكاتاكوا، وبعد ذلك في مدرسة ألفارو سيبيدا الجواله، أملت بالعناصر الأساسية لكتابة ملاحظات توجيهية سينمائية، برؤية أكثر فائدة من الشائعة آنذاك، في كولومبيا. كان إرنستو فولكينغ، وهو كاتب وناقد أدبي ألماني كبير، استقر في كولومبيا منذ الحرب العالمية الثانية، يث من الإذاعة الوطنية تعليقاً حول العروض الاقتصادية للأفلام، غير أن ما يشه كان مقتصرأ على جمهور متخصص من المستمعين. وكان هناك معلقون آخرون جيدون، ولكنهم عارضون، حول المكتبي الكتلاتي لويس فينش، المستقر في بوغوتا، منذ الحرب الأهلية الإسبانية. وكان هو نفسه من أسس أول ناد سينمائي، بالتواطؤ مع الرسام إنريكي غراو والناقد هيرناندو سالسيدو، وبمساع من الصحفية غلوريا فالينشيا دي كاستانيو كاستييو التي حصلت على بطاقة العضوية رقم واحد. كان هناك في البلاد، جمهور واسع لأفلام الحركة ومآسي الدموع. أما السينما النوعية، فكانت تقتصر على المثقفين الهواة، وكان أصحاب دور العرض يجازفون أقل فأقل، في عرض أفلام لا تستمر سوى ثلاثة أيام في اللائحة. فكان انتشار جمهور جديد من هذا الحشد الغفير الذي بلا وجه، يتطلب تربية شاقة، إلا أنها ممكنة، من أجل تشجيع الزبائن على ارتياد أفلام نوعية، ومساعدة أصحاب دور العرض الراغبين في ذلك، ولكنهم لا يستطيعون تمويله. كانت العقبة الكبرى في أن أصحاب دور العرض يُيقنون التهديد بالغاء إعلانات السينما، مسلطاً على الصحافة - وهي إعلانات تمثل

دخلاً كبيراً للمصحف -، كعقوبة على النقد المضاد. وكانت الاسيكتادور هي أول صحيفة حملت المجازفة، وكلفتني بمهمة التعليق على عروض الأسبوع الأولى، كرسالة أولية بسيطة موجهة إلى هواة السينما، أكثر منها موعظة استعراضية. وكان الاحتياط الذي اتخذ باتفاق مشترك، هو عدم استخدام بطاقة دخولي المجانية، كدليل على دخولي لمشاهدة العروض ببطاقة مشتراة من شباك التذاكر.

طمأنت المقالات الأولى أصحاب دور العرض، لأنها تناولت أفلاماً من السينما الفرنسية الجديدة. وكان منها بوتشيني Puccini، وهو استذكار مطول لحياة ذلك الموسيقي العظيم، وفيلم قسم مذهية، وهو قصة بارعة عن المغنية غريس مور، وفيلم حفلة إنريكيستا، كوميديا سلمية لجين دلاوي. وكان أصحاب دور العرض الذين تلتقي بهم لدى الخروج من الصالة، يعربون لنا عن رضاهم عن مقالاتنا النقدية. أما ألفارو سيبيدا بالمقابل، فقد أيقظني في السادسة صباحاً، بمكالمة من بارانكيئا، عندما علم بأمر جراتي. وصرخ بي على الهاتف، وهو يكاد يهت من الضحك:

- يا للجنة! كيف تفكر في نقد الأفلام، دون إذن مني، بالرغم من جلافتك في ما يتعلق بالسينما!

لقد تحول، بالطبع، إلى مساعدتي الثابت، على الرغم من أنه لم يوافق، قط، على فكرة أن الأمر ليس تشكيل مدرسة نقدية، وإنما توجيه جمهور مبتدئ. ولا تكوين أكاديمي. ولم يكن شهر العسل مع أصحاب دور العرض كذلك حلواً كذلك، مثلما ظنت في البدء. فعندما واجهنا السينما التجارية الخالصة والمجردة، شكنا حتى أكثرهم تفهماً، من قسوة

تعليقاتنا. وقد امتلك إدواردو ثالاميا وغيبيرمو كائو ما يكفي من المهارة لإلهائهم عبر الهاتف، حتى أواخر شهر نيسان، عندما اتهمنا أحدهم، بخيلاً زعيم، في رسالة مفتوحة، بأننا نفزع الجمهور لإحقاق الضرر بمصالحهم. بدا لي أن عقدة المشكلة هي في أن كاتب الرسالة لا يعرف معنى كلمة "يُفزع" (amendrentur)، غير أنني أحسست بأنني على حافة الهزيمة، لأني لم أكن أظن، في ظل الأزمة المتعاطمة التي كانت تعيشها الصحافة، أن دون غابريل كائو سيتخلى عن الإعلانات السينمائية، في سهيل المتعة الجمالية المحض، وفي يوم تلقى تلك الرسالة، دعا أبناء وأوليسيس إلى اجتماع مستعجل، فاعتبرت أن موت زاوشي السينمائية ودفتها صار أمراً واقعاً. ومع ذلك، ولدى مروره قبالة منصتي، بعد انتهاء الاجتماع، قال لي دون غابريل دون أن يحدد الموضوع، وبدهاء عجوز:

- اطمن يا سبي.

وفي اليوم التالي، ظهر في زاوية "من يوم ليوم" الرد على المنتج. وقد كتبه غيبيرمو كائو بأسلوب أكاديمي متعمد. ونهايته تلخص كل شيء: "لا يوجد إفزع للجمهور، ولا أي ضرر بمصالح أحد، في نشر الصحافة لنقد سينمائي جدي ومسؤول، يتشابه قليلاً مع ما هو عليه في بلدان أخرى، ويكسر النماذج القديمة والمؤدية في كيل المديح المفرط لما هو جيد، وبالقدر نفسه لما هو سيئ". لم تكن تلك هي الرسالة الأخيرة التي تلقيناها، ولا ودنا هو الرد الأخير. كان العاملون في دور السينما يستقبلوننا بمطالب قاسية، وكنا نطلق مناقضة من قراء غافلين. ولكن كل ذلك كان بلا طائل: فقد عاش عمودي السينمائي إلى الوقت الذي لم

يعد فيه النقد السينمائي أمراً عارضاً في البلاد، وتحول إلى تقليد في الصحافة والإذاعة.

منذ ذلك الحين، وخلال أقل من سنتين، نشرتُ خمساً ومبشرين ملاحظة نقدية، لا بد أن يضاف إليها الساعات الموظفة في مشاهدة الأعلام. فضلاً عن حوالي ستمئة تعليق افتتاحي، وخبر مرقع أو مغفل من التوقيع، وقد نشرت المساهمات الأدبية، منذ ذلك الحين، في ملحق "مغازين الأحد"، التابع للجريدة نفسها. وكان بينها عدة قصص قصيرة وسلسلة ريبورتاجات "لاسييري" الكاملة، التي توقف نشرها في مجلة الصباح بسبب خلافات داخلية.

كانت تلك هي أول فترة رخاء في حياتي، ولكن دون أن يتاح لي الوقت للاستمتاع بها. الشقة التي استأجرتها مفروشة، مع خدعة الغسيل، لم تكن سوى حجرة نوم مع حمام، وهاتف وغطور في السرير، ونافذة واسعة مع رذاذ المطر الأيدي، في أكثر مدن العالم كتابة. لم أستخدمها إلا للنوم، منذ الساعة الثالثة فجراً. وبعد تقضية ساعة في القراءة، حتى نشرة الأخبار الإذاعية الصباحية، لأعرف مستجدات اليوم الجديد.

لم أتوقف عن التفكير، بشيء من القلق، في أنها أول مرة يكون لدي فيها مكان ثابت وخاص للعيش، ولكن دون أن يكون لدي وقت لملاحظة ذلك. كنتُ مشغولاً في تصريف شؤون حياتي الجديدة، إلى حد أن إنفاقي الوحيد البارز، كان يقتصر على زوري الإنقاذ الصغير الذي واطئت على إرساله بدقة، في نهاية كل شهر، إلى الأميرة. واليوم فقط، أتنبه إلى أنني كنت أكمأ لا أجد الوقت الكافي للاهتمام بحياتي

الخاصة، ربما لأنه كانت تعيش في داخلي فكرة الأمهات الكاربيبات، عن أن الفتيات البوغوتيات يسلن أنفسهن، دون حب، للشبان الساحليين، لمجرد تحقيق حلمهن في العيش قبالة البحر. ومع ذلك، فقد توصلت في شفتي الأولى، كعازب، في بوغوتا، إلى تحقيق مرامي دون مجازفة، منذ أن سألت البواب عما إذا كانت زيارة الصديقات عند منتصف الليل، مسموحاً بها.

- إنها ممنوعة يا سيدي، ولكنني لا أرى ما يجب عليّ ألا أراه.
في أواخر شهر آب، ودون إنذار مسبق، ظهر خوسيه سالغار أمام متضدتي، بينما أنا أكتب تعليقاً، ونظر إليّ بصمت طويل، قطعت الكتابة في منتصف جملة، وقلت له قللاً:
- ما المشكلة؟

لم يظفر له رمش. وكان يلعب بوليزو غير مرئي بقلمه الرصاص الأحمر، ويتسم ابتسامة شيطانية تبدو نواياها مكشوفة. أوضح لي دون أن أسأله، بأنه لم يفوضني بكتابة ريبورتاج مذبحة الطلاب في الشارع السابع، لأنه خير صعب على شخص مبتدئ. ولكنه عرض عليّ بالمقابل، بصورة مباشرة، إذا دون أدنى نية في التحدي، أن يمنحني على عائقه ومسؤوليته، دبلوم كاتب الريبورتاجات، إذا كنت قادراً على أن أتقبل اقتراحاً قاتلاً منه:

- لماذا لا تذهب إلى ميندلين، وتروي لنا حقيقة اللعنة التي جرت هناك؟

لم يكن من السهل فهم ما يعنيه، لأنه كان يكلمني عن أمر حدث هناك، منذ أكثر من أسبوعين، مما يفسح المجال للظن بأنه يعرض عليّ

حدثاً بائساً لا خلاص لي منه، كان معروفاً أنه وقع، في الثاني عشر من تموز صباحاً، انهيار أرضي في "ميديا لونا"، وهو مكان وعز شديد الانحدار، إلى الشمال من ميدلين. ولكن الضجة التي أثارها الصحافة، وتخطيط السلطة، وهلع المتضررين، تسببت في إشاعة بليلة إدارية وإنسانية، حالت دون رؤية الواقع على حقيقته. لم يطلب مني سالفار أن أحاول عرض ما حدث بأقصى ما يمكن من الدقة، وإنما أمرني مباشرة بأن أذهب لإعادة بناء الحقيقة كلها على الأرض، ولا شيء آخر سوى الحقيقة، وخلال أقصر وقت ممكن. ومع ذلك، فقد كان في طريقته في قول ذلك، شيء، دفعني إلى التفكير في أنه سيقول لي العنان، أخيراً.

الشيء الوحيد الذي كان يعرفه العالم بأسره، عن ميدلين، حتى ذلك الحين، هو أن المغني الأرجنتيني كارلوس غارديل، قدم مات فيها، متفجماً في كارثة جوية. وأنا كنت أعرف كذلك، أنها أرض كتاب وشعراء كبار، وأنه توجد فيها مدرسة "البريستشايون" التي بدأت ميرثيديس بارتشا الدراسة فيها، تلك السنة. وحيال مهمة ذهبانية إلى ذلك الحد، لم أعد أشعر بأنه من غير الواقعي بأي حال، إعادة تصوير الجزيرة التي تسبب بها انهيار الجبل، قطعة قطعة، وهكذا حطت بي الطائرة في ميدلين، في الساعة الحادية عشرة صباحاً، وسط عاصفة رهيبية أرسلتني إلى التوهم بأن أكون آخر ضحايا الانهيار.

تركزت حققتي في فندق نوتيبارا، وفيها ملائس ليومين، وربطة عنق للطوارئ، واندفعت إلى الشارع، في مدينة حاملة لا تزال تلفها نتائج العاصفة وحصادها. رافقني ألفارو موتيس لمساعدتي في تجاوز خوفاً من الطائرة، ووفر لي عناوين أناس لهم مكانة جيدة في حياة

المدينة. ولكن الحقيقة الباعثة على القشعريرة، تمثلت في أنه ليست لدي أدنى فكرة من أين سأبدأ. مشيت على غير هدى في الشوارع المشرقة، تحت طحين الذهب الذي ترسله الشمس المشعة بعد العاصفة، ثم اضطرت، بعد ساعة، إلى أن ألوذ بأول متجر، لأن المطر عاد للهطول على الرغم من الشمس المشرقة. وعندئذ بدأت أشعر في قلبي، بأول خفقات الهلع. حاولت كبحتها بمعادلة جدي السحرية وسط المعركة، ولكن الخوف من الخوف انتهى إلى التسبب في انهيار معنوياتي. أدركت أنني لن أتمكن قط، من إنجاز ما كُلفت به، ولم أجد الشجاعة لقول ذلك. وأدركت عندئذ أن التصرف الوحيد العاقل، هو كتابة رسالة شكر إلى غييرمو كانو، والعودة إلى بارنكيا، إلى حالة الرضى الربانية التي كنت عليها قبل ستة شهور.

وبالراحة الهائلة التي أحسست بها، لخروجي من المحيم، ركبت سيارة تكسي، لأعود إلى الفندق. كانت تشره أخبار الظهيرة تقدم تعليقاً مطولاً، بصوتين متناولين، كما لو أن الانهيار قد حدث بالأمس. فراح السائق يُفْرَج عن نفسه، بالصراخ تقريباً، ضد إهمال الحكومة وتهاونها، وسوء التصرف بالمساعدات للمتضررين. أحسست بأنني مذبذب بطريقة ما، ومسؤول عن غضبيه العادل. ولكن المطر توقف عندئذ، من جديد، وصار الهواء شفافاً يعبق بتفجر الزهور في حديقة بيريتو. وفجأة، دون أن أدري كيف، أحسست بضربة مخالب الجنون. فقلت للسائق:

- قدم لي خدمة. قبل الذهاب إلى الفندق، خذني إلى موقع الانهيارات.

فقال هو:

- ولكن لا يوجد هناك ما يستحق المشاهدة، لا شيء سوى الشموع المضاءة فقط، والصلبان الصغيرة للموتى الذين لم يستطيعوا إخراجهم من بين الأنقاض.

وهكذا علمتُ أن الضحايا والناجين على السواء، هم من أماكن مختلفة من المدينة. وأن هؤلاء قد اجتازوها في جموع غفيرة لإخراج أجساد من سقطوا في الانهيار الأول. وكانت الأمساء عندما ضلّ القضاة المكان، والنزلق جز، آخر من الجبل في انهيار جارف. وهكذا فإن الوحيد الذين بإمكانهم رواية الحكاية، هم القلة الذين أفلتوا من الانهيارات المتتالية، وما يزالون أحياء في طرف آخر من المدينة. فقلت للسانق، وأنا أحاول السيطرة على ارتعاش صوتي:

- مفهوم. خذني إذن إلى حيث يوجد الأحياء الناجون.

قام بالدوران في منتصف الشارع، وانطلق في الاتجاه المعاكس. ولم يكن صمته نتيجة السرعة التي صار يحضي بها الآن، وإنما نتيجة الأمل بإقناعي بمبرراته.

بداية الحيط كانت طفلين في الثامنة والحادية عشرة من عمرهما، خرجا من بيتهما لقطع الحطب، يوم الثلاثاء ١٢ تموز، في الساعة السابعة صباحاً. وكانا قد ابتعدا نحو مئة متر، عندما أحسا بدوي انهيار الأتربة والصخور التي اندفعت نحوهما من سفح الجبل. تمكنا من الهرب بصعوبة. وظلت أخواتهم الثلاث محتجزات، في البيت، ومعهن أمهما وأخوهما حديث الولادة. وكان الناجيان الوحيدان هما الطفلان اللذان خرجا قبل قليل، ووب الأسرة الذي غادر باكراً، إلى عمله في مخبز للرمل، على بعد عشرة كيلومترات عن البيت.

كان المكان قفراً موحشاً على الطريق العام، بين ميدلين وريونغرو. وفي الساعة الثامنة صباحاً، لم يكن قد بقي فيه سكان لسقوط مزيد من الضحايا. نشرت المحطات الإذاعية الخبر ببالغة أرفقتها بكثير من التفاصيل الدامية، ونداءات مستعجلة جعلت أول المتطرعين يصلون قبل رجال المطافئ. وعند الظهر، حدث انهياران آخران، دون وقوع ضحايا، ففاقما حالة العصبية العامة، وأقامت محطة إذاعة محلية مركز بث مباشر من موقع الكارثة. وفي تلك الساعة كان قد احتشد هناك سكان القرى والأحياء المجاورة بمجملهم تقريباً، فضلاً عن القضاة القادمين من كل أرجاء المدينة، ممن اجتذبتهم نداءات الإذاعة، والمسافرين الذين كانوا يترجلون من حافلات السفر، ليسبقوا عرقلة أكثر مما يقدمونه من العون. وإضافة إلى الأجساد القليلة التي طمرت في الصباح، كان هناك عندئذ، ثلاثمائة جثة أخرى سببتها الانهيارات المتتالية. ومع ذلك، وقبل الغروب بقليل، كان لا يزال هناك أكثر من ألفي متطوع عفوي، يندمون مساعدات طائشة للناجين. وعند الغروب، لم يعد هناك متسع للتنفس. فقد كانت الحشود كثيفة وفوضوية في الساعة السادسة، عندما وقع انهيار ساحق آخر، قُدر بمنتهى ألف متر مكعب، رافقه دوي هائل، وأوقع عدداً كبيراً من الضحايا. كما لو أنه قد حدث في حديقة بيريو المزدهجة في ميدلين. وقد وقعت الكارثة بسرعة، إلى حد أن الدكتور خابيير مورا، سكرتير الأشغال العامة في البلدية، وجد بين الأنقاض، جثة أرنوب لم يجد متسعاً من الوقت للهروب.

بعد أسبوعين من ذلك، عندما وصلتُ إلى المكان، لم يكن قد أخرج سوى أربع وسبعين جثة. وكان عدد كبير من الناجين قد أسعفوا وصاروا

بأمن. ولم يكن معظمهم ضحايا الانهيارات، وإنما ضحية التهور والتضامن غير المنظم. ومثلما في الزلازل، لم يكن بالإمكان كذلك، تقدير عدد الذين لديهم مشاكل خاصة، واستغلوا الفرصة للاختفاء دون أن يخلقوا أثراً، هرباً من الديون أو لاستبدال تسانهم. ومع ذلك، فقد أسهم حسن الحظ بدوره أيضاً، إذ أثبت تحقيق تال أنه منذ اليوم الأول، بينما كانت تجري محاولات الإنقاذ، أوشكت على السقوط كتلة صخور أخرى، يمكن لها أن تسبب انهيار خمسين ألف متر مكعب. وبعد أكثر من خمسة عشر يوماً، وبمساعدة الناجين الذين استردوا عافيتهم، استطعت أن أعيد بناء القصة التي لم تكن روايتها ممكنة في حينها، بسبب عقبات الواقع واضطرابه.

لقد تلخصت مهمتي في استخلاص الحقيقة الضائعة، من بين خليط من الافتراضات المتناقضة، وإعادة تركيب المأساة الإنسانية، وفق التسلسل الذي جرت به، بعيداً عن أية حسابات سياسية أو عاطفية. وكان ألفارو موتيس قد وضعني على الطريق القويم، عندما أرسلني مع خبيرة الإعلان سيسيليا وارين التي نظمت لي ما رجعت به من معلومات، من موقع الكارثة. نُشر الريبورتاج على ثلاث حلقات، وكانت له على الأقل ميزة إيقاظ الاهتمام بخير منسي. بعد أسبوعين من التأخير، وإعادة ترتيب فوضى المأساة.

ومع ذلك، فإن أفضل ذكرياتي عن تلك الأيام، لم يكن ما فعلته، وإنما ما كنت على وشك أن أفعله، بفضل الخيلة الهذيانة لزميلي القديم في بارانكيّا، أورلاندو ريفيرا، الملقب "فيغوريتا"، الذي التقيت به فجأة، في إحدى لحظات التنفس القليلة، أثناء البحث والتحريات. كان

يعيش في ميدلين منذ بضعة شهور، وكان سعيداً ومتزوجاً حديثاً من سول سانتاماريا، وهي راهبة قاتنة وذات روح حرة، ساعدها على الخروج من دير مغلق، بعد أن أمضت هناك سبع سنوات من الفقر، والطاعة، والعفة. وفي واحدة من سكراتنا الشهيرة، كشف لي فيغوريتا عن أنه قد أعد مع زوجته، وعلى مسؤوليته، خطة محكمة لإخراج ميرثيديس بارثشا من مدرستها الداخلية، وأن كاهناً صديقاً له، مشهوراً بفتونه في عقد الزيجات، سيكون مستعداً لتزويجنا في أي وقت، وكان العائق الوحيد بالطبع، هو أن توافق ميرثيديس نفسها، ولكننا لم نجد طريقة للاستفسار منها، وهي ضمن جدران محبسها الأربعة. واليوم، أكثر من أي وقت آخر، ينهشني الغضب لأنني لم أمتلك الجرأة لعيش دراما المسلسلات تلك. أما ميرثيديس، فلم تعلم بأمر الخطة، إلا بعد بضع وخمسين سنة من ذلك، حين قرأت مسودات هذا الكتاب.

كانت تلك واحدة من آخر المرات التي رأيت فيها "فيغوريتا". ففي كرنفال ١٩٦٠، وكان متذكراً بهيئة غر كرمي، انزلق عن عربة الكرنفال التي كانت تعيده إلى بيته في بارانوا، بعد مشاركته في معركة تقاذف الزهور، ودق عنقه على حجارة الشارع المفروشة بأنقاض وفضلات الكرنفال.

في الليلة الثانية من عملي في انهيارات ميدلين، وجدت بانتظاري في الفندق، محررين من صحيفة الكولومبيانو - وكانا فنيين إلى حد أنهما أكثر سياباً مني -، وقد صمما على إجراء مقابلة معي، حول قصصي المنشورة حتى ذلك الحين. لقد تكلفا جهداً في إقناعي، لأنه كان لدي منذ ذلك الحين، ولا يزال، حكم مسبق، ربما هو جائر، ضد المقابلات

الصحفية التي تجزي على صورة جلسة أسئلة وأجوبة، حيث يبذل الطرفان جهداً لعقد محادثة كاشفة، لقد عانيت من هذا الحكم المسبق في الصحيفتين اللتين عملت فيهما، وعانيت بخاصة في كرونيكا، حيث حاولت أن أنقل عدوى تحفظاتي إلى المشاركين الآخرين في تحريرها. ولكنني وافقت، مع ذلك، على تلك المقابلة الأولى مع جريدة الكولومبيانو، وكانت صريحة إلى حد انتحاري.

لا حضر اليوم للمقابلات التي كنت ضحية لها على مدى خمسين سنة، وعلى امتداد نصف العالم، ولم أتمكن حتى الآن، من الاختناغ بفعالية هذا الجنس من الكتابة، بأي حال من الأحوال، الأكثرية الساحقة من المقابلات التي لم أستطع تفاديها، حول أي موضوع، يجب أن تُعتبر جزءاً هاماً من أعمالنا التخيلية، لأنها ليست سوى هذا: تخيلات حول حياتي. ولكنني أرى بالمقابل، أنها ذات قيمة لا تُشعّن، ليس للنشر، وإنما كمادة أولية للريورتاج، وهو الجنس الكتابي الذي أقدره باعتباره الجنس الأبرز في أفضل مهنة في العالم.

لم تكن تلك الأزمّة مناسبة، على أي حال، للمهرجانات، فحكومة الجنرال روخاس بينييا، وكانت قد دخلت في نزاع مفتوح مع الصحافة وجزء كبير من الرأي العام، توجت شهر أيلول بقرارها في تقسيم مقاطعة تشوكو، النائية والمنسية، بين جاراتها الثلاث المزدهرة: أنتيوكيا، وكالدياس، وبابي. ولم يكن الوصول إلى كيبكو، عاصمة المقاطعة، ممكناً إلى من ميدلين، عبر طريق بالبحاء واحد، وبحالة بالغة السوء، مما يتطلب أكثر من عشرين ساعة، لقطع مئة وستين كيلومتراً. والظروف اليوم ليس بأفضل مما كانت عليه آنذاك.

وكنا نرى في الجريدة، كأمر واقع، أنه لا يمكن عمل الكثير، لمنع تقسيم المقاطعة الذي أقرته الحكومة دون اعتبار للصحافة الليبرالية. وقد أرسل بريمو غييرمو، مراسل الاسبيكتادور المحرّب في كيبكو، أخباراً في اليوم الثالث، عن أن مظاهرة شعبية لأسر يكاملها، من في ذلك الأطفال، قد احتلت الساحة الرئيسية، مع التصميم على البقاء هناك، تحت الشمس والندى، إلى أن تتراجع الحكومة عن نواياها. راحت الصور الأولى، للأمهات المتصدرات، وبين أذرعهن أطفالهن، تفتّر مع مرور الأيام، بفعل الأضرار التي سببها سهر الأهالي في العراء. وكنا نعزز هذه الأخبار، كل يوم، في هيئة التحرير، بتعليقات افتتاحية أو بتصريحات لسياسيين أو مشقّفين من مقاطعة تشوكو، يقيمون في بوغوتا. ولكن الحكومة بدت مصممة على كسب المعركة، بصم أذنيها وعدم المبالاة. وبعد عدة أيام مع ذلك، دنا خوسيه سالغار من منضدتي بقلمه الذي كعبدان مُحرك الدمى، واقترح عليّ أن أذهب لأتحري عما يحدث فعلاً في تشوكو. حاولت أن أرفض، مستغلاً السلطة الضئيلة التي اكتسبتها بفضل ريورتاج ميدلين، ولكن ذلك لم يقدني كثيراً. فقد صرخ غييرمو كائو الذي كان يكتب مديراً لنا ظهره، دون أن ينظر إليّ:

- اذهب يا غابو، لفتيات تشوكو أفضل من اللواتي كنت ترغب في رؤيتهن في هابتي!

وهكذا ذهبت دون أن أتساءل حتى عن كيف يمكن لي كشابة ريورتاج عن مظاهرة احتجاجية ترفض اللجوء إلى العنف، رافقتي المصور غييرمو سانتشيث الذي كان يضايقني منذ شهور، بمعزوفة دعوتي إلى أن تقوم معاً، بإعداد ريورتاج عن الحرب، ولضجري من سماع ذلك منه، قلت له صارخاً:

- يا للجنة، أية حرب تعني!

فأقلت فجأة، الحقيقة في وجهي:

- لا تتظاهر بالغيا، يا غايو، فأنا أسمعك تردد منذ بعض الوقت،

أن هذه البلاد تعيش حالة حرب منذ الاستقلال.

حضر في فجر يوم الثلاثاء، الحادي والعشرين من أيلول، وهو

يرتدي ملابس محارب، أكثر مما هي ملابس مصور تحقيقات صحفية.

وكان يعمل آلات التصوير، وتتدلى الجعب من كل أنحا، جسده، لكي

تذهب لتغطية أخبار حرب يلقها الصمت. وكانت المفاجأة الأولى أنه يمكن

الذهاب إلى تشوكو قبل مغادرة بوغوتا، عبر مطار ثانوي لا وجود فيه

لخدمات من أي نوع، بين أنقاض شاحنات مينة وطائرات صدنة. أما

طائرتنا فكانت لا تزال حية بقدره فنون السحر. فهي طائرة من طراز

كاتالينا الأسطورية التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية. وقد

أعادت شركة مدنية تأهيلها لاستخدامها في الشحن. لم تكن فيها

مقاعد. وكانت ضيقة وكالحة من الداخل، مع وجود نوافذ صغيرة غيصة،

وحمولة من حزم ألحاف تصنع منها المكناس. وقد كنا المسافرين

الوحيدين فيها. أشار لنا مساعد الطيار ذو القميص قصير الأكمام،

وهو شاب وأنيق مثل طياري السينما، بأن نجلس على حزم الحمولة التي

بدت له أكثر راحة. لم يعرف علي، ولكنني كنت أعرف أنه كان لاعب

بيسبول بارزاً في فريق لاماتونا، في كارتاخينا.

كان الإقلاع مرعباً، حتى بالنسبة لمسافر محب للمجازفة، مثل

المصور غييرمو سانتشيث، بسبب ذوي الحركات الراعد، وقرقرة حذائد

بدن الطائرة. ولكنها ما إن استقرت في سماء السهب الصافية، حتى

انسابت بقوة محارب مجرب. ومع ذلك، وبعد أن تجاوزنا استراحة ميدلين،

فاجأنا وأبل من المطر فوق غابة متشابكة بين سلسلتين جبليتين، واضطرونا

إلى دخول تلك العاصفة مواجهة. وربما عشنا عندئذ، ما لم يعشه إلا قلة

من البشر الفانين: تسرب المطر إلى داخل الطائرة من خلال ثقب يدها.

وجاء مساعد الطيار الصديق قافزاً بين حزم المكناس، حاملاً إلينا صحف

ذلك اليوم لنستخدمها كمظلات. فغطيت حتى وجهي بالصحيفة، ليس

لأخيه من الماء، وإنما للحيلولة دون أن يروني أبكي من الرعب.

بعد نحو ساعتين من الاستسلام للحظ والقدر، مالت الطائرة على

جانبها الأيسر، ونزلت في وضع الانقضاض على غابة كثيفة، ثم دارت

دورتين حول ساحة كيبزو الرئيسية. استعد غييرمو سانتشيث لكي

يلتقط، من الجو، صوراً للمظاهرة المستنفدة من الإنهاك والسر، فلم يجد

سوى الساحة المقفرة. قامت الطائرة البرمائية المخلعة بجولة أخيرة،

للتأكد من أنه لا وجود لعوائق حية أو ميتة في نهر أتراتو الهادئ،

وأكملت هبوطها السعيد في قيط الظهيرة.

كانت الكبسة المرفعة بألواح خشبية، والمقاعد الإسمنتية المطلخة

ببقايا العصافير، وبغلة بلا صاحب تلبط أغصان شجرة عملاقة، هي

الإشارات الوحيدة على الوجود البشري في الساحة المعفرة والمقفرة التي

لا تشبه شيئاً أكثر مما تشبه عاصمة أفريقية. كان هدفنا الأول التقاط

صور مستعجلة للحشود المحتجة، وإرسالها إلى بوغوتا في الطائرة

العائدة، ريثما نجتمع ما يكفي من المعلومات الجديدة وغير المعروفة،

لنرسلها بريقاً، كي تُنشر في طبعة اليوم التالي. لم يكن بالإمكان عمل

شيء من ذلك، لأن شيئاً لم يكن يحدث.

اجتزنا، دون شهود، الشارع الطويل جداً بموازاة النهر، وكانت تخف به متاجر مغلقة من أجل الغداء، وبيوت ذات شرفات خشبية وسقوف صلبة. لقد كان المشهد مناسباً تماماً، إنما كانت تنقصه الدراما، كان زميلنا الخطيب يرمو غيريرو، مراسل الاسبيكتادور، بنام القنبولة دون، هم في أرجوحة نوم ريعية، تحت عريشة بيته، كما لو أن الصمت الذي يحيط به هو سلام المقابر. وما كان يمكن للمصراحة التي أوضح لنا بها إعماله وتهاونه، أن تكون أكثر موضوعية، فبعد مظاهرات الأيام الأولى، تراخت حدة التوتر بسبب الاستقرار إلى موضوعات، عندئذ قام بترتيب تعبئة للقرية بأسرها، بتقنيات مسرحية، والتقطت بعض الصور التي لم تُنشر، لأنها بدت غير مقنعة، وألقيت الخطابات الوطنية التي هزت البلاد فعلاً. ولكن الحكومة ظلت على عدم ميالاتها، غير أن يرمو غيريرو، وبمرونة أخلاقية ربما يكون الرب نفسه قد سامحه عليها، أبقى الاحتجاجات حية في الصحافة، بقدرة البرقيات وحدها.

كانت مشكلتنا المهنية بسيطة: فنحن لم نقم بتلك الرحلة الطرزانبة، لكي نخبر الجريدة بأنه لا وجود للخبر، وكانت في متناول يدينا، بالمقابل، الوسائل لكي يكون الخبر صحيحاً، وينجز الهدف منه، عندئذ اقترح يرمو غيريرو أن ينظم مرة أخرى المظاهرة النقال، ولم يخطر لأي منا فكرة أفضل من تلك، وكان أكثر مساعدتنا في ذلك حماسة هو النقيب لويس آ. كائو، الحاكم الجديد المعين بعد استقالة سلفه الساخطة. وقد كانت لديه المرأة على تأخير إقلاع الطائرة، لكي تتلقى الجريدة صور غيريرو سانتشيث، في الوقت المناسب، وهكذا انتهى الأمر بالخبر المخلوق بدافع الحاجة، إلى أن يكون الخبر الوحيد الصحيح، فقد ضخمت الصحافة

والإذاعة في كل أنحاء البلاد؛ وسرعان ما تلقفته الحكومة العسكرية لتتخذ وجهها، في تلك الليلة بالذات، بدأت تعبئة عامة للسياسيين المنتمين إلى مقاطعة تشوكو - وكان لبعضهم نفوذ في بعض قطاعات البلاد - فما كان من الجنرال روخاس بينيا، بعد يومين من ذلك، إلا الإعلان عن إلغاء قراره بتوزيع مقاطعة تشوكو بين جيرانها.

لم نرجع أنا وغيرمو سانتشيث إلى بوغوتا فوراً، لأننا أقتنعنا الجريدة بأن تسمح لنا بالتجوال في مناطق تشاكو الداخلية، للتعرف بعمق على واقع ذلك العالم الخيالي. وبعد عشرة أيام من الصمت، عندما دخلنا إلى قاعة التحرير، وقد دهقت الشمس جلداً، ونحن نكاد ننهال من النعاس، استقبلنا خوسيه سالغار سعيداً، ولكن على طريقته. فقد سألتنا بتأكيد حاسم:

- هل تعلمان منذ متى انتهى خير منطقة تشاكو؟

وقد وضعني السؤال مواجهة، للمرة الأولى، أمام شرط الفناء الذي يحكم الصحافة. وبالفعل، لم يعد هناك من يهتم بمنطقة تشاكو، منذ أن نُشر القرار الرئاسي بإلغاء تقسيمها. ومع ذلك، فقد أيدني خوسيه سالغار في المجازفة بظهو ما هو ممكن من تلك السمكة الميتة.

ما حاولنا نقله في أربع حلقات طويلة، هو اكتشاف بلاد أخرى لا يمكن تصورها داخل كولومبيا، ولم تكن لدينا أية معرفة بها. فهناك وطن سحري، تسوده الأدغال المزهرة والفيضانات الأبدية، حيث يبدو كل شيء كنسخة غير معقولة من الحياة اليومية. كانت العقبة الكبرى التي تعترض شق طرق برية، هي تلك الكمية الهائلة من الأنهار الجامحة، غير أنه لم يكن هناك سوى جسر واحد في المنطقة كلها. وجدنا طريقاً معبداً

بطول خمسة وسبعين كيلومتراً، عبر الغابة العذراء، مقامة بكلفة باهظة من أجل وصل بلدة إتسمينا ببلدة يوتو، ولكنها لا ترم من الأولى أو الثانية، كإجراء عقابي من المفاول الذي دخل في منازعات قضائية مع عمدتي البلديتين.

في إحدى قرى المنطقة الداخلية، طلب منا وكيل البريد أن نحمل، إلى زميله في إتسمينا، البريد المتراكم لديه منذ ستة أشهر، لقد كان ثمن عليه السجائر الوطنية هناك، ثلاثين سنتافو، مثلما هو في بقية أرجاء البلاد، ولكن عندما تتأخر الطائرة الصغيرة الأسبوعية التي ترون البلدة بالسجائر، يرتفع السعر عن كل يوم تأخير، إلى أن يجد الأهالي أنفسهم مضطرين إلى تدخين السجائر الأجنبية التي تصيح أرخص من الوطنية. أما كيس الرز، فيزيد سعره خمسة عشر بيرو عما هو عليه في مناطق الزراعة، لأنهم ينقلونه عبر ثمانين كيلومتراً من الغابات العذراء، على متن البقال التي "تشعبط" كالقطط على الدروب الجبلية الضيقة، وتعمل نساء أشد القرى فقراً في غريلة الذهب والبلاتين في الأنهار، بينما يتصرف رجالهن إلى صيد السمك. وفي أيام السبت يبيعون للنجار المتجولين دزينة من الأسماك، وأربعة غرامات من البلاتين، بثلاثة بيرووات فقط.

كل هذا كان يحدث في مجتمع مشهور بلهفته إلى الدراسة والعلم. ولكن المدارس قليلة ومتباعدة. وعلى التلاميذ أن يقطعوا عدة فراسخ كل يوم، سيراً على الأقدام وفي الزوارق، من أجل الذهاب والإياب. وقد كانت بعض المدارس مزدحمة إلى حد أنهم كانوا يستخدمون البثاء نفسه في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة للذكور، وأيام الثلاثاء والخميس

والسبت للإناث. وللسبب نفسه، كانت تلك المدارس هي الأكثر ديمقراطية في البلاد، لأن ابن الغسالة الذي يكاد لا يجد ما يأكله، يرتاد المدرسة نفسها التي يذهب إليها ابن العمدة.

قلة قليلة من الكولومبيين كانوا يعرفون آنذاك، أنه هناك في أدغال تشوكو، تنتصب أكثر مدن البلاد حداثة. إنها مدينة تدعى أنداغويا، تقوم عند التقاء نهري سان خوان وكوندوتو. وكان فيها نظام اتصال هاتفي متقن الكمال، وأرصنة لاستقبال السفن والمراكب، تعود ملكيتها للمدينة نفسها التي تشقها شوارع فيحة ومشجرة. وكانت البيوت الصغيرة والنظيفة، ذات الأفنية الواسعة المسبجة والأدراج الخشبية البهية عند البوابات، تبدو مزروعة وسط العشب. وفي منتصف المدينة، كان هناك كازينو فيه فطعم-كباريه، وبار تقدم فيه خمور مستوردة بأسعار أرخص من بقية أنحاء البلاد. إنها مدينة يقطنها أناس من كل أنحاء العالم، نسوا الحنين، ويعيشون هناك أفضل مما في بلادهم. تحت السلطة الكلية للجنرال المحلي لتشوكو باسيفيكو. لقد كانت أنداغويا، في الحياة الواقعية، بلداً أجنبياً وملكية خاصة، تحرف كراكاته قيعان الأنهار الخرافية، لتنهب الذهب والبلاتين، وتحمله في سفينة خاصة، تخرج به إلى العالم بأسره، دون مراقبة من أحد، عبر مصبات نهر سان خوان.

كانت تلك هي تشوكو التي أردنا كشفها للكولومبيين، ولكن دون أي نتيجة، لأن كل شيء عاد إلى ما كان عليه، بعد أن انقضى الحبر، وبقيت أكثر المناطق المنسية في البلاد. وأظن أن السبب واضح وجلي: فكولومبيا كانت على الدوام بلداً كاريبي الهزينة، مفتوحاً على العالم من

خلال حبيل الخلاص الذي تمثله بنما. وجاء اقتطاع بنما الإيجاري وفصلها عن كولومبيا. ليحكم علينا بأن نكون ما نحن عليه اليوم: بلاداً أنديزية بالشروط المناسبة لكيلا تكون القناة بين المحيطين ملكاً لنا، وإنما للولايات المتحدة.

كان يمكن لإيقاع التحرير في الجريدة، أن يكون قاتلاً لولا أيام الجمعة مساءً، بعد تحريرنا من واجباتنا؛ إذ كنا نلتقي في بار فندق كونتيننتال، على الرصيف المقابل، في جلسات تفريح عن النفس تستمر حتى الفجر، وقد عمد إدواردو ثالاميا تلك الليالي باسم خاص: "الجمعة الثقافية". وكانت تلك الجلسات هي فرصتي الوحيدة لتبادل الحديث معه، كيلا يلتوتني قطار مستجدات العالم الأدبية التي يتابعها، لحظة بلحظة، بقدرته كقارئ غير عادي. أما المواطنون المتمسكون بسهرات المشروبات الكحولية غير المنتهية، وذات النهايات غير المتوقعة تلك - فضلاً عن صديقين أو ثلاثة من أصدقاء أوليسيس الأبهين -، فكنا نحن المحررين الصحفيين الذين نخشى انتهاء الجلسة قبل حلول الفجر.

لقد لفت انتباهي على الدوام، أن ثالاميا لم يقدم قط، أي ملاحظة حول تعليقاتي الصحفية، بالرغم من أن معظمها كانت مستوحاة من تعليقاته ومقالاته. ومع ذلك، عندما استقرت لقامات "الجمعة الثقافية"، أطلق العنان لأفكاره حول الزوايا الصحفية. وقد اعترف لي بأنه لا يتفق مع كثير من وجهات نظر تعليقاتي، واقترح عليّ غيرها، ولكن ليس بشرة المعلم لتلميذه، وإنما كاتب لكاتب.

ملاذ آخر كنا نتردد عليه بكثرة، بعد تأسيس النادي السينمائي،

هو السهرات حتى منتصف الليل، في شقة لويس فيشنس وزوجته نانسي، على بعد كمادات قليلة من الاسبيكتادور. وكان هو، الذي ساهم فيما مضى، في الكتابة مع مارسيل كولين ريفال، وترأس تحرير مجلة "السينما الفرنسية" في باريس، قد بذل أعلامه السينمائية، وتحول إلى مكتبي جيد في كولومبيا، بسبب الحرب الأوروبية. كانت نانسي تنصرف كمضيفة سحرية، قادرة على تكبير غرفة طعام أربعة أشخاص، لشعوب اثني عشر شخصاً. لقد تعارفا بعد وقت قصير من مجيئه إلى بوغوتا، سنة ١٩٢٧، خلال عشاء عائلي. لم يكن هنالك على المائدة، سوى مكان شاغر وحيد، إلى جانب نانسي، حين رأيت برعب، دخول المدعو الأخير، بشعره الأبيض وبشرة متسلى الجبال الملوحة بالشمس. فقالت لنفسها: "يا لسوء الحظ! سيجلس الآن إلى جانبي هذا البولوني الذي لا يعرف حتى التكلم بالإسبانية". وكانت على صواب تقريباً، في ما يتعلق باللغة، لأن القادم الجديد كان يتكلم الإسبانية بكتلاية نيتة، مختلطة بالفرنسية. وكانت هي المتحدرة من مقاطعة بويكا، متحدثة اللغة وطليقة اللسان، ولكنهما تفاهما على أحسن وجه، منذ تبادلتهما التحية الأولى إلى حد أنهما بقيا ليعيشا معاً إلى الأبد.

سهراتهما كانت تُرتجل بعد العروض السينمائية الافتتاحية الكبرى، في شقة مشرعة بخليط من كل الفنون، حيث لم يكن هناك متسع لمزيد من الرسامين المبتدئين الكولومبيين، ممن سيصبح بعضهم مشهوراً في العالم بأسره. وكان المدعوون مختارين من بين أهل الفنون والآداب، وقد تظهر شلة بارانكيّا هناك بين حين وآخر، دخلت إلى ذلك البيت، كما لو أنني في بيتي، منذ ظهور مقالتي الأولى في النقد السينمائي.

وعندما كنتُ أخرج من الجريدة قبل منتصف الليل، أقطع الكوادرات الثلاث ماشياً، وأجيرهما على السهر حتى وقت متأخر. وقد كانت المعلمة نانسي - فضلاً عن أنها طاهية رائعة - ساعية زواج ضارية. ترجل ولانم عشاء بريئة، لتعرفني على أكثر فتيات عالم الفن جاذبية وتحرواً، ولم تغفر لي قط، عندما قلت لها، وأنا في الثامنة والعشرين، إن ميلي الحقيقي ليس أن أكون كاتياً ولا صحفياً، وإنما عازياً لا يُهزم.

في فجوات الفراغ التي تصبى لألفارو موتيس، من رحلاته حول العالم، قام بإدخالي إلى أعلى مستويات المجتمع الثقافي وتعرفني عليه. فبحكم وضعه كمدير علاقات عامة لشركة إسو الكولومبية، كان ينظم ولائم غداء في أغلى المطاعم، وهو ما يوقر في الواقع، التأثير والوزن في عالم الفنون والآداب، وكان مدعووه في أحيان كثيرة، ضيوفاً من مدن أخرى في البلاد. الشاعر خورخي غايتان دوران الذي كانت تتسلط على ذهنه، فكرة إصدار مجلة أدبية كبرى، تتطلب ثروة باهظة، حل الأمر جزئياً، من أرصدة ألفارو موتيس المخصصة لتشجيع الثقافة. وكان ألفارو كاستانيو كاستيو وزوجته، غلوريا بالينشيا، يحاولان منذ سنوات، تأسيس محطة بث إذاعي، مكرسة بالكامل للموسيقى الجيدة، ولبرامج ثقافية في متناول اليد. وكنا جميعنا نسخر من عدم واقعية مشروعاتهما، باستثناء ألفارو موتيس الذي بذل كل ما يمكنه لمساعدتهما. وهكذا أسسنا إذاعة HUCK، "العالم في يوغرتا" بث قدرته ٥٠٠ واط، وهي الطاقة الدنيا في ذلك الحين. ومع أن التلفزيون لم يكن قد وجد بعد في كولومبيا، إلا أن غلوريا بالينشيا اخترعت الأعجوبة التليفزيونية بتقديمها، عبر الإذاعة، برنامجاً عن عروض الأزياء.

الاستراحة الوحيدة التي كنت أبيعها لنفسى، في أيام الضيق تلك، هي أمسيات الآحاد في بيت ألفارو موتيس الذي علمني الاستماع إلى الموسيقى، دون أحكام طبقية مسبقة. كنا نستلقي على السجادة لنستمع بقلبتنا، إلى كبار الموسيقيين، دون تأملات نظرية حكيمة. وكان ذلك هو أصل شغفى بالموسيقى الذي بدأ في القاعة الخفية، في المكتبة الوطنية، ولم ينسأ قط. لقد استمعت اليوم إلى كل ما استطعت الحصول عليه من الموسيقى، ولا سيما موسيقى الهجرة الرومانسية التي أعتبرها ذروة الفنون. أما في مكسيكو، بينما كنتُ أكتب مئة عام من العزلة - في عامي ١٩٦٥ و١٩٦٦ -، فلم يكن لدي سوى أسطوانتين اثنتين، استهلكنا لكثرة ما استمعت إليهما، الاستهلالات لديبوسى، وبلا ليلة ذلك اليوم لفرقة البيتلز. وفي ما بعد، عندما امتلكتُ في برشلونة الكثير من الأسطوانات، بقدر ما كنت أرغب على الدوام تقريباً، بدا لي أن التصنيف الأبجدي تقليدي جداً، فاخترت من أجل راحتي الخاصة، اتباع ترتيب يأخذ في الاعتبار الآلات الموسيقية: التشيلو، وهو المفضل لدي، من فيفالدو إلى براهمز، والكمان، من كوريلي حتى شونبرغ؛ الكلاف والبيانو، من باخ حتى بارتوك. إلى أن اكتشفتُ معجزة أن كل ما يرن هو موسيقى، بما في ذلك الأطباق وأدوات الطعام في المجلى، ما دامت تزدي وهم إشعارنا بالمسار الذي تقضي فيه الحياة.

كنت أعاني من محدودية عدم قدرتي على الكتابة، بوجود الموسيقى، لأنني أولى انتباهي إلى ما اسمعه أكثر مما أوليه إلى ما أكتبه، وما زلت حتى اليوم لا أتردد إلا نادراً على الحفلات الموسيقية، لأنني أشعر أنه يقوم، في مقعد الصالة، نوع من الحميمية الوقورة مع

جيران غرباء. ومع ذلك، مع مرور الزمن وتوفر الإمكانيات لسماع موسيقى جيدة في البيت، تعلمت الكتابة بوجود خلفية موسيقية تتوافق مع ما أكتبه: نكتورنات شوبان للأحداث الهادئة، أو سداسيات براهمز للأصبيات السعيدة. ولم أعد أستمع، بالمقابل، إلى موزارت لسنوات طويلة، منذ أن داهمني الفكرة الشيطانية بأن موزارت غير موجود، لأنه عندما يكون جيداً فهو يتهوّن، وعندما يكون سيئاً يصير هايدن.

لقد توصلت، في السنوات التي أستمع فيها هذه الذكريات، إلى معجزة عدم الشعور بالضيق من أي نوع من الموسيقى، وأنا أكتب؛ وربما دون أن أعي فضائلها الأخرى؛ ذلك أن المفاجأة الكبرى جاءتني من موسيقيين كتلاتيين، شاين ودوبين، يعتقدان بأنهما اكتشفا تشابهات مفاجئة بين خريف البطريق، روايتي السادسة، وكونشيرتو البيانو الثالث لبيلا بارتوك. صحيح أنني كنت أستمع إلى هذا الكونشيرتو دون توقف، بينما أنا أكتب، لأنه كان يولد في حالة خاصة جداً من الحماسة، وغريبة بعض الشيء، ولكنني لم أفكر قط، في أنه يمكن لتلك الموسيقى أن تكون قد أثرت بي إلى الحد الذي تلمح به في كتابتي. ولست أدري كيف علم أعضاء الأكاديمية السويدية بنقطة ضعفي تلك، فوضعوا تلك الموسيقى نفسها، كخلفية، عند تسليمي جائزتي. إنني أشكرهم من أعماق روعي بالطبع، على تلك اللفتة، ولكن لو أنهم سألوني - مع كل امتناني واحترامي لهم ولييلا بارتوك - لكنت أحييت أن توضع إحدى مقطوعات فرانكسكو الرجل، الرومانسية الطبيعية التي كانت تُعرف في طفولتي.

لم يكن هناك في كولومبيا، في تلك السنوات، مشروع ثقافي

بحقق، أو كتاب يُكتب، أو لوحة تُرسم، دون المرور قبل ذلك، من مكتب موتيس. لقد كنت شاهداً على حوار مع رسام شاب لديه كل شيء جاهز من أجل رحلته البحرية التي لابد منها إلى أوروبا، ولكنه كان يفتقر إلى النقود اللازمة للرحلة، لم يكن ألفارو قد استمع إلى قصته كلها، عندما أخرج حقيبتة السحرة من المتضدة، قائلاً له:

- ها هي ذبي تذكرة السفر.

كنت أشهد مذهولاً، التلقائية التي يحقق بها تلك المعجزات، دون أدنى تفاخر سلطوي. ولهذا ما زلتُ أسأل عما إذا لم تكن له علاقة بالطلب الذي عرضه عليّ، في إحدى حفلات الكوكشيل، سكرتير جمعية الكتاب والفنانين الكولومبيين، أوسكار ديلغادو، لكي أشارك في مسابقة وطنية للقصة القصيرة، يو شكون الإعلان عن حجب جائزتها. وقد قال ذلك بأسلوب بالغ الاستخفاف إلى حد بدا لي الاقتراح معه مشيناً، على أن أحدهم سمعه، فأكد لي أنه لا يمكن للمرء، في بلاد مثل بلادنا، أن يصير كاتباً دون أن يعرف أن المسابقات الأدبية ليست سوى مسرحيات إيمانية اجتماعية: "ها في ذلك جائزة نوبل". أنهى كلامه بهذه العبارة دون أدنى قدر من الحيث؛ فوضعني منذ ذلك الحين، دون أن يكون قد فكر في الأمر، في حالة تأهب لاتخاذ قرار خطير آخر اعترضني بعد سبع وعشرين سنة من ذلك.

ضمت لجنة محكيم مسابقة القصة القصيرة هيرناندو تيبث، وخوان لوثانو آي لوثانو، وبيدرو غوميث فالديراما وثلاثة كتاب ونقاد آخرين من الوزن الثقيل. ولهذا لم أحسب حساباً للاعتبارات الأخلاقية والاقتصادية، وإما أمضيت ليلة في التصحيح النهائي لقصة "يوم بعد

البيت" التي كنت قد كتبتها في بارانكيا، في ضربة إلهام فاجأتني في مكاتب جريدة إنناسيونال - وبعد نومها أكثر من سنة في الدرج، بدت لي قيادة على إيهار لجنة تحكيم جيدة. وهذا هو ما حدث، فضلاً عن حصولي على مكافأة مالية هائلة: ثلاثة آلاف بيزو.

في تلك الأيام بالذات، ودون أي علاقة بالمسابقة، جئني إلى المكتب دون صامويل ليزمان باوم، الملحق الثقافي بسفارة إسرائيل، وكان قد افتتح للتو مؤسسة للنشر بإصداره كتاب أشعار للمعلم ليزن دي غريف: "أوراق الدفتر الخامس المخططة". كانت الطبعة حسنة المظهر، والأخبار عن ليزمان باوم جيدة. وهكذا قدمت إليه نسخة مرقعة جداً من "عاصفة الأوراق"، وصرفت طبرناً مع الوعد بأن نتحدث في ما بعد. وبخاصة عن النقود. وكان هذا - بالفعل - هو الموضوع الوحيد الذي لم نتحدث فيه أبداً. وقد رسمت سيسيليا بوراس غلاقاً تجديدياً - لم تضمنكن من تقاضي ثمنه كذلك -، مستندة إلى وصفي لشخصية الطفل. وقدمت ورشة الزنكوغراف بصحيفة الاسيكنادور كليشيات الغلاف بأربعة ألوان، كهدية.

لم أعد إلى معرفة أي شيء إلا بعد خمسة أشهر من ذلك، عندما اتصلت بي دار نشر سيبا في بوغوتا - ولم أكن قد سمعتُ باسمها من قبل - لتقول لي إن طبعة من أربعة آلاف نسخة جاهزة للتوزيع، لكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بها، لأن أحداً لا يعرف أين هو ليزمان باوم. ولم يستطع حتى كتبة الرينورتاجات في الجريدة أن يعرفوا أي شيء عنه، ولم يجده أحد حتى شمس هذا اليوم. فعرض أوليسيس على المطبعة أن تتولى بيع النسخ للمكتبات، بالاستناد إلى الحملة الصحفية التي بدأها

هو نفسه، بمقالة لم أشكره عليها حتى الآن. كان النقد رائعا، لكن معظم الطبعة ظل في المستودع، ولم يُعرف قط، عدد النسخ التي بيعت، كما أنني لم ألتق من أحد منتافوا واحداً من حقوقي.

بعد أربع سنوات من ذلك، قام إدواردو كابييرو كالديرون، المشرف على سلسلة "المكتبة الأساسية للثقافة الكولومبية" بضم طبعة جيب من "عاصفة الأوراق" إلى مجموعة أعمال بيعت في أكشاك الشوارع، في بوغوتا ومدن أخرى. وقد دفع لي الحقوق المتفق عليها، وهي ضئيلة ولكن في موعدها المحدد، وكانت لها قيمة عاطفية لأنها أول نقود أحصل عليها مقابل كتاب. وقد تضمنت الطبعة، عندئذ، بعض التغيرات التي لم أتعرف عليها بأنها لي، ولم أهتم بعدم تضمينها في طبعات تالية. وبعد ثلاثة عشر عاماً تقريباً، عندما مررت بكولومبيا بعد إطلاق "مئة عام من العزلة" في بوغوتا، في بوغوتا، على أعداد من النسخ الميثاقية من الطبعة الأولى من "عاصفة الأوراق" يسفر بيزو واحد للنسخة. فاشترت منها كل ما استطعت حمله. ومنذ ذلك الحين، وجدت كميات أخرى متفرقة، في مكتبات متعددة في أمريكا اللاتينية، يحاولون بيعها على أنها كتب تاريخية. وقبل نحو عامين، باعت وكالة إنكليزية للمكتب القديمة، بثلاثة آلاف دولار، نسخة تحمل توقيع من الطبعة الأولى من "مئة عام من العزلة".

لم تحرفني أي واحدة من تلك الحالات، لحظة واحدة، عن انهماكي في الصحافة. فقد اضطرنا النجاح الأولي للتحقيقات الصحفية المتسلسلة، إلى البحث عن علف لتغذية وحش نهم لا يشبع. وكان التوتر

اليومي لا يُحتمل، ليس في تحديد الموضوعات والبحث عنها وحسب، وإنما كذلك في سياق كتابتها المهددة، على الدوام، بالافتتان بالخيال. ثم تكن ثمة شكوك في الاستكثار، فالمادة الأولية في المهنة يجب أن تكون الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة، وكان ذلك يقيتنا في حاله توتر دائم. وانتهى بنا الأمر، أنا وخوسيه سالغار، إلى حالة من الإدمان لا تتيح لنا لحظة سلام حتى في عطلة أيام الآحاد.

شاع في عام ١٩٥٦ أن البابا بيير الثاني عشر يعاني من نوبة فراق يمكن لها أن تكلفه حياته. وكانت الحالة المسائلة الوحيدة سابقاً التي أتذكرها، هي قصة سومرست موم الرائعة "P & O"، التي مات بطلها وسط المحيط الهندي، بنوبة فراق، قضت عليه في خمسة أيام. بينما كانت تصله من العالم بأسره، كل أنواع الوصفات الغريبة، لكنني اعتقد بأنني لم أكن أعرف القصة في ذلك الحين. لم تكن نجو، في عطلة نهاية الأسبوع، على الذهاب بعيداً في رحلاتنا إلى قرى السهب، لأن الصحيفة كانت تستعد لإصدار طبعة استثنائية خاصة إذا ما توفي البابا، وكنت أؤيد أن تكون لدينا طبعة جاهزة مسبقاً، يُنقى فيها فراغات ثمناً عند وصول أول البرقيات عن الوفاة. بعد سنتين من ذلك، وكنت قد صرحت مراسلاً في روما، كان العالم لا يزال ينتظر نهاية فراق البابا.

مشكله أخرى في الصحيفة، لم يكن هناك سبيل لمقاومتها، هي الميل إلى قصر الاهتمام على موضوعات مشيرة، يمكن لها أن تجذب مزيداً من القراء. وكان لدي ميل المتواضع بعدم فقدان جمهور آخر يفكر بالقلب فقط، ويتلقى قدر أقل من الاهتمام. وبين الموضوعات القليلة

التي تمكنت من العثور عليها، ما زلت أتذكر الريبورتاج الأكثر بساطة، والذي شدني بصورة خاطفة من خلال نافذة الحافلة. فعلى باب بيت كولونيالي يدع، في الرقم ٥٦٧ في الشارع الثامن، في بوغوتا، كان هناك إعلان يقلل من شأن نفسه: "مكتب متأخرات البريد الوطني". لا أتذكر بأنني فقدت شيئاً في تلك المتاهات، ولكنني نزلت من حافلة النرام، وطرقت الباب. الرجل الذي فتح لي كان المسؤول عن المكتب مع ستة موظفين منهجيين، يغطهم صدأ الروتين، تتمثل مهمتهم الرومانسية في العثور على من أرسلت إليه أي رسالة غير واضحة العنوان.

كان بيتنا جميلاً، ضحكاً ومغفراً، له أسقف عالية وجدران متأكلة، وممرات قاذرة ودهات مترعة بأوراق لا صاحب لها. تدخله، وسطياً، مئة رسالة متأخرة كل يوم. عشر رسائل منها على الأقل، وضعت عليها الطرايع، ولكن المغلف بقي أبيض لا يحمل حتى اسم المرسل. وكان رجال المكتب يسمونها "رسائل الرجل الخفي". ولا يتوانون عن بذل جهودهم من أجل تسليمها أو إعادة لها. لكن طقوس فتحها للبحث عن مؤشرات، كانت عملية بيروقراطية صارمة وغير مجدية، إلا أنها تستحق التقدير.

نُشر الريبورتاج على صفحة واحدة، تحت عنوان "ساعي البريد بطرق البابا ألف مرة"، مع عنوان فرعي: "مقبرة الرسائل الضائعة". وقد قال لي سالغار عندما قرأه: "لا حاجة إلى لي عبق هذه البجعة، لأنها ولدت ميتة". ونشر الريبورتاج على المساحة اللازمة له بالضبط، لا أكثر ولا أقل، ولكن كان يبدو عليه الشعور بالمرارة مثلي، لما كان يمكن للريبورتاج أن يكون عليه. أما روخيلير إتشياريا، ربما لأنه شاعر، فقد احتفى به

بمزاج طيب، وبجملة لن أنساها أبداً: "السألة هي أن غابو يتمسك حتى بمسار ساخن".

شغرت بالقنوط، فقررت أن أتولى بنفسى، وعلى مسؤوليتى - دون أن أخبر سالغار بذلك - العثوز على صاحبة رسالة استحققت منى اهتماماً خاصاً. كانت مرسله من مصحة الجذام "أغوا دي ديوس"، وموجهة إلى "سيده الحداد التي تذهب كل يوم، إلى قداس الساعة الخامسة في كنيسة لاس أغواس". بعد أن قمت بكل أنواع التحريات غير المجدية، مع كاهن الكنيسة ومساعديه، واصلت اللقاء، عدة أسابيع، مع المزمئين المواظين على قداس الخامسة، ولكن دون نتيجة. وقد فوجئت بأن أكثر رواد القداس مواظبة، كن ثلاث مستدمات في السن، يأتين دائماً بملايس حداد كاملة، ولكن لا علاقة لأي واحدة منهن بمصحة الجذام "أغوا دي ديوس". كان إخفاقاتي تطلب تجاوزه منى بعض الوقت، ليس بسبب الأمانة وحب الذات، ولا لأنى قمتُ بعمل أقرب إلى الإحسان وحسب، وإنما لأننى كنت راثقا من أن هناك، وراء قصة امرأة الحداد تلك، قصة أخرى مؤثرة.

وكلما كنت أغوص في مستنقعات الريبورتاج الصحفي، كانت علاقتى بجماعة بارانكيّا تزدهد زخماً. لم تكن رحلاتهم إلى بوغوتا كثيرة، لكنى كنت أنقضُ عليهم هائفاً في أي وقت، وحيال أي مشكلة، وبخاصة على خيرمان بازغاس، بسبب مفهومه التبريري للريبورتاج الصحفي، كنت أستشيرهم في كل مشكلة، وكانت المشاكل كثيرة، أو أنهم كانوا يتصلون بي لتهنئتي. لقد كنت أرى في ألفارو سبيدا زميلاً يجلس على الكرسي المجاور، وبعد السخريات الودية

المتبادلة التي كانت تقليداً صارماً ضمن الجماعة، كان يُخرجني من المستنقع الذي أغوص فيه، ببساطة تشير دهشتي على الدوام. أما استشاراتي مع ألفونسو فوينمايور بالمقابل، فكانت أدبية أكثر من أي شيء آخر. فقد كان يمتلك القدرة السحرية الصائبة على إنقاذ من كل ورطة، بأمثلة من كبار الكتاب، أو ليملي على اقتباساً متقدماً من ترسانة معارفه التي لا قرار لها. وكانت دعايته الكبرى، حين طلبت منه عتواناً لمقالة عن باعة الطعام في الشوارع الذين تطاردهم السلطات الصحية، فقد أفلت ألفونسو إجابته القوية:

- من يبيع الطعام لا يموت جوعاً.

شكرته من كل أعماق روحي. وبدأ لي العنوان مناسباً إلى حدٍ لم أستطع معه منع نفسى من سؤاله عن قائله. فأوقفني ألفونسو، فجأة، بالحقيقة التي لم أكن أتذكرها:

- إنها لك يا معلم.

وبالفعل، كنت قد ارتحلت تلك العبارة في زاوية صحفية دون توقيع، ولكنى نسيتها. وقد جرى تداول هذه الحكاية لستوات عديدة، بين الأصدقاء في بارانكيّا الذين لم أستطع إقناعهم بأنها لم تكن دعابة على الإطلاق.

شغلتنى لبضعة أيام، رحلة عارضة قام بها ألفارو سبيدا إلى بوغوتا، وأخرجتنى من دوامة الأخبار اليومية. جاء حاملاً فكرة إيجاز فيلم لم يكن لديه منه سوى العنوان: "الجزاة الزرقاء". كان خطأ صائباً، لأن لويس بيثينس وإنريكي غراو والمصور نيريو لوبيث أخفوا الأمر على محمل الجد. لم أعد أعرف شيئاً عن المشروع، إلى أن أرسل لي بيثينس

مسودة السيناريو لكي أضيف شيئاً فني إلى القاعدة الأصلية التي وضعها ألفارو. وقد أضفت شيئاً لم أعد أتذكره اليوم. لكن القصة بدت لي ممتعة، وتتضمن جرعة كافية من الجنون، لتبدو معها أنها من بنات أفكارنا.

لقد قدم كل واحد منا قليلاً من كل شيء، لكن أبا العمل الحقيقي، وصاحب الحق فيه، هو لويس بيشنيس الذي قرض الكثير من الأشياء. المتبقية لديه من بدايات تعلمه في باريس. أما مشكلتي، فتشملت في أنني كنت مشغولاً بأحد تلك التحقيقات الصحفية المسهية التي لا تترك لي وقتاً للتنفس. وعندما تمكنت من الانتهاء منه، كان الفيلم في أوج عملية التصوير في بارانكيا.

لقد كان عملاً بدائياً، ميزته الكبرى، كما يبدو، هي سيطرة البديهة التي ربما كانت الملاك الوصي على ألفارو سيبيدا. ففي أحد عروض الفيلم المنزلية المتعددة في بارانكيا، حضر المخرج الإيطالي انريكو فولكونوتي، وفاجأنا بمدى تعاطفه: بدا له الفيلم جيداً. ويفضل تيتا مانوتاس، زوجة ألفارو، وعنادها الحميد، جال ما تبقى من الجرادة الزرقاء العالم ليعرض في مهرجانات سينمائية جريئة.

كانت تلك الأمور تشغلنا أحياناً عن واقع البلاد، وهو واقع رهيب. لقد كانت كولومبيا تعشير خالية من رجال حرب العصابات، منذ أن استولت القوات المسلحة على السلطة، تحت راية السلام والوفاق بين الأحزاب. لم يخامر الشك أحداً في أن شيئاً تغير، إلى أن وقعت مجزرة الطلاب في الشارع السابع. فالعسكريون الجزعون، لأسباب خاصة بهم، أرادوا أن يشبهوا لنا، نحن الصحفيين، بأن هناك حرباً مختلفة عن تلك

الحرب الأولى بين الليبراليين والمحافظين، وكنا في تلك الأجواء، عندما دنا خوسيه سالغار من مكتبي، بواحدة من أفكاره المزعجة: - استعد للتعرف على الحرب.

وكنا، نحن المدعوين للتعرف عليها، دون كثير من التفاصيل، دقيقين بالحضور في الساعة الخامسة فجراً، للذهاب إلى قرية فيياريكيا، على بعد مئة وثلاثة وثمانين كيلومتراً من بوغوتا. وكان الجبال روحاً بيثياً ينظر زيارتنا، في منتصف الطريق، في إحدى استراحاته الكثيرة في قاعدة ميلغار العسكرية. وكان قد وعد بعقد مؤتمر صحفي ينتهي قبل الساعة الخامسة مساءً، مما يتيح لنا وقتاً كافياً للعودة بصور وأخبار طازجة.

كان ميعوثو التسمو هم راعيرو اندراي والمصور خيرمان كايثيدو، إضافة إلى أربعة آخرين لم أستطع تذكرهم: ودانييل رودريغيث وأنا من الاسيكنادور. بعضنا كان يرتدي ملابس الميدان، إذ جرى تنبيهنا إلى أننا قد نضطر إلى التوغل بضع خطوات في الأدغال.

ذهبتنا بالسيارة حتى ميلغار. وهناك توزعنا على ثلاث طائرات هيلوكبتر أخذتنا عبر بحر جبلي ضيق ومعزول في سلسلة الجبال الوسطى، تحيط به قمم شاهقة وحادة الحواف. وكان أكثر ما أثر بي، مع ذلك، هو توتر الطيارين الشباب الذين كانوا يتفادون مناطق معينة، أسقط فيها رجال حرب العصابات، في اليوم السابق، طائرة هيلوكبتر وأصابوا أخرى. وبعد نحو خمس عشرة دقيقة من التوتر، هبطنا في ساحة فيياريكيا الفسيحة والمقفرة، وبدا كما لو أن سجادة أرضها الترابية غير قادرة على تحمل ثقل الطائرة. كانت هناك في محيط الساحة، بيوت من

الخشب، فيها متاجر متحولة إلى أطلال، ومنازل لا يسكنها أحد، باستثناء منزل واحد حديث البناء، كان فندق القرية إلى ما قبل أن يسود الرعب.

وكانت تُلصق قبالة الهلوكيتز، المرتفعات المنخفضة الموازية لسلسلة الجبال، وسقف من التوتياء للبيت الوحيد الذي يكاد لا يرى في ضبابية السفح البعيد. وهناك، وفق ما قاله لنا الضابط المرافق، كان رجال حرب العصابات، ومعهم أسلحة قادرة على إصابتنا، ولهذا علينا أن نركض حتى الفندق بصورة متعرجة، ونحن نحني جذوعنا، كاحتياط أولي لتجنب إمكانية إصابتنا بطلقات تأتي من الجبال. ولم نكتشف أن الفندق قد تحول إلى ثكنة عسكرية، إلا بعد أن وصلنا إليه.

كان هناك عقيد بزي وأمتعة الميدان، له وشاقة فتان سينمائي، ولطف ذكي، أوضح لنا دون تهويل، بأن طبيعة رجال حرب العصابات تتواجد منذ عدة أسابيع، في ذلك البيت الذي على سلسلة الجبال، وأنهم حاولوا عدة مرات، انطلاقاً من هناك، القيام بغارات ليلية على القرية. وكان الجيش واثقاً من أنهم سينحاولون عمل شيء عندما يرون طائرات الهلوكيتز في الساحة، وكانت قوات الجيش على أهبة الاستعداد، ومع ذلك، وبعد حوالي ساعة من الاستفزازات، بما في ذلك، التحديدات التي استخدم الجيش فيها مكبرات الصوت، لم يُبدِ رجال حرب العصابات ما يشير إلى وجودهم. عندئذ أرسل الكولونيل، وقد أُصيب بالإحباط، دورية استطلاع للتأكد من أنه لا يزال هناك أحد في البيت.

خفت حدة التوتر. وخرجنا، نحن الصحفيين، من الفندق، واستطلعنا الشوارع المجاورة، بما في ذلك أقلها حماية حول الساحة. بدأنا أنا

والمصور، مع آخرين، في الصعود إلى الجبل، غير درب يقال وعمر. وعند أول منعطف، كانت هناك جماعة من الجنود المنبطحين بين الشجيرات في وضعية الرمي. نصحتنا أحد الضباط بالعودة إلى الساحة، لأنه يمكن حدوث أي شيء. لكننا لم نوله اهتماماً. فقد كان هدفنا الصعود إلى أن نلتقي بطليعة متقدمة من رجال حرب العصابات. تنقذ يومنا بخير كبير. لم يُنح لنا الوقت. فقد سُمعت فجأة عدة أوامر مشرقة، وتلا ذلك مباشرة إطلاق نار من جانب العسكريين. انبطحنا أرضاً قرب الجنود، وفتح هؤلاء النار باتجاه البيت الذي على الجبل. وفي الفوضى الآتية، غاب عن نظري المصور رودريغيث الذي أسرع للبحث عن موضع استراتيجي لآلة تصويره. استمر إطلاق النار لوقت قصير، ولكنه كان كثيفاً جداً، ثم حل بعد ذلك صمت قاتل.

كما قد رجعنا إلى الساحة، عندما رأينا دورية عسكرية تخرج من الغابة حاملة جسداً على نقالة. ولم يسمح لنا قائد الدورية الهائج بالتقاط الصور. بحثتُ بنظري عن رودريغيث، ورأيتُه يظهر على بعد خمسة أمتار إلى يميني. وآلة تصويره جاهزة لالتقاط صورة. لم تره الدورية، عندئذ عشتُ أشد اللحظات توتراً، موزعاً بين الشك في أن أصرخ به، طالباً منه عدم التقاط الصورة، خوفاً من أن يطلقوا عليه النار سهواً، وبين الغريزة المهنية لالتقاط الصورة، مهما كان الثمن. لم يُنح لي الوقت للاختيار، فقد سُمعت في تلك اللحظة نفسها، صرخة قائد الدورية المدوية:

- ممنوع التقاط هذه الصورة.

أنزل رودريغيث آلة التصوير ببطء، واقترب مني. مرّ مركب الجنود

على مقربة شديدة منا، أحسنا معها يومئذ الحرارة المنبعث من الأجساد، ونصمت الجسد الميت. وبعد أن مروا، همس رودريغيث في أذني:

- لقد التقطت الصورة.

وكان ذلك صحيحاً، لكن الصورة لم تنشر قط. وقد انتهت تلك الدعرة بكارثة. فقد كان هناك جريحان آخران بين الجنود، وقتل اثنان على الأقل من رجال حرب العصابات، سُحبت جثتاها إلى المخبأ. بذلك العقيد حالته المعنوية مبدئياً ملامح الأسى. وأخبرنا ببساطة بأن الزيارة قد ألغيت، وأن لدينا نصف ساعة لتناول الغداء، ثم العودة بعد ذلك مباشرة، إلى ميلغار عبر الطريق البري، لأن طائرات الهيلوكبتر محجوزة لنقل الجرحى والجثث. ولم يكشف عدد تلك الجثث وأولئك الجرحى قط.

لم يعد أحد إلى ذكر المؤتمر الصحفي المقرر عقده مع الجنرال روخاس بيتيا. مررنا أمام بيته في ميلغار، ونحن في سيارة جيب تتسع لستة أشخاص، ووصلنا إلى بوغوتا بعد منتصف الليل. كانت هيئة التحرير بكاملها بانتظارنا في قاعة المحررين، فقد اتصلوا بهم من مكتب الإعلام والصحافة التابع لرئاسة الجمهورية ليخبروهم، دون مزيد من التفاصيل، بأننا سنصل براً، لكنهم لم يحددوا إذا ما كنا سنصل أحياناً أم ميتين.

كان تدخل الرقابة العسكرية الوحيد، حتى ذلك الحين، هو الذي جرى عند مقتل الطلاب في وسط بوغوتا. ولم يكن هناك رقيب في قاعة التحرير، بعد أن استقال آخر رقيب للحكومة السابقة وهو يكاو ييكي. عندما لم يعد قادراً على تحمل الأخبار الزائفة ومكايد المحررين

الساخرة. كنا نعرف أن مكتب الإعلام والصحافة لم يكن يغمض عينيه عنا، وكثيراً ما كانوا يرسلون إلينا عبر الهاتف، تحذيرات ونصائح أبرية، أما العسكريون الذين أشاعوا في بداية حكومتهم، مودة أكاديمية مع الصحافة، فتحولوا إلى غير مرئيين أو متكئين. ومع ذلك، فإن طرف خبط مفلت ظل يصر وحيداً يصمت، وأشاح تأكيداً لم يُشبهه ولم ينغه أحد قط، بأن زعيم بؤرة حرب العصابات تلك، في توليما هو شاب في الثانية والعشرين، حقق شهرة في ميدانه، وأن اسمه الذي لم يستطع أحد أن ينفيه أو يؤكد هرو: مانويل مارولاندا قيليث أو بيدرو انطونيو مارين، الشهير بلقب "تيروفينجو". بعد أربعين سنة من ذلك، عندما سُئل مارولاندا عن هذه المعلومة، في معسكره الحربي، أجاب بأنه لا يتذكر في الواقع، إذا ما كان هو نفسه.

لم يكن ممكناً الحصول على خير آخر. فكنت أحاول مثلهما، أن أكتشف منذ عودتي من بياريكا، ولكنني لم أجد باباً يوصلني إليه. فقد كان مكتب الإعلام والصحافة الملحق برئاسة الجمهورية محظوراً علينا. بينما بقيت واقعة بياريكا غير السارة، تقبع مدفونة تحت التكم العسكرية. كنت أعقد آمالي على سلة المهملات، عندما ظهر خوسيه سالغار أمام منضدتي، متظاهراً ببرود أعصاب لم يمتلكه قط، وأبرز لي برفقة تلقاها للتو، وقال لي:

- ستجد هنا ما لم تره في بياريكا.

لقد كانت نأسة حشد من الأطفال الذين انتزع عنهم القوات المسلحة من قراهم وداكرهم، دون خطة مسبقة، ودون موارد لإعالجتهم، من أجل تسهيل حرب الإبادة ضد رجال حرب العصابات في توليما. لقد فصلوهم

عن آبائهم، دون أن يتاح الوقت لمعرفة أبناء من هم، ولم يكن كثيرون منهم يعرفون نطق أسمائهم. وقد بدأت الأسرة بتجميع حشد من ألف ومئتي يافع، اقتيدوا إلى قرية عديدة في من توليما، بعد زيارتنا لميلغار، وجرى إسكانهم كيفما اتفق، والتخلي عنهم بعد ذلك لرحمة الله. كان عدد الأطفال الذين انتزعوا من آبائهم لاعتبارات لوجيستية منخضة، ووزعوا على عدة ملاجئ في أنحاء البلاد، يصل إلى حوالي ثلاثة آلاف طفل، من مختلف الأعمار والظروف. ولم يكن بينهم سوى ثلاثين من أبناء الأب والأم، وبين هؤلاء، توماس لم يبق على مولدهما سوى ثلاثة عشر يوماً. وقد جرت عملية جمع الأطفال بسرعة مطلقة، في كثف الرقابة على الصحافة، إلى أن أرسل إلينا مراسل الإسيكتاور، أول الإشارات من أماليا التي تبعد مئتي كيلومتر عن بيارريكا.

عشرنا، خلال أقل من ست ساعات، على ثلاثمائة قاصر نقل أعمارهم عن خمس سنوات، في ملجأ "حماية الأطفال" في بوغوتا. وكان كثيرون منهم مجهولي الهوية. وقد تمكن هيلي رودريغيث، وكان في الثانية من عمره، من النطق باسمه بصعوبة. لم يكن يعرف شيئاً عن أي شيء، ولا أين هو موجود، أو لماذا هو موجود هناك، ولم يكن يعرف اسمي أبويه، ولم يستطع توفير أي إشارة تتيج العثور عليهما. عزاه الوحيد هو أن له الحق بالبقاء في الملجأ، إلى أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره. وكانت ميزانية الملجأ تشمل بشمانين ستافو شهرياً لكل طفل، تقدمها حكومة الإقليم المحلية. وكان عشرة من أولئك الأطفال قد هربوا خلال الأسبوع الأول، وفي نبتهم التسلل مجاناً إلى الفطارات المخرجة إلى توليما، ولم نغش لهم على أثر.

لقد أجري لكثيرين منهم تجميع إداري، فأطلقت عليهم أسماء وكنيات من تلك الشائعة في المنطقة، من أجل التمكن من تمييزهم، ولكنهم كانوا كثيرين، وشديدي التشابه والحركة، بحيث يصعب التمييز بينهم في باحة الاستراحة، ولا سيما في شهور البرد، عندما يكون عليهم تدفئة أجسادهم بالجري في الممرات وعلى السلاط. وكان مستحيلاً ألا تدفعني تلك الزيارة المؤلمة إلى التساؤل إذا ما كانت جماعة حرب العصابات التي قتلت الجندي في المعركة، قد استطاعت أن تلتحق كل ذلك الأذى بأطفال بيارريكا.

نشرت قصة تلك العملية اللوجستية الممقاة في عدة حلقات متتالية، دون استشارة أحد. احتفظت الرقابة بالصمت، ورد العسكريون بالتفسير الشائع: أحداث بيارريكا هي جزء من تحرك شيوعي واسع النطاق ضد حكومة القوات المسلحة. وهذه القوات مضطرة إلى التصرف باستخدام الوسائل الحربية. وكانت قراءة سطر واحد من ذلك البلاغ، كافية لأن تدفعني إلى التفكير في الحصول على معلومات مباشرة من غيلبيرتو فييرا، الأمين العام للحزب الشيوعي الذي لم أكن قد رأيته من قبل.

لست أتذكر إذا ما كنت قد قمت بالخطوة التالية، بتفويض من الجريدة، أم أنني فعلت ذلك بمبادرة خاصة مني. ولكنني أتذكر جيداً أنني قمت بمساع عديدة، غير مجدية، للتوصل إلى اتصال مع قيادي في الحزب الشيوعي السري، يمكنه أن يطلعني على الوضع في بيارريكا. كانت المشكلة الرئيسية التي واجهتني هي أن النظام العسكري كان يفرض حصاراً غير مسبوق على الشيوعيين السريين. عندئذ قمت

باتصالات مع صديق شيوعي. وبعد يومين من ذلك، ظهر أمام متضدتي بائع الساعات الذي كان يبحث عني ليشتاقي منى الدفعات التي لم أتمكن من دفعها في بارانكيًا. دفعت له ما استطعت دفعة، وقلت دون مبالاة إنني بحاجة إلى التحدث، بصورة مستعجلة، مع أحد قاداته الكبار؛ ولكنه رد علي بالصيغة المعروفة قائلاً إنه ليس الوسيلة لبلوغ ذلك، وليس بإمكانه أن يوصلني إلى من يمكنه تحقيق طلبي. غير أنني فوجئت في ذلك المساء بالذات، ودون إنذار مسبق، بصوت متناغم وغير قلق، يقول لي على الهاتف:

- مرحباً غابرييل، أنا غيلبرتو فييرا.

وبالرغم من أنه أحد مؤسسي الحزب الشيوعي، إلا أن فييرا لم يكن قد تعرض، حتى ذلك الحين، للحظة واحدة من النفي أو السجن. ومع ذلك، وبالرغم من إمكانية أن يكون كلا الهاتفين مراقباً، فقد أعطاني عنوان بيته السري، لكي أزوره في ذلك المساء بالذات.

كان البيت شقة مؤلفة من صالة صغيرة، مشرعة بكتب سياسية وأدبية، وغرفتي نوم في طابق سادس؛ حيث الأدراج شديدة الانتصاب ومظلمة، يصل المرء وقد فقد أنفاسه، ليس بسبب الارتفاع فقط، وإنما ليقينه بأنه يدخل إلى أحد أكثر الأماكن سرية في البلاد. كان فييرا يعيش مع زوجته سيسيليا، وابنة حديثة الولادة. ولأن الزوجة لم تكن في البيت، فقد كان يُبقي مهد الطفلة في متناول يده، ويهره هراً خفيفاً كلما علا البكاء. خلال المعارضات الطويلة التي تخللت محادثتنا، وهي محادثة سياسية وأدبية على السواء، ولكنها تخلصني إلى حد كبير من حس السخرية. كان من المستحيل تصور أن ذلك الأربعيني المتورد

والأصلع، ذا العينين الخضراوين الحادتين، والكلمات الدقيقة، هو الرجل الذي تبحث عنه الأجهزة السرية في البلاد. أكثر من أي رجل آخر. لاحظت منذ البداية، أنه كان مطلعاً على حياتي أولاً بأول، منذ أن اشتريت الساعة في جريدة إناسيونال في بارانكيًا، وكان يقرأ ريبورتاجاتي في الأسبكتادور، ويتعرف على مقالاتي التي بلا توقيع، في محاولة لاستكشاف ما تخفيه بين السطور. ومع ذلك، فقد كنت متفقاً معه على أن أفضل خدمة يمكن لي، أن أقدمها إلى البلاد، هي في حفاظي على الخط الذي أمضي فيه، دون أن أتورط مع أحد بأي نوع من الانتماء السياسي.

وما إن أتيت لي فرصة الكشف له عن سبب زيارتي، حتى دخل في الموضوع فوراً. لقد كان مطلعاً على الوضع في بياريكا، كما لو أنه موجود هناك، وهو الوضع الذي لم نستطع أن نشر عنه سطوراً واحداً بسبب الرقابة الرسمية. ومع ذلك، فقد قدم لي معطيات مهمة لفهم أن ذلك الوضع، ما هو إلا توطئة لحرب مزمنة، بعد قرن من المناوشات العابرة. وكانت مادة لغته في ذلك اليوم، وذلك المكان، تتضمن من خورخي إيسار غايغان أكثر مما تتضمن من ماركس الذي يحتفظ به قرب وسادته، من أجل التوصل إلى حل لا يبدو أنه استيلاء البروليتاريا على السلطة، وإنما هو نوع من تحالف المنيين اليانسين ضد الطليقات المهيمنة. ولم يكن الجيد في تلك المقابلة هو توضيح ما كان يجري وحسب، وإنما التعرف على منهج لفهمه بصورة أفضل. وهكذا أوضحت الأمر لكل من غيبرمو كائو وثالاميا، وتركت الباب موارباً، على أمل أن أجد في أحد الأيام، نهاية ما لذلك الريبورتاج غير المكتمل. ولا حاجة إلى القول إنني

توصلت إلى علاقة صداقة جيدة مع فييرا، مستهل اتصالنا حتى في أشد أزمته سرية فسوة.

وفي أثناء ذلك، كانت تشناقم، تحت السطح، مأساة أخرى لأناس بالغين، ما لبثت الأنباء السينة أن كشفت النقاب عنها، في شباط ١٩٥٤. عندما نُشر في الصحافة أن محارباً سابقاً، ممن شاركوا في حرب كوريا، قد رهن أوسمته لكي يأكل. لقد كان واحداً فقط، من أكثر من أربعة آلاف جندوا كبحاً اتفق، في واحدة أخرى من لحظات تاريخنا غير المعقولة، عندما كان يمكن لأي مصير أن يكون أفضل من لا شيء. في نظر الفلاحين الذين طردهم العنف الرسمي، بالرصاص، من أرضهم. لم تكن المدن المكتظة بالمبعدين عن قراهم، توفر أي بارقة أمل. لقد كانت كولومبيا، مثلما كان يتردد كل يوم تقريباً في التعليقات الافتتاحية، وفي الشوارع، والمقاهي، والأحاديث العائلية، جمهورية لا يمكن العيش فيها. فكانت الحرب الكورية في نظر الكثير من الفلاحين المبعدين، والعديد من الشبان الذين بلا أفق، هي الحل الفردي، وإليها ذهب خليط من كل نوع، دون أي تمييز محدد، اللهم إلا الحالة المسدية، وهو ما يشبه، تقريباً، الظروف التي جاء بها الإسميان لاكتشاف أميركا. ولدى عودة أولئك المجندين إلى كولومبيا، قطرة قطرة، صار لتلك الجماعة غير المتجانسة، تسمية مشتركة في نهاية المطاف: المحاربون القدماء. وكان يكفي أن يشتبك أحدهم في مشاجرة، حتى تقع جريرة سلوكه على الجميع. لقد أوصدت الأبواب في وجوههم، بالفرصة السهلة القائلة إنه لا حق لهم في العمل، لأنهم اعتبر متزنين عقلياً. ولم تكن هناك بالمقابل، دموع كافية لبكاء الكثيرين الذين رجعوا متحولين إلى ألفي رطل من الرماد.

خير المحارب الذي رهن أوسمته، بدأ مناقضاً بصورة قاسية لخير آخر، نُشر قبل عشرة شهور من ذلك، عندما رجعت آخر دفعة من أولئك المحاربين إلى البلاد، ومعهم قرابة مليون دولار نقداً، أدت لدى تحويلها في المصارف، إلى انخفاض قيمة الدولار، في كولومبيا، من ثلاثة بيزوات وثلاثين سنتافو إلى بيزوين اثنين وتسعين سنتافو. ومع ذلك، كانت سعة المحاربين تنردى أكثر كلما ازدادت مراجعتهم لواقع البلاد، فقبل عودتهم، نُشرت قصص متنوعة عن أنهم سيثقلون مثلاً خاصة لتأهيلهم في مهنة منتجة، وأنهم سيحصلون على تقاعد مدى الحياة، وتسهيلات تتيح لهم البقاء في الولايات المتحدة، والعيش فيها. ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك؛ فبعد قليل من عودتهم، جرى تسريحهم من الجيش، والشئ الوحيد الذي تبقى في جيوب الكثيرين منهم، هو صور خطيباتهم اليابانيات اللواتي يقين ينتظرنهم في معسكرات اليابان، حيث كانوا يأخذونهم للاستراحة من الحرب.

كان من المستحيل ألا تذكرني تلك المأساة الوطنية، بجدي الكولونيل ماركيز، في انتظاره الأبدى لتقاعد، كمحارب قديم، وتوصلت إلى التفكير في أن ذلك الإذلال، ما هو إلا عقوبة موجهة إلى كولونيل ناج من الحرب الدامية ضد هيمنة المحافظين. أما الناجون من حرب كوريا بالمقابل، فقد قاتلوا ضد قضية الشيوعية، ولمصلحة جشع الولايات المتحدة الإمبريالي. ومع ذلك، لم تكن أحيارهم تظهر، بعد عودتهم، في صفحة المجتمع، وإنما في صفحة الجرائم. لقد أقدم أحدهم على قتل شخصين بريئين، بإطلاق الرصاص عليهما، وقد قال للقضاة: "لقد قتلت في كوريا مئة شخص، فلماذا لا يمكنني قتل عشرة في برغوتا؟".

هذا الرجل، مثل مجرمين آخرين، كان قد وصل إلى الحرب، بعد أن جرى توقيع الهدنة. ومع ذلك، فإن كثيرين مثله كانوا ضحية جن الذكورة الكولومبي الذي تبدى في الظفر يقتل محارب سابق في كوربا. فلم تكذب قضى ثلاث سنوات على عودة الدفعة الأولى منهم، حتى تجاوز عدد من لقي، من أولئك المحاربين، مصرعه بصورة عنيفة، اثني عشر شخصاً. وقد قُتل عدد منهم، لأسباب مختلفة، في مشاجرات تافهة بعد وقت قصير من عودتهم. فقد مات أحدهم مطعوناً في مشاجرة لأنه كرر الأغنية نفسها، عدة مرات، في صندوق الموسيقى في إحدى الحانات، أما الرقيب كانشور الذي شُرك اسمه بالغناء والعزف على الجيتار، في استراحات الحرب، فمات مقتولاً بالرصاص بعد أسابيع من عودته. ومات محارب آخر، طعناً بسكين أيضاً، في بوغوتا، وقد اضطر الجيران، من أجل دفنه، إلى جمع التبرعات فيما بينهم. والمحارب آنخل فاييو غوس الذي فقد عيناً وذراعاً في الحرب، قتله ثلاثة مجهولين، لم يلق القبض عليهم قط.

أتذكر - كما لو أن ذلك حدث يوم أمس - أنني كنت أكتب الفصل الأخير من سلسلة التحقيقات تلك عن المعارين القدماء، عندما رنّ الهاتف على مكثبي، وتعرفتُ فوراً، على صوت مارتينا فونسيكا المشرق.

- آلو؟

تركتُ المقال في منتصف الصفحة، بسبب طغرات قلبي، واجترت الشارع لألتقي بها في فندق كوتشينال، بعد اثنتي عشرة سنة دون رؤيتها. لم يكن من السهل التعرف عليها، من الباب، وهي بين النساء.

الأخريات اللواتي يتناولن الغداء في قاعة الطعام المزدحمة، لو لم نومي لي هي نفسها، يقفازها. كانت ترتدي ملابسها بذوقها الشخصي المعهود: معطف من زمن سابق، وفرو ثعلب ذافر على كتفها، وقبعة صياد. وقد بدأت السنون تُلحظ بوضوح على بشرة الخوخ، المتأثرة بالشمس، والعينين المتفتحتين. وبدت متضائلة بأول ملامح شيخوخة جائرة. كان لا بد لكلينا أن يدرك أن اثنتي عشرة سنة ليست بالأمر القليل في مثل سنّها، ولكننا تحملناها على أحسن وجه. لقد حاولتُ تصيغ آثارها، خلال سنواتي الأولى في بارانكيا، إلى أن عرفت أنها تعيش في بنما، حيث صار قبطانها يعمل دليلاً لتوجيه السفن في القناة. ولم يكن تطرقي لهذه النقطة بدافع المفارقة، وإنما التحجل.

أظن أنها كانت قد تناولت الغداء مع أحد تركها وحيدة، لتلتقي بي على أفراد. تناولنا ثلاثة فتاجين قهوة قاتلة، ودخنا معاً نصف علبة سجائر ثقيلة، باحثين، بالتمس، عن طريق لتبادل الحديث دون كلام، إلى أن تجرأت هي على سؤالي إذا ما كنت قد فكرتُ فيها يوماً. وعندئذ فقط أخبرتها بالحقيقة: لم أنسها قط، إلا أن وداعها لي كان قاسياً، بحيث يدلّ طريقتي في الوجود، وكانت هي أكثر رحمة مني: - لا يمكنني أن أنسى أبداً أنك كنت مثل ابن بالنسبة لي.

كانت قد قرأت مقالتي الصحفية، ونقصني القصيرة، وروايتي الوحيدة، وحدثتني عن كل ذلك بعيد نظر لا يخلو من فطنة وصرامة. ولا يمكن أن يكون الدافع إليه إلا الحب أو الحقد، أما أنا فلم أفعل شيئاً، مع ذلك، سوى تجنب أحابيل الحنين، بذلك الجبن الحسب الذي لا يقدر عليه غيرنا نحن الرجال. وعندما تمكنتُ أخيراً من تخفيف التوتر، تجرأت على

مؤالها عما إذا كانت قد ألحيت الابن الذي كانت ترغب فيه. فقالت بسعادة:

- لقد وكذا، وهو ينهي الآن المرحلة الابتدائية.

فسألته بالسكنة التي تميز الغيرة:

- وهل هو أسود مثل أبيه؟

فلجأت هي إلى حسن حسنها الدائم، وقالت: "بل أبيض مثل أمه.

أما أبوه فلم يكن من البيت، مثلما كنتُ أخشى، وإنما هو شخص أقرب إليّ، وحيال اختناقي الواضح، أكدت لي ظنوني، وهي تبسم قائلة:

- لا تقلق: إنه منه. وكذلك ابنتان متشابهتان، كما لو أنهما واحدة.

أيدت سعادتها لجيشي، واستوقفتني ببعض الذكريات التي لا علاقة لي بها. وراودني غرور التفكير في أنها تنتظر مني رداً أكثر حميمية، غير أنني، مثل كل الرجال، أخطأتُ أيضاً في الزمان والمكان. نظرت إلى ساعة يدها، عندما طلبتُ القهوة، للمرة الرابعة، وعلى سحائر أخرى، ونهضت واقفة دون مقدمات.

- حسن يا صغيري، أشعر بالسعادة لأنني رأيته. - قالت ذلك، ثم أنهت كلامها: - لم أكن قادرة على تحمل قراءة كتاباتك دون أن أعرف كيف صرت الآن.

فتجراتُ على مؤالها:

- وكيف أنا الآن؟

ضجكت من أعماق روحها:

- آه، لا هذا لن تعرفه أبداً.

عندما استعدت أنفاسي قبالة الكاتبة فقط، انتبهت إلى مدى اللهجة التي كانت تسيطر عليّ دوماً لرؤيتها، وإلى الرعب الذي منعني من البقاء معها طوال ما تبقى من حياتنا. إنه الرعب الباعث على الكاتبة نفسه الذي عدت إلى الإحساس به، مرات كثيرة، كلما رن الهاتف، منذ ذلك اليوم.

بدأ رأس سنة ١٩٥٥، بالنسبة للصحفيين، في الثامن والعشرين من شباط، بخير يقول إن ثمانية بحارة من المدمرة كالداس التابعة للأسطول الوطني، قد سقطوا في البحر، واختفوا خلال عاصفة، حين لم يكن قد تبقى سوى أقل من ساعتين للوصول المدمرة إلى كارتاخينا. وكانت قد أبحرت قبل أربعة أيام من موبيل، في ألاباما، بعد أن أمضت عدة شهور هناك، من أجل إصلاحات روتينية.

بينما كانت هيئة التحرير بكاملها تستمع بصمت إلى التقرير الإذاعي الأول عن الكارثة، استدار غييرمو كانوا، في كرسيه الدوار باتجاهي، وبقي ينظر إليّ، وهو يوشك أن يصدر أمراً على طرف لسانه، وتوقفاً خروسيه بالغار أيضاً، وهو في طريقه إلى المشغل، قبالي بأعصاب ضلّها الخبر. كنتُ قد رجعت قبل ساعة من ذلك من بارانكيا، حيث أعددت تقريراً حول الدراما الأبدية في بوكاس دي ثينيشا، وقد بدأت أتساءل مرة أخرى عن الساعة التي تقلع بها الطائرة التالية إلى منطقة الساحل، لكي أكتب باكورة تحقيقاتي عن الغرقى الشمانية. ومع ذلك، سرعان ما تبين، في التقرير الإذاعي، أن المدمرة ستصل إلى كارتاخينا في الساعة الثالثة بعد الظهر، دون أي أخبار جديدة؛ ذلك أنهم لم يتمكنوا من العثور على البحارة الشمانية الغرقى، فخاب أمل غييرمو كانوا، وقال:

- يا للخيبة يا غابو. لقد راحت علينا.

اخترلت الكارثة إلى سلسلة من البيانات الرسمية، وأحيطت الأخبار بالتكريم الصارم للشهداء الذين سقطوا أثناء الخدمة، ولا شيء سوى ذلك. غير أن البحرية كشفت النقاب، في أواخر ذلك الأسبوع، عن أن واحداً منهم، ويدعى لويس أليخاندرو بيلاسكو، قد وصل منهوكة إلى شاطئ في منطقة أورابا، مصاباً بضربة شمس؛ ولكن بالإمكان إنقاذه، بعد أن أمضى عشرة أيام تتقاذفه الأمواج، بلا طعام ولا شراب، في طوف دون مجاديف. وقد اتفق رأينا جميعاً على أنه يمكن له أن يكون ريبورتاج السنة، إذا ما قبض لنا الاستفراد به، ولو لنصف ساعة.

لم يكن ذلك ممكناً. فقد أبقته البحرية معزولاً، دون اتصال، وربما يستعيد عافيته، في مستشفى البحرية في كارتاخينا. وهناك التقى به، للحظات غابرة، محرر ماكر من جريدة إل تيمبير، هو أنطونيو موتاشيا الذي تسلل إلى المستشفى متنكراً كطبيب، ومع ذلك، وبالنظر إلى النتائج، فإنه لم يحصل من الناجي من الغرق إلا على بعض الرسوم، بقلم الرصاص، حول المكان الذي كان فيه عندما طوحت به العاصفة، وبعض التصريحات غير المترابطة، اتضح منها أن لديه أوامر بالآل بروي حكايات، وقد صرح بيلاسكو بعد أيام من ذلك: "لو كنت أعرف أنه ضحني لساعدته". وبعد أن استعاد عافيته، وكان لا يزال في كنف البحرية، وافق على إجراء مقابلة مع لائيس أوروثكو، مراسل الاسبيكتادور في كارتاخينا، الذي لم يستطع الوصول إلى ما نرغب في معرفته، عن كيف أمكن لهبة ربح أن تسبب مثل تلك الكارثة التي أدت إلى موت سبعة بحارة.

وبالفعل، كان لويس أليخاندرو بيلاسكو خاضعاً لالتزام جديدي، يمنعه من التحرك أو التعبير بحرية، حتى بعد أن نقلوه إلى بيت أبويه في بوغوتا. وكان الملازم غييرمو فونسيكا يتولى الرد، بتودد حميم ومتقن، على أي تساؤل تقني أو سياسي يخطر لنا، ولكنه كان يتجنب، بالتهذيب نفسه، أية معلومات جوهرية حول الشيء الوحيد الذي كان يهمنا آنذاك: حقيقة تلك المغامرة، ومن أجل كسب الوقت فقط، كتبت سلسلة تعليقات عن أجواء عودة الناجي من الغرق إلى بيت أبويه، عندما متعني رفاقه في الزي، مرة أخرى، من التحدث إليه، بينما كانوا يسمحون له بمقابلة وحيدة مع إذاعة محلية، بدأ واضحاً عندئذ، أننا بين أيدي أساتذة في فنون تيريد الحير. وهزنتي لأول مرة، فكرة أنهم يخفون عن الرأي العام شيئاً خطيراً بشأن الكارثة. وأنا أتذكر الآن ذلك اليوم، كما لو أنه نبوءة أكثر منه ارتياباً.

كان شهر آذار بعصف برياح جليدية، وكان رذاذ المطر المختلط بالغبار يزيد من شحنة إحساسي بتأنيب الضمير. وقيل أن أواجه قاعة التحرير، وأنا مشغل بالهزيمة، التجأت إلى فندق كونتيننتال المجاور، وطلبت كأساً مضاعفة عند كونتواز البار المقفر، كتئت أتناول الشراب في رشقات بطيئة، دون أن أخلع معطفي السميك، عندما سمعت صوتاً عذياً يقول في أذني تقريباً:

- من يشرب وحيداً يموت وحيداً.

- فليستجب الله لقولك يا جميلتي - أحببها وروحي بين شفتي، مقتنعاً بأنها مارتينا فونسيكا.

خلف الصوت في الهواء، أثر أزهار ناردين دافئة، ولكنها لم تكن

هي. رأيتها تخرج من الباب الدوار، وتختفي بظلتها الصفراء التي لا تُشسى، في الشارع الملطخ برذاذ المطر الموحل. وبعد أن تناولت كأساً أخرى. اجتزت الشارع بدوري، ووصلت إلى قاعة التحرير في الجريدة، مستنداً إلى قوة الكأسين الأولين. رأيي غيرممو كانوا. وأنا أدخل، فأطلق صرخة بهجة موجهة إلى الجميع:

- فلتر أي خير يحمله إلينا غابو العظيم

فأجبت بالحقيقة:

- لا شيء. أكثر من سكة ميتة.

وانتهت، عندئذ، إلى أن دعايات المحررين القاسية، قد تحولت إلى التودد، عندما رأوني أمر بصمت وأنا أخرج معظفي المبلل. ولم يطاوع قلب أحد منهم البدء بالسخرية المعهودة.

واصل لويس أليخاندرو بيلاسكو التمتع بأمجاد المصنوعة. فلم يسمح له وجهه بالانغماس في كل أنواع الضلال الدعائي فقط، بل وفروا له الرعاية في ذلك، فقد تلقى خمسمئة دولار وساعة جديدة، مقابل تحديثه في الإذاعة عن حقيقة تحمل ساعة معصمه قسوة الأحوال الجوية العاتية، ودفع له مصنع للأحذية الرياضية، ألف دولار لكي يتحدث عن متانة خذائه الذي لم يستطع تزيقه ليلهي جوعه بمضغ قطعة منه. وكان يلقي في أحد الاحتفالات، خطبة وطنية، ويسمح للملكة جمال بأن تقبله، ويُعرض على الأيتام، باعتباره نموذجاً ومثالاً للأخلاق الوطنية. وكنت قد بدأت بنسيانه في اليوم التاريخي الذي أخبرني فيه غيرممو كانوا بأنه موجود في مكتبه، وأنه مستعد لتوقيع عقد لكي يروي مغامرته كاملة. أحسست بالمذلة والإهانة. وقلت بإصرار:

- لم يعد الآن سكة ميتة، وإنما متعفة.

وزفقت، لأول مرة، القيام بعمل للصحيفة، وهو من صلب واجبي. استسلم غيرممو كانوا للواقع، وصرف الناجي من الغرق دون أي تفسير. وقد أخبرني فيما بعد، بأنه بعد أن ودعه في مكتبه، بدأ يفكر في الأمر، ولم يستطع أن يفسر لنفسه ما الذي فعله. عندئذ أمر البواب بأن يعيد إليه الناجي من الغرق. ثم اتصل بي هاتفياً لتبليغي، بقرار لا يقبل الاستئناف، بأنه قد اشترى الحقوق الحصرية للقصة الكاملة.

لم تكن تلك هي المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة، التي يصرف فيها غيرممو على قضية خاسرة تنتهي في آخر الأمر، إلى إظهار أنه على حق. نيهته بضيق، ولكن بأفضل أسلوب ممكن، إلى أنني سألتجئ الريبورتاج، انصياعاً لواجبي في العمل فقط، ولكنني لن أوقعه باسمي. ودون أن أكون قد فكرت في الأمر، خرج مني ذلك القرار بصورة تلقائية عارضة، ولكنه كان صائباً من أجل الريبورتاج؛ إذ إنه يضطرنني إلى رواية القصة على لسان المتكلم البطل، بأسلوبه الخاص وبأفكاره الشخصية، وثوق الريبورتاج باسمه. هذا يعني أن التحقيق الصحفي سيكون فنولوجياً داخلياً عن مغامرة فردية، بكل معنى الكلمة، مثلما جرت في الحياة. لقد كان قراراً إعجازياً، إذ تكشف بيلاسكو عن رجل ذكي، ذي حساسية وتهذب لا يُنسيان، ويتمتع بحس سخرية في الوقت والمكان المناسبين. وكل هذا خاضع، لحسن الحظ، لشخصية متماسكة بلا شروخ.

كانت المقابلة طويلة، دقيقة، استغرقت ثلاثة أسابيع كاملة ومتعبة. وقد أجريتها وأنا أعرف أنها لن تُنشر كمادة خام، وإنما ستطهى في قدر

ثانية: قدر الرينورتاج الصحفي، بدأتها يقليل من سوء النية، محاولاً دفع الناجي من الغرق إلى الوقوع في تناقض، لكي أكتشف حقائقه المستترة. ولكنني سرعان ما تأكدت من أنه ليس لديه ما هو مستتر. لم أضطر إلى الضغط عليه. وبدا لي الأمر كما لو أنني أُنشئ في مرج من الزهور، مع قمتي بطلق الحرية في اختيار ما أفضله منها. كان بيلاسكو دقيقاً في المجيء إلى موعد اللقاء، الساعة الثالثة مساءً، في مكتبي في قسم التحرير؛ فراجع معاً الملاحظات السابقة، ونواصل تتبع خيط الأحداث وفق تسلسلها الزمني. وكل فصل يروي لي، أقوم أنا بكتابته في الليل، ونُشر في مساء اليوم التالي. لقد كان من الأسهل والأضمن، كشابة المغامرة بكاملها أولاً، ثم نشرها بعد ذلك، متقنة، بكل تفاصيلها الموثقة تماماً. ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت. فقد كان الموضوع يفقد آتيته في كل لحظة، ويمكن لأي خبر صاحب آخر أن يفرضه.

لم نكن نستخدم آلة تسجيل، لأن آلات التسجيل كانت قد اخترعت حديثاً. والجيدة منها كبيرة الحجم وثقيلة كأنها آلة كاتبة، وشريرتها الممغنط يتشابك مثل جلوى "غزل البنات". وكان تفريغ التسجيل بعد ذاته مأسرة. وبالرغم من أننا نعرف اليوم أن آلات التسجيل مفيدة جداً للتذكر، إلا أنه يجب عدم التخلي أبداً عن الاهتمام بلامع وجه من نقابله؛ إذ يمكن لها أن تعبر أكثر من الصوت بكثير، والعكس بالعكس أحياناً. كان عليّ أن أكتفي بالأسلوب التقليدي في تدوين ملاحظات على دفتر مدرسي. ولكنني بفضل هذا الأسلوب، لم أضيع، على ما أعتقد، كلمة واحدة، ولا أي نبرة من المحادثة. واستطعت

التعمق بصورة أفضل في كل خطوة. لقد واجهنا صعوبة في اليومين الأولين، لأن الناجي من الغرق أراد أن يروي كل الأشياء معاً. ومع ذلك، فقد تعلم بسرعة كبيرة، من خلال ترتيب أسئلتي ومداها، وكذلك من غريزته الخاصة كراي، ومن السهولة الفطرية التي يتمتع بها في فهم جرفية المهنة.

ولكنني نهيت القارئ، قبل أن تلقى به إلى الماء، قررنا بدء القصة من الأيام الأخيرة التي أمضاها البحار في مريبيل. كما اتفقنا كذلك، على ألا تنتهي القصة عند لحظة بلوغه اليابسة، وإنما عند وصوله إلى كارتاخينا، وسط هتافات الحشود. وهي النقطة التي يمكن للقراء منها، متابعة خيط القصة التالي بأنفسهم، من خلال المعلومات المنشورة مسبقاً. وكان ذلك يتيح لنا كتابة أربعة عشر فصلاً للحفظ على التشويق طوال أسبوعين.

نُشر الفصل الأول في الخامس من نيسان ١٩٥٥. وقد نفذت طبعة الاسبيكتادور، وكان قد أعلن عنها في الإذاعة، خلال ساعات قليلة. وفي اليوم الثالث، طُرحت العقدة المتفجرة، عندما قررنا كشف السبب الحقيقي للكارثة، بعد أن كانت الرواية الرسمية تدعي أنه عاصفة. ففي أثناء بحثي عن تفاصيل محددة وأكثر دقة، طلبت من بيلاسكو أن يروي ما جرى بكل تفاصيله. وكان قد تألف عندئذ مع منتهجنا المشترك، فلمحتُ في عينيه وميض خبث قبل أن يجيبني:

- المشكلة هي أنه لم تكن هناك عاصفة.

ما حدث - قال محدداً - هو عشرون ساعة من الرياح القوية. وهي رياح معروفة في المنطقة، خلال تلك الفترة من السنة. ولكن المسؤولين

عن الرحلة لم يأخذوها في الاعتبار. كان البحارة قد تلقوا روايتهم عدة شهور متأخرة قبل الإبحار، فأنفقوها في آخر لحظة، بشراء كل أنواع الأجهزة المنزلية، لحملها إلى بيوتهم. وكان الأمر مرجحاً إلى حد أن أحداً لم يعترض عندما تجاوزت الحمولة الأماكن الداخلية الشاغرة في السفينة، وربطوا على السطح الصناديق الكبيرة: ثلاثيات، شمسالات كهربائية، مدافئ، وهي حمولة متنوعة في سفينة حربية، وفي أماكن شغلت مساحات حيوية من السطح. ربما جرى التفكير في أنه يجب عدم التعامل بصرامة مبالغ فيها، ما دامت الرحلة ليست ذات طابع رسمي، ومدتها أقل من أربعة أيام، ووسط تنبؤات جوية محسنة. كم من المرات فعلوا مثل ذلك، وما زالوا يفعلونه دون أن يحدث أي شيء؟ وكان سوء حظ الجميع هو أن رياحاً أقوى قليلاً من التنبؤات، حركت البحر تحت شمس رائعة، فأما السفينة أكثر مما هو متوقع بكثير، وتقطعت أحزمة تثبيت الحمولة سيئة التثبيت، ولو لم تكن السفينة متينة مثلما هي "كاليداس"، لغاصت بكاملها إلى الأعماق دون رحمة، ولكن ثمانية من بحارة الحراسة على السطح، سقطوا عن الحافة، وهكذا فإن السبب الرئيسي للحادث، لم يكن عاصفة، مثلما أضرمت المصادر الرسمية منذ اليوم الأول، بل ما صرح به بيلاسكو في ريبورتاجه: الحمولة الزائدة من الأجهزة المنزلية سيئة التثبيت، على سطح سفينة حربية.

كان هناك أمر آخر احتُفظ به تحت الطاولة، ألا وهو نوع الأطواف التي كانت في متناول يد من سقطوا في البحر، الذين لم ينج منهم سوى بيلاسكو. من المفروض أن يكون في السفينة نوعان من الأطواف النظامية، وأن تكون قد سقطت معهم. أطواف من الفلين وقماش الخيام،

طول الواحد منها متران، وعرضه متر ونصف، في منتصفه سطح آمن ومزود بمؤونة، وماء للشرب، ومجاديف، وعلية إسعافات أولية، وأدوات صيد وملاحة، ونسخة من الكتاب المقدس، ويمكن في هذه الحالة لعشرة أشخاص البقاء على متنها طوال ثمانية أيام، حتى دون أدوات الصيد. ومع ذلك، فقد كان على متن السفينة "كاليداس"، فوق ذلك، حمولة من الأطواف الصغرى، غير المزودة بأي مؤونة. وقد تبين من خلال أحداث بيلاسكو أن طوفه كان خالياً من أية وسائل أو مؤن. والسؤال الذي بقي دون جواب إلى الأبد، هو كم من الغرقى تمكنوا من الإمساك بأطواف أخرى لم توصلهم إلى أي مكان.

لقد كانت هذه هي، دون شك، الأسباب الأكثر أهمية التي أخرجت التوضيحات الرسمية لحادثة الغرق. إلى أن تبينوا أنه لا بد من تقديم توضيح، لأن بقية أفراد طاقم السفينة صاروا في بيوتهم. وهم يروون القصة في كل أنحاء البلاد. أضرمت الحكومة حتى النهاية، على روايتها عن العاصفة، وأضفت عليها طابعاً رسمياً في تصريحات حاسمة، تضمنتها بيان رسمي. لم يبلغ الأمر بالرقابة، حد حظر نشر الفصول المتبقية. وقد حافظ بيلاسكو من جانبه، إلى المدى الذي استطاعه، على غموض موال. ولم يعرف قط إذا ما كانوا قد ضغطوا عليه كيلا يكشف الحقائق. كما أنه لم يطلب منا ولم يمنعنا من الكشف عنها.

بعد الفصل الخامس، جرى التفكير في إصدار طبعة إضافية للفصول الأربعة الأولى، استجابة لطلب القراء الراغبين في جمع فصول القصة كاملة. أما دون غابرييل كانو الذي لم تكن قد رأيناه في قاعة التحرير، خلال أيام العمل المحموم تلك، فقد نزل من عرش جمانمة، وجاء مباشرة إلى حيث منضدتي ليسالتي:

- قل لي يا سمير: من كم فصل ستكون قصة الغريق؟

كنا قد وصلنا إلى الحديث عن اليوم السابع، عندما أكل بيلاسكو بطاقة تعريف كان يحملها، لأنها الطعام الوحيد المتوفر له، ولم يستطع تزنيق حذائه بأستائه ليحصل على شيء يفضغه، أي أن ما تبقى لنا هو سبعة فصول أخرى، فاستذكر دون غابرييل ذلك، وقال بتشجيع:

- لا يا سمير، لا، يجب أن تكون القصة من خمسين فصلاً على الأقل.

قدمتُ إليه حججتي، لكن حججه كانت تستند إلى أن مبيعات الجريدة على وشك أن تنضاعف، ويمكن لها حسب تقديراته أن تبلغ رقماً لا سابق له في الصحافة المحلية، لتحل اجتماعاً للهيئة التحرير، ودُرست التفاصيل الاقتصادية، والفنية، والصحافية، وتم الاتفاق على حد معقول من عشرين فصلاً، أي بإضافة ستة فصول إلى ما كان مقرراً.

على الرغم من أن توقعي لم يكن يرد في الفصول المطبوعة، إلا أن منهج العمل المتبع كان قد شاع وانتشر، وفي إحدى الليالي، حين ذهبت لإلحجاز واجبي كناقد سينمائي، جرت في بهو صالة السينما مناقشة حامية حول قصة الناجي من الغرق، وكان معظم المتحاورين أصدقاء، ممن أتبادل وإياهم الرأي من أجل مقالتي النقدي السينمائي، بعد العروض السينمائية. كانت آراؤهم تساعدني في توضيح آرائني من أجل مقالتي النقدية الأسبوعية. وبالنسبة لقصة الغريق، كانت هناك رغبة عامة - مع استثناءات قليلة جداً - في إطالة القصة أكثر مما يمكن.

وأحد تلك الاستثناءات كان رجلاً ناضجاً ومهيباً، يرتدي معطفاً بديعاً من وبر الجمال، ويعتصر قبعة من اللبد، لحق بي حوالي أربع

كوادرات من المسرح، بينما أنا راجع بمفردي إلى الجريدة، كانت تراققه امرأة باهرة الجمال، ترتدي ملابس لا تقل بذخاً عن ملابسها، ومعها صديق أقل منها تأنقاً، خلع قبعته ليحسني، وقدم نفسه باسم لم ألتقطه منه. ثم قال لي، دون مواربة، إنه لا يستطيع أن يوافق على الربور تاج عن الغريق، لأنه بمالأة مكشوفة للشيوعية، فأوضحت له دون كبير مبالغة، أنني لست سوى ناقل القصة التي يرويها بطلها نفسه، ولكن كانت لدى الرجل أفكاره الخاصة. وكان يرى أن بيلاسكو ليس سوى متسلل إلى القوات المسلحة، لخدمة الاتحاد السوفيتي. خمنتُ عندئذ بأنني أتحدث مع ضابط كبير من الجيش أو البحرية، واستشارتني فكرة الحصول على توضيح منه. ولكنه كان يريد، كما يبدو، أن يقول لي ذلك وحسب. وقد أضاف:

- أنا لا أعرف إذا ما كنتَ تفعل هذا، برعي أم دون وعي، ولكن مهما يكن الأمر، فإنك تسيء إلى البلاد، لمصلحة الشيوعيين. أوصات زوجته المبهرة بإمالة دعري، وحاولت اقتياده من ذراعه، متوسلة بصوت خافت جداً: "أرجوك يا روكيليو"، قأنهى هو كلامه بالتهذيب نفسه الذي بدأ به:

- أرجوك أن تصدق بأنني أسمع لنفسي بقول هذا، تقديراً مني لكاتبك.

كانت تلك أول حادثة من سلسلة حوادث دفعتنا إلى التفكير، جدياً، بأخطار الشارع، ففي حانة بالسة وراء مكاتب الجريدة، يرتادها حتى الفجر، عمال من الحي، حاول شخصان مجهولان قبل يومين من ذلك، الاعتداء دون سبب، على غوثالو غوثالث حين كان يتناول هناك

فنجان قهوته الأخير، في تلك الليلة. لم يستطع أحد أن يتصور الأسباب التي دفعتهم إلى التهجم على الرجل المسالم أكثر من كل الرجال المسالمين في العالم، إلا كونهم أخطؤوا به معتقدين أنه أنا، بسبب تشابه أسلوبنا ومظهرنا الكاريبي، وتكرر حرف الـ "غ" في اسمه المستعار "غوغ". وقد تبهني أمن الصحافة على أي حال، إلى أنه عليّ عدم الخروج وجيلاً في الليل، في مدينة كانت تصبح أكثر فأكثر خطراً. غير أنني، على خلاف ذلك، كنت أجد طمأنينة في الذهاب ماشياً إلى شقتي، بعد انتهاء عملي في الجريدة.

في فجر أحد أيام الثور تلك، أحسست بأن ساعتني قد أزقت حين تساقط فتات زجاج سببته طوبة ألقيت من الشارع، على نافذة غرفة نومي. كان الفاعل هو ألبخاندرو أوريغون، فقد أضاع مفاتيح بيته، ولم يجد أصدقاء مستيقظين أو مكاناً شاغراً في أي فندق. وبعد أن تعب من البحث عن مكان ينام فيه، ومن قرع جرس شقتي المعطل، حلّ أمر ليلته تلك بقطعة آجر من ورشة البناء المجاورة. وعندما فتحت له الباب، اكتفى بتوجيه تحية سريعة إليّ، كيلاً يوقظني تماماً، ثم استلقى على الأرض العارية لينام حتى الظهيرة.

كان الازدحام لشراء الجريدة، عند أبواب الاسبيكتادور، قبل أن تخرج إلى الشارع، يتزايد أكثر فأكثر. وكان الموظفون في مركز المدينة التجاري يتأخرون، في الذهاب إلى بيوتهم، بعد خروجهم من العمل، لكي يشتروا الجريدة ويقرؤوا الفصل اليومي في الحافلات. وأظن أن اهتمام القراء بدأ لأسباب إنسانية، واستمر لأسباب أدبية، ثم لاعتبارات سياسية في النهاية. ولكنه كان يستند على الدوام، إلى زخم القصة

الداخلي. لقد روى لي بيلاسكو مقاطع راودني الشك في أنه اختلقها، وعشر على معان رمزية أو عاطفية لبعض الوقائع، كما هو شأن طائر النورس الأول الذي لم يشأ الابتعاد عنه، وكانت واقعة الطائرات التي راح يحضنها، ذات جمال سينمائي خالص. لقد سألتني أحد الأصدقاء كيف أمكن لي أن أعرف عالم البحر، بكل تلك الدقة، فأجبت بآثني لم أفعل أكثر من استنساخ ملاحظات بيلاسكو حرفياً. وابتداءً من نقطة معينة، لم أعد مضطراً إلى إضافة شيء لما يرويه.

قيادة البحرية لم تكن تتمتع بالمزاج نفسه، فقبل قليل من انتهاء الحلقات، وجهت إلى الصحافة رسالة احتجاج، لأنها تعاملت بشيء من المتوسّطة، وبصورة قليلة التهذب، مع مسألة يمكن لها أن تحدث في أي مكان تعمل فيه وحدات بحرية. وجاء في الرسالة: "على الرغم من الحداد والحزن اللذين يلقيان سبعة بيوت كولومبية، ورجال الأسطول كلهم، لم تتورع الجريدة عن التعادي إلى حد نشر قصة سلسلة لكتاب مبتدئين في الموضوع، تفص بكلمات ومنطلحات تخلو من الدقة التقنيّة والمنطقية، وتوضع على لسان البحار المحظوظ والمجدير الذي استطاع إنقاذ حياته بشجاعة" ولهذا السبب طالبت قيادة الأسطول بتدخل مكتب الإعلام والصحافة في رئاسة الجمهورية، لكي يوقف - بمساعدة ضابط بحري - ما يُنشر عن الحادث في المستقبل. ولحسن الحظ أننا كنا قد وصلنا، عند تلقي الرسالة، إلى الفصل ما قبل الأخير، فتظاهرتنا بعدم معرفتنا بأمرها حتى الأسبوع التالي.

ولجئاً لإمكانية نشر النص كاملاً بصورة نهائية، كنا قد طلبنا من الناجي من الغرق أن يساعدنا بتقديم قائمة من الصور التي التقطوها

خلال الرحلة. كانت هناك صور من كل نوع، ولكن معظمها لجماعات على سطح السفينة. وفي خلفيتها تظهر صناديق الأدوات المنزلية - ثلاجات، مدافن، غسالات - وعليها ماركة الشركات الصانعة بصورة واضحة. فكانت ضربة الحظ هذه كافية لتكذيب التكذيبات الرسمية. كان رد فعل الحكومة فوراً وحاسماً، وقد تجاوز توزيع الملحق كل التوقعات، وكل الطباعات السابقة. غير أنه لم يورق غيسيرمو كانو وخوسيه سلغار، المتهمين، سوى سؤال واحد:

- والآن، أي لعنة يمكننا عملها؟

في لحظة دوار المجد تلك، لم يكن لدينا جواب على التساؤل. فكل الموضوعات هدت لنا نافذة.

بعد خمس عشرة سنة من نشر القصة في الأسبيكنادور، قامت دار نشر توسكيستس في برشلونة بإصدارها في كتاب ذي غلاف مُذهب، بيع كما لو أنه مادة للأكل. ويوحى من إحساسي بالعدالة، وتقديراً مني للبحار البطل، كتبتُ في نهاية المقدمة: "هناك كتب ليست لمن يكتبها، وإنما هي لمن يعانها. وهذا الكتاب هو واحد منها. وبالتالي فإن حقوق المؤلف ستكون لمن يستحقها: مواطني المجهول الذي كان عليه أن يعاني على طول، طوال عشرة أيام، دون أن يأكل أو يشرب، لكي يكون هذا الكتاب ممكناً".

لم تكن عبارة في الفراغ، إذ قامت دار النشر توسكيستس، وشوحيه مني، بدفع حقوق الكتاب كاملة إلى لويس أليخاندرو بيلاسكو، طوال ثلاث عشرة سنة، إلى أن أقتعه المحامي غيسيرمو ثيّا فيرنانديث، في بوغوتا، بأن حقوق المؤلف هي من حقه قانونياً، مع أنها لم تكن كذلك، إلا بقرار مني، تقديراً لبطولته، وموهبته في السرد، وصداقته.

رُفعت الدعوى ضدي في محكمة الجزاء المدنية الثانية والعشرين، في دائرة بوغوتا القضائية. عندئذ أصدر محامي وصديقي ألفونسو غوميث مينديث الأمر إلى دار نشر توسكيستس، بحذف الفقرة الأخيرة من المقدمة في الطباعات التالية، وعدم دقّ ستيفانو واحد من حقوق المؤلف إلى خوسيه أليخاندرو بيلاسكو، إلى أن يحسم العدالة الأمر. وكان هذا ما حدث. فبعد مداولات طويلة، تضمنت أدلة وثائقية، وتقنية، وشهادات، قررت المحكمة أن مؤلف العمل الوحيد هو أنا، ولم تستجب للدعوى التي رفعها محامي بيلاسكو. وبالتالي، لم تعتبر الدفوعات التي تقاضاها حتى ذلك الحين، بتنازل مني، دليلاً على الاعتراف بالبحار كمؤلف مشارك، وإنما نتيجة قرار إرادي وحر من كتب الكتاب. وهكذا تحولت حقوق المؤلف، منذ ذلك الحين، وتنازل مني أيضاً، كشرع إلى مؤسسة تعليمية.

لم يكن بإمكاننا العشور على قصة مثل تلك، لأنها لم تكن من القصص التي يمكن اختلاقها على الورق. فالحيطة هي التي تخلقها، وبصورة مفاجئة على الدوام. لقد أدركنا ذلك في ما بعد، عندما حاولنا كتابة سيرة حياة الدراج العظيم رامون هويوس، وكان قد توج في تلك السنة، بطلاً وطنياً للمرة الثالثة. أطلقنا الريورتاج بضجة دعائية كتلك التي تعلمناها من ريورتاج البحار، وأطلقنا، حتى تسعة عشر قصلاً، قبل أن ننتبه إلى أن الجمهور يفضل رؤية رامون هويوس يصعد جبالاً ويصل قبل غيره، إلى خط النهاية، ولكن في الحياة الواقعية.

وقد لحنا بارقة أمل مشيلة في مساء أحد الأيام، عندما اتصل بي سلغار، هاتلياً، لكي أذهب للقاء به فوراً في بار فندق كوتشيتشيتال.

وقد وجدته هناك، ومعه صديق قديم وجدي، كان قد انتهى للتو من تعريفه على مرافقه، وهو أمهق بالكامل، ويرتدي ملابس عامل. لشعره وحاجبيه لون شديد البياض إلى حد يبدو معه مبهراً، حتى في عتمة البار الخفيفة. وقد قدمه صديق سلغار، وهو رجل أعمال معروف، على أنه مهندس مناجم، يقوم بحفريات تنقيب في أرض خلاء، على بعد مئتي متر عن الاسبيكتادور. بحثاً عن كنز خرافي كان يملكه الجنرال سيمون بوليفار. وأكد لنا مرافقه - وهو صديق مقرب من سلغار، مثلما صار صديقاً لي منذ ذلك الحين - صحة القصة. لقد كانت القصة مريبة بسبب بساطتها؛ عندما كان بطل التحرير يستعد لمواصلة رحلته الأخيرة من كارتاخينا، مهزوماً ومحتضراً، يفترض أنه فضل ألا يحمل معه كنزه الشخصي الضخم الذي جمعه في عوز حروبه، كاحتياط يستحقه من أجل شبخوخة لائقة. وعندما كان يستعد لمواصلة رحلته المريبة - ولم يُعرف قط إذا ما كان يريد الذهاب إلى كاراكاس أم إلى أوروبا - ت عمد ترك ذلك الكنز مخبأ في بوغوتا، تحت حماية نظام رموز الشعوذة واسعة الشبوع في زمنه؛ لكي يجده عندما يحتاج إليه، ومن أي مكان في العالم. لقد تذكرت هذه الأخبار بلهفة لا تقاوم، بينما أنا أكتب "الجنرال في متاهته"، حيث يمكن لقصة الكنز أن تكون أساسية؛ ولكنني لم أتوصل إلى ما يكفي من المعلومات لكي أجعلها قابلة للتصديق، ويدت لي بالمقابل أنها هشة في التخيل الروائي. وكانت تلك الثروة الخرافية التي لم يستعدها صاحبها، هي ما يبحث عنه الباحث بجدٍ وصبر. لم أدر لماذا كشفنا لنا ذلك السر، إلى أن أوضح لي سلغار بأن صديقه المتأثر جداً بقصة الغريق، أراد أن يقدم لنا الحثيات والمقدمات،

لكي نواصل عملية البحث يوماً بيوم، إلى أن يصبح نشرها ممكناً يمثل ذلك الانتشار. ذهبنا إلى قطعة الأرض المعنية. وكانت الأرض الخلاء الوحيدة إلى الغرب من حديقة الصحفيين، وقريبة جداً من شقتي الجديدة. وقد شرح لنا الصديق، على خريطة من العهد الاستعماري، إحداثيات الكنز بتفاصيل حقيقية في رابتي مونتييسرات وغوادالوبي. لقد كانت القصة فائنة، وجائزتها ستكون خبراً متفجراً مثل خبر الناجي من الغرق، وبانتشار عالمي أوسع. واصلنا زيارة المكان بين حين وآخر، لكي نسقى مطلعين على ما يحدث. وكنا نستمع إلى المهندس طوال ساعات لانتهائية، ونحن نتناول الخمر الممزوج بالبيسون، ونشعر في مرة بأننا نبتعد أكثر فأكثر عن المعجزة، إلى أن مرَّ وقت طويل، لم يبق معه لدينا حتى مجرد الحلم، والارتباب الوحيد الذي خامرنا في ما بعد، هو أن قصة الكنز ليست سوى ستارة لاستغلال منجم مادة ثمينة ما، في وسط العاصمة. وربما تكون هذه الشكوك نفسها مجرد ستارة أخرى أيضاً، للحفاظ على سرية كنز بطل التحرير.

لم تكن تلك هي أفضل الأوقات للحلم. فقد تصحوني، منذ قصة الغريق، بأن أذهب إلى خارج كولومبيا لبعض الوقت، ريثما يهدأ الوضع بسبب التهديدات بالموت، الحقيقية أو التخيلية، التي كانت تصلنا عبر وسائل متعددة. وكان هذا هو أول ما فكرت فيه عندما سألتني لويس غابرييل كانو، دون مقدمات، عما أنوي عمله يوم الأربعاء القادم. وبما أنه لم يكن لدي أي مشروع محدد، فقد طلب مني بقتوره المعهود، أن

أحياناً أودّائي من أجل السفر، كمبعوث خاص من الجريدة، إلى مؤتمر الأربعة الكبار الذين سيجتمعون الأسبوع التالي في جنيف. ^{الاستقامة} أول ما فعلته هو الاتصال، هاتفياً، بأمي. بدا لها الخبر عظيماً، حتى إنها سألتني إذا ما كنت أعني مزروعاً ما تسمى "جنيف". فقلت لها: "إنها مدينة سويسرية". ودون أن تبدي تأثراً، بهدونها غير المحدود في استيعاب شطط أبتائها الذي لا يخطر على بال، سألتني إلى متى سأبقى هناك، فأجبتها بأنني سأعود بعد أسبوعين على أبعد تقدير. الحقيقة أنني كنت ذاهباً لأربعة أيام، هي المدة التي سيسغرقها الاجتماع، ومع ذلك، ولأسباب لا علاقة لها بإرادتي، لم أتاخر أسبوعين، وإنما قرابة ثلاث سنوات. وعندئذ صرت أنا هو من يحتاج إلى زورق تجديد صغير، ولو من أجل التمكن من الأكل مرة واحدة. ولكنني توخيت عدم إشعار أسرتي بذلك. لقد حاول أحد أصدقائي في إحدى المناسبات، أن يستشير أُمّي من خيانة ابنها الذي يعيش مثل أمير في باريس، بعد أن خدعها بالقول إنه لن يبقى هناك أكثر من أسبوعين. فقالت له باهتسامة بريئة: - غابيتو لا يخدع أحداً. وكل ما في الأمر أن الرب نفسه يضطر أحياناً إلى جعل الأسابيع سنين.

لم أكن قد أحسست قط، بأنني شخص مجهول الهوية، بصورة بالغة الواقعية، مثل ملايين المهجرين بفعل العنف. لم أكن قد شاركت بالتصويت في أي انتخابات، لأنني لا أملك بطاقة الهوية الشخصية. ففني بارتكياً، كنت أثبت شخصيتي ببطاقتي كمحرر في جريدة الهيرالدو، وكان تاريخ ميلادي فيها مزوراً، لكي أتهرب من الخدمة

العسكرية التي تخلّفت عنها منذ عدة سنوات. وكنت أثبت شخصيتي، في حالات الطوارئ، ببطاقة بريد قدمتها إليّ موظفة التلغراف في ثيباكيرا. وضعني صديق وفرته العناية الإلهية، على اتصال بمعقب معاملات في إحدى وكالات السفر، ووعد بأن يمكنني من الصعود إلى الطائرة في الموعد المحدد، على أن أدفع مقدماً مبلغ من مئتي دولار، وأن أضع توقيعي في ذيل عشر أوراق بيضاء مختومة. وهكذا عرفت، بالمصادفة، أن حسابي المصرفي قد بلغ رقماً مفاجئاً، لأنني لم أكن أجد الوقت للاتفاق، بسبب انشغالي في كتابة التحقيقات الصحفية. وكانت النفقات الوحيدة، فضلاً عن حاجاتي الشخصية التي لا تتجاوز نفقات طالب فقير، تقتصر على الدفعات الشهرية التي أرسلها كزورق نجاة صغير للأسرة.

عشية السفر، ردد معقب معاملات وكالة السفر، أمامي، اسم كل وثيقة وهو يضعها فوق المكتب، لكيلا أخلط بينها: بطاقة الهوية الشخصية، دفتر الخدمة العسكرية، إيصالات براءة الذمة من مكتب الضرائب، وثائق اللقاح ضد الجدري والحمى الصفراء، وطلب مني أخيراً، إكرامية خاصة لفتى هزيل أعطي له اللقاحان باسمي، مثلما كان يجري يومياً، منذ سنوات، تلقيح الزبائن المستعجلين.

سافرت إلى جنيف في الوقت المحدد لافتتاح مؤتمر إيزنهاور، وبولغانين، وإيدن، وفاور، دون معرفتي لأي لغة أخرى سوى الإسبانية، وبدفعة مالية من الجريدة تكفي للإقامة في فندق من الدرجة الثالثة. غير أنني كنت أستند جيداً إلى حسابي المصرفي الاحتياطي. كان مقدراً لي أن أعود بعد حوالي خمسة أسابيع، ولكنني لا أعرف ما هو الهاجس

الغريب الذي دفعتني إلى أن أوزع على الأصدقاء، كل ممتلكاتي في الشقة، بما في ذلك مكتبة سينمائية جيدة، كنت قد جمعتها على امتداد سنتين، بمساعدة من ألفارو سيبيدا ولويس فينيس.

جاء الشاعر خورخي غايثان دوران لوداعي، عندما كنت أُمزق أوراقاً لا لزوم لها، فدفعه الفضول إلى تفحص سلة المهملات، لعله يجد شيئاً ينفع للنشر في مجلته. أخرج ثلاث أو أربع ورقات ممزقة من منتصفها، وقرأها بسرعة خاطفة، بينما هو يعيد تركيب أجزائها على المنضدة. سألتني من أين أتت تلك الأوراق، وأجبتته بأنها "مونولوج إيزابيل وهي ترى هطول المطر في ماكوندو"، وأنتي قد حذفتها من المسودة الأولى لرواية عاصفة الأوراق. نبهته إلى أنها قد نُشرت سابقاً في كرونিকা وفي ملحق "مغازين الأحد" في الاسبيكتادور، بالعنوان نفسه الذي اخترته أنا، ويتفويض لا أتذكر أنني قدمته على عجل في مصعد ما. لم يهتم غايثان دوران بكل ذلك، ونشرها في العدد التالي من مجلة "ميتو".

الوداع في بيت غييرمو كانو، عشية سفري، كان صاخباً إلى حد أنني لم أصل إلى المطار إلا بعد مغادرة الطائرة الموجهة إلى كارتاخينا، حيث سأقضي تلك الليلة كي أودع الأسرة. ولكنني لحقت لحسن الحظ، بطائرة أخرى عند الظهيرة، وقد أحسنت صنعاً، لأن توتر الجو المنزلي قد تراخى عما كان عليه في المرة الأخيرة، وكان أبواي وأخوتي يشعرون بأنهم قادرون على العيش دون زورق النجاة الذي سأكون بحاجة إليه، أكثر منهم، في أوروبا. سافرتُ إلى بارتكيا براً، في اليوم التالي، منذ الصباح الباكر،

لكي ألحق بالطائرة المغادرة إلى باريس، في الساعة الثانية بعد الظهر. وفي محطة حافلات كارتاخينا، التقيت بلاثيديس، بواب "تاطحة السحاب" الذي لا يُنسى، ولم أكن قد رأيته منذ تلك الأيام. اندفع نحوني في عناق حقيقي، وبعينين ممتلئتين بالدموع، دون أن يدري ما يقول، أو كيف يعاملني. وبعد تبادل عبارات مستعجلة، لأن حافلته قد جاءت، وحافلتني تشرف على الانطلاق، قال لي بحماسة أصابت أعماق روحي: - ما لا أفهمه يا دون غابرييل، هو لماذا لم تخبرني من تكون، فأجبت، وأنا أكثر تألماً منه:

- آه يا عزيزي لاثيديس، لم أكن قادراً على أن أخبرك، لأنني أنا نفسي ما زلت حتى اليوم لا أعرف من أكون. بعد ساعات، بينما أنا في سيارة الأجرة التي أقلتني إلى مطار بارانكيا، تحت السماء الجاحدة، والأكثر شفاقية من أي سماء أخرى في العالم، انتهت فجأة إلى أنني في جادة العشرين من تموز، وبحركة لا شعورية، صارت جزءاً من حياتي منذ نحو خمس سنوات، نظرتُ باتجاه بيت ميرثيديس بارتشا. وهناك كانت هي، تجلس أمام البوابة مثل تمثال، نحيلة ونائية، دقيقة في مجازاة أزياء السنة، بثوب أخضر موشى بتطريزات مذهبة، والشعر مقصوص على شكل أجنحة السنونو وبالهدوء المتوتر لمن ينتظر أحداً لن يأتي. لم أستطع تفادي صوت مدور في داخلي، بأنني سأفقدُها إلى الأبد، في ساعة مبكرة من يوم خميس تموزي؛ ففكرتُ للحظة بإيقاف سيارة التاكسي كي أودعها، ولكنني فضلت ألا أتحدى، مرة أخرى، قدراً شديداً الالتباس والنيات مثل قدرتي. بقيتُ أعاني، في الطائرة المحلقة، آلام الغص والندم. وكانت ما

تزال شائعة آنذاك، العادة الحميدة بوضع شيء، على ظهر كل مقعد، يُسمى بغنائية طبية: "أدوات كتابة"، مكونة من أوراق رسائل صغيرة ذات حواش مذهبة، ومغلف من الورق نفسه، بلون وردي، أو سكري، أو أزرق، ومعطر في بعض الأحيان. كنتُ أستخدم تلك الأوراق، في رحلاتي القليلة السابقة، لكتابة قصائد وداع أحولها إلى طيارات ورقية، وأقذف بها لتطير متهادية عند نزولي من الطائرة. اخترت ورقة زرقاء سماوية، وكتبت أول رسالة رسمية موجهة إلى ميرثيديس، الجالسة عند بوابة بيتها في الساعة صباحاً، بفستان عروس أخضر، وبشعر على شكل سنونوة غير مؤكدة؛ حتى إنني لم أفكر من أجل من ارتدت تلك الملابس، منذ الصباح. كنت قد كتبت إليها من قبل، ملاحظات مداعبة أخرى، ارتجلها كيفما اتفق، ولا أتلقى على الدوام، عندما نلتقي مصادفة، سوى إجابات شفوية ومتهرية. لم يكن ما كتبتُه أكثر من خمسة سطور، لأطلعها رسمياً على خبر سفري. ومع ذلك، فقد أضفت في نهايتها ملاحظة أبهرتني مثل وميض برق في الظهيرة، في لحظة التوقيع: "إذا لم أتلّق جواباً على هذه الرسالة، قبل مرور شهر، فسوف أبقى لأعيش في أوروبا إلى الأبد". لم أكد أتيح لنفسي الوقت للتفكير في الأمر مرة أخرى، قبل أن ألقى الرسالة، في الساعة الثانية فجراً، في صندوق بريد مطار موتيو باي. وكان يوم الجمعة قد حلّ. وفي يوم الخميس من الأسبوع التالي، عندما دخلتُ إلى الفندق في جنيف، بعد جولة أخرى غير مجدية من عدم الوفاق الدولي، وجدت الرسالة الجوابية.